ALL
4-92

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 007223306

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

JUN 15 2000
DUE JUN 15, 1994
DUE JUN 15, 1997
DUE JUN 15 1996
DUE JUN 15, 1995
JUN 15 2001
DUE JUN 15 1998

al-Samhūdī

وفاء الوفا

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين على بن أحمد ، المصرى ، السمهودى ، نزيل دار الهجرة

المتوفى فى عام ٩١١ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

الجزء الأول

2274
.803
.394
.11
juz 1-2

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يكافئ موفور نعمته ، والشكر له سبحانه على سوابغ فضله وعظيم مِنّته ، وصلاة الله وسلامه على سيد وَلَدِ آدم ومُصطفاه من بَرِيّتِهِ ، محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، وعلى آله وصحبه وعترته .

أما بعد ، فهذا ثانى ثلاثة كتب صنفها الشيخ العلامة نور الدين على بن أحمد السمهودى ، المصرى ، نزيل المدينة المنورة ، المتوفى فى عام ٩١١ من الهجرة ، وموضوع الكتب الثلاثة واحد :

أولها : كتاب مُفصَّل ذكر فيه ما أمكنه الوقوف عليه من تواريخ المدينة المنورة ، وما عاينه من أمور لم يظفر بها أحد من مؤرخيها ، وسلك فيه « طريقة الاستيعاب ، وجمع ما افترق من معانى تلك الأبواب ، وتلخيص مقاصد جميع تواريخ المدينة التى وقف عليها ، وإضافة ما اقتضى الحالُ أن يضاف إليها » وهو يسمى هذا الكتاب فى مطلع الكتاب الثانى « اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » وكذلك يسميه صاحب شذرات الذهب ، ولكن حاجى خليفة يسميه « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » والمؤلف نفسه يسميه فى ثنايا كتابه الثانى وفى مطلع الثالث « الوفا » . ولم يظفر هذا الكتاب بالإتمام فضلاً عن الظهور والتداول ، فقد كان المؤلف تركه فى المسجد النبوى وسافر إلى مكة المكرمة فاحترق الكتاب فيما احترق بحريق أماكن من المسجد الشريف .

وثانيها : كتاب وَسِيطٌ صنفه استجابة لمن « طاعته غُنْم ، ومخالفته غُرم » وقصد به أن يختصر كتابه الأول « مع توسط غير مُفْرط » و« مع ما رأى فى ذلك من الإتحاف بأمورٍ لا توجدُ فى غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ، سيما فيما يتعلق بأخبار الحجرة الشريفة ، ومعالمها المنيفة ، فقد استفادَ ذلك عِياناً ،

وعلم أخبارها إيقانا ، بسبب ما حدث فى زمانه من العمارة ؛ لاشتمالها على تجديد ما كاد أن يَهِيَ فى الحجرة الشريفة من الأركان ، وإحكام ما أحاط بها من البنيان ، وتشرفه بالخدمة فى إعادة بنيانها ، وحُظْوَتِهِ بالوقوف على عرصَتِها ، وتَمَتُّعه بانتشاق تربتها » .

وهذا الكتاب هو الذى نقدمه بين يدى القارئ ، واسمه « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » بعد تحقيق أصله ، وتفصيله ، وضبط غرائبه ، والتعليق عليه تعليقا وجيزا يبين ما لا بد للقارئ المتوسط من معرفته من شرح كلمة غريبة أو بيان موضع أصبح اسمه فى ذمة التاريخ ، أو إشارة إلى خطأ وقع فى الأصول التى اعتمدناها فى إخراج هذا الكتاب ، أو نحو ذلك مما يعرض لنا .

وثالثها : كتاب مختصر « فى نحو نصف وفاء الوفا ، مع جمع مقاصده وتحسين وصفه » واسم هذا الكتاب « خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى » .

وقد طبع الكتابان الثانى — وهو هذا — والثالث ، مراراً ، طبعا غير مُفَصَّل ولا مضبوط ، وذلك شأن الوراقين فى كل ما كانوا ينشرونه من كتب العلم والأدب والتاريخ ، ولما أراد الشيخ محمد النمنكانى نزيل المدينة المنورة والكتبى بها أن يعيد طبع كتاب « الوفا » رغبَ إلىّ فى تحقيقه وتفصيله ، وصادف ذلك منى رغبة خالصة لوجه الله تعالى ، رجاء أن يتقبل سبحانه هذا العمل الذى أحببت أن أتقرب به إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقمت بضبط غرائبه ، وتفصيل عباراته بوضع علامات الترقيم الحديثة ، ووضع عَنَاوِينَ مُوجَزَة على هامش النسخة ، والله سبحانه المرجُوُّ أن يجعل هذا العمل فى سجل الحسنات ، وأن ينفع به النَّفعَ المرغوبَ فيه ، إنه ولى ذلك كله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

كتبه أبو رجاء ، المعتز بالله تعالى

محمد محيى الدين عبد الحميد

عن مصر الجديدة فى

سلخ جمادى الأولى سنة ١٣٧٤
الموافق ٢٣ من يناير ١٩٥٥

2274
.803
.394
.11

ترجمة مؤلف الكتاب

الشيخ العلامة على بن أحمد السمهودى ، رحمه الله !

(١) هو الإمام ، القدوة ، الحجة ، المفنن ، نور الدين ، أبو الحسن على بن القاضى عفيف الدين عبد الله ، بن أحمد بن على بن عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ابن عيسى بن جلال الدين أبى العلياء بن أبى الفضل جعفر بن على بن أبى الطاهر ابن الحسن بن أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن حسن بن محمد بن إسحاق ابن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن الأكبر بن على بن أبى طالب ، الحَسَنِىُّ ، ويعرف بالسمهودى . نزيل المدينة المنورة ، وعالمها ، ومفتيها ، ومدرسها ، ومؤرخها ، الشافعى .

(٢) وُلد فى صفر الخير من سنة ٨٤٤ أربع وأربعين وثمانمائة ، فى سمهود ، ونشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم ، والمنهاج الفرعى ، وكتبا ، ولازم والده حتى قرأ عليه المنهاج بَحْثًا مع شرحه لجلال الدين المحلى ، وشرح البهجة ، وجمع الجوامع ، وسمع عليه بعض كتب الحديث ، وقدم القاهرة معه غير مرة ، ولازَمَ الشمس الجوجرى فى الفقه وأصوله والعربية ، وقرأ على الجلال المحلى بعض شرحَيْه على المنهاج وجمع الجوامع ، ولازم الشريف المناوى وقرأ عليه الكثير ، وألبسه خرقة التصوف ، وقرأ على النجم بن قاضى عجلون تصحيحه للمنهاج ، وعلى الشيخ زكريا فى الفقه والفرائض ، وعلى السعد الديرى وأذن له فى التدريس هو واليامى والجوجرى ، وقرأ على مَنْ لا يُحْصَى مالا يُحْصَى ، وكان على خير كثير .

(٣) قطن بالمدينة المنورة من سنة ثلاث وسبعين ، ولازم فيها الشهاب الأبشيطى ، وقرأ عليه تصانيفه وغيرها ، وأذن له فى التدريس ، وأكثر من السماع هناك على أبى الفرج المراغى ، وسمع بمكة من كمالية بنت النجم المرجانى وشقيقها الكمال ، والنجم عمر بن فهد ، فى آخرين .

(٤) انتفع به جماعة الطلبة فى الحرمين الشريفين ، وألَّفَ عدة تآليف ، منها « جواهر العقدين ، فى فضل الشرفين » ومنها كتاب « اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » الذى ذكرناه فى التصدير ، و بينا أنه احترق قبل تمامه ، ومنها « الوفا ، بأخبار دار المصطفى » وهو الكتاب الذى نعانى إخراجه اليوم ، ومنها «خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى» ومنها حاشية على الإيضاح فى مناسك الحج للامام النووى سماها « الإفصاح » ومنها حاشية على الروضة فى فقه الشافعى سماها «أمنية المعتنين ، بروضة الطالبين» وصل فيها إلى باب الربا ، وجمع فتاويه فى مجلد ، وحصل كتبا نفيسة احترقت كلها وهو بمكة فى سنة ست وثمانين .

(٥) زار بيت المقدس ثم عاد إلى المدينة المنورة مستوطنا ، وتزوج بها عدة زوجات ، ثم اقتصر على السَّرَارى ، ومَلكَ الدور ، وعَمرَهَا .

(٦) قال الحافظ السخاوى : قلَّ أن يكون أحد من أهل المدينة لم يقرأ عليه

(٧) وفى الجملة هو إمام مفنن ، متميز فى الأصلين والفقه ، مديم دراسة العلم والتأليف ، متوجه للعبادة والمباحثة والمناظرة ، قوىّ الجَلادَة ، قوىّ اليقين .

(٨) توفى بالمدينة المنورة يوم الخميس ثامن عشر ذى القعدة من عام أحد عشر وتسعمائة من الهجرة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأسبغ عليه ذيول فضله وكرمه ، آمين .

انظر شذرات الذهب ٨ / ٥٠ والضوء اللامع ٥ / ٢٤٥ .

فهرس الجزء الأول

من كتاب «وفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى»

لنور الدين على بن أحمد السمهودى المتوفى فى عام ٩١١ ﻫ

ص	الموضوع
١	خطبة المؤلف
٢	ثبت الكتاب
٨	الباب الأول فى ذكر أسماء هذه البلدة الشريفة
٢٨	الباب الثانى فى فضائلها، وبدء شأنها، وما يئول إليه أمرها، وفيه ستة عشر فصلا
٢٨	الفصل الأول، فى تفضيلها على غيرها من البلاد
٣٩	الفصل الثانى، فى الحث على الإقامة بها، والصبر على لأوائها وشدتها، وكونها تنفى الخبث والذنوب، ووعيد من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حدثاً
٤٧	الفصل الثالث، فى الحث على حفظ أهلها وإكرامهم والتحريض على الموت بها، واتخاذ الأصل
٥٢	الفصل الرابع، فى بعض دعاء الرسول (ص) لها ولأهلها، وما كان بها من الوباء، ونقله عنها
٦١	الفصل الخامس، فى عصمتها من الدجال والطاعون
٦٧	الفصل السادس، فى الاستشفاء بترابها، وبتمرها
٧٣	الفصل السابع، فى سرد خصائصها التى لا تنحصر
٨٩	الفصل الثامن، فى الأحاديث الواردة فى تحريمها
٩٢	الفصل التاسع فى بيان جبلها عير وثور
٩٦	الفصل العاشر، فى ذكر أحاديث تقتضى زيادة حرم المدينة على التحديد المشهور.
٩٨	الفصل الحادى عشر، فى بيان ما فى الأحاديث المذكورة من الألفاظ المتعلقة بالتحديد، وذكر من ذهب إلى مقتضاها من العلماء
١٠٣	الفصل الثانى عشر، فى حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم
١٠٥	الفصل الثالث عشر، فى أحكام هذا الحرم، وفيه مسائل:
—	المسألة الأولى، القول فى تحريم الصيد وقطع الشجر
١١٠	المسألة الثانية، فى بيان ما يستثنى مما يحرم
١١٢	المسألة الثالثة، فى أخذ شىء من ذلك للدواء
١١٣	المسألة الرابعة، دية القتل الخطأ فى المدينة مغلظة
١١٣	المسألة الخامسة، حكم لقطة حرم المدينة
١١٣	المسألة السادسة فى حكم المقاتلة فى حرم المدينة
١١٤	المسألة السابعة، حكم الاستنجاء بحجارة الحرم
—	المسألة الثامنة، حكم نقل تراب الحرم المدنى

ص	الموضوع
١١٨	الفصل الرابع عشر ، فى ذكر بدء شأنها وما يئول إليه أمرها
١٢٢	الفصل الخامس عشر ، فى ذكر وقوع ما أخبر به النبى (ص) من خروج أهلها وتركها ، وذكر واقعة الحرة المقتضية لذلك
١٣٩	الفصل السادس عشر ، فى ظهور نار الحجاز التى أنذربها النبى (ص) فظهرت بأرض المدينة وأطفأها الله عند وصولها إلى حرمها
١٥٦	الباب الثالث ، فى أخبار سكانها فى سالف الزمان ، ومقدم النبى (ص) إليها ، وما كان من أمره بها فى سنى الهجرة ، وفيه اثنا عشر فصلا
—	الفصل الأول ، فى سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر فى سبب نزول اليهود بها ، وبيان منازلهم
١٦٦	الفصل الثانى ، فى سبب سكنى الأنصار بها
١٧٣	الفصل الثالث ، فى نسب الأنصار
١٧٧	الفصل الرابع ، فى تمكنهم بالمدينة وظهورهم على اليهود ، وما اتفق لهم مع تبع
١٩٠	الفصل الخامس ، فى منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود ، وشىء من آطامهم
٢١٥	الفصل السادس ، فيما كان بينهم من حرب بعاث
٢٢٠	الفصل السابع ، فى مبدأ إكرام الله تعالى لهم بالنبى (ص) وحديث العقبة الصغرى

ص	الموضوع
٢٢٨	الفصل الثامن ، فى حديث العقبة الكبرى
٢٣٥	الفصل التاسع ، فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها
٢٤٤	الفصل العاشر ، فى دخول النبى (ص) إلى المدينة ، وتأسيسه مسجد قباء
٢٥٤	الفصل الحادى عشر ، فى قدوم النبى (ص) باطن المدينة ، وسكناه بدار أبى أيوب الأنصارى
٢٧٠	الفصل الثانى عشر ، فيما كان من أمره (ص) بها فى سنى الهجرة إلى انتقاله للرفيق الأعلى ، مختصراً ، مرتباً على السنين
—	السنة الأولى : بناء المسجد النبوى موت أسعد بن زرارة ـ وموت البراء بن معرور ـ الزيادة فى صلاة الحضر ـ وعك المهاجرين ودعاؤه (ص) بنقل وبائها ـ مولد عبدالله بن الزبير ـ أول راية عقدت فى الإسلام ـ زواجه (ص) بعائشة ، وعقده على سودة بنت زمعة ـ إسلام عبدالله بن سلام
٢٧٤	السنة الثانية من الهجرة : صوم عاشوراء ـ زواج على بفاطمة ـ غزوة الأبواء (ودان) التوجه إلى الكعبة ـ غزو بنى قينقاع ـ غزوة السويق
٢٧٩	السنة الثالثة من الهجرة : مقتل كعب بن الأشرف ، غزوة الكدر ، غزوة أنمار ، غزوة ذى أمر ، سرية القردة ، غزوة أحد ، مقتل

ص	الموضوع
	أبي بن خلف ، أبو عزة الجمحى ومقتله ، تحريم الخمر
٢٩٦	السنة الرابعة من الهجرة: بئر معونة ، غزوة الرجيع ، غزو بنى النضير ، زواج أم سلمة ، غزوة ذات الرقاع
٣٠٠	السنة الخامسة من الهجرة : غزوة الخندق ، إسلام نعيم بن مسعود ، غزوة بنى قريظة
٣١٠	السنة السادسة من الهجرة : غزوة ذى قرد ، قصة العرنيين ،غزوة بنى المصطلق (المريسيع) فرض الحج
٣١٥	السنة السابعة من الهجرة : زواج صفية بنت حي
٣١٦	السنة الثامنة من الهجرة: غزوة مؤتة
—	السنة التاسعة من الهجرة : هجر النبي (ص) نساءه ، تتابع الوفود ، حج أبي بكر بالمسلمين ، نزول براءة، غزوة تبوك
٣١٧	السنة العاشرة من الهجرة : قدوم وفد طيء ، مرضه (ص) فى بيت ميمونة أو زينب بنت جحش
٣٢٢	الباب الثالث : فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم ، والحجرات المنيفات ، وما كان مطيفاً به من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلا :
٣٢٢	الفصل الأول ، فى أخذه (ص) لموضع مسجده ، وكيفية بنائه
٣٣٩	زيادة النبي (ص) بعد أن فتح الله عليه خيبر فى مسجده
٣٤٠	الفصل الثانى : فى ذرع المسجد النبوى وحدوده التى يتميز بها عن سائر المسجد اليوم
٣٥٩	الفصل الثالث ، فى المقام الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يقوم به فى الصلاة : قبل تحويل القبلة ، وبعد ما جاء فى تحويلها
٣٦٢	تاريخ تحويل القبلة
—	مدة الصلاة إلى بيت المقدس
٣٦٤	أول صلاة صليت إلى الكعبة
—	إلى أى جهة كانت الصلاة بمكة قبل الهجرة ؟
٣٦٥	كيف حررت قبلة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم
٣٧٠	محراب المسجد النبوى، ومتى صنع ؟
٣٨٠	العود الذى كان فى المصلى الشريف
٣٨٣	هل كان مصلى النبى (ص) على عين القبلة أو على جهتها ؟
٣٨٤	خاتمة الجزء الأول

وقد تمت فهرست الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفا » للعلامة السمهودى ، والحمد لله تعالى فى مبدأ أمورنا كلها وفى خواتيمها ، ونسأله جلت قدرته ـ أن يوفق لإكماله ، وأن يسدد خطانا ، ويجعلنا بفضله من المقبولين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وصلى الله على سيدِنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه .

خطبة المؤلف

(أما بَعْدَ) حَمْدِ الله على آلائه[1] ، والصلاةِ والسلامِ على سيدِنا محمدٍ أشرفِ أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفيائه ؛ فقد سألنى مَنْ طاعتُـه غُنْم ، ومخالفته غُرْم ، أن أختصر تأليفى المسمى بـ «اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى» ـ صلى الله عليه وسلم ! وزاده شرفا وفضلا لديه ! ـ اختصاراً مع توسطٍ غير مُفْرِط ، هذا مع كونه بعدُ لم يقدَّر إتمامه بتكامل أقسامه ؛ لسلوكى فيه طريقةَ الاستيعابِ ، وجَمْعِ ما افترق من معانى تلك الأبواب ، وتلخيصِ مقاصـدِ جميع تواريخ المدينة التى وقفتُ عليها ، وإضافةِ ما اقتضى الحالُ أن يضاف إليها ، مع عُرُوضِ الموانع ، وترادف الشواغل والقواطع ، فأجبته إلى سؤاله ؛ لمـا رأيت من شَغَفِه[2] بذلك وإقباله ؛ مع ما رأيت فى ذلك من الإتحاف بأمور لا توجد فى غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ، سيما فيما يتعلق بأخبار الُحجْرَةِ الشريفة ، ومعالمها المنيفة ، فإنى قد استفدته عِياناً ، وعلمت أخبارها إيقانا ، بسبب ما حدث فى زماننا من العمارة التى سنشير إليها ، ونقف فى محلها عليها ؛ لاشتمالها على تجديد ما كاد أن يَهِىَ[3] فى الحجرة الشريفـة من الأركان ، وإحـكام ما أحاط بهـا من البنيان . وتشرفت بالخدمة فى إعادة بنيانها ، وتجنَّبت شُهُودَ نَقْض أركانها ، وَحَظِيتُ بالوقوف على عرصَتها ، وتمتعت بانتشاق[4] تُرْبتها ، ونعمت العين بالا كتحال

(١) الآلاء : النعم ، واحدها إلى ، بوزن رضا ، ومعنى الإلى : النعمة .

(٢) الشغف ـ بالتحريك ـ المحبة التى تخالط شغاف القلب .

(٣) وهى يهى ـ بوزن وعى يعى ـ ومعناه : سقط . (٤) انتشق التربة : شمها .

بأرضها الشريفة ، ومحالّ الأجساد المنيفة ، فامتلأ القلب حياء ومهابة ، واكتسى من ثياب الذال أثوابه ، هذا وقد جُبِلت القلوب[1] على الشغف بأخبار هذا المحل وأحواله ، كما هو دأب كل محب مغرم وَالِهٍ[2] ، ولله در القائل :

أَمْلِيانى حديثَ مَنْ سكن الجزْ ع ولا تَكْتُباه إلا بِدَمْعِى
فَاتَنِى أن أرى الدِّيارَ بِطَرْفى فَلَعَلِّى أرى الديار بسَمْعِى

ولعمرى إن الاعتناء بذاك وضَبْطه وإفادته من مهمات الدين ، وإن النظر فيه مما يزيد فى الإيمان واليقين ؛ لما فيه من معرفة مَعَاهد دار الإيمان ، ونَشْر أعلامها المُرْغِمة للشيطان ، وتذكر آياتها الواضحة التبيان ، والمرجُوُّ من الله تعالى أن يكون كتابُنا هذا تحفة لمُحِبِّى دار الأبرار ، ومَنْ سكن بها من الأخيار ، ووفَد عليها من الوُفَّاد ، وقد بذلت الجهد فى تهذيبه وتقريبه ، رجاء دعوة تَمْحُو الأوزار[3] ، وتُقيل العِثار ، ونظرة قبول من المصطفى المختار ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأخيار ! .

وسميته « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » صلى الله عليه وسلم ، وشرف وعظم !

ورتبته على أبواب :

أبواب الكتاب

الباب الأول : فى أسماء هذه البلدة الشريفة .

الباب الثانى : فى فضائلها ، وبَدْء شأنها ، وما يؤُول إليه أمرها ، وما يتعلق بذلك ، وفيه ستة عشر فصلا : الأول : فى تفضيلها على غيرها من البلاد ، الثانى : فى الحثّ على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها[4] وشدتها ، وكونها تَنْفِى الخَبَث

---

(١) جبلت القلوب : فطرت وطبعت ، يريد أن ذلك طبيعتها وجبلتها وفطرتها التى فطرها الله تعالى عليها .

(٢) الواله : الذى اشتد حبه حتى قارب الجنون .

(٣) الأوزار : الذنوب ، واحدها وزر ، بكسر الواو وسكون الزاى .

(٤) اللأواء : الشدة ؛ فعطف الشدة عليه عطف تفسير .

والذنوب ، ووَعيدِ من أرادها وأهْلَهَا بسوء أوأحدث بها حدَثاً أو آوى مُحْدِثاً ، الثالث : فى الحثّ على حفظ أهلها وإكرامهم ، والتحريض على الموت بها ، واتخاذ الأصل(١) ، الرابع : فى بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان بها من الوَبَاء ، ودعائه بنقْله ، الخامس : فى عصمتها من الدجّال والطاعون ، السادس : فى الاستشفاء بترابها وتمرها ، السابع : فى سَرْدِ خصائصها ، الثامن : فى صحيح ماورد فى تحريمها ، التاسع : فى بيان عَيْر وثَوْر اللذين وقع تحديدُ الحرمِ بهما ، العاشر : فى أحاديث أُخَرَ تقتضى زيادة الحرم على ذلك التحديد وأنه مقدر ببريد ، الحادى عشر : فى بيان مافى هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ، ومن ذهب إلى مقتضاها ، الثانى عشر : فى حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم ، الثالث عشر : فى أحكام هذا الحرم الكريم ، الرابع عشر : فى بدء شأنها ، وما يؤول إليه أمرها ، الخامس عشر : فيما ذكر من وقوع ما ورد من خروج أهلها وتركهم لها ، السادس عشر : فى ظهور نار الحجاز التى أنذر بها النبى صلى الله عليه وسلم فظهرت من أرضها ، وانطفائها عند وصولها إلى حرمها .

الباب الثالث : فى أخبار سكانها فى سالف الزمان ، ومَقْدَمِه صلى الله عليه وسلم إليها ، وما كان من أمره بها فى سِنِي الهجرة ، وفيه اثنا عشر فصلا : الأول: فى سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر فى سبب سكنى اليهود بها ، و بيان منازلهم ، الثانى : فى سبب سكنى الأنصار بها ، الثالث : فى نسبهم ، الرابع : فى ظهورهم على اليهود ، وما اتفق لهم مع تُبَّع ، الخامس : فى منازلهم بعد إذلال اليهود ، وشيء

---

(١) المراد بالأصل هنا المال ، وسيأتى تعليله بأن المال يحمل الإنسان على البقاء ؛ فكأن المقصود من اتخاذ الأصل الإقامة الدائمة بها .

من آطامهم [١] وحروبهم ، السادس : فى ما كان بينهم من حرب بُعَاث ، السابع : فى مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبى الكريم ، وذكر العَقَبة الصغرى ، الثامن : فى العقبة الكبرى وما أفْضَتْ إليه [٢] ، التاسع : فى مبدأ هجرته صلى الله عليه وسلم ، العاشر : فى دخوله صلى الله عليه وسلم أرضَ المدينة وتأسيس مسجد قُباء ، الحادى عشر : فى قدومه باطن المدينة المنيفة ، وسكناه بدار أبى أيوب الأنصارى ، وخبر هذه الدار ، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، الثانى عشر : فى ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم بها فى سنين الهجرة [٣] .

الباب الرابع : فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم ، والحُجُرات المنيفات ، وما كان مُطِيفاً بها من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلا : الأول : فى أخذه صلى الله عليه وسلم لموضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه ، الثانى : فى ذَرْعِهِ وحدوده التى يتميز بها عن سائر مسجده اليوم ، الثالث : فى مَقَامِهِ الذى كان يقوم به قبل تحويل القبلة وبعده ، وما جاء فى تحويلها ، الرابع : فى خبر الجِذْع ، واتخاذ المنبر ، وما اتفق فيه ، الخامس : فى فضل المسجد الشريف ، السادس : فى فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة ، السابع : فى الأساطين [٤] المنيفة ، الثامن : فى الصُّفَّة وأهلها ، وتعليق الأقناء [٥] لهم بالمسجد ، التاسع : فى حُجَره صلى الله عليه وسلم ، وبيان إحاطتها بمسجده إلا من جهة المغرب ، العاشر : فى حجرة ابنته فاطمة رضى الله عنها ، الحادى عشر : فى الأمر بسَدِّ الأبواب ، وبيان ما استثنى من ذلك ، الثانى عشر : فى زيادة عمر رضى الله عنه فى المسجد ، الثالث عَشَرَ : فى البطيحاء التى بناها

---

(١) الآطام : الحصون ، واحدها أطم ، بضم الهمزة والطاء جميعا ، ووزانه عنق وأعناق .

(٢) أفضت إليه : آلت إليه ، يريد آثارها التى ترتبت عليها .

(٣) كذا ، والفصيح « فى سنى الهجرة » .

(٤) الأساطين : جمع أسطوانة ، والمراد الأعمدة . (٥) الأقناء : جمع قنو .

بناحيته ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، الرابع عشر : فى زيادة عثمان رضى الله عنه ، الخامس عشر : فى المقصورة التى اتخذها به ، السادس عشر : فى زيادة الوليد على يد عمر بن عبد العزيز ، السابع عشر : فيما اتخذه عمر فيها من المحراب والشرُفات والمَنَارات والحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه ، الثامن عشر : فى زيادة المهدى ، التاسع عشر : فيما كانت عليه الحجرة المنيفة الحاوية للقبور الشريفة فى مبدأ الأمر ، العشرون : فى عمارتها بعد ذلك ، والحائز[1] الذى أدير عليها ، الحادى والعشرون : فيما روى فى صفة القبور الشريفة بها ، وأنه بقى هناك موضع قبر لعيسى عليه الصلاة والسلام ، وتنزل الملائكة حافّينَ بالقبر الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به ، الثانى والعشرون : فيما ذكر من صفتها وصفة الحائز الدائر عليها ، وما شاهدناه مما يخالف ذلك ، الثالث والعشرون : فى عمارة اتفقت بها بعد ما تقدم ، على ما نقله بعضهم ، وما نقل من الدخول إليها وتأزيرها بالرخام ، الرابع والعشرون : فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الكريم والمسمار الفضة المواجه للوجه الشريف ، ومقام جبريل عليه السلام ، وكسوة الحجرة وتَحْليتها ، الخامس والعشرون : فى قناديلها ومعاليقها ، السادس والعشرون : فى الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المُحْدَثة بها وبالمسجد وسقفها وما أعيد من ذلك ، السابع والعشرون : فى اتخاذ القُبّة الزرقاء تمييزاً للحجرة الشريفة والمقصورة الدائرة عليها ، الثامن والعشرون : فى عمارتها المتجددة فى زماننا ، على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل من إزالة هَدْم الحريق من ذلك والمحل الشريف ، ومَشَاهد وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة ، التاسع والعشرون : فى الحريق الحادث فى زماننا بعد العمارة السابقة ، وما ترتب عليه ألحقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه فى الفصول ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مُسَوَّدة كتابنا هذا ، وفى آخره خاتمة فيما نقل من عَمَل نور الدين الشهيد

---

(١) الحائز : المراد به جدار يحيط بالحجرة .

لخندق مملوء من الرَّصاص حَوْلَ الحجرة ، الثلاثون : فى تحصيب المسجد[١] ، وأمر البزاق فيه ، وتَخْليقه[٢] ، وإجماره ، وشىء من أحكامه ، الحادى والثلاثون : فيما احتوى عليه من الأرْوقَة والأساطين والبلوعات والسقايات والحواصل ، وغير ذلك ، الثانى والثلاثون : فى أبوابه وخوخاته ، وما يميزها من الدور المحاذية لهـا ، الثالث والثلاثون : فى خوخة آل عمر رضى الله عنـه ، الرابع والثلاثون : فيما كان مطيفاً به من الدور ، الخامس والثلاثون : فى البـلاط وما حوله من منازل المهاجرين ، السادس والثلاثون : فى سوق المدينـة ، السابع والثلاثون : فى منازل القبائل من المهاجرين ، وما حدث من اتخاذ السور .

الباب الخامس : فى مُصَلى النبى صلى الله عليه وسلم فى الأعياد ، وغير ذلك من مساجد المدينة التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم أو جلس مما علمتُ عَيْنَه أوجِهَته ، وفضل مقابرها ، ومن سمى ممن دفن بها ، وفضل أُحُدٍ والشهداء به ، وفيـه سبعة فصول : الأول : فى مُصَلّى الأعياد ، الثانى : فى مسجد قباء ، وخبر مسجد الضِّرَار ، الثالث : فى بقية المساجد المعلومة العين فى زماننا ، الرابع : فيما علمت جهته من ذلك ، ولم يعلم عينه ، الخامس : فى فضـل مقابرها ، السادس : فى تعيين بعض من دفن بالبقيع من الصحابة وأهل البيت رضـوان الله عليهم ، والمَشَاهد المعروفة بها ، السابع : فى فضل أُحُدٍ والشهداء به .

الباب السادس : فى آبارها المباركات ، والعين والغراس والصـدقات ، التى هى للنبى صلى الله عليه وسلم منسوبات ، وما يُعْزَى إليه[٣] من المساجد التى صلى فيها فى الأسفار والغزوات ، وفيه خمسة فصول : الأول : فى الآبار المباركات ، وفيـه تتمة فى العين المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسـلم ، والعين الموجودة فى زماننا ، الثانى : فى صدقاته صلى الله عليه وسلم وما غرَسَه بيده الشريفة ، الثالث : فيما

---

(١) تحصيب المسجد : فرشه بالحصباء ، وهى صغار الحصى .

(٢) تخليقه : أى مسه بالخلوق ـ بفتح الخاء ـ وهو ضرب من الطيب ، والمراد تطييب المسجد ، والمراد بإجماره تبخيره .

(٣) يعزى : ينسب .

ينسب إليه من المساجد التى بين مكة وَالمدينة بالطريق التى كان يسلكها صلى الله عليه وسلم ، الرابع : فى بقية المساجد التى بينهما بطريق ركب الحاج فى زماننا ، وطريق المشيان[١] ، وماقرب من ذلك ، الخامس : فى بقية المساجد المتعلقة بغزَوَاته وعُمَرِه صلى الله عليه وسلم .

الباب السابع : فى أوْدِيَتِهَا وأحْمَائها[٢] وبِقَاعها وجبالها وأعمالها ومضافاتها ، ومشهور ما فى ذلك من المياه والأودية ، وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك ، وفيه ثمانية فصول : الأول : فى فضل وادى العَقِيقِ وَعرْصَته وحُدُوده ، الثانى : فيما جاء فى إقطاعه وابتناء القصور به وطريق أخبارها ، الثالث : فى العَرْصَة وقُصُورها ، وشىء مما قيل فيها وفى العقيق من الشعر ، الرابع : فى جماواته ، وأرض الشجرة ، وثَنِيَّة الشريد ، وغيرها من جهاته ، وفيه خاتمة فى سَرْدِ ما يدفع فيه من الأوْدِيَةِ ومابه من الغُدْرَان ، الخامس : فى بقية أوْدِيَةِ المدينة ، السادس : فيما سمى من الأحماء ومَنْ حَمَاها وشرح حال حِمَى النبى صلى الله عليه وسلم بالنقيع ، السابع : فى شرح بقية الأحماء ، وأخبارها ، الثامن : فى بقاع المدينة وأعراضها وأعمالها ومُضَافَاتها وأنْدِيَتِهَا وجِبالهاوتِلاَعها[٣] ، ومشهورما فى ذلك من الآبار والمياه والأودية ، وضَبْط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك وبالمساجد والآطام والغزوات ، وشرح حال مايتعلَّق بجهات المدينة وأعمالها من ذلك ، على ترتيب حروف الهجاء .

الباب الثامن : فى زيارته صلى الله عليه وسلم ، وفيه أربعة فصول : الأول : فى الأحاديث الواردة فى الزيارة نصا ، الثانى : فى بقية أدِلَّتها ، وبيان تأكد مشروعيتها ، وقربها من درجة الوجوب ، حتى أطلقه بعضُهم عليها ، وبيان حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى قبره ، وشَدّ الرِّحَالِ إليه ، وصحة نَذْرِ زيارته ، والاستئجار للسلام عليه ، الثالث : فى توسُّلِ الزائر ، وتَشَفُّعه به صلى الله عليه وسلم

---

(١) كذا ، ولعله «المشاة» جمع ماش ، بزنة قاض وقضاة ورام ورماة .

(٢) الأحماء : جمع حمى . (٣) التلاع : جمع تلعة ، وهى ماارتفع من الأرض

إلى رَبِّه تعالى ، واستقباله له صلى الله عليه وسلم فى سلامه وتوسله ودعائه، الرابع: فى آداب الزيارة والمجاورة، والتبرك بتلك المساجد والآثار ، وهذا الباب وإن كان من حقه التقديم ، لـكنه لما كان كنتيجة الـكتاب ، ومقدماتُه ما تقدمه من الأبواب ، ختمت به أقسامه ؛ ليـكون المسكُ خِتَامَه ، وسِرُّ الوجود تمـامه ، وتفاؤلا بأن يفتح لى به ثمانية أبواب الجنة ، ويعظم لى بسببه سوابغ المنة [1] ، وبالله لاسواه أعتصم ، وأسأله العصمة مما يصم [2] ، فهو حسبى ونعم الوكيل .

الباب الأول

فى أسماء هذه البلدة الشريفة

أعلم أن كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمى ، ولم أجد أكثر من أسماء هذه البلدة الشريفة ، وقد اسْتَقْصَيْتُهَا بحسب القدرة حتى إنى زدت على شيخ مشايخنا المَجْدِ الشيرازى اللغوى ـ وهو أعظم الناس فى هذا الباب ـ نحوَ ثلاثين اسما ، فرقَمْتُ على ذلك صورة ليتميزوها ، وأنا أوردها مرتبة على حروف المعجم .

أثرب الأول : أثْرِب — كمسجد ، بفتح الهمزة وسكون المثلثة وكسر الراء وباء موحدة — لغة فى «يثرب» الآتى ، وأحد الأسماء كألْمَلِم ويلملم ، قيل : سميت بذلك لأنه اسم مَنْ سكنها عند تفرق ذرية نوح عليه السلام فى البلاد ، وهل هو اسم للناحية التى منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو للمدينة نفسها ، أو لموضع مخصوص من أرضها ؟ أقوال، الأول لأبى عبيدة ، والثانى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ومشى عليه الزمخشرى، والثالث هو المُغنىٌّ بقول محمدِ بن الحسن أحدِ أصحاب مالك ويعرف بابن [3] زَبَالَة : وكانت يثرب أم قرى المدينة ، وهى مابين طرف قناة

---

(١) المنة : العطية ، وسوابغها : جزيلها وعظيمها ، وأصل السابغ الثوب يغطى الجسم كله . (٢) وصمه يصمه ـ بوزن وصفه يصفه ـ أى عابه ونقصه .

(٣) زبالة ـ بزنة سحابة ـ اسم موضع منه محمد بن الحسن المعروف بابن زبالة قاله فى القاموس ، ويقال له أيضا « الزبالى » على النسبة ، وهو ممن روى عن مالك ابن أنس إمام دار الهجرة ، لـكنه ليس بثقة ، قاله فى تهذيب التهذيب ٩ /١١٥ .

إلى طرف الجرف ، وما بين المال الذى يقال له البرنى إلى زبالة ، وقد نقل ذلك الجمالُ المطرى عنه ، وزاد فى النقل أنه كان بها ثلاثمائة صائغ من اليهود ، وابن زَبَالة إنما ذكر أن ذلك كان بزهوة ، وقد غايَرَ بينها وبين يثرب ، وكأن الجمال فَهِمَ اتّحادهما ، وقد قال عقب نَقْله لذلك عنه : وهو يعنى يثرب معروفة اليوم بهذا الاسم ، وفيها نخيل كثيرة ملك لأهل المدينة وأوقاف للفقراء وغيرهم ، وهى غربى مشهد سيدنا حمزة ، وشرقى الموضع المعروف بالبركة مصرف عين الأزرق ، ينزلها الحاج الشامى فى وروده وصدوره ، وتسميها الحجّاجُ عيون حمزة ، وهى إلى اليوم معروفة بهذا الاسم ، أعنى يثرب ، وربما قالوا فيها « أثارب » بصيغة الجمع ، وبه عبر البرهان ابن فَرْحُون فى مناسكه ، فلك أن تعده اسما آخر ، وهذا الموضع يثرب قال المطرى : كان به منازل بنى حارثة بطْنٍ ضَخْم من الأوس ، قال : وفيهم نزلَ قولُه تعالى فى يوم الأحزاب: «وَ إِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُم فَارْجِعُوا(١)» ورجح به القول الثالث، وذلك أن قريشا ومَنْ معهم نزلوا يوم الأحزاب ويوم أحُدٍ أيضا على ما ذكره المطرى برومة وما والاها بالقرب من منازل بنى حارثة من الأوس ومنازل بنى سلمة من الخزرج ، وكان الفريقان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركز الحرب ، ولذلك خافوا على ذَرَارِيهم وديارهم العدوّ يوم أحد ؛ فنزل فيهما « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا(٢) » قال عقلاؤهم : ما كرهنا نزولَهَا لتولّى الله إيانا ، ودفع الله عنهم ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وصدق نياتهم ، وقيل : إن القائل لبنى حارثة « يا أهل يثرب لا مُقَامَ لكم » هو أوْسُ بن قَيْظِى ومَنْ معه ، وقيل : غير ذلك

قلت : ويرجّحُ القولَ الثالث أيضا قولُ الحافظ عمر بن شَبَّةَ النميرى(٣) : قال

---

(١) من سورة الأحزاب من الآية ١٣ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢٢

(٣) عمر بن شبة – بفتح الشين وتشديد الباء الموحدة مفتوحة – بن عبيدة ، واسم شبة زيد ، البصرى ، النميرى ، الأخبارى ، النحوى ، الأديب ، الحافظ ، وثقه الدارقطنى ، مات فى سنة ٢٦٢ من الهجرة ، وله ترجمة فى تهذيب التهذيب (٧/ ٤٦٠) وفى خلاصة الخزرجى (٢٨٣ بولاق) .

أبو غسان : وكان بالمدينة فى الجاهلية سوق بزَبَالة فى الناحية التى تدعَى يثرب ، انتهى . ولا شك فى إطلاق يثرب على المدينة نفسها ، كما ثبت فى الصحيح ، وشواهدُه أشهر من أن تذكر ، وسيأتى فى الفصل الرابعَ عشَرَ من الباب الثانى ما يقتضى أن الله تعالى سماها قبل أن تعمر وتسكن ، فإما أن يكون موضوعا لها ، أو هو من باب إطلاق اسم البعض على الكل ، أو من باب عكسه على الخلاف المتقدم .

وروى ابن زُبَالة وابن شبة نَهْيَه صلى الله عليه وسلم عن تسمية المدينة يثرب ، وفى تاريخ البخارى حديث «مَنْ قال يثرب مرة فَلْيَقُلْ المدينة عشر مرات» وروى أحمد وأبو يَعْلَى حديثا «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ، وهى طابة» ورجاله ثقات ، وفى رواية « فَلْيَسْتَغْفِرِ الله ثلاثا » ولهذا قال عيسى بن دينار : من سمى المدينة يثرب كتبت عليه خطيئة ، وكره بعضُ العلماء تسميتها بذلك ، وما وقع فى القرآن من تسميتها به إنما هو حكاية عن قول المنافقين ، ووَجْهُ كراهة ذلك إما لأنه مأخوذ من الثَّرَب — بالتحريك — وهو الفساد ، أو لكراهة التثريب وهو المؤاخذة بالذنب ، أو لتسميتها باسم كافر ، وقد ينازع فى الكراهة بما فى حديث الهجرة فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم « فذهب وَهْلِي (١) إلى اليمامة أو هَجَر ، فإذا هى المدينة يثرب » وحديث مسلم « إنه وجهت إلى أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب » وكذا جاء فى غيرهما من الأحاديث ، وقد يجاب بأن ذلك كان قبل النبى .

أرض الله — الثانى « أرض الله » قال الله تعالى : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا (٢) » ذكر مقاتل والثعلبى وغيرهما أن المراد به المدينة ، وفى هذه الإضافة مِن مَزِيد التعظيم ما لا يخفى .

أرض الهجرة — الثالث « أرض الهجرة » كما فى حديث « المدينة قُبَّة الإسلام » .

---

(١) الوهل — بفتح الواو وسكون الهاء — الوهم .

(٢) من سورة النساء من الآية ٩٧ .

أكالةالبلدان
الرابع « أكالة البلدان » لتسلطها على جميع الأمصار ، وارتفاعها على سائر بلدان الأقطار ، وافتتاحها منها على أيدى أهلها فغنموها وأكلوها .

أكالةالقرى
الخامس « أكالة القرى » لحديث الصحيحين «أمرت بقرية تأكل القرى» وقداستدل به مُثبِتو الاسم قبله ، وهو أصْرَحُ فى هذا ؛ للفرق بين البلدة والقرية .

الإيمان
السادس « الإيمان » قال الله تعالى مُثنِياً على الأنصار « وَالَّذِينَ تبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ »(١) وأسند ابنُ زَبَالة عن عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جعفر قالا : سمَّى الله المدينة الدار والإيمان ، وأسند ابن شَبَّة عن الثانى فقط . وقال البيضاوى فى تفسيره : قيل سمى الله المدينة بالإيمان لأنها مَظْهره ومَصِيره . وروى أحمد الدينورى فى كتابه المجالسة فى قصة طويلة عن أنس بن مالك « أن مَلَكَ الإيمان قال : أنا أسكن المدينة ، فقال مَلَكُ الحياء : وأنامعكَ» فأجمعت الأمة على أن الإيمان والحياء ببلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى فى حديث «الإيمان يَأْرِزُ إلى المدينة كما تأرزُ الحيَّةُ إلى جُحْرِها»(٢) .

البارة والبرة
السابع « البارة» ، الثامن « البرة » هما من قولك : امرأة بارة وبَرَّة ، أى كثيرة البر ، سميت بذلك لكثرة برها إلى أهلها خصوصا و إلى جميع العالم عموما ؛ إذ هى مَنْبَع الأسرار و إشراقِ الأنوار ، و بها العيشة الهنية ، والبركات النبوية .

البحرة والبحيرة
التاسع «البَحْرة» بفتح أوله وسكون المهملة . العاشر «البُحَيْرة » تصغير ماقبله . الحادى عشر « البَحِيرَة » بفتح أوله — نقلتُ ثلاثتَهَا عن منتخب كراع ، والأولان عن معجم ياقوت ، والاستبحار : السَّعَة ، ويقال : هـذه بَحْرَتُنا ، أى أرضنا أو بلدتنا ، سميت بذلك لكونها فى مُتسع من الأرض ، وفى الصحيح قول سعد فى قصة ابن أبى(٣) «ولقداصْطَلَحَ أهلُ هذه البحيرة على أن يُتَوِّجُوه » رواه

(١) من سورة الحشر من الآية ٩ .

(٢) الإيمان يأرز : المراد يلجأ إليها و يعتصم بها ، وأرزت الحية إلى جحرها : أى لاذت به .

(٣) ابن أبى : هو عبد الله بن أبى ابن سلول ، أبوه أبى ، وسلول أمه ، وهو رأس المنافقين ، والذى يشير إليه هذا الحديث أن أهـل المدينة كانوا قد أجمعوا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يجعلوه ملكا عليهم .

ابن شبة بلفظ « أهل هـذه البحيرة » وقال عياض فى المشارق : البَحْرة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويروى البَحْرة ، والبُحَيْرة : بضم الباء مصغراً وبفتحها على غير التصغير ، وهى الرواية هنا ، ويقال « البحر » أيضاً بغير تاء ساكن الحاء ، وأصله القرى ، وكل قرية بحرة . انتهى .

البلاط — الثانى عشر : « البَلاَط » بالفتح — نقل عن كتاب ليس لابن خالويه ، وهو لغـةً الحجارةُ التى تفرش على الأرض ، والأرض المفروش بها والمستوية الملساء ، فكأنها سميت به لكثرته فيها ، أو لاشتمالها على مواضـع تعرف به كما سيأتى فى الباب الرابع إن شاء الله تعالى .

البلد — الثالث عشر : « البلد » قال تعالى « لا أُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ[١] » قال الواسطى فيما نقله عن عياض : أى يحلف لك بهـذا البلد الذى شرفته بمكانك فيـه حياً وببركتك ميتاً ، يعنى المدينة ، وقيل : المراد مكة ، ونقل عن ابن عباس ، وبه استدل مَنْ ذكره فى أسمائها ، ورجَّحه عياض لكون السورة مكية ، والبلد لغةً صدر القرى .

بيت الرسول — الرابع عشر : « بيت الرسول » صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بالحق[٢] » ، قال المفسرون : أى من المدينة لأنها مُهَاجَرُهُ ومسكنه [فهى] فى اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ، أو المراد بيته بها .

تندد وتندر — الخامس عشر : « تنـدد » بالمثناة الفوقيـة والنون وإهمال الدالين . السادس عشر : « تندر » براء بدل الدال الأخيرة مما قبله ، وسيأتى دليلهما فى يندد ويندر بالمثناة التحتية ، وأن المجد صوَّبَ حذف ما عَدَا يندر بالتحتية .

الجابرة — السابع عشر : « الجابرة » لعـده فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » سميت به لأنها تَجْبُرُ الكَسِير ، وتغنى الفقير ، وتجبر[٣] على الإذعان لمطالعة بركاتها ، وشهود آياتها ، وجَبَرَتِ البلادَ على الإسلام .

---

(١) من سورة البلد ، الآية ١ . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٥

(٣) تجبر هنا بمعنى تقهر ، وأما التى قبلها فمن قولهم « جبرت الكسير » أى أصلحت ما فسد منه .

جبار — الثامن عشر « جَبَارِ » كحَذَامِ ، رواه ابن شـبةَ بدل الجابرة فى الحديث المذكور .

الجبارة — التاسع عشر « الجبارة » نقله صاحبُ كتاب أخبـار النواحى مع الجابرة والمجبورة عن التوراة .

جزيرة العرب — العشرون « جزيرة العرب »قال ابن زَبالة : كان ابن شهاب يقول : جزيرة العرب المدينة ، وسيأتى فى حديث ابن عباس « خرجْتُ مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم من المدينة ، فالْتَفَتَ إليها وقال : إن الله بَرَّأ هذه الجزيرة من الشرك » ونقل الهروى عن مالك أن المراد من حديث « أخرِجُوا المُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ » المدينةُ خاصةً ، والصحيحُ عن مالك كقولنا أن المراد الحجاز .

الجنة الحصينة — الحادى والعشرون « الجُنَّةُ الحصينة » بضم الجيم ، وهى الوقاية ؛ لما حكاه بعضهم من قوله صلى الله عليه وسـلم فى غزوة أحد « أنا فى جُنَّةٍ حَصِينَة — يعنى المدينة — دَعُوهُمْ يَدْخُلُونَ نقاتلهم » وروى أحمـد برجال الصحيح حديث « رأيت كأنى فى دِرْعٍ حصينة ، ورأيت بَقَرًا تُنْحَر ، فأولْتُ الدرعَ الحصينةَ المدينة » وهذا هو المذكور فى كتب السير .

الحبيبة — الثانى والعشرون « الحبيبة » لحبه لها صـلى الله عليه وسلم ، وقال « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينَةَ كحبنا مَـكَّةَ أو أشـد » وسيأتى مزيد بيان لذلك فى اسمها المحبـوبة .

الحرم — الثالث والعشرون « الحرم » بالفتح بمعنى الحرام ؛ لتحريمها ، وفى حديث مسلم « المدينة حرم » وفى رواية « إنها حرم آمن » .

حرم رسول الله — الرابع والعشرون «حَرَمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » لأنه الذى حرمها ، وفى الحديث « مَنْ أخاف أهـلَ حرمى أخافَهُ الله » ، وروى ابن زَبالة حديث « حرَمُ إبراهيم مكةُ وحَرَمِى المدينةُ » .

حسنة — الخامس والعشرون « حَسَنَة » بلفظ مقابل السيئة ، قال تعالى : « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدنيا حَسَنَةً[(١)] » قال المفسرون : مَبَاءة حسنة[(٢)] ، وهى المدينة ، وقيل : حسنة اسم المدينة ، وقد اشتملت على الحُسْن الحسىّ والمعنوى .

السادس والعشرون « الخيِّرة » بتشديد المثناة التحتية كالنيرة .

الخيرة — السابع والعشرون « الخَيْرَة » كالذى قبله إلا أن الياء مخففة، تقول : رجل خَيِّر وخَيْر ، وامرأة خَيِّرة وخَيْرة ، بالتشديد والتخفيف ، بمعنًى ، وهو الكثير الخير ، وإذا أردت التفضيل قلت : فلان خَيْرُ الناسِ ، وفى الحديث « والمدينة خَيْرٌ لَهُمْ لو كانوا يعلمون » وسيأتى حديث « المدينة خَيْرٌ من مكة » .

الدار — الثامن والعشرون « الدار » لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ »[(٣)] على ما سبق فى الإيمان ، سميت به لأمْنِهَا والاستقرار بها وجَمْعها البناءَ والعَرْصة .

دار الأبرار — التاسع والعشرون « دار الأبرار » . الثلاثون « دار الأخيار » لأنها دار المصطفى المختار ، والمهاجرين والأنصار ، ولأنها تَنْفِى شِرَارها ومَنْ أقام بها منهم فليست فى الحقيقة له بدار، وربما نقل منها بعد الدفن على ما جاء فى بعض الأخبار .

دار الإيمان — الحادى والثلاثون « دار الإيمان » كما فى حديث « المدينة قُبَّةُ الإسلام ودار الإيمان » إذ منها ظهورُه وانتشاره ، وسيأتى فى حديث « الإيمان يأرِزُ إلى المدينة كما تأرِزُ الحية إلى جُحْرِها »[(٤)]

دار السنة ونحوها — الثانى والثلاثون « دار السنة » . الثالث والثلاثون « دار السلامة » . الرابع والثلاثون « دار الفتح » . الخامس والثلاثون « دار الهجرة » ؛ ففى صحيح البخارى قولُ عبد الرحمن لعمر رضى الله عنهما « حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة » وفى رواية

---

(١) من سورة النحل من الآية ٤١

(٢) المباءة : المنزل ، وتقول : تبوأ فلان المكان ، تريد أنه اتخذه محلا يقيم فيه ، وبوأته إياه : أحللته

(٣) من سورة الحشر من الآية ٩ .

(٤) انظر الهامشة ٢ فى ص ١١ .

الـكشميهنى «والسلامة» وقد فتحت منها مكة وسائر الأمصار ، وكانت بها عصابة الأنصار ، ومُهَاجَرَة النبي المختار (١) ، صلى الله عليه وسلم ، والمهاجرين الأبرار ، ومنها انتشرت السنة فى الأقطار .

ذات الحجر — السادس والثلاثون « ذات الحُجر » لاشتمالها عليها ، قال أبو بكر رضى الله عنه مُثنيا على الأنصار : ما وجدْتُ لنا ولهذا الحىّ من الأنصار مَثلاً إلا ما قال طُفَيْلٌ الغَنَوِىُّ :

أَبَوْا أنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تلاقِى الَّذِى يَلْقَوْنَ مِنَّا لملَّتِ

هُمُ خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَوْلَجوا ... إلَى حُجُرَاتٍ أدفأَتْ وأظلَّتِ

ذات الحرار — السابع والثلاثون « ذات الحِرَار » لـكثرة الحِرَار بها ، وفى قصة خُنافر ابن التوأم الحميرى الـكاهن (٢) عن رَئِيِّه من الجن وقد وصف له دين الإسلام ، فقال له خنافر : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال : مِنْ ذاتِ الأحَرِّينَ ، والنَّفَرِ المَيَامِين ، أهْلِ المَاءِ وَالطِّينِ ، قلت : أوْضِحْ ، قال : الحَقْ بيثربَ ذاتِ النَّخْلِ والحرة ذات النعل ، قال الأصمعى : أحَرُّونَ وحِرَار جمع حَرَّة .

ذات النخل — الثامن والثلاثون « ذات النخل » وهو وذات الحجر مما استعمله المتأخرون فى أشعارهم ، وقد نسجت على مِنْوَالهم حيث قلت فى مطلع قصيدة :

أَشْجَانُ قَلْبِى بذاتِ النَّخْلِ والحُجَرِ ... وَأُخْتِهَا تِلْكَ ذَاتِ الحِجْرِ والحَجَرِ

تَقَسَّمَ القَلْبُ بَيْنَ البلدتين ؛ فَلاَ ... أَنفكُّ مِنْ لَهَبِ الأشْوَاقِ فِى سُعُرِ

وفى أحاديث الهجرة « أُرِيتُ دارَ هجرتى ذاتَ نخلٍ وحرة » (٣) ، وقال عمران ابن عامر الكاهن يصف البلاد لقومه : ومَنْ كان منكم يريد الراسخات فى الوحل ، المُطْعِمات فى المَحْلِ (٤) ، فليلحق بالحرة ذات النخل . وروى كما سيأتى : بيثرب ذات النخل

(١) المراد أنها موضع هجرته صلى الله عليه وسلم . (٢) انظر حديثه فى ترجمته فى الإصابة رقم (٢٣٤٢) . (٣) الحرة — بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين — الأرض ذات الحجارة السود التى كأنها محروقة بالنار .

(٤) المحل — بفتح الميم وسكون الحاء المهملة — الجدب والقحط .

السلقة

التاسع والثلاثون « السلقة » ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الإقشهرى فى أسمائها المنقولة عن التوراة ، ولم نضبطه ، وهو محتمل لفتح اللام وكسرها ، والسَّلَق بالتحريك: القاعُ الصَّفْصَف [١] ، وسَلَقْتُ البيضَ: أغليته بالنار ، والمِسْلاَق : الخطيبُ البليغ ، وربما قيل للمرأةِ السليطة : سَلِقة ــ بكسر اللام ــ فتسميتها بذلك لاتساعها وبُعدها عن جبالها ، أو للأوائها ، أو لشدة حرها وما كان بها من الحمى الشديدة ، أو لأن الله تعالى سَلَّط أهلَهَا على سائر البلاد فافتتحوها

سيدة البلدان

الأربعون « سيدة البلدان » لما أسنده الديلمى من الحِلْية لأبى نعيم عن ابن عمر مرفوعا « يا طيبة يا سيدةَ البلدان »

الشافية

الحادى والأربعون « الشافية » لحديث « ترابها شفاء من كل داء » وذكر الجذام والبرص ، ولقد شاهدنا من استشفى بترابها من الجذام فنفعه الله به ، والاستشفاء بتربة صُعَيب [٢] من الحمى مشهور ، كما سيأتى ، ولما صح فى الاستشفاء بتَمرها ، وذكر ابن مسدى الاستشفاء من الحمى بكتابة أسمائها وتعليقها على المحموم ، وسيأتى أنها تنفى الذنوب فتشفى من دائها .

طابة وطيبة

الثانى والأربعون « طَابَة » بتخفيف الموحدة . الثالث والأربعون : « طَيْبَة » بسكون المثناة التحتية . الرابع والأربعون « طَيِّبَة » بتشديدها . الخامس والأربعون « طائب » ككاتب ، وهذه الأربعة مع اسمها المطيبة أخوات لَفظاً ومعنًى ، مختلفات صيغة ومَبْنًى ، وقد صحَّ حديث « إن الله سمى

---

(١) القاع : الأرض السهلة المطمئنة التى قد انفرجت عنها الجبال ، والصفصف ــ بوزن جعفر ــ المستوى .

(٢) فى خلاصة الوفا (ص ٢٨ ط الحلبى) نقلا عن طاهر بن يحيى العلوى « صعيب : وادى بطحان دون الماجشونية ــ أى الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية ــ وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه . وهو اليوم إذا وبىء إنسان أخذ منه » اه وفى معجم ما استعجم للبكرى (ص ٨٣٤) « صعيب ــ على لفظ تصغير صعب ــ موضع فى ديار بلحرث » اه وانظر ما يأتى فى الفصل الرابع من هذا الباب فى الاستشفاء بترابها وبتمرها وما جاء فيه .

المدينة طابة » وفى رواية « إن الله أمرَنى أن أسمى المدينة طابة » وروى ابن شَبَّة وغيره: كانوا يسمون يَثْرِبَ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة، وفى حديث « للمدينة عشرة أسماء هى المدينة وطيبة وطابة » ورواه صاحب النواحى بلفظ طابت بدل طيبة ، وعن وهب بن مُنَبه : والله إن اسمها فى كتاب الله ـ يعنى التوراة ـ طيبة وطابة ، ونقل عن التوراة تسميتها بالمطيبة أيضا ، وكذا بطابة والطيبة، وتسميتها بهذه الأسماء إما من الطَّيِّب بتشديد المثناة ، وهو الظاهر ؛ لطهارتها من أدناس الشرك ، أو لموافقتها من قوله تعالى « بريح طَيِّبة[1] » أو لحلول الطَّيِّب بها صلى الله عليه وسلم، أو لكونها كالكِير تَنْفِى خَبَثَها وينصع طِيبُهَا ، وإما من الطِّيب — بسكون المثناة — لطيب أمورها كلها ، وطيب رائحتها ، ووجود ريح الطيب بها ، قال ابنُ بَطَّال : مَنْ سكنها يجدُ من تربتها وحيطانها رائحةً حسنة ، وقال الإشبيلى : لتربة المدينة نَفْحَة، ليس طيبها كما عهد من الطيب ، بل هو عجب من الأعاجيب ، وقال ياقوت : من خصائصها طيبُ ريحها ، وللعطر فيها رائحة لا توجد فى غيرها ، وما أحسن قَوْلَ أبى عبد الله العطّار :

بِطيبِ رَسُول الله طَابَ نَسِيمُهَا   فَمَا المِسْكُ مَا الْكَافُورُ مَا الْمَنْدَلُ الرَّطْبُ

ظباب — السادس والأربعون « ظباب » ذكره ياقوت، ولم يضبطه، وهو إما بكسر المهملة أو بفتح المعجمة ؛ فالأول بمعنى القطعة المستطيلة من الأرض ، والثانى من ظبب[2] وظَبْظَبَ إذا حُمّ ؛ لأنها كانت لا يدخلها أحد إلا حُمّ ، قاله المجد .

العاصمة — السابع والأربعون « العاصمة » لأنها عَصَمَتِ المهاجرين ووَقَتْهُمْ أذى المشركين ، ولما تقدم فى « الجُنّة الحصينة » ويحتمل أن يكون بمعنى المعصومة لعصمتها قديماً بجيوش موسى وداود عليهما السلام المبعوث إلى مَنْ كان بها من الجبابرة ، وحفظها حديثاً نبىُّ الرحمة صلى الله عليه وسلم حتى صارت حَرَماً آمناً ، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون ، ومَنْ أرادها بسوء أذابه الله .

---

(١) من سورة يونس من الآية ٢٢ .   (٢) لم أجد أول هذين الفعلين .

العذراء — الثامن والأربعون « العــذراء » بإهمال أوله وإعجام ثانيه ، منقول عن التوراة ، سميت به لحفظها من وَطْء العدو القاهر فى سالف الزمان ، إلى أن تسلّمها مالـكُها الحقيق سيد الأنام ، مع صعوبتها وامتناعها على الأعداء ، ولذلك سميت البكر بالعـذراء .

العراء — التاسع والأربعون « العَرّاء » بإهمال أوله وثانيه وتشديده ، بمعنى الذى قبله ، قال أئمة اللغة : العراء الجارية العذراء ، كأنها شبهت بالناقة العراء التى لا سَنَام لها وصغر سنامها كصغر نَهْدِ العذراء أو عدمه ؛ فيجوز أن يكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبنيتها فى السماء .

العروض — الخمسون « العَرُوض » كصَبُور ، وقيل : هو اسم لها ولماحولها ؛ لانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيهـــا ، وقال الخليل : العَرُوض : طريقٌ فى عرض الجبل ، وعَرَضَ الرجلُ إذا أتى المدينة[1] ؛ فإن المدينة سميت عروضا لأنها من بلاد نجد ، ونجـــد كلها على خط مستقيم طولانى والمدينة معترضة عنها ناحيةً على أنهـا نجدية .

الغراء — الحادى والخمسون « الغرّاء » بالغين المعجمة — تأنيث الأغر ، وهو ذو الغُرَّة من الخيل : أى البياض فى مُقَدَّم وجهه ، والغرة أيضاً : خِيار كل شىء ، وغُرَّة الإنسان : وجْهُه ، والأغر : الأبيض من كل شىء ، والذى أخذتِ اللحيــةُ جميعَ وجهه إلا القليل ، ومن الأيام الشديدُ الحر ، والرجل الـكريم ، والغراء : نبت طيب الرائحة ، والسيدة الـكبيرة فى قبيلتها ؛ فسميت المدينــة بذلك لشرف معالمها ، ووضــوح مكارمها ، واشتهارها ، وسطوع نُورها ، وبياض نَوْرها ، وطيب رائحتها ، وكثرة نخلها ، وسيادتها على القرى ، وكرم أهلها ، ورفعة محلها .

غلبة — الثانى والخمسون « غلبــة » محركة بمعنى الغَلَب ؛ لظهورها واستيلائها على سائر البــلاد ، وهو اسم قديم جاهلى ، قال ابن زَبَالة : حدثنى داود بن مسكين

---

(١) ومنه قول عبد يغوث بن وقاص الحارثى ، وكان قد أسر فى يوم كلاب :

أيَا رَاكِباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدَامَاىَ مِنْ نَجْرَانَ أنْ لاَ تَلاَقِيَا

الأنصارى عن مشيخته قالوا : كانت يثرب فى الجاهلية تدعى غَلَبة ، نزلت اليهود على العماليق فغلبتهم عليها ، ونزلت الأوسُ والخزرجُ على اليهود فغلبوهم عليها ، ونزل الأعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها ، كذا فى النسخة التى وقفتُ عليها من كتاب ابن زَبَالة ، ونقله المجد عن الزبير بن بكار راوى كتاب ابن زَبَالة ، وقال فيه بدل قوله ونزل الأعاجم : ونزل المهاجرون على الأوس والخزرج فغلبوهم عليها .

الفاضحة

الثالث والخمسون « الفاضحة » بالفاء والضاد المعجمة والحاء المهملة — نقله بعضُهم عن كُرَاع ، ومأخَذُها ما سيأتى فى معنى كونها تَنْفى خَبَثَها من أنها تميزه وتظهره فلا يُبْطِنُ بها أحدٌ عقيدةً فاسدةً أو يضمر أمراً إلا ظهر عليه ، وافتضح به ، بخلاف غيرها من البلاد ، وقد شاهدنا ذلك كثيراً بها .

القاصمة

الرابع والخمسون « القاصمة » بالقاف والصاد المهملة — نقل عن التوراة سميت به لقَصْمِها كل جبار عناها[1] ، وكسر كل متمرد أتاها ، ومن أرادها بسوء أذابه الله .

قبة الإسلام

الخامس والخمسون « قبة الإسلام » لحديث « المدينة قبة الإسلام » .

قرية الأنصار

السادس والخمسون « قرية الأنصار » قال ابن سِيدَهَ : القرية — بفتح القاف وكسرها — المصرُ الجامعُ ، من قَرَيت الماءَ فى الحوض ، إذا جمعته ، وقال أبو هلال العسكرى : العربُ تسمى كل مدينة صغرت أو كبرت قريةً ، قلت : وسيأتى فى معنى « المدينة » ما يقتضى أنه يعتبر فى مسماها زيادتها على القرية ونقصها على المصر ، وقيل : يطلق عليه ، والأنصار : واحدهم ناصر ، سموا بذلك لنصرهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وإيوائهم له وللمهاجرين ، فمدَحهم اللهُ بقوله : « والذين آوَوْا ونَصَرُوا[2] » فسماهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ، وكان يقال لهم قبل ذلك الأوس والخزرَج ، وفى الحديث عن غَيْلان بن جرير

(١) عناها : قصدها ، والمراد قصدها بسوء ، ووقع فى المخطوطات « عتاها » بالتاء المثناة ، تطبيع .

(٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٢ .

قال : قلت لأنس بن مالك : أرأيتم اسمَ الأنصار ، كنتم تسمون به أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله . وسيأتى فى حديث « إن الله قد طهر هذه القرْيَة من الشرك » فلك أن تعده اسما آخر .

قرية رسول الله

السابع والخمسون « قربة رسول الله صلى الله عليه وسلم » لما سيأتى فى عصمتها من الدجال من قوله صلى الله عليه وسلم « ثم يسير حتى يأتى المدينة ، ولا يأذن له فيها ؛ فيقول: هذه قرية ذاك الرجل » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم .

قلب الإيمان

الثامن والخمسون « قلب الإيمـان » أورده ابن الجَوْزى فى الوفاء فى حديث « المدينة قبة الإسلام » .

المؤمنة

التاسع والخمسون « المؤمنـة » إما لتصديقها بالله حقيقةً كذوى العقول ؛ إذ لا بُعْدَ فى خلق الله تعالى قوةً فى الجماد قابلةً للتصديق والتكذيب [1] ، وقد سمع تسبيح الحصى فى كفه صلى الله عليه وسـلم ، أو مجازاً لاتِّصاف أهلها بذلك ، ولانتشار الإيمـان منها ، واشتمالها على أوصاف المؤمن من النفـع والبركة وعدم الضرر والمسكنة ، وإما لإدخالها أهلَهَا فى الأمان من الأعداء، وأمنهم من الدجال والطاعون ، وروى ابن زَبَالة فى حديث « والذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة » وروى « أنها مكتوبة فى التوراة مؤمنة » .

المباركة

الستون « المباركة » ؛ لأن الله تعالى بارك فيها بدعائه صلى الله عليه وسلم لحديث « اللهم اجعـل بالمدينة ضِعْفَىْ ما جعلتَ بمكة من البركة » وغيره من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ، وآثارُ تلك الدعوات من الأمور الظاهرات .

مبوأ الحلال والحرام

الحادى والستون « مُبَوَّأ الحلال والحرام » رواه الطبرانى فى حديث « المدينة قُبَّة الإسـلام » والتبوؤ : التمكن والاستقرار ، سميت به لأنها محل تمكن هذين الحكمين واستقرارهما ، وفى بعض النسخ « مَثْوَى » بالمثلثة الساكنة بدل

---

(١) وقد قيل فى قوله تعالى من سورة فصلت من الآية ١١ (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) : إنه سبحانه قد خلق فى السماء وفى الأرض قوة الإدراك وفهم الخطاب وإنهما أجابتا ، ولهذا قال سبحانه (طائعين) وعبر عنهما كما يعبر عن العقلاء .

الموحدة ، والأول هو الذى رأيته بخط الحافظ أبى الفتح المراغى .

مبين الحلال والحرام

الثانى والستون « مبين الحلال والحرام » رواه ابن الجوزى والسيد أبو العباس القرافى فى حديث « المدينة قبة الإسلام » بدلَ الذى قبله ، سميت به لأنها المحل الذى ابتدأ فيه ببيان الحلال والحرام .

المجبورة

الثالث والستون « المجبورة » بالجيم — ذكره فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » ونقل عن الكتب المتقدمة ، وسميت به لأن الله تعالى جَبَرَها بسكنى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم حيا وضمها لأعضائه الشريفة ميتاً بعد نقل حُمَّاها ، وتطييب مَغْنَاها ، والحث على سكناها ، وتنزل البركات بمُدِّها وصاعِها ؛ فهى بهذا السر الشريف مسرورة ، وبهذه المِنَح العظيمة مجبورة ، تسحب ذيل الفخار ، على سائر الأقطار .

المحبه

الرابع والستون « المحبة » بضم الميم وبالحاء المهملة وتشديد الموحدة — نقل عن الكتب المتقدمة .

المحببة

الخامس والستون « المحببة » بزيادة موحدة على ما قبله .

المحبوبة

السادس والستون « المحبوبة » نقل عن الكتب المتقدمة أيضاً ، وهذه ثلاثة مع ما تقدم من اسمها الحبيبة من مادة واحدة ، سميت بذلك لما تقدم من حبه صلى الله عليه وسلم لها ودعائه بذلك ، وجاء ما يقتضى أنها أَحَبُّ البقاع إلى الله تعالى ، ويؤيده أنه تعالى اختارها لحبيبه صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً ؛ فهى محبوبة إلى الله تعالى ورسوله وسائر المؤمنين ، ولهذا ترتاح النفوس لذكرها ، وتهيم القلوب لشهود سرها .

المحبورة

السابع والستون « المحبورة » من الحَبَرِ ، وهو السرور ، وكذلك الحُبْرُ والحُبُورُ والحَبْرَة ؛ لما تقدم فى الحبورة[1] ، أو هو من الحَبْرَةِ بمعنى النعمة ، والحبرة[2]

---

(١) لم يسبق هذا الاسم ؛ فلعل المؤلف ذكره فى كتابه الأول الذى جمع أطرافه فى هذا الكتاب ، أو لعله محرف عن « المجبورة » بالجيم ، وهذا عندنا أقرب .

(٢) قال المجد فى القاموس « والحبرة بالفتح : السماع فى الجنة ، وكل نغمة حسنة ، والمبالغة فيما وصف بجميل » اهـ .

أيضا المبالغة فيما وصِفَ[١] بجميل ، والمِخْبار من الأرض : السريعةُ النباتِ الكثيرة الخيرات .

المحرمة — الثامن والستون « المحرمة » لما سيأتى فى تحريمها .

المحفوفة — التاسع والستون « المحفوفة » لأنها محفوفة بالبركات ، وملائكةِ السموات ، محفوظة من المخاوف والأوجال ، وعلى أبوابها وأنقابها[٢] الملائكةُ يحْرُسونها من الطاعون والدجال ، وسيأتى حديث « المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة ، على كل نَقبٍ منها مَلَك ، لا يَدْخُلُها الدجال ولا الطاعون » .

المحفوظة — السبعون « المحفوظة » لأن الله تعالى حفظها من الدجال والطاعون وغيرهما ، وفى حديث « القرى المحفوظة أربع » وذكر المدينةَ منها ، وفى حديث آخر رويناه فى فضائل المدينة للمفضل الجندى « المدينة مشتبكة بالملائكة ، على كل نَقْب[٢] منها مَلَك يحرسها » فلك أن تسميها المحروسة أيضا .

المختارة — الحادى والسبعون « المختارة » لأن الله تعالى اختارها للمختار من خلقه فى حياته ومماته .

مدخل صدق — الثانى والسبعون « مدخل صدق » قال الله تعالى « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ[٣] » الآيةَ ، قال بعض المفسرين : مدخل صدق : المدينة ، ومخرجُ صدق : مكة ، وسلطاناً نصيراً : الأنصار ، وروى ذلك عن زيد بن أسلم ، ويَدُلُّ له ما رَوَاه الترمذى وصححه فى سبب نزول الآية .

المدينة ، ومدينة الرسول — الثالث والسبعون « المدينة » . الرابع والسبعون « مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم » من مَدَنَ بالمكان إذا أقام ، أو من دَانَ إذا أطاع ، فالميم زائدة ؛ لأن السلطان يسكن المدن فتقام له طاعة فيها ، أو لأن الله تعالى يُطَاع فيها ، والمدينة : أبيات مجتمعة كثيرة تجاوز حد القرى كثرةً وعمارةً ، ولم تبلغ حد الأمصار ، وقيل : يقال لكل مصر . والمدينة و إن أطلق على أماكن كثيرة فهو علم مدينة

---

(١) فى المطبوعات « المبالغة فيما وصفه بجميل » تطبيع ، واقرأ عبارة المجد التى أثرناها لك فى تفسير كلمة «الخبرة» فى ص ٢١ . (٢) الأنقاب : جمع نقب ، والنقب ــ بفتح أو بضم فسكون ــ الطريق فى الجبل . (٣) من سورة الإسراء من الآية ٨٠ .

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهُجِرَ كونُه علماً فى غيرها ، بحيث إذا أطلق لا يتبادر إلى الفهم غيرها ؛ ولا يستعمل فيها إلا معرفة ، قيل : لأنه صلى الله عليه وسلم سكنها ، وله دانت الأمم ولأمته ، والنكرة اسم لكل مدينة ، وقد نسبوا للكل مَدِينى ، وإلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم مَدَنى ، للفرق ، وتسميتها بذلك متكررة فى القرآن العظيم ، ونقل عن التوراة .

المرحومة — الخامس والسبعون « المرحومة » نقل عن التوراة ، سميت به لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، ومحل تنزيل الرحمة من أرحم الراحمين ، وأول بلد رحمت بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

المرزوقة — السادس والسبعون « المرزوقة » لأن الله تعالى رَزَقَها أفضلَ الخلق فسكنها ، أو المرزوق أهلها أرزاقا حسية ومعنوية ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولا يخرج أحد منها رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيرا منه كما جاء فى الحديث .

مسجد الأقصى — السابع والسبعون « مسجد الأقصى » نقله التادلى فى منسكه عن صاحب المطالع .

المسكينة — الثامن والسبعون « المسكينة » نقل عن التوراة ، وذكر فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » وروى عن على يرفعه « إن الله تعالى قال للمدينة : يا طيبة ، يا طابة يا مسكينة ، لا تقبلى الكنوز ، أرفع أجاجِيرَكِ على أجاجير[1] القرى » عن كعب أنه وجد ذلك فى التوراة ، والأجاجير : السطوح ، وأصل المسكنة الخضوع ، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خَلَق فيها الخضوع والخشوع له ، وإما لأنها مسكَنُ المساكين ، سكنها كل خاضع وخاشع ، وفى الحديث « اللهمَّ أحْيِنِى مسكيناً ، وأمِتْنِى مسكينا ، واُحْشُرْنى فى زُمْرَةِ المساكين » .

المسلمة — التاسع والسبعون « المسلمة » كالمؤمنة ، وقد قدمناه ، والإسلام يطلق على

---

(١) الأجاجير : جمع إجار أو إجارة — بكسر الهمزة وتشديد الجيم ، وآخره راء مهملة — وهو السطح الذى لا سترة عليه ، ويقال فى الجمع « أجاجرة » ويقال فى المفرد « إنجار » بإبدان أول الجيمين نوناً .

الانقياد والانقطاع إلى الله تعالى ، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خَلَق فيها الانقياد والانقطاع إليه ، وإما لانقياد أهلها بالطاعة والاستسلام ، وفتح بلدهم بالقرآن ، لا بالسيف والسهام ، وانقطاعهم إلى الله ورسوله ، وتَبَتُّلهم لنصره وتحصيل سُولِه (١) .

مضجع الرسول — الثمانون « مَضْجَع رسول الله صلى الله عليه وسلم » لما سيأتى فى حفظ أهلها وإكرامهم من قوله صلى الله عليه وسلم «المدينة مُهاجَرِى ومَضْجَعِى فى الأرض» .

المطيبة — الحادى والثمانون « المطَيَّبة » بضم أوله وفتح ثانيه — تقدم مع أخواته فى الطيبة

المقدسة — الثانى والثمانون « المقدسة » لتنزُّهها ولطهارتها من الشرك والخبائث ، ولأنها يتبرك بها ويتطهر عن أرجاس الذنوب والآثام .

المقر — الثالث والثمانون « المقَرّ » بالقاف : من القرار كما رأيتُه فى بعض كتب اللغة وسيأتى فى دعائه صلى الله عليه وسلم لها قوله « اللهم اجعل لنا بها قَراراً ورِزْقاً حَسَناً »

المكتنان — الرابع والثمانون « المكَّتَان » قال سعد بن أبى سَرْح فى حِصار عثمان :

أرَى الأمر لا يَزْدَادُ إلاَّ تَفَاقُماً — وَأَنْصَارُنَا بالمَكَّتَيْنَ قَلِيلُ

وقال نصر بن حَجّاج فيما كتب به إلى عُمَر رضى الله عنه بعد نفيه إياه من المدينة لما سمع امرأة تترنم به فى شعرها لجماله :

حَقَقْتَ بى الظَّنَّ الذى لَيْسَ بَعْدَهُ — مُقَامٌ ؛ فمَا لِى بالنَّدِىّ كَلاَمُ

فأصْبَحْتُ مَنْفِيًّا عَلَى غَيْرِ رِيبَةٍ — وَقَدْ كَانَ لِى بالمَكَّتَيْنِ مُقَامُ

والظاهر أن المراد المدينة ؛ لأن قصة عثمان ونَصْر بن حجاج كانتا بها ، وأطلق ذلك لانتقال أهل مكة أو غالبهم إليها وانضمامهم إلى أهلها ، وقد ذكر البرهان القيراطى المكتين فى أسماء مكة ، قال التقى الفاسى : ولعله أخذه من قول وَرَقة بن نوفل :

---

(١) السول — بضم السين — أصله السؤل ، خفف بقلب الهمزة واوا ، وفى القرآن الكريم فى سورة طه من الآية ٣٦ : (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى) والسول والسؤل والسؤال بمعنى واحد .

* ببطن المكتين على رجائى *

قال السهيلى : ثَنَّى مكة ـ وهى واحدة ـ لأن لها بِطَاحاً وظَوَاهر[١] ، وإنما مقصد العرب فى هذه الإشارة إلى جانبى كل بلدة ، أو أعلى البلد وأسفلها ، فيجعلونها اثنين على هذا المعنى ، انتهى . ويحتمل أن تكون التثنية فيما استشهدنا به من قبيل التغليب[٢] وأن المراد مكة والمدينة ، فيسقط الاستشهاد به .

المكينة — الخامس والثمانون « المَكِينة » لتمكنها فى المكانة والمنزلة عند الله تعالى .

مهاجر الرسول — السادس والثمانون « مُهَاجَرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؛ لقوله : « المدينة مُهَاجَرِى[٣] » .

الموفية — السابع والثمانون « المُوَفِّية » بتشديد الفاء — من التوفية ، ويجوز تخفيفها ، إذ التوفية والإيفاء بمعنى ؛ سُمِّيت به لتوفيتها حقّ الواردين ، وإحسانها نُزُلَ الوافدين حساً ومعنى ، أو لأن سكانها من الصحابة المُوفُونَ بما عاهَدُوا الله عليه .

الناجية — الثامن والثمانون « الناجية » بالجيم من نجا إذا خَلَص أو أسرع ، أو من نَجاهُ وَنَاجاه سارّه[٤] ، أو من النَّجْوة للأرض العالية ، سميت بذلك لنجاتها من العُتاة والطاعون والدجّال ، ولإسراعها فى الخيرات ، وسَبْقها إلى حيازة السبق بأشرف المخلوقات ، ولارتفاع شأنها بين الوَرَى ، ورفع أجاجيرها[٥] على أجاجير القُرَى .

نبلاء — التاسع والثمانون « نبلاء » نقل من كراع ، وأظنه بفتح النون وسكون الموحدة ممدودا ، من النُّبْل ـ بالضم والسكون ـ وهو الفضل والنجابة ، ويقال : امرأة نبيلة فى الحسن ، بَيِّنة النَّبَالة ، وأنبَلَ النخلُ : أرْطَبَ ، والنُّبْلة ـ بالضم ـ الثواب والجزاء والعطية

النحر — التسعون « النحر » بفتح النون وسكون الحاء المهملة ـ سميت به إما لشدة

---

(١) الظواهر : ظهر مكة ، والبطاح : باطنها ، ويقال « قريش الظواهر » لمن سكن منهم ظاهرها ، و« قريش البطاح » لمن سكن منهم باطنها .

(٢) فى المطبوعات « التقليب » تطبيع

(٣) المهاجر ـ بضم الميم وفتح الجيم ـ موضع الهجرة .

(٤) فى المطبوعات «أو من نجاه ونجاه» تطبيع (٥) انظر الهامشة ١ فى ص ٢٣

حرها ، كما يقال : نَحْرُ الظهيرة ، ولذا شاركتها مكة فيه ، وإما لإطلاق النحر على الأصل ، وهما أساس بلاد الإسلام وأصلها .

الهذراء

الحادى والتسعون « الهذراء » ذكره ابن النجار بدل العذراء نقلا عن التوراة ، وتبعه جماعة كالمطرى ؛ فلذلك أثبتناه ، وإن كان الصواب إسقاطه كما بيناه فى الأصل ، وقد رويناه فى كلام مَنْ أثبته بالذال المعجمة ، فالتسمية به لشدة حرها ، يقال : يوم هاذر شديد الحر ، أو لكثرة مياهها وسَوَانيها المُصَوِّتَةِ عند سَوْقها ، يقال : هذر فى كلامه ، إذا أكثره ، والهذر ــ محركا ــ الكثير الردىء ، ويحتمل أن يكون بالمهملة من « هَدَرَ الحمام » إذا صَوَّت ، والماء انْصَبَّ وانهمر ، والعُشْب طال ، وأرض هادرة : كثيرة النبات .

يثرب

الثانى والتسعون « يثرب » لغة فى أثرب ، وقد تقدم الكلام عليه فيه ، وليست المذكورة فى قول الشاعر :

وَعَدْتَ وكَانَ الْخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً ... مَوَاعِيدَ عُرْقُوبٍ أخَاهُ بِيَثْرِبِ (١)

لأن المجد قال : أجمعوا فيه على تثنية التاء وفتح الراء ، وقال : هى مدينة بحضرموت ، قيل: كان بها عرقوب صاحب المواعيد ، مع أن المجد صَحَّح أنه من قُدَماء يهود مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى مشارق عياض قيل : إن يثرب المذكورة فى البيت مثل يثرب المدينة النبوية ، وقيل : قرية باليمامة ، وقيل : إنما هى يترب بمثناة فوقية وراء مفتوحة اسم تلك القرية ، وقيل : اسم قرية من بلاد بنى سعد من تميم ، كما اختلف فى عرقوب هذا ؛ فقيل : رجل من الأوس من أهل المدينة ، وقيل : من العَمَاليقِ أهلِ اليمامة ، وقيل : من بنى سعد المذكورين اه. وأما قول هند بنت عُتْبة :

لَنَهْبِطَنَّ يَثْرِبَهْ * بِغَارَةٍ مُنْشَعِبَهْ

---

(١) السجية : الطبيعة والخلقة ، والمواعيد : جمع ميعاد ، وهو الوعد ، و« أخاه » منصوب بمواعيد لأنه جمع المصدر الميمى ، وهو يعمل عمل فعله بإجماع المعتد بهم من النحاة ، وفعله ينصب المفعول به ؛ يقال « وعدته أعده وعداً وموعداً وميعاداً » .

فالظاهر أن الهاء فيه للسكت ، فليس اسماً آخر .

الثالث والتسعون « ينده » ذكره كراع هكذا بالمثناة التحتية ودالين ، وهو إما من النَّدّ وهو الطيب المعروف ، وقيل : العنبر ، أو من النَّد للتل المرتفع ، أو من الناد وهو الرزق[١] . ينده

الرابع والتسعون « يندر » بإبدال الدال الأخيرة من الاسم قَبْلَه راء ، ذكره المجدُ عند سَرْد الأسماء ، ولم يتكلم عليه بعد ، لما سنذكره ، وإثباته لوقوعه كذلك فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » فى بعض الكتب ، وفى بعضها بمثناة فوقية ودالين ، وفى بعضها كذلك مع إبدال الدال الأخيرة راء ؛ فتحرر من مجموع ذلك أربعة أسماء : اثنان بالمثناة التحتية ، واثنان بالفوقية ، وذلك المستند فى تقديمها فى محلها ، وقال المجد : إن ذلك كله تصحيف ، وإن الصواب يندد بالمثناة التحتية ودالين[٢] ، وفيه نظر ؛ لأن الزركشى عند ذكر أسماء المدينة جمع بين اثنين من هذه الأربعة وقال : ذكرهما البكرى ؛ فيحتمل ثبوت الأخيرين ، وحديث « للمدينة عشرة أسماء » رواه ابن شَبَّة من طريق عبد العزيز بن عمران ، وَسَرَدَها فيه ثمانية فقط ، ثم روى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب سَمَّى اللهُ المدينةَ الدارَ والإيمان ، قال : وجاء فى الحديث الأول ثمانية أسماء ، وجاء فى هذا اسمان ، فالله أعلم أهما تمام العشرة أم لا اهـ . ورواه ابن زَبَالة كذلك إلا أنه سَرَد تسعة فزاد اسم الدار ، وأسقط العاشر ، ونقل ابنُ زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردى قال : بلغنى أن للمدينة فى التوراة أربعين اسماً ، والله أعلم . يندر

---

(١) يقال « ليس لهؤلاء ناد » أى رزق ، قاله المجد .

(٢) قال المجد فى (ندد) ما نصه « ويندد : موضع ، ومدينة النبى صلى الله عليه وسلم » وقال فى (ندر) ما نصه « ويندر كحيدر : من أسماء المدينة ، أو هو بدالين » اهـ .

الباب الثانى

في فضائلها ، وبَدْءِ شأنها وما يؤول إليه أمرها ، وظهور النار المنذَرِ بها من أرضها ، وانطفائها عند الوصول إلى حرمها ، وفيه ستة عشر فصلا

الفصل الأول

في تفضيلها على غيرها من البلاد

مكة أفضل أم المدينة

قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضَمَّ الأعضاء الشريفة ، حتى على الكعبة المنيفة ، وأجمعوا بعدُ على تفضيل مكةَ والمدينةَ على سائر البلاد ، واختلفوا أيهما أفضل ؛ فذهب عمر بن الخطاب وابنُه عبدُ الله ومالك بن أنس وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة ، وأحْسَنَ بعضُهم فقال : محلُّ الخلافِ في غير الكعبة الشريفة ، فهى أفضل من المدينة ماعدا ماضم الأعضاء الشريفة إجماعا ، وحكاية الإجماع على تفضيل ماضم الأعضاء الشريفة نقله القاضى عِياض ، وكذا القاضى أبو الوليد[1] الباجِيُّ قبله كما قال الخطيب ابن جملة ، وكذا نقله أبو اليمن ابن عساكر وغيرهم ، مع التصريح بالتفضيل على الكعبة الشريفة ، بل نقل التاجُ السبكى عن ابن عَقيل الحنبلى أن تلك البقعة أفضل من العرش .

وقال التاج الفاكهى : قالوا: لا خلاف أن البقعة التى ضمت الأعضاء الشريفة أفضلُ بِقَاع الأرض على الإطلاق حتى موضع الكعبة ، ثم قال: وأقول أنا : أفضل بقاع السموات أيضا ، ولم أرَ من تعرض لذلك ، والذى أعتقده أن ذلك لو عُرِضَ على علماء الأمة لم يختلفوا فيه ، وقد جاء أن السموات تشرفت بمواطىء قدميه صلى الله عليه وسلم ، بل لو قال قائل إن جميعَ بقاع الأرض أفضلُ من جميع بقاع السماء شرفها لكون النبى صلى الله عليه وسلم حالاً فيها لم يبعد ، بل هو عندى الظاهر المتعين

---

[1] في خلاصة الوفا (ص ١٠) « أبو الوليد الناجى » بالنون .

الأرض أفضل أم السماء؟

قلت : وقد صرح بما بحثه من تفضيل الأرض على السماء ابنُ العِمَادِ نقلا عن الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية

قال : وقالوا : إن الأكثرين عليه ؛ لأن الأنبياء خُلِقوا من الأرض وعَبَدوا الله فيها ، ودفنوا بها اه .

وقال النووى : المختار الذى عليه الجمهور أن السموات أفضل من الأرض ، وقيل : إن الأرض أشرف ؛ لأنها مُسْتقر[١] الأنبياء ومَدْفنهم ، وهو ضعيف

قلت : وكأن وجه تضعيفه للثانى أن الكلام عن مطلق الأرض ، ولا يلزم من تفضيل بعضها لكونها مدفنَ الأنبياء تفضيلُ كلها ، وضعف أيضا بأن أرواح الأنبياء فى السموات والأرواح أفضل من الأجساد ، وجوابه ما سنحققه إن شاء الله تعالى من حياة الأنبياء فى قبورهم ، صلوات الله وسلامه عليهم

وقال شيخنا المحققُ ابن إمام الكاملية فى تفسير سورة الصف : والحق أن مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرفُ من كل ما سواها من الأرض والسماء ، ومحلُّ الخلافِ فى غير ذلك كما كان يقرره شيخ الإسلام البلقينى

قال الزركشى : وتفضيلُ ماضم الأعضاء الشريفة للمجاورة ، ولهذا يحرم للمحدث مس جلد المصحف[٢] .

عود لتفضيل مكة أو المدينة

قال القرافى : ولما خفى هذا المعنى على بعض الفضلاء أنكر حكاية الإجماع على تفضيل ماضم الأعضاء الشريفة . وقال : التفضيلُ إنما هو بكثرة الثواب على الأعمال ، والعملُ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم محرم ، قال : ولم يعلم أن أسباب التفضيل أعم من الثواب ، والإجماع منعقد على التفضيل بهذا الوجه

---

(١) المستقر : مكان الاستقرار ، واستقرار الأنبياء فى الأرض أما فى حياتهم فلأنها موطن دعوتهم والحاجة إليهم فيها ، وأما بعد وفاتهم فلأن مدفنهم بها .

(٢) قاس ما ضم الأعضاء على جلد المصحف ، فكما أعطى جلد المصحف حكم المصحف لعلة المجاورة أعطى ما ضم الأعضاء حكم الأعضاء لعلة المجاورة ، والقرافى جعل العلة هى كثرة الثواب فلم يصح عنده هذا القياس .

لا بكثرة الثواب ، ويلزمه أن لا يكون جِلْدُ المصحف — بل ولا المصحف نفسه — أفْضَلَ من غيره لتعذر العمل فيه ، وهو خرق للاجماع

قلت : وما ذكره من التفضيل بالمجاورة مُسَلَّم ، لـكن ما اقتضاه من عدم التفضيل لـكثرة الثواب فى ذلك ممنوع لما سنحققه .

كلام للعز ابن عبدالسلام

وأصلُ الإشكال لابن عبد السلام فإنه قال فى أماليه : تفضيلُ مكة على المدينة أو عكسه معناه أن الله يرتّب على العمل فى إحداهما من الثواب أكثر مما يرتبه على العمل فى الأخرى ؛ فيشكل قول القاضى عياض : أجمعت الأمة على أن موضع القبر الشريف أفضل ؛ إذ لا يمكن أحد أن يعبد الله فيه .

كلام للتقى السبكى

قال التقى السبكى : وقد رأيت جماعة يستشكلون نقل هذا الإجماع ، وقال لى قاضى القضاة السروجى الحنفى : طالعتُ فى مذهبـــنا خمسين تصنيفا فلم أجـــد فيها تعرضا لذلك ، قال السبكى : وقد وقفت على ماذكره ابن عبد السلام من أن الأزمان والأماكن كلها متساوية ، ويفضلان بمـا يقع فيهما ، لا بصفات قائمة بها ، ويرجع تفضيلها إلى ما يُنِيلُ اللهُ العبادَ فيهما ، وأن التفضيل الذى فيهما أن الله يجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما ، قال السبكى : وأنا أقول : قد يكون التفضيل لذلك ، وقد يكون لأمر آخر فيهما ، وإن لم يكن عمل ؛ فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة ، وله عند الله من المحبة ، ولساكنه ماتقصر العقول عن إداركه ، وليس ذلك لمكان غيره ؛ فـكيف لايـكون أفضل الأماكن ؟ وليس محل عمل لنا ، فهذامعنى غير تضعيف(١) الأعمال فيه ، وأيضا فباعتبار ماقيل : إن كل أحديدفن بالموضع الذى خلق(٢) منه ، وأيضا فقد تكون الأعمال مضاعفة فيها باعتبار أن النبى صلى الله عليه وسلم حى ، وأن أعماله مضاعفة أكثر من كل أحد ؛ فلا يختص التضعيف بأعمالنا نحن

---

(١) تضعيف الأعمال : أراد به تضعيف ثوابها ، بأن يعطيه الله على العمل فيهما أضعاف ما يعطيه على هذا العمل فى غيرهما (والله يضاعف لمن يشاء) .

(٢) سيأتى ذكرهذه المسألة والاستدلال عليها ، انظر ص ٣٢ الآتية .

قلت : وهذا من النفاسة بمكان ، على أنى أقول : الرحمات والبركات النازلة بذلك المحل يعم فَيْضُها الأمة ، وهى غير متناهية ؛ لدوام ترقياته عليه الصلاة والسلام ، وما تناله الأمة بسبب نبيها هو الغاية فى الفضل ، ولذا كانت خيرَ أمةٍ بسبب كون نبيها خير الأنبياء[١] ، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضلَ البقاع مع كونه منْبعَ فيض الخيرات ؟ ألا ترى أن الكعبة على رأى مَنْ منع الصلاة فيها ليست محل عملنا ، أفيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها لأنه محل العمل مع أن الكعبة هى السبب فى إنالة تلك الخيرات ؟ وأيضا فاهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر أمته معلوم ، و إقبال الله عليه دائم ، وهو بهذا المحل الشريف ، فتكثر شفاعته فيه لأمته وأمداده إياهم ، وقد ورد فى حديث « وَفَاتِى خيرٌ لكم »[وجاء] بيان ذلك بأن «أعمالكم تُعْرَضُ على ؛ فإن رأيت خيرا حمدت الله ، و إن رأيت غير ذلك استغفرت لكم » وفى رواية «استوهَبْتُ اللهَ ذنوبكم » وله شواهد تُقَوِّيه ، وسيأتى فى الباب الثامن أن المجىء المذكور فى قوله تعالى « ولو أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أنفسهم جاؤك[٢] » الآيةَ حاصلٌ بالمجىء إلى قبره الشريف أيضا ، فزيارته والمجاورة عنده من أفضل القُربات ، وعنده تجاب الدعوات ، وتحصل الطلبات ، فقد جعله الله تعالى سببا فى ذلك أيضا ، فهو رَوْضَة من رياض الجنة ، بل أفضل رياضها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لَقَابُ قَوْسِ[٣] أحدكم فى الجنة خير من الدنيا ومافيها» بل لو تعلق متعلق بما قررناه من كون القبر الشريف منبع جميع الخيرات وهو بالمدينة فتكون هى أفضل لكان له وجه

وقد قال الحكيم الترمذى فى نوادره : سمعتُ الزبيرَبن بكار يقول : صَنَفَ بعضُ أهل المدينة فى المدينة كتابا ، وصنف بعض أهل مكة فى مكة كتابا ، فلم

---

(١) وهذا بنص الكتاب الكريم ، قال الله تعالى فى سورة آل عمران من الآية ١١٠ (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) .
(٢) من سورة النساء من الآية ٦٤ .
(٣) قاب قوس : مقداره .

يزل كل واحد منهما يذكر بقعته بفضيلة ، يريد كل واحد منهما أن يبرز[1] على صاحبه بها ، حتى برز المدنى على المكى فى خَلَّةٍ واحدة[2] عجزعنها المكى ، وان المدنى قال : إذ كل نفس إنما خلقت من تربته التى يُدْفَنُ فيها بعد الموت ، وكان نفس الرسول إنما خلقت من تربة المدينة ؛ فحينئذ تلك التربة لها فضيلة بارزة على سائر الأرض

يخلق الإنسان من تربة الأرض التى يدفن فيها

قلت : ويدل لما ذكر من أن النفس تخلق من تربة الدفن ما رواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح وله شواهد صحيحة عن أبى سعيد ، قال : « مرَّ النبىُّ صلى الله عليه وسلم عند قبر ، فقال : قَبْرُ مَنْ هذا ؟ فقالوا : فلان الحبشى يارسول الله ، فقال : لا إلهَ إلا الله ، سيق من أرضه وسمائه إلى التربة التى منها خلق » ورواه الحكيم الترمذى بنحوه عن أبى هريرة ، ورواه البزار عن أبى سعيد بنحوه ، وفيه عبد الله والد ابن المدينى وهو ضعيف ، وروى الطبرانى فى الأوسط نحوه عن أبى الدرداء ، وفيه الأحوص بن حكيم ، وثَّقه العِجْلى ، وضعفه الجمهور ، وروى فى الكبير أيضا نحوه عن ابن عمر ، وقال الذهبى فى بعض رواته : ضعفوه ، وأسند ابن الجوزى فى الوفاء عن كعب الأحبار : لما أراد الله عز وجل أن يخلق محمدا صلى الله عليه وسلم أمرَ جبريلَ فأتاه بالقَبْضَة البيضاء التى هى موضِعُ قبره صلى الله عليه وسلم ، فعُجِنت بماء التَّسْنيم ، ثم غمست فى أنهار الجنة ، وطِيفَ بها فى السموات والأرض ، فعرَفت الملائكة محمدا وفضله قبل أن تعرف آدم عليه السلام ، وسيأتى لهذا مزيدُ بيانٍ فى سَرْد خصائصها .

وقال الحكيم الترمذى فى حديث « إذا قضى الله لعبدٍ أن يموت بأرض جَعَلَ له إليها حاجةً » : إنما صار أجَله هناك لأنه خُلِق من تلك البقعة ، وقد قال الله تعالى : « مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ[3] » الآية ، قال : فإنما يُعَادُ المرء من حيث بدىء منه ، قال : وروى أن الأرض عَجَّتْ[4] إلى ربها لما أخذت تربة آدم عليه السلام ، فقال لها : سأردُّها إليك ، فإذا مات دُفِنَ فى البقعة التى منها تربته

(١) يبرز : يتفوق .
(٢) الخلة — بفتح الخاء — الخصلة .
(٣) من سورة طه من الآية ٥٥ .
(٤) عجت : رفعت صوتها كأنها تصرخ .

وعن يزيد الجريرى قال : سمعت ابن سِيرِينَ يقول : لو حَلَفْتُ حلفت صادقا بارا غير شاك ولا مُسْتَثْنٍ أن الله تعالى ما خلق نبيه صلى الله عليه وسلم ولا أبا بكر ولا عمر إلا من طينة واحدة ثم ردهم إلى تلك الطينة

وروى ابن الجوزى فى الوفاء عن عائشة قالت : لما قُبِضَ النبى صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى دفنه ؛ فقالوا : أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال على : إنه ليس فى الأرض بقعة أكرمُ على الله من بقعة قبض فيها نفس نبيه صلى الله عليه وسلم ، وروى يحيى أن عليا قال لما اختلفوا : لا يُدْفَنُ إلا حيث توفاه الله عز وجل ، وأنهم رَضُوا بذلك .

قلت : ويؤخذ مما قاله على مستند نقل الإجماع السابق[1] على تفضيل القبر الشريف ؛ لسكوتهم عليه ، ورجوعهم إلى الدفن به .

ولما قال الناس لأبى بكر رضى الله عنه : يا صاحب رسول الله ، أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فى المكان الذى قَبَضَ الله تعالى روحه فيه ؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا فى مكان طيب ، رواه الترمذى فى شمائله ، والنسائى فى الكبرى ، وإسنادُه صحيح ، ورواه أبو يعلى الموصلى ، ولفظه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبضُ النبيُّ إلا فى أحب الأمكنة إليه » .

قلت : وأحبها إليه أحبها إلى ربه ؛ لأن حبه تابع لحب ربه إلا أن يكون حبه عن هوى نفس ، وما كان أحبَّ إلى الله ورسوله كيف لا يكون أفضل ، ولهذا أخذت تفضيل المدينة على مكة من قوله صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيح « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » أى بل أشد ، أو وأشد ، كما روى به ، ومن إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم كان يحرك دابته إذا رآها من حبها .

(١) أى لكونه رضى الله تعالى عنه قد قال عبارة تدل على أن أكرم بقعة فى الأرض هى التى قبضت فيها نفسه صلى الله عليه وسلم ، وقد دفن صلوات الله عليه حيث قبضت نفسه .

وقد روى الحاكم فى مستدركه حديث « اللهمَّ إنك أخرجْتَنِي من أحب البقاع إلىَّ ، فاسكنّى فى أحبِّ البقاع إليك » وفى بعض طرقه أنه صلى الله عليه وسلم قاله حين خرج من مكة ، وفى بعضها أنه وقف بالحزورة(1) ، وفى بعضها بالحَجُون فقالَهُ ، وقد ضعفه ابن عبد البر

قيل : ولو سلمت صحته فالمراد أحبُّ البقاع إليك بعد مكة ؛ لحديث « إن مكة خير بلاد الله » وفى رواية « أحب أرض الله إلى الله » ولأنه قد صح لمسجد مكة من المُضَاعفة زيادة على ما صح لمسجد المدينة كما سيأتى

قلت : فيما قدمناه من دعائه صلى الله عليه وسلم بحبها أشدَّ من حب مكة مع ما أشرنا إليه من إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ، ومن أنه تعالى لا يجعلها أحبَّ إلى نبيه إلا بعد جعلها أحبَّ إليه تعالى غنيةٌ عن صحة هذا الحديث ، وكونُ المراد منه ما ذكر خلافُ الظاهر ، وما ذكر لا يصلح مستندا فى الصَّرْفِ عن الظاهر ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قَصَدَ به الدعاء للدار التى تكون هجرتُه إليها ، فطلب من الله أن يُصَيرها أحبَّ البقاع إليه تعالى ، والحب من الله تعالى إنالة الخير والتعظيم للمحبوب ، وهذا يمكن تجدده بعد أن لم يكن ، وقوله « إن مكة خيرد بلاد الله وأحبها إليه » محمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله فى بَدْء الأمر قبل ثبوت الفضل للمدينة ، فلما طالت إقامته صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأظهر الله دينه ، وتجدد لها ما سيأتى من الفضائل حتى عاد نفعها على مكه ، فافْتَتَحها الله وسائر بلاد الإسلام منها ؛ فقد أنالها الله تعالى وأنال بها من الخير مالم يُنِلْه غيرَها من البلاد ، وظهر إجابة الدعوة الكريمة ، وأنها صارت خير أرض الله وأحبها إليه بعد ذلك ، ولهذا لم يَعُد النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد فتحها .

(1) الحزورة — بفتح فسكون — كانت سوق مكة ، ثم دخلت فى المسجد الحرام لما زيد فيه ، وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم « وقف بالحزورة ، فقال : يابطحاء مكة ماأطيبك من بلدة ! ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك » والحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

فإن قيل : إنما لم يعد إليها لأن الله افترض عليه المقام بدار هجرته .

قلنا : لم يكن الله ليفترض عليه المقام بها إلا وهى أفضل؛ لكرامته عنده ، وقد حَثَّ صلى الله عليه وسلم على الاقتداء به فى سكناها والإقامة بها ، وقال : « والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

فإن قيل : قال التقى الفاسى : ظن بعض أهل عصرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن مكة خير بلاد الله » حين خرج من مكة للهجرة ، وليس كذلك ؛ لأن فى بعض طرق الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك وهو على راحلته بالحزورة ، وهو لم يكن بهذه الصفة حين هاجر ؛ لأن الأخبار تقتضى أنه خرج من مكة مستخفيا ، ولو ركب بالموضع المشار إليه — وهو الذى يقول له عوام مكة عزوة — لأشعر ذلك بسفره .

قلنا : جاء فى رواية لابن زَبَالة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين أمره الله بالخروج قال : « اللهم إنك أخْرَجْتَنِى » الحديثَ ، وقد وقع فى رواية لابن حبان فى حديث الهجرة « فركبا — يعنى هو وأبو بكر — حتى أتيَا الغار — وهو ثور — فتوارَيَا فيه » وسيأتى فى أحاديث الهجرة ما يقتضى أنهما توجها إلى الغار ليلا بعد أن ذَرَّ صلى الله عليه وسلم ترابا على رؤوس جماعة من الكفار كانوا يرْصُدونه ، وقرأ أوائل يس يستتر بها منهم ، فلم يرَوْهُ ، فلا يمتنع أن يكون راكبا فى هذا الموضع .

وأما أمر مَزِيد المضاعفة لمسجد مكة ، فجوابه أن أسباب التفضيل لا تنحصر فى المضاعفة ، ألا ترى أن فعل الصلوات الخمسة للمتوجهِ إلى عرفات وظهر يوم النحر بمِنًى أفْضَلُ من فعلها بمسجد مكة ، وإن اشتمل فعلها بالمسجد على المضاعفة إذ فى الاتِّباع ما يَرْبو عليها ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه بمزيد المضاعفة لمسجد مكة كما سيأتى مع قوله بتفضيل المدينة ، وغايته أن للمفضول مزية ليست للفاضل ، ويؤيد ذلك ما سيأتى من أن المضاعفة تعم الفرض والنفل ، وأن النفل بالبيت

أفضل ، على أنه إن أريد بالمسجد الحرام فى حديث المضاعفة الكعبة فقط كما ستأتى الإشارة إليه ، فالجواب أن الكلام فيما عداها ، مع أن دعاءه صلى الله عليه وسلم للمدينة بضعفى ما بمكة من البركة ، ومع البركة بركتين شامل للأمور الدينية والدنيوية ، وقد يبارك فى العدد القليل فيربو[1] نفعه على الكثير، ولهذا استدل به على تفضيل المدينة لأكثرية المدعو بِهِ لها من البركة الشاملة .

ولا يَرِدُ على ما قررناه ما جاء فى فضل الكعبة الشريفة ؛ إذ الكلام فيما عداها ، ولهذا روى مالك فى الموطأ [2] أن عمر رضى الله عنه قال لعبد الله بن عياش المخزومى : أنت القائل لمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأَمْنُه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله ولا فى بيت الله شيئا ، ثم قال عمر : أنت القائل لمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هى حرم الله وأمنه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول فى حرم الله ولا فى بيت الله شيئا ، ثم انصرف ، وفى رواية لرُزَين : فاشتد على ابن عياش ، فانصرف .

ولا يَرِدُ أيضا ما بمكة من مواضع النسك ؛ لتعلق النُّسُك بالكعبة ، وأيضا فقد عوّض الله المدينة عن العمرة ما سيأتى فى مسجد قباء ، وعن الحج ما سيأتى مرفوعا « مَنْ خرج لا يريد إلا الصلاة فى مسجدى حتى يُصَلى فيه كان بمنزلة حجة » ، وهذا أعظم ؛ لكونه أيسر ، ويتكرر فى اليوم والليلة مرارا ، والحج لا يتكرر ، ويؤخذ منه أنه يضاف إلى ما جاء فى المضاعفة بمسجدها الحجة لمن أخلص قصده للصلاة .

ولا يَرِدُ أيضا كونه صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بعد النبوة أكثر من إقامته بالمدينة ، على الخلاف فيه ؛ لأن إقامته بالمدينة كان سببا فى إعزاز دين الله وإظهاره ، وبها تقررت الشرائع ، وفرضت غالب الفرائض ، وأكمل الله الدين ، واستقر بها صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

---

(١) يربو : يزيد .　　(٢) انظر الموطأ (ص ٨٩٤ ط الحلبى سنة ١٣٧٠)

وقد ثبت فى محبته صلى الله عليه وسلم للمدينة ما لم يثبت مثله لمكة ، وحَثَّ عَلَى الإقامة والموت بها ، والصبر عَلَى لأوائها وشدتها ، كما ستقف عليه ، وسيأتى حديث « اللهم لا تجعل مَنَايانا بمكة » وحديث « ماعَلَى الأرض بقعة أحَبُّ إلىَّ من أن يكون قبرى بها منها » يعنى المدينة ، قالها ثلاث مرات .

وقد شرع الله لنا أن نحب ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ، وأن نعظم ما كان يعظمه ، وإذا ثبت تفضيل الموت بالمدينة ثبت تفضيل سكناها ، لأنه طريقه . هذا ، وقد روى الطبرانى فى الكبير والمفضل الجندى فى فضائل المدينة وغيرهما عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال : أشهد سمعت — وفى رواية « لسمعت » — رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المدينة خير من مكة » ، وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن الرداد ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان يخطىء ، وقال أبو حاتم : ليس بقوى ، وقال أبو زرعة : لين ، وقال الأزدى : لا يكتب حديثه ، وقال ابن عَدِى : روايته ليست محفوظة ، ولهذا قال ابن عبد البر : هو حديث ضعيف ، وفيما قدمناه غنية عنه .

وفى الصحيحين حديث « إن الايمان ليأرِز إلى المدينة كما تأرِزُ الحية إلى جحرها » ويأرز كمسجد[1] أى ينقبض ويجتمع وينضم ويلتجىء ، وقد رأينا كل مؤمن له من نفسه سائق إلى المدينة لحبه فى النبى صلى الله عليه وسلم ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة ؛ لأنه فى زمنه صلى الله عليه وسلم للتعلم منه ، وفى زمن الصحابة والتابعين للاقتداء بهم ، ومن بعد ذلك لزيارته ، وفضل بلده ، والتبرك بمشاهدة آثاره ، والاتباع له فى سكناها .

وروينا فى فضائل المدينة للجندى حديث « يوشك الإيمان أن يأرِزَ إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » يعنى يرجع إليها الإيمان .

---

(١) قوله « كمسجد » الأولى أن يقال « كيضرب » ، وانظر ص ١١ الهامشة رقم ٢ .

وأسند ابن زَبَالة حديث « لا تقوم الساعة حتى يحاز الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيلُ الدِّمَنَ » .

وقد تقدم فى الأسماء[1] حديث الصحيحين « أمِرْتُ بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب، وهى المدينة » قال ابن المنذر : يحتمل أن يكون المراد بأكلها القرى غَلَبة فضلها على فضل غيرها ؛ فمعناه أن الفضائل تضمحلُّ فى جنب عظيم فضلها حتى تكاد تكون عدما ، وهذا أبلغ من تسمية مكة « أم القرى » ؛ لأن الأمومة لا تنمحى معها ما هى له أم ، لكن يكون لها حق الأمومة ، انتهى .

وجزم القاضى عبد الوهاب بهذا الاحتمال .

وروى البزار عن علىّ رضى الله عنه حديث « إن الشياطين قد يئست أن تعبد ببلدى هذا » يعنى المدينة « و بجزيرة العرب ، ولكن التحريش بينهم » وله أصل فى صحيح مسلم من حديث جابر .

وروى أبو يَعْلىٰ بسند فيه مَن اختلف فى توثيقه و بقية رجاله ثقات عن العباس رضى الله عنه قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة فالتفتَ إليها وقال : « إن الله قد برّأ هذه الجزيرة من الشرك » وفى رواية « إن الله قد طَهّر هذه القرية من الشرك ، إن لم تضلّهم النجوم ، قال : يُنزِلُ الله الغيثَ ، فيقولون : مُطِرْنَا بِنَوْء[2] كذا وكذا » وقد تقدم فى الأسماء تسميتها بالمؤمنة والمسلمة ، وأنه لا مانع من إجرائه على ظاهره فهو مقتضٍ للتفضيل ، سيما وسببه ما سبق من كونه صلى الله عليه وسلم خُلِقَ من تربتها .

وقد استدل أبو بكر الأبهرى من المالكية على تفضيلها على مكة بما سبقت الإشارة إليه من أن النبى صلى الله عليه وسلم مخلوق من تراب المدينة ، وهو أفضل البشر ، فكانت تربته أفضل الترب . قال الحافظ ابن حَجَر : وكون تربته أفضل الترب لا نزاع فيه ، وإنما النزاع هل يلزم من ذلك أن تكون المدينة أفضل من

---

(١) انظر ص ١١ السطر ٣ .

(٢) النوء : أن يسقط نجم فى المغرب مع الفجر ويطلع رقيبه من ساعته .

مكة لأن المجاور للشيء لو ثبت له جميعُ مزاياه لكان لجارِ ذلك المجاور نحوذلك ؛ فيلزم أن يكون ما جاور المدينة أفضل من مكة ، وليس كذلك اتفاقاً ، كذا أجاب به بعض المتقدمين ، وفيه نظر ، انتهى .

قلت : لم يبين وجه النظر ، ولعل وجهه أن الأفضل لقوة أصالته في الفضل يفيد مجاورَه الأفضلية لمزية هذه المجاورة الخاصة ، وهي منتفية عن مجاور المجاور ، ألا ترى أن جلد المصحف قد ثبت له مزية التعظيم للمجاورة ، ولم يلزم من ذلك ثبوت نحوها لمجاوره ، وأيضاً فالمقتضى لتفضيل المدينة خلقه صلى الله عليه وسلم من تربتها ، وهذا لا يوجد لمجاورها ، والله أعلم .

الفصل الثاني

في الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها وشدتها ، وكونها تنفي الخبث والذنوب ، ووعيدِ من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً .

روينا في الصحيحين حديث « مَنْ صبر على لأوائها وشدتها كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » . وعد من صبر على شدتها

وفي صحيح مسلم عن سعيد مولى المهري أنه جاء إلى أبي سعيد الخدري ليالي الحرة ، فاستشاره في الجلاء من المدينة ، وشكا إليه أسعارها وكثرةَ عيالِه ، وأخبره أن لا صَبْرَ له على جَهْدِ المدينة ولأوائها ، فقال : ويحك ! لا آمرك بذلك ، إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يصبر » وفي رواية « لا يثبت أحَدٌ على لأوائها وجَهْدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة » وفي رواية « فقال أبو سعيد: لا تفعل ، الزم المدينة » وذكر الحديث بزيادة قصة .

وفي مسلم وفي الموطأ والترمذي عن يُحَنِّسَ[1] مولى مصعب بن الزبير أنه كان

(١) يحنس : بضم الياء المثناة وفتح الحاء المهملة ، وبعدها نون مشددة مكسورة أو مفتوحة ، وآخره سين مهملة أو شين معجمة ، ووقع في المطبوعات « بخيس » تطبيع (وانظر الموطأ ٨٨٥ وخلاصة الخزرجي ٤٤٢)

جالساً عند ابن عمر فى الفتنة، فأتته مولاة [له] تسلم عليه، فقالت : إنى أردت الخروجَ يا أبا عبد الرحمن ، اشتدَّ علينا الزمان ، فقال لها عبدُ الله : اقعدى لـكَاعِ [1] ، ولفظ الترمذى : اصْـبِرِى لـكَاعِ [1] . فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » .

فإن قيل : ما معنى التردد فى قوله « شفيعاً أو شهيداً » ؟ وما معنى هذه الشفاعة مع عموم شفاعته صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : ذكر عياض ما ملخصه أن بعض مشايخه جعل « أو » للشك من الراوى ، وأن الظاهر خلافه لـكثرة رواته بذلك ، بل الظاهر أنه من لفظه صلى الله عليه وسلم ، فإما أن يكون أعلم بهذه الجملة هكذا ، و إما أن تكون « أو » للتقسيم ، و يكون شفيعاً للعاصين وشهيداً للمطيعين ، أو شهيداً لمن مات فى حياته وشفيعاً لمن مات بعده ، قال : وهذه الشفاعة أو الشهادة زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعاملين فى القيامة وعلى شهادته على جميع الأمم ، فيكون لتخصيصهم بذلك مزية وزيادة منزلة وحُظْوة قال : و يحتمل أن يكون « أو » بمعنى الواو . قلت : و يدلّ له ما رواه البزّارُ برجال الصحيح عن عمر رضى الله عنه بلفظ « فمن صبر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعا وشهيداً يوم القيامة » وأسنده ابن النجار بلفظ « كنت له شفيعا وكنت له شهيداً يوم القيامة » وأسنده المفضل الجندى فى فضائل المدينة عن أبى هريرة أيضا بلفظ « لا يصبر أحد على لأواء المدينة » وفى نسخة « وحرها إلا كنت له شفيعا وشهيداً » قال القاضى : و إذا جعلنا « أو » للشك فإن كانت اللفظة شهيداً فالشهادة أمر زائد على الشفاعة المجردة المدخرة لغيرهم من الأمة ، و إن كانت اللفظة شفيعا فهذه شفاعة غير العامة تكون لأهل المدينة بزيادة الدرجات أو تخفيف الحساب أو بإكرامهم يوم

---

(١) لـكاع : كلمة تذكر لسب الأنثى ، وهى مبنية على الـكسر ، ومعناها : ياحمقاء ، أو يامن لا تتجهين لمنطق ولا غيره ، وفى الموطأ (٨٨٦) « اقعدى لـكع »

القيامة بأنواع من الكرامات كإيوائهم فى ظل العرش أو كونهم فى روح[1] وعلى منابر أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات . قلت : ويحتمل أن يجمع لهم ببركة شفاعته صلى الله عليه وسلم أو شهادته الخاصة بين ذلك كله ؛ فالجاه عظيم ، والكرم واسع ، وتأكيد الوصية بالجار يؤيد ذلك ، ويحتمل أيضا أن يكون المراد مع ذلك البشرى بموتهم على الإسلام ؛ لأن شفاعته وشهادته صلى الله عليه وسلم المذكورة خاصة بالمسلمين ، وكفى بذلك نعمة ومزية ، وسيأتى الإشارة إلى نحو ذلك فى أول الباب الثامن .

وفى الموطأ والصحيحين حديث « تفتح اليمن فيأتى قوم يَبُسُّونَ فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » الحديث .

وقوله « يبسون » بفتح المثناة التحتية أوله وضم الباء الموحدة وكسرها ، ويقال أيضا بضم المثناة وكسر الموحدة — يسوقون بهائمهم سوقا شديداً ، وقيل : البَسُّ : سرعة الذهاب .

المدينة تنفى الخبث

وفى مسلم حديث « يأتى على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه أو قريبه : هَلُم إلى الرخاء ، هلم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذى نفسى بيده لا يخرج أحد رغبةً عنها إلا أخلَفَ الله فيها خيراً منه ، ألا إن المدينة كالكير[2] تخرج الخبث ، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارَهَا كما ينفى الكِيرُ خَبَثَ الحديد » .

وفى الصحيحين « أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناسَ كما ينفى الكيرُ خَبَثَ الحديد » وفى رواية لابن زَبَالَة « إن المدينة تنفى خَبَثَ الرجال » وفى رواية « خَبَثَ أهلها كما ينفى الكِيرُ خَبَثَ الحديد » .

---

(١) الروح — بفتح الراء وسكون الواو — الراحة والرحمة ، وقوله «على منابر» أى من نور كما ورد فى حديث .

(٢) الكير — بكسر الكاف — زق ينفخ فيه الحداد (المنفاخ)

وفى صحيح البخارى حديث « إنها طيبة تنفى الذنوبَ كما ينفى الكير خبث الفضة » .

وفى الصحيحين قصة الأعرابى الذى جاء من الغد محموما فقال : أَقِلْنى بيعتى ، فأبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج الأعرابى ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنما المدينة كالكير تنفى خبثها وتَنْصَعُ طَيِّبَهَا » .

قوله « أقلنى بيعتى » أى انقض العهدَ حتى أرجع إلى وطنى ، وكأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة . وقوله « تنفى خبثها » يحتمل أن يكون بمعنى الطرد والإبعاد لأهل الخبث ، وقصة الأعرابى المذكور ظاهرة فيه ، وخصه ابنُ عبدِ البر بزمنه صلى الله عليه وسلم ، والظاهر كما قال النووى عدم التخصيص ؛ ففى الصحيح « لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها » يعنى عند ظهور الدجال ، وسيأتى فى الفصل الخامس فى حديث أحمد وغيره برجال الصحيح قصة خروج مَنْ بالمدينة من المنافقين إلى الدجال ، ثم قال « وذلك يوم التخليص ، ذلك يوم تنفى المدينة الخبث » وقال عمر بن عبدالعزيز مشفقاً إذ خرج منها لمن معه : أتخشى أن نكون ممن نفت المدينة ؟ وقد طهرها الله تعالى ممن كان بها من أربابِ الأديان المخالفين لدين الإسلام، وأهلكَ من كان بها من المنافقين ، وهؤلاء هم أهل الخبث الكامل ، ومَنْ عداهم من أهل الخبث والذنوب قد يكون طرده وإبعاده إن استمر على ذلك بآخرة الأمر بنقل الملائكة له إلى غيرها من الأرض كما أشار إليه الأقشهرى قال : ويكون قوله « تنفى خبثها ، وتنفى الذنوب » أى أهل ذلك ، على طريقة حذف المضاف ، ويحتمل أن يكون بمعنى طرد أهل الخبث الكامل ، وهم أهل الشقاء والكفر ، لا أهل السعادة والإسلام ؛ لأن القسم الأول ليس قابلا للشفاعة ولا المغفرة ، وقد وعد صلى الله عليه وسلم مَنْ يموت بها بالشفاعة [لهذا](1) وجب انتفاء القسم الأول منها ، ويحتمل أن يكون بمعنى تخليص النفوس من شرها وميلها إلى اللذات

---

(١) زيادة يستدعيها اتساق الكلام

بما فيها من اللأواء والشدة ، ويؤيده رواية « إنها طيبة تنفى الذنوب » الحديث ، ويكون نفيها للذنوب على ظاهره ، سيما وقد اشتملت على عظيم المضاعفات ، وتنوع المَثُوبات ، وتوالى الرحمات ، وقد قال تعالى : « إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبن السيئات »[1] مع ما لأهلها من الشفاعة والشهادة الخاصة ، وما بها من تضاعف البركات ، ويحتمل أن يكون بمعنى أنه لا يخفى حال من انطوى فيها على خَبَثٍ ، بل تظهر طويته كما هو مُشَاهد بها ، ولم أر الآن مَنْ نَصَّ على هذا الاحتمال ، وهو فى حفظى قديماً ، ويؤيده مافى غزوة أحد فى الصحيح من أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد رَجَع ناس من أصحابه — أى وهم المنافقون — فقال صلى الله عليه وسلم : « المدينة كالكِيرِ » الحديثَ ، ولهذا سميت بالفاضحة كما قدمته ، مع أن الذى ظهر لى من مجموع الأحاديث واستقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفى خبثها بالمعانى الأربعة .

وقوله « وتنصع » بالفوقانية المفتوحة والنون والمهملتين كتمنع — أى تخلص ، والناصع : الخالص الصافى ، و « طيبها » بفتح الطاء والتشديد منصوبا على أنه مفعول هذا هو المشهور فيه ، والله أعلم .

وعيد من أراد أهلها بسوء

وفى صحيح مسلم من حديث جابر فى تحريم المدينة مرفوعا « ولا يريدُ أحَدٌ أهْلَ المدينة بسوء إلا أذابه الله فى النار ذَوْبَ الرَّصاصِ ، أو ذوب الملح فى الماء » .

قال عياض : قوله « فى النار » يدفع إشكال الأحاديث التى لم تذكر فيها هذه الزيادة ، ويبين أن هذا حكمه فى الآخرة . قال : وقد يكون المراد به أن مَنْ أرادها فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كُفِيَ المسلمون أمره ، واضمحل كيده كما يضمحل الرصاص فى النار . قال : ويحتمل أن يكون المراد مَنْ كادَهَا اغتيالا

---

(١) من سورة هود من الآية ١١٤ .

وطلبا لغرتها فلا يتم له أمر ، بخلاف مَنْ أتى ذلك جهارا . قال : وقد يكون فى اللفظ تقـديم وتأخير : أى أذابه الله كذوب الرصاص فى النار ، ويكون ذلك لمن أرادها فى الدنيا فلا يمهـله الله ولا يمكن له سلطانا ، بل يذهبه عن قرب ، كما انقضى شأن مَنْ حاربها أيام بنى أمية مثل مسلم بن عقبة[١] ، فأهلك فى منصرفه منها . ثم هلك يزيد بن معاوية مُرْسِلُه على أثر ذلك ، وغيرهما ممن صنع صنيعهما ، انتهى .

وهذا الاحتمال الأخير هو الأرجح ، وليس فى الحديث ما يقتضى أنه لا يتم له ما أراد منهم ، بل الوعد بإهلاكه ، ولم يزل شأن المدينة على هذا حتى فى زماننا هذا لمـا تظاهرت طائفة العياشى بإرادة السوء بالمدينة الشريفة لأمر اقتضى خروجهم منها حتى أهلك الله تعالى عُتَاتهم مع كثرتهم فى مدة يسيرة

وقد يقال : المراد من الأحاديث الجمع بين إذابته بالإهلاك فى الدنيا و بين إذابته فى النار فى الأخرى ، والمذ كور فى هذا الحديث هو الثانى ، وفى غيره الأول ؛ ففى رواية لأحمد برجال الصحيح من جملةِ حديثٍ « من أرادها بسوء » يعنى المدينة « أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » وكذا فى مسلم أيضاً ، وفى فضائل المدينة للجندى حديث « أيما جَبَّارٍ أراد المدينة بسوء أذابه الله تعالى كما يذوب الملح فى الماء » وفى رواية لمسلم « مَنْ أراد أهْلَ هذه البلدة بسوء ـ يعنى المدينة ـ أذابه الله تعالى كما يذوب الملح فى الماء » وفى رواية له أيضا « مَنْ أراد أهْلَ هذه البلدة بدَهْمٍ أو بسوء » ، وروى البزار بإسنادٍ حَسَنٍ حديثَ : « اللهم اُكْفِهِمْ مَنْ

---

(١) مسلم بن عقبة المرى : هو الذى سموه فيما بعد « مسرفا » وهو الذى أرسله يزيد بن معاوية لحرب أهل المدينة ، وكانوا قد خلعوا يزيد ، وأخرجوا عامله عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وأمروا عليهم عبد الله بن حنظلة ، ووقعة مسلم بأهل المدينة تسمى « وقعة الحرة » وقد مات بالمشلل — وقيل : بثنية هرشى — منصرفه عن المدينة قاصداً مكة لقتال عبد الله بن الزبير بن العوام ، فى سنة ٦٤ من الهجرة .

دَهَمَهم ببأس » يعنى أهل المدينة « ولا يريدها أحَدٌ بسوء إلا أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » .

وقوله «دهمهم» محركا أى غشيهم بسرعة ، وقوله فى الحديث قبله « بدهم » بفتح أوله وإسكان ثانيه — أى بغائلة وأمر عظيم ، ولذا قيل : المرادُ غازيا مُغيرا عليها .

وفى البخارى حديث « لا يكيد أهلَ المدينةِ أحَدٌ إلا انماع[1] كما يَنْماعُ الملح فى الماء » وأسند ابن زَبَالة عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف على المدينة فرفع يديه حتى رؤى عُفرة إبطيه ثم قال « اللهم مَنْ أرادنى وأهلَ بلدى بسوء فعَجِّلْ هَلاكه » وروى الطبرانى فى الأوسط برجال الصحيح حديث « اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخِفْهُ وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقْبَل منه صَرْف[2] ولا عَدْل» وفى رواية لغيره « مَنْ أخاف أهل المدينة أخافه الله يوم القيامة ، وغَضِبَ عليه، ولم يقبل منه صَرْفا[3] ولا عدلا » وروى النسائى حديث « من أخاف أهل المدينة ظالما لهم أخافه الله ، وكانت عليه لعنة الله » الحديث ، ولابن حِبان نحوه ، وروى أحمد برجال الصحيح عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أن أميرا من أمراء الفتنة قَدِمَ المدينة ، وكان قد ذهب بصرُ جابر، فقيل لجابر : لو تنحَّيْتَ عنه[3] ، فخرج يمشى بين ابنيه ، فنكب ، فقال : تعِسَ مَنْ أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال ابناه ، أو أحدُهما : يا أبتِ ، فكيف أخاف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد مات ؟ فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أخاف أهْلَ المدينة فقد أخاف ما بين جَنْبَيَّ » .

---

(١) انماع ينماع : ذاب يذوب .

(٢) الصرف — بفتح فسكون — التوبة ، أو الفدية ، أو النافلة ، وسيأتى للشارح تفسيره ص ٤٧ .

(٣) تنحيت عنه : ابتعدت .

قلت : والظاهر أن الأمير المُشَار إليه هو بُسْر بن أرْطَاة

بسر بن أرطأة يغزو المدينة

قال القُرْطبي : ذكر فى رواية ابن عبد البر أن معاوية رضى الله عنه بعد تحكيم الحكمين أرسَلَ بُسْر بن أرْطَاة فى جيش ، فقدموا المدينة ، وعامِلُها يومئذٍ لعلى رضى الله عنه أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ - رضى الله عنه ! - ففر أبو أيوب ولحق بعلى ، ودخل بُسْر المدينة ، وقال لأهلها : والله لولا ما عَهِدَ إلى أميرُ المؤمنين ما تركت فيها محتلماً [1] إلاَّ قتلته ، ثم أمر أهلَ المدينة بالبيعة لمعاوية ، وأرسل إلى بنى سلمة فقال : مالكم عندى أمان ولا مبايعة حتى تأتونى بجابر بن عبد الله ، فأخبر جابر ، فانطلق حتى جاء أم سلمة زَوْجَ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ماذا تَرَيْنَ فإنى أخشى أن أقتل ، وهذه بيعة ضلال ، فقالت : أرى أن تُبَايع ، وقد أمرتُ ابْنِى عمر بن أبى سلمة أن يبايع ، فأتى جابر بُسرا فبايعه ، وهدم بسر دورا بالمدينة ، ثم انطلق .

وفى رواية ستأتى فى الفصل الخامس عشر أن أهل المدينة فَرُّوا يومئذٍ حتى دخلوا الحرَّةَ حَرَّةَ بَنِى سليم [2] ، والله أعلم .

وفى الكبير للطبرانى حديث « مَنْ آذى أهل المدينة آذاه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولا يُقْبل منه صَرْف ولا عَدْل » .

وروى ابن النجار حديث « مَنْ أخاف أهل المدينة ظلماً أخافه الله ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفا ولا عدلا » والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

وعيد من أحدث بها حدثا

وفى الصحيحين فى أحاديث تحريم المدينة « فمن أحْدَثَ فيها حَدَثا أو آوى مُحْدِثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفا

---

(١) محتلما : أى بالغا .

(٢) وقع فى كل المطبوعات « بشر بن أرطأة » بالشين المعجمة فى كل المواضع - تطبيع ، وانظر ابن الأثير (الكامل ٣/١٦٦ بولاق) .

ولا عَدْلاً » ولفظ البخارى « لا يُقْبَلُ منه صرف ولا عدل » قيل : الصَّرْف الفريضة ، والعدل التطوع ، ونقل عن الجمهور ، وقيل عكسه ، وقيل : الصرف التوبة ، والعَدْل الفدية ، قيل : والمعنى لايقبل الله فريضته ونافلته أو توبته قبولَ رِضاً ، ولا يجد فى القيامة فداء يفتدى به من يهودى أو نصرانى ، بخلاف سائر المذنبين ، وقيل غير ذلك ، ومعنى هذا اللَّعْنِ المبالغةُ فى الإبعاد عن رحمة الله تعالى والطَّرْدِ عن الجنة أول الأمر لأنه كلَعْن الكفار .

قال القاضى : ومعنى قوله « مَنْ أَحْدَثَ فيها حدثا إلى آخره » من أتى فيها إثما أو آوى مَنْ أتاه وضمه إليه وحَمَاه ، وآوى بالمد والقصر ، قال : واستدلوا به على أن ذلك من الكبائر ؛ لأن اللعنة لا تكون إلا فى كبيرة .

قلت : فيستفاد منه أن إثم الصغيرة بها كإثم الكبيرة بغيرها ؛ لِصِدق الإثم بها ، بل نقل الزركشى عن مالك رحمه الله ما يقتضى شمول الحديث المذكور للمكروه كما بيناه فى الأصل ، وذلك لأن الإساءة بحضور الملك ليست كالإساءة فى أطراف المملكة ، وفقنا الله تعالى لحسن الأدب فى هذه الحضرة الشريفة بمنه وكرمه ! !

الفصل الثالث

فى الحث على حفظ أهلها ، وإكرامهم ، والتحريض على الموت بها واتخاذ الأصل [1] .

الوصية بحفظ أهلها

روينا فى كتاب ابن النجار عن مَعْقل بن يَسَار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة مُهَاجَرِى ، فيها مَضْجَعى ، ومنها مَبْعَثى ، حَقِيقٌ على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، مَنْ حفظهم كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة ، ومن لم يحفظهم سُقِىَ من طينة الخَبَال » قيل للمزنى : ماطِينة الخَبال ؟ قال : عُصارة أهل النار. قلت : قال بعضهم : المراد بالمزنى مَعْقِل بن يسار، وتفسير طينة الخبال بذلك رفعه مسلم ، والحديث فى الكبير للطبرانى بسند فيه متروك ،

(١) الأصل : المال ، وانظر ص ٣ الهامشة ١

ولفظه « المدينة مهاجرى[1] ومضجعى فى الأرض ، حق على أمتى أن يكرموا جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، فمن لم يفعل ذلك سقاه الله من طينة الْخَبَال » قلنا : يا أبا يَسَار ، وما طينة الْخَبَال ؟ قال : عُصَارة أهل النار .

وروى القاضى أبو الحسن على الهاشمى فى فوائده عن خارجةَ بن زيد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «المدينة مُهَاجَرِى[1] وفيها مَضْجَعى ، ومنها مَخْرَجِى ، حَقٌّ على أمتى حِفْظُ جيرانى فيها ، مَنْ حفظ وصيتى كنت له شهيداً يوم القيامة ، ومن ضَيَّعها أورده الله حوض الخبال ، قيل : وما حوض الخبال يارسول الله ؟ قال: حوض من صَدِيدِ أهل النار » .

وروى ابن زَبَالة عن عطاء بن يسار وغيره حديث « إن الله جعل المدينة مُهَاجَرِى[1] ، وبها مضجعى ، ومنها مبعثى ، فحقٌ على أمتى حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، فمن حفظ فيهم حرمتى كنت له شفيعاً يوم القيامة ، ومن ضيع فيهم حرمتى أورَدَه الله حوض الْخَبَال » . وفى رواية له « المدينة مُهَاجرى[1] ، وبها وفاتى ، ومنها مَحْشَرى ، وحَقِيقٌ على أمتى أن يحفظوا جيرانى ما اجتنبوا الكبيرة ، مَنْ حفظ فيهم حرمتى كنت له شهيد أو شفيعاً يوم القيامة » .

وفى مَدارك عِياض قال محمد بن مسلمة : سمعت مالكا يقول : دخلت على المهدىّ فقال : أوصِنِى ، فقلت : أوصيك بتَقْوَى الله وحْدَهُ ، والعَطْفِ على أهل بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجيرانه ؛ فإنه بَلَغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المدينة مُهَاجَرِى[1] ، ومنها مبعثى ، وبها قبرى ، وأهلُها جيرانى ، وحقيقٌ على أمتى حفظ جيرانى ؛ فمن حفظهم فىَّ كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ، ومن لم يحفظ وصيتى فى جيرانى سقاه الله من طينة الخبال » .

---

(١) مهاجرى – بضم الميم وفتح الجيم – موضع هجرتى

وروى مالك فى الموطأ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالساً وقَبْرٌ يُحفَرُ بالمدينة ، فاطَّلَعَ رجل فى القبر فقال : بئس مضجع المؤمن ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئس ما قلت » قال الرجل : إنى لم أرد هذا ، إنما أردتُ القتلَ فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا مِثْلَ للقتل فى سبيل الله ، ما على الأرض بُقعَة أحب إلىّ من أن يكون قبرى بها منها » يعنى المدينة ، ثلاث مرات[1] .

وروى ابن شَبَّة فى أخبار مكة عن سعيد بن أبى هند قال : سمعت أبى يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل مكة قال : اللهم لا تجعل منايانا[2] بمكة حتى نخرج منها » ورواه أحمد فى مسنده برجال الصحيح عن ابن عمر مرفوعاً ، إلا أنه قال « حتى تُخْرِجَنَا منها » .

وروى مالك والبخارى ورُزَين العَبْدَرِى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : اللهم ارزقنى شهادةً فى سبيلك ، واجعل موتى فى بلد رسولك ، زاد رزين أن ذلك كان من أجلّ[2] دعاء عمر .

وسَبَقَ ما جاء فى أن الإنسان يُدْفَن فى التربة التى خلق منها ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم وأكثر أصحابه وأفضلهم خلقوا من تربة المدينة ، وقد ثبت حديث « من مات بالمدينة كنت له شفيعاً يوم القيامة » ورواه البيهقى بلفظ « من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ ، فمن مات بالمدينة كنت له شفيعاً وشهيداً » وفى رواية له « فإنه مَنْ يَمُتْ بها أشْفَعْ له ، أو أشهد له » وقد ذكر هذه الرواية ابنُ حِبَّان فى صحيحه .

وروى الترمذى وابن حبان فى صحيحه وابن ماجَةَ والبيهقى وعبد الحق

---

(١) انظر الموطأ (ص٤٦٢ ط الحلبى) قال ابن عبدالبر : هذا الحديث لا أحفظه مسندا ، ولكن معناه موجود من رواية مالك وغيره .

(٢) المنايا : جمع منية ، وهى الموت . (٢) أجلّ دعاء عمر : أكثره وأعظمه .

وصححه حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمُتْ بها ، فإنى أشفع لمن يموت بها » ولفظ ابن ماجة « فإنى أشهد » بدل « فإنى أشفع » ورواه الطبرانى فى الكبير بسند حسن ، ولفظه « من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ؛ فإنه من مات بها كنت له شهيداً — أوشفيعاً — يوم القيامة » ورواه ابن رزين بنحوه ، وزاد « وإنى أول من تَنْشَقُّ عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم أنتظر أهل مكة فأحشر بين أهل الحرمين » وفى روايه لابن النجار « فأخرج أنا وأبو بكر وعمر إلى البقيع فيبعثون ، ثم يبعث أهل مكة » .

وروى الطبرانى حديث « أول من أشفع له من أمتى أهل المدينة ، ثم أهل مكة ، ثم أهل الطائف » وأخرجه الترمذى بالواو بدل ثم ، وسيأتى فى فضل البقيع زيادة تتعلق بذلك .

وبالجملة فالترغيب فى الموت فى المدينة لم يثبت مثلُه لغيرها ، والسكنى بها وُصلة إليه ؛ فيكون ترغيباً فى سكناها ، وتفضيلا لها على غيرها ، واختيار سكناها هو المعروف من حال السلف ، ولاشك أن الإقامة بالمدينة فى حياته صلى الله عليه وسلم أفضلُ إجماعاً ، فنستصحب ذلك بعد وفاته حتى يثبت إجماع مثله برفعه .

وأسند ابن شَبَّة فى أخبار مكة عن إسماعيل بن سالم قال : سألت عامراً عن فُتْيا أفتى بها حبيب بن أبى ثابت ، فقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث نزل مكة وهى قرية أعرابية ، ولأن أنزل دوران[1] أحب من إلىّ من أن أنزل مكة ، وهى قرية هاجر منها النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن الشعبى أنه كان يكره المقام بمكة ، ويقول : هى دار أعرابية ، هاجر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث يجاور بمكة وهى دار أعرابية ، وقال عبد الرزاق فى مصنفه : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحجون ثم يرجعون ، ويعتمرون ثم يرجعون ، ولا يجاورون .

---

(١) دوران كحوران : عند طرف قديد ، ذكره المصنف فى خلاصة الوفا ٢١ .

قلت: ولم أظفر عن السلف بنقل فى كراهة المجاورة بالمدينة الشريفة ، بخلاف مكة ، لكن اقتضى كلام النووى فى شرح مسلم حكاية الخلاف فيها ، وكأنه قاس المدينة على مكة من حيث إن علة الكراهة وهى خوف الملل وقلة الحرمة للأنس وخوف ملابسة الذنوب لأن الذنب بها أقبح ، ونحوه موجود بالمدينة ، ولهذا قال : والمختار أن المجاورة بهما جميعاً مستحبة إلا أن يَغْلِبَ على ظنه الوقوع فى المحذورت المذكورة .

وقال الزركشى عقب نقل كلام النووى : إن الظاهر ضعف الخلاف فى المدينة : أى لما قدمناه من الترغيب فيها ، ولأن كل من كره المجاورة بمكة استدل بترك الصحابة الجوار بها ، بخلاف المدينة فكانوا يحرصون على الإقامة بها ، وقد روى الطبرانى فى الأوسط حديث « من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مُشْرَبٌ جَفْوَةً » وأسند ابن أبى حثمة حديث « من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به ، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلا ولو قصَرَةً » قال ابن الأثير : القصرة محركة أصل الشجرة ، أى ولو نخلة واحدة ، والقصرة أيضاً : العنق ، وقال الخطابى: القصرة النخلة ، وقرأ الحسن «إنها ترمى بشرر كالقصر» وفسروه بأعناق النخل ، ورواه الطبرانى فى الكبير بلفظه إلى قوله « فليجعل له بها أصلا » وقال عقبهُ : « فليأتين على الناس زمان يكون الذى ليس له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها» ورواه ابن شبة أيضا بنحوه ، ثم أسند عن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاتتخذوا الأموال بمكة ، واتخذوها فى دار هجرتكم ؛ فإن المرء مع ماله » وأسند أيضا عن ابن عمر حديث « لاتتخذوا من وراء الروحاء مالا ، ولا تردوا على أعقابكم بعد الهجرة ولا تُنْكِحُوا بناتكم طُلَقَاء أهل مكة ، وأنكحوهن بأترابهن فأترابهن» أى مستويات فى السن فى ثلاث وثلاثين سنة .

وهذا كله متضمن للحث على سكنى المدينة وتفضيله على سكنى مكة ، وهى جديرة بذلك ؛ لأن الله تعالى اختارها لنبيه صلى الله عليه وسلم قَرَارا ، وجعل أهلَها

شيعةً له وأنصارا ، وكانت لهم أوطانا ، ولو لم يكن إلا جواره صلى الله عليه وسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصيني بالجار » الحديث[(١)] ، ولم يخصَّ جارا دون جار ، ولا يخرج أحد عن حكم الجار وإن جارَ ، ولهذا اخترتُ تفضيلَ سكناها على مكة ، مع تسليم مزيد المضاعفة لمكة ؛ إذ جهة الفضل غير منحصرة في ذلك ؛ فتلك لها مزيد العَدَد ، ولهذهِ تضاعُف البركة والمدد ، ولتلك جوار بيت الله ، ولهذه جوار حبيب الله وأكرم الخلق على الله ، سر الوجود ، والبركة الشاملة لكل موجود

قال عياض في المدارك : قال مُصْعَب : لما قدم المهديُّ المدينةَ استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميال ، فلما بصر بمالك انحرف المهديُّ إليه فعانَقه وسلم عليه وسايره ، فالتفت مالك إلى المهدي فقال : ياأميرَالمؤمنين، إنك تدخل الآن المدينة فتمرُّ بقوم عن يمينك ويسارك ، وهم أولاد المهاجرين والأنصار ، فسلِّم عليهم ؛ فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ، ولا خير من المدينة ، قال : ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقال : إنه لا يعرف قبر نبيّ اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كان قبر محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فينبغي أن يعرف فضلهم على غيرهم ، ففعل المهدي ما أمره به ، فأشار مالك — رحمه الله — إلى أن المقتضيَ للتفضيل هو وجود قبر النبي صلى الله عليه وسلم بها ، ومجاورة أهلها له

الفصل الرابع

في بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان بها من الوباء ، ونَقْله

حب النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة

روينا في الصحيحين حديث « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » ورواه رزين العبدري والجندي بالواو بدل «أو» مع أن أو في تلك الرواية بمعنى بل ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم في محبة المدينة مالم يرد مثله لمكة ؛ ففي صحيح

(١) تتمته « حتى ظننت أنه سيورثه » .

البخارى وجامع الترمذى حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سَفر فنظر إلى جُدران المدينة أوْضَعَ راحلته[1]، وإن كان على دابَّةٍ حركها من حبها» وفى روايه لابن زبالة « تباشُراً بالمدينة » ، وفى رواية له « كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية طرح رداءه عن منكبيه وقال : هذه أرواح طَيْبة » وقد تكرر دعاؤه صلى الله عليه وسلم بتحبيب المدينة إليه كما سيأتى ، والظاهر أن الإجابة حصلت بالأول ، والتكرير لطلب الزيادة ، وفى كتاب الدعاء للمحاملى وغيره عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه « كان إذا قدم من سفر من أسفاره فأقبل على المدينة يسير أتم السير ، ويقول : اللهم اجعل لنا بها قَرَاراً ، ورزقا حسنا »

دؤعاه صلى الله عليه وسلم للمدينة بالبركة

وفى الصحيحين حديث « اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَىْ ما جعلت بمكة من البركة » . وفى مسلم « اللهم بارك لنا فى تمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعِنَا ، وبارك لنا فى مُدِّنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » وفيه أيضا « اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم بارك لنا فى صاعِنَا ، اللهم بارك لنا فى مُدِّنا ، اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، اللهم اجْعَلْ مع البركة بركتين» وفيه أيضا وفى الترمذى حديث « كان الناسُ إذا رأوا أولَ الثمرة جاءوا به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا أخذه قال : اللهم بارك لنا فى تمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مدنا » الحديثَ ، وهو يقتضى تكرر هذا الدعاء بتكرر ظهور الثمرة والإتيان بأولها ، وفى الترمذى – وقال : حسن صحيح – عن على رضى الله عنه « خَرَجْنَا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنا بحرة السقيا التى كانت لسعد بن أبى وَقَّاصٍ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بوَضُوء ، فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة فقال : اللهم إن إبراهيم كان عبدك

---

(١) الإيضاع : الإسراع ، والمراد أنه كان يحملها على السرعة .

وخليلك ، ودعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا عبدُك ورسولُكَ أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مُدّهم وصاعهم مِثْلَىْ ما باركت لأهل مكة ، مع البركة بركتين» ورواه ابن شبّة فى أخبار مكة بنحوه ، إلا أنه قال: « حتى إذا كنا بالحرة بالسقيا التى كانت لسعد بن أبى وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتونى بوَضُوء ، فلما توضأ قام فاستقبل القبلة ثم قال » الحديثَ بنحوه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد ، ولفظه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كنا عند السقيا التى كانت لسعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك دعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك ورسولك وإنى أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى صاعهم ومدهم مثل ما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين» هكذا فى النسخة التى وقعت لنا ، ولعله «مِثلَىْ» كما فى الرواية السابقة ، ويؤخذ منه الإشارة إلى أن المدعو به ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، وفى حديث رواه ابنُ زَبَالة عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم « خرج إلى ناحية من المدينة ، وخرجْتُ معه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه حتى إنى لأرى بياضَ ما تحت منكبيه ، ثم قال : اللهم إن إبراهيم نبيك وخليلك دعاك لأهل مكة ، وأنا نبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة ، اللهم بارك لهم فى مُدّهم وصاعِهم ، وقليلهم وكثيرهم ، ضِعْفَىْ ما باركت لأهل مكة ، اللهم من هٰهنا وهٰهنا وهٰهنا ، حتى أشار إلى نواحى الأرض كلها ، اللهم مَنْ أرادهم بسوء فأذِبْهُ كما يذوب الملح فى الماء » وفى الأوسط للطبرانى ورجالُه ثقاتٌ عن ابن عمر قال : « صَلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفَجْرَ ، ثم أقبل على القوم فقال : اللهم بارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى مدنا وصاعنا » الحديثَ ، وفى الكبير له ورجالُه ثقاتٌ عن ابن عباس نحوه ، وروى أحمد والبزار وإسناده حسن عن جابر قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر يوما إلى الشام فقال: اللهم أقْبِلْ بقلوبهم ، ونظر إلى العراق فقال : اللهم مثل ذلك ، ونظر قبل كل أفق ففعل ذلك ، وقال :

اللهم ارْزُقنا من ثمَرَاتِ الأرض ، وبارك لنا فى مدنا وصاعنا » وفى الصحيحين حديث « اللهم بارك لهم فى مِكْيَالهم، وبارك لهم فى صاعهم ، وبارك لهم فى مدهم » قال القاضى فى الكلام عليه : البركة هنا بمعنى النُمُوّ والزيادة ، وتكون بمعنى الثبات ، فقيل : يحتمل أن تكون هذه البركة دينية ، وهى ما تتعلق بهذه المقادير فى الزكاة والكفارات ؛ فتكون بمعنى الثباتِ لثبَاتِ الحكم بها و بقائه ببقاء الشريعة ، ويحتمل أن تكون دنيوية من تكثير الكيل والقَدْر بهذه الأكيال حتى يكفى منه مالا يكفى من غيره فى غير المدينة ، أو ترجع البركة إلى كثرة مايكال بها من غَلاَّتها وثمراتها ، وفى هذا كله ظهر إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم ، وقال النووى : الظاهر أن المراد البركة فى نفس المكيل فى المدينة ، بحيث يكفى المد فيها لمن لا يكفيه فى غيرها . قلت : هذا هو الظاهر فيما يتعلق بأحاديث الكيل ، وأما غيرها فعلى عمومه فى سائر الأمور الدينية والدنيوية .

وروينا فى فضائل المدينة للجندى حديث : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ ، كحبنا مكةَ وأشد ، وصَحِّحْها لنا ، وبارك لنا فى مُدِّها وصاعها ، وانقل حُمَّاها ، واجعلها بالُجحْفة » وروى أحمد برجال الصحيح عن أبى قتَادة أن النبى صلى الله عليه وسلم « صَلَّى بأرض سعد بأصل الحرة عند بيوت السقيا ، ثم قال : اللهم إن إبراهيم خليلك وعبدك ونبيك دعاك لأهل مكة ، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة مِثْلَ مادعاك به إبراهيم لمكة ، أدعوك أن تبارك لهم فى صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة ، واجعل مابها من وباء بخُمٍّ » [1] الحديثَ ، وقوله «بخم» بضم الخاء المعجمة وتشديد الميم ـ مكان قرب الُجحْفة كما سيأتى فى موضعه ، وروى ابن زبالة حديث « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ وُعِكَ فيها أصحابه » وفيه « فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، ثم رفع يده ، ثم قال : اللهم انْقُلْ عنا الوباء » فلما أصبح قال :

(١) فى القاموس : «وغدير خم موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين، أو خم اسم غيضة هناك بها غدير ماء سم لم يولد بها أحد فعاش إلى أن يحتلم إلا أن ينتقل منها» .

أتيت هذه الليلة بالحمى ، فإذا بعجوز سوداء مُلَبَّبة فى يدَى الذى جاء بها ، فقال : هذه الحمى ، فما ترى فيها ؟ فقلت : اجعلوها بخُمّ » .

الدعاء بنقل وبائها

وفى مسلم حديث عن عائشة رضى الله عنها : « قدمنا إلى المدينة وهى وَبِية فاشتكى أبو بكر ، واشتكى بلال ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوى أصحابه قال : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد ، وصححها ، و بارك لنا فى صاعها ومدها ، وحَوِّلْ حُمَّاها إلى الْجُحْفَة » .

وهو فى البخارى بلفظ « لما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وُعِك أبو بكر و بلال — رضى الله عنهما ! — وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :

كُلُّ امرىء مُصَبَّحٌ فى أهله   والموت أدنى من شِراكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا قلع عنه يرفع عَقِيرتَه[1] و يقول :

ألا لَيْتَ شِعْرِى هل أبيتَنَّ ليلةً   بوادٍ وحولى إذْخِرٌ وجَلِيلُ
وهل أرِدَنْ يوما مياه مِجَنَّةٍ   وهل يَبْدُوَنْ لى شامَة وطَفِيلُ

اللهم الْعَنْ شَيْبة بن ربيعة وعُتْبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا فى صاعنا وفى مُدِّنا ، وصححها لنا ، وانقل حُمَّاها إلى الْجُحْفة » قالت : وقدمنا المدينة وهى أوبأ أرض الله ، وكان بطحان يجرى نجلا ، تعنى ماء آجنا[2] .

ورواه فى الموطأ بزيادة : « وكان عامر بن فهيرة يقول :

قدْ ذُقْتُ طعم الموتِ قبلَ ذَوْقِهِ   إن الجبانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ

ورواه ابن إسحاق بزيادة أخرى ، ولفظه « لما قَدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة قَدِمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابَهُ منها بلاء وسَقَم ، وصرفه الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبو بكر وعامر

(١) قلع عنه : ذهب عنه بحران الحمى ، ورفع عقيرته : رفع صوته .
(٢) بطحان : واد بالمدينة ، والماء الآجن : المتغير لونه وطعمه .

ابن فهيرة و بلال مولى أبي بكر مع أبي بكر في بيتٍ واحد ، فأصابتهم الحمى ، فدخلتُ عليهم أعُودُهم ، وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب ، ولهم مالا يعلمه إلا الله من شدَّة الوَعْك ، فدنوت من أبي بكر ، فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ أي كيف تجد نفسك ، فقال * كل امرىء * البيت المتقدم ، فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول ، ثم دنوتُ إلى عامر بن فهيرة ، فقلت : كيف تجدك ياعامر ؟ فقال :

لقد وَجَدْتُ الموتَ قبل ذَوْقِهِ   إن الجبان حَتْفُه من فَوْقِهِ
كل امرىء مُجاهِدٌ بطوْقِهِ   كالثور يحمى جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ (١)

قالت : فقلتُ مايدرى عامر مايقول ، وقالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عَقِيرته وقال : * ألا ليت شعرى * البيتين .

ورواه ابن زَبالة بلفظ « لما قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ وُعِكَ أصحابه ، فخرج يعود أبا بكر، فوجده يَهْجُرُ (٢) ، فقال : يا رسول الله * لقد لَقِيتُ الموتَ قبل ذَوْقِهِ * البيتَ المتقدم ، فخرج من عنده ، فدخل على بلال فوجده يَهْجُر وهو يقول * ألا ليت شعرى * البيتين المتقدمين ، ودخل على أبي أحمد بن جَحْش فوجده مَوْعُوكا ، فلما جلس إليه قال :

واحبذا مَكَّةُ مِنْ وَادِي   أرض بها تَكْثُرُ عُوَّادِي
أرْضٌ بها تُضْرَبُ أوتادى   أرض بها أهلى وأولادى
* أرض بها أمشى بلا هَادِي *

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا أن يُنقَلَ الوَبَاء من المدينة فيجعله بخم .

وفي رواية له أنه « أمرَ عائشة بالذهاب إلى أبي بكر ومَوْلَيَيْه ، وأنها رجعت

---

(١) روق الثور ـ بفتح الراء وسكون الواو ـ قرنه ، وسيذكره المؤلف .
(٢) يهجر ـ بوزن ينصر ـ أي يهذى ويخلط في كلامه .

وأخبرته بحالهم ، فـكره ذلك ، ثم عمد إلى بقيع الخيل ــ وهو سوق المدينة[1] ــ فقام فيه ووجْهُه إلى القبلة ، فرفع يديه إلى الله فقال : « اللهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لأهل المدينة فى سُوقهم ، وبارك لهم فى صاعهم ، وبارك لهم فى مُدِّهم ، اللهم انقل ما كان بالمدينة من وباء إلى مهيعة »

قوله « رفع عقيرته » أى صوته ، وقوله « بواد » روى « بفخ » وهو وادى الزاهر ، والجليل ــ بالجيم ــ الثمام ، ومجنة ــ بكسر الميم وفتحها ــ سوق بأسفل مكة ، وقال الأصمعى : بمر الظهران ، وشامة وطفيل : جبـلان يُشْرِفانِ على مجنة ، قاله ابن الأثير ، قال : ويقال « شابة » بالباء الموحدة ، وهو جبل حجازى ، قال المحب الطبرى : وروايته بالباء الموحدة بخط شيخنا الصاغانى ، وكتب عليها صح ، وقال الطبرى : والأشهر أنهما جَبَلان على مراحل من مكة من جهة اليمن ، وقال الخطابى : عينان . وقوله « بطَوْقِهِ » أى بطاقته ، وقوله « برَوْقِهِ » أى بقَرْنه ، و « مهيعة » هى الُجحفة أحدُ المواقيت المشهورة ، وخم : بقربها ، وإنما دعا صلى الله عليه وسلم بنقل الحمى إليها لأنها كانت دار شرك ، ولم تزل من يومئذ أكثر بلاد الله حمى ، قال بعضهم : وإنه ليُتقى شرب الماء من عينها التى يقال لها عين خم ، فقلَّ مَنْ شرب منها إلا حُمَّ .

وروى البيهقى حديث عائشة من طريق هشام بن عُروة عن أبيه ، وفيه «قال هشام : فكان المولود يُولدُ بالُجحْفة فلا يبلغ الحلم حتى تُضْرِعَه الحمى[2] »

وقال الخطابى : كان أهل الجحفة إذ ذاك يهودا ، وقيل : إنه لم يبق أحد من أهلها إلا أخذته الحمى .

قال النووى : وهذا عَلَم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن الجحفة من يومئذ وَبِيَة ، ولا يشرب أحد من مائها إلا حم .

---

(١) بقيع الخيل ، وهو سوق المدينة ، هو الذى يعرف اليوم بسوق المناخة (مكى)

(٢) تضرعه : تخضعه وتذله ، والمراد أنها تضعفه أشد الضعف .

و بطحان : من أودية المدينة كما سيأتى ، والماء الآجن : المتغير الطعم واللون .

الوباء بالمدينة جاهلى قديم

واتفق أهل الأخبار أن الوباء بالمدينة كان شديداً ، حتى روى ابن إسحاق عن هشام ابن عُرْوة قال : كان وباؤها معروفاً فى الجاهلية، وكان الإنسان إذا دخلها وأراد أن يَسْلَمَ من وبائها قيل له : انهق ، فينهق كما ينهق الحمار .

وفى دلائل النبوة من طريق هشام عن أبيه عن عائشة قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهى أوبأ أرض الله ، ووانيها بُطْحَانُ نَجِلٌ يجرى عليه الأثل » قال هشام : وكان وباؤها معروفاً فى الجاهلية ، وكان إذا كان الوادى وَبِيًا فأشرف عليه الإنسان قيل له : انهق نهيقَ الحمارِ ، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادى ، قال الشاعر حين أشرف على المدينة :

لعمرى لئن عشّرت من خِيفَةِ الرَّدَى * نهيقَ الحمــــار إننى لَجــزُوعُ

قالت عائشة : فاشتكى أبو بكر ، الحديثَ .

ثنية الوداع

وروى ابن شَبَّة عن عامر بنِ جابر قال : كان لا يدخل المدينة أحد إلا من طريق واحد ، من ثَنِيَّة الوَداع ، فإن لم يُعَشِّرْ بها — أى : يَنْهَقُ كالحمار عشرة أصوات فى طَلَقٍ واحد — مات قبل أن يخرج منها ، فإذا وقف على الثنية قيل : قد ودع ، فسميت ثنية الوَداع ، حتى قدم عُرْوة بن الوَرْد العبسى ، فقيل له : عشر بها ، فلم يعشر ، وأنشأ يقول :

لعمرى لئن عشّرت من خشية الردى * نُهَاقَ الحمار إننى لجـــزوع

ثم دخل فقال : يا معشر يهود ، ما لكم وللتعشير ؟ قالوا : إنه لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يُعَشِّرْ بها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله الْهزَال ، فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية .

تحويل الوباء من دلائل النبوة

وتحويل الوباء من أعظم المعجزات ؛ إذ لا يقدر عليه جميع الأطباء ، وفى البخارى حديث « رأيتُ امرأةً سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة ، فتأولتها أن وباء المدينة نُقِلَ إلى مهيعة » وفى الأوسط للطبرانى نحوه ، وفى

كتاب ابن زَبالةَ «أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فجاءه إنسان كأنه قدم من ناحية طريق مكة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هل لقيت أحداً ؟ قال : لا ، إلا امرأة سوداء عُرْيانةً ثائرة الشعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الحمى ، ولن تعود بعد اليوم أبداً » وفيه أيضاً حديث « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة ، وانقل وباءها إلى مهيعة ، وما بقى منه فاجعله تحت ذنب مشعط » وحديث « إنْ كان الوباء فى شىء من المدينة فهو فى ظل مشعط » . قال المجد : هو جبل أو موضع بالمدينة . قلت : سيأتى عن ابن زبالة فى المنازل أن بنى حُدَيلة ابتنوا أُطُمَيْن أحدهما يقال له «مشعط» كان موضعه فى غربى مسجد بنى حُدَيلة(١) ، وفى موضعه بيت يقال له بيت أبى نبيه ، ثم أورد عقبه الحديث المذكور ، فأفاد أنه هو المراد ، وفيه أيضاً حديث « أصح المدينة من الحمى ما بين حَرَّة بنى قريظة والعريض » وهو يؤذن ببقاء شىء من الحمى بالمدينة ، وأن الذى نقل عنها أصلا ورأساً سلطانها وشدتها ووباؤها وكثرتها بحيث لا يعد ما بقى بالنسبة إليه شيئاً ، ويحتمل أنها رفعت أولا بالكلية ، ثم أعيدت خفيفة لئلا يفوت ثوابها كما أشار إليه الحافظ ابن حجر ، ويدل له ماروى أحمد برجال الصحيح وأبو يَعْلَى وابن حِبّان فى صحيحه عن جابر « استأذَنَتِ الحمّى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مَنْ هذه ؟ فقالت : أم مِلْدَم ، فأمر بها إلى أهل قباء ، فلقوا مالا يعلمه إلا الله تعالى ، فأتوه فشكوا ذلك إليه ، فقال : ماشئتم ، إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم ، وإن شئتم تكون لكم طَهُورا ، قالوا : أو تفعل؟ قال : نعم ، قالوا : فَدَعْهَا » ورواه الطبرانى بنحوه ، وقال فيه « إن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم ، قالوا : فَدَعْهَا يارسول الله » وروى أحمد ورجاله ثقات حديثَ « أتانى جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون بالشام ، فالطاعون شهادة لأمتى ورحمة لهم ورجْزٌ على الكفار » والأقرب أن هذا كان فى آخر الأمر بعد نقل

(١) مسجد بنى حديلة : داخل البقيع على يمين الداخل من بابه متصل بسورة؛ يكون فى زقاق سيدنا إسماعيل (مكى) .

الحمى بالـكلية ، لـكن قال الحافظ ابن حجر : لما دخل صلى الله عليه وسلم المدينة كان فى قلة من أصحابه ، فاختار الحمى لقلة الموت بها على الطاعون لما فيها من الأجر الجزيل ، وقضيتها إضعاف الأجساد ، فلما أمر بالجهاد دعا بنقـل الحمى إلى إلى الجُحْفة ، ثم كانوا من حينئذ مَنْ فاتته الشهادة بالطاعون ربما حصلت له بالقتل فى سبيل الله ، ومن فاته ذلك حصلت له الحمى التى هى حظ المؤمن من النار ، ثم استمر ذلك بالمدينة ، يعنى بعد كثرة المسلمين تميزاً لها على غيرها ، انتهى ، وهو يقتضى عود شىء من الحمى إليها بآخرة الأمر ، والمشاهد فى زماننا عدم خلوها عنها أصلا ، لـكنه كما وصف أولا ، بخلاف الطاعون ، فإنها محفوظة عنه بالـكلية كما سيأتى ، والأقرب أنه صلى الله عليه وسلم لما سأل ربه تعالى لأمته أن لا يلبسهم شِيَعاً ولا يُذِيق بعضَهم بأسَ بعضٍ فمنعـه ذلك فقال فى دعائه « فحمى إذا أو طاعوناً » أراد بالدعاء بالحمى للموضع الذى لا يدخله طاعون كما سنشير إليه فى الفصل الآتى ؛ فيكون ما بالمدينة اليوم ليس هو حمى الوباء ، بل حمى رحمةٍ بدعائه صلى الله عليه وسلم كما سنوضحه ، والله أعلم .

الفصل الخامس

فى عصمتها من الدجال والطاعون

حراسة المدينة من الدجال والطاعون

روينا فى الصحيحين وغيرهما حديث « على أنقَابِ المدينة(١) ملائكة يحرسونها ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » وفيهما أيضا حديث « ليس من بلد إلا سيطؤها الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس نَقْبٌ(١) من أنقابها إلا عليه ملائـكة صافين يحرسونها ، فينزل السبخة ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فيخرج إليه كل كافر ومنافق » وفى رواية « فيأتى سبخة الجُرف ، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة » وفى البخارى حديث « لا يدخل المدينة رُعْبُ المسيخ ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب مَلَـكَانِ » وفى مسلم حديث « يأتى المسيخ من قبل المشرق

---

(١) الأنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق فى الجبل .

وهمته المدينة حتى ينزل دبر أحد ، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام ، وهناك يهلك » وفى الصحيحين « قصة خروج الرجل الذى هو خير الناس ، أو من خير الناس ، من المدينة إلى الدجال إذا نزل بعض سباخها فيقول له : أشهد أنك الدجال الذى حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديثَ بطوله .

قال معمر فيما رواه أبو حاتم : يرون هذا الرجل هو الخضر عليه السلام .

وروى أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح عن جابر بن عبد الله قال : « أشْرَفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على فَلَق[1] من أفلاق الحرة ونحن معه ، فقال : نعم الأرض المدينة ، إذا خرج الدجال ، على كل نَقْبٍ من أنقابها مَلَكٌ لا يدخلها ، فإذا كان ذلك رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثرهم — يعنى من يخرج إليه — النساء ، وذلك يوم التخايص ، ذلك يوم تَنفى المدينة الخبثَ كما ينفى الكِيرُ خبثَ الحديد ، يكون معه سبعون ألفاً من اليهود ، على كل رجل منهم ساج وسيف محلًّى ؛ فيضرب قبته بهذا المضرب الذى بمجتمع السيول » الحديثَ بطوله ، ولفظ الطبرانى « يا أهل المدينة ، اذكروا يوم الخلاص ، قالوا : وما يوم الخلاص ؟ قال : يُقبِلُ الدجال حتى ينزل بذباب ، فلا يبقى فى المدينة مشرك ولا مشركة ، ولا كافر ولا كافرة ، ولا منافق ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، ويخلص المؤمنون ، فذلك يوم الخلاص » وروى أحمد برجال الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ؟ ثلاثا ، فقيل له : وما يوم الخلاص ؟ قال : يجىء الدجال فيصعد أحدا فيقول لأصحابه : أترون هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتى المدينة فيجد بكل نَقْب منها ملكا مُصْلتاً ، فيأتى سبخة الجرف ، فيضرب رِواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فذلك يوم الخلاص » وقال الحافظ

(١) الفلق — بالتحريك — المطمئن من الأرض بين ربوتين ، ويجمع على فلقان.

ابن حجر : إن أحمد والحاكم أخرجا من رواية محجن بن الأدرع رفعه « يجىء الدجال فيصعد أحدا فيطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه : ألا ترون إلى هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتى المدينة فيجد فى كل نَقْب من أنقابها مَلَكا مُصْلِتا سيفه » و بقيتـه بلفظ الحديث المذكور ، إلا أنه قال فى آخره : « فتخلص المدينة ، فذلك يوم الخلاص » والمراد بالرواق الفُسْطَاط ، ولابن ماجة من حديث أبى أمامة « ينزل عند الطريق الأحمر عند منقطع السبخة » ولأحمد من حديث ابن عمر « ينزل الدجال فى هذه السبخة بِمَرِّقَنَاة » أى ممرهـا ، وفى عقيق المدينة للزبير بن بكار عن أبى هريرة « ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع السيول، فقال : ألا أخبركم بمنزل الدجال من المدينة ؟ ثم قال : هذا منزله ، يريد المدينة ، لا يستطيعها ، يجدها متمنطقة بالملائكة ، على كل نَقْبٍ من أنقابها مَلك شاهر سلاحه ، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون ، فيزلزل بالمدينة و بأصحاب الدجال زلزلة ، لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثر من يتبعه النساء ، فلا يعجز الرجل أن يمسك سفيهته » .

قلت : يستفاد منه أن المراد من قوله فى الأحاديث المتقدمة : فترجف المدينة يعنى بسبب الزلزلة ؛ فلا يشكل بما تقدم من أنه لا يدخل المدينة رُعْبُ المسيخ الدجال فيستغنى عما جمع به بعضهم من أن الرعب المنفى هو أن لا يحصل لمن بها بسبب قربه منها خوف ، أو هو عبارة عن غايته ، وهو غلبته عليها ، والمراد بالرجفة إشاعة مجيئه وأن لا طاقة لأحد به ؛ فيتسارع حينئذ عليه مَنْ كان يتصف بالنفـاق أو الفسق ، قاله الحافظ ابن حجر ، وما قدمناه أولى .

وفى الأوسط للطبرانى حديث « ينزل الدجال حَذْوَ المدينة[1] ، فأول من يتبعه النساء والإماء » وفى حديث رواه أحمد والطبرانى واللفظ له ورجاله ثقاة فى وصف الدجال « ثم يسير حتى يأتى المدينة ، ولا يؤذن له فيها ، فيقول : هذه قرية ذاك

(١) حذو المدينة ـ بفتح الحاء وسكون الذال ـ إزاءها .

الرجل ، ثم يسير حتى يأتى الشام فيهلكه الله عز وجل عند عقبة أفيق[١]» وروى أبو يعلى حديث الجسّاسة المشهور فى الصحيح بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح وزاد فيه « هو المسيخ تطوى له الأرض فى أربعين يوما ، إلا ما كان من طَيْبَة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وطيبة المدينة ، ما بابٌ من أبوابها إلا وملك مُصْلِتٌ سيفه يمنعه ، وبمكة مثل ذلك » وفى البخارى والترمذى حديث « المدينة يأتيها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى ».

وروى أحمد ورجاله ثقاة وابن شبة برجال الصحيح حديث « المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة ، على كل نَقْب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون » ، وروى أحمد مرسَلا وابنهُ متصلا وكذا الطبرانى ورجاله ثقاة حديث « ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل خرج من بعض الأرياف ، حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء ؛ ففزع الناس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأرجو أن لا يطلع علينا نِقابها » يعنى المدينة ؛ ونقابها وأنقابها : طرقها وفجاجها ؛ واحدها نِقْب ، بكسر النون[٢].

وقوله فى الرواية المتقدمة « فلا يقربها الدجال ولا الطاعون » فيقتضى جواز دخول الطاعون المدينة ، ويرده الجزم فى سائر الأحاديث ، والصواب حفظها منه كما هو المشاهد

وقد استشكل قرن الدجال بالطاعون مع أن الطاعون شهادة ورحمة فكيف يُتمدح بعدمه ؟

والجواب من وجوه : أحدها : أن كونه كذلك ليس لذاته ، وإنما المراد ترتب ذلك عليه ، وقد ثبت تفسيره من رواية أحمد « بوَخْزِ أعدائكم من الجن » ؛ فيكون الإشارة بذلك إلى أن كفار الجن وشياطينهم ممنوعون من الطعن ، كما

---

(١) أفيق ـ بالهمزة أوله مفتوحة ـ قرية من حوران فى طريق الغور فى أول العقبة التى تعرف بعقبة أفيق ، والعامة تقول « فيق » بغير همزة ، والغور : هو الأردن.

(٢) الذى فى القاموس أنه بفتح النون

أن الدجال ممنوع منها ، ألا ترى أن قتل الكافرِ المسلمَ شهادةٌ ، ولو ثبت لمحل أن الكفار لا تُسَلَّط عليه لحاز بذلك غاية الشرف ، ثانيها : أن أسباب الرحمة لم تنحصر فى الطاعون ، وقد عوضهم صلى الله عليه وسلم عنه الحمى حيث اختارها عند ما عُرِضَا عليه كما تقدم ، وهى مطهرة للمؤمن وحظه من النار ، والطاعون يأتى فى بعض الأعوام ، والحمى تتكرر فى كل حين ، فيتعادلان ، وفيه نظر ؛ لأن تكثير أسباب الرحمة مطلوب ، ولأنه لا يدفع إشكال التمدح بعدمه ، ثالثها : أنه وإن اشتمل على الرحمة والشهادة فقد ورد أن سببه أشياء تقع من الأمة كظهور بعض المعاصى ، وقد روى أحمد بأسانيد حسانٍ وصحاح عن شرحبيل بن حسنة وغيره « أنه ـ يعنى الطاعون ـ رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم » وروى أحمد أيضا تفسير كونه دعوة نبيكم عن أبى قلابة بأنه صلى الله عليه وسلم « سأل ربه عز وجل ألاَّ يهلك أمته بسنة ، فأعطيها ، وسأله ألاَّ يسلط عليهم عدوا من غيرهم ، فأعطيها ، وسأله ألاَّ يلبسهم شِيَعاً ويُذِيقَ بعضهم بأسَ بعض ، فمنعه ، فقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه : فحمى إذاً أو طاعوناً » كرره ثلاثا ؛ فقد تضمن الطاعون نوعا من المؤاخذة ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم دعا به ليحصل كفاية إذاقة بعضهم بأس بعض ، ويكون هلاكهم حينئذ بسبب لا يعصون به ، بل يثابون ؛ فحفظ الله تعالى بَلَدَ نبيه صلى الله عليه وسلم من الطاعون المشتمل على الانتقام إكراما لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهم الحمى المضعِفة للأبدان عن إذاقة بعضهم بأس بعض والمطهرة لهم ؛ فقوله صلى الله عليه وسلم « فحمى إذا » أى للموضع الذى لا يدخله الطاعون ، بل عصم منه وهو جواره الشريف ، وقوله « أو طاعونا » أى للموضع الذى لم يعصم منه ، وهو سائر البلاد ، هذا ما ظهر لى فى فهم هذه الأحاديث ، وهو يقتضى شرف الحمى الواقعة بالمدينة وفضلها ؛ لأنها دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ورحمة ربنا أيضا ؛ لأنها من لازم دعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولأنها جعلت فى مقابلة

الطاعون الذى هو رحمة لغيرهم ؛ فتكون الحمى رحمة لهم ؛ فهى غير حمى الوباء الذاهبة من المدينة ، رابعها ـ ذكره الحافظ ابن حجر نقلا عن القرطبى ـ وهو أن المعنى لايدخل إلى المدينة من الطاعون مثل الذى وقع فى غيرها كطاعون عَمَوَاس[1] ، قال الحافظ ابن حجر : وهو يقتضى أن الطاعون يدخلها فى الجملة ، وليس كذلك ؛ فقد جزم ابن قتيبة وتبعه جمع جَمٌّ من آخرهم النووى بأن الطاعون لايدخل المدينة أصلا ، ولا مكة أيضا ، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة فى الطاعون العام سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد قط أنه دخلها أصلا ، ثم ذكر الحافظ ابن حجر الحديثَ المتقدم المشتمل على ذكر مكة أيضا ، ثم قال: وعلى هذا فالذى نقل أنه وجد بمكة ليس كما ظن ناقله كونه طاعونا ، بل وباء ، وهو أعم من الطاعون ، أو يجاب بجواب القرطبى المتقدم ، قال : ولعله بَنَى جوابَه على أن الطاعون ما ينشأ عن فساد الهوى فيقع به الموت الكثير ، وليس كذلك ؛ ففى الصحيح قولُ أبى الأسود : قدمتُ المدينةَ وهم يموتون بها موتا ذَرِيعا ؛ فهذا وقع بالمدينه وهو وَبَاء ، ولكن الشأن فى تسميته طاعونا ، قال : والحق أن المراد بالطاعون فى هذه الأحاديث الذى ينشأ عن طَعْن الجن فيهيج به الدم فى البدن فيقتل ، فهذا لم يدخل المدينة قط . قلت : نقل الزركشى عن القرطبى أنه فسر الطاعون بالموت العامّ الفاشى ، وهو صريح فى أنه أراد ما فهمه عنه الحافظ ابن حجر ، ويرده قوله فى الحديث المتقدم « حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء فأفزع الناس » فإن المراد فيه بالوباء الطاعون المعروف بعلاماته عندهم ، وإلا فموت الشخص الواحد لا يفزع ولا يسمى موتا عاما ، ويبعد جعل الموت العام بمجرده شهادةً ، وقد أخبر بعضُ الأولياء بمشاهدة الجن يقظةً يطعنون الناس فى بعض سنى الطاعون ، ورأيته أنا كذلك مناما ، ورأيت أن بينى

---

(١) عمواس ـ بفتح العين والميم جميعا ، أو بكسر العين وسكون الميم ـ كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، ومنها كان ابتداء الطاعون فى أيام عمر بن الخطاب ، ثم فشا فى بلاد الشام ومات به خلق كثير منهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

و بينهم حائلا ، فحمانى الله منه فى تلك السنة ، على أنه لو سلم أن المراد ما ذكره القرطبى فالإشكالُ المتقدمباقٍ ؛ إذ يقال : لِمَ لمْ يكثر بالمدينة وهو رحمة ؟ فالحق ما قدمناه ، وهذا ـ كما قال بعضهم ـ من المعجزات العظيمة المستمرة التى هى من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لأن الأطباء بأجمعهم قد عَجَزوا عن دفع الطاعون عن بلد ما فى دهر من الدهور . وقد امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة ، مع أنه يقع بالحجاز الشريف ، ويدخل قرية الينبع وجدة والفرع والصفراء والخيف وغير ذلك من الأماكن القريبة من المدينة ، ولا يدخلها هى كما شاهدنا ذلك فى طاعون أواخر سنة إحدى وثمانين وثمانمائة مع أوائل التى بعدها ؛ فإنه عم أكثر الأماكن القريبة من المدينة ، وكثر بجدة ، واختلف فى دخوله بمكة ، والذى تحققناه كثرة الموت بها فى ذلك الزمان ، وكثرت الحمى بالمدينة ، لكن لم يكثر بها موت ، و بالجملة فهى محفوظة منه أتم الحفظ ؛ فلله الحمد والمنة .

الفصل السادس

فى الاستشفاء بترابها ، و بتمرِها ، وما جاء فيه

روينا فى كتاب ابن النجار والوفاء لابن الجوزى حديث «غُبار المدينة شفاء من الجُذَام» وفى جامع الأصول لابن الأثير وبَيَّضا لمخرجه عن سعد[1] رضى الله عنه قال « لمـا رجع رسول الله صلى الله عليه وسـلم من تَبُوك تلقَّاه رجال من المخلَّفين من المؤمنين ، فأثاروا غباراً ، فخمر ـ أو فغطَّى ـ بعضُ مَنْ كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفه ، فأزال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللثام عن وجهه ، وقال : والذى نَفْسِى بيـده إنَّ فى غبارها شفاء من كل داء » قال : وأُراه ذكر « ومن الُجذَام والبَرَص » وقد أورده كذلك رُزَين العبـدرى فى جامعه ، وهو مستند ابن الأثير فى إيراده ، قال الحافظ المنذرى : ولم أره فى الأصول . ما جاء فى أن ترابها شفاء

(١) عبارة «و بيضا لمخرجه عن سعد» ليست فى نسخة خلاصة الوفا للمؤلف المطبوعة ، وقد جاء فى تعليقات المـكى «عن سعد رضى الله عنه قال لما رجع ، كذا فى هامش نسخة مخطوطة»

وروى رزين أيضاً عن ابن عمر نحوه ، إلا أنه قال « فمدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يده فأماطه عن وجهه ، وقال : أما علمت أن عَجْوَةَ المدينة شفاء من السقَم ، وغبارها شفاء من الُجذَام » ورواه ابن زَبالة مختصراً عن صيفى بن أبى عامر ، ولفظه « والذى نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة ، وإنها شفاء من الجذام » وروى أيضاً عن أبى سلمة : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « غبار المدينة يطفى الجذام » قلت : وقد رأينا من استشفى بغبارها من الجذام ، وكان قد أضَرَّ به كثيراً ؛ فصار يخرج إلى الكومة البيضاء ببُطْحَان بطريق قباء ويتمرغ بها ويتخذ منها فى مرقده ، فنفعه ذلك جداً . وروى ابن زَبالة ويحيى بن الحسن ابن جعفر العَلَوى وابن النجار كلاهما من طريقه « أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بَلْحَارث ، فإذا هم رَوْبَى[1] ، فقال: مالكم يابنى الحارث رَوْبَى ؟ قالوا : أصابتنا يا رسول الله هذه الحمى ، قال : فأين أنتم عن صُعَيْب ؟ قالوا : يا رسول الله مانصنع به ؟ قال : تأخذون من ترابه فتجعلونه فى ماء ، ثم يتفل عليه أحدكم ويقول : بسم الله ، ترابُ أرضنا ، بريق بعضنا ، شفاء لمريضنا ، بإذن ربنا ، ففعلوا ، فتركتهم الحمى » قال ابن النجار عقبه : قال أبو القاسم طاهر بن يحيى العلوى : صعيب : وادى بطحان دون الماجشونية ، وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه ، وهو اليوم إذا وبأ إنسان أخذ منه . قلت : قد رأيت ذلك فى نسخة كتاب يحيى التى رَواها ابنُه طاهر بن يحيى عنه ، والماجشونية هى الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية ، وقال ابن النجار عقبه : وقد رأيت أنا هذه الحفرة اليوم ، والناس يأخذون منها ، وذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحاً ، قال : وأخذت أنا منه أيضا . قلت : وهذه الحفرة موجودة اليوم ، مشهورة سلفاً عن خلف، يأخذ الناس منها وينقلونه للتداوى ، وقد بعثت منها لبعض الأصحاب أخذا مما ذكروه فى أخذ نبات الحرم للتداوى ، ثم رأيت الزركشى قد قال : ينبغى أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم

الاستشفاء بتراب صعيب

---

(١) روبى : جمع روبان ، مثل عطشان وعطشى وسكران وسكرى ؛ وهو الخائر النفس الشديد الإعياء المختلط العقل .

تربة حمزة رضى الله عنه ؛ لإطباق السلف والخلف على نقلها للتداوى من الصداع، فقلت عند الوقوف عليه : أين هو من تراب صُعَيب لما قدمناه فيه ؟ بخلاف ما ذكره إذ لا أصل له ، وذكر المجد أن جماعة من العلماء ذكروا أنهم جربوا تراب صُعَيب للحمى فوجدوه صحيحا ، قال : وأنا بنفسى سقيتُه غلاما لى مريضاً من نحو سنة تواظبه الحمى ، فانقطعت عنه من يومه ، وذكر المجد أيضاً فى موضع آخر كيفية الاستشفاء به أنه يجعل فى الماء ويغتسل به ، وكذا ذكره الجمال المطرى عند ذكر صعيب فقال : وفيه حفرة يؤخذ من ترابها ويجعل فى الماء ويغتسل به من الحمى. قلت : فينبغى أن يجعل فى الماء ثم يتفل عليه ، وتقال الرقية الواردة ، ثم يجمع بين الشرب والغسل منـه ، ويستأنس للغسل بمـا رويناه عن جزء وأبى مسعود بن الفرات الرازى عن ثابت بن قيس « أن النبى صلى الله عليه وسلم عاده وهو مريض فقال : أذهِبِ البَاسَ رَبَّ الناس [1] ، عن ثابت بن قيس بن شماس ، ثم أخذ كفا من بطحاء ، فجعله فى قدَح من ماء ، ثم أمر فصب عليه » وفى الصحيحين حديث « كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى الإنسانُ أو كانت به قرحة أو جرح قال بأصبعه هكذا ، ووضع سفيانُ سَبَّابته بالأرض ثم رفعها، وقال : بسم الله ، تربة أرضنا ، بريق بعضنا ، يشفى سقيمنا ، بإذن ربنا » ورواه أبوداود بنحوه ؛ وفى رواية « يقول بريقه ، ثم قال به فى التراب : تربة أرضـنا » وروى ابن زَبالة « أن رجلا أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبرجله قرحة ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرف الحصير ، ثم وضع أصبعه التى تلى الإبهام على التراب بعد ما مَسَّها بريقه ، وقال : بسم الله ، ريق بعضنا ، بتربة أرضـنا ، ليشفى سقيمنا ، بإذن ربنا ، ثم وضع أصبعه على القرحة ، فكأنما حُلَّ من عِقَالٍ » وروى أيضاً حديث « تراب أرضنا ، شـفاء لقرحنا ، بإذن ربنا » وأن أم سلمة كانت تنعت من القرحة تراب الضبة .

(١) الباس : الشدة ، وأصله البأس ـ بالهمز ـ فسهلت الهمزة بقلبها ألفاً لانفتاح ما قبلها ، وهى لغة لقريش

ما جاء فى أن تمرها شفاء

وفى مسلم حديث « مَنْ أكل سبعَ تمراتٍ مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره شىء حتى يمسى » وفى الصحيحين حديث « من تَصَبَّحَ بسبع تمرات عَجْوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر » ورواه أحمد برجال الصحيح بلفظ « مَنْ أكل سبع تمرات عجوة مما بين لابَتَيِ المدينة على الريق لم يضره يومه ذلك شىء حتى يمسى » قال فليح : وأظنه قال « وإن أكلها حين يُمْسى لم يضره شىء حتى يصبح » ورواه ابنُ زبالة بلفظ « من تصبَّحَ بسبع تمرات من العجوة » لا أعلمه إلا قال « من العالية لم يضره يومئذ سم ولا سِحر » وفى صحيح مسلم حديث « إن فى عجوة العالية شفاء، أو إنها ترياق أول البُكرة » وروى أحمد برجال الصحيح حديثاً فيه « واعلموا أن الكمأة دواء العين ، وأن العجوة من فاكهة الجنة » وروى النسائى وأبو داود الطيالسى والطبرانى فى الثلاثة بسند جيد حديث « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة ، وهى شفاء من السم » وقد صح فى سنن أبى داود عن سعد بن أبى وقاص قال « مرضْتُ مرضاً ، فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعُودُنِى ، فوضع يده بين ثديى حتى وجدت بَرْدَهَا على فؤادى ، فقال : إنك رجل مفؤد ، ائت الحارثَ ابن كَلَدَة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبب ، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة ، فليجأهن (١) ثم ليَلُدَّكَ بهن » ورواه الطبرانى لكن عن سعد بن أبى رافع .

قوله «فليجأهن» أى فليدقهن ، قال عياض : وقال ابن الأثير فليجأهن أى فليدقهن ، وبه سميت الوجيئة ، وهو تمر يبل بلبن ثم يدق حتى يلتئم (٢) ، ومنه الحديث « أنه دعا سعداً فوصف له الوجيئة » وقوله «ثم ليلدك» أى يسقيك ، يقال : لدَّه باللَّدُود ، إذا سقاه الدواء فى أحد جانبى الفم .

وفى كامل ابن عَدِى حديث « ينفع من الدُّوَامِ أن يأخذ سَبْعَ تمرات من عجوة المدينة كل يوم يفعل ذلك سبعة أيام » وفى غريب الحديث للخطابى عن عائشة رضى الله عنها

---

(١) فى مجمع البحار « فليجأهن مع نواهن : أى يدقهن مع النوى حتى يتكسر النوى ويعجن » (مكى) (٢) قال المجد « الوجيئة : تمر أو جراد يدق ويلت بسمن أو زيت فيؤكل » .

« أنها كانت تأمر للدُّؤامِ والدُّوَارِ بسبع تمرات عجوة فى سبع غدوات على الريق » والدؤام والدوار: ما يأخذ الإنسان فى رأسه فيدومه ، ومنه تدويم الطائر ، وهو: أن يستدير فى طيرانه ، قال الخطابى : كون العجوة عُوذَة من السم والسحر إنما هو من طريق التبرك بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا لأن طبعها يفعل شيئاً ، وقال النووى : فى تخصيصها دون غيرها وعدد السبع من الأمور التى علمها الشارع ، ولا نعلم نحن حكمتها ؛ فيجب الإيمان بها ، واعتقاد فضلها ، وما ذكره المازرى والقاضى فى هذا باطل ، وقصدت بذلك التحذير من الاغترار به ، انتهى . وأشار به لقول القاضى فى أثناء تعليل ذلك : إنه لتأثير فى الأرض أو الهواء ، ولقول المازرى : لعل ذلك كان لأهل زمنه صلى الله عليه وسلم خاصة ، أو لأكثرهم ؛ إذ لم يثبت استمرار وقوع الشفاء فى زمننا غالباً ، وإن وجد ذلك فى الأكثر حُمِلَ على أنه أراد وصف غالب الحال ، انتهى .

وقد جعله ابن التين احتمالا ، وزاد عليه آخَرَ أَعْجَبَ منه ، فقال : يحتمل أن يكون المراد نخلا خاصاً من المدينة لا يعرف الآن ، ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بزمانه صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وهو مردود ؛ لأن سَوْقَ الأحاديث وإيراد العلماء لها وإطباق الناس على التبرك بعجوة المدينة وتمرها يرد التخصيص بزمنه صلى الله عليه وسلم ، مع أن الأصل عدمه ، ولم تزل العجوة معروفة بالمدينة يأثرها الخلف عن السلف ، يعلمها كبيرهم وصغيرهم علما لا يقبل التشكيك .

وقال الداودى: هى من أوسط التمر كما هو المشاهد اليوم . وقال غيره : هى من أجود تمر المدينة ، ومراده أنها ليست من رديه . وقال ابن الأثير: العجوة ضرب من التمر أكبر من الصَّيْحَانى يضرب إلى السواد ، وهو مما غرسه النبى صلى الله عليه وسلم بيده بالمدينة .

وذكر هذا الأخيرَ البزارُ أيضاً ، فلعل الأوْداء [1] التى كاتب سلمان الفارسى أهله عليها وغَرَسَها صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة بالفُقَيْر أو غيره من العالية

(١) الأوداء : جمع ودى — على زنة غنى وعلى — وهو صغير النخل .

كانت عجوة ، والعجوة[1] توجد بالفقير إلى يومناهذا، و يبعد أن يكون المراد أن هذا النوع إنما حدث بغرسه صلى الله عليه وسلم وأن جميع مايوجد منه من غرسه كمالايخفى .

وروى ابنُ حِبَّان عن ابن عبـاس ل « كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة » وفى حديث ضعيف «خير تمركم البرنى ، يخرج الداء ، ولا داء فيـه » ورواه ابن شـبة بنحوه خطابا لوفد عبد القيس فى ثمـارهم ، وكذا الحاكم فى مستدركه ، وفى مسلم حديث « يا عائشة بيت لا تمر فيه جِياعٌ أهله » قالها مرتين أو ثلاثاً ، وفيه أيضاً حديث « لا يجوع أهل بيت عندهم التمر » وفى الـكبير والصغير للطبرانى ورجال الصغير رجال الصحيح عن ابن عباس « كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم إذا أُتِىَ بالبا كورة من الثمار وضعها على عينيه ثم قال : اللهم كما أطعمتنا أوله فأطعمنا آخره ، ثم يأمر به للمولود من أهله » ولفظ الـكبير « كان إذا أتى بالبا كورة من التمر قَبّلها وجعلها على عينيه » الحديثَ ، وفى نوادر الحـكيم الترمذى عن أنس بن مالك قال « كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم إذا أتى بالبا كورة من كل شىء قَبّلها ووضعها على عينه اليمنى ثلاثاً ، ثم على عينه اليسرى ثلاثاً ، ثم يقول : اللهم » الحديثَ بنحوه .

وروى البزار بسند فيه ضعيف حديث « يا عائشة إذا جاء الرطب فهنينى » ورويناه فى الغيلانيات ، وفيها أيضاً حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يُفطِر على الرطب فى أيام الرطب ، وعلى التمر إذا لم يكن رطب ، ويختم بهن ، ويجعلهن وتراً ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً » وفيها حديث « كلوا التمر على الريق ؛ فإنه يقتل الدود »

وأنواع تمر المدينة كثيرة ، ذكرنا ما أمكن جمعه منها فى الأصل فبلغ مائة و بضعاً وثلاثين نوعاً : منها النـوع المسمى بالصَّيْحانى[2] ، وقد أسند

---

(١) لعل هذا النوع كان فى زمن المؤلف ، وأما فى زماننا فهى غير معروفة ، والناس مختلفون فيها ؛ فبعضهم يقول : هى الجلية ، وبعضهم يقول : هى الجادى ، وبعضهم يعين نوعا آخر (مكى)

(٢) هذا النوع غير معروف اليوم (مكى)

الصَّدْرُ إبراهيم بن محمد بن مؤيد الحموى فى كتابه فضل أهل البيت عن جابر رضى الله عنه قال « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم يوما فى بعض حيطان المدينة ، ويَدُ علىّ فى يده ، قال : فمررنا بنخل ، فصاح النخل : هـذا محمد سيد الأنبياء ، وهـذا علىّ سيد الأولياء أبو الأئمة الطاهرين ، ثم مررنا بنخل فصاح النخل : هذا محمد رسول الله ، وهذا علىّ سيف الله ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى علىّ ، فقال له : يا على سَمِّه الصَّيْحَانى ، فسمى من ذلك اليوم الصيحانى » وهو حديث غريب ؛ فكان هذا سبب تسمية ذلك النوع بهـذا الاسم ؛ لأن تلك النخلات كانت منـه ، ويحتمل أن يكون المراد تسمية ذلك الحائط بهذا الاسم ، وبالمدينة اليوم موضع بجفاف يعرف بالصيحانى .

وروى بعضُهم هذا الحديث عن على بألفاظ فيها نَكارة ، وفى آخره « يا على سَمِّ نخلَ المدينة صيحانياً لأنهن صِحْنَ بفضلى وفضلك » .

الفصل السابع

فى سَرْدِ خصائصها

وهى كثيرة لا تكاد تنحصر ، وها أنا ذاكر ما حضرنى منها الآن وإن شاركتها مكةُ فى بعضه ، فأقول وبالله التوفيق :

الخاصة الأولى : ما تقدمت الإشارة إليه من كونه صلى الله عليه وسلم خُلق من طينتها ، وكذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأكثر الصحابة والسلف ممن دفن بها وروى أن الله تعالى بعث جبريل وميكائيل ليقبضا قَبْضَـةً من الأرض ، فأبَتْ ، حتى بعث الله تعالى عزرائيل فقبض منها قبضة ، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه ، فصار بعضُ الأرض بين قدميه وبعضُ الأرض موضع أقدامه ، فخلقت النفسُ مما مسَّ قدم إبليس ؛ فصارت مأوى الشر ، ومن التربة التى لم يصل إليها قدمُ إبليس أصل الأنبياء والأولياء .

قال فى العوارف : وكانت درة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدمُ إبليس .

وقيل: [لما][(١)] خاطب الله السموات والأرض بقوله «ائتيا طوعًا أو كرهًا[(٢)]» الآية أجاب من الأرض موضع الكعبة ومن السماء ما يحاذيها .

وعن ابن عباس : أصلُ طينة النبى صلى الله عليه وسلم من سرة الأرض بمكة ، يعنى الكعبة ، وهو مُشْعِر بأن ما أجاب من الأرض درته صلى الله عليه وسلم ، ومن الكعبة دُحِيت الأرض ؛ فصار صلى الله عليه وسلم هو الأصل فى التكوين .

قال فى العوارف عقبهُ : وتربة الشخص مدفنه ، فكان مقتضى ذلك أن يكون مدفنه هناك ، لكن قيل : لما تموج الماء رَمَى الزَبدَ إلى النواحى ، فوقعت جوهرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذى تربته الشريفة بالمدينة ، فكان مكيا مدنيا .

قلت : فلمكة الفضل بالبداية ، وللمدينة بالاستقرار والنهاية .

الثانية : اشتمالها على البقعة التى انعقد الإجماع على تفضيلها على سائر البقاع ، كما تقدم تحقيقه .

الثالثة : دفن أفضل الأمة بها والكثير من الصحابة الذين هم خير القرون .

الرابعة : أنها محفوفة بأفضل الشهداء الذين بَذَلُوا نفوسهم فى ذات الله بين يَدَىْ نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فكان شهيداً عليهم

ونقل عياض فى المدارك وابن الجوزى فى منسكه أن مالكا كان يقول فى فضل المدينة : هى دار الهجرة والسنة ، وهى محفوفة بالشهداء ، وبها خيار الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) زيادة يحتاج إليها اتساق الكلام (٢) من سورة فصلت من الآية ١١ .

الخامسة : أن الله تعالى اختارها داراً وقراراً لأفضل خلقه وأكرمهم عليه صلى الله عليه وسلم .

السادسة : أن الله تعالى اختار أهلها للنصرة والإيواء .

السابعة : أن سائر البلاد افتتحت بالسيف ، وافتتحت هى بالقرآن ، كما هو مروى عن مالك ، ورفعه ابنُ زَبالة من طريقه .

الثامنة : أن الله تعالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام ، حتى مكة المشرفة ، وجَعَلها مظهر دينه القويم .

التاسعة : ما ذكره عياض من الاتفاق على وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة ، ووجوب سكناها لنصرة النبى صلى الله عليه وسلم ومواساته بالأنْفُس ، قال: ومن هاجر قبل الفتح فالجمهور على منعه من الإقامة بمكة بعد الفتح ، ورخص له فى الإقامة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه .

العاشرة : أنه يبعث أشراف هذه الأمة يوم القيامة منها ، على ما نقله عياض فى المدارك عن مالك فى ضمن أشياء فى فضل المدينة ، قال : وهذا لايقوله مالك من عند نفسه .

الحادية عشرة : ماتقدم فى الأسماء من تسميتها بالمؤمنة والمسلمة ، وإن ترتبتها لمؤمنة ، وأنه لامانع من أن الله خلق ذلك فيها .

الثانية عشرة : إضافتها إلى الله تعالى فى قوله : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً »(١) على ماتقدم فى الأسماء ؛ وقد جاءت الأرض غير مضافة إلى الله تعالى والمراد بها مكة ، وذلك فى قوله تعالى : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فى الأرض(٢) » .

الثالثة عشرة : إضافة الله إياها إلى رسوله بلفظ البيت فى قوله : « كما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ(٣) » على ماتقدم فى الأسماء .

---

(١) من سورة النساء من الآية ٩٧ (٢) من سورة الأنفال من الآية ٢٦
(٣) من سورة الأنفال من الآية ٥

الرابعة عشرة : إقسام الله تعالى بها فى قوله «لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ[١]» على ماسبق فى الأسماء ، أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرفته بك ، و «لا» زائدة للتأكيد ، ويدل عليه قراءة الحسن والأعمش «لَأُقْسِمُ» .

الخامسة عشرة : أن الله بدأبها فى قوله : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ[٢] » فمدخل صدق هى ، ومخرجه مكة كما تقدم ، مع أن القياس البداءة بالمخرج لموافقة الواقع . فإن قيل : التقديم للاهتمام بأمر المدخل ، قلنا : فى الاهتمام به كفاية .

السادسة عشرة : تسميتها فى التوراة بالمرحومة ونحوه ، ومخاطبة الله إياها كما تقدم .

السابعة عشرة : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بحبها كمكة وأشد ، وتسميتها بالحبيبة وغيره مما تقدم ، ودعاؤه أن يجعل الله له بها قراراً ورزقاً حسناً .

الثامنة عشرة : تحريكه صلى الله عليه وسلم دابته أو إيضاعها إذا أبصر جدرانها عند قدومها ، وأنه كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثاية[٣] طرح رداءه عن منكبيه وقال « هذه أرواح طَيْبة » كما تقدم .

التاسعة عشرة : اهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر الدعاء لها بالبركة وغير ذلك .

العشرون : تحريمها على لسان أفضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه إكراماً له ، وكونه لاجزاء فيها على القول به دليلُ عظيمِ حرمتها حيث لم يشرع فيها جابر .

الحادية والعشرون : تأسيس مسجدها الشريف على يده صلى الله عليه وسلم ، وعَمَلُه فيه بنفسه ، ومعه خير الأمة المهاجرون الأولون والأنصار المقدمون .

الثانية والعشرون : اختصاصها بالمسجد الذى أنزل الله فيه « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه[٤] » .

الثالثة والعشرون : كون ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة ، وفى

(١) من سورة البلد من الآية ١ (٢) من سورة الإسراء من الآية ٨٠

(٣) الأثاية : موضع بين مكة والمدينة فيه مسجد نبوى ، أو بئر دون العرج عليها مسجد نبوى

(٤) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

رواية «ما بين منبري وهذه الحُجَرِ» يعني حُجَرَه صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى بيان أن ذلك يعم مسجده صلى الله عليه وسلم على ما هو المشهور بين الناس فى تحديد المسجد الشريف ؛ ولهذا قال بعضهم : هذا المسجد هو المسجد الذى لا تُعرف بقعة فى الأرض من الجنة غيره .

الرابعة والعشرون : كون منبره الشريف على تُرْعة من تُرَع الجنة ، وأن قوائمه رواتب فى الجنة ، وفى رواية « ومنبرى على حوضى » .

الخامسة والعشرون : ما ورد فى مسجده الشريف من المضاعفة الآتى بيانها .

السادسة والعشرون : حديث « مَنْ صَلَّى فى مسجدى هذا أربعين صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبَرِىء من النفاق » رواه الطبرانى فى الأوسط.

السابعة والعشرون : ما سيأتى أن مَنْ خرج على طُهْر لا يريد إلا الصلاة فيه كان بمنزلة حَجَّة ، وأن الخارج إليه من حين يخرج من منزله فرِجْلٌ تكتب حسنةً ورجل تحط خطيئة .

الثامنة والعشرون : أن إتيان مسجد قباء يعدل عمرة كما سيأتى .

التاسعة والعشرون : حديث « صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة فى المدينة كألف صلاة فيما سواها » فسائر أفعال البر كذلك كما قيل به فى مكة ، وبه صرح أبو سليمان داود الشاذلى فى الانتصار ، ثم رأيته فى الإحياء ، قال : إن الأعمال فى المدينة تتضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا » الحديثَ ، ثم قال : فكذلك كل عمل بالمدينة بألف انتهى ، وقال ابن الرفعة فى المطلب : وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصيام بالمدينة أفضل من الصلاة ، والصلاة بمكة أفضل من الصيام ، مراعاة لنزول فرضيتهما(١) ، انتهى

---

(١) يريد أن الصلاة شرعت بمكة فيكون فعلها بها أفضل من الصيام بها ، وأن الصيام شرع فى المدينة ففعله بها أفضل من الصلاة بها .

قلت : ويؤخذ من هذه العلة أن كل عبادة شرعت بالمدينة فهى بها أفضل منها بمكة ، ولك أن تعد هذا خاصة مستقلة .

الثلاثون : حديث «لا يَسْمَعُ النداء فى مسجدى هذا ثم يخرج منه إلا لحاجة ثم لا يرجع إليه إلا منافق» .

الحادية والثلاثون : تأكد التعلم والتعليم بمسجدها كما سيأتى .

الثانية والثلاثون : اختصاصه بمزيد الأدب وخَفْض الصوت ؛ لكونه بحضرة سيد المرسلين[1] ، واختصاصه عند بعضهم بمنع آكل الثوم ونحوه من دخوله ؛ لاختصاصه بملائكة الوحى .

الثالثة والثلاثون : أنه لا يجتهد فى مِحْرَابه ؛ لأنه صواب قطعاً ؛ فلا مجال للاجتهاد فيه حتى باليَمْنة واليَسْرة ، بخلاف محاريب المسلمين ، والمراد مكان مُصَلاَّه صلى الله عليه وسلم ، قال الرافعى : وفى معناه سائر البقاع التى صلى فيها صلى الله عليه وسلم إذا ضبط المحراب ، قلت : وفى ضبطه بغيرها عسر أو تعذر .

الرابعة والثلاثون : أن ما بين منبره صلى الله عليه وسلم ومسجد المصلى روضة من رياض الجنة ، وهذا جانب كبير من هذه البلدة .

الخامسة والثلاثون : حديث « أُحُدٌ على تُرْعة من تُرَع الجنة » وحديث « أحد جبل يحبنا ونحبه » .

السادسة والثلاثون : حديث « إن بُطْحَان على ترعة من ترع الجنة » .

السابعة والثلاثون : وصف العقيق بالوادى المبارك ، وأنه صلى الله عليه وسلم يحبه ، وفى رواية « يحبنا ونحبه » .

الثامنة والثلاثون : حثه صلى الله عليه وسلم على الإقامة بها .

التاسعة والثلاثون : حثه على اتخاذ الأصل بها .

الأربعون : حثه على الموت بها ، والوعد على ذلك بالشفاعة أو الشهادة أوهما .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) من سورة الحجرات من الآية ٢ .

الحادية والأربعون : حرصه صلى الله عليه وسلم على موته بها .

الثانية والأربعون : كون أهلها أول من يشفع لهم ، واختصاصهم بمزيد الشفاعة والإكرام كما تقدم .

الثالثة والأربعون : بَعْث الميت بها من الآمنين على ماسيأتى .

الرابعة والأربعون : أنه يبعث مِنْ بَقِيعها سبعون ألفاً على صورة القمر يدخلون الجنة بغير حساب ، ومثله فى مقبرة بنى سلمة ، وتوكل ملائكة بمقبرة البقيع كُلّما امتلأت أخذوا بأطرافها فكَفَؤُها فى الجنة .

الخامسة والأربعون : بَعْثُ أهلها من قبورهم قبل سائر الناس .

السادسة والأربعون : شهادته ـ أو شفاعته ـ صلى الله عليه وسلم لمن صبر على لأوائها وشدتها .

السابعة والأربعون : وجوب شفاعته صلى الله عليه وسلم لمن زاره بها .

الثامنة والأربعون : استجابة الدعاء بها عند القبر الشريف ، ويقال : إنه مستجاب عند الأسطوان المخلق ، وعند المنبر ، وفى زاوية دار عقيل بالبقيع ، وبمسجد الفتح بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء ، واستجابة الدعاء بمسجد الإجابة ومسجد السقيا وبالمصلى عند القدوم ، وعند بركة السوق فى يوم العيد ، وعند أحجار الزيت وبالسوق ، لما سيأتى عند ذكر هذه الأماكن من ورود ذلك عنه صلى الله عليه وسلم بها .

التاسعة والأربعون : كونها تنفى خبثها .

الخمسون : كونها تنفى الذنوب كما تنفى النار خَبَثَ الفضة .

الحادية والخمسون : الوعيد الشديد لمن ظلم أهْلَها أو أخافهم .

الثانية والخمسون : مَنْ أرادها وأهلَها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء، وفى رواية أذابه الله فى النار ، ويؤخذ من ترتيب الوعيد على الإرادة مساواة المدينة لحرم مكة فى هذا ، وفيه قال تعالى : «ومَنْ يُرِدْ فيه بإلحاد بظلم» (١) الآية ،

(١) من سورة الحج من الآية ٢٥ .

ويتمسك للمساواة أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » فقولُ ابن مسعود : ما من بلدة يؤاخذ العبد فيها بالهمِّ قبلَ الفعل إلا مكة وتلا الآية مُشْكِلٌ ، وأيضا فالهمُّ العارضُ الوارد من غير عَزْم لا مؤاخذة به مطلقاً بالاتفاق ، وأما الثابت الذى يصحبه التَّصْمِيم فالعبد مؤاخذ به بمكة وبغيرها ، وإنما خصوصيةُ الحرم تعظيمُ العذاب لمن هَمَّ فيه لجرأته ؛ ولذا روى أحمد فى معنى الآية بإسناد صحيح مرفوعا « لو أن رجلا هَمَّ فيه بإلحاد وهو بعَدَن أَبْيَن[1] لأذاقه الله عذاباً أليما » .

الثالثة والخمسون : الوعيد الشديد لمن أحدث بها حدثا أو آوى محدثاً ، وتقدم تفسير الحديث بالإثم مطلقاً ، وأنه دالّ على أن الصغيرة بها كبيرة ؛ وللوعيد الشديد فى ذلك ؛ لأنها حَضْرَةُ أشرفِ المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وسوء الأدب على بساط الملك ليس كالإساءة فى أطراف المملكة .

قال بعض السلف : إياك والمعصية فإن عصيت ولابد فليكن فى مواضع الفجور ، لا فى مواضع الأجور ؛ لئلا يتضاعف عليك الوزر ، أو تعجل لك العقوبة .

فإن قيل : هذا قول بتضعيف السيئات فى الحرم ، والراجح خلافه ؛ لقوله تعالى « وَمَنْ جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مثلها[2] » .

قلنا : تحرير النزاع أن القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها : أى عظمها ، لا العدد ، فإن السيئة جزاؤها سيئة ، لكن السيئات قد تتفاوت عقوبتها باختلاف الأشخاص والأماكن ، كما أن تقدير كل أحد بما يليق به فى الزجر ، فجزاء السيئة مثلُها ، ومن المماثلة رعاية ما اقترن بها ممـــا دل على جراة مرتكبها ، ولا تكتب إلا واحدة ، والله أعلم .

الرابعة والخمسون : الوعيد لمن لم يُكرم أهلها وأن إكرامهم وحفظهم حَقٌّ على

---

(١) عدن أبين — على الإضافة — جزيرة باليمن ، أقام بها أبين ، وعدن لاعة : قرية بقربه .

(٢) من سورة الأنعام من الآية ١٦٠

الأمة ، وأنه صلى الله عليه وسلم شفيع — أو شهيد — لمن حفظهم فيه .

الخامسة والخمسون : حديث « من أخاف أهلَ المدينة فقد أخاف ما بين جَنْبَيَّ » .

السادسة والخمسون : حديث « مَنْ غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مُشْرَبٌ جَفْوَةً [(١)] » وإنه « لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله تعالى فيها خيراً منه » كما في حديث مسلم ، قال المحب الطبرى : فيه إشعار بذم الخروج منها ، وذهب بعضهم إلى أنه مخصوص بمدة حياته صلى الله عليه وسلم ، فأما بعد وفاته فقد خرج نفر كثير من كبار الصحابة ، وذهب آخرون إلى أنه عام أبداً ، قال الطبرى : وهو ظاهر اللفظ ، نعم هو مخصوص بالمستوطن ، لا مَنْ نوَى الإقامة بها مدة ثم ينقلب [(٢)] إلى وطنه .

السابعة والخمسون : إكرام الله لها بنَقْلِ وبائها وتحويل حُمَّاها .

الثامنة والخمسون : الاستشفاء بترابها ، وما تقدم فى ثمارها .

التاسعة والخمسون : عصمتها من الطاعون .

الستون : عصمتها من الدجال ، وخروج الرجل الذى هو خير الناس — أو من خير الناس — إليه منها ، وقوله له : أشهد أنك الدجال ، وأنه لا يُسلَّط عليه بآخرة الأمر ، وبهذا تتميز على مكة ، والسر فيه أن سيد المرسلين — وهو حجة الله على العباد — بالمدينة .

الحادية والستون : ما فى حديث الطبرانى من قوله صلى الله عليه وسلم « وحق على كل مسلم زيارتها » .

الثانية والستون : سماعُه صلى الله عليه وسلم سلامَ من سلم وصلاةَ من صلى عليه عند قبره الشريف ، ورده عليه .

الثالثة والستون : اختصاصها بمَلَكِ الإيمان والحياء ، كما تقدم فى الأسماء .

---

(١) مشرب جفوة — على زنة اسم المفعول — أى خالطه الجفاء .
(٢) ينقلب : يرجع ويعود

الرابعة والستون : كون الإيمان يأرِزُ إليها .

الخامسة والستون : اشتباكها بالملائكة وحِراستهم لها .

السادسة والستون : كونها أولَ أرضٍ اتخذ بها مسجد لعامة المسلمين فى هذه الأمة .

السابعة والستون : كون مسجدها آخِرَ مساجدِ الأنبياء ، وآخر المساجد التى تُشَدُّ إليها الرِّحالُ ، وكونه أحق المساجد أن يزار كما سيأتى .

الثامنة والستون : كثرة المساجد والمَشَاهِدِ والآثار بها ، بل البركة عامة منبثة بها ، ولهذا قيل لمالك : أيما أحب إليك المقام هنا يعنى المدينة أو بمكة ؟ فقال : ههنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟.

التاسعة والستون : ما يوجد بها من رائحة الطيب الزكية ، على ما تقدم فى الأسماء

السبعون : طِيبُ العيش بها ، على ما تقدم هناك أيضاً .

الحادية والسبعون : استحقاق مَنْ عاب تربتها للتعزير ؛ فقد أفتى مالك فيمن قال « تربة المدينة رديئة » بأن يضرب ثلاثين دِرَّةً ، وأمر بحبسه ، وكان له قَدْر ، وقال : ما أحْوَجَه إلى ضرب عنقه ، تربةٌ دُفن فيها النبى صلى الله عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة ؟

الثانية والسبعون : الوعيد الشديد لمن حلف يميناً فاجرة عند منبرها .

الثالثة والسبعون : استحبابُ الدخول لها من طريق والرجوع فى أخرى ، لما سيأتى فى مسجد المعرَّس (١) .

الرابعة والسبعون : استحباب الاغتسال لدخولها .

الخامسة والسبعون : استحباب الدعاء والطلب من الله الموتَ بها .

---

(١) المعرس — بزنة المكرم — هو والتعريس بمعنى النزول ليلا .

السادسة والسبعون : أنها دار إسلام أبداً ؛ لحديث «إن الشياطين قد يُئِسَتْ أن تعبد ببلدى هذا» .

السابعة والسبعون : أنها آخر قُرَى الإسلام خرابا ، رواه الترمذى وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ «آخر قرية فى الإسلام خرابا المدينة»

الثامنة والسبعون : تخصيص أهلها بأبعد المواقيت وأفضلها ؛ تعظيما لأجورهم .

التاسعة والسبعون : ذهب بعض السلف إلى تفضيل البداءة بالمدينة قبل مكة ، وهى مسألة عزيزة ، وممن نص عليها ابن أبى شيبة فى مُصَنفه فروى عن علقمة والأسود وعمرو بن ميمون أنهم بدؤا بالمدينة قبل مكة ، وأن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤن بالمدينة ، وفى المناسك الكبير للإمام أحمد رواية ابنه عنه : سُئل عمن يبدأ بالمدينة قبل مكة ، فذكر بإسناده عن عبد الرحمن بن يزيد وعطاء ومجاهد قالوا : إذا أردت مكة فلا تبدأ بالمدينة وابدأ بمكة ، فإذا قضيت حجك فامرر بالمدينة إن شئت ، وعن إبراهيم النخعى ومجاهد : إذا أردت مكة للحج والعمرة فاجعل كل شىء لها تبعاً ، ثم روى أن نَفَرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤن بالمدينة إذا حجوا ، يقولون : نبدأ من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وهذا أرجح ؛ لتفضيل ميقات المدينة ، وإتيانُ المدينة أولاً وُصلةٌ إليه ، مع ما فيه من البداءة بزيارة النبى صلى الله عليه وسلم وإيثارها ، ولعله السبب عند مَنْ بدأ بالمدينة ممن تقدم ذكره من التابعين كما قال السبكى . ونقل الزركشى عن العبدى شارح الرسالة من المالكية أنه قال : المشىُ إلى المدينة لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس ، انتهى . والخلاف فيما إذا لم تكن المدينة على طريقه ؛ لأن مأخذ مَنْ رجّح البداءة بمكة المبادرة إلى قضاء الفرض ، ولهذا قال الموفق ابن قدامة : قال أحمد : وإذا حج الذى لم يحج قط — يعنى من غير طريق

الشام - لا يأخذ على طريق المدينة ؛ لأنى أخاف أن يحدث به حدث ، فينبغى أن يقصد مكة من أقصر الطرق ولا يتشاغل بغـيره ، قال السبكى : وهو فى العمرة متجه ؛ لإمكان فعلها متى وصَـل ، وأما الحج فله وقت مخصوص فإذا كان متسعاً لم يفت بمروره بالمدينة شيء . قلت : ومع ذلك فهو فى الفرض ، ولهذا قال فى الفصول : نقل صالح وأبو طالب : إذا حج للفرض لم يمر بالمدينة ؛ لأنه إن حدثَ به حدثُ الموتِ كان فى سبيل الحج ، وإن كان تطوعا بدأ بالمدينة ، انتهى . وممن نص على المسألة أيضاً الإمامُ أبو حنيفة على ما نقله أبو الليث السمرقندى ، وقال : إن الأحسن البداءة بمكة .

الثمانون : اختصاص أهلها فى قيام رمضان بستة وثلاثين ركعة ، على المشهور عند الشافعية ، قال الرافعى والنووى : قال الشافعى : رأيت أهل المدينـة يقومون بتسع وثلاثين ركعة ، منها ثلاث للوتر ، قال أصحابنا : وليس لغـير أهل المدينة ذلك ؛ لشرفهم بمُهَاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره ، ثم قال الرافعى : وسببُ فعـلِ أهل المدينة ذلك أن الركعات العشرين خمس ترويحات ، وكان أهلُ مكة يطوفون بين كل ترويحتين أسبوعا(١) ، ويُصَلُّون ركعتى الطواف أفراداً ، وكانوا لا يفعـلون ذلك بين الفريضة والتراويح ولا بين التراويح والوتر ، فأراد أهل المدينة أن يساووهم فى الفضيلة ، فجعلوا مكان كل أسبوع — أى مع كل ركعتيه — ترويحة ؛ فحصل أربعُ ترويحاتٍ هى ستةَ عَشَرَ ركعةً ، انتهى .

ونقل الرويانى فى البحر هذا السبب عن الشافعى . وقال القاضى أبو الطيب الطبرى : قال الشافعى : لا يجوز لغير أهل المدينة أن يماروا أهل مكة ولا ينافسوهم لأن الله فضَّلهم على سائر البـلاد ، انتهى . وحاصل التوجيه أن الحسد فى الخير مطلوب ، وهو فى الحقيقة غبطة كما حَسَدَ المهاجرون - لما لم يكن لهم ما يتصدقون به - الأنصارَ فقالوا : ذهبَ أهلُ الدُّثُور بالأجور(٢) ، فأثبت أهل المدينة هذا العدد

---

(١) يريد سبعة أشواط (٢) يعنى ذهب الأغنياء بالثواب ؛ لأنهم يتمكنون من الصدقة بسبب مالهم ، وهى مستوجبة للأجر ، ولا يستطيعها الفقراء .

بضرب من الاجتهاد ليلحقوا بأهل مكة ، وقد تشارك البَلَدانِ فى الفضائل حتى اختلف فى تفضيل كل منهما على الأخرى ، وجعل لأهل المدينة ما يحصل به ثواب الاعتمار والحج ، وامتازت المدينة بالمهاجر والقبر ، فجعل لأهلها طريق إلى تحصيل تلك الفضيلة السابقة مع إقامتهم بها ، ولعله لو لم يشرع لهم ذلك لحملتهم الرغبة فى الخير على الانتقال إلى مكة ، وسكنى المدينة مطلوبٌ ، وأما غيرهم فليس له شىء من هذا الفضل ، فكيف يتأتى له مساواة أهل مكة ؟ فلم يشرع لهم ذلك ، هذا ، وإجماع أهل المدينة حجة عند مالك ، والقيام بهذا العدد بالمدينة باقٍ إلى اليوم إلا أنهم يقومون بعشرين ركعة عقب العشاء ، ثم يأتون آخر الليل فيقومون بستة عشر[1] ركعة ، فوقع لهم خَلَل فى أمر الوتر نَبّهنا عليه فى كتاب « مصابيح القيام ، فى شهر الصيام » وكنت قد ذكرت لهم ما يحصل به إزالة ذلك ، ففعلوه مدة ، ثم غلبت الحظوظ النفسية على بعضهم فعاد الأمر كما كان .

الحادية الثمانون : زيادة البركة بها ، على مكة المشرفة ، وقد قدمنا حديثاً يشير إلى أن المدعو به لها ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، والمصرح به فى الأحاديث « ضعفى ماجعلت بمكة من البركة » وفى بعضها « مثل ما جعلت بمكة من البركة ومع البركة بركتين » .

الثانية والثمانون : نقل عن مالك أن خبر الواحد إذا عارضه إجماع أهل المدينة قدم إجماعهم ، ولهذا روى حديث خيار المجلس ثم قال : وليس لهذا عندنا حد معلوم ولا أمر معمول به ؛ لما اختص[2] به أهلُ المدينة من سكناهم مَهْبِطَ الوحى ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ ، فمخالفتهم تقتضى علمهم بما أوجب ترك العمل من ناسخ أو دليل راجح ، والمحققون على أن البقاع لا أثر لها فى ذلك ، وقد بلغ ابنَ أبى ذئب — وهو من أقران مالك — مخالفتُه للحديث فأغلظ فى ذلك لأن العصمة إنما

---

(١) كذا ، وحق العربية أن يقول « بست عشرة ركعة » .

(٢) هذا تعليل لتقديم إجماع أهل المدينة .

تثبت فى إجماع جميع الأمة ، ويؤخذ من كلام مالك اختصاصُ ذلك بعمل أهل ذلك العصر من أهل المدينة[١] .

الثالثة والثمانون : حديث النسائى والبزار والحاكم واللفظ له « يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدوا عالما أعْلَمَ من عالم المدينة » وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقد كان ابنُ عُيَيْنة يقول : نرى هـذا العالم مالك بن أنس ، انتهى . قال الزركشى : وفيما حكاه عن سفيان نظر ؛ لما فى صحيح ابن حِبَّان أن إسحاق بن موسى قال : بلغنى عن ابن جُرَيج أنه كان يقول : نرى أنه مالك ابن أنس ، فذكرت ذلك لسفيان بن عُيَينة فقال : إنمـــا العالم مَنْ يخشى الله ، ولا نعلم أحداً كان أخشى لله من العمرى ، قال التوربشتى فى شرح المصابيح : يعنى عبدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ، كان من عباد الله الصالحين المشائين فى بلاده وعباده بالنصيحة . بلغنا أنه كان يخرج إلى البادية ليتفقد أهلها شفقة عليهم وأداء لحق النصيحة فيهم ، وقد أخرج الترمذى الحديث وحَسَّنه ، وتكلم ابن حزم فيه ، ثم قال : ولم يتعين هذا فى مالك ؛ لأنه كان فى عصره جماعة لا يفضل على واحد منهـم ، وكان بالمدينة مَنْ هو أجل منه كسعيد بن المسيب ؛ فهذا الحديث أولى به . وقال ابن عيينة : ولو سئل : أىُّ الناس أعلم؟ لقالوا : سفيان الثورى ، قال ابن حزم : وإن صح هذا الحديث فإنما يكون إذا قرب قيام الساعة وأرِزَ الإيمان إلى المدينة وغلب الدجال على الأرض خلا مكة والمدينة ، وأما حتى الآن فلم يأت صفة ذلك الحديث ؛ لأن الفقه انقطع من المدينة جملةً ، واستقر فى الآفاق ، انتهى . ولا يخلو عن نزاع .

الرابعة والثمانون : تحريمُ نقل أحجار حرمها وترابه كما سيأتى بيانه .

---

(١) لأن أهل ذلك العصر هم الذين شاهدوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوا مايفعلون ومايتركون ؛ فإذا اتفقوا على فعل شىء أو تركه دل على أنه لم يكن فى الصحابة من يخالف ذلك ، وإلا لوجد من يعمل على غرار عمل المخالف من الصحابة .

الخامسة والثمانون : لو نذر تطييبَ مسجد المدينة وكذا الأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين ؛ لأنا إن نظرنا إلى التعظيم ألحقناهما بالكعبة ، أو إلى امتياز الكعبة بالفضل فلا ، وكلام الغزالى فى آخر باب النذر يقتضى اختصاصه بالمسجدين كما فرضناه ، لا فى غيرهما من المساجد ، والإمام طَرَدَه فى الكل ، وحيث كان الملحظ ما ذكر فينبغى أن لا يتوقف فيما لو نذر تطييب القبر الشريف .

السادسة والثمانون : إذا نذر زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم لزمه الوفاء بذلك وجهاً واحداً ، وفى وجوب الوفاء فى زيارة قبر غيره وجهان ، قاله ابن كَجٍّ ، وأقره عليه الرافعى والنووى وغيرهما .

السابعة والثمانون : قيامُ مسجدها مقام المسجد الأقصى كالمسجد الحرام فيما لو نذر الصلاة أو الاعتكاف فى الأقصى ؛ فإن الأصح لزومه به ، وأجزأ مسجد المدينة لزيادة فضله ، ولو نذرهما بمسجد المدينة لم يجزه فعل ذلك بالأقصى ويجزيه بالمسجد الحرام .

الثامنة والثمانون : الاكتفاء بزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن نذر إتيان مسجد المدينة ، كما قال الشيخ أبو على تفريعاً على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعى والبُوَيْطى وعلى أنه لابد من ضم قُرْبَةٍ إلى الإتيان كما هو الأصح تفريعاً على اللزوم ، وعلله الشيخ أبو على بأن زيارته صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات ، وتوقف فى ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد وتعظيمه ، قال : وقياسه أنه لو تصدق فى المسجد أو صام يوماً كفاه ، وفيه نظر ، على أن الصحيح مانص عليه فى المختصر من عدم لزوم الإتيان ، وإن كان اللزوم أرجَحَ دليلا ، ورجح الرافعى تفريعاً على اللزوم ضم صلاة أو اعتكاف ، وكذا إذا نذر إتيان الأقصى ، فإن نفس المرور لما لم يكن فى نفسه مزية انصرف النذر إلى ما يقصد فيه من القُرَبِ وبهذا يترجح ما قاله الشيخ أبو على ؛ لأن إتيان مسجد المدينة يقصد للصلاة والاعتكاف والزيارة بخلاف غيره

التاسعة والثمانون : قال ابن المنذر : إذا نذر أن يمشى إلى مسجد الرسول والمسجد الحرام لزمه الوفاء به لأنه طاعة ؛ ومن نذر أن يمشى إلى بيت المقدس كان بالخيار : إن شاء مشى إلى المسجد الأقصى ، و إن شاء مشى إلى المسجد الحرام ؛ لحديث أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى نذرت إن فَتَحَ الله عليك مكة أن أصلى فى مسجد بيت المقدس ، قال صلى الله عليه وسلم «صَلِّ هنا ، ثلاثاً » انتهى . و يعلم مما تقرر فى إجزاء مسجد المدينة عن الأقصى فى الإتيان والصلاة إجزاؤه هنا كالمسجد الحرام ، والذى اقتضاه كلام البغوى تصحيح عدم لزوم المشى فى مسجد المدينة والأقصى ، وهو الذى رجحوه .

التسعون : قوله صلى الله عليه وسلم فى أحاديث تحريمها « ولا يُحْمَلُ فيها سلاح لقتال » .

الحادية والتسعون : قوله فيها أيضاً « ولا تلتقط لقطته إلا لمن أشاد بها [(١)] » .

الثانية والتسعون : إذا قلنا بضمان صَيْدها وقطع شجرها فالصحيح أنه يُسْلَبُ الصائد كما يسلب قَتيلُ الكفار ، وهذا أبلغ فى الزجر من الجزاء [(٢)] .

الثالثة والتسعون : جواز نقل ترابها للتداوى .

الرابعة والتسعون : ظهور نار الحجاز التى أخبر بها صلى الله عليه وسلم مما حولها ؛ لأنها للإنذار ، فاختصت ببلد النَّذِير ، ثم لما بلغت الحرم وكان مُحَرَّمه المبعوث بالرحمة خمدت وطفئت ، على ماسيأتى .

الخامسة والتسعون : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بالبركة فى سُوقها .

السادسة والتسعون : ماسيأتى فى سوقها من أن الجالب إليه كالمجاهد فى سبيل الله .

السابعة والتسعون : أن المحتكر فيه كالملحد فى كتاب الله .

الثامنة والتسعون : ما سيأتى فى بئر غرس من أنه صلى الله عليه وسلم « رأى

---

(١) أشاد بها : عرفها ونوه بها ، والمراد أنه لا يجوز التقاطها للتملك .
(٢) قد شرع الله جزاء لمن قتل صيد مكة وهو محرم .

أنه أصبح على بئر من آبار الجنة ، فأصبح على بئر غرس » ورؤيا الأنبياء حق ، عليهم الصلاة والسلام ! .

التاسعة والتسعون : ما سبق فى ثمارها من أن العَجْوة من الجنة ؛ فقد اشتملت المدينة على شىء من أرض الجنة ومياهها وثمارها ، والله أعلم .

الفصل الثامن

فى الأحاديث الواردة فى تحريمها ، وهى كثيرة

روينا فى الصحيحين منها حديث عبد الله بن زيد « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها » ، وفى لفظ « ودعا لأهلها ، وإنى حرمت المدينة كما حَرَّمَ إبراهيم مكة » الحديثَ .

وفى البخارى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « حرم ما بين لَابَتَى[1] المدينة على لسانى » قال : وأتى النبى صلى الله عليه وسلم بنى حارثة فقال : « أراكم يابنى حارثة قد خرجتم من الحرم ، ثم التفت فقال : بل أنتم فيه » وسيأتى بيان منازلهم[2] ، وفيه أيضاً عنه : لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذَعَرْتُها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين لابتيها[1] حرام » وهو فى مسلم بزيادة ، ولفظه « حرم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتى[1] المدينة » قال أبو هريرة : فلو وجدت الظباء ما بين لابتيها[1] ما ذَعَرْتُها ، وجعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حِمًى .

وفى مسلم أيضاً عن عاصم الأحول : « سألت أنسا أحرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ؟ قال : نعم ، هى حرام : لا يُخْتَلى خَلَاهَا[3] ، فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وفيه أيضاً حديث رافع بن خديج رضى الله عنه « إن إبراهيم حرم مكة ، وإنى أحرم ما بين[1] لا بتيها » يريد المدينة .

---

(١) اللابتان : مثنى لابة ، وهى الحرة على ماسيأتى للمؤلف (ص ٩١) .

٢ انظر ص ٩١ .

(٣) لا يختلى : أى لا يجز ولا يقطع ، والخلى : الرطب من النبات .

وفيه أيضاً حديث جابر « إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ما بين لابَتَيْهَا : لا تقطع عِضَاهُها ، ولا يصاد صيدها » .

وفيه أيضاً من حـديث أبي سعيد الخدري « أللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً ، وإني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزمَيْها ، أن لا يُهَرَاقَ فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يُخْبَطَ[1] فيها شجرة إلا لعلف » الحديث .

وفيه أيضاً من حديث أنس « أللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم إبراهيم عليه السلام مكة » .

قلت : المراد بجبليها عَيْر وثَوْر ، وهما المعبر عنهما في الحديث قبله بمأزميها على ما صَوَّبه النووي، ونسبة تحريم مكة لإبراهيم عليه السلام دليل لمذهب إليه جماعة من أنها لم تَزَلْ حلالا كغيرها إلى زمن إبراهيم عليه السلام ، فحرمت ، والثاني — وصححه النووي ، ونقل عن الأكثرين — أنها لم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض ، ثم أظهر الله تعالى ذلك على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام . قال الزركشي : وفيه جمع بين الأحاديث . قلت : الأحكام قديمة ؛ لأنها خطاباته تعالى ، والحادث إنما هو تعلقاتها بالمكلفين ، فإذا كان ظهور تحريمها على لسان إبراهيم عليه السلام فذلك أول تعلق الحكم التكليفي ، فما معنى ما يقوله الثاني من تحريمها يوم خلق الله السموات والأرض مع انتفاء التعلق التكليفي حينئذ ؟ ويجوز أن يكون بمعنى أن الله تعالى أظهر ذلك لملائكته يوم خلق السموات والأرض وعرفهم به ، وتأخر تعلق التكليف به حتى ظَهَرَ على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام وهذا لا يأباه القول الأول ، بل يسلمه ، وهو حسن ، وبه يجتمع معنى الأحاديث ، ولا يخفى أن خطاب الله تعالى بتحريم المدينـة قديم أيضاً ، وتأخره من حيث التكليف إلى أن أظهره النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيه حط لرتبتها ، بل دليل كمالها حيث ادَّخَر الله ذلك حتى جعله على لسان أشرف المرسلين صلوات الله

---

(١) لا يخبط شجرها : أي لا تشد أغصانها وينفض ورقها .

وسلامه عليه ، مع أنهم ذكروا فى معنى تحريم إبراهيم لها احتمالين : أحدهما : أنه بأمر الله تعالى له ، والثانى : أنه دَعَا لها فحرمها الله بدعوته ، ويقال مثله فى تحريمه صلى الله عليه وسلم للمدينة .

وقوله : « ما بين لابَتَيْها » أى حَرَّتَيْها الشرقية والغربية والمدينةُ بينهما ، ولها أيضاً حَرَّة بالقِبْلة وحَرَّة بالشام ، لكنهما يرجعان إلى الشرقية والغربية لاتصالهما بهما ، ولهذا جمعها صلى الله عليه وسلم كلها فى اللابتين كما نبه عليه الطبرى .

قال النووى : وهو حد الحرم من جهة المشرق والمغرب ، وما بين جبليها بيان لحده من جهة الجنوب والشمال ، قال : ومعنى قوله « مابين لابتيها » اللابتان وما بينهما ، والمراد تحريم المدينة ولابتيها .

قلت : ويؤيده أن اللابتين شرقا وغربا فى محاذاة أحد الجبلين الآتى بيانهما ، وأن منازل بنى حارثة فى محاذاة اللابة الغربية على ما اقتضاه كلام المطَرى فيما قدمناه عنه من الباب الأول فى ترجمة أثرب ، والذى ترجح عندى أن منازلهم كانت باللابة الشرقية مما يلى العُرَيض وما قارب ذلك ؛ لأن الإسماعيلى روى الحديث المتقدم بلفظ « ثم جاء بنى حارثة وهم فى سَنَد الحرة » أى الجانب المرتفع منها ، وسيأتى فى منازلهم ما يبين أن المراد الحرة الشرقية ، وليس الموضع الذى ذكره المطرى فى سَنَد واحدة من الحرتين ، والله أعلم . ويؤيد أيضاً ماقاله النووى أن البيهقى روى فى المعرفة حديثَ الصحيفة عن على بلفظ « إن إبراهيم حرم مكة ، وإنى أحرم المدينة مابين حرتيها وجِمَامِها[1] : لا يُخْتَلَى خَلَاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها » يعنى أنشد « ولا يقطع شجرها إلا أن يعلف

---

(١) جمام المدينة — بكسر الجيم فى أوله — هى ثلاثة أجبل فى وادى العقيق على يمين الذاهب إلى مكة ويسار الذاهب فى المسيل إلى جهة القبلتين والجرف ، وهى مشهورة بالجماوات (مكى) .

رجل بعيرا ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال » الحديث ، ورواه أحمد كذلك أيضاً ، وهو حديث صحيح ، وجمام المدينة ثلاثة كما سيأتى ، وهى مما يلى حرتها الغربية من جهة المغرب والحرة بين الجمام والمدينة .

وروى مسلم حديثَ الصحيفة بلفظ « المدينة حَرَم ما بين عَيْر إلى ثَوْرٍ » والبخارى بلفظ « المدينة حرم ما بين عاير إلى كذا » وأبو داود بلفظ « المدينة حرام ما بين عاير إلى ثور » ثم زاد فيه وقال : إن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم قال « لايختلى خَلاَها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يلقط لقطتها إلا من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره » ورواه الطبرانى برجال موثَّقين مختصرا ، ولفظه عن أبى جُحيفة أنه دخل على علىّ رضى الله عنه فدعا بسَيْفه ، فأخرج من بطن السيف أدما عربياً ، فقال : ما ترك رسول الله صلى الله عليـه وسلم شيئاً غير كتاب الله الذى أنزل إلا وقد بلغته غير هذا ، فإذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله قال : « لـكل نبى حَرَم وحرمى المدينةُ » .

الفصل التاسع
فى بيان عَـيْر وثور

وهما المراد بجبليها كما تقدم .

موقع جبل عير

أما عَـيْر — بفتح العين المهملة وسكون الياء آخر الحروف بلفظ العير مرادِف الحمار ، ويقال : عاير — فجبل كبير مشهور فى قبلة المدينة بقرب ذى الُحلَيفة ميقاتِ المدينة .

موقع جبل ثور

وأما ثور — بالمثلثة بلفظ الثور فَحْلِ البقر — فجبل صغير خاف أحد كما سنحققه ، فإنه خفى على جماعة من فحول العلماء فاستشكلوا الحديث ، وقالوا : ليس بالمدينة ثور ، إنما هو بمكة ، ولهذا فى أكثر روايات البخارى من عاير إلى كذا ، وفى بعضها من عير إلى كذا ، ولم يبين النهاية ، فـكأنه يرى أن ذكر ثور وهم فأسقطه ،

وترك بعض الرواة موضع ثور بياضا ليتبين الوهم ، وضرب آخرون عليه .

الاختلاف في وجود جبل ثور بالمدينة

وقال المازرى : نقل بعض أهل العلم أن ذكر ثور هنا وَهم من الراوى ؛ لأن ثورا بمكة ، والصحيح « إلى أحد » .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : عير وثور جبلان بالمدينة ، وأهل المدينة لا يعرفون بها جبلا يقال له ثور ، وإنما ثور بمكة ، قال : فإذاً نرى أن الحديث أصله « ما بين عير إلى أحد » .

قلت : وكذا رواه الطبرانى برجال ثقات ، بلفظ « ما بين عير وأحد حرام ، حَرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وهو كذلك فى رواية لابن زَبَالة .

وقال الحازمى : الرواية الصحيحة « مابين عير إلى أحد » وقيل : « إلى ثور » وليس له معنى ، وتكلف بعضهم فقال : إلى بمعنى مع ، كأنه جعل المدينة مضافة إلى مكة فى التحريم لأن ثورا بها .

وقال الموفق بن قُدَامة : يحتمل أن المراد تحريم قَدْر ما بين ثور وعير اللذين بمكة ، أو سمى النبي صلى الله عليه وسلم الجَبَلَيْنِ اللذين بطرفى المدينة عيرا وثورا ارتجالا ، انتهى . وهو يقتضى إنكار وجود عير بالمدينة أيضا .

وقد قال الزركشى : نقَل عياض عن بعضهم أنه ليس بالمدينة ولا ما يقرب منها جبل يعرف بأحد هذين الاسمين ، أعنى عيرا وثورا . قال ياقوت فى معجمه : وهذا وهم ، فإن عَيْرًا جبل مشهور بالمدينة ، وقال ابن السِّيد : عَيْر جبل بقرب المدينة ، وعبارة عياض فى المشارق : عير وعاير المذكوران فى حَرَم المدينة فى أكثر الروايات عير ، وفى حديث علىّ عاير ، قال الزبير بن بكّار : هو جبل بالمدينة ، وقال عمه مصعب : لا يعرف بالمدينة عير ولا ثور ، انتهى .

وقال فى المطالع : أكثر رواة البخارى ذكروا عيرا ، وأما ثور فمنهم من كَنَى عنه بكذا ، ومنهم من ترك مكانه بياضا ، والأصلُ فى هذا التوقفِ قولُ

مصعب الزبيرى: ليس بالمدينة عير ولا ثور، وأثبت غيره عيرا، ووافقه على إنكار ثور.

قلت : سيأتى فى ترجمة عير من فصل البقاع عن مصعب الزبيرى ما يقتضى إثباته له ، وشهرة عير غير خافية بين العلماء ، إنما الغرابة فى ثور .

وقال النووى عقب نقل الحازمى المتقدم : ويحتمل أن ثورا كان اسما لجبل هناك : إما أحد ، وإما غيره ، فخفى اسمه .

وقال صاحب البيان والانتصار : قد صحت الرواية بلفظ ثور ؛ فلا ينبغى الإقدام على توهيم الرواة بمجرد عدم العرفان ، فإن أسماء الأماكن قد تتغير ، أو تنسى ولا يعلمها كثير من الناس ، قال : وقد سألت بمكة عن وادى مُحَسِّر وغيره من أماكن تتعلق بالنُّسُك ، فلم أخبر عنها مع تكرر مجىء الناس إليها ، فما ظنك بغيرها ؟ وأيضا فقد يكون للشىء اسمان فيعرف أحدهما دون الآخر .

وقال المجد : لا أدرى كيف وقعت المسارعة من هؤلاء الأعلام إلى إثبات وَهَم فى الحديث المتفق عَلَى صحته ، بمجرد ادعاء أن أهل المدينة لا يعرفون جبلا يسمى ثورا ، وذكر احتمال طرق التغيير فى الأسماء والنسيان لبعضها ، قال : حتى إنى سألت جماعة من فقهاء المدينة وأمرائها وغيرهم من الأشراف عن فَدَك[1] ومكانها فكلهم أجابوا بعدم معرفة موضع يسمى بذلك فى بلادهم ، مع أن هذه القرية لم تبرح فى أيدى الأشراف والخلفاء يتداولونها إلى أواخر الدولة العباسية ، فكيف بجبل صغير لا يتعلق به كبير أمر ، مع أنه معروف بين أهل العلم بالمدينة ، ونقل بعض الحفاظ وَصْفَه بذلك خلفا عن سلف ؟ اهـ .

قلت: قد حكى البيهقى فى المعرفة قول أبى عبيد: أهل المدينة لا يعرفون جبلا يقال له ثور ، ثم قال البيهقى : وبلغنى عن أبى عبيدة أنه قال فى كتاب الجبال : بلغنى أن بالمدينة جبلا يقال له ثور ، انتهى .

(١) فدك : قرية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى التى طالبت فاطمة الزهراء أبا بكر الصديق بأن يورثها إياها ؛ فروى لها حديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

وتقل المجد فى ترجمة عير عن نصر أنه قال : عير جبل يقـابل الثنية المعروفة بشعب الجوز ، وثور جبل عند أحد ، انتهى . فدل على أن ما اشتهر فى زماننا وقبله من وجود ثور بالمدينة له أصل فى الزمن القديم ، وإن خفى على بعضهم ، وقد أخبرنى بوجوده جماعة كثيرة من الخواص ، وأرونى إياه خلف أحد ، ونقل جماعة عن المحدث أبى محمد عفيف الدين عبد السلام بن مزروع البصرى نزيل المدينـة المشرفة أنه رآه غير مرة ، وأنه لما خرج رسولا من صاحب المدينة إلى العراق كان معه دليل يذكر له الأماكن والأَجْبُلَ ، فلما وصَلا إلى أحُدٍ إذا بقُرْبِهِ جبلٌ صغير ، فسأله : ما اسم هذا الجبل ؟ فقال له : يسمى ثورا ، وقد حكى عنه نحو هذا القطبُ الحلبى فى شرح البخارى ، وقال المحب الطبرى : أخبرنى الثقة الصدوق الحافظ العالم المجاور بحرم رسول صلى الله عليه وسلم عبدُ السلام البصرى أن حِذَاء أُحُد عن يساره جانحا إلى ورائه جبل صغير يقال له ثور ، وأخبر أنه تكرر سؤاله عنه لطوائف من العرب العارفين بتلك الأرض وما فيها من الجبال ، فكل أخبر أن ذلك الجبل اسمه ثور ، قال الطبرى : فعلمنا بذلك أنّ ماتضمنه الحديث صحيح ، وعدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه ، انتهى .

وقد رد الجمال المطرى فى تاريخه عَلَى من أنكر وجود ثور ، وقال : إنه خَلْف أحُد من شماليه ، صغير مدور ، يعرفه أهل المدينة خَلَفٌ عن سلف .

وقال الأقشهرى : وقد استقصينا(١) من أهل المدينة تحقيق خبر جبل يقـال له ثور عندهم ، فوجدنا ذلك اسم جبل صغير خلف جبل أحد يعرفه القـدماء دون المحدثين من أهل المدينة ، والذى يعلم حجةٌ على من لا يعلم ، اه .

وقال العلامة أبو العباس بن تيمية : عير جبل عند الميقات يشبه العير ، وهو الحمار ، وثور جبل فى ناحية أحد ، وهو غير جبل ثور الذى بمكه .

وروى بعض شراح المصابيح أن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام على الجبل

---

(١) استقصينا : تتبعنا ، يريد أنه بالغ فى سؤالهم عنه فعلم من أجوبتهم أن القدامى هم العارفون بموضعه .

تقطع ستَّ قطع ، فصارت ثلاث بمكة : حراء ، وثَبير ، وثور ، وثلاث بالمدينه : عير ، وثور ، ورَضْوَى ، وكأن ثورا سمى باسم فَحْلِ البَقَر لشبهه به ، وهو إلى الحمرة أقرب ، وقد صح بما قدمناه أن أحَداً من الحرم ؛ لأن ثورا حده من جهة الشام كما أن عيرا حده من جهة القبلة ، ويقوم ذلك على الرواية التى فيها ذكر أحد بدل ثور ، لما فى ذلك من الزيادة عليها ، وأنها من باب ذكر فَرْدٍ مما شمله ذلك العموم بحكم العموم فلا تخصص ، مع إفادتها لإدخال ماحاذى أطراف أحُدٍ شرقا وغربا ، وماوقع فى الشرحين والروضة وغيرهما من التحديد بما بين اللابتين وبما بين عَـيْر وأحُد مبنى على ماتقدم من أن الرواية الصحيحة « أحُد » لعدم وجود ثور ؛ فقد اتضح الحال ، ولله الحمد .

الفصل العاشر
فى أحاديث تقتضى زيادة الحـرم
على ذلك التحديد ، وأنه مقدر ببريد

اعلم أن قوله فى حديث مسلم « وجعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حِمَى » ظاهر فى التحريم لذلك القدر ؛ إذ حول المدينة إنما هو حرمها ، وحمى النبى صلى الله عليه وسلم الذى ليس بحرم لم يكن حول المدينة على ما سيأتى بيانه ، ولأن التقى السبكى قال : إن فى سنن أبى داود تحديد حرم المدينة ببريد من كل ناحية ، قال : وإسنادهُ ليس بالقوى ، والذى رأيته فى أبى داود عن عدى بن يزيد « حَمَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كل ناحية من المدينة بريدا بريدا ، لا يُخْبَط شجره ، ولا يُعْضَد إلا ما يساق به الجمل » رواه البزار بنحوه ، ورواه ابن زبالة بلفظ « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم شجر المدينة بريدا فى بريدمنها ، وأذن فى المَسَد[1] والمنجدة ومتاع الناضح أن يقطع منه » والمنجدة : عصا الناضح[2]

وروى المفضل الجندى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه قال ، فى

(١) المسد : مرود البكرة ، وسيفسره المؤلف بهذا فى الفصل التالى .

(٢) المنجدة : عصا صغيرة تحث بها الدابة على السير ، أو ينفش بها الصوف ، وعود يحشى به حقيبة الرجل .

قصة العبد الذى وجده يعضد ـ أو يخبط ـ عضاها بالعقيق : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ وجد من يَعْضِد أو يخبط[١] شيئاً من عِضَاهِ المدينة بريدا فى بريد فله سَلَبه ، فلم أكن لأرد شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

وروى البزار عن جابر قال : « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بريدا من نواحيها ».

وفى الأوسط للطبرانى – وفيه ضعيف – عن كعب بن مالك قال : « حَرَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم الشجر بالمدينة بريدا فى بريد ، وأرسلنى فأعلمت على الحرم: على شرف ذات الجيش ، وعلى شريب ، وعلى أشراف مخيض » .

ورواه ابن النجار بلفظ « حَرَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة بريدا فى بريد ، وأرسلنى فأعلمت على الحرم : على شرف ذات الجليس ، وعلى مشيرب ، وعلى أشراف المجتهر ، وعلى تيم » ورواه ابن زبالة بهذا اللفظ ، إلا أنه أسقط أشراف المجتهر ، وأبدل تيم بثيب ، وزاد « وعلى الحفياء ، وعلى ذى العشيرة » .

وروى أيضا عن كعب بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم « حمى الشجر ما بين المدينة إلى وعيرة ، وإلى ثنية المحدث ، وإلى أشراف مخيض ، وإلى ثنية الحفياء ، وإلى مضرب القبة ، وإلى ذات الجيش : من الشجر أن يقطع ، وأذن لهم فى متاع الناضح أن يقطع من حمى المدينة »

وروى أيضا عن سلمان بن كعب الدينارى أن النبى صلى الله عليه وسلم « نَزَلَ بمضرب القبة وقال : ما بينى و بين المدينة حمى لا يُعْضَد، فقالوا: إلا المسد ، فأذن لهم فى المسد» .

وروى أيضا من طريق مالك بن أنس عن أبى بكر بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى الحمى : « إلى مضرب القبة» قال مالك : وذلك نحو من بريد[٢] .

---

(١) يعضد : يقطع ويجز ، ويخبط : يؤخذ ورقه ، وهذا هو الفرق بين اللفظين فى المعنى ، والعضاه : كل شجر عظيم له شوك .

(٢) سيتكلم المؤلف فى الفصل التالى عن أسماء الأماكن التى فى هذه الأحاديث

وروى أيضا عن جابر مرفوعا « كل دافعة دفعت علينا من هذه الشِّعَابِ فهى حرام أن تعضد ـ أو تخبط ، أو تقطع ـ إلا لعصفورِ قَتَبٍ أو مَسَدِ مَحَالَةٍ أو عصا حديدة »(١) .

وفى الأوسط للطبرانى بإسناد حسن عن الحسن بن رافع أنه سأل جابر بن عبد الله فقال : لنا غنم وغلمان ، ونحن وهم بثرير ، فهم يخبطون على غنمهم هذه الثمرة ، يعنى الْحُبْلَةَ ـ قال خارجة : وهى ثمر السَّمُرِ ـ قال جابر : لا يخبط ولا يعضد حِمَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هشوا هشا ، ثم قال جابر : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمنع أن يقطع المَسَد ، قال خارجة : والمسد مرود البكرة .

وروى ابن زَبَالة عن أبى سعيد الخدرى قال : بعثتنى عمتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستأذنه فى مَسَد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ عمتك السلام ، وقل لها : لو أذنت لكم فى مَسَد طلبتم ميزابا ، ولو أذنت لكم فى ميزاب طلبتم خشبة ، ثم قال : حِمَاىَ من حيث اشْتَاقَتْ(٢) بنو فزارة لقاحى » .

الفصل الحادى عشر

فى بيان ما فى هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ، وَمَنْ ذهب إلى مُقْتَضَاها

ذات الجيش

قوله : « شرف ذات الجيش » قال ابن زَبالة : ذات الجيش : لقب ثنية الحفيرة من طريق مكة والمدينة ، وقال المطرى : هى وسط البيداء ، والبيداء هى التى إذا رَحَل الْحُجَّاج من ذى الْحُلَيفة استقبلوها مُصْعِدين إلى جهة الغرب ، وهى على جادَّة الطريق .

قلت : ويؤيده قول ياقوت : ذات الجيش موضع بعقيق المدينة ، أراد بقربه ، أو لأن سَيْلَها يدفع فيه كما سيأتى ، وقد رأيته يُطْلِق ذلك على

---

(١) القتب : رحل البعير ، وعصفوره : أحد أعواده ، والمسد : مرود البكرة كما قال المؤلف ، أو حبل مفتول من لحاء الشجر ، وعصا الحديدة : مثل خشبة الفأس والقدوم

(٢) فى المطبوعات هنا « من حيث اتسقت » وفيما يأتى (ص ١٠١) « من حيث ابتسقت » وكلاهما تطبيع فيما نرى .

مايدفع فى العقيق و إن بَعُدعنه . وقال أبوعبد الله محمد بن أحمد الأسدى فى وصف الطريق بين مكة والمدينة : إن من ذى الُحلَيفة إلى الحفيرة ستة أميال ، قال : وهى متعشا ، وبها بئر طيبة وحوض ، وعمر بن عبد العزيز هو الذى حفر البئر ، وبها أبيات ومسجد ، اه . ومقتضاه أن يكون ثنية الحفيرة بعد البئر ، فلعلها ثنية الجبل المسمى اليوم بمفرح ، وهناك وادٍ قبل وادى تربان يسمونه سُهمان ينطبق عليه الوصف المذكور ، وهو موافق لقول من قال : ذات الجيش وادٍ بين ذى الحليفة وتربان . فأطلق اسمها على الوادى التى هى فيه ، ولقول عياض : ذات الجيش على بريد من المدينة ، وهو ظاهر رواية الطبرانى المتقدمة ، لكنه مخالف لما سيأتى فى معنى التحديد بالبريد ، وهناك حُبِس النبىُّ صلى الله عليه وسلم فى ابتغاء عِقْد عائشة رضى الله عنها ، ونزلت آية التيمم ، والترديد فى حديث عائشة « حتى إذا كنا بالبيداء [أو] بذات الجيش » كأن سببه قرب الموضعين ، وهو ظاهر فى المغايرة بينهما . وقال أبو على الهجرى : ذات الجيش : شعبة على يمين الخارج إلى مكة بحذاء الحفيرة ، قال : وصدر الحفيرة وما قبَل من الصُّلصُلين يدفع فى بئر أبى عاصية ، ثم يدفع فى ذات الجيش ، وما دبر منها يدفع فى البطحاء ، ثم تدفع البطحاء من بين الجبلين فى وادى العقيق ، وذات الجيش تدفع فى وادى أبى كبير ، وهو فوق مسجد الحرم والمعرس ، وطرف أعظم الغربى يدفع فى ذات الجيش ، وطرفه الثانى يدفع فى البطحاء .

قلت : وأعظم — ويقال عظم كما سيأتى — جبل معروف اليوم على جادة مكة ، قال المطرى : وهو فى شامى ذات الجيش ، ويشهد له ماسبق عن الهجرى .

شريب — قوله « شريب » الظاهر أنه مشيرب تصغير مشرب كما فى الرواية الأخرى ، وهو مابين جبال فى شامى ذات الجيش ، بينها و بين خلائق الضبوعة ، والضبوعة منزل عند يَلْيَل (١) .

---

(١) يليل — بفتح الياءين بينهما لام ساكنة — موضع قرب وادى الصفراء .

أشراف مخيض قوله : « أشراف مَخِيض » بلفظ المخيض من اللبن – هى جبال مخيض من طريق الشام ، قاله ابن زبالة ، وقال الهجرى : مخيض وادٍ يصب فى أضم على طريق الشام من المدينة ، انتهى ؛ فكأنه يطلق على الجبال وواديها ، وقال المطرى : جبل مَخِيض هو الذى على يمين القادم من طريق الشام ، حين يُفْضِى من الجبال إلى البركة التى هى مَوْرِدُ الحجاج من الشام ، ويسمونها عيون حمزة .

أشراف المجتهر قوله : « أشراف المجتهر » كذا رواه ابن النجار ، وتبعه المطرى ، ولم يبيناه ، وقال المجد : هكذا وقع بالجيم والهاء المفتوحة ، فإن صح فهو اسم موضع بالمدينة ، وإلا فيحتمل أن يكون تصحيف « المحيصر » بالحاء والصاد المهملتين تصغير « المحصر » موضع قريب من المدينة . قلت : الأقرب أنه تصحيف المخيض ؛ لمجيئه بدله فى بقية الروايات .

الحفياء قوله « الحفْيَاء » قال ابن زَبَالة : هى بالغابة فى شامى المدينة ، وقال الهجرى : وراء الغابة بقليل ، وسيأتى فى ترجمتها أن بينها وبين المدينة نحو ستة أميال .

ذو العشيرة قوله : «ذى العُشَيْرَة» تصغير عشرة من العدد ، قال ابن زبالة : شرقى الحفياء ، وقال المطرى : نقب فى الحفْيَاء .

ثيب قوله : « ثَيْب » بفتح المثلثة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم موحدة – كذا فى النسخة التى وقعت عليها من ابن زَبَالة ، وقال : إنه جبل فى شرقىّ المدينة ، وكذا هو فى العقيق للزبير بن بكار ، وكذا رأيته مضبوطاً بالقلم فى أصل معتمد من تهذيب ابن هشام ؛ فإنه قال فى غزوة السويق : فخرج أبو سفيان حتى نزل بصَدْر قَنَاة إلى جبل يقال له ثَيْب من المدينة على بريد أو نحوه ، وكذا هو فى العقيق لأبى على الهجرى ، إلا أنه قال عقبهُ : ثيئب كتيعب ، فاقتضى أن الياء الساكنة بعدها همزة ، ويشهد لذلك ما سيأتى فى أسماء البقاع فى ترجمة الشظاة من شعر عباس بن مرداس ، وفى كتاب ابن شَبَّة فى حديث سلمة الآتى أول الباب السابع : فقلت يارسولَ

الله ، تباعد الصيد ، فأنا أصيد بصدور قناة نحو تَيْب ، كذا رأيته مضبوطاً بالقلم من غير همزة ، لكنه بالمثناة من فوق ، ووقع فى كتاب ابن النجار وتبعه المطرى تيم بفتح المثناة الفوقية والتحتية وبالميم . قلت : وفى شرقىّ المدينة جبل يعرف اليوم بهذا الاسم ، وقال المجد : إنه تصحيف ، والصواب يتيب ، بلفظ مضارع تاب(١) إذا رجع ، فهو بالتاء المثناة من فوق ، ولذا ذكره فى مادتها من القاموس ؛ وقال فى مادتها أيضاً تيأب كفعلل موضع ؛ ولم يتعرض لذلك فى الثاء المثلثة .

وعيرة — قوله : «وَعِيرة» — بفتح أوله من الوعورة ، وهى خشونة الأرض — جبل شرقىّ ثور ، وهو أكبر من ثور وأصغر من أحد .

ثنية المحدث — وقوله : « ثنية المحدث » لم أر من تكلم عليه من مؤرخى المدينة وغيرهم ، والعجب من المجد كيف أهمله مع إيراده الحديث فى كتابه .

مضرب القبة — قوله : «مضرب القبة » قال المجد كالمطرى : ليس اليوم معروفا ، ولا تُعلم جهته ، قال : والذى يظهر [أنه] مابين ذات الجيش من غربىّ المدينة إلى مخيض .

قلت : قال أبو على الهجرى : مضرب القبة بين أعظم وبين الشام نحو ستة أميال ، أى من المدينة ، وقد تقدم قول مالك عقب التحديد به : وذلك نحو من بريد ، ولعله يريد مجموع الحرم .

ثرير — قوله : « بثرير » لم أر من تكلم عليه حتى المجد .

غزوة ذى قرد — قوله : « من حيث استاقت(٢) بنو فَزَارة لقاحى » كانت لِقاحُه صلى الله عليه وسلم ترعى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عُيَيْنة بن حِصْن الفَزَارى يوم ذى قَرد ، واتفق لسَلَمة بن الأكْوَع ما اتفق من استنقاذ اللِّقاح ووصول الفرسان إليه وهو يقاتلهم ويرميهم بالنبل ، وسميت غزوة ذى قَرد بالموضع الذى كان فيه القتال .

والتحديدُ بهذه الأماكن مؤيِّد لكون مجموع الحرم بريداً ، ولذلك قال

---

(١) لو كان مضارع تاب بمعنى رجع لقيل « يتوب »

(٢) فى المطبوعات هنا « ابتسقت » تطبيع ، وانظر (ص ٩٨)

ابن زَبالة عقب ما تقدم عنه : وذلك كله يشبه أن يكون بريدا فى بريد ، انتهى. ويحمل عليه قول أبى هريرة فى حديث مسلم « وجعل اثنى عشر ميلا حول المدينة حمى » لأن ذلك هو البريد : أى ستة أميال من جهة قبلتها ، وستة أميال من جهة شاميها ، وكذلك فى المشرق والمغرب ، ومثلُه حديث « حمى كل ناحية من المدينة بريداً » أى من القبلة إلى الشمال بريداً ، ومن المشرق إلى المغرب بريدا ، وقد أخذ بذلك مالك رحمه الله ، لكن فرّق بين حرم الشجر وحرم الصيد ، وجعل البريد حرم الشجر ، وما بين اللابتين حرم الصيد .

قال عياض فى الإكمال : قال ابن حبيب : تحريم ما بين اللابتين مخصوص بالصيد ، قال : وأما قطع الشجر فبريد فى بريد فى دور المدينة كلها ، بذلك أخبرنى مطرف عن مالك ، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن وهب ، انتهى . وحكى الباجى فى المنتقى مثله عن ابن نافع ، ونقل ابن زبالة عن مالك أنه قال : الحرمُ حرَمَانِ ؛ فحرم الطير والوحش من حرة واقم — أى وهى الحرة الشرقية — إلى حرة العقيق — أى وهى الغربية — وحرم الشجر بريد فى بريد ، وقال البرهان ابن فرحون : حرم الصيد ما بين حِرَارِها الأربع ، وسماها أربعاً لوجود الحرتين المذكورتين فى الجهات الأربع ؛ لانعطاف بعض الشرقية والغربية من جهة الشمال والقبلة ، ولم يُعَوِّلْ أصحابنا فى تحديد الحرم على البريد مع ما فيه من الزيادة ؛ لأن أدلته ليست بالقوية ، فعولوا على ما اشتملت عليه الأحاديث الصحيحة من الجبلين واللابتين ، على أن إطلاق أحاديث التحريم مقتضٍ لعدم الفرق بين حرم الشجر وحرم الصيد ، سواء كان الحرم بريداً أو دونه ، غير أن فى أحاديث البريد ما يشعر بأنه للشجر ، مع أن ابن زبالة — ومحلّه من الضعف معلوم [١] — رَوَى عن ابن بشير المازنى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَرِّمُ ما بين لابتيها — يعنى المدينة — من

---

(١) انظر ما تقدم لنا عنه فى (ص ٨ هـ ٣)

الصيد ، وعن أبى هريرة وغيره نحوه ، وفى رواية له «من الطير أن يُصَادَ بها» وقد يقال : هو من باب إفراد فردٍ مما حرم بالذكر .

فإن قيل : قوله فى حديث مسلم « حرم ما بين لا بَتَيها ، وجَعَل اثنى عشر ميلا حول المدينة حِمًى » دال على الفرق المذكور .

قلنا : ممنوع ؛ لأن غايته أن يراد بالحمى الحرم ، فكأنه قال : وجعل اثنى عشر ميلا حولها حرماً ؛ إذ ليس فيه أنه جعله حمى الشجر .

مقدار البريد والفرسخ والميل

تتمة : البريد أربع فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع بذراع اليد على الأصح ، كما صححه ابن عبد البر وغيره ، وهو الموافق لاختيار ما ذكره من المسافات فى الحرم المكى وغيره ، وذراع اليد — على ما ذكره المحب الطبرانى والنووى وغيرهما — أربعة وعشرون أصبعاً ، كلُّ أصبع ست شعيرات مضمومة بعضها إلى بعض ، وغلّط النووى القلعى فى قوله « ثلاث شعيرات » ومقدار الذراع المذكور من ذراع الحديد المستعمل فى القماش بمصر الآن ذراع إلا ثمن ذراع ، كما اعتبرته أنا وغيرى ، ومشى عليه التقى الفاسى فى تاريخ مكة المشرفة ، وليكن ذلك على ذُكرٍ منك إذا مررت بشىء مما ضبطناه فى المسافات فى كتابنا هذا ، وقيل : الميل ستة آلاف ذراع ، ومشى عليه النووى ، وهو بعيد ، ولعل قائله هو الذى يجعل الإصبع فى الذراع ثلاث شعيرات فقط ، وقيل : الميل ألفا ذراعٍ ، والصوابُ ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل الثانى عشر

فى حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم

حكمة التخصيص

اعلم أن المفهوم من تحريم ذلك تشريفُ المدينةِ الشريفة وتعظيمها به لحلول أشرف المخلوقين صلوات الله وسلامه عليه ، وانتشار أنواره و بركاته بأرضها ، وكما

أن الله تعالى جعل لبيته حرماً تعظيما له جعل لحبيبه وأكرم الخلق عليه ما أحاط بمحله حرماً: تلتزم أحكامه، وتُنال بركاته، ويوجد فيه من الخير والبركة والأنوار المنتشرة والسلامة العاجلة والآجلة ما لا يوجد فى غيره، ولهذا حثّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بنى حارثة على السكون به كما أشار إليه بقوله «أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم» ثم التفت فقال «بل أنتم فيه» وذلك لخصوصية السكون فيه على السكون خارجه، وتخصيصُ ذلك المقدار إما أن يكون لما شاهده صلى الله عليه وسلم فيه من أمر ربّانى، وسر روحانى بثه الله فيه إلى تلك الحدود المتقدمة، وقد ذكر أهلُ الشهود أنهم يشاهدون الأنوار مُنْبثة فى الحرم وأهله إلى حدوده، ولها منابع تفيض عنها، وذلك فى الحرمين جميعاً، فترتبت الأحكام الظاهرة على تلك الحقائق الباطنة، ولهذا لما بلغت النار الآتى ذكرُها طرفَ هذا الحرم الشريف طَفِئت كما سيأتى، وإما أن يكون بمقتضى أمر إلهى، ووحى ربانى لا ندركه نحن؛ إذ العقول البشرية قاصرة عن إدراك معانى الأحكام المتلقَّاة عن النبوة، وإنما يظهر لها لائحه من شوارق مطالعها عند التأييد والتسديد، هدانا الله لإدراكها بمنه وكرمه.

وجوه تذكر فى حكمة التحديد

وقد قيل فى حكمة تحديد الحرم المكى أشياء يمكن مثلها هنا؛ فقيل: لما أهبط آدم إلى الأرض أرسل الله ملائكة حَفّوا بمكة من كل جانب ووقفوا فى موضع أنصاب الحرم يَحْرُسُون آدم عليه السلام، فصار ذلك حرماً. وقيل: لما وضع الخليل عليه السلام الحجرَ الأسود فى الكعبة حين بناها — وهو من أحجار الجنة — أضاء الحجر من الجهات الأربع، فحرم الله تعالى الحرم من حيث انتهى النور. وقيل: إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن ينزل بياقوتة من الجنة، فنزل بها، فمسح بها رأس آدم، فتناثر الشعر منه، فحيثُ بلغ نورها صار حرماً، وهو من جنس ما قبله. وقيل غير ذلك؛ وحينئذ فيحتمل أن تكون الملائكة الموكلة بحراسته صلى الله عليه وسلم وحراسة بلده الشريف قائمة بتلك الحدود، فانتهى الحرم

إليها ، ويحتمل أن درته الشريفة التى خلق منها لما كان مأخذها موضع قبره الشريف ، وهو أعظم رياض الجنة ، واشتمل مسجده أيضاً على روضة من رياض الجنة، انبثت الأنوار من ذلك إلى ما لا يعلم غايته إلا الله ، ولكن أبصار الناظرين لها غايات ؛ فقد يكون انتهاؤها إلى تلك الحدود فانتهى الحرم إليها ، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم يوم قدومه إلى المدينة انتشرت الإضاءة ، وشوهد وصولها إلى تلك الحدود ، وسيأتى قولُ أنس بن مالك فى وَصْفِ يومِ قدومه صلى الله عليه وسلم : ما رأيت مثل ذلك اليوم قط ، والله لقد أضاء منها كل شىء ، يعنى المدينة، والله أعلم .

الفصـــل الثالث عشر

فى أحكام هذا الحرم الشريف ، وفيه مسائل

القول فى تحريم الصيد وقطع الشجر

الأولى : اتفق الشافعى ومالك وأحمد على تحريم صَيْد حرم المدينـة ، واصطياده ، وقطع شجره . وقال أبو حنيفة : لا يحرم شىء من ذلك ، والأحاديث الصحيحة الصريحة حجة عليه ، وقد قدمنا جملة منها ، ولو لم يكن إلا قوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » لـكان كفاية ؛ فإنه يتمسك به فى كلِّ ما لم يقم دليل على افتراق الحرمين فيه . وروى أبو داود [١] — وسكت عليه ، قال النووى : وهو صحيح أو حسَن ، أى كما هو قاعدته فيما يسكت عليه — أن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أخذ رجلا يَصِيدُ فى حرم المدينة الذى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلبه ثيابه ، فجاء مَوَاليه فـكلموه فيه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم «حَرَّم هذا الحرم ، وقال : مَنْ أخذ أحداً يَصِيد فيه فَلْيَسْلُبْهُ فلا أرد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، ولـكن إن شئتم

(١) قد أثر المؤلف حديث سعد رضى الله تعالى عنه عن المفضل الجندى ، (وانظر ص ١٠٦ وما بعدها) .

دفعت إليكم ثمنه » وسيأتى عنه نحوه فى قطع الشجر ، وفى الموطأ عن أبى أيوب الأنصارى أنه وجَد غِلْمانًا قد ألجئوا ثعلبًا إلى زاوية ، فطردهم عنه ، قال مالك : لا أعلم إلا أنه قال : أفى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع[١] هذا ؟ وروى الطبرانى برجال الصحيح مثله عن زيد بن ثابت بدل أبى أيوب ، وفى الموطأ أيضًا أن رجلا قال : دخل علىّ زيدُ بن ثابت وأنا بالأسواف[١] ، وقد اصطدت نُهَسًا[٢] فأخذه من يدى ، فأرسله[١] . ورواه الطبرانى أيضًا مع تسمية المبهم ، ولفظه: عن شرحبيل بن سعيد قال : أخذت نُهَسًا[٢] — يعنى طائرًا — بالأسواف ، فأخذه منى زيد بن ثابت فأرسله ، وقال : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرَّمَ مابين لاَبَتَيْها . وفى رواية له «أتانا زيدُ بن ثابت ونحن فى حائط لنا ، ومعنا فِخَاخ ننصب بها ، فصاح وطردنا ، وقال : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها . ورواه أحمد أيضا — وكذا الشافعى فى حرملة — عن شرحبيل بن سعد ، وقد وثقه ابن حبان وضعفه غيره : ولفظه : دخل علينا زيد بن ثابت حائطا ونحن غلمان ننصب فِخَاخًا للطير ، فطردنا وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها» . ورواه ابنُ زَبَالَة بلفظ : كنت مع بنى زيد بن ثابت بالأسواف[١] ، فأخذوا نُهَسًا[٢] ، فاستفتح زيد بن ثابت وهو فى أيديهم ، فدفعوه فى يدى وفرُّوا ، فدخل زيد ، فأخذه من يدى فأرسله ، ثم لطم فى قفاىَ وقال: لا أم لك ، ألم تعلم ، وذكر الحديث المتقدم . وروى الطبرانى عن حاجب مولى زيد بن ثابت قال : دخل علىّ زيد بن ثابت وأنا بالأسواف[١] قد اصطدت نُهَسًا[٢] ، فأخذ بأذُنِى من قفاىَ وقال : تصيد هاهنا وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتيها ؟ .

والنُّهس ، كصُرد : طائر يشبهه[٢] وليس بالصرد ، وقيل : إنه اليمام .

وفى الكبير للطبرانى برجال ثقات عن عبدالله بن عباد الزرق — قال الهيتمى:

---

(١) انظر موطأ الإمام مالك (٨٩٠ ط الحلبى) والأسواف : موضع ببعض أطراف المدينة بين الحرتين .

(٢) النهس : هو أبو براقش.

ولم أجد من ترجمهُ — قال : كنت أصيد العصافير فى بئر أهاب ، وكانت لهم ، قال : فرآنى عُبَادة بن الصامت وقد أخذت العصفور ، فينزعه منى فيرسله ، ويقول : أى بُنَىَّ ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم مابين لابَتَيْها كما حرم إبراهيم مكة .

وروى ابن زَبالة ومن طريقه البزار عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : اصطدت طيرا بالقنبلة(١) ، فلقينى أبى عبدُ الرحمن ، فَعَرَكَ أذنى ، ثم أخذه منى فأرسله ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيد ما بين لابتيها .

وفى أبى داود عن مولى لسعد ، أن سعداً وجد عِبيداً من عبيد المدينة يقطعون شجراً من شجر المدينة ، قال : فأخذ مَتَاعهم ، وقال يعنى لمواليهم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَنْهَى أنْ يُقْطَعَ من شجر المدينة شىء ، وقال : مَنْ قطع شيئاً فلمن أخذه سَلَبه » ورواه مسلم عن إسماعيل بن محمد بن عامر بن سعد ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قَصْره بالعقيق ، فوجد عبداً يقطع شجراً ، أو يخبطه ، فسَلَبه ، فلما رجع سعد جاءه أهلُ العبد فكلموه أن يرد على غلامهم — أو عليهم — ما أخذ من غلامهم ، فقال : « معاذ الله أن أرد شيئاً نفّلنيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم » ورواه المفضل الجندى عنه ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قصر له بالعقيق ، فوجد عبداً يقطع شجرة ، فأخذ سلبه ، وذكره بنحوه . ورواه أيضاً عن عبد الله بن عمر ، ولفظه : أن سعداً وجد إنساناً يَعْضِدُ ، أو يخبط ، عِضَاها بالعقيق ، فأخذ فأسه ونِطعَه وشيئاً سوى ذلك ، فاطلع العبد إلى ساداته فأخبرهم الخبر ، فركبوا إلى سعد فقالوا : الغلام غلامنا ، فاردد إليه ما أخذت منه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما قدمناه عنه فى الفصل العاشر ، وقال فى آخره « فلم أكن لأردَّ شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورواه ابنُ زَبالة من طرق بنحوه . وفى بعضها أن سعد بن أبى وَقَّاص وجد جارية لعاصية السلمية تقطع الحمى

(١) القنبلة — بضم القاف والباء بينهما نون ساكنة — مصيدة يصطاد بها النهس — بوزن صرد — وهو أبو براقش .

فضربها وسلبها شملة لها وفأسا كانت معها ، فدخلت عاصية السلمية إلى عُمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستعدت على سعد ، فقال : اردد إليها يا أبا إسحاق شملتها وفأسها ، فقال : « لا ، والله لا أرد إليها غنيمة غنمنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول : مَنْ وجدتموه يقطع الحمى فاضربوه واسلبوه » واتخذ من فأسها مِسْحَاة فما زال يعمل بها حتى لقى الله . وفى بعضها : أخذ سعد بن أبى وقاص جارية لعاصيه السلمية تقطع شجراً بالعقيق ، فنزع سلبها ، وذكر نحوه . وروى أيضا عن سعد قال : غَنَّمَنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ وجدناه يقطع من شجر حرم المدينة الرطب منه . وعن زيد بن أسلم نحوه . وروى الجندى عن عبد الكريم بن أبى المخارق قال : أتى عمرُ بن الخطاب ناحيــة من المدينة فوجد غلاما لبعضهم فى حائط ، فقال: هل يأتيك ههنا أحد يحتطب؟ قال: نعم ، فقال له عمر: إن رأيت منهم أحداً فخذ فأسه وحَبْله، قال: وثو به؟ قال: فأبى، وفى نسخة فأفتى، وفى رواية عنه : أن عمر قال لغلام قدامة بن مظعون : أنت على هؤلاء الحطابين ، فمن وجدته احتطب فيما بين لابَتَى المدينة فلك فأسه وحبله ، قال : وثو باه ؟ قال عمر : ذلك كثير .

وقد اختلف القائلون بالتحريم فى حرم المدينــة بالنسبة إلى الضمان بالجزاء ، فعن أحمد روايتان ، وللشافعى أيضاً قولان كالروايتين : الجديدُ منهما عدمُ الضمان وهو قول مالك ؛ لأنه ليس بمحل نُسُك ، فأشبه مواضع الحمى ووجّ الطائف (١) ، والقديمُ الضمانُ ، وهو المختار كما قاله النووى وغيره ؛ لحديث سعد المتقدم ، والجواب عنه مشكل ، وعلى هــذا فالأصح أنه يسلب الصائد وقاطع الشجر والكلأ كما يسلب القتيل من الكفار حتى يؤخذ فرسه وسلاحه ، وقيـــل : الثياب فقط ، ويكون ذلك للسالب على الأصح ، وقيل : لفقراء المدينة كما أن جزاء صيد مكة لفقرائها ، وقيل : يوضع فى بيت المال وسبيله سبيل السهم المُرْصَد للمصالح . قال الشيخ أبو محمــد : ويعطى المسلوبُ إزاراً يستر به عورته ، فإذا قدر على ما يستر به

(١) وج : واد بالطائف ، كما قاله المجد ، وقيل : هو الطائف نفسه ، وقيل : واد بينه وبين مكة .

عورته أخذه منه ، واختار الرويانى أنه يترك له ، وصوبه النووى . قال الرافعى : والذى يسبق إلى الفهم من الحديث وكلام الأئمة أنه يسلب إذا اصطاد ، ولا يشترط الإتلاف ، ولفظ الغزالى فى الوسيط : لا يسلب حتى يصطاد أو يرسل الكلب ، ويحتمل التأخير إلى الإتلاف ، انتهى . ولا فرق فى هذا بين صيد وصيد ، ولا بين شجرة وشجرة ، وكأن السلَب فى معنى العقوبة لمتعاطى ذلك . قال السراج البلقينى : ولو كان الصائد أو قاطع الشجر فى حرم المدينة عبداً هل يسلب ثيابه كما اتفق لسعد بن أبى وقاص ؟ قال : والذى يقتضيه النظر أنه لا يسلب العبد ؛ فإنه لا ملك له ، وكذلك لو كان على الصائد ثوب مستأجر أو مستعار فإنه لا يسلب ، ولم أر من تعرض له ، انتهى . قلت : التحقيق التفصيل بين ما إذا أمره السيد أو من فى معناه بذلك و بين ما إذا لم يأمره ، ويُحمَل ما اتفق لسعد على الأول ، ولو كان على الصائد والمحتطب ثياب مغصوبة لم تسلب بلا خلاف ، كما نقله فى شرح المهذب ، ونقله فى المطلب عن البحر ، ثم قال : وينبغى أن تكون المستعارة كذلك ، ولو لم يشاهده أحد يصطاد فالظاهر أنه يجب عليه حَمْلُ السلب إلى نائب الإمام ، ولو تحدث بحضرة أحد فسمعه فهل يجوز له أن يسلبه ؟ الظاهر عندى لا ، انتهى . ولو أدخل إلى حرم المدينة صيدا لم يلزمه إرساله ، وله ذبحه به اتفاقا ، وكذا حرم مكة عندنا . وقد روى البيهقى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقدمون مكة فيرون بها فى الأقفاص القَمَارِىَّ واليعاقيب[1] ، وهذا محمل حديث «يا أبا عُمَير ، ما فعل النُّغَيْر[2]» أو أنه كان قبل تحريم المدينة ؛ لأنه فى أول الهجرة ، وتحريمُ المدينة كان بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من خَيْبَر ، كما أوضح ذلك الحافظ ابن حجر . وقد تمسك أبو حنيفة بقصة أبى عمير فيما ذهب إليه من عدم تحريم صيد المدينة ؛ لذهابه فى حرم مكة إلى وجوب الإرسال على مَنْ أدخل إليه صيداً من خارجه ، قال : فلو حرم النبى صلى الله عليه وسلم صيد المدينة لما أقر النُّغير فى يد أبى

(١) القمارى : جمع قمرى ، وهو ضرب من الحمام ، واليعاقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر الحجل . (٢) النغير : مصغر النغر — بزنة صرد — وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار ، وأبو عمير : أخو أنس .

عمير . وجوابه ما تقدم ، قال البيهقي : والذاهب إلى عدم تحريم الصيد وغيره بالمدينة زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد بقاء زينة المدينة وبهجتها لتستوطن كما منع من هَدْم آطام المدينة لذلك ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هَدْم آطام المدينة ، وقال : إنها زينة المدينة ، أى فالنهى للتنزيه . قال البيهقي : والنهى عندنا على التحريم حتى تقوم دلالة على التنزيه ، قال : واستدل المخالف بحديث سلمة « أما إنك لو كنت تصيد بالعقيق لشيَّعتك إذا ذهبت وتلقيتك إذا جئت ، فإنى أحب العقيق » قال البيهقي : وهو حديث ضعيف ، ومن يَدَّعى العلم بالآثار لا ينبغى له أن يعارض الأحاديث الثابتة فى حرم المدينة لهذا الحديث الضعيف ، وقد يجوز أن يكون الموضع الذى كان سلمة يصيد فيه خارجا من حرم المدينة ، والموضع الذى رأى فيه سعد بن أبى وقاص غلاما يقطع شجراً من حرم المدينة داخله ، حتى لا يتنافيان ، ولو اختلفا كان الحكم لرواية سعد لصحة حديثه وثقة رجاله ، دون حديث سلمة . قلت : مع أن الذى فى الصحيح من حديث سعد لا تعرض فيه لأن القطع كان بالعقيق ، وركوبه إلى قصره بالعقيق لا يقتضى أن القطع كان به ، بل يقتضى أن القطع فى موضع من الحرم خارج ، على أن ما يلى ذا الحليفة من العقيق ليس من الحرم عندنا لخروجه عما بين اللابتين ، والمالكية وإن اعتبروا البريد لحرم الصيد عندهم ما بين اللابتين كما تقدم ، مع امتداد العقيق إلى النقيع[1] ؛ فبعضه خارج عن الحرم بكل حال ، فصح ما قاله البيهقي ، وقصر سعد مع قصور العقيق فى الطرف الداخل منه فى الحرم عندنا ؛ لكونه بالحرة الغربية . هذا ، مع احتمال حديث سلمة لكونه كان قبل تحريم المدينة ، والله أعلم .

ما يستثنى مما يحرم

الثانية — استثنى المطرى تبعاً لابن النجار جواز أخذ ما تدعو الحاجة إليه للرحل — بالحاء المهملة — والوسائد ، من شجر حرم المدينة ، وما تدعو الحاجة

(١) النقيع : موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء أى يجتمع ، وقد حمى عمر رضى الله عنه غرز النقيع لنعم الفيء وخيل المجاهدين فلا يرعاه غيرها .

ليه من حشيشه للعلف ، بخلاف مكة ، هكذا قالاه ، وسبقهما إليــه ابن الجوزى من الحنابلة فقال فى منسكه : إن المدينة تفارق مكة فى أنه يجوز أن يؤخذ من شجر المدينة ما تدعو الضرورة إليه للرحل وشبهه ، انتهى ، ومأخذهم فى ذلك ما تقدم فى الفصل العاشر فى بعض تلك الأحاديث المشتملة على الترخيص فى ذلك ونحـوه ، مع ما رواه ابنُ زَبَالة من حديث : يا رسول الله ، إنا أصحاب عمل ونَضْح ، وإنا لا نستطيع أن نتتاب أرضا ، فرخص لهم فى القائمتين والوسادة والعارضة والأسنان، فأما غير ذلك فلا يعضد ولا يخبط ، والكلامُ أولا فى توجه الاستدلال بذلك من حيث الإســـناد ، مع أنا قدمنا فى غضون تلك الأحاديث ما يقتضى المنع ، سيما حديث الطبرانى بإسناد حسن إذ فيــه قول جابر : لا يخبط ولا يعضد حمى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولـكن هُشُّوا هشا ، ثم قال جابر : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمنع أن يقطع المسد . قال خارجة : والمسد مرود البكرة ، ومن تأمل كلام أصحابنا الشافعية لا يفهم منـه سوى استواء الحرمين فى ذلك ؛ لقولهم : إنه يجوز أخذ حشيش حرم مكة لعلف الدواب على الأصح . وقد قال النووى فى الكلام على قوله صلى الله عليه وسـلم فى حديث مسلم المتقدم « ولا يخبط شجره إلا لعلف » : إن فيه جواز أخذ أوراق الشـجر للعلف ، بخلاف خبط الأغصان وقطعها فإنه حرام ، انتهى . وقد قال هو وغيره فى شجر مكة: إنه يجوز أخذ أوراقها لـكنها لا تهش حذراً من أن يصيب لحاها . وفى شرح المهذب : يجوز أخذ ورقها والأغصان الصغيرة للسواك ونحوه ، انتهى ؛ فقد استوى الحرمان فى ذلك . وقد قال الغزالى فى البسيط والوسيط فى حرم مكة : إنه لو قطع منه للحاجة التى يقطع لها الإذخر[1] كتسقيف البيوت ونحوه ففيه الخلاف فى قطعه للدواء : أى والأصح جوازه ، وتبعه على ذلك صاحب الحاوى الصغير ؛ فجوز القطع للحاجة مطلقاً ، ولم يخص الدواء ، وقل من تعرض للمسألة ، ومنه يؤخذ جواز ما استثناه المطرى ، لـكن

---

(١) الإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب .

مع استواء الحرمين فى ذلك . وقال القاضى عياض : قال المهلب : قَطَعَ النبى صلى الله عليه وسلم النخل من المدينة حين بنى مسجده ، وذلك يدل على أن النهى لا يتوجه لقطع شجرها للعمارة وجهة الإصلاح ، وأن يقطع شجرها ليتخذ موضعه جناناً وعمارة ، وأن توجه النهى إنما هو لقطع الإفساد واستبقاء بهجة المدينة(١) وخضرتها فى عين الوارد إليها ، انتهى . ونحوه ما روى ابنُ زَبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبنى حارثة فى طرف من الحمى « أعطيكم على أنه مَنْ قطع شجرة غرس مكانها نخلة » ومحل ابن زبالة من الضعف معروف ، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما قطع النخل وهو شجر يستنبته الآدميون ، وفيه خلاف ؛ فالذى ذهب إليه المالكية والحنفية جواز قطعه فى حرم مكة فضلا عن المدينة ، وهو أحد القولين عندنا ، لكن الأصح إلحاقه بالذى ينبت بنفسه ، والجواب عنه باحتمال كونه قبل تحريم المدينة ، أو أنه قطعه لحاجة العمارة ؛ فإن المتجه جوازه كما تقدم عن الغزالى ، ولم يزل أهل المدينة يسقفون بيوتهم بما يقطعون من نخلها . وقد نقل الواقدى فى الحرم المكى عن ابن الزبير الترخيصَ فى قطع شجر الحرم المكى للعمارة لكن مع الفداء ، على أن الماوردى قال فيما يستنبته الآدميون : محل الخلاف فيما أنبت فى مَوَات الحرم ، فإن أنبته فى أملاكه لم يحرم بلا خلاف، انتهى . وأما ما يستنبت من غير الشجر كالحنطة والخَضْرَوَات فيجوز قطعه بلا خلاف ، وكذا ما يتغذَّى به مما ينبت بنفسه كالرجلة المسماة بالبقلة الحمقاء ونحو ذلك ؛ لأنه فى معنى الزرع ، صرح باستثنائه المحب الطبرى فى شرح التنبيه ، وهو ظاهر ؛ لأنه إذا جاز الأخذ لإطعام البهائم فالآدمى أولى .

الثالثة — ما ذكروه فى الأخذ للدواء ونحوه يتناول تحصيله وادخاره لذلك الغرض ، وإن لم يكن السبب قائما ، إلا أن عبارة الروضة : ولو احتيج إلى شىء من نبات الحرم للدواء . وفى شرح المهذب أنه يجوز أخذ النبات للعلف ، ولو

---

(١) فى المطبوعات « واستبقاء لهجة المدينة — إلخ » تطبيع

أخذه ليبيعه ممن يعلف به لم يجز ، ومقتضاه أن الدواء كذلك ، وظاهر إطلاق الماوردى الجواز مطلقاً ، وهو ظاهر استناد بعضهم إلى نقل السنا المكى من غير نكير .

دية القتل الخطأ فى المدينة مغلظة

الرابعة — تُغَلَّظُ الدية فى الخطأ على القاتل فى حرم المدينة كمكة فى وَجْهٍ الصحيحُ خلافه ، ومأخَذُهُ عموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » .

وقد اختار السراج البلقينى هذا الوجه ، قال : لأن الخلاف فى ذلك مبنى على الخلاف فى ضمان صيدها ، والمختار عند النووى ضمان صيدها بسلب الصائد .

قلت : وما قاله متجه ؛ لعموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » وإنما اختصت مكة بمنع الكافر من دخولها مطلقا ، بخلاف المدينة فيجوز أن يدخلها بإذن الإمام أو نائبه للمصلحة ؛ لأن المشركين أخرجوا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاقبهم الله بالمنع من دخولها بكل حال تعظيما لرسوله صلى الله عليه وسلم ، واستحسن الرويانى فى البحر التسويةَ بين مكة والمدينة فى أن مَنْ مات من الكفار بهما يخرج ويدفن خارجهما ، وعلى القول باختصاصه بمكة موجِبُهُ ماقدمناه .

حكم لقطة حرم المدينة

الخامسة — سوّى صاحبُ الانتصار من أصحابنا بين حرم مكة والمدينة فى أن لقطتهما لا تحل للتملك ، بل للحفظ أبداً ، وقال الدارمى : لا تلحق لقطة حرم المدينة بحرم مكة فى ذلك . قلت : والذى يقتضيه الدليل ترجيح الأول ؛ للنص على ذلك فى الأحاديث المتقدمة فى الفصل الثامن ، وإن كان الأصحاب خصوا مكة بالذكر .

حكم المقاتلة فى حرم المدينة

السادسة : مقتضى قوله صلى الله عليه وسلم فى الأحاديث المتقدمة أيضا « ولا يحمل فيها سلاح لقتال » أن يأتى فيها ما نقل من الخلاف فى حرم مكة من أن المقاتلة الجائزة فى غيره تحرم فيه كقتال البغاة به [1] ، بل يُضَيَّق عليهم إلى أن يخرجوا

(١) البغاة : جمع باغ ، والبغاة : جماعة من المسلمين لهم شوكة خرجوا عن طاعة الإمام على تأويل لهم .

أو يفيئوا[١] كما ذهب إليه جماعة . وقال الجمهور: يقاتلون ؛ لأن هذا القتال من حقوق الله ، وحفظها فى الحرم أولى ، والحرم لا يعيذ عاصيا . وذهب الحسن البصرى إلى أنه لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة ؛ للنهى عن القتال فيه ، فلا يحمل ما هو من أسبابه ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة » رواه مسلم .

حكم الاستنجاء بحجارة الحرم

السابعة : حكى الماوردى وجهين فى جواز الاستنجاء بحجارة الحرم ، قال : ظاهرُ المذهب سقوطُ الفرض بذلك مع تأثيمه . قلت : ينبغى حمله على مَنْ نقله من الحرم ليستنجى به فى الحل مثلا ، وإلا فهو مشكل ؛ إذ لا خلاف فى إباحة البَوْل فى الحرم ، فالاستنجاء بالحجارة كذلك ، وعبارة شرح المهذب فى النقل عن الماوردى بعد حكاية الوجهين فى سقوط فرض الاستنجاء بالذهب والديباج : وطردهما الماوردى فى الاستنجاء بحجارة الحرم ، انتهى . وهى محتملة لما قررناه ، وقد نقل النووى عدمَ جواز الأكل فى الأوانى المعمولة من تراب الحرم ، على ما قاله الدميرى ، ولا شك أنه إنما عنى به المنع منه لمن أخرجها من الحرم كما لا يخفى .

حكم نقل تراب الحرم المدنى

الثامنة : جزم النووى بتحريم نقل تراب الحرم المدنى وأحجاره ، اكتفاء بما ذكره من الخلاف فى الحرم المكى ، وصحح فيه التحريم ، والرافعى الكراهة ، ونقلها النووى عن كثيرين أو الأكثرين ، ونقلها القاضى أبو الطيب عن نص الشافعى فى القديم ، ونقل التحريم عن نصه فى الجامع الكبير ؛ وقال فى الأم فى حجارة الحرم وترابه : لا خير فى أن يخرج منها شىء إلى الحل ، لأن له حرمةً بايَنَ بها ما سواها من البلدان ، فلا أرى — والله أعلم — أن جائزا لأحد أن يزيله من الموضع الذى بايَنَ به البلدان ؛ إذ يصير كغيره .

وروى الشافعى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهما كراهة ذلك . قال الشافعى : وقال غير واحد من أهل العلم : لا ينبغى أن يُخْرَجَ من الحرم شىء إلى

(١) يفيئوا : يرجعوا إلى الطاعة .

عمير . وجوابه ما تقدم ، قال البيهقى : والذاهب إلى عدم تحريم الصيد وغيره بالمدينة زعم أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أراد بقاء زينة المدينة وبهجتها لتستوطن كما منع من هَدْم آطام المدينة لذلك ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هَدْم آطام المدينة ، وقال : إنها زينة المدينة ، أى فالنهى للتنزيه . قال البيهقى : والنهى عندنا على التحريم حتى تقوم دلالة على التنزيه ، قال : واستدل المخالف بحديث سلمة « أما إنك لو كنت تصيد بالعقيق لشيَّعتك إذا ذهبت وتلقيتك إذا جئت ، فإنى أحب العقيق » قال البيهقى : وهو حديث ضعيف ، ومن يَدَّعى العلم بالآثار لا ينبغى له أن يعارض الأحاديث الثابتة فى حرم المدينة لهذا الحديث الضعيف ، وقد يجوز أن يكون الموضع الذى كان سلمة يصيد فيه خارجا من حرم المدينة ، والموضع الذى رأى فيه سعد بن أبى وقاص غلاما يقطع شجراً من حرم المدينة داخله ، حتى لا يتنافيان ، ولو اختلفا كان الحكم لرواية سعد لصحة حديثه وثقة رجاله ، دون حديث سلمة . قلت : مع أن الذى فى الصحيح من حديث سعد لا تعرض فيه لأن القطع كان بالعقيق ، وركوبه إلى قصره بالعقيق لا يقتضى أن القطع كان به ، بل يقتضى أن القطع فى موضع من الحرم خارج ، على أن ما يلى ذا الحليفة من العقيق ليس من الحرم عندنا لخروجه عما بين اللابتين ، والمالكية وإن اعتبروا البريد فحرم الصيد عندهم ما بين اللابتين كما تقدم ، مع امتداد العقيق إلى النقيع [1] ؛ فبعضه خارج عن الحرم بكل حال ، فصح ما قاله البيهقى ، وقصر سعد مع قصور العقيق فى الطرف الداخل منه فى الحرم عندنا ؛ لكونه بالحرة الغربية . هذا ، مع احتمال حديث سلمة لكونه كان قبل تحريم المدينة ، والله أعلم .

ما يستثنى مما يحرم

الثانية — استثنى المطرى تبعاً لابن النجار جواز أخذ ما تدعو الحاجة إليه للرحل — بالحاء المهملة — والوسائد ، من شجر حرم المدينة ، وما تدعو الحاجة

(١) النقيع : موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء أى يجتمع ، وقد حمى عمر رضى الله عنه غرز النقيع لنعم الفىء وخيل المجاهدين فلا يرعاه غيرها .

الإجماع على نقل ماء زمزم واستهداء النبي صلى الله عليه وسلم له من سُهَيْل بن عمرو فبعث إليه منه ، وجوابه أن ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم ، مع أنه يخلف ؛ فأشبه الحشيش الذى يخلف ، ولهذا قال الشافعى : فأما ماء زمزم فلا أكره الخروج به ، والماء ليس بشىء يزول ولا يعود ، انتهى . مع أن المحذور المتقدم فى الأحجار لايتوقع مثله فى الماء ؛ إذ المقصود من نَقْله شُرْبُه وهو ظاهر ، بخلاف الحجر وشبهه ؛ فإن القصد التبرك به ، وهو شىء لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذا أقول : إن من نقل من فخار الحرم كالكرازيز[1] لحاجة استعمالها جاز له ، ويُحْمَل كلام مَنْ أطلق المنع على مايراد للتبرك أو مع عدم الحاجة إليه ، وإذا جاز أخذ حشيش الحرم للتداوى فهذا أولى ، وإذا كان الاحتياج إلى آنية الذهب والفضة يجوّز استعمالها فهذا أولى ، فإن أريد نقل ذلك لحاجة متوقّعة فى المستقبل فينبغى تخريجه على ما تقدم فى أخذ نبات الحرم للدواء ونحوه ، وقد قدمنا فيما جاء فى ترابها استثناء تربة صُعَيْب لما جاء فيها من التداوى ، وأن الزركشى استثنى تربة حمزة رضى الله عنه لإطباق الناس على نقلها للتداوى بها من الصُّداع ، وحكى البرهان ابن فرحون عن الإمام العالم أبى محمد عبدالسلام بن إبراهيم بن ومصال الحاحانى ، قال : نقلت من كتاب الشيخ العالم أبى محمد صالح الهزميرى قال : قال صالح بن عبدالحليم : سمعت أبا محمد عبدالسلام بن يزيد الصنهاجى يقول : سألت أحمد بن يكوت عن تراب المقابر الذى كان الناسُ يحملونه للتبرك هل يجوز أو يمنع؟ فقال : هو جائز ، وما زال الناسُ يتبركون بقبور العلماء والشهداء والصالحين، وكان الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب فى القديم من الزمان . قال ابن فرحون عَقِبه : والناسُ اليومَ يأخذون من تربة قريبة من مشهد سيدنا حمزة ، ويعملون منها خرزا يشبه السبح ، واستدل ابن فرحون بذلك على جواز نقل تراب المدينة ، وقد علمت مما تقدم أن نقل تربة حمزة رضى الله عنه إنما هو للتداوى؛

(١) الكرازيز : جمع كراز ــ بزنة رمان ، ويقال بتخفيف الراء أيضا بزنة دخان ــ وهو القارورة ، وقيل : كوز ضيق الرأس ، قال ابن دريد : تكلموا به ولا أدرى أعربى أم عجمى .

ولهذا لا يأخذونها من نفس القبر ، بل من المَسِيل الذى عنده المسجد[١] ، ولئن صح مشروعية التبرك بتراب قبور الصالحين فهو أمر خاص بها لا دلالة فيه على جواز نقل مطلق تراب الحرم ، وهو أمر لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخيرُ كله فى الاتّباع ، وقد قالت الحنابلة أيضاً : يكره نقل حَصَى الحرم وترابه إلى غيره ، ولا يدخل غيره إليه ، ونقلوا عن أحمد أنه قال : الإخراج أشد، انتهى .

ويجب على من أخرج شيئاً من تراب الحرم أو حجره أن يرده إليه ، ولا ضمان عليه فى ترك الرد ، قال الكمال الدميرى : و إذا نقل تراب أحد الحرمين إلى الآخر هل يزول التحريم — أى فينقطع وجوب الرد — أو يفرق بين نقله للأشرف وعكسه ؟ فيه نظر ، والله أعلم .

الفصل الرابع عشر

فى ذكر بدء شأنها ، وما يؤول إليه أمرها

روى ابن لَهِيعة بسنده إلى عائشة مرفوعاً « إن مكة بلد عَظَّمه الله ، وعَظَّم حرمته ، خلق مكة وحَفَّها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض كلها بألف عام ، ووصلها بالمدينة ، ووصل المدينة ببيت المقدس، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقا واحداً » قال العلامة المقدسى فى بعض تأليفاته : هذا حديث غريب جداً ، بل منكر .

وعن سليمان عن أبى عمرو الشيبانى عن على رضى الله عنه : كانت الأرض ماء ، فبعث الله ريحاً فمسحت الأرض مسحاً ، فظهرت على الأرض زبدة ، فقسمها أربع قِطَع ، خلق من قطعة مكة ، والثانية المدينة ، والثالثة بيت المقدس ، والرابعة الكوفة . وهو أثر وَاهٍ .

وروينا فى الكبير للطبرانى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله

---

(١) المسيل الذى كان به مصرع حمزة رضى الله عنه هو المسيل الذى من جهة أحد ، لا من القبلة (مكى) .

عز وجلَّ اطلع إلى أهل المدينة وهى بطحاء قبل أن تعمر ليس فيها مَدَر ولابَشَر، فقال : يا أهـل يثرب ، إنى مشترط عليكم ثلاثاً وسائق إليكم من كل الثمرات : لاتَعْصِى ، ولا تَعْلِى ، ولاتـكَبَّرِى ، فإن فعلت شيئاً من ذلك تركتك كالجزور لا يمنع مَنْ أكله .

وأخرج النسائى من رواية يزيد بن أبى مالك عن أنس فى حديث الإسراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُتيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل » الحديثَ ، وفيه « فركبت ومعى جبريل ، فسرت فقال : انزل فَصَلِّ ، ففعلت ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ صليتَ بطيبة وإليها المُهَاجَرُ » يعنى بفتح الجيم .

ووقع فى حديث شداد بن أوس عند البزار والطبرانى أنه [قال] «أول ماأسْرِىَ به صلى الله عليه وسلم مَرَّ بأرض ذات نخل ، فقال له جبريل : انزل فَصَلِّ ، فنزل فصلى ، فقال : صليت بيثرب » الحديثَ .

وروى رزين عن أنس يَرْفعه « لمـا تجلَّى الله لجبل طور سيناء تَشَظَّى ستة أشظاظ(١) » وفى رواية غير رزين « شظايا ، فنزلت بمكة ثلاثة : حِرَاء ، وثَبِير ، وثَوْر ، وفى المدينة : أحُد ، وعَيْر ، وورقان » وفى رواية « ورَضْوَى » بدل عير ، ولا يشكل ذلك بكون رَضْوَى بينبع ؛ لأن الينبع من توابع المدينة ومضافاتها كما سيأتى ، ورواه بعضُ شراح المصابيح بلفظ « عير ، وثور ، ورضوى » ومنه يؤخذ حكمة أخرى فى تحديد الحرم بعير وثور ، وسيأتى بيانُ أول من سكنها بعد الطوفان فى أخبار سكانها .

وروينا فى الأم للشافعى حديث « أمكنت أقل الأرض مطرا ، وهى بين عينى السماء عين الشام وعين اليمن » ورواه ابن زبالة بزيادة « فاتخذوا الغنم على خمس ليال من المدينة » .

وروى أيضاً حديث « يامعشر المهاجرين إنـكم بأقلِّ الأرض مطرا ، فأقلوا من الماشية ، وعليكم بالزرع ، وأكثروا فيه من الجماجم » .

---

(١) تشظى : تفرق شظايا ، والأشظاظ : الفلق كل فلقة شظ أوشظية كقضية .

وروى الشافعي أيضاً حديث «توشك المدينة أن تُمطر مطرا لا يُكِنّ أهلها(١) البيوتُ ، ولا يكنهم إلا مَظَالُّ الشعر» .

وروى أيضاً «توشك المدينة أن يصيبها مطر أربعين ليلة لا يكنّ أهلها(١) بيت من مَدَر» .

وروى ابن زبالة حديث «كيف بكِ ياعائشةُ إذا رجع الناسُ بالمدينة وكانت كالرمانة المحشوة ؟ قالت : فمن أين يأكلون يانبي الله ؟ قال : يطعمهم الله من فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جنات عدن» .

وأورد المرجاني في كتابه أخبار المدينة عن جابر مرفوعاً «ليعودنّ هذا الأمر إلى المدينة كما بدأ منها ، حتى لا يكون إيمان إلا بها» الحديثَ .

وروى أحمد برجال ثقات «يوشك أن يرجع الناسُ إلى المدينة حتى يصير مَسالحهم بسَلاَح» ومسالحهم : جمع مَسْلَح ، وهم القوم الذين يحفظون الثغور . وسَلاَح — كقطام — موضع بقرب خيبر(٢) .

وفي مسلم حديث «تبلغ المساكن أهاب أو يهاب» بكسر المثناة التحتية .

وروى أحمد في حديث طويل أنه صلى الله عليه وسلم «خَرَجَ حتى أتى بئر الأهاب ، قال : يوشك البنيان أن يأتي هذا المكان» وبئر أهاب : سيأتي أنها بالحرة الغربية .

وروى أبو يعلى عن زيد بن وهب قال : حدثني أبو ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا بلغ البناء — أي بالمدينة — سَلْعاً فارتحل إلى الشام» فلما بلغ البناء سَلعاً قدمتُ الشام .

وروى ابن زبالة حديث «ليُوشِكَنَّ الدينُ أن ينزويَ إلى هذين المسجدين ، ويوشكن أن يتشاحُّوا على موضع الوتد بالحمى كشح أحدكم أن ينقص من داره

---

(١) لا يكنهم : لا يسترهم ولا يقيهم .

(٢) والمعنى على ذلك : حتى يصير القوم الذين يرقبون عدوهم مقيمين في هذا الموضع ؛ لاتساع رقعة المدينة وكثرة أهلها .

إلى جانب المسجد ، وليوشكن أن يبلغ بنيانهم يهيقاً » قالوا : يا رسول الله ، فمن أين يأكلون ؟ قال « من هنا وههنا » يشير إلى السماء والأرض .

و يهيقاأوله آخر الحروف : موضع بقرب المدينة على ماسيأتى عن المجد آخر الباب السابع

وذكر ابن زبالة الشجرة التى يضاف إليها مسجد ذى الحليفة ، ثم روى عن أبى هريرة رضى الله عنه « لاتقوم الساعة حتى يبلغ البناء الشجرة » .

وروى أيضاً عنه « أرَيْتَكَ شَرَفَ السيالة وشرف الروحاء ؛ فإنه منازل أهل الأردن إذا أجيز الناس إلى المدينة » .

وفى الكبير للطبرانى حديث « سيبلغ البناء سلعاً ، ثم يأتى على المدينة زمان يمر السَّفْرُ(١) على بعض أقطارها فيقول: قد كانت هذه مدةً عامرةً من طول الزمان وعفو الأثر » .

وروى النسائىّ عن أبى هريرة حديث « آخر قرية من قرى الإسلام خرابا المدينة » ورواه الترمذى بنحوه ، وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ « آخر قرية فى الإسلام خرابا المدينة » .

وروى أبو داود عن معاذ مرفوعا « عُمْرَانُ بيتِ المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال » .

وروى أبو داود أيضاً عنه مرفوعاً « الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال فى سبعة أشهر » .

وفى ابن شبة عن أبى هريرة « ليخرجَنَّ أهلُ المدينة من المدينة خير ما كانت ، نصفاً زَهْواً(٢) ، ونصفاً رطباً ، قيل: مَنْ يخرجهم منها ياأباهريرة ؟ قال : أمراء السوء » .

وفيه أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا نحوه ، وأن عبد الله بن عمر كان يردُّ عليه ، فقال له أبو هريرة : لِمَ تردُّ على؟ فوالله لقد كنت أنا وأنتَ فى

(١) السفر : الجماعة المسافرون ، ونظيره ركب وتجر وشرب

(٢) الزهو : البسر الملون .

يبت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم « يخرج منها أهلها خير ما كانت » فقال ابن عمر : أجَلْ ، قد كنتُ أنا وأنت فى بيت ، ولـكن لم يقله ، إنما قال «أعمر ما كانت » ولو قال « خير ما كانت » لكان ذلك وهو حى وأصحابه ، فقال أبو هريرة : صدقت والذى نفسى بيده ، وفيه عنه أيضاً « ليجيئَنَّ الثعلبُ حتى يقيلَ فى ظل المنبر ، ثم يروح لا يُنَهْنِهُهُ (١) أحد » .

وفى رواية عنه « لا تقوم الساعة حتى يجىء الثعلبُ فَيَرْبِضَ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينهنهه أحد (١) » وفيه أيضاً عن شريح بن عبيد أنه قرأ كتابا لـكعب « ليغشَيَنَّ أهـلَ المدينة أمرٌ يفزعهم حتى يتركوها وهى مُذَلَّلة (٢) ، وحتى يبول السنانيرُ على قطايف الخز ما يروعها شىء ، وحتى يخرق الثعالب فى أسواقها ما يروعها شىء » .

وفى الصحيحين حديث « لتتركون المدينة » ولفظُ مسلمٍ « لتتركُنَّ المدينةَ على خير ما كانت مذللة (٢) ثمارها لا يغشاها إلا العوافى » يريد عوافى الطير والسباع « وآخر من يحْشَرُ منهار اعيان من مُزَينة يُريدانِ المدينة ينعقان بغنمهما فيجدانها وحوشاً » ولفظ مسـلم « حتى إذا بلغا ثنية الوَدَاع خَرَّا على وجوههما » وهو فى الموطأ بلفظ « لتتركُنَّ المدينةَ على أحسن ما كانت حتى يدخل الـكلبُ أوالذئب فيغذى على بعض سوارى المسجد » .

ورواه ابن شـبة ولفظه « فيغذى على سوارى المسـجد أو المنبر »

ويغذى ـ بالغين والذال المعجمتين ـ أى يبول عليها دفعة دفعة ، يقال : غذَّت المرأة ولدها بالتشديد ، إذا أبالته ، وبالتخفيف إذا أطعمته .

وفى ابن زبالة ـ وتبعـه ابن النجار ـ حديث « لا تقوم الساعة حتى يغلب على مسجدى هذا الـكلابُ والذئابُ والضباع فيمر الرجل ببابه فيريد أن يصلى فيه فما يقدر عليه » .

---

(١) ما ينهنهه : ما يخيفه وما يفزعه وما يردعه .

(٢) مذللة : سهلة لا شقة فى المعيشة بها .

وفى ابن شبة بسند صحيح حديث « أما والله لَتَدَعُنَّها مذللة أربعين عاما للعوافى ، أتدرون ما العوافى ؟ الطير والسباع » ورواه ابن زبالة بنحوه .

وروى أحمد برجال الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم « صَعَدَ أُحُداً ، فأقبل على المدينة وقال : ويل أمها قرية ، يَدَعُها أهلُها كأينع ما تكون » الحديثَ ، وفى رواية له « ويل أمك قرية ، يَدَعُكِ أهلُكِ وأنت خيرما تكونين »

ورُوِىَ أيضاً بإسناد حَسَن حديثٌ للبشير بن راكب فى حب وادى المدينة « فليقولُنَّ لقد كان فى هذه مرة حاضرة من المؤمنين » .

وروى أيضاً برجال ثقات حديث « المدينة يتركها أهلها وهى مُرْطِبة ، قالوا : فمن يأكلها ؟ قال : السباع والعائف » .

الفصل الخامس عشر

فيما ذكر من وقوع ما أخبر به صلى الله عليه وسلم
من خروج أهلها وتركها ، وذكر كائنة الحرَّة المقتضية لذلك

قد اختلف الناسُ : متى يكون هذا الترك ؟ فقال القاضى عياض : إن هذا جَرَى فى العصر الأول ، وإنه من المعجزات (١) ، فقد تُرِكَت المدينةُ على أحسن ما كانت حين انتقلت الخلافة إلى الشام والعراق ، وذلك أحسن ما كانت من حيث الدين والدنيا : أما الدين فلكثرة العلماء بها ، وأما الدنيا فلعمارتها واتساع حال أهلها ، قال : وذكر الأخباريون فى بعض الفتن التى جرت بالمدينة وخاف أهلها أنه رَحَلَ عنها أكثرُ الناسِ ، وبقيت ثمارها للعوافى (٢) ، وخَلَتْ مدة ، ثم تراجع الناسُ إليها .

وحكى البدر ابن فَرْحُون فى شرح الموطأ ، ومنْ خطه نقلت ، عن القاضى أيضاً أنه قال : وقد حكى قوم كثيرون أنهم رأوا ما أنذر به النبى صلى الله عليه وسلم من تغذية الكلاب على سَوَارى مسجدها ، انتهى .

---

(١) أى لكونه إخباراً من النبى صلى الله عليه وسلم عما سيكون من بعده بإعلام الله تعالى إياه .

(٢) العوافى : المراد الطير ، كما فى الأحاديث التى مرت قريباً .

وقال النووى : الظاهر المختار أن الترك للمدينة يكون آخر الزمان عند قيام الساعة ، ويوضحه قصة الراعيين من مُزَيْنة ، فإنهما يخرّان على وجوههما حين تدركهما الساعة ، ولفظ مسلم واضح فى ذلك ؛ فإنه قال « ثم يحشر راعيان » ويؤيده كونُها آخرَ قرى الإسلام خرابا .

قلت : ويؤيده رواية ابن شبة المتقدمة « ليدَعُنَّها مذللة أربعين عاما للعوافى » وهذا لم يقع اتفاقا ، على أنه ورد ما يقتضى أن الترك للمدينة يكون متعدداً ، فلعل ما ذكره القاضى هو المرة الأولى ، وبقى الترك الذى يكون آخر الزمان ؛ لأن ابن شبة روى حديث « ليخرجَنَّ أهلُ المدينة من المدينة ، ثم ليعودُنَّ إليها ، ثم ليخرجُنَّ منها ، ثم لا يعودون إليها ، وليدَعُنَّها وهى خير ما يكون مونعة[1] » .

وروى أيضا عن عمر مرفوعا « يخرج أهلُ المدينة منها ثم يعودون إليها فيعمرونها حتى تمتلىء وتبنى ، ثم يخرجون منها فلا يعودون إليها أبداً »

وروى ابن شبة عن أبى هريرة قال : « آخر من يحشر رجلان رجُلٌ من جُهَينة وآخر من مُزَينة فيقولان : أين الناس ؟ فيأتيان المدينة فلا يَرَيان إلا الثعلب ،فينزل إليهما ملكان فيسحبانهما على وجوههما حتى يلحقاهما بالناس »

وروى أيضا عن حذيفة بن أسيد قال : « آخر الناس مَحْشَراً رجلان من مُزَيْنة يفقدان الناس ، فيقول أحدهما لصاحبه : قد فَقَدْنا الناسَ منذ حين ، أنطلق بنا إلى شخص من بنى فلان، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا[2]، ثم يقول : انطلق بنا إلى المدينة ، فينطلقان فلا يجدان بها أحدا ، ثم يقول : انطلق بنا إلى منزل قريش ببقيع الغرْقَد ، فينطلقان فلا يريان إلا السباع والثعالب ، فيوجهان نحو البيت الحرام » .

قلت : وكأنهما إذا توجها نحو البيت الحرام ينزل إليهما الملكان قبل ذهابهما؛ فلا يخالف ما تقدم ، فالظاهر أن ما ذكره القاضى هو الترك الأول ، وسببه فيما

(١) مونعة : اسم الفاعل من « أينع الزرع » إذا أدرك وطاب وحان قطافه .
(٢) كذا ، ولعل كلمة « بها » مقحمة فى هذا الموضع .

يظهر كائنة الحرة ، وقد تقـــدم من حديث أبى هريرة أنه قيل له : مَنْ يخرجهم منها يا أبا هريرة ؟ قال : أمراء السوء ، وروى الشيخان — واللفظ لمسـلم — عن أبى هريرة مرفوعا « يهلك أمتى هذا الحى من قريش ، قالوا: فما تأمرنا ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم » .

وروى مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال : «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حَدث به ، حَفِظه مَنْ حَفِظه ونسِيه مَنْ نَسِيه » الحديث ، وفى رواية عنه : أخبرنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن إلى أن تقوم القيامة ، فما من شىء إلا قد سألته ، إلا أنى لم أسأله ما يُخْرِجُ أهل المدينة من المدينة ، وروى الترمذى حديثاً « إذا مشت أمتى المطيطا ، وخدمتهم بنات فارس والروم ، رَدَّ الله بأسهم بينهم ، وسَلَّط شِرَارهم على خيارهم » . وروى ابن شبة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «والذى نفسى بيده ليكونَنَّ بالمدينة مَلْحَمَة يقال لها الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولـكن حالقة الدين ، فاخرُجُوا من المدينة ولو على قدر بريد » .

وروى ابن أبى شيبة عنه أنه قال : اللهم لا تدركنى سـنة ستين ، ولا إمْرةُ الصبيان ، يشير إلى أن أول الأغيلمة كان فى سـنة ستين ، وهو كذلك ، كما قاله الحافظ ابنُ حجر ؛ فإن يزيد بن معاوية اسْتُخْلِفَ فيها ، فأشار إلى دولة يزيد وفيها كانت وقعت الحرة ، وتسمى حَرّة واقم ، وحرة زهرة

وروى الواقدى فى كتاب الحرة عن أيوب بن بشير المعادى أن النبى صلى الله عليه وسلم «خرجَ سَفَراً من أسفاره، فلما مر بحرة زهرة وقف واسترجع ، فَسِيءَ بذلك مَنْ معه ، فظنُّوا أن ذلك من أمر بسفرهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسـول الله ، ما الذى رأيت ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما إنَّ ذلك ليس من سفركم هذا ، قالوا : فما هو يا رسول الله ؟ قال : يُقْتَلُ فى هـــذه الحرة خِيار أمتى بعد أصحابى » .

(١) المطيطاء ــ بفتح الميم وكسر الطاء ممدودا ــ والمطيطى ــ بضم ففتح ممدودا أو مقصورا ــ التبختر ومد اليدين فى المشى .

وروى أيضا عن سفيان بن أبى أحمد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أشرف على بنى عبد الأشهل أشار بيده ، فقال : «يقتل بهذه الحرة خيار أمتى » وروى أيضا عن كعب قال : نجد فى التوراة أن فى حرة شرقىّ المدينة مقتلة تضىء وجوهُهم يوم القيامة صنعا » وروى أيضا أنه ذكر عند ابن عباس قتلى الحرة ، فقال ابن عباس : يرحمهم الله ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقتل بحرة زهرة خيار أمتى » .

وروى البيهقى فى الدلائل خبر أيوب بن بشير المتقدم ، ثم قال : هذا مرسل وقد روى عن ابن عباس فى تأويل قوله تعالى « وَلَوْ دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سُئِلُوا الفتنَةَ لآتوها[1] » قال: لأعْطَوْهَا ، يعنى إدخال بنى حارثة أهلَ الشامِ على أهل المدينة . ورواه بالسند إلى ابن عباس وقال : إنه مؤكد لمرسل ابن بشير ، وسيأتى فى حرة واقم ما رواه ابن زبالة من أن السماء مطرت على عهد عمر رضى الله عنه ، فخرج مع أصحابه حتى أتوا حَرَّةَ واقم وشِرَاجُهَا تطرد ، فقال كعب : أما والله يا أمير المؤمنين لتسيلَنَّ هذه الشراجُ بدماء الناس كما تسيل بهذا الماء ، فدنا منه ابن الزبير فقال : يا أبا إسحاق ومتى ذلك ؟ فقال : إياك أن تكون على رجلك أو يدك ! .

وروى ابن زبالة عن كعب أيضاً : إنا نجد فى كتاب الله : حَرَّةٌ شرقىَّ المدينة يُقْتَلُ بها مقتله تضىء وجوههم يوم القيامة كما يضىء القمر ليلة البدر .

قلت : وسياق كلام القرطبي يقتضى أنها هى السبب فى خروج أهل المدينة المذكور فى كلام عياض ؛ فإنه ذكر نحو كلام عياض ، وقال : فلما انتهى حالها — يعنى المدينة — كمالا وحسنا تناقص أمرها إلى أن أقفرت جهاتها ، وتوالت الفتن فيها ؛ فخاف أهلها ، فارتحلوا عنها ، ووجَّه يزيدُ بن معاوية مسلم بن عقبة المرى فى جيش عظيم من أهل الشام ، فنزل بالمدينة ، فقاتل أهلها ، فهزمهم

وقعة الحرة

(١) من سورة الأحزاب من الآية ١٤

وقتلهم بحرة المدينة قتلا ذريعا[1] ، واستباح المدينة ثلاثة أيام ، فسميت وقعة الحرة لذلك ، و يقال لها : حرة زهرة ، وكانت الوقعة بموضع يعرف بواقم على ميل من المسجد النبوى ، فقُتِلَ بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ، وقتل بها من حَمَلَة القرآن سبعمائة رجل ، ومن قريش سبعة وتسعون قتلوا ظلما فى الحرب صَبْرًا ، قال : وقال الإمام الحافظ ابن حزم فى المرتبة الرابعة : وجالت الخيلُ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و بالت ، وراثت بين القبر والمنبر أدام الله تشريفها وأكرهوا الناس أن يبايعوا ليزيد على أنهم عبيد له إن شاء باع و إن شاء أعتق ، وذكر له يزيد بن عبد الله بن زمعة البيعة على حكم القرآن والسنة ، فأمر بقتله ، فضربت عنقه صبرا ، وذكر الأخباريون أنها خَلَتْ من أهلها ، و بقيت ثمارها للعوافى كما قال صلى الله عليه وسلم ، وفى حال خلائها غذت الكلابُ على سوارى المسجد ، انتهى كلام القرطبى .

سبب نقمة يزيد بن معاوية على أهل المدينة

وروى الطبرانى فى خبر طويل عن عروة بن الزبير قال : لما مات معاوية رضى الله عنه تثاقل عبدُ الله بن الزبير عن طاعة ابنه يزيد ، وأظهر شَتْمه ، فبلغ ذلك يزيد ، فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولاً ، وإلا أرسل إليه ، فقيل لابن الزبير : ألا نصنع لك أغلالا من فضة تلبس عليها الثوب وتبر قسمه فالصلح أجمل بك ؟ قال : فلا أبرَّ الله قسمه ، ثم قال :

ولا أَلِينُ لغير الحق أسأَلُهُ * حتى يَلِينَ لِضِرْسِ الماضِغِ الحجَرُ

ثم دعا إلى نفسه ، فوجَّه إليه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المرىّ فى جيش أهل الشام ، وأمرهم بقتال أهل المدينة ، فإذا فرغ من ذلك صار إلى مكة ، قال : فدخل مسلم بن عقبة المدينة ، وهَرَبَ منه يومئذ بقايا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعاث فيها[2] ، وأسرف فى القتل ، ثم خرج منها ، فلما كان فى بعض

---

(١) قتلا ذريعا : شديدا كثيرا مع فظاعة (٢) عاث : أفسد

الطريق مات واستخلف حصين بن نمير الكندى ، ثم ذكر حصاره ابن الزبير، ورَمْيَه بالمَنْجَنِيق ، واحتراقَ الكعبة ، قال : وبلغ حصين بن نمير موت يزيد ابن معاوية فهرب .

قلت : وسببُ أمر يزيد بقتال أهل المدينة ما ذكره الإمام ابن الجوزى قال : لما دخلت سنةُ اثنين وستين ولّى يزيدُ عثمان بن محمد بن أبى سفيان المدينةَ ، فبعث إلى يزيد وَفدًا من المدينة ، فلما رجع الوفد أظهروا شَتْمَ يزيد ، وقالوا : قدمْنَا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويلعب بالكلاب ؛ وإنا نشْهِدكم أنا قد خلعناه . وقال المنذر : أما والله لقد أجازنى مائة ألف درهم ، ولا يمنعنى ما صنع أن أصدقكم عنه ؛ والله إنه يشرب الخمر ، وإنه ليسكر حتى يَدَعَ الصلاة ؛ ثم بايعوا لعبد الله بن حَنْظَلة الغسيلِ ؛ وأخرجوا عثمان ابن محمد عامل يزيد ؛ وكان ابنُ حنظلة يقول : يا قوم ؛ ما خرجنا على يزيد حتى خِفْتُ أن نُرْمَى بالحجارة من السماء ؛ والله لو لم يكن معى أحدٌ من الناس لأبْلَيْتُ الله فيه بلاء حسناً ؛ وكانت قصة الحرة سنة ثلاث وستين ؛ وفى هذه السنة أخرج أهلُ المدينة عامل يزيد المتقدم ذكره .

قلت : وفى كتاب الحرة للواقدى ما ملخصه : أن أول ما هاج أمر الحرة أن ابن ميناء كان عاملا على صَوَافِى[1] المدينة ـ وبها يومئذ صواف كثيرة ـ حتى كان معاوية يجدُ بالمدينة وأعراضها مائةَ ألفِ وَسْقٍ وخمسين ألفَ وَسْق ، ويحصد مائة ألف وَسْق حنطة ، واستعمل يزيدُ على المدينة عثمانَ بن محمد بن أبى سفيان ؛ وأن ابن ميناء أقبل بشرج له من الحرة يريد الأموال التى كانت لمعاوية ؛ فلم يزل يسوقه ولا يصده عنه أحد حتى انتهى إلى بَلْحَارث بن الخزرج ، فنقب النقيب فيهم ، فقالوا : ليس ذلك لك ، هذا حدث وضرر علينا ، فأعلم الأمير عثمان بن محمد بذلك ، فأرسل إلى ثلاثة من بَلْحارث ، فأجابوه إلى أن يمر به ، فأعلم ابن ميناء فغدا بأصحابه

---

(١) الصوافى : جمع صافية ، وهى النخلة الكثيرة الحمل . لكن المستعمل المنصوص عليه فى كتب اللغة الصفية وجمعها الصفايا . مثل قضية وقضايا .

فَذَبُّوهم[١]، فرجع إلى الأمير فقال: اجمع لهم مَنْ قَدَرْتَ، و بعث معه بعض جند، وقال: مر به ولو على بطونهم، فغدا ابن ميناء مُتطاولا عليهم، وعدا من يذبهم من الأنصار، ورفدَتهم قريش[٢] فذبُّوهم حتى تفاقم الأمر؛ فرجع ولم يعمل شيئاً. وكتب عثمان بن محمد إلى يزيد يخبره بذلك، ويحرضه على أهل المدينة جميعا؛ فاستشاط غضبا؛ وقال: والله لأبعثن إليهم الجيوش، ولأوطئنها الخيل. انتهى.

وقال ابن الجوزى: قال أبو الحسن المداينى — وكان من الثقات —: أتى أهل المدينة المنبر فخلعوا يزيد، فقال عبد الله بن أبى عمرو بن حفص المخزومى: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتى، ونزعها عن رأسه، إنى لأقول هذا وقد وَصَلنى وأحْسَنَ جائزتى، ولكن عدو الله سِكّير. وقال آخر: قد خلعته كما خلعت نعلى؛ حتى كثرت العمائم والنِّعَال.

ثم ولَّوْا على قريش عبدَ الله بن مطيع؛ وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة. ثم حاصر القوم مَن كان بالمدينة من بنى أمية فى دار مروان. فكتب مروان ومن معه إلى يزيد: إنا قد حُصِرْنا ومُنِعْنا العذب، فيا غَوْثاه. فوصل الكتاب إليه. فبعث إلى مسلم بن عُقْبة – وهو شيخ كبير – فجاء حتى دخل عليه، وقال له: اخرُجْ وسِرْ بالناس، فخرج مناديه، فنادى: أن تسيروا إلى الحجاز على أخذ أعطياتكم كَمَلاً ومعونة مائة دينار توضع فى يد الرجل من ساعته. فانتدَب لذلك اثنا عشر ألف رجل. وكتب يزيد إلى ابن مَرْجَانة[٣] أن اغزُ ابنَ الزبير، فقال: لا والله لا أجمعها للفاسق أبداً قَتْلَ ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم و إغزاء البيت. وقال يزيد لمسلم: إن حَدَثَ بك حادث فاستخلف حُصَين بن نمير السكونى. وقال له: ادعُ القومَ ثلاثا، فإن هم أجابوك و إلا فقاتلهم، و إذا ظَهَرْتَ عليهم فأبِحْها ثلاثا بما فيها من مال أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف

(١) ذبوهم: منعوهم وطردوهم. (٢) رفدتهم: أعانتهم.

(٣) ابن مرجانة: هو عبيد الله بن زياد بن أبيه، وكان على الجيش الذى قتل الحسين بن على سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عنهم ، وانظر على بن الحسين فاسْتَوْصِ به ؛ فإنه لم يدخل فى شىء مما دخلوا فيه ، فلما بلغ أهلَ المدينة إقبالُ الحصين وثبوا على من كان محصوراً من بنى أمية ، وقالوا : لا نكف عنكم حتى نضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه ألا تبغوا غائلة (١) ، ولا تدلُّوا لنا على عَوْرة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فأعْطَوْهم العهدَ على ذلك ، فأخرجوهم من المدينة ، فخرجوا حتى لَقُوا مسلم بن عقبة ، وأرسل إليه مروان ابنَه عبدَ الملك فأشار عليه أن يأتيهم من ناحية الحرة ، وأن ينتظرهم ثلاثاً ففعل ، فلما مضت الثلاث قال : ياأهل المدينة ، ماتصنعون؟ قالوا : نحارب ، قال : لا تفعلوا وادخلوا فى الطاعة ، قالوا : لا نفعل ، وكانوا قد اتخذوا خندقا ، فنزل منهم جماعة ، وحمل ابنُ الغسل (٢) على الخيل حتى كشفها ، وقاتلوا قتالا شديداً ، وجعل مسلم يحرض أصحابه ، وكان به مرض ؛ فنصب له سرير بين الصفين وقال: قاتلوا عن أميركم ؛ وأباح مسلم المدينة ثلاثاًيقتلون الناس و يأخذون الأموال ، ورفعوا على النساء ؛ وقاتل عبد الله بن مطيع حتى قتل هو و بَنُونَ له سبعة ؛ و بعث برأسه إلى يزيد ؛ فأفزع ما جرى مَنْ بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونقل الواقدىُّ أن القوم لما قربوا تشاور أهلُ المدينة فى الخندق خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ و شَكُّوا المدينة بالبنيان من كل ناحية ؛ وعملوا فى الخندق خمسة عشر يوما ، وكان لقريش ما بين راتج إلى مسجد الأحزاب، والأنصار ما بين مسجد الأحزاب إلى بنى سلمة ، وللموالى ما بين راتج إلى بنى عبد الأشهل ، فلما وصل القوم عسكروا بالْجُرْف ، و بعثوا رجالا من رجالهم ، فأحدقوا بالمدينة من كل ناحية ، فما يجدون مَدْخَلا ، والناس متلبسون السلاح قد قاموا على أفواه الخنادق يرمون بالنبل والحجارة ، وجلس مسلم بناحية واقم ، فرأى أمراً هائلا ، فاستعان بمروان وكان وَعَده بوجه فى ذلك لما لقيه بوادى القرى ؛ فخرج مروان

(١) الغائلة : الداهية والفساد والشر . (٢) فى المطبوعات كلها « وحمل ابن القتيل » تطبيع ، وابن الغسيل: هو عبدالله بن حنظلة الذى ولاه الأنصار عليهم .

حتى جاء بنى حارثة ، فكلم رجالا منهم ورغبه فى الصنيعة(١) ، وقال : تفتح لنا طريقا فأكتبَ بذلك إلى يزيد فيَصِلَ أرحامكم ، ففتح لهم طريقاً من قبلهم حتى أدخل له الرجال من بنى حارثة إلى بنى عبد الأشهل ، وجاء الخبرُ عبدَ الله بن حنظلة وكان بناحية الصورين فى أصحابه ، وأقبل عبد الله بن مطيع وكان من ناحية ذباب ، وأقبل ابن هريرة فى الموالى يطوف بهم على الخنادق ، وأقبل ابن ربيعة وكان من ناحية بُطْحان ، فاجتمعوا جميعاً من حيث يدخل أهل الشام ، قال محمود ابن لبيد : قد حضرتُ يومئذ ، فإنما أُتِينا من قومنا بنى حارثة ، وكان مروان حين أخرج عمل به عمل قبيح ، فكلم رجلا فأدخله ومعه فارس ثم جعلت الخيل تتحدر على أثره ، وقد وقفنا ببنى عبد الأشهل فقاتلنا ما وجدنا حتى عاينا الموت وكثرت القوم وتفرق الناس فقتلوا فى كل وجه .

وروى الواقدى أيضاً أن قصر بنى حارثة كان أمانا لمن أراد أهلُ الشام أن يؤمِّنوه ، وكانت بنو حارثة آمنين ، وأولُ دارٍ انتُهِبَتْ والحرب بعد لم ينقطع دار بنى عبد الله الأشهل ، انتهى .

وأخرج ابن أبى خيْثمة بسند صحيح إلى جُـوَيرية بن أسماء : سمعت أشياخَ أهلِ المدينة يتحدثون أن معاوية رضى الله عنه لما احتضر دعا يزيد فقال له : إن لك من أهل المدينة يوما ، فإن فعلوا فَارْمِهِمْ بمُسْلم بن عقبة فإنى عرفت نصيحته ، فلما ولى يزيد وفَد عليه عبدُ الله بن حَنظلة وجماعة ، فأكرمهم وأجازهم ، فرجع فحرَّضَ الناسَ على يزيد ، وعابه ، ودعاهم إلى خلع يزيد ، فأجابوه ، فبلغ ذلك يزيد ، فجهز إليهم مسلم بن عقبة ، فاستقبلهم أهلُ المدينة بجموع كثيرة ، فهابهم أهلُ الشام وكرِهوا قتالهم ، فلما نشب القتالُ سمعوا فى جوف المدينة التكبير ؛ وذلك أن بنى حارثة أدخَلوا قوماً من الشاميين من جانب المدينة ، فترك أهلُ المدينة القتالَ ، ودخلوا المدينة خوفا على أهليهم ، فكانت الهزيمة ، وقُتِل من

(١) الصنيعة : أصلها الإحسان ، ويقال « فلان صنيعة فلان » أى أنه هو الذى خرجه ورباه واختصه بالجميل .

قتل ، وبايع مسلم الناس على أنهم خَوَلٌ [١] ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم بما شاء ، انتهى .

وأخرج يعقوب بن سفيان فى تاريخه بسند صحيح عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه [٢] الآية على رأس ستين سنة « ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها ثم سُئِلوا الفتنةَ لآتوها » يعنى إدخال بنى حارثة أهلَ الشام على أهل المدينة فى وقعة الحَرَّة ، قال يعقوب : وكانت وقعة الحرة سنة ثلاث وستين ، اهـ .

قالوا : وكلمت امرأةٌ مسلمَ بن عقبة فى ولدها ، وقالت : أنا مولاتك، وابنى فى الأسْرِ ؛ فقال : عجلوه لها ؛ فضربت عنقه وقال : أعطوها رأسه ، أما تَرْضَيْنَ أن لاتقتلى حتى تكلمى فى ابنك ؟! .

قلت : وسموه مُسْرِفًا لإسرافه فى القتل .

ونقل الواقدى فى كتاب الحرة أن يزيد دخل على مُسْرِف وكان قد جعله فى عِلِّيَّةٍ لمرضه ؛ فقال له : لولا مرضُك لكنت أنت صاحب هذا الأمر ، لما أعرف نصيحتك ، قال مسرف : أنشُدُكَ الله يا أميرالمؤمنين ألاَّ [٣] تولى أمرهم غيرى ؛ فإنى والله أنا صاحبهم ، رأيت فى النوم شجرةَ غرقدٍ تصيح بأغصانها : يا ثارات عثمان ، فأقبلت وجعلت الشجرة تقول : على يَدَىْ مسلم بن عقبة ، حتى جئتها فأخذتُها ، فعبَّرْتُ ذلك أنى أكون القائم بأمر عثمان ؛ فهم قَتَلَتُه ، قال يزيد : فسِرْ إليهم على بركة الله ، فأنت صاحبهم ، وانظر إذا قدمتَ المدينة ، فمن عاقكَ عن دخولها أو نَصَبَ لك حَرْبًا فالسيفَ السيفَ ، لاتُبْقِ فيهم ، وأنْهِبْهَا ثلاثا ، وأجهز على جريحهم ، واقتل مُدْبرهم ، وإياك أن تُبْقِى عليهم ، وإن لم يعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير .

وروى ابن الجوزى من طريق المدائنى عن جويرية أن مسلما نظر إلى قتلى الحرة فقال : لَئِنْ دخلت النار بعدها إنى لَشَقِىٌّ [٤] ، وأسر أسرى فحبسهم ثلاثة

---

(١) الخول — بالتحريك — الخدم والعبيد .

(٢) من سورة الأحزاب من الآية ١٤ (٣) فى المطبوعات «أن تولى أمرهم غيرى» تطبيع (٤) فى المطبوعات «لأن دخلت النار بعدها ولا إنى لشق» تطبيع وانظر ص ١٣٦ .

أيام لم يطعموا ، وجاءوا بسعيد بن المسيب[1] فقالوا : بايع ، فقال : أبايع على سيرة أبي بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهدَ رجلٌ أنه مجنون ، فخلى عنه .

عدد القتلى في وقعة الحرة

وعن المدايني أيضاً عن شيخ من أهل المدينة قال : سألت الزهرى : كم كانت القتلى يوم الحرة ؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس قريش والأنصار والمهاجرين، ومن وجوه الموالى وممن لا يعرف من عبد وحر وامرأة عشرة آلاف ، وكانت الوقعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

وفى كتاب الحرة للواقدى قال : حدثنى عبد الله بن جعفر قال : سألت الزهرى : كم قتل من الناس يومئذ ؟ قال : أما من وجوه الناس فأكثر من سبعمائة من قريش والأنصار ووجوه الموالى، ثم عَدَّدَ علىّ من قتل حتى ما كنت أرى أنه بقى أحد إلا قتل يومئذ ، ثم قال الزهرى : ولقد قتل ممن لا يعرف من الموالى والعبيد والصبيان والنساء أكثر من عشرة آلاف ، ودخلوها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

قلت : وقال القرطبي لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، وعن الأقشهرى عن أبى معشر والواقدى أنها يوم الأربع لليلتين خلتا من ذى الحجة ، قلت : ولم أره فى كتاب الواقدى ، ولعله سبق قلم ، والله أعلم .

وذكر المجد أنهم سَبَوُا الذرية ، واستباحوا الفروج ، وأنه كان يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتى حملن: أولاد الحرة ، قال : ثم أُحْضِرَ الأعيان لمبايعة يزيد، فلم يرض إلا أن يبايعوه على أنهم عبيدُ يزيدَ ، فمن تلكأ أمر بضرب عنقه ، وجاءوا بعلى بن عبد الله بن عباس ، فقال الحصين بن نمير: يا معشر اليمن عليكم ابنَ أختكم ، فقام معه أربعة آلاف رجل، فقال لهم مسلم : أخلعتم أيديكم من الطاعة ؟ فقالوا : أما فيه فنعم ، فبايعه على أنه ابنُ عم يزيد ، انتهى .

وعن المدايني أيضاً عن محمد بن عمر قال : قال ذَكْوَان مولى مروان : شرب

(١) سعيد بن المسيب : رأس علماء التابعين وفردهم وفقيههم ، مات فى سنة ٩٣ ، وقال الواقدى : فى سنة ٩٤ من الهجرة .

مسلم بن عقبة دواء بعد ماأنهب المدينة ، ودعا بالغداء ، فقال له الطبيب : لاتَعْجَلْ فإني أخاف عليك إن أكلت قبل أن تكمل الدواء ، قال : ويحك ! إنما كنت أحبُّ البقاء حتى أشفى نفسي من قَتَلة عثمان ، فقد أدركت ما أردت ، فليس شيء أحب إلى من الموت على طهارتي ؛ فإني لا أشك أن الله قد طهَّرَني من ذنوبي بقتل هؤلاء الأرجاس .

قلت : هذامن عظيم حُمْقِه ، قاتله الله وأشقاه ! فإن هذا ممايزيد فى عظيم جرمه .

من قتل من الصحابة يوم الحرة

وممن قتل صبرا يومئذ من الصحابة : عبدُ الله بن حنظلة الغسيل ـ قال ابن حزم : قتل مع ثمانية من بنيه ـ وعبد الله بن زيد حَاكِى وضوء النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعقل بن سنان الأشجعي ـ وكان شهد فتح مكة ، وكان معه راية قومه يومئذ ـ وفيه يقول الشاعر :

ألا تلكمُ الأنصارُ تَبْكى سَرَاتَهَا   وأشْجَعُ تبكى مَعْقِلَ بن سِنَانِ

ومحمد بن عمرو بن حَزْم الأنصارى ، وقد ذكر ابن جرير الطبرى الإمام أن عبد الله بن الغسيل كان يقول :

بعداً لمن رام الفَسَادَ وطَغَى   وجانَبَ القَصْد وأسباب الهُدَى
لايبعِدِ الرحمن إلا مَنْ عَصَى

ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى ، وأبوه كان خطيبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وَرَدَ وَفْدُ تميم ، وجعل مسلم بن عقبة يطوف على القتلى ومعه مروان بن الحكم ، حتى مر على عبد الله بن الغسيل وهو مادٌّ أصبعَهُ السبَّابَةَ ، فقال مروان : أما والله لئن نَصَبْتَهَا ميتاً لطالما نصبتها حياً .

وروى عن محمد بن كعب القرظى[1] قال : قال مروان لعبد الله بن حنظلة

(١) فى المطبوعات «محمد بن كعب القرطبي» تطبيع ،ومحمد بن كعب القرظى ، أحد العلماء الأكابر ، مدنى ، كوفى ، قال ابن سعد : كان ثقة ورعا كثير الحديث ، مات فى سنة ١١٩ ، وقيل : فى سنة ١٢٠ من الهجرة .

الغسيل وقد رآه مشيرا بأصبعه وقد يبست : لئن أشَرْتَ بها ميتاً لطالما دَعَوْتَ وتضرعْتَ بها إلى الله تعالى ، فقال رجل من أهل الشام : إن كان هو[١] كما تقول فما دعوتنا إلا لقتل أهل الجنة ، فقال مروان : خالفوا ونكثوا .

وفى الذيل على ابن النجار للعراق : ذكر محمد بن سعد فى الطبقات أن مروان ابن الحكم كان يُحَرِّضُ مسلم بن عقبة على أهل المدينة ، وجاء معه معيناً له حتى ظفر بهم ، وانتهبت المدينة ، فلما قدم مروان على يزيد شكر له ذلك وأدناه .

وروى ابن الجوزى بسنده إلى سعيد بن المسيب قال : ما أصلى لله تعالى صلاة إلا دعوت على بنى مروان

و بسنده أيضا إليه قال : لقد رَأَيْتنِي ليالى الحرة ما فى المسجد أحَدٌ من خَلْق الله غيرى ، و إن أهل الشام لَيَدْخُلون زُمَراً يقولون : انظروا إلى هذا الشيخ المجنون ، ولا يأتى وقت صلاة إلا سمعتُ أذَاناً من القبر ، ثم أقيمت الصلاة فتقدمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى .

وبسنده أيضاً إلى المداينى عن أبى قرة قال : قال هشام بن حسان : وَلَدَتْ بعد الحرة ألفُ امرأةٍ من غير زَوْج .

وعن المداينى أيضاً عن أبى عبد الرحمن القرشى عن خالد الكندى عن عمته أم الهيثم بنة يزيد قالت : رأيت امرأة من قريش تطوف ، فعَرَض لها أسودُ فعانقته وقبلته ، فقلت : يا أمة الله ، أتفعلين هذا بهذا الأسود ؟ فقالت: هو ابنى ، وَقَع علىّ أبوه يوم الحرة .

ونقل العراق فى ذيله عن شيخه أبى المظفر السمعانى أنه روى بسنده إلى أبى غزية الأنصارى قال : كان قوم من أهل المدينة يجتمعون فى مجلس لهم بالليل يسهرُون فيه ، فلما قتل الناس قتلوا ونجا منهم رجل فجاء إلى مجلسه فلم يحسّ منهم أحداً ، ثم جاء الليلة الثانية فكذلك ، ثم جاء الثالثة فكذلك ، فتمثل بهذا البيت :

---

(١) فى المطبوعات « إن كان مولا كما تقول » تطبيع لا معنى له .

ألا ذَهَبَ الكُماةُ وخَلَّفُونِي ... كفى حَزَناً بذكرى للكماة

قال : فنودى من المجلس :

فَدَعْ عنك الكُماةَ فقد تَوَلَّتْ ... ونفسَكَ فابْكِها قبلَ المماتِ

فكلُّ جماعةٍ لابدَّ يوماً ... يُفَرِّقُ بينها شعبُ الشَّتَاتِ

وروى الطبرانى عن أبى هارون العبدى قال : رأيت أبا سعيد الخُدْرى رضى الله عنه مُمَعَّط اللحية [١] ، فقلت : تعبث بلحيتك ؟ قال : لا ، هذا مالقيتُ من ظَلَمَة أهل الشام ، دخلوا زَمَن الحرة ، فأخذوا ما كان فى البيتِ من متاع أو خُرْثِىّ [٢] ، ثم دخلت طائفة أخرى فلم يجدوا فى البيت شيئاً فأسفوا أن يخرجوا بغير شىء ، فقالوا : أضْجِعُوا الشيخ ، فجعل كل يأخذ من لحيتى خصلة .

حرق مسلم بن عقبة والخلاف فيه

وروى أيضا عن محمد بن سعيد خبرا قال فيه : فلما جاء يزيد خلافُ ابنِ الزبير ودعاؤه [٣] إلى نفسه دعا مسلم بن عقبة المرى وقد أصابه الفالج وقال : إن أمير المؤمنين — يعنى أباه — عهد إلىَّ فى مرضه إن رَابَنِى من أهل الحجاز رَيْبٌ أن أوجِّهك إليهم ، وقد رابنى ، فقال : إنى كما ظنَّ أميرُ المؤمنين ، أُعْقِدْ لى وعَبِّ الجيوش ، قال : فورد المدينة فأباحها ثلاثا ، ثم دعا إلى بيعة يزيد على أنهم أعْبُدٌ له قِنٌّ فى طاعة الله ومعصيته ، فأجابوه إلى ذلك ، إلا رجلا واحدا من قريش أمه أم ولد ، فقال له : بايع ليزيد على أنك عبدٌ فى طاعة الله ومعصيته ، قال : بل فى طاعة الله ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، فقتله ، فأقسمتْ أمه قسماً لئن أمكنها من مسلم حيًّا أو ميتاً أن تحرقه بالنار ، فلما خرج مسلم بن عقبة من المدينة اشتدَّتْ علتُه فمات ، فخرجت أم القرشى بأعْبُدٍ لها إلى قبر مسلم ، فأمرت به أن يُنْبَشَ من عند رأسه فلما وصلوا إليه إذا بثعبان قد التوى على عنقه قابضاً بأرْنَبَةِ أنفه يمصُّها ، قال : فَكَاعَ [٤] القوم عنه ، وقالوا : يامولاتنا انصرفى فقد كفاك الله شره ، وأخبروها ، فقالت : لأوفِيَنَّ الله بما وعدته ، ثم قالت : انبشوه من عند الرجلين ، فنبشوا ، فإذا

---

(١) ممعط اللحية : ساقط شعرها (٢) الخرثى : أردأ المتاع .

(٣) فى المطبوعات « ودعابة إلى نفسه » تطبيع (٤) كاعوا : نكصوا وتأخروا

بالثعبان لاوٍ ذنبه برجليه ، قال : فتنحَّتْ وصلَّتْ ركعتين ، ثم قالت : اللهم إنك تعلم [أنى] إنما غضبت على مسلم بن عقبة اليوم لك فخَلِّ بينى و بينه ، ثم تناولت عوداً فمضت إلى ذنب الثعبان فانسلَّ من مؤخر رأسه فخرج من القبر ، ثم أمرت به ؛ فأخرج من القبر ثم أحرق بالنار .

قلت : وفى كتاب الحرة للواقدى أن الثابت بالبلد عندنا أن مُسْرِفا لما دفن بثنية المشلَّل (٢) وكانت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن ربيعة تسير وراء العسكر بيومين أو ثلاثة حتى جاءها الخبر بذلك ، فانتهت إليه ، فنبشته ثم صلبته على المشلَّل (١) ، قال الضحاك : فحدثنى من رآه مَصْلوبا يُرْمَى كما يرمى قبر أبى رِغال (٢) .

وحدثنى عبدُ الرحمن بن أبى الزنادِ عن عبد الرحمن بن الحارث قال : والله ما خلصت إليه ، ولقد نبشت عنه ولـكنها لما انتهت الى لَحْدِهِ وجدت أسْوَدَ من الأساود مُنْطوِيا على رقبته فاتحا فاه ، فانصرفت عنه .

وقال ابن الجوزى : لما دخلت سنة أربع وستين ـ وقد فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ـ سار متوجها إلى مكة ، واستخلف على المدينة روح بن زنباع ، وسار إلى ابن الزبير ؛ فمات فى الطريق .

قلت : وذلك مِصْدَاق ماجاء فى مَنْ يقصد أهل المدينة بسوء ؛ فأهلـكه الله سريعاً .

قال القرطبى : أهلـكه الله مُنْصَرَفَهُ عن المدينة ، ابتلاه الله بالماء الأصفر فى بطنه ؛ فمات بقَدَيد بعد الوقعة بثلاث ليال .

وقال الطبرى : مات بِهَرْشَىٰ بعد الوقعة بثلاث ليـال ، وكان لحماقته الموفرة يقول عند موته : اللهم إنى لم أعمل عملا قَطُّ بعد شهادة أن لا إلٰهَ إلا الله أحب إلىَّ من قتال أهل المدينة ، ولئن دخلْتُ النار بعدها إنى لشقى ، ثم دعا حصين ابن نمير السكونى وقال له : أمير المؤمنين وَلَّاكَ بعدى ، فأسْرِعِ السير ، ولاتؤخر

---

(١) المشلل : جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر .

(٢) فى المطبوعات «أبى دغال» تطبيع ، وقبر أبى رغال فى طريق الطائف ، وانظر القاموس (رغل — غ م س) وفى شعر جرير يهجو الفرزدق :

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبى رغال

ابن الزبير ، وأمره أن يَنْصِبَ المجانيق على مكة ، وقال : إن تعوَّذوا بالبيت فارْمِهِ ، وحاصر مكة أربعة وستين يوما جرى فيها قتال شديد ، وقذفت الكعبة بالمجانيق يوم السبت ثالث ربيع الأول ، وأخذ رجل قَبَسًا فى رأس رُمْح فطارت به الريح فاحترق البيت ؛ فجاءهم نعى يزيد بن معاوية إهْلَالَ ربيع الآخر ، وكان بين الحرة وبين موته ثلاثة أشهر ، وقال القرطبى : دون ثلاثة أشهر ؛ لأنه توفى بالذبحة وذات الجنب فى نصف ربيع الأول ، فلقد ذاب ذَوْبَ الرصاص ، واجترأ أهلُ المدينة وأهلُ الحجاز على أهل الشام ، فذلوا حتى كان لاينفرد منهم رجل إلا أخذ بلجام دابته فنكس عنها ، فقال لهم بنو أمية : لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام ، ففعلوا ، ومضى ذلك الجيش حتى دخلوا الشام

وكانت وقعة الحرة ، وقتل الحسين ، ورمى الكعبة بالمنجنيق مِن أشْنَع شىء جرى فى أيام يزيد .

وقال عبد الرحمن بن سعيد بن زيد أحد العشرة رضى الله عنهم :

فإن تَقْتُلونا يوم حَرَّةِ وَاقِمٍ ... فنحنُ على الإسلام أولُ مَن قُتِلْ .
ونحن قتلناكم ببَدْرٍ أذلةً ... وأُبْنَا بأسلاب لنا منكم نَفَلْ
فإن يَنْجُ منها عائذُ البيت سالمًا ... فَكلُّ الذى قد نابنا منكم جَلَلْ[1]

يعنى بعائذ البيت عبدَ الله بن الزبير .

وهذه الكائنة غير الإغزاء المذكور فى حديث البيداء ؛ ولهذا روى ابنُ شبة عن أبى المهزم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : يجىء جيش مِنْ قِبَل الشام حتى يدخل المدينة ، فيقتلون المقاتلة ، ويَبْقُرون بطون النساء ، ويقولون : الحبلى فى البطن : اقتلوا صُبَابة الشر ، فإذا علَوُا البيداء من ذى الحُلَيفة خسف بهم فلا يدرك أسفلهم أعلاهم ولا أعلاهم أسفلهم ، قال أبو المهزم : فلما جاء جيشُ ابن ذبحة قلنا : هم ، فلم يكونوا هم[2] .

---

(١) جلل ، هنا : بمعنى يسير سهل ، وهو من الأضداد .
(٢) فى هذا الخبر ألفاظ لم يستقم لى أمرها .

قلت : وقد جاء فى بعض الأخبار بيان أن ذلك الجيش جيش السفيانى ، يبعثه لقتال المهدى .

وقال يحيى بن سعيد : لم تترك الصلاة فى هذا المسجد منذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة أيام : يوم قتل عثمان ، و يوم الحرة ، قال مالك : ونسيت الثالث ، وفى العُتْبِية عن مالك أنه بلغه ذلك عن سعيد بن المسيب بمعناه ، قال ابن رشد : واليوم الثالث الذى ذكر مالك أنه نسيه ، قال محمد بن عبد الحكم : هو يوم خرج به أبو حَمْزَة الخارجى، وكان خروجه ـ فيما ذكروا ـ فى دولة مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية .

مسير أبى حمزة إلى المدينة

قال خليفة بن خياط[1] : سار أبو حمزة فى أول سنة ثلاثين ومائة ، يُرِيدُ المدينةَ ، واستخلف على مكة إبراهيم بن الصباح الحميرى ، وجعل على مُقَدِّمته فلح بن عقبة السعدى ، وخرج أهل المدينة والتقوا بقُدَيد يوم الخميس لتسع خلون من صفر سنة ثلاثين ومائة ، وفلح فى ثلاثين ألف فارس ، فقال لهم : خَلُّوا طريقنا فنأتى هؤلاء الذين بَغَوْا علينا وجاروا فى الحكم فإنا لا نريد قتالكم ، فأبوا ؛ فقاتلوهم فانهزم أهل المدينة ، وجاءهم أبو حمزة فقال له على بن الحصين : اتبع هؤلاء القوم ، وأَثْخِنْ على جريحهم ، فإن لكل زمان حكما ، والإثخان فى مثل هؤلاء أَمْثَلُ ، قال : ما أرى ذلك ، ومضى أبو حمزة إلى المدينة فدخلها يوم الاثنين لثلاث عشر خلت من صفر ، ففى يوم دخوله إياها ـ والله أعلم ـ خُلِّيَ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم من أن يجمع فيه ، وأصيب من قريش يومئذ ثلثمائة رجل ، ومن آل الزبير اثنا عشر رجلا ، فما سمع الناس بَوَاكِيَ أوجع للقلوب من بواكى قُدَيْد ، ما بقى بالمدينة أهل بيت إلا فيهم بكاء ، وقالت نائحة تبكيهم :

ما للزمان وَمَا لِيَهْ ... أفنى قديد رِجَالِيَهْ
فلأبكينَّ سَرِيرَةً ... ولأبكين عَلَانِيَهْ

---

(١) انظر خبر هذه الوقعة فى تاريخ الطبرى (١٠٦/٩ ط الحسينية) وتاريخ ابن الأثير (١٥٧/٥) والبداية لابن كثير (٣٥/١٠) والنجوم الزاهرة (٣١١/١) .

قلت : وذكر الذهبيُّ عن خليفة بن خياط فى خبر أبى حمزة هذا ما ملخصه : أن عبد الله بن يحيى الأعور الكندى المسمى طالب الحق ـ بعد أن ملك حضرموت وصنعاء ـ بعث إلى مكةَ أبا حمزة الخارجى الأباضى المذكور ، فخاف عبدُ الواحد ابن سليمان بن عبد الملك ـ وكان والياً على مكةَ والمدينةِ ـ وخذلهُ أهلُ مكة ، ففارقها فى النفرِ الأول ، وقصد المدينة ، فغلب أبو حمزة على مكة ، ثم سار منها بعد أن استخلف عليها ، فَلَقِيَ بقُدَيد الجيشَ الذى أرسله عبدُ الواحد بن سليمان لقتاله ، فظفر أبو حمزة ، وسار إلى المدينة فدخلها ، وقتل فيها جماعة منهم أربعون رجلا من بنى عبد العزى ، وجهز إليه مروان عسكرا ، فلقِيَ بوادى القرى فالحا ، وهو على مقدمة أبى حمزة ، فاقتتلوا ، فقتل فلح وعامة أصحابه ، ثم أدركوا أبا حمزة بمكة ، فقتلوه فى خلق من أصحابه ، ثم ساروا لطالب الحق فقتلوه ، انتهى ملخصا .

قلت : ويحتمل أنَّ مَا نقل عن الأخباريين فى الخروج من المدينة إنما كان فى هذه الكائنة أو قبل ذلك كله فى كائنة بُسْر (١) بن أرطاة ، فإن القرطبى قال : وذكر أبو عمرو الشيبانى قال : لما وجَّه معاوية رضى الله عنه بسر بن أرطاة لقتل شيعة على رضى الله عنه سار إلى أن أتى المدينة ، فقتل ابنى عبيد الله بن العباس رضى الله عنهما ، وفر أهلُ المدينة حتى دخلوا الحرة حرة بنى سُلَيم ، ولكنه بعيد ، والأقرب ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل السادس عشر

فى ظهور نار الحجاز التى أنذر بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فظهرت بأرض المدينة وأطفأها الله تعالى عند وصولها إلى حرمها ، كما سنوضحه .

الأحاديث الواردة فى هذه النار

روينا فى مسند أحمد برجال ثقاتٍ عن أبى ذر قال : أقبلنا مع رسول الله صلى

---

(١) فى المطبوعات كلها «بشر بن أرطاة» بالشين المعجمة ـ تطبيع .

الله عليه وسلم ، فرأينا ذا الحليفة ، فتعجَّلَ رجالٌ إلى المدينة ، وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبتنا معه ، فلما أصبح سأل عنهم ، فقيل : تعجلوا إلى المدينة، فقال : « تعجَّلُوا إلى المدينة والنساء ، أما إنهم سَيَدَعُونها أحْسَنَ ما كانت » ثم قال : « ليت شعرى متى تخرج نار بأرض اليمن من جبل الوراق تضيء منها أعناقُ الإبل ببُصْرَى بروكا كضوء النهار » ورواه ابن شبة من غير ذكر « بأرض اليمن » ولفظه « ليتركُنها أحْسَنَ ما كانت ، ليت شعرى متى تخرج نار من جبل الوراق تضيء لها أعناق الإبل ببُصْرَى بروكا كضوء النهار » .

وأخرج الطبرانى فى آخر حديث لحذيفة بن أسد : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان — أو ركوبة — تضيء منها أعناق الإبل ببُصْرَى » .

قلت : وركوبة كما سيأتى: ثنية قريبة من ورقان ، ولعله المراد بجبل الوِراق ، قال الحافظ ابن حجر : ورومان لم يذكره البكرى ؛ ولعل المراد رومة البئر المعروفة بالمدينة ، ثم نقل عن البكرى أن ركوبة بين المدينة والشام ، وسيأتى رده .

وهذه النار مذكورة فى الصحيحين فى حديث « لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز » ، ولفظ البخارى : « تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » .

وروى الطبرانى بسند فيه ضعيف عن عاصم بن عدى الأنصارى قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حِدْثَانَ ما قَدِمَ ، فقال : « أين حُبْسُ سيل[1] ؟ » قلنا : لا ندرى ، فمر بى رجل من بنى سُلَيم ، فقلت : من أين جئت ؟ فقال : من حُبْسِ سيل[1] ، فدعوت بنعلى ، فانحدرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، سألتنا عن حبس سيل[1] ، فقلنا : لا علم لنا به ، وإنه

(١) فى المطبوعات كلها كما فى خلاصة الوفا « حبس وسيل » تطبيع ، والصواب بغير واو كما فى مجمع البحار ، ومعجم البلدان ، ونهاية ابن الأثير ، وقع فيما سيأتى (فى ص ١٤٢) على الصواب ، واقرأ الهامشة الآتية فى ص ١٤١ .

مرَّ بى هذا الرجل فسألته فزعم أن به أهله ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أين أهلك » ؟ فقال : بحبس سيل[1] ، فقال: «أَخْرِجْ أَهْلَكَ منها ؛ فإنه يُوشِكُ أن تخرج منه نار تضيء أعناق الإبل ببصرى » .

وحديث «يوشك نار تخرج من حبس سيل[1] تسير سَيْرَ بطيئةِ الإبل ، تسير النهار وتقيم الليل » الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية رافع بن بشير السلمى عن أبيه . قال الحافظ الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير رافع ، وهو ثقة ، انتهى .

وفى مسند الفردوس عن عمر حديث «لا تقوم الساعة حتى يسيل وادٍ من أودية الحجاز بالنار يضيء له أعناق الإبل ببصرى » وأخرجه ابن عدىّ فى كامله من طريق عمر بن سعيد التنوخى عن ابن شهاب عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رفعه ، وعمر بن سعيد ذكرهُ ابن حبان فى الثقات ، وكتبه ابن عدى والدارقطنى

بيان أن المدينة يمانية كما أنها حجازية

وقد ظهرت هذه النار بالمدينة الشريفة كما سنبينه ، ولا إشكال فى كون المدينة حجازية ، وأما كونها يمانية فقد نص عليه الشافعى . قال البيهقى فى المعرفة : قال الشافعى : ومكة والمدينة يمانيتان . قلت : وقد ذكر الشافعى فى الأم حديث « أتاكم أهلُ اليمن هم ألْيَنُ قلوبا » الحديثَ ، ثم روى « أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف على ثنية تَبُوكَ فقال : ما ههنا شام ، وأشار بيده إلى جهة الشام ، وما ههنا يَمَنٌ ، وأشار بيده إلى جهة المدينة » هكذا نقلته من الأم بهذا اللفظ ، وهو فى مسند الشافعى بلفظ « ماههنا شام ، وأشار بيده إلى الشام ، ومن هُهُنَا يمن ، وأشار بيده إلى جهة المدينة » قال ابن الأثير فى شرحه : الغرض منه بيانُ حد الشام واليمن ، وقد جعل المدينة من اليمن ، اهـ . والعجب أن النووى قال فى فتاويه :

(١) فى المطبوعات «حبس وسيل» والصواب « حبس سيل » بغير واو ، قال ياقوت : قال الزمخشرى : الحبس ـ بالضم ـ جبل لبنى قرة ، وقال غيره : الحبس بين حرة بنى سليم والسوارقية ، وفى حديث عبدالله بن حبشى : تخرج نار من حبس سيل ، قال أبو الفتح نصر : حبس سيل ـ ورواه بالفتح ـ إحدى حرتى بنى سليم ، وهما حرتان بينهما فضاء كلتاهما أقل من ميلين ، اهـ . وانظر أيضا النهاية لابن الأثير (١/١٩٦) .

مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست يمانية ولاشامية ، بل هى حجازية ، قال : وهذا لا خلاف فيه بين العلماء ، وكأنه لم يقف على هذا

وأما حبس سيل فقد قيل : إن حبس ـ بالضم ثم السكون ـ بين حرة بنى سليم والسوارقية ، وقد كان إقبال هذه النار من المشرق فى جهة طريق السوارقية كما سيأتى ، وقال نصر : حبس سيل ـ بالفتح ـ إحدى حرتى بنى سليم . قلت : وأهـل المدينة اليوم يسمون السد الآتى وصفهُ فيما أحدثته هـذه النار بالحبس . وفى كلام ياقوت ما يقتضى أنه كان يسمى بالسد قبل هذه النار ؛ فإنه لم يذْكرها ، ومع ذلك قال : إن أعْلى وادى قناة عند السد يسمى بالشظَاة ، اهـ .

وظهور النار المذكورة بالمدينة الشريفة قد اشتهر اشتهارا بلغ حد التواتر عند أهل الأخبار ، وكان ظهورها لإنذار العباد بما حدث بعدها ؛ فلهذا ظهرت على قرب مرحلة من بلد النـذير صلوات الله وسلامه عليـه ، وتقدمها زلازل مهولة ، وقد قال تعالى: « وما نُرْسِلُ بالآيات إلاتخويفا[1] » وقال تعالى : « ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون[2] » ولما ظهرت النار العظيمة الآتى وصفها ، وأشفق منها أهل المدينة غاية الإشفاق ، والتجؤا إلى نبيهم المبعوث بالرحمة ، صُرِفَتْ عنهم ذاتَ الشمال ، وزاحت عنهم الأوجال ، وظهرت بركة تربته صلى الله عليه وسلم فى أمته ، ولعل الحكمة فى تخصيصها بهذا المحل ـ مع ما قدمناه من كونه حضرة النذير ـ الرحمة لهذه الأمة فإنها لو ظهرت بغيره وسلطان القهر والعظمة التى هى من آثاره قائم لربما استولَتْ على ذلك القطر ولم تجد صارفا ؛ فيعظم ضررها على الأمة ، فظهرت بهذا المحل الشريف لحكمة الإنذار ، فإذا تمت قابلتها الرحمة فجعلتها بَرْداً وسلاما ، إلى غير ذلك من الأسرار

ابتداء الزلزلة التى حدثت بالمدينة

وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة الشريفة مُسْتهَلَّ جُمَادى الآخرة أوآخر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين وستمائة ، لكنها كانت خفيفة لم يدركها بعضهم مع تكررها بعد ذلك ، واشتدت فى يوم الثلاثاء على ما حكاه القطب القسطلانى ،

(١) من سورة الإسراء من الآية ٥٩ (٢) من سورة الزمر من الآية ١٦ .

وظهرت ظهورا عظيما اشترك فى إدراكه العامُّ والخاصُّ ، ثم لما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر أو رابعه فى الثلث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشفق الناس منها ، وانزعجت القلوب لهيبتها ، واستمرت تزلزل بقية الليل ، واستمرت إلى يوم الجمعة ولها دوىٌّ أعظم من الرعد ، فتَمُوجُ الأرض ، وتتحرك الجدارات ، حتى وقع فى يوم واحد دون ليلِهِ ثمانية عشر حركة على ما حكاه القسطلانى

وقال القرطبى : قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة ، وكان بدؤها زلزلة عظيمة فى ليلة الأربعاء بعد العَتَمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ، واستمرت إلى ضُحَى النهار يوم الجمعة فسكنت ، وظهرت بقريظه بطرف الحرة ، ترى فى صفة البلد العظيم ، عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومواذن ، وترى رجال يقودونها ، لا تمر على جبل إلا دكَّته وأذابته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوىّ كدوىّ الرعد ، يأخذ الصخور بين يديه ، وينتهى إلى محط الركْبِ العراق ، واجتمع من ذلك رَدْم صار كالجبل العظيم ، فانتهت النار إلى قرب المدينة ، ومع ذلك فكان يأتى المدينةَ نسيمٌ بارد ، وشوهد لهذه النار غَلَيان كغَلَيَان البحر ، وقال لى بعض أصحابنا : رأيتها صاعدة فى الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رُؤِيت من مكة ومن جبال بُصْرَى ، اهـ .

وقال النووى : تواتر العلمُ بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضى المدينة الشريفة وغيره أن فى ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة فى الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت فى تلك الليلة تزلزل ، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشر مرات — وفى كتاب بعضهم أربعَ عشرةَ[1] مرة — قال : والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلى أن سمعنا منه صوتا للحديد الذى فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، زاد القاشانى : ثم فى اليوم الثالث — وهو يوم الجمعة — زلزلت الأرض زلزلة عظيمة ، إلى أن اضطربت منام

---

(١) فى الأصل «أربعة عشر مرة» والعربية تقتضى ما أثبتناه .

المسجد، وسمع لسقف المسجد صرير[١] عظيم، قال القطب : فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار، فثار من محل ظهورها فى الجود ُخانٌ متراكم غشى الأفُقَ سواده، فلما تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطَع شعاعُ النار، فظهرت مثل المدينة العظيمة فى جهة المشرق ، والحكمة فى ظهورها فى يوم الجمعة غير خافية، ففى الحديث « من أفضل أيامكم يوم الجمعة: فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على » الحديث، وفى الحديث أيضاً « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تِيبَ عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهى مُصِيخة[٢] حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » رواه أبو داود، وهو اليوم الذى أُدخره الله لهذه الأمة، وأكمل فيه دينهم ؛ فأراد الله أن يخوف عباده فيه بذلك ليردهم إليه، فتلك النار نعمة فى صورة نقمة، ولهذا وجِلَتْ[٣] منها القلوب وأشفقت، وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم. قال القاضى سنان : وطلعت إلى الأمير ـ وكان عز الدين منيف بن شيحة ـ وقلتُ له: قد أحاط بنا العذاب، ارْجِعْ إلى الله، فأعْتَقَ كلَّ مماليكه، وردَّ على الناس مظالمهم ـ زاد القاشانى : وأبطل المكس ـ ثم هبط الأمير للنبى صلى الله عليه وسلم، وبات فى المسجد ليلة الجمعة وليلة السبت، ومعه جميعُ أهل المدينة حتى النساء والصغار، ولم يبق أحد فى النخل إلا جاء إلى الحرم الشريف، وبات الناس يتضرعون ويبكون، وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤسَهم مُقِرِّين بذنوبهم مبتهلين مستجيرين بنبيهم صلى الله عليه وسلم. قال القطب : ولما عاين أميرُ المدينة ذلك أقلع عن المخالفة، واعتبر، ورجع عما كان عليه من المظالم وانزجر، وأظهر التوبة والإنابة، وأعتق جميع مماليكه، وشرع فى رد المظالم، وعزم أهلُ المدينة

---

(١) الصرير : الصوت (٢) مصيخة : منصتة .
(٣) وجلت القلوب توجل : خافت أشد الخوف .

على الإقلاع عن الإصرار وارتكاب الأوزار ، وفَزِعُوا إلى التضرع والاستغفار ، وهبط أميرهم من القلعة مع قاضيهم الشريف سنان وأعيان البلد ، والتجؤا إلى الحجرة الشريفة ، وباتوا بالمسجد الشريف بأجمعهم حتى النساء والأطفال ؛ فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال ، ونجوا من الأوجال ، فسارت تلك النار من مَخْرجها وسالت ببحر عظيم من النار ، وأخذت فى وادى أُحَيْلِيَين وأهلُ المدينة يشاهدونها من دورهم كأنها عندهم ، ومالت من مخرجها إلى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكره المؤرخون .

مدة النار

وذكر القطب القسطلانى[1] فى كتابٍ أفرده لهذه النار ، وهو ممن أدركها ، لكنه كان بمكة فلم يشاهدها : أن ابتداءها يوم الجمعة السادس من شهر جمادى الآخرة ، وأنها دامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب ، ثم خمدت ، فجملة ما أقامت اثنان وخمسون يوماً ، لكنه ذكر بعد ذلك أنها أقامت منطفية أياماً ، ثم ظهرت ، قال : وهى كذلك تسكن مرة وتظهر أخرى ؛ فهى لا يؤمن عَوْدُها ، وإن طفىء وقودها ، انتهى ؛ فكأن ما ذكره المؤرخون من المدة باعتبار انقطاعها بالكلية ، وطالت مدتها ليشتهر أمرها فينزجر بها عامة الخلق ويشهدوا من عظمها عنوان النار التى أنذرهم بها حبيب الحق .

قوة النار

وذكر القسطلانى[1] عمن يثق به أن أمير المدينة أرسل عدة من الفرسان إلى هذه النار للاتيان بخبرها ، فلم تجسر الخيل على القرب منها ، فترجَّلَ أصحابُها وقربوا منها ، فذكروا أنها ترمى بشرَرٍ كالقَصْر ، ولم يظفروا بجلية أمرها ، فجرد عزمه للاحاطة بخبرها ، فذكر أنه وصَل منها إلى قدر غَلْوتين بالحجر ولم يستطع

(١) من نافلة القول أن ننبه هنا إلى أن قطب الدين القسطلانى الذى ينقل عنه المؤلف غير شهاب الدين القسطلانى شارح البخارى ؛ فإن شارح البخارى متأخر عن المؤلف ؛ إذ وفاة شارح البخارى فى سنة ٩٢٣ — ويقال : ٩٢٢ من الهجرة — وذلك بعد وفاة السمهودى بأحد عشر ، أو — اثنى عشر — عاما ، ثم إن النار كانت فى سنة ٦٥٤ ، والقسطلانى المنقول عنه قد أدركها ، والمؤلف يصرح فى غير موضع بذلك .

أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله ما يتصاعد من اللهب ، فعاين ناراً كالجبال الراسيات ، والتلال المجتمعة السائرات ، تقذف بزَبَد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج ، وعَقَد لهيبُهَا فى الأفق قتاما حتى ظن الظان أن الشمس والقمر كسفا إذ سُلبا بهجةَ الإشراق فى الآفاق ، ولولا كفاية الله كَفَتْها لأكلت ما تُقْدِم عليه من الحيوان والنبات والحجر ، انتهى .

وذكر الجمال المطرى ما يخالف بعض هذا ؛ فإنه قال : أخبرنى علم الدين سنجر العِزْىُّ من عتقاء الأمير عز الدين منيف بن شيحة صاحب المدينة قال : أرسلنى مولاى الأمير عز الدين بعد ظهور النار بأيام ، ومعى شخص من العرب ، وقال لنا ونحن فارسان : أقربا من هذه النار ، وانظرا هل يقدر أحد على القرب منها ، فإن الناس يهابونها لعظمها ، فخرجت أنا وصاحبى إلى أن قربنا منها ؛ فلم نجد لها حراً ، فنزلت عن فرسى ، وسرت إلى أن وصلت إليها ، وهى تأكل الصخر والحجر ، فأخذت سهماً من كنانتى ، ومددت به يدى إلى أن وصَلَ النصلُ إليها فلم أجد لذلك ألماً ولا حراً ، فَعَرِق النصل ولم يحترق العود ، فأدَرْتُ السهمَ وأدخلت فيها الريش فاحترق الريش ولم يؤثر فى العود .

وذكر المطرى قبل ذلك أنها كانت تأكل كلَّ ما مرت عليه من جبل وحجر ، ولا تأكل الشجر ، قال : وظهر لى فى معنى ذلك أنه لتحريم النبى صلى الله عليه وسلم شَجَرَ المدينة ؛ فمنعت من أكل شجرها لوجوب طاعته صلى الله عليه وسلم على كل مخلوق .

قلت : وذكر القسطلانى أن هذه النار لم تزل مارة على سبيلها حتى اتصلت بالحرة ووادى الشَّظَاة ، وهى تَسْحَقُ ماوَالَاها[1] ، وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى من قوة اللظى ، وأن طرفها الشرقى أخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت ، وأن طرفها الشامى — وهو الذى يلى الحرم — اتصل بجبل يقال له وعيرة

(١) والاها : دنا منها ، وفى المطبوعات « ماوالها » تطبيع .

على قرب من شرقي جبل أحد ، ومَضَتْ فى الشَّظَاة الذى فى طرفه وادى حمزة رضى الله عنه ، ثم استمرت حتى استقرت تُجاه حرم النبى صلى الله عليه وسلم فطفئت ، قال : وأخبرنى شخص أعتمد عليه أنه عاين حجراً ضخماً من حجارة الحرة كان بعضهُ خارجاً عن حد الحرم ، فعلقت بما خرج منه ، فلما وصلت إلى ما دخل منه فى الحرم طفئت وخمدت ، انتهى .

وهذا أولى بالاعتماد من كلام المطرى ؛ لأن المطرى لم يدرك هذه النار وإن أدْرَكَ مَنْ أدركها ، بخلاف القطب فإنه أدركها ، واعتنى بجمع أخبارها ، وأفردها بالتصنيف ، ولم يقف عليه المطرى ، وهذا أبلغ فى الإعجاز ، حيث لم تدخل هذه النار حرمه الشريف ؛ إذ هى للانذار والتخويف وهو نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم .

ضوء النار

وقد نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب القاضى سنان الحسينى أن سيل النار انحدر مع وادى الشَّظَاة حتى حاذى جبل أحد ، وكادت النار تقارب حرة العريض وخاف الناس منها خوفا عظيما ، ثم سكن قتِيرُها الذى يلى المدينة ، وطفئت مما يلى العريض بقدرة الله تعالى ، فرجعت تسير فى الشرق ، وهو مؤيد لما ذكره القطب ، ومشاهدة آثارها اليوم تقضى بذلك .

قال المطرى : وأخبرنى بعض من أدركها من النساء أنهن كن يغزلن على ضوئها بالليل على أسطحة البيوت بالمدينة الشريفة .

وقال القسطلانى : إن ضوءها استوى على ما بَطَن من القيعان (١) ، وظهر من القلاع ، حتى كأن الحرم النبوى عليه الشمس مشرقة ، وجملة أماكن المدينة بأنوارها محدقة ، ودام على ذلك لهبها حتى تأثر له النيّران ، وصار نور الشمس على الأرض تعتريه صُفْرة ، ولونها من تصاعد الالتهاب يعتريه حمرة ، والقمر كأنه قد كسف من اضمحلال نوره ، قال : وأخبرنى جمع ممن توجه للزيارة على طريق

---

(١) القيعان : جمع قاع ، وهو أرض سهلة مطمئنة .

المشيان أنهم شاهدوا ضوءها على ثلاثة مراحل للمجدّ ، وآخرون أنهم شاهدوها من جبال ساية .

قلت : نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضى المدينة أن هذه النار رؤيت من مكة ومن الفَلاَة جميعها ، ورآها أهل ينبع .

قال أبو شامة : وأخبرنى بعضُ مَنْ أثق به ممن شاهدها بالمدينة أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب .

وقال المجد : والشمس والقمر فى المدة التى ظهرت بها ما يطلعان إلا كاسفين .

قال أبو شامة : وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الحيطان ، وكنا حيَارَى من سبب ذلك ، إلى أن بلغنا الخبرُ عن هذه النار ، وكل من ذكر هذه النار يقول فى آخر كلامه : وعجائب هذه النار وعظمتها يَكِلُّ عن وصفها البنان والأقلام [١] ، وتجل عن أن يحيط بشرحها البيان والكلام ؛ فظهر بظهورها معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لوقوع ما أخبر به وهى هذه النار ؛ إذ لم تظهر من زمنه صلى الله عليه وسلم قبلها ولا بعدها نار مثلها .

هل رؤيت النار ببصرى

وقال القسطلانى : إنْ جاء مَنْ أخبر برؤيتها ببُصرى فلا كلام ، وإلا فيحتمل أن يكون ذكر ذلك فى الحديث على وجه المبالغة فى ظهورها ، وأنها بحيث تُرَى ، وقد جاء مَنْ أخبر أنه أبصرها بتَيماء ، وبصرى منها مثل ما هى من المدينة فى البعد .

قلت : قد تقدم عن القرطبى أنه بلغه أنها رؤيت من جبال بصرى ، وصرح الشيخ عماد الدين بن كثير بما يقتضى أنه أضاءت من هذه النار أعناقُ الإبلِ ببصرى ، فقال : أخبرنى قاضى القضاة صدرُ الدين الحنفى قال : أخبرنى والدى الشيخُ صفى الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غيرُ واحد من الأعراب

(١) يكل : يضعف ويعجز .

صبيحةَ الليلة التي ظهرت فيها هـذه النار ممن كان يحاضره ببلد بصرى أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم في ضـوء تلك النار ، فقد تحقق بذلك أنها الموعودُ بها ، والحكمة في إنارتها بالأماكِنِ البعيدة من هذا المظهر الشريف حصولُ الإنذار ، ليتم به الانزِجار ، كما اتفق لأهل المدينة ، وفي هذا المعنى يقول قائلهم :

يا كاشفَ الضُّرِّ صَفْحًا عن جرائمنا لقد أحاطت بنا يا ربِّ بأساء
نشكو إليك خطوبًا لا نُطيق لها حَمْـلًا ونحن بها حقا أحِقَّاء(١)
زلازلًا تخشع الصُّمُّ الصِّلَابُ لها وكيف تَقْوَى على الزلزال شَمَّاء(٢)
أقام سبعا يرجُّ الأرضَ فانصدعت عن منظر منه عينُ الشمس عَشْوَاء
بحرٌ من النار تجرى فوقه سُفُن من الهِضَاب لها في الأرض إرساء
ترى لها شَرَرا كالقَصْر طائشة كأنها دِيمَـةٌ تنصبُّ هَطْلَاء
تنشقُّ منها بيوتُ الصخر إن زَفَرَت رُعْبًا ، وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثفَ في الجو الدخانُ إلى أن عادَتِ الشمسُ منه وهي دَهْمَاء
قد أثرت سعفة في البـدر لفحتها فليلة التم بعد النور عمياء
تحدثِ النيراتِ السبعَ ألسنُها بما تلاقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج إلى أن صار يلفحها بالأرض أهواء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت منا الذنوب وساء القلبَ أسواء
فاسْمَحْ وهَبْ وتفضلْ بالرضى كرما وارحم فكلٌّ لفرط الجهل خَطَّاء
فقوم يونس لما آمنوا كشف التـعذيب عنهم وعَمَّ القوم نعماء
ونحن أمة هذا المصطفى ، ولنا منه إلى عفوك المرجو دَعَّاء
هذا الرسول الذي لولاه ما سلكت محجة في سبيل الله بيضاء
فارحم وصَلِّ على المختار ما خطبت على علا منبر الأوراق وَرْقَاء

(١) أحقاء : جمع حقيق ، ومعناه مستحق

(٢) شماء : أراد الجبال .

مبدأ ظهور النار

قال المؤرخون : وكان ظهورهذه النار من صدر وادٍ يقال له وادى الأحيليين وقال البدر ابن فرحون : إنها سالت فىوادى أحيليين ، وموضعها شرقى المدينةعلى طريق السوارقية مسيرة من الصبح إلى الظهر .

قال القطب القسطلانى : ظهرت فى جهة المشرق على مرحلة متوسطة من المدينة فى موضع يقال له قارع الهيلاء على قرب من مساكن قريظة شرق قباء ، فهى بين قريظة وموضع يقال له أحيليين ، فثارت من هذا القاع ، ثم امتدت فيه آخذةً فى الشرق إلى قريب من أحيليين ، ثم عرجت واستقبلت الشام سائلة إلىأن وصلت إلى موضع يقال له قُرين الأرنب بقرب من أُحُدٍ ، فوقفت وانطفت وانصرفت ، انتهى .

من فوائد هذه النار

قال المؤرخون : واستمرت هذه النار مدة ظهورها تأكل الأحجار والجبال، وتسيل سيلا ذَريعاً فى وادٍ يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف ، وهى تجرى على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل الآنُكِ(١)، فإذا خمد اسودّ بعدأن كان أحمر ، ولم يزل يجتمع من هذه الحجارة المُذَابة فى آخر الوادى عند منتهى الحرة حتى قطعت فى وسط وادى الشَّظَاة إلى جهة جبل وَعِيرة ، فسدّت الوادىَ المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار ولا كسد ذى القرنين ، يعجز عن وصفه الواصف ، ولا مَسْلَكَ لإنسان فيه ولا دابة .

قلت : وهذا من فوائد إرسال هذه النار ؛ فإن تلك الجهة كثيراً ما يطرق منها المفسدون لكثرة الأعراب بها ؛ فصار السلوك إلى المدينة متعسراً عليهم جداً .

قال القسطلانى : أخبرنى جمع ممن أركَنُ إلى قولهم أن النار تركت على الأرض من الحجر ارتفاع رمح طويل على الأرض الأصلية .

---

(١) الآنك ـ بمد الهمزة وضم النون ـ الرصاص ، وهو مفرد وليس بجمع

قال المؤرخون : وانقطع وادى الشظاة بسبب ذلك ، وصار السيل إذا سال ينحبس خلف السد المذكور حتى يصير بحراً مَدَّ البصر عرضاً وطولا(١) ، فانخرق من تحته فى سنة تسعين وستمائة لتكاثر الماء من خلفه ، فجرى فى الوادى المذكور سنتين كاملتين ، أما السنة الأولى فكان قد ملأ ما بين جانبى الوادى ، وأما الثانية فدون ذلك ، ثم انخرق مرة أخرى فى العشر الأول بعد السبعمائة فجرى سنة كاملة أو أزيد ، ثم انخرق فى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وكان ذلك بعد تواتر أمطار عظيمة فى الحجاز ، فسكثر الماء وعلا من جانبى السد ومن دونه مما يلى جبل وَعِيرة وتلك النواحى ، فجاء سيلٌ طامٍ لا يوصف ، ولو زاد مقدار ذراع فى الارتفاع وصل إلى المدينة ، وكان أهل المدينة يقفون خارج باب البقيع على التل الذى هناك فيشاهدونه ويسمعون خَرِيراً تَوْجَل القلوب دونه ، فسبحان القادر على ما يشاء !.

النذر الحادثة فى عام النار والذى يليه

ومن العجائب أن فى السنة التى ظهرت فيها هذه النار احترق المسجد الشريف النبوى(٢) بعد انطفائها كما سيأتى ، وزادت دجلة زيادة عظيمة فغرق أكثر بغداد وتهدمت دار الوزير ، وكان ذلك إنذاراً لهم ، وليتهم اتَّعَظُوا .

ثم فى أول السنة التى تلى هذه السنة وقعت الطامة الكبرى ، وهى أخذ التتار لبغداد وقتلُ الخليفة المستعصم وبعده المسلمون ، وبذل السيف ببغداد نيفاً وثلاثين يوما ، وأخرجت الكتب فألقيت تحت أرجل الدواب ، وشوهد بالمدرسة المستنصرية معالف الدواب مبنية بالكتب موضع اللَّبِن(٣) ، وخَلَتْ بغداد من أهلها ، واستولى عليها الحريق عَلَى ما ذكره سعيد الذهلى ، واحترقت دار الخلافة ، وعم الحريق أكثر الأماكن حتى القصور البرانية وترب الرصافة مدفن ولاة الخلافة ، وشوهد على بعض حيطانٍ منها مكتوب :

---

(١) وهو اليوم غدير يسمى بالعاقول (مكى) .

(٢) هذا هو الحريق الأول

(٣) اللبن ـ بفتح اللام وكسر الباء ـ الطوب النيء .

إن تردْ عِبْرةً فهذى بنو العـــباس دارتْ عليهمُ الدائراتُ
اسْتُبيحَ الحريمُ إذ قتـل الأحيـــاء منهم وأُحْرِقَ الأمواتُ

ثم كثر الموت والفناء ببغداد ، وطوى بساط الخلافة منها من ذلك الزمان ، فلله الخلق والأمر ! .

وقد نظم بعضهم خروج هذه النار وغرق بغداد ، وأصلحه أبو شامة منبها على أن الأمرين فى سنة بقوله :

سبحان من أصبحَتْ مشيئتُه جاريةً فى الورى بمقـــدار
فى سنةٍ أغرق العِرَاقُ ، وقد أحرق أرضُ الحجاز بالنار

بعض ما يناسب هذه النار

قال المجد : ومما يناسب هذه النار ويُضاهيها ماحكاه ابن جُبَير أنه رأى مَنْ أخبره أن فى بحر رومية جزيرتين يخرج منهما النار دائماً ، قال : وأبصرنا الدخان صاعدا منهما ، وتظهر بالليل نار حمراء ذات ألْسُن تصعد فى الجو ، قال : وأعلمنا أن خروجها من جبلين يصعد منهما نَفَس نارى شديد ، وربما قذف فيها الحجر فتُلقى به مسوداً إلى الهواء بقوة ذلك النفَس ، وتمنعه من الانتهاء إلى القعر ، قال : وأما الجبل الشامخ الذى بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه أيضاً عجيب ، وذلك أن ناراً تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العَرِم ؛ فلا تمر بشىء إلا أحرقته ، حتى تنتهى إلى البحر فتركب ثَبَجَه(1) طائرةً على صفحته حتى تغوص فيه .

شأن خالد بن سنان العبسى

قلت : وأقرب من ذلك فى مناسبة هذه النار ماذكره ابن شبة فى أخبار المدينة — عند ذكر خالد بن سنان العبسى الذى قال النبى صلى الله عليه وسلم لما جاءته بنته « هذه ابنة نبىّ ضيعهُ قومه » — فروى ابن شبة فى خبره من طرق ماملخصه أنه كان بأرض الحجاز نار يقال لها نار الحدثان (حرة بأرض بنى عبس) تَعْشَى الإبل(2) بضوئها من مسيرة ثمانى ليال ، وربما خرج منها العنق فذهب فى الأرض

(1) ثبج البحر — بفتح الثاء والباء جميعا — معظمه ، وأراد موجه
(2) تعشى : مضارع من العشا ، وهو ضعف البصر

فلا يُبْقِى شيئاً إلا أكله ، ثم يرجع حتى يعود إلى مكانه ، وإن الله تعالى أرسل إليها خالد بن سنان ، فقال لقومه : يا قوم ، إن الله أمرنى أن أطفىء هذه النار التى قد أضرت بكم فَلْيَقُم معى من كل بطن رجلٌ ، فخرج بهم حتى انتهى إلى النار فخطَّ عليهم خطا ثم قال : إياكم أن يخرج أحد منكم من هذا الخط فيحترق ، ولا ينوهن باسمى فأهلك ، وجعل يضرب النار ويقول: بَدًا بَدًا[١] كل هدى الله مودًا ، حتى عادت من حيث جاءت ، وخرج يتبعها حتى ألجأها فى بئر فى وسط الحرة منها تخرج النار ، فانحدر فيها خالد . وفى درة الغواص : فإذا هو بكلاب تحتها فرضَّهُنَّ بالحجارة ، وضرب النار حتى أطفأها الله على يده ، ومعهم ابن عم له ، فجعل يقول : هلك خالد ، فخرج وعليه بردان ينطفان[٢] من العرق وهو يقول : كذب ابنُ راعية المِعْزَى لأخرجَنَّ منها وثيابى تَنْدَى ، فسموا بنى ذلك الرجل « بنى راعية المعزى » إلى اليوم ، وفى رواية أن قومه سالت عليهم نار من حرة النار فى ناحية خيبر ، والناسُ فى وسطها ، وهى تأتى من ناحيتين جميعاً ، فخافها الناسُ خوفا شديدا . وفى رواية : وهى تخرج من شق جبل من حرة يقال لها حرة أشجع ، فقال لهم خالد بن سنان : ابعثوا معى إنسانا حتى أطفئها من أصلها ، فخرج معه راعى غنم ، وهو ابن راعية ، حتى جاء غارا تخرج منه النار . وفى رواية : أنها كانت تخرج من بئر ، ثم قال خالد للراعى : أمسك ثوبى ، ثم دخل فى الغار . وفى رواية : أنه انطلق فى ناس من قومه حتى أتوها ، وقال لهم : إن أبطأت عنكم فلا تَدْعُونى باسمى ، فخرجَتْ كأنها خيل شُقْر يتبع بعضها بعضاً ، فاستقبلها خالد فجعل يضربها بعَصَاه ويقول : هديا هديا[٣] ، كل نهب مودى ، زعم ابن راعية المعزى ، أنى لاأخرج منها وثيابى تَنْدَى ، حتى دخل معها الشعب ، فأبطأ عليهم ، فقال بعضهم : لو كان حيا لخرج إليكم، فقالوا : إنه قد نهانا أن ندعوه باسمه ، قال :

---

(١) بدا بدا : مصدر يراد به الأمر ، أى تبددى وتفرقى

(٢) ينطفان : يسيلان ماء ، وهو العرق (٣) كذا ، ولعله « هدا هدا »

ادعوه باسمه ، فوالله لو كان حياً لخرج إليكم بعـد ، فَدَعَوْه باسمه ، فخرج وهو آخذ برأسه ؛ فقال : ألم أنهـكمْ أن تدعونى باسمى ؟ قد والله قتلتمونى ، احملونى وادفنونى ، فإذا مرت بكم حُمُر معها حمار أبتر ، وفى رواية فإذا دفنتمونى وأتى علىّ ثلاثة أيام فأتوا قبرى ، فإذا عرضت لكم عانة[1] من حُمُر وحش و بين يديها عَيْر فانبشونى فإنى أقوم فأخبركم ماهو كائن إلى يوم القيامة ، فأتوا القبر بعد ثلاث وسَنَحَت لهم الحمر ، فأرادوا نبشه ، فمنعهم قوم من أهل بيته ، وقالوا : لا نَدَعُـكم تَنبِشُون صاحبنا فنعير بذلك ، وفى رواية : فيكون سبة علينا ، فتركوه .

وفى رواية لابن القعقاع بن خليد العبسى عن أبيه عن جده ، قال : بعث الله خالد بن سنان نبياً إلى بنى عبس ، فدعاهم فكذبوه ، فقال قيس بن زهير : إن دعوت فأسيل علينا هـذه الحرة ناراً اتبعناك ؛ فإنك إنما تخوفنا بالنار ، و إن لم تَسِلْ نارا كذبناك ، قال : فذلك بينى و بينكم ؟ قالوا : نعم ، قال : فتوضأ ثم قال : اللهم إن قومى كَذَّبونى ولم يؤمنوا برسالتى إلا أن تسيل عليهم هذه الحرة ناراً ، فأسِلها عليهم ناراً ، قال : فطلع مثلُ رأس الحريش[2] ، ثم عظمت حتى عرضت أكثر من ميل ، فسالت عليهم ، فقالوا : ياخالد أرْدُدْها فإنا مؤمنون بك ، فتناول عَصاً ثم استقبلها بعد ثلاث ليال فدخل فيها فضربها بالعصا ، فلم يزل يضربها حتى رجعت ، قال : فرأيتنا نعشى الإبل على ضوء نارها ضلعاً الربذة[3] و بين ذلك ثلاث ليال .

قف على كرامة لتميم الدارى

وروى له ابن شبة أخبارا أخرى مع قومه ، وروى البيهقى فى دلائل النبوة فى باب « ماجاء فى الكرامة التى ظهرت على تميم الدارى شرفا للمصطفى صلى الله عليه وسلم وتنويهاً باسم مَنْ آمن به ، عن معاوية بن حرمل ، وذكر خبرا فى قدومه

---

(١) العانة : الجماعة من حمر الوحش ، والعير ــ بفتح العين ــ الحمار

(٢) الحريش ــ بفتح الحاء ــ دويبة قدر الإصبع بأرجل كثيرة ، وهى التى يسميها العامة « أم أربعة وأربعين »

(٣) لم تستقم لى هذه العبارة

المدينة ، وقول عمر له : اذهب إلى خير المؤمنين فانزل عليه ، ثم قال : فبينا نحن ذات يوم إذ خرجت نار بالحَـرَّة ، فجاء عمر رضى الله عنـه إلى تميم الدارى رضى الله عنه ، فقال : قم إلى هذه النار ، فقال : يا أمير المؤمنين ومَنْ أنا ؟ وما أنا ؟ قال : فلم يزل به حتى قام معه ، قال : وتبعتهما فانطلقا إلى النـار ، فجعل تميم يَحُوشها[1] بيده حتى دخلت الشعب ، ودخل تميم خلفها ، فجعل عمر يقول : ليس مَنْ رأى كمن لم يَرَ ، قالها ثلاثا ، والله أعلم .

---

(١) يحوشها : أصله قولهم « حاش فلان الصيد يحوشه حوشاً » إذا جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة ، وقولهم « حاش فلان الإبل » إذا جمعها وساقها

الباب الثالث

فى أخبار سكانها فى سالف الزمان ، ومَقْدَمه صلى الله عليه وسلم إليها ، وما كان من أمره بها فى سِنِينِ الهجرة[1] ، وفيه اثنا عشر فصلا

الفصل الأول

فى سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر فى سبب نزول اليهود بها ، و بيان منازلهم

أسند الكلبي عن ابن عباس أن مخرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل ، وكانوا ثمانين نفساً ، فسمى الموضع سوق الثمانين ، قال : وطولُ بابلَ مسيرة عشرة أيام واثنى عشر فرسخا ، فمكثوا بها حتى كثروا ، وصار ملكهم نمروذ بن كنعان ابن حام ، فلما كفروا بُلْبِلُوا ، فتفرقت ألسنتهم على اثنين وسبعين لسانا ، ففهَّمَ الله العربيةَ منهم عمليق وطَسْم ابنى لوذا بن سام ، وعادا وعبيل ابنى عوص ابن أرم بن سام ، وثمود وجديس ابنى جاثق بن أرم بن سام ، وقنطور بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، فنزلت عبيل يثرب ، و يثرب اسم ابن عبيل ، ثم أخرجوا منها فنزلوا الْجُحْفَةَ ، فجاءهم سيل أجْحَفَهم فيه ، فلهذا سميت جُحْفة ، فرثاهم رجل منهم فقال[2] :

نزول عبيل يثرب

عينُ جودى على عبيل وهل ير جع من فات بيضها بالسجام ؟
عَمَرُوا يثربا وليس بها شفـر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لِينَهَا بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام

أول من سكن يثرب

وقال أبو القاسم الزجاجى : أول من سكن المدينة عند التفرق يثرب بن قاينة[3] ابن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ، و به سميت يثرب ، و روى عن ابن عباس ما يدل له .

---

(١) كذا ، والعربية الفصحى أن يقال «فى سنى الهجرة» ولكن ما بالأصل لغة

(٢) أقمنا ميل هذه الأبيات بعد أن كانت محرفة وناقصة فى الأصول

(٣) فى ياقوت « قانية »

سكنى العماليق المدينة

وقال ياقوت : كان أول من زرع بالمدينة ، واتخذ بها النخل ، وعَمَر بها الدور والآطام ، واتخذ بها الضياع ، العماليقُ ، وهم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ، وكانت العماليق ممن انبسط فى البلاد ، فأخذوا ما بين البحرين وعمان والحجاز كله إلى الشام ومصر ، وجبابرةُ الشام وفراعنةُ مصر منهم ، وكان منهم بالبحرين وعمان أمة يسمون جاسم ، وكان ساكن المدينة منهم بنوهف[1] و بنومطروين ، وكان ملكهم بالحجاز الأرقم بن أبى الأرقم .

وأسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم أن ضَبُعا رؤيت وأولادها رابضةً فى حِجَاجِ عَينِ رجلٍ من العماليق — والحِجَاجُ ، بكسر أوله وفتحه : العَظْمُ الذى ينبت عليه الحاجِبُ — قال زيد بن أسلم : وكان تمضى أربعمائة سنة ومايُسْمَعُ بجنازة .

قوم من اليهود ينزلون المدينة

وأسند رزين عن أبى المنذر[2] الشرقى قال : سمعت حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبيد الله بن حنظلة الغسيل ، قال : وسمعت أيضاً بعض ذلك من رجل من قريش عن أبى عبيدة بن عبدالله بن عمار بن ياسر[3] ، قال : فجمعت حديثهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه ، قالا : بلغنا أنه لما حجَّ موسى صلوات الله عليه حج معه أناس من بنى إسرائيل ، فلما كان فى انصرافهم أتوا على المدينة ، فرأوا موضعَها صفة بلد نبى يجدون وصفه فى التوراة بأنه خاتم النبيين ، فاشتورَتْ طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، فنزلوا فى موضع سوق بنى قَيْنُقَاع ، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم ، فكانوا أول من سكن موضع المدينة .

وذكر بعض أهل التواريخ أن قوما من العمالقة سكنوه قبلهم ، قلت : وهو الأرجح .

---

(١) عبارة ياقوت ٤٢٧/٧ : « وكان ساكنو المدينة منهم بنو هفان وسعد بن هفان وبنو مطرويل ، وكان بنجد منهم بنو بديل بن راحل وأهل تيماء ونواحيها . وكان ملك الحجاز الأرقم بن أبى الأرقم » .

(٢) فى المطبوعات « عن ابن المنذر الشرقى » وسيأتى على الصواب فى ص ١٧٠

(٣) كذا ، وأبو عبيدة اسمه محمد وأبوه محمد بن عمار

داود النبي يغزو سكان المدينة

وأسند ابن زبالة مُصَدِّراً به كتابَه فى بدء مَنْ سكنها عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : كان ساكن المدينة فى سالف الزمان صعل وفالج ، فغزاهم داود النبى عليه الصلاة والسلام ، وأخذ منهم مائة ألف عذراء ، قالوا : وسلط الله عليهم الدود فى أعناقهم فهلكوا ، فقبورهم هذه التى فى السهل والجبل ، وهى التى بناحية الجرف ، و بقيت امرأة منهم تعرف بزهرة ، وكانت تسكن بها ، فأُ كثرت من رجل وأرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد ، فلما دنت لتركب غشيها الدود ، فقيل لها : إنا لنرى دودا يغشاك ، فقالت : بهذا هلك قومى ، ثم قالت : رُبَّ جسد مَصُون ، ومال مدفون ، بين زهرة ورانون ، قالوا : وقتلها الدود .

قلت : وداود بعد موسى عليهما السلام ، وكان يدعو إلى شريعته .

وقد عبر ابن النجار عما سبق بقوله : قال أهل السير : أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قومٌ يقال لهم صعل وفالج ، وذكر قصة داود ملخصة ، ثم قال : قالوا : وكان قومٌ من الأمم يقال لهم بنو هف و بنو مطر و بنو الأزرق فيما بين مخيض إلى غراب الضائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد ؛ فتلك آثارهم هنالك .

وروى ابن زبالة عند ذكر جماء أم خالد بوادى العقيق عن عثمان بن عبد الرحمن قال : وجد قبر فى الجماء عليه حجر مكتوب فيه فهبط بالحجر فقرأه رجل من أهل اليمن ، فإذا فيه : أنا عبد الله رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان بن داود إلى أهل يثرب ، وأنا يومئذ على الشمال .

وروى أيضاً عن عمر بن سليم الزرقى قال : رقينا الجماء فوجدنا قبراً إرمياً على رأسها عنده حجران مكتوبان لا تقرأ كتابتهما ، فحملناهما ، فثقل علينا أحدهما فرميناه فى الجماء ، وأخذت الآخر ، فكان عندى ، فعرضته على أهل التوراة من يهود فلم يعرفوه ، ثم عرضته على أهل الإنجيل من النصارى فلم يعرفوه ، فأقام عندى حتى دخل المدينةَ رجلان من أهل ماهٍ ، فسألتهما : هل كان لكم كتاب ؟ قالا : نعم ، فأخرجت إليهما الحجر ، فقرآه فإذا فيه : أنا عبد الله الأسود رسول

رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل قرى عرينة ، وقالا : نحن كنا أهل هذه القرية فى أس[1] الدهر ، وسيأتى بقية ما جاء فى ذلك فى رابع فصول الباب السابع .

مهلك العماليق بالحجاز

وأسند ابن زبالة أيضاً عن عروة بن الزبير قال : كانت العماليق قد انتشروا فى البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كبيراً ، فلما أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطىء الشام وأهلك مَنْ بها ، يعنى من الكنعانيين وقيل : بعث إليهم بعثاً ، فأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز للعماليق ، وأمرهم أن لا يستَبْقوا أحداً منهم بلغ الحُلُمَ ، فقدموا عليهم ، فأظهرهم الله فقتلوهم ، حتى انتهوا إلى ملكهم الأرقم بن أبى الأرقم فقتلوه ، وأصابوا ابناً له — وكان شابا من أحسن الناس — فضنوا به عن القتل ، وقالوا : نستحييه حتى نقدم به على نبى الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم ، فقبض الله موسى قبل قدوم الجيش ، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم فأخبروهم بالفتح ، وقالوا : لم نستبق منهم إلا هذا الفتى ، فإنا لم نر شابا أحسن منه ، فتركناه حتى نقدم به على نبى الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فقالت لهم بنو إسرائيل : إن هذه لمعصية منكم لما خالفتم أمر نبيكم ، لا والله لا تدخلون علينا بلادنا أبداً ، فقال الجيش : ما بلد إذ منعتم بلادكم بخير من البلد الذى خرجتم منه ، وكان الحجاز إذ ذاك أشْجَرَ بلاد الله وأظهره ماء ، قال : وكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق .

سبب نزول اليهود المدينة

وفى الروض الأُنُفِ عن أبى الفرج الأصبهانى أن السبب فى كون اليهود بالمدينة — وهى وسط أرض العرب — أن بنى إسرائيل كانت تغير عليهم العماليقُ من أرض الحجاز ، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة ، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى ، فوجه إليهم جيشا ، وذكر نحو ما تقدم ، ثم قال : وأصح من

---

(١) الأس ـ بضم الهمزة وتشديد السين ـ الأصل ، يريد فى قديم الزمان

هذا ما ذكره الطبرى أن نزول بنى إسرائيل بالحجاز كان حين وطىء بُخْتَنَصَّر بلادهم بالشام وخرب بيت المقدس ، انتهى .

وحكى ابن النجار عن بعض العلماء أن سببه أن علماءهم كانوا يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حَرَّتين ، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة ، فلما رأوا تَيماء وفيها النخل نزلها طائفة منهم ، وظن طائفة أنها خيبر فنزلوها ، ومضى أشرفهم وأكثرهم فلما رأوا يثرب سبخة وحرة وفيها النخل قالوا : هذه البلد التى تكون مُهَاجَرَ النبى العربى عليه الصلاة والسلام ، فنزل النضير بُطْحَان ، ثم حكى ماسيأتى من نزول قريظة والنضير بمذينيب ومهزور .

وحكى ياقوت عن بعض علماء الحجاز من يهود أن سبب نزولهم الحجاز أن ملك الروم حين ظهر على بنى إسرائيل وملك الشام خطب إلى بنى هرون ، وفى دينهم أن لا يزوجوا النصارى ، فخافوه وأنعموا له ؛ وسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم ، فأتاهم ، ففتكوا به وبمن معه، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز فأقاموا بها ، وزعم بنو قُرَيْظة أن الروم لما غَلَبُوا على الشام خرج قُرَيظة والنَّضِير وهدل هاربين من الشام يريدون مَنْ كان بالحجاز من بنى إسرائيل ، فوجَّه ملك الروم فى طلبهم ؛ فأعجزوا رسله ، وانتهى الرسل إلى ثمد(١) بين الحجاز والشام فماتوا عنده عَطَشا ، فسمى الموضع « ثمد الروم » وهو معروف بذلك ، والله أعلم أى ذلك كان .

وروى بعض أهل السير عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : بلغنى أن بنى إسرائيل لما أصابهم ماأصابهم من ظهور بُخْتَنَصَّر عليهم وفرقتهم وذلتهم تفرقوا ، وكانوا يجدون محمدا صلى الله عليه وسلم مَنْعُوتا فى كتابهم ، وأنه يظهر فى بعض هذه القرى العربية فى قريةٍ ذاتِ نخل ، ولما خرجوا من أرض الشام كانوا يعبرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعتها نعت يثرب، فينزل بها طائفة منهم ، ويرجون أن يلقوا محمداً فيتبعونه ، حتى نزل من بنى

(١) أصل الثمد ـ بفتح الثاء وميمه مفتوحة أو ساكنة ـ ماء المطر يبقى محقونا تحت رمل ، فإذا كشف عنه أدته الأرض ، وقيل : هو الماء القليل لامادة له .

هرون ممن حمل التوراة بيثرب منهم طائفة ، فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء ، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء ، فأدركه مَنْ أدركه من أبنائهم فكفروا به وهم يعرفونه : أى حسدا للأنصار حيث سبقوهم إليه .

وقال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه من عَوْد الجيش من بنى إسرائيل إلى الحجاز وسكناهم المدينة : فركحوا منها حيث شاؤا — أى تفسحوا وتبوؤا — فكان جميعهم بزهرة ، وكانت لهم الأموال بالسافلة ، وزهرة ثبرة — أى أرض سهلة بين الحرة والسافلة مما يلى القف — ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجتمع السيول مما يلى زغابة ، قالوا : وكانت يثرب سقيفة طويلة فيها بغايا يضرب إليهن من البلدان ، وكانوا يروّحون فى قرية يثرب ثمانين جملاجَوْناً [1] سوى سائر الألوان .

ثم أسند عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هدل وعمرو أبناء الخزرج بن الصريح بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوى ابن جبر بن النحام بن عازر بن عيزر بن هرون بن عمران عليه السلام والنضيرُ بن النحام بن الخزرج بن الصريح بعد هؤلاء ، فتبعوا آثارهم ، فنزلوا بالعالية على واديين يقال لهما مذينيب ومهزور [2] ، فنزلت بنو النضير على مذينيب واتخذوا عليه الأموال فكانوا أول من احتفر بها — أى بالعالية — الآبار وغرس الأموال ، قال : ونزل عليهم بعض قبائل العرب فكانوا معهم ، فاتخذوا الأموال ، وابتنوا الآطام والمنازل .

وأسند هو وابنُ شبة أيضاً عن جابر مرفوعا : أقبل موسى وهارون حاجَّيْنِ فمرا بالمدينة ، فخافا من يهود ، فخرجا مستخفيين ، فنزلا أُحُداً ، فغشى هارونَ

(١) الجون : الأسود .

(٢) قال ياقوت (٣٤٧/٧) : «مذينيب واد بالمدينة ، وقيل : مذينيب يسيل بماء المطر خاصة ، وقد روى مالك فى موطئه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى سيل مهزور ومذينيب : يمسك حتى الكعبين ثم يرسل الأعلى على الأسفل» اهـ. وقد ذكروا أن مذينيبا يصدر من جبلين كبيرين بحذاء جبل الأغوات على نحو سبعة أميال من المدينة ، ويصب فى زغابة ، وكانت عليه مساكن بنى النضير ، فلما غدروا بالرسول أجلاهم بعد الخندق ، ثم قسم أملاكهم على المهاجرين . وأما مهزور فمصدره من حرة واقم . ويعرف اليوم باسم «الغاوى»

الموتُ ، فقـام موسى فحفر له ولحد ، ثم قال : يا أخى إنك تموت ، فقام هارون فدخل فى لحده ، فقبض (١) عليه موسى الترابَ .

قلت : و إسناد ابن شَبَّة لا بأس به ، غير أن فيه رجلا لم يُسَمَّ ، وسماه ابن زَبالة ، وذلك المسمى لا بأس به أيضا ، لـكن ابن زبالة لا يُعْتَمد عليه فى ذلك ، وهو دالٌّ على أن اليهود نزلوا المدينة فى زمن موسى عليه السلام ، وطالت مدتهم بها فى حياته ، حتى وقع منهم ما يقتضى خوفه منهم عند مروره ، وهو إنما يتأتى على ما قدمناه من أنه لما حجَّ ومعه ناس من بنى إسرائيل فرأوا موضع المدينة صفة بلد خاتم النبيين ، فاشْتَوَرَتْ طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، ويكون ما اتفق لموسى وهارون عليهما السلام فى حجة أخرى بعد ذلك ، وسيأتى فى مسجد عِرْقِ الظبية بالروحاء حديث « ولقد مرَّ به موسى بن عمران حاجا ومعتمراً فى سبعين ألفاً من بنى إسرائيل » ومن الغريب ما نقَلَ الحافظُ ابن حجر عن كتاب الأنواء لعبد الملك بن يوسف قال : إن قريظة كانوا يزعمون أنهم من ذرية شعيب نبى الله عليه السلام ، و إن ذلك محتمـــل ؛ فإن شعيباً كان من بنى جذام القبيلة المشهورة ــ قال الحافظ ابن حجر : وهو بعيدجداً ــ ونقل ابنُ زبالة ما حاصله أن ممن كان من العرب مع يهود قبـل الأنصار بنو أنيف حَىٌّ من بَلِىٍّ ، ويقال : إنهم بقية من العماليق ، و بنو مريد حى من بلى ، و بنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم ، و بنو الجذماء حى من اليمن ، وكانت الآطامُ عِزَّ أهل المدينـة ومَنَعَتَهم التى كانوا يتحصنون فيها من عدوهم ، وروى حديثَ النهى عن هَدْم آطام المدينة ، قال: وكان لبنى أنيف بقباء : الأجش عندالبئر التى يقال لها لاوة ، وأطُمَان فيما بين المال الذى يقال لها المائة والمال الذى يقال له القائم ، وآطام عند بئر عذق وغيرها ، قال شاعرهم فيها :

وَلَوْ نطقتْ يوما قباء لخبرَتْ ... بأنا نَزَلْنا قبل عادٍ وتُبَّعِ

(١) يقال : حثا التراب يحثوه ، وحثاه يحثيه ، إذا صبه وأهاله .

وآطامنا عاديّةٌ مُشْمَخِرَّةٌ   تلوح فتنكى من نعادى وتمنع

بقايا اليهود بالمدينة

وكان ممن بقى من اليهود — حين نزلت عليهم الأوس والخزرج — جماعات منها بنو القُصيص وبنو ناغصة كانوا مع بنى أنيف بقباء ، وكان بقباء رجلٌ من اليهود يقال « إنه من بنى النَّضِير » كان له أُطُم يقال له «عاصم » كان فى دار ثو بة بن حسين بن السائب بن أبى لُبَابة ، وفيه البئر الذى يقال لها قباء ، وقيل : إن بنى ناغصة حى من اليمن كانت منازلهم فى شِعْب بنى حَرَام حتى نَقَلَهم عمر بن الخطاب إلى مسجد الفتح ، ومنها بنو قُرَيْظة فى دارهم المعروفة بهم اليوم ، وكان لهم بها آطام : من ذلك أُطُمُ الزبير بن باطا القرَظى، كان موضعه فى موضع مسجد بنى قريظة ، وأُطُمُ كعب بن أسد يقال له بلحان بالمال الذى يقال له الشجر ، وله يقول الشاعر :

من سره رَطْبٌ وماء بَارِدٌ   فَلْيأْتِ أَهْلَ المجدِ من بلحان

وكان مع قريظة فى دارهم إخوتهم بنو هدل و بنو عمرو المقدم ذكرهم ، و إنما سمى هدلا بهدل كان فى شفته ، ومن ولده ثعلبة وأسد ابنا سعَيَّة وأسد بن عبيد ورفاعة بن سموأل وسُخيت ومنبه ابنا هدل ، ومنها بنو النضير فى النواعم ، ومنهم كعب بن الأشرف ، وكان لهم عامة أطم فى المال الذى يقال له فاضجة ، وأُطُمٌ فى زقاق الحارث دبر قصر ابن هشام دون بنى أمية بن زيد كان لعمر بن جحاش ، وأطم البويلة ، وغير ذلك ، هذا ماذكره ابن زبالة

ونقل ابنُ عساكر عن الواقدى أنه قال : كانت منازل بنى النَّضِير بناحية الغرس

قلت : والظاهر أنهم كانوا بالنواعم ، وتمتد منازلهم وأموالهم إلى ناحية الغرس و إلى ناحية الصافية وما معها من صدقات النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعض منازلهم كانت بجفاف ؛ لأن فاضجة به ، ورأيتُ بالحرة فى شرقى النواعم آثار حصون وقرية بقرب مذينيب يظهر أنها من جملة منازلهم ، وأن ما فى قبلة ذلك فى شرقى العهن من منازل بنى أمية بن زيد كما سيأتى ، ومنها بنو مريد فى بنى

خطمة وناعمة إبراهيم بن هشام ، وكان لهم أطم يعرف بهم فيه بئر ، ومنها بنو معاوية فى بنى أمية بن زيد ، ومنها بنو ماسكة بقرب صدقة مروان بن الحكم مما يلى صدقة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان لهم الأُطُمَانِ اللذان فى القف فى القرية ، ومنها بنو محمم فى المكان الذى يقال له بنو محمم ، وكان لهم المال الذى يقال له خُنافة ، معروف اليوم ، وكان رجل منهم قَطَعَ يدَ رجلٍ فى الجاهلية فقال المقطوع : أعْطِنِى خنافة عَقْلاً بيدى ، فأبى ، وحفر للذى قطعه كوة فى خنافة ، ثم أخرج يده منها من وراء الحائط وقال : اقطع ، فقطع يده ، فقال حين قطع يده :

الآن قد طابت ذرى خنافة　　　طابت فلا جوع ولا مخافة

ومنها بنو زَعُورا عند مشربة أم إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولهم الأُطم الذى عندها ، وكان الأُطم الذى فى مال جحاف لبعض مَنْ كان هناك من اليهود ، ومنها بنو زيد اللات ، قال ابن زبالة : وهم رهط عبد الله بن سلام ، كانوا قريبا من بنى غصينة ، ومنها بنو قَيْنُقَاع عند منتهى جسر بطحان مما يلى العالية ، وكان هناك سوق من أسواق المدينة ، وكان لهم الأُطُمَانِ اللذان عند منقطع الجسر على يمينك وأنت ذاهب من المدينة إلى العالية إذا سلكت الجسر ، وغير ذلك ، وفى صحيح البخارى عن ابن عمر أن بنى قَيْنُقَاع هم رهط عبد الله بن سلام ، خلاف ما تقدم عن ابن زبالة ، قال الحافظ ابن حجر : وهم من ذرية يوسف الصديق عليه السلام ، ومنها بنو حُجر عند المشربة التى عند الجسر ، ولهم أُطُمٌ يعرف بهم ، ومنها بنو ثعلبة وأهل زهرة بزهرة ، وهم رهط الفِطْيَوْن ، وهو ملكهم الذى كان يفتضُّ نساء أهل المدينة قبل أن يدخُلْنَ على أزواجهن ، وكان لهم الأُطُمَانِ اللذان على طريق العريض حين يهبط من الحرة ، وكانت بزهرة جُماع من اليهود وكانت من أعظم قرى المدينة ، وقد بادوا ، ومنها ناس كانوا بالجَوَّانية — بفتح الجيم وتشديد الواو والياء المثناة من تحت : موضع بقرب أُحُد فى شمالى

المدينة كما سيأتى — ولهم أُطمَانِ صارا لبنى حارثة بن الحارث وهما صرار والريان ، ولذلك يقول نهيك بن سياف :

لعل صرارا أن تعيش بياره ويسمع بالريان تبنى مشاربه

وكانت بنو الحذماء المتقدم ذكرهم — وهم حى من اليمين — مابين مقبرة بنى عبد الأشهل وبين قصر ابن عراك ، ثم انتقلوا إلى راتج ، ومنها بنو عكوة فى يمانى بنى حارثة ، ومنها بنو مرابة فى شامى بنى حارثة ، ولهم الأُطم الذى يقال له الشبعان فى ثمغ صدقةِ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومنها ناس براتج ، وهو أُطم سميت به الناحية ، وهو الذى يقول له قيس بن الخَطِيم :

ألاَ إن بين الشرعبىّ وراتج ضراباً كتخديم السبال المعضد

ومنها ناس بالشوط والعنابس والوالج وزَبالة إلى عين فاطمة حيث كان يطبخ الآجُرُّ لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لأهل الشوط الأُطم الذى يقال له الشرعبى ، وهو الأطم الذى دون ذباب ، وقد صار لبنى جُشَم بن الحارث بن الخزرج أى الأصغر يعنى إخوة بنى عبد الأشهل ، وكان لأهل الوالج أُطم بطرفه مما يلى قَناة ، وكان لبعض مَنْ هناك من اليهود الأُطمَاَن اللذان يقال لهما الشيخان بَفَضَاهما المسجد الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى أحد ، وكان لأهل زَبالة الأُطمَاَن عند كومة أبى الحمراء الرابض والذى دونهما ، ومنها أهل يثرب ، وكانوا جُماعا من اليهود بها ، وقد بادوا فلم يبق منهم أحد .

قلت : ونقل رزين عن الشرقى أن يهود كانوا نيفاً وعشرين قبيلة ، وقال ابن النجار : إن آطامهم كانت تسعة وخمسين أطما ، وللعرب النازلين عليهم قبل الأنصار ثلاثة عشر أطما ، وقد ذكر ابن زَبالة أسماء كثير منها حذفناه لعدم معرفته فى زماننا .

فهذا عِلْمُ مَنْ سكن المدينة بعد الطوفان إلى قدوم الأوس والخزرج .

الفصل الثانى
فى سبب سُكْنى الأنصار بها

قصة مأرب وسيل العرم

نقل ابنُ زبالة وغيره أن اليهود لم تزل هى الغالبة بالمدينة ، الظاهرة عليها ، حتى كان من أمر سَيْل العَرِم ما كان وما قص الله من قصته فى مائه يعنى قصة أهل مأرِب ، ومأرب مهموز: أرض سبأ المعنية بقوله تعالى : «بَلْدَةٌ طيبة[1]» عن ابن عباس أنها كانت أخْصَبَ البلاد وأطْيَبَها ، تخرج المرأة وعلى رأسها المِكْتَل فتعمل بيديها أى بمغزلها وتسير بين ذلك الشجر ، فيمتلىء مما يتساقط فيه من الثمر ، فطغَوْا ، وقيل : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعونهم إلى الله ، ويذكرونهم نعمة الله عليهم ، فكذبوهم ، وقالوا : ما نعرف لله نعمة ، قال المسعودى : وكان طول بلدهم أكثر من شهرين للراكب المجد ، وكذلك عَرْضُها ، وكان أهلها فى غاية الكثرة مع اجتماع الكلمة والقوة ، وكانوا كما قص الله من خبرهم بقوله : «وجَعَلْنَا بينهم و بين القُرَى التى باركنا فيها» يعنى قرى الشام «قُرًى ظاهرة[2]» يعنى متواصلةً يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فكانوا آمنين فى بلادهم ، تخرج المرأة لا تتزود شيئاً ، تبيت فى قرية ، وتَقِيلُ فى أخرى حتى تأتى الشام ، فقالوا : «ربَّنَا باعد بين أسفارنا»[3] لأنهم بَطِروا النعمة وملّوها، وقالوا :لو كان جَنَى جنّاتنا أبعدَ كان أجْدَرَ أن نشتهيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم و بين الشام مفاوِزَ ليركبوا الرواحل فيها و يتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة كما قال : «فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كل ممزق[4]» وعن الضحاك أنهم كانوا فى الفترة التى بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فسلط عليهم سَيْلَ العرم ، قيل : العرم : المطر الشديد ، وقيل : جُرَذ[5] أعمى فنقَبَ عليهم السد ، وكان فرسخا فى فرسخ بناه لقمان الأكبر العادى ، وكان بناه للدهر على زعمه ، وكان يجتمع إليه مياه اليمن ثم تتفرق فى مجارى على قدر حاجة جنانهم ، وقيل : بناه سَبَأ بن يَشْجُب

---

(١) من سورة سبأ من الآية ١٥ (٢) من سورة سبأ من الآية ١٨
(٣) من سورة سبأ من الآية ١٩ (٤) من سورة سبأ من الآية ١٩
(٥) الجرذ ــ بضم الجيم ــ ضرب من الفئران

ابن يعرب بن قحطان ، وساق إليه سبعين وادياً ، ومات قبل أن يكمله فأكمله بعده ملوك حمير ، وكان أولاد حِمْيَر بن سبأ وأولاد كهلان بن سبأ سادَةَ اليمن فى ذلك الزمان ، وكان كبيرهم وسيدهم جد الأنصار عَمْرو مُزَيْقِياء بن عامر ماء السماء [١] ابن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، ويقال : الأسد ، بن الغوث بن نَبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ذكر نسبه كذلك ابنُ هشام وابن حزم وابن الكلبى فيما نقله عنه ابن عبدالبر ، ونقل غيره عنه أنه جعل ثعلبة بين حارثة و بين امرىء القيس ، وكانت الأنصار تقول : سمى عمرو مزيقياء لأنه كان يلبس فى كل يوم حُلَّتين ثم يمزقهما لئلا يلبسهما أحَدٌ بعده ، وقيل لأبيه « ماء السماء » لجوده وقيامه عند الجَدْب مقامَ الغيث ، وكان لعمرو مزيقياء أخٌ كاهن لم يُعْقِبْ يسمى عمران ، وكانت زوجة عمرو مزيقياء يقال لها طريفة من حمير ، وكانت كاهنة ، فولدت له ثلاثة عشر رجلا ، ولدت ثعلبة وهو الذى أخرج جُرْهُم من مكة هو وأخوته ، ومن انخزع معه من الأزد على ما نقله رزين ، ونقل أن والد ثعلبة — وهو عمرو بن عامر — توفى قبل غلبة ثعلبة لجرهم ، وثعلبة أبو الأوس والخزرج ، وولدت له أيضا حارثة والد خُزَاعة على ما سيأتى ، وقيل غير ذلك ، وولدت له أيضاً جَفْنَة والد غَسَّان ، سُمُّوا باسم ماء نزلوا عليه يقال له غَسَّان ، والأشهر أنهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث ، وولدت له أيضاً وَدَاعة ، وأبا حارثة ، والحارث ، وعوفا ، وكعبا ، ومالكا ، وعمران ، هؤلاء أعقبوا كلهم ، والثلاثة الباقون لم يعقبوا .

غسان

وقال ابن حزم : إن غسان هم بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب بنى عمرو مزيقياء ، شربوا كلهم من ماء غسان ، بخلاف بقية ولَدِ عمرو مزيقياء فلم يشربوا من ذلك الماء ، فليسوا غسان ، وكان لعمرو بن عامر بمأرب من القصور والأموال مالم يكن لأحد .

---

(١) فى المطبوعات « ماء السماء مزيقياء بن حارثة » تطبيع ، وفيه وفى ماء السماء يقول شاعرهم : أنا ابن مزيقيا عمرو ، وجدى أبوه عامر ماء السماء

أول خبر سيل العرم

ونقل رزين أنه كان أول شيء وقع بمأرب من أمر سيل العرم أن عمران بن عامر رأى فى كهانته أن قومه سيمزّقون ويُباعَدُ بين أسفارهم، وأن بلادهم ستخرب، فذكر ذلك لأخيه عمرو بن عامر؛ فكان بين التصديق والتكذيب، فبينا طريفة امرأتُه ذات يوم نائمةٌ إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت، فذُعِرت ذُعْراً شديدا، فسكّنوها، فقالت: يا عمرو بن عامر، الذى رأيت فى الغيم، أذهبَ عنى النوم، رأيت غيْماً أرعد وأبرق، طويلا ثم أصعق، فما وقع على شيء إلا احترق؛ فما بعده إلا الفرَق[١]، فلما رأوا ما بها خَفّضوها[٢] حتى سكنت، ثم إن عمرو بن عامر دخَل حديقةً ومعه جاريتان له، فبلغ ذلك طريفة فخرجت نحوه، فلما خرجت من بيتها عارضَها ثلاث مناجذ — وهى دواب تشبه اليرابيع — منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن، فلما رأتهن طريفة وضعت يدها على عينها وقعدت على الأرض، فلما ذهبت المناجذ خرجت مسرعة، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثبت من الماء سُلَحْفَاة فوقعت فى الطريق على ظهرها، وجعلت تروم الانقلاب[٣] وتستعين بيدها فلا تستطيع، فتحذف التراب على نفسها، وتقذف بالبول من تحتها، فلما رأت طريفةُ ذلك جلست على الأرض حتى عادت السلحفاة إلى المـاء، ثم مضت طريفة حتى دخلت الحديقة التى فيها عمرو بن عامر حين انتصف النهار فى ساعةٍ شديدٍ حَرُّها، وإذا الشجرة من غير ريح تَتَكَفّأ، فمرت حتى دخلت على عمرو، فلما رآها قال: هلمى يا طريفة، فقالت: والنور والظلماء، والأرض والسماء، إن المـاء لغائر، وإن الشجر لهالك، فقال عمرو: ومَنْ أخبرك بذلك؟ قالت: أخبرتنى المناجذ، بسنين شدائد، يقطع فيها الولد الوالد، وسُلَحْفاة تحذف بالتراب حَذْفا، وتقذف بالبول قَذْفا، ورأيت الشجر من غيرِ ريح ولا مطر تَكَفّأ، قال: وما ترين ذلك؟ قالت: داهية وكيمة[٤]، وأمور جسيمة، قال: أما إن كان ذلك فلك الويل. قالت: أجل، وما لعمرو

(١) الفرق: الخوف، ولعله «الغرق» بالغين المعجمة والراء المهملة.
(٢) خفضوها: هدأوها وسكنوا خوفها وأزالوا ما نزل بها من هم.
(٣) تروم: تطلب (٤) وكيمة: محزنة

فيها من نيل ، مما يجيء به السيل ، فألقى بنفسه على الفراش وقال : ما هذا الذى تقولين إلا أمر جليل ، وخلف قليل ، وأخْذُ القليلِ خيرٌ من تركه ، قال عمرو : وما علامة ماتذكرين ؟ قالت : إذا رأيت جُرَذا يكثر فى السد الحَفْر ، ويقلب منه بيديه الصخر ، فاعلم أن قد وقع الأمر . فانطلق عمرو إلى السد ينظر فإذا جُرَذ يقلب بيديه ورجليه الصخرة ما يقلها[1] خمسون رجلا من أسد ، فرجع إلى طريفة فأخبرها . ثم رأى عمرو رؤيا أنه لابد من سيل العرم ، وقيل : إن آية ذلك أن ترى الحصى قد ظَهَرَ فى شِرْبِ النخل ، فذهب فرأى ذلك ، فعرف أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكَتَمَ ذلك وأخفاه ، وأجمع على أن يبيع كل شيء له بأرض سبأ ويخرج منها هو وولده ، فخشى أن يستنكر الناسُ ذلك ، فاحتال فى الأمر ، فأمَرَ بإبلٍ فنحرت ، وبغنم فذبحت ، وصنع طعاماً واسعاً ، وبعث إلى أهل مأرب بأجمعهم ، وكان فيمن دعا يتيم كان ربَّاه وأنكحه ، وقال له فيما بينه وبينه : إذا أنا جلسْتُ أُطْعِمُ الناسَ فاجلس بجنبى ثم نازعْنِى الحديث واردُدْ علىَّ مثل ما أقول لك ، وافعل بى مثل ما أفعل بك ، فكلمه عمرو فى شيء ، فردَّ عليه ، فضرب عمرو وجهه وشتمه ، ففعل اليتيم به مثله ، فصاح عمرو : واذُلَّاه ، اليوم ذهب فخر عمرو ومجده ، فحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا به حتى تركه ، وقال : والله لا أقيم ببلدة صنع بى هذا فيه أبداً ، ولأبيعَنَّ أموالى كلها وأرحَلُ عنكم ، فاغتنم الناسُ غضبه واشتروا منه أمواله ، فباع جميع عَقاره ، وتبعه ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، ولما كثر البيع استنكر الناسُ ذلك ، فأمسكوا ، فلما اجتمع عند عمرو بن عامر أثمانُ أمواله أخبر الناس بأمر سيل العرم ، فخرج من مأرب ناس كثير ، وأقام بها مَنْ قُضى عليه بالهلاك ، هذا ما نقله رزين فى تاريخه وقد اقتفيت أثره فى ذلك فى كتابى .

وذكر ابن هشام فى سيرته نحوه ، وقال : إن الأسد ـ يعنى الأزد ـ قالوا : لا تتخلف

---

(١) ما يقلها : ما يستطيع أن يرفعها .

عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، وقيل : كانت طريفة زوجة ثعلبة ، وإنه صاحب القصة والمحتال فى بيع ماله .

وقال ياقوت : إن عمرو بن عامر مات قبل سيل العرم ، وصارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن ، وكان عاقراً لا يُولَد له ، وإنه صاحب القصة مع طريفة الكاهنة ، وإنها أقبلت عليه يوماً وقالت : والظلمة والضياء ، والأرض والسماء ، ليقبلَنَّ إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فيدع أرضكم فلا يسفى عليها الصبا ، وذكر القصة ، وأنه احتال لبيع أمواله بأن قال لحارثة أحَدِ أولاد أخيه عمرو بن عامر : إذا اجتمع الناس إلىَّ فإنى سآمُرك بأمرٍ فأظْهِرِ فيه العصيانَ فإذا ضربت رأسك بالعصا فقم إلىَّ والطُمْنى ، فقال : وكيف يلطم الرجل عمه ؟ فقال : افعل يا بنى فإن فى ذلك صلاحك وصلاح قومك ، وذكر القصة ، قال : فجاء بعد رحيلهم بمُدَيدة[1] السيلُ وقد خرب الجرذُ السدَّ فلم يجد مانعاً ، فغرق البلاد حتى لم يبق من جميع الأرضين والكروم إلا ما كان فى رؤس الجبال والأمكنة البعيدة مثل ذمار[2] وحضرموت وعدن ، وذهبت الضياع والحدائق والجنان ، وجاء السيل بالرمل وطَمَّهَا ، فمضى على ذلك إلى اليوم ، وباعد الله بين أسفارهم كما سألوا .

عمرو بن عامر يصف البلاد لقومه

ونقل رزين أن عمرو بن عامر الكاهن قال لهم عند خروجهم : سأصِفُ لكم البلاد ، فقال : مَنْ كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومراد حديد ، فليلحق بقصر عُمان المَشِيد ؛ فسكنها أزدعمان . قال : ومن كان منكم ذا هم غير بعيد ، وجمل غير شديد ، ومراد غير حديد ؛ فليلحق بالشعب من كرود — وهى من أرض هَمْدَان — فكان الذين سكنوه وَدَاعة بن عمرو بن عامر فانتسبوا فى همدان . قال : ومن كان منكم ذا هم مدن ، وجمل مُعَن[3] ، فليلحق بالثنى من شن ، وهو بالسراة ، فسكنه أزدشنوءة . قال : ومَنْ كان منكم ذا جَلَد وبصر ، وله صبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر ، فسكنته خزاعة . قال : ومن كان منكم يريد

(١) فى المطبوعات «بهديدة» تطبيع .

(٢) ذمار — بوزن قطام — قرية على مرحلتين من صنعاء .

(٣) فى المطبوعات « جمل معنى » .

الراسخات فى الوَحْل ، المُطْعِمات فى المَحْل ، فليلحق بالحرة ذات النخل ؛ فكان الذين سكنوها الأوس والخزرج . قال : ومن كان يريد الخمر والخمير ، والديباج والحرير ، والأمر والتأمير ، فليلحق بِبُصْرَى وسَدِير – وهما من أرض الشام – فكان الذين سكنوه آل جَفْنَة بن غسَّان . قال : ومَنْ كان يريد الثياب الرِّقاق ، والخُيُول العِتاق ، والكنوز من الأرزاق ، فليلحق بالعراق ؛ فكان الذين لحقوا بالعراق جَذِيمة الأبرش ومَنْ كان بالحيرة من غَسَّان .

قلت : وقيل : إن الذى سَجَع لهم بذلك طريفة الكاهنة ، وإنها قالت : ومن كان منكم يريد الراسخات فى الوَحْل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذاتِ النخل .

وروى ابن زبالة سَجْع عمرو بن عامر فى المدينـــة بلفظ : من كان يريد الراسيات فى الوَحْل ، المطعمات فى المحل ، المدركات بالذَّحْل[١] ، فليلحق بيثرب ذات النخل ؛ فلما سمعوا ذلك القولَ خرج عمرو بن عامر بجميع ولده ومَنْ معه من الأزد يريد أرضا يقيمون بها ، ففارقهم وَدَاعة بن عامر فسكن هَمْدَان ، ثم سار عمرو حتى [إذا] كان بين السراة[٢] ومكة أقام هنالك ناس من الأزد ، وأقام معهم عمران بن عمرو بن عامر ، ثم سار عمرو فى باقى ولده وفى ناس من بنى مازن من الأزد حتى نزلوا ماء يقال له غسان ، وغلب عليهم اسمه حتى قال شاعرهم :

إمَّا سألتِ فإنَّا معشر نُجُبٌ الأَزْدُ نسبتها والمـاء غسان[٣]

نزول خزاعة فى مكة

قال أبو المنذر الشرقى : ومن ماء غسان انْخَزَعَ لُحَىٌّ – واسمه ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن حارثة – فأتى مكة فتزوج بنت عامر الجرهمى ملك جرهم ، فولدت له عمرو بن لحى الذى غَيَّر دين إبراهيم ، فسمى ولده خزاعة لأن أباهم انْخَزَعَ من غسان

وقال غيره ما يخالف ذلك ؛ فروى الأزرق أن عمرو بن عامر سار هو وقومه لا يَطَؤُن بلدا إلا غَلَبُوا عليه ، فلما انتهوا إلى مكة – وأهلها جرهم قد قهروا الناس

(١) الذحل – بالفتح – الثأر

(٢) فى المطبوعات « الشراة » تطبيع ، وإنه ليقال « أزد السراة »

(٣) حفظى « الأزد نسبتنا والماء غسان »

وحازوا ولاية البيت على بنى إسماعيل وغيرهم ــ أرسل إليهم ثعلبةُ بن عمرو بن عامر يقول : يا قوم إنا خرجنا من بلادنا ، فلم ننزل بلدا إلا فَسَح أهْلُه لنا فنقيم معهم حتى نرسل رُوّادنا إلى الشام والمشرق ، فحيث ما قيل لنا إنه أمثل لحقنا به ، فأبَتْ جرهم ذلك ، فأرسل إليهم ثعلبة : إنه لا بد لى من المقام ، فإن تركتمونى نزلت وحمدتكم وواسيتكم فى الماء والمَرْعَى ، وإن أبيتم أقمت على كرهكم ثم لم ترتعوا معى إلا فَضْلا ولا تشربوا إلا رَنْقا ــ يعنى الكدر ــ فإن قاتلتمونى قاتلتكم ، ثم إن ظهرت عليكم سَبَيْتُ النساء وقتلت الرجال ، ولم أترك أحداً منكم ينزل الحرم أبداً ، فأبت جرهم ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، ثم انهزمت جرهم ، فلم ينفلت منهم إلا الشريد ، وأقام ثعلبة بمكة وما حولها بعساكره حولا ، فأصابتهم الحمى ، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فدَعَوْا طريفة الكاهنة فشَكَوْا إليها الذى أصابهم ، فقالت : قد أصابنى الذى تشكون ، ثم ذكر الأزرق سَجْعَها فى أمر الدلالة على البلاد فى هذا المحلّ [و] [1] هو غير سجع عمران بن عامر عند تفرقهم من سبأ ، ثم ذكر لحوق كل فرقة منهم ببلدها على النحو الذى قدمناه ، وأن الأوس والخزرج ابنى حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ــ وهم الأنصار ــ نزلوا بالمدينة ، ثم قال : وانخزعت خزاعة بمكة ، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لُحَيٌّ ، فولى أمر مكة ، فهذا يقتضى أنهم إنما افترقوا من مكة ، ولا شك أن منها افترق الذين وصلوا إليها .

نزول ثعلبة ابن عمرو فى المدينة

وقال ياقوت : إنهم لما ساروا من اليمن عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السما بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن الراد [2] بن الغوث نحو الحجاز ، فأقام ما بين الثعلبية إلى ذى قار ، وباسمه سميت الثعلبية ، فنزلها بأهله وولده ومَنْ تبعه ، فأقام هناك يتبع مواقع القَطْر ، فلما كثر ولده وقوى ركنه سار بهم نحو المدينة وبها يهود فاستوطنوها ؛ فأقاموا بها بين قريظة والنضير وخيبر وتيماء ووادى القرى ، ونزل أكثرهم بالمدينة .

---

(١) زيادة يلتئم بها الكلام .

(٢) كذا ، وفى التاج «مازن البراح» وليس فى ياقوت لقب مازن .

الفصـــل الثالث

فى نسبهم

قد قدمنا انتسابهم إلى عمرو مُزَيْقِيَاء ، وانتساب عمرو إلى قحطان .

وقال ابن رزين نقلا عن الشرقى : أصل الأنصار الأوس والخزرج وهما من ولد ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغَوْث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان ، وكأنه سقط من النسخة بعد الغوث «بن نَبْت» فإنه بين مالك والغوث كما قدمناه ، وجماع قبائل اليمن تنتهى إلى قحطان ، وقحطان اختلف فى نسبه ، فالأكثرون قالوا : إنه عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل : هو من ولد هود نفسه ، وقيل : ابن أخيه ، ويقال : قحطان أول من تكلم بالعربية . وهو والد العرب المتعربة، وأما إسماعيل فهو والد العرب المستعربة ، وأما العرب العاربة فكانوا قبل ذلك كعاد وثمود وطَسْم وجَدِيس وعمليق وغيرهم ، وقيل : إن قحطان أول من قيل له: أَبَيْتَ اللَّعْنَ(١) ، وعِمْ صَبَاحا . وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام ، وأنه قحطان بن الهَمَيْسَع بن تيم بن نَبْت بن إسماعيل عليه السلام ، ويدل له تبويب البخارى بأن نسبة اليمن إلى إسماعيل ، وأورد فيه الحديث المتضمن لمخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم بنى أَسْلَمَ بأنهم من بنى إسماعيل ، وأسلم هو ابن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس صاحب النسب المتقدم ، فدل على أن اليمن بنى قحطان من بنى إسماعيل ، وهو ظاهر قول أبى هريرة فى الصحيحين فى قصة هاجر « فتلك أمكم يا بنى ماء السماء » يخاطب الأنصار ؛ لأن جدهم عامراً والد عمرو كان يلقب بذلك ، كما

نسب قحطان

---

(١) هى من تحايا الملوك ، ومعناها : أبيت أن تفعل شيئاً تسب به .

تقدم ، أو أراد أبو هريرة رضى الله عنه العرب كلهم ؛ لكثرة ملازمتهم الفلَوات التى بها مواقع القطر ، وهذا مُتَمَسَّكُ مَنْ ذهب إلى أن جميع العرب من ولد إسماعيل عليه السلام .

قال ابن حبان فى صحيحه : كل من كان من ولد إسماعيل يقال له «ابن ماء السماء» لأن إسماعيل ولد هاجَرَ ، وقد ربى بماء زمزم وهى من ماء السماء، ورجح عياض أن مراد أبى هريرة الأنصار خاصة ، ونسبتهم إلى جدهم المعروف بماء السماء ، انتهى . ودلالته على أن قبائل اليمن كلها من ولد إسماعيل ظاهرة .(١)

قال الحافظ ابن حجر : وهو الذى يترجح فى نقدى، وقد ذكر ابن عبد البر من طريق القعقاع بن أبى حدرد أن النبى صلى الله عليه وسلم «مَرَّ بناس من أسلَم وخزاعة وهم يتناضلون فقال : ارمُوا بنى إسماعيل» وأسلم وخزاعة قد تقدم نسبهما فى قبائل اليمن التى جماع نسبتها قحطان، ومما يؤيد ذلك قولُ المنذر بن عمرو جد حسَّان بن ثابت الأنصارى:

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر ... وحارثة الغطريف مَجْداً مُؤثَّلا
مآثر من آل ابن نبت بن مالك ... ونبت بن إسماعيل ما إنْ تَحَوَّلا

وأوَّلَ ذلك كله المخالفون بتأويلات بعيدة ، بل الذى أميل إليه أن العرب كلهم من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، وإن لم يتم ذلك فالعرب الذين لهم الشرف بالتقديم فى الكفاءة وغيرها شرعا هم بنو إسماعيل ، ويدل له قولُ بعض أصحابنا فى الإمامة : إذا لم يوجد قرشى مستجمع للشروط نُصِبَ كِنَانى ، فإن لم يكن فرجل من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، فإن تعذر انتقلنا إلى العجَم ، ولم يقولوا انتقلنا إلى بقية العرب ، لكن فى التتمة للمتولى : فإن لم يُوجَد من ولد إسماعيل عليه السلام يولَّى جُرْهُمى ، وجرهم أصل العرب ، فإن لم يوجد فرجل من ولد إسحاق عليه السلام ، اه . وهو مخالف لقول البغوى فى

(١) خلاصة هذا الكلام أن كلمة «ماء السماء» قد تطلق ويراد بها معنى العلم ، وهو لقب عامر بن حارثة خاصة ، وقد تطلق ويراد بها اسم الجنس على معنى يا بنى الماء، سواء أكان ماء المطر أم كان ماء زمزم، وعلى الإطلاق الأول لا تقال إلا لمن اتصل نسبه بعامر بن الحارث، على الثانى تطلق على كل عربى ، بل ويجوز أن تطلق على كل من يعيش عيش البدو .

التهذيب : فإن لم يوجد ولد إسماعيل فمن العجم ، وأيضاً فالمتولى جعل جرهماً متأخرين عن ولد إسماعيل ، وجعل لهم فضلا فى الجملة على العجم ، كذا قدم بعض العجم على بعض ، وإسماعيل أبو العرب الذين شرّف نسبهم بمشاركة نسبة أشرف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، وهو الأسُّ فى ذلك ، وعربى اللسان لا عبرة به ، على أن فى مستدرك الحاكم من حديث ابن عباس « أول من نطق بالعربية إسماعيل » لكن فى الصحيح أن إسماعيل تعلم العربية من جرهم الذين نزلوا مع أمه .

أول من تكلم بالعربية

قال ابن إسحاق : وكان جرهم وأخوه قطورا ابنا قحطان أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسُنِ .

قلت : وهو جارٍ على رأى من يقول : إن العرب كلها ليست من ولد إسماعيل .

وروى الزبير بن بكار فى النسب من حديث علىّ بإسناد حسن قال : أول من فتَقَ الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل ؛ فبهذا القَيْد يجمع بين الخبر المتقدم وبين ما فى الصحيح ، فيكون أوليته فى ذلك بحسَب الزيادة فى البيان ، لا الأولية المطلقة ، فيكون بعدَ تعلم أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة ؛ فعلى تقدير تسليم أن العرب كلهم ليسوا من ولد إسماعيل فالمستحق للشرف إنما هو عربية إسماعيل ، فيمتاز بنوه بما تقدم .

وقال ابن دريد فى الوشاح : أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ، ثم إسماعيل ، ونقل ابن هشام عن الشرقى أن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم ، وكله جار على خلاف ما قدمناه من أن العرب كلها من ولد إسماعيل ، والله أعلم .

أم الأنصار ونسبها

وأم الأنصار فى قول الكلبى: قَيْلَة بنت عمرو بن جَفْنة ، وقال ابن حزم : هى بنت الأرقم بن عمرو بن جَفْنة بن عمرو مُزَيْقياء ، ويقال : بنت كاهل بن

عذرة من قُضَاعة ، وقضاعة من حمير عند الأكثر ، واشتهرت الأنصار ببنى قَيْلة ولهم يقول القائل :

بَهَالِيلُ من أولاد قَيْلَةَ ، لم يَجِدْ عليهم خليطٌ من مخالطةٍ عَتْبَا
مَطَاعِيمُ فى المقرى، مطاعين فى الوغى، يَرَوْنَ عليهم فعل آبائهم نَحْبَا(١)

وذكر رزين عن الشرقى عقب ما قدمناه عنه من أن الأنصار أصلهم الأوس والخزرج وهما من ولد ثعلبة بن عمرو ، فقال : فوُلِد لثعلبة بن عمرو بن حارثة الأوسُ والخزرج ، وأمهما قَيْلَة ؛ فولد الأوس مالكا ، ومن مالك قبائل الأوس كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم أوس الله ، وهم الجعادِرة ، سموا بذلك لقصر فيهم .

قلت : وسيأتى ما يخالف هذا مع بيان قبائل الأوس المنتشرة من هؤلاء .

وروى الخرائطى أنه لما حضرت الأوسَ بن حارثةَ بن ثعلبة بن عمرو الوفاةُ اجتمع عليه قومه، فقالوا : قد حضر من أمر الله ما ترى ،وقد كنا نأمرك فى شبابك أن تتزوج فتاةً ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين وليس لك ولد غير مالك ، فقال : لن يهلك هالك، ترك مثل مالك، إن الذى يخرج النار من الرينة(٢) قادر أن يجعل لمالك نسلا ، ورجالا بُسْلا ، وكل إلى موت ، ثم أقبل على مالك فقال : أى بُنَىَّ ، المنية ولا الدَّنية ، وذكر حِكَماً سجَعَ بها ، قال : ثم أنشأ يقول :

شَهِدْتُ السبايا يوم آلِ مُحَرِّقٍ وأدرك عُمْرِى صَيْحةَ الله فى الحِجْرِ
فلم أر ذا مُلْكٍ من الناس واحداً ولا سُوقه إلا إلى الموت والقبر
فعلَّ الذى أرْدَى ثموداً وجُرْهُماً سَيُعْقِبُ لى نسلا على آخر الدهر
تقر بهم من آل عمرو بن عامر عيون لدى الداعى إلى طلب الوِتْرِ
فإن تكن الأيام أبْلَيْنَ جِدَّتى وشيبن رأسى والمشيبُ مع العمر

---

(١) المقرى : اسم مكان من القرى ، وهو الضيافة ، والنحب ، بالفتح ، النذر أراد أنهم يرون الاقتداء بآبائهم نذراً يجب الوفاء به . (٢) كذا

فإنّ لنا ربّاً علا فوق عرشه ... عليما بما يأتى من الخير والشر
ألم يأت قومى أنّ لله دعوة ... يفوز بها أهلُ السعادة والبرّ
إذا بُعِثَ المبعوث من آل غالب ... بمكة فيما بين زمزم والحِجْرِ
هنالك فابغُوا نَصْرَه ببلادكم ... بنى عامر؛ إن السعادة فى النصر (١)

ثم قضى من ساعته .

وقال ابن حزم : إن بنى عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس كانوا كلهم بعمان لم يكن منهم بالمدينة أحد؛ فليسوا من الأنصار .

قال الشرقى : وولد الخزرج بن حارثة أخو الأوس أيضاً خمس بنين . وتفرقوا بطوناً كثيرة .

قلت : وهم عمرو ، وعوف ، وجُشَم ، وكعب ، والحارث ، وسيأتى بيان ما انتشر من قبائلهم .

وقال ابن حزم : إن عقب السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج لم يكن منهم أحد بالمدينة ، كانوا بعمان ؛ فليسوا من الأنصار ، وذكر نحو ذلك فى بعض بنى الحارث بن الخزرج الأكبر كما سيأتى ، وذكر أيضاً أن بعض بنى جَفْنَة بن عمرو مزيقياء كانوا بالمدينة فى عداد الأنصار ، والله أعلم .

الفصل الرابع

فى تمكنهم بالمدينة ، وظهورهم على يهود ، وما اتفق لهم مع تبع

قال الشرقى : لما قدمت الأوس والخزرج المدينة تفرقوا فى عاليتها وسافلتها ، ومنهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل فى قراهم ، ومنهم من نزل وحْدَه لا مع بنى إسرائيل ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى بنى إسرائيل ، وكانت الثروة فى بنى إسرائيل ، كانوا نيفاً على عشرين قبيلة ، ولهم قُرًى أعدُّوا بها الآطام ، فنزلت الأوس والخزرج بينهم وحواليهم .

(١) ابغوا : اطلبوا ، يأمرهم إذا بعث النبى العربى أن ينصروه ويؤيدوه .

إقامة الأوس والخزرج مع اليهود

وقال ابن زبالة عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : أقامت الأوس والخزرج بالمدينـة ، ووجدوا الأموال والآطام والنخيل فى أيدى اليهود ، ووجدوا العـدد والقوة معهم ، فمكثت الأوس والخزرج ما شاء الله ، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جـواراً وحِلفاً يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به ممن سـواهم ، فتعاقدوا وتحالفوا واشـتركوا وتعاملوا ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلا ، وأمِرَتِ[1] الأوسُ والخزرجُ وصار لهم مال وعدد ، فلما رأت قريظةُ والنضيرُ حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتنمروا لهـم حتى قطعوا الحِلفَ الذى كان بينهم ، وكانت قريظة والنضير أعدّ[2] وأكثر ، وكان يقال لهما الكاهنان ، وبنو الصريح ، وفى ذلك يقول قيس بن الخطيم مُثنِياً عليهم :

كنا إذا رامنا قـــومٌ بمظلمة شدت لنا الكاهنان الخيلَ واعتزموا
بنو الصَّريح فقد عَفَوْا وقد كَرُمُوا نَسُوا الرهون وآسَـوْنا بأنفسهم

قصة الفطيون ملك اليهود الطاغية

فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم خائفين أن تُجْلِيَهم يهودُ، حتى نَجَمَ[3] منهم مالك بن العجلان أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج وسَوَّده[4] الحيانِ الأوسُ والخزرجُ ، وكان الفِطْيَوْنُ — أى بالفاء المكسورة ، وقال ياقوت : الفيطوان — ملك اليهـود بزهرة ، وكانت لا تُهْدَى عروسٌ بيثرب من الحيين الأوسِ والخزرج حتى تدخل عليـــه فيكون هو الذى يفتضها قبل زوجها ، فتزوجت أختُ مالك بن العجلان رجلا من قومها ، فبينا مالك فى نادى قومه إذ خرجت أخته فُضُـلاً ، فنظر إليها أهـلُ المجلس ، فشقّ ذلك على مالك ، ودخل فعنَّفها وأنبها ، فقالت : ما يُصْنَع بى غداً أعظم من ذلك ، أهْدَى إلى غير زوجى ، فلمـا أمسى مالك اشتمل على السيف ودخل على الفِطْيون متنكراً مـع النسـاء ، فلما خَفَّ مَنْ[5] عنده عدا عليه فقتله وانصرف إلى دار قومه، ثم بعث هو

---

(١) أمرت ـ بكسر الميم ـ زادت وكثرت . (٢) أعد : أكثر عددا
(٣) نجم: ظهر. (٤) سودوه : صيروه سيداً عليهم . (٥) خف من عنده: ذهبوا

وجماعة من قومه إلى مَنْ وقع بالشام من قومهم يخبرونهم بحالهم ويشكون إليهم غَلَبة اليهود ، وكان رسولهم الرمق بن زيد بن امرىء القيس أحد بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، وكان قبيحاً دميا شاعراً بليغاً ، فمضى حتى قدم على أبى جُبَيلة أحد بنى جُشم بن الخزرج الذين ساروا من يثرب إلى الشام ، وقال بعضهم : كان أبو جُبَيلة من ولد جَفْنَة بن عمرو بن عامر قد أصاب ملكا بالشام وشَرَفاً .

قلت : قد تقدم أن أبناء جَفْنة من غسّان ، وكانوا بالشام ملوكا .

ولما ذكر ابن حزم(١) بنى جشم بن الخزرج قال : فولد جُشَم غضْب ، فولد غضب مالك ، فولد مالك عبد حارثة ، فولد عبد حارثة حبيب ، فولد حبيب عبد الله ، فولد عبدالله أبا جُبَيلة الملك الغسانى الذى جَلَبه مالكُ بن العَجْلاَن لقتل اليهود ، انتهى .

وفيه نظر ؛ إذ ليس من بطون الخزرج غسانى كما يؤخذ مما قدمناه عن ابن حزم أيضاً ، والمشهور ما قدمناه ، قالوا : فشكا إليه حالَهم وغلبةَ اليهود عليهم ، وما يتخوفون منهم ، وأنهم يخشون أن يخرجوهم . وأنشده من شعره . فتعجب من شعره و بلاغته وقبحه ودمامته ، وقال : عَسَل طيب فى وعاء خبيث . فقال الرمق : أيها الملك ، إنما يُحتَاج من الرجل إلى أصْغَرَيْهِ لسانِهِ وقلبه . فقال : صدقت ؛ وأقبل أبو جُبَيلة فى جمع كثير لنصرة الأوس والخزرج . كذا قاله ابن زبالة .

وقد نقل رزين عن الشرقى ما يقتضى أن مالك بن العجلان هو الذى توجَّهَ بنفسه ، وأن ما ذكر من سيرة الفِطيَوْن فى افتضاض الأبكار إنما كانت فى غير الأوس والخزرج ، وأنه أراد أن يسير فيهم بذلك ، فقتله مالك بن العجلان ، فإنه قال : إن الفطيون كان قد شَرَطَ أن لا تدخل امرأة على زوجها حتى تدخل عليه ، فلما سكن الأوسُ والخزرجُ المدينةَ أراد أن يسير فيهم بتلك السيرة ؛ فتزوجت أخت مالك بن العجلان رجلا من بنى سليم ، فأرسل الفِطْيَوْنُ رسولا فى ذلك

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٣٦

وكان مالك أخوها غائباً ، فخرجت تطلبه ، فمرت بقوم أخوها فيهم ، فنادته ، فقال أخوها : لقد جئت بسُبَّة يا هنتاه ، تناديني ولا تستحيي ؟ فقالت : الذي يُراد بي أكبر ، فأخبرته ، فقال لها : أكْفِيكِ ذلك ، فقالت : وكيف ؟ فقال : أتزيَّا بزيّ النساء وأدخل معك عليه بالسيف فأقتله ، ففعل ، ثم خرج حتى قدم الشام فنزل على أبي جُبَيلة ، وكان نزلها حين نزلوا هم المدينة ، فجيش جيشاً عظيماً ، وأقبل كأنه يريد اليمن واختفى معهم مالك بن العَجْلاَن ، فجاء فنزل بذى حُرض ، وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتَوْا إليه فوصَلهم وأعطاهم ، ثم أرسل إلى بنى إسرائيل — يعنى اليهود — وقال : مَنْ أراد الحباء[1] من الملك فليخرج إليه ، وإنما فعل ذلك خِيفَةَ أن يتحصنوا فى الحصون فلا يقدر عليهم ، فخرج إليه أشرافُ بنى إسرائيل كلهم ، فأمرلهم بطعَام حتى اجتمعوا ، فقتلهم من عند آخرهم ، فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة ؛ ففى ذلك يقول البَلَوى يمدح مالكا فيما فعل :

فليشهدنَّ بما أقولُ عصابةٌ ... بَلَوِيَّةٌ وعصابة من سالم

هل كان للفِطْيَوْنِ عُمْرنساكم ... حكم النصيب وليس حكم الحاكم

حتى حَباه مالِكٌ عن عِرْسِه ... حمراء تضحك عن نجيع قاتم

ثم ذكر أبياتاً نسبها إلى أبي يزيد بن سالم أحَدِ بنى سالم بن عوف بن الخزرج مدح بها أبا جُبَيلة ونسبها ابنُ زبالة للرمق فإنه قال : إن الأوس والخزرج قالوا لأبى جُبَيلة لما قدم لنصرهم : إن علم القوم ما تريد تحصنوا فى آطامهم فلم تقدر عليهم ، ولكن ادعُهم للقائك وتلطفهم حتى يأمنوك ويطمئنوا فتستمكن منهم ، فصنع لهم طعاماً وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم ، فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه ، وجعل الرجل منهم يأتى بحامّته وحشمه[2] رجاء أن يحبوهم ، وكان قد بَنَى لهم حيزا وجعل فيه قوماً فأمرهم أن يقتلوا مَنْ دخل عليهم منهم ، ففعلوا حتى أتوا على

(١) الحباء — بزنة الكتاب — العطاء

(٢) حامة الرجل : خاصته من أهله وولده ، والحشم : كالخدم وزنا ومعنى

وجوههم ورؤسائهم ، فعزت الأوس والخزرج بالمدينة ، واتخذوا الديار والأموال والآطام ، فقال الرمق يثنى على أبى جُبَيْلة :

لم تقض دينك من حسان وقد عنيت وقد عنينا
قضيت همك فى الحسان فقد عنيت وقد عنينا

وفى رواية رزين :

الراشقات المرشقا ت الجازيات بماجزينا
أمثال غزلان الصَّرا ثم يأتزرن ويرتدينا
الرَّيْطَ والدِّيباجَ والـ ـحَلْيَ المفصل والبُرِينا[1]
وأبو جُبَيْلَةَ خير من يمشى ، وأوفاه يمينا
وأبَرُّهُمْ برًّا وأعـ ـلمهم بِهَدْىِ الصالحينا
القائد الخيلِ الصوا نع بالكُماة المُعْلِمِينَا
أبقت لنا الأيام والـ ـحَرْبُ الملمة تَعْتَرِينا
كَبْشاً له در يغـ ـل متونها الذكر السمينا
وَمَعاقلا شُمًّا وأسـ ـيافا يقمن وينحنينا
ومحـ ـلة زوراء تجـ ـحف بالرجال الظالمينا

وفى بعض الروايات أن مالك بن العَجْلان لما قتل الفِطْيَوْن قصد اليمن إلى تُبَّع الأصغر ؛ فشكا إليه ما كان الفِطْيَوْنُ يسير فيهم ، فعاهد أن لا يقرب امرأة ولا يمس طيباً ولا يشرب خمراً حتى يسير إلى المدينة ويذل مَن بها من اليهود ؛ ففعل ذلك .

وذكر ابن قتيبة فى معارفه تُبَّع بن حسان ، قال : وهو تبع الأصغر آخر التبابعة ، وذكر أنه صار إلى الشام وملوكها غسان فأطاعته ، قال : وصار إلى ابن أخيه الحارثِ وهو بالمستقر من ناحية هَجَر فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن

---

(١) البرين : جمع برة ـ بضم الباء وفتح الراء مخففة ـ كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال ، وتجمع أيضاً على برى مثل مدى

خرج مع عمرو مُزَيْقِياء وحالَفُوا اليهودَ بيثرب ـ أى وهم الأنصارُ ـ فشكَوُا اليهود ، وذكروا سوء مجاورتهم ، ونَقْضَهم الشرط الذى شرطوه لهم عند نزولهم ، ومَتُّوا[١] إليه بالرحم، فأحْفَظَه ذلك[٢] ، فصار إلى يثرب ونزل فى سَفْح أحُد، و بعث إلى اليهود ، فقتل منهم ثلاث مائة وخمسين رجلا صَبْرًا ، وأراد خرابها ، فقام إليه رجل من اليهود قد أتت عليه مائتان وخمسون سنة فقال : أيها الملك ، مثلُكَ لا يقتل على الغضَب ، وأمرك أعظم من أن يطير بك برق أو يسرع بك لجاج ، فإنك لا تستطيع أن تخرب هذه القرية ، قال : ولم ؟ قال : لأنها مُهاجَر نبى من ولد إسماعيل يخرج من عند هذه البَنِيَّةِ، يعنى البيتَ الحرام ، فكَفَّ تبع ومضى ومعه هذا اليهودى ورجل آخر من اليهود عالم ، وهما الحبران، فأتى مكة ، وكسا البيتَ ثم رجع إلى اليمن ومعه الحَبْران وقد دَانَ بدينهما وآمن بموسى صلى الله عليه وسلم ، اه .

فلعل مالك بن العَجْلان كان قد توجه إلى جهة ملك غَسَّان وبها تُبَّع المذكور فوقع من كل منهما نصرهُ ، فأضافه قوم إلى تبع ، وقومٌ إلى أبى جُبَيْلة الغسانى .

قالوا : ولعنت اليهودُ مالكَ بن العَجْلَان فى كنائسهم و بيوت عباداتهم ، فبلغه ذلك ، فقال :

تحامى اليهود بتَلعَانِهَا ... تحامى الحمير بأبوالها[٣]
وماذا علىّ بأن يلعنوا ... وتأتى المنايا بإذلالها

وقالت سارة القرظية ترثى من قتل من قومها :

بأهلِى رِمَّـةٌ لم تغن شيئًا ... بذى حرض تعفِّيهَا الرياحُ
كهول من قريظة أتلفتهم ... سيوفُ الخزْرَجية والرماحُ
ولو أذنوا بأمرهم لحَالَتْ ... هنالك دونهم حربٌ رَدَاحُ[٤]

قال أهل السير : ثم انصرف أبو جبيلة راجعا إلى الشام ، وقد ذلَّلَ الحجاز والمدينة ، ومَهَّدَها للأوس والخزرج .

---

(١) تقول: مت فلان إلى فلان بآصرة ، تريد أنه وصل نفسه به (٢) أحفظه: أغضبه
(٣) التلعان : اللعن (٤) حرب رداح ـ بزنة سحاب ـ ثقيلة تضم كتائب جرارة

ونقل المجد عن ياقوت أن تُبّعاً كان بالمدينة ، فإنه قال : وعكس ياقوت قصة افتضاض الأبكار ؛ فجعل أنها كانت باليمامة ، وأن أهل المدينة مع تُبّع هم الذين أزالوا هذه الفضيحة من اليمامة ، ثم أورد كلامَ ياقوت، وليس مضمونه ماذكره ؛ بل مضمونه أن مَنْ كان يُفْعَلُ فيهم هذه الفضيحة باليمامة احتالوا فى دفعها وقتلوا من كان يفعل بهم ذلك وغلبوا عليهم ، فهرب منهم شخص ولحق بتبع فَنَصَره تبع مع أهل المدينة ، وهو خبر ممتنع فلنورده تبعاً للمجد ، قال ياقوت: إن طَسْما وجَدِيسا من ولد لاوذ بن إرم بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام أقاموا باليمامة ، وكثروا بها ، حتى ملكوا عليهم عمليق الطَّسْمى ـ وكان جبارا غَشُوما ، وكان قد قضى بقضاء جائر بين امرأة وزوجها من جديس ، فأنشدت المرأة أبياتا بلغته ، فأمر ألاَّ لاتُزَوَّجَ بكر من جديس حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يفترعها(١) ـ ولَقُوا منه ذلا ، حتى زوجت منهم أخت الأسود بن غفار سيد جديس ، وكان جَلْدًا ، فلما كانت ليلةُ الإهداء خرجت والقِيَانُ(٢) حولها لتُحْمَلَ إلى عمليق وهن يضربن بمعازفهن و يقُلْن :

أَبْدَىْ بعمليق وقُومِى فاركبى   وبَادِرِى الصبحَ بأمرٍ معجب
فسوف تَلْقَيْنَ الذى لم تطلبى   وما لبكر دونه من مهرب

ثم أدخلت على عمليق فافترعها ، وقيل : كانت أيدةً(٣) ، فامتنعت عليه ، فخاف العار فوَجَأها(٤) بحديدة فى قُبُلها فأدماها ،فخرجت وقد تقاصرت إليها نفسُها فشقَّتْ ثوبها من خلفها ودماؤها تسيل ، فمرت بأخيها فى جمع من قومه وهى تبكى وتقول :

لا أَحَدٌ أَذَلّ من جَدِيس   أهٰكَذَا يفعل بالعروس(٥)

فى أبيات ، فأغضب ذلك أخاها، ووقفها على نادى قومه، وهى تقول :

---

(١) يفترعها : يفتضها ويزيل بكارتها (٢) القيان : جمع قينة ، وهى الجارية المغنية
(٣) أيدة : شديدة قوية (٤) وجأها : ضربها ووخزها
(٥) ذكر ياقوت مع هذا البيت بيتين آخرين (٥١٧/٨) .

أيَجْمُلُ أن يـؤتى إلى فتَيَاتـكم ... وأنتم رجال فيكم عـــدد الرمل (١)
أيجمـل تمشى فى الدما فتياتـكم ... صبيحَةَ زُفَّتْ فى العشاء إلى بَعْلِ (٢)
فإن أنتم لم تَغْضَبُوا بعد هٰـــذه ... فكونوا نساء لا تغب من الكحل
ودونكم ثوبَ العروس فإنمـــا ... خُلِقْتُمْ لأثواب العَرُوسِ وللغسل
فلو أننـــا كنا رجالا وكنتمُ ... نسـاء لكنا لا نقر على الذل
فَمُوتُوا كراما أو أميتوا عدوكم ... وكونوا كنار شب بالحطب الجَزْلِ
وإلا فَخَلوا بَطْنهـــا وتحمَّلوا ... إلى بلدٍ قَفْرٍ وهـزل من الهزل
فللموت خير من مقامٍ على أذى ... وللفقر خير من مقام على ثُكْلِ (٣)
فدبُّوا إليـــه بالصَّوَارم والقَنَا ... وكل حُسَام مُحْدَثِ العهد بالصَّقلِ
ولا تجزعوا للحرب قومى فإنمـا ... يقومُ رجال للرجال على رجل
فيهلك فيهـا كل وغل مواكل ... ويسلم فيهـا ذو الجلادة والفضل

فامتلأت جَدِيس غيظا، ونكسوا رءوسهم حياء، وتشاوروا فى الأمر، فقال الأسود: أطيعونى فإنه عز الدهر، وقد رأيت أن أصْنَعَ للملك طعاما ثم أدعُوَه وقومه، فإذا جاءُونا قتلت الملك، وقام كل منكم إلى رئيس منهم فقتله، فلا يبقى للباقين قوة، فَنَهَتْهُمْ أختُ الأسود عن الغدر، وقالت: ناجزوهم فلعل الله أن ينصركم عليهم لظلمهم؛ فعصوها فقالت:

لا تغدرُنَّ فإنَّ الغـدر مَنْقَصة ... وكل عيب يُرَى عَيْبا وإن صَغُرا
إنى أخاف عليكم مثل تلك غدًا ... وفى الأمـــور تدابير لمن نظرا
حُشُّوا سعيرا لهم فيها مُنَاجَزَةً ... فكلكم باسلٌ أرجو له الظفرا (٤)

فأجابها أخوها:

شتان باغ علينا غـــير متئد ... يغشى الظلامة لا يبقى ولن يذرا
إنا لعمرك لا نبـــدى مُنَاجَزَةً ... نخاف منها صُرُوفَ الدهر من ظفرا

(١) حفظى من عهد الطلب «أيجمل مايؤتى إلى فتياتكم»
(٢) حفظى «وتصبح تمشى فى الدماء عفيرة» (٣) فى ياقوت «وللهزل خير من مقام على ثكل»
(٤) حش النار: أوقدها، وفى المطبوعات «جيشوا» وفى ياقوت «حسوا» وكلاهما تطبيع.

إنى زعيم بطسم حين تحضرنا　　عند الطعام بضرب يهتك الفقرا[١]

وصنع الأسود الطعام ، ودفن كل منهم سيفه تحته فى الرمل مُجرَّدا ، فلما جلس الملك وقومُه للأكل وثبَتْ عليهم جديس حتى أبادوهم ، ثم قتلوا باقيهم ، فهرب رجل من طَسْم حتى لحق بتُبَّع تبان أسعد بن كلكيكرب ، وقيل : بحسَّان بن تُبَّع الحميرى وكان بالمدينة ، فاستغاثه ، وذكر أبياتا فيها غَدْرُ جديس بهم ، فوعده بنصره ، ثم رأى منه تباطؤاً فقال :

إنى طلبت لأوتارى ومَظْلِمَتِي　　بآل حسَّان آل العز والكرم

المنعمين إذا ما نعمة ذُكرت　　والواصلين بلا قُرْبى ولا رَحِم

قصة زرقاء اليمامة

فى أبيات أخرى ، فسار تبع من المدينة فى جيوشه ، حتى [إذا] كان عند جبل على ليلة من اليمامة قال له الطسمى : توقفْ أيها الملك فإن لى أختا متزوجة فى جديس يقال لها يمامة أبْصَر خلق الله على بعدٍ ، و إنى أخاف أن ترانا فتُنْذِرهم بنا ، فأقام تبع ، وأمر رجلا فصعد الجبل ليرى ما هناك ، فدخل فى رِجْله شوكة بالجبل ، فأكبَّ يستخرجها ، فأبصرته اليمامة ، وكانت زرقاء العين ، فقالت لهم : إنى أرى على الجبل الفلانى رجلا وما أظنه إلا عَيْناً[٢] ، فقالوا : مايصنع ؟ فقالت : إما يَخْصِف[٣] نَعْلا أو يَنْهَش كَتِفاً ، فكذبوها ، ثم قال الطسمى لتبع : إن بصرها بالليل أنفذ فمر أصحابك ليقطعوا من الشجر أغصانا ليستتروا بها فيشبهوا[٤] عليها الأمر ، ففعلوا ، حتى إذا دَنَوْا من اليمامة ليلا ؛ فنظرت اليمامة فقالت : يا جديس سارت إليكم الشجر ، أو جاءتكم أوائل خيل حمير ، فكذبوها ، فَصَبَّحتهم حمير ، فهرب الأسود فى نفر من قومه لجبلى طيء ، وفتح أهلُ المدينة حصونَ اليمامة ، وامتنع عليهم حصن زرقاء اليمامة ؛ فصابره تبع حتى افتتحه ، وقَبَضَ عليها ، وسألها : كيف أبصرتهم ؟ فأخبرته بخبر الذى صعد الجبل ، فسأله تبع ، فقال : صعدت فانقطع شِرَاكُ نعلى وأصابتنى شوكة ؛ فعالجت إصلاحها و إصلاح قبالى بفمى ،

(١) الفقر : جمع فقرة ، وهى الواحدة من خرزات الظهر

(٢) العين، هنا: الجاسوس (٣) يخصف: يرقع (٤) يشبهوا عليها: يلبسوا عليها الأمر

فقال لها: أنّى لك هذا(١)؟ قالت : كنت آخذ حَجَرا أسود فأدقّه وأكتحل به : فكان يقوى بصرى ، فيقال : إنها أول من اكتحل بالإثمد ، فأمر تبع بقَلْع عينيها ليرى ما فيهما ، فوجد عروقها كلها محشوة بالإثمد ، وخربت اليمامة يومئذ ؛ لأن تبعا قتل أهلها ، ولم يخلف بها أحدا ، ورجع إلى المدينة .

هذا ما ذكره المجد عن ياقوت باختصار ، وليس فيه عكس القضية ؛ فيجوز أن يقع بكل من اليمامة والمدينة مثل هذا ، والظاهر أن قصة اليمامة كانت بعد قصة المدينة .

ونقل رزين عن الشرقى أن أباجُبَيْلة لما فرغ من نصر أهل المدينة رجع إلى الشام ؛ فأقبل تبع الأخير ـ وهو كرب بن حَسَّان بن أسعد الحميرى، والتبابعة كلهم من حمير ـ يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل ؛ فمرّ بالمدينة ، فخلف فيها ابنا له ومضى حتى قدم الشام ، ثم سار حتى قدم العراق ، فلما كان بالعراق قُتِلَ ابنهُ بالمدينة غِيلة(٢) فأقبل راجعا يريد تخريب المدينة ، فنزل بسفح أُحُدٍ ، فاحتفر بئرا ثم أرسل إلى أشراف المدينة ، فلما جاءهم الرسول قال بعضهم : إنما أراد أن يملكنا على قومنا ، وقال أحيحة : والله ما دعاكم لخير ، وكان لأحيحة رَئِىٌّ من الجن(٣) فخرجوا وخرج أحيحة معه بقَيْنة وخمر وخباء ، فضرب الخباء وجعل فيه القينة والخمر ، ثم دخل على تبع أولَ الناسِ . فتحدث معه ، ففطن بالشر ، ثم قال : إن أصحابى يَصِلُونَكَ إلى الظهر ، فاستأذن فى الخروج إلى الخيمة ، فأذن له ، فشرب وجعلت القينة تُغَنيه بأبيات صَنَعها لها تقول :

---

(١) أنى لك هذا : من أين لك هذا ، وفى القرآن الكريم : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال : يامريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله)

(٢) قتله غيلة : أى غدراً من غير أن يظهر القاتل له ويناجزه

(٣) كان أهل الجاهلية يعتقدون أن لكل كاهن صاحبا من الجن يسترق له السمع ويلقى عليه مايسمعه ، وقد حكى القرآن الكريم استراق السمع على لسان الجن .

لتبكني قينة ومزهرها وتبكني قهوة وشاربها
وتبكني عصبة إذا اجتمعت لا يعلم النـاس ما عواقبها

وهو يقلّ من الشراب ، وجاء أصحابه قريبا من الليل ، فأمر لهم تبعٌ بضيافة ، فلما كان فى جوف الليل أرسل إليهم ليقتلهم ، ففطن أحيحة ، فقال للقينة : أنا سائر إلى أهلى ، فإذا طلبنى الملك فقولى : هو نائم ، فإذا ألحوا فقولى : يقول لك : أما أحيحة فقد ذهب فاغدِرْ بقينته أو دَعْ ، وانطلق فتحصن فى حصنه ، فحاصروه ثلاثا يقاتلهم بالنهار ، وإذا كان بالليل يرمى إليهم بتمر ويقول : هذا ضيافتكم . فأخبروا تبعا أنه فى حصن حصين ، فأمرهم أن يحرقوا نخله ، واشتعلت الحربُ بين تبع وأهل المدينة من اليهود والأوس والخزرج ، وتحصَّنُوا فى الآطام ، فخرج رجل من أصحاب تبع حتى جاء بنى عَدِىّ بن النجار ، فدخل لهم حديقة ، فرقى على عذق منها . فأخذ يجده[1] ، فنزل إليه صاحب العذق فقتله وجره إلى بئر وألقاه فيها ، وهو يقول :

جانا يجــدُّ نخيلنا وكان الجداد لمن قد أبَرْه[2]

فزاد ذلك تبعاً حَنَقاً[3] ، وجرد إلى بنى النجار خيلا ، فقاتلهم بنو النجار ورئيسهم يومئذٍ عمرو بن طلحة أخو بنى معاوية بن مالك بن النجار ، ورمى عسكر تبع حصون الأنصار بالنبل ، فلقد جاء الإسلامُ والنبل فيها ، وجزع فى القتال فرس تبع فخلف لا يبرح حتى يخر بها بزعمه ، فسمع بذلك أحبارٌ من اليهود فنزلوا إليه وقالوا : أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة ، فإنا نجد اسمها فى الكتاب طيبة ، وإنها مُهَاجَر نبى[4] من بنى إسماعيل من الحرم ، وهى تكون قراره فلن تُسلط عليها ، فأعجب تبع بقولهم ، فصرف تبع نيته عنها ، وأمر أهلَ المدينة فتبايعوا مع العسكر ، وكان تبع قد استوبأ

---

(١) يجده : يقطعه ، والعذق ، بالكسر : سباطة النخل
(٢) أبر النخل يأبره ـ من باب ضرب ـ أصلحه ، والبيت لا يستقيم صدره مع عجزه
(٣) الحنق ـ بالتحريك ـ الغضب (٤) مهاجر نبي : مكان هجرته

بئره[١] التي حفر «فرض»، فجاءته امرأة من بنى زريق اسمها فكهة براوية[٢] من بئر رُومَة فأعجبه فاستاذه ، فلما كان رحيله قال لها: يافكهة مانترك فى موضعنا من شىء إذا رحلنا فهو لك ، فأخذت ذلك ، فاستغنت منه ، وخرج تبع يريد اليمن ومعه من الأحبار الذين نَهَوْه عن خراب المدينة رجلان أو ثلاثة ، فقال لهم : تسيرون معى أياما آنَسُ بحديثكم ، فكانوا يحدثونه عن الكتاب وعن قصة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يتركهم حتى وصلوا معه إلى اليمن ؛ فهم كانوا أول يهودى دخل اليمن ، واتفق فى مسيرِه قصة إكسائه الكعبة .

وقد قدمنا فى بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل ملكَ اليهود قصد اليمن إلى تبع الأصغر ، وأنه الذى نصرهم على يهود ، ولعل هذا مراد ياقوت لقوله « إن يهود كانوا أهل المدينة حتى أتاهم تبع فأنزل معهم بنى عمرو بن عوف » لكن نقل المجد وغيره عن المبتدأ لابن إسحاق أنه قال فى بيت أبى أيوب الذى نزله النبى صلى الله عليه وسلم مَقْدَمَه[٣] المدينة : إن تبعاً الأول بناه لما مر بالمدينة ، قال فى المبتدأ : واسمه تبان أسعد بن كلكيكرب ، وكان معه أربعمائة عالم ، فتعاقدوا على أن لايخرجوا منها ، فسألهم تبع عن سر ذلك ، فقالوا : إنا نجد فى كتبنا أن نبياً اسمه محمد هذه دار مُهاجره ؛ فنحن نقيم لعل أن نلقاه ، فأراد تبع الإقامة معهم ، ثم بَنَى لكل واحد من أولئك دارا واشترى له جارية وزوجها منه وأعطاه مالا جزيلا ، وكتب كتاباً فيه إسلامه، ومنه :

شهدت على أحمد أنه ... رسولٌ من الله بارى النَّسَمْ[٤]
فلو مدَّ عمرى إلى عمره ... لكنت وزيراً له وابنَ عَمّْ

وختمه بالذهب ، ودفعه إلى كبيرهم ، وسأله أن يدفعه إلى النبى صلى الله عليه

---

(١) استوباه : وجده وبيئا (٢) الراوية : المزادة مملوءة ماء
(٣) مقدمة المدينة : يعنى فى وقت قدومه إليها .
(٤) البارى : أصله البارىء ، ومعناه الخالق ، والنسم : جمع نسمة

وسلم إن أدركه ، وإلا فمَنْ أدركه من ولده أو ولد ولده ، وبَنَى للنبي صلى الله عليه وسلم دارا لينزلها إذا قدم المدينة ، فتداول الدارَ الملاكُ إلى أن صارت لأبى أيوب وهو من ولد ذلك العالم ، وأهل المدينة الذين نصروه كلهم من أولاد أولئك العلماء ، انتهى .

زاد غيرالمجد : ويقال : إن الكتاب الذى فيه الشعر كان عندأبىأيوب حين نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فدفعه له ، وهو غريب ، وكتب التواريخ متظاهرة[1] على ما قدمناه فى أمر الأنصار ونسبهم .

وقد ذكر السهيلى إيمان تُبَّع بالنبي صلىالله عليه وسلم ، وذكر البيتين ، وروى حديث «لاتَسُبُّوا تبعاً فإنه كان مؤمنا» .

وروى عبد الرزاق عن وَهْب بن منبه قال : نهى النبي صلىالله عليه وسلم عن سب أسعد وهو تبع . قال وهب : وكان على دين إبراهيم .

وروى أحمد من حديث سَهْل بن سعيد رفعه « لاتسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم » وأخرجه الطبرانى من حديث ابن عباس مثله ، وإسناده أصلح من إسناد سهل ، وأما مارواه عبد الرزاق عن أبى هريرة مرفوعا « لا أدرى تبع كان لعينا أم لا » فمحمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم بحاله .

وقال المرجانى : إن أبا كرب بن أسعد الحميرى آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وقال : * شهدت على أحمد — البيتين المقدمين * وإن أباه أسعد هو تُبَّع الذى كسا الكعبة ، ونقله عن حكاية ابن قتيبة ، والذى رأيته فى المعارف[2] لابن قتيبة أن أسعد أبا كرب الحميرىهو الموصوف بما ذكره .

---

(١) متظاهرة : متساندة يقوى بعضها بعضا ؛ لأنها متفقة فىهذا الذى يذكره .

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة (طبع الإسلامية فى سنة ١٣٥٣ ص ٢٧٤) وقد أشار إلى خلاف فيمن كسا البيت أهو تبع الأوسط أم تبع الآخر ، ولكنه لم يذكر خلافا فى أن الذى آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم هو أسعد أبو كرب بن كليكرب ، كما ذكر أنالذى ذهب إلى جديس هو حسان بن تبع

وروى ابن زبالة أن تبعاً لما قدم المدينة وأراد إخرابها جاءه حَبْرَان من قُرَيْظَة يقال لهما سحيت ومنبه فقالا : أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة ، وإنها مُهَاجر نبي من بنى إسماعيل اسمه أحمد يخرج فى آخر الزمان ، فأعجبه ما سمع منهما ، فصدقهما وكَفَّ(١) عن أهل المدينة .

الفصل الخامس

فى منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود ، وشىء من آطامهم ، ومادخل بينهم من الحروب ، وهو نافع فى معرفة جهات المساجد التى لا تعرف اليوم ، وغير ذلك .

اعلم أن ابن زَبَالة نقل ما حاصله أن الأوس والخزرج بعد انصراف أبى جُبَيْلة ونصره لهم تفرقوا فى عالية المدينة وسافلتها ، واتخذوا الأموال والآطام ، فنزل بنو عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج الأصغر و بنو حارثة بن الحارث ابن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة فكلاهما من الأوس دَارَ بنى عبد الأشهل قبلى دار بنى ظفر مع طرف الحرة الشرقية ، قاله المطرى ، والذى يظهر لى أن منازلهم كانت قريبة من منازل بنى ظفر فى شاميها وتمتد إلى الحرة المعروفة اليوم بدشم وما حولها ، بل سيأتى فى ترجمة الخندق ما يقتضى أن منازلهم كانت بالقرب من الشيخين(٢) . وابتنى بنو عبد الأشهل أُطُماً يقال له « واقم » وبه سميت الناحية واقما ، وكان لحضير بن سماك ، وله يقول شاعرهم :

نحن بنينا واقماً بالحـــرة ... بلازبِ الطين و بالأصرة

وله يقول خُفَاف بن نَدْبة :

---

(١) كف عنهم : تركهم

(٢) قال ياقوت (٣١٩/٥) : «شيخان بلفظ تثنية شيخ : كان فيه معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة خرج لقتال المشركين بأحد ، وهناك عرض الناس فأجاز من رأى ورد من رأى ، قال أبوسعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت ممن رد من الشيخين يوم أحد ،وقيل : هما أطمان ،سميا به لأن شيخا وشيخة كانا يتحدثان هناك » اه .

لَوَ أَنَّ المنايا جُزْنَ عن ذى مهابة　　لهِبْنَ حضيراً يوم أغلق واقما[1]
يطيف به حتى إذا الليل جنّه　　تبوّأ منه مضجعاً متناغماً

وأطما يقال له « الرعل » بالمال الذى يقال له واسط لصخرة أم بنى عبدالأشهل ، وله يقول شاعرهم يوم بُعَاث :

* نحن بنو صخرة أرباب الرعل *

وآطاما غير ذلك ، وابْتَنَى بنو حارثة أطماً اسمه « المسيّر » صار لبنى عبد الأشهل بعد خروج بنى حارثة من دارهم ؛ فإنَّ بنى حارثة تحوّلوا من دارهم هذه إلى غربى مشهد سيدنا حمزة رضى الله عنه فى الموضع المعروف اليوم بيثرب ؛ فكانت بها منازلهم على ما قدمناه عن المطرى فى الباب الأول . والذى تحرر لى من مجموع كلام الواقدى وابن زبالة وغيرهما أن منازلهم التى استقروا بها وجاء الإسلام وهم فيها كانت فى شامى بنى عبد الأشهل بالحرة الشرقية . ويؤيد ذلك ما سيأتى فى ترجمة الخندق من أن النبى صلى الله عليه وسلم خَطه من أجمة الشيخين طرف بنى حارثة كما رواه الطبرانى .

وقد قال المطرى كما سيأتى عنه : الشيخان : موضع بين المدينة وبين جبل أحد ، على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد . ويؤيده أيضاً أن المطرى قد ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم غدا إلى أُحُد يوم وقعته على الطريق الشرقية المذكورة ، وسيأتى أنه بات بالشيخين .

وفى المعارف لابن قتيبة عن ابن إسحاق : فلما سارت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى نزلوا بيوت بنى حارثة ، فأقاموا بقية يومهم وليلتهم . ثم خرج فى غد ، وذكر انخزال[1] عبد الله بن أبىّ ؛ فتحرر أن بيوت بنى حارثة عند الشيخين وفى ناحيتهما .

---

(١) جزن عنه : تجاوزنه ولم ينزلن به ، وذوالمهابة : الذى يهابه الناس ويخافونه، وهبن حضيراً : خفنه ، ووقع فى المطبوعات « لهين حضيرا » تطبيع .

(٢) انخزل : تخاذل ورجع عن الحرب

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز ذلك اليوم فى حائط لمربع بن قيظ ، واتفق له معه ما سيأتى ذكره ، ومربع هذا من بنى حارثة أيضاً فقد قدمنا فى الفصل الرابع فى تحريمها قولَ أبى هريرة فى رواية الإسماعيلى: ثم جاء — يعنى النبي صلى الله عليه وسلم — بنى حارثة وهم فى سَنَد الحرة . اه . وليس الموضع الذى ذكره المطرى فى سَنَد الحرة ، بخلاف الموضع الذى قدمناه ، مع أنه يحتمل أن بعض منازل بنى حارثة كانت بالموضع الذى ذكره المطرى أيضاً .

قال ابن زبالة : وابتنوا بها — أى بدارهم الثانية — أطما يقال له « الريان » عند مسجد بنى حارثة كان لبنى مجدعة بن حارثة ، وسبب خروج بنى حارثة من دار بنى عبد الأشهل حرب كانت بينهم و بين بنى عبد الأشهل ، ووالى بنو ظفر بنى عبد الأشهل ، ثم هزمهم بنو حارثة وقتلوا سماك بن رافع وكان باغياً ، قتله مسعود أبو محيصة الحارثى ، وظفرت بهم بنوحارثة فأجْلَوْهُم أولا ؛ فلحقوا بأرض بنى سُليم ، فسار حضير بن سماك ببنى سليم حتى قاتل بنى حارثة ، فقتل منهم ، واشتد عليهم الحصار بأطمهم المسير المتقدم ذكره فى دار بنى عبد الأشهل . فسارت بنو عمرو بن عوف و بنو خطمة إليهم ، وقالوا : إما أن تُخَلُّوا سبيلهم ، و إما أن تأخذوا عَقْلَ[1] صاحبكم ، و إما أن تصالحوهم ، فاختاروا أن يُجْلوهم ، فخرج بنو حارثة إلى خيبر فكانوا بها قريباً من سنة ، ثم رقَّ لهم حضير وطلب صلحهم ، فخرجت السُّفراء فى ذلك حتى اصطلحوا ، وأبَتْ بنو حارثة أن ينزلوا دارهم مع بنى عبد الأشهل ، ونزلوا الدار المعروفة بهم اليوم ، اه .

ونزل بنو ظَفَر وهو كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس دارهم شرقى البقيع عند مسجدهم : أى المعروف بمسجد البغلة بجوار بنى عبد الأشهل .

---

(١) العقل : الدية ، سموها بذلك لأنها كانت تؤخذ من الإبل ونحوها ، وكانت قبيلة القاتل تأتى بالإبل فتعقلها بفناء دار القتيل أو حولها ، ومعنى تعقلها تربطها

وذكر ابن حزم فى الجمهرة أن بطون بنى عمرو بن مالك بن الأوس [وهم] (١) النبيت : منهم ظفر ، وحارثة ، وبنو عبد الأشهل ، وبنو زَعُورا بن جُشَم ابن الحارث أخى عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك ابن الأوس .

ولم يذكر ابن زبالة بنى زعورا فى هـــذه البطون ، بل ولا فى بطون الأنصار كلها .

وذكر ابن حزم أن منهم مالك بن التيهان و بنى أوس بن عتيك وغيرهم ، وقال فى موضع آخر : فولد جُشَم عبد الأشهل ، بطن ضخم ، وزعورا بطن ، وهم أهل راتج .

ونزل بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس قبـاء ؛ فابتنوا أطما يقال له « الشُّنَيْف » عند دار أبى سفيان بن الحارث بين أحجار المراء و بين مجلس بنى الموالى ، كان لبنى ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف ، وأطما فى دار عبد الله بن أبى أحمد ، كان لـكلثوم بن الهدم من بنى عبيد بن زيد بن أظلم أخى بنى عبيد ابن زيد بن مالك ، وأطما يقال له واقم كان بقباء لأحيحة بن الجلاح الجحجبى ثم صار لبنى عبد المنذر بن رفاعة فى دية جدهم رفاعة بن زر بن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف ، وله يقول كعب بن مالك :

فلا تتهدَّدْ بالوعيــد سَفَاهَةً وأوعِدْ شُنَيْفاً إن عصيت وواقما

وكان فى رحبة بنى زيد بن مالك بن عوف أربعة عشر أطما يقال لها الصَّيَاصى ، وكان لهم أطم بالمسكبة شرقى مسجد قباء ، وأطم يقال له « المستظل » كان موضعه عند بئر غرس ، كان لأحيحة ثم صار لبنى عبد المنذر فى دية جدهم رفاعة ، ثم خرجت بنو جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف من قباء حين قتلوا

(١) هذه الكلمة عن جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٣١٩) وظفر عنده ابن الخزرج بن عمرو بن مالك ، واسمه كعب ، وأما جشم وحارثة فمن ولد الحارث ابن الخزرج ، وزعورا وعبد الأشهل ابنا جشم بن الحارث بن الخزرج

رفاعة بن زر وغنما أخا بنى عمرو بن عوف فسكنوا العصبة ، وهى غربى مسجد قباء ، قال سعد بن عمرو الجحجبى لبشر بن السائب : تدرى لم سكنا العصبة ؟ قال : لا ، قال : لأنا قتلنا قتيلا منكم فى الجاهلية ، فقال بشر : والأمانة لوددت أنكم قتلتم منا آخر وأنكم وراء عَيْر ، يعنى الجبل الذى غربى العصبة .

وابتنى أحيحة بن الجلاح بالعصبة أطما يقال له «الضحيان» وهو الأطم الأسود الذى بالعصبة ، وكان عرضه قريباً من طوله ، بَنَاه أولا من بثرة بيضاء(١) فسقط ، يعنى من حجارة الحرار البيض . وكان يُرَى من المكان البعيد ، وفيه يقول أحيحة :

وقد أعدَدْتُ للحِدْثَانِ حصناً ... لَوَ أنَّ المرء تنفعه العقــول

طويل الرأس أبيض مُشْمَخِرٌّ ... يلوح كأنه سيف صــقيل

وابتنوا هم و بنو مجدعة أطما يقال له « الهجيم » عند المسجد الذى صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم أن بنى أنيف كانوا مع اليهود بقباء ، وأنهم حى من بَلى ؛ فلذلك لم يذكر ابن زبالة منازلهم هنا ، وسيأتى فى المساجد عن المطرى وتبعه المجد أن بنى أنيف بطن من الأوس ، وأن منازلهم كانت بين بنى عمرو بن عوف و بين العصبة ، ومأخذ المطرى فى نسبتهم إلى الأوس قولُ أهل السير فى المغازى : شهد من الأوس كذا وكذا رجلا ، ثم يذكرون فيهم بعضَ بنى أنيف ؛ وذلك لأنهم حلفاء الأوس ، لا لأنهم منهم ، نبه عليه ابنُ إسحاق حيث قال : شهد بدراً من الأوس بضع وستون رجلا ، فذكر من بنى جحجبا جماعةً ، ثم قال : ومن حلفائهم من بنى أنيف أبو عقيل ، ثم نسبه إلى بلى بن عمرو ابن الحاف بن قضاعة ، لكن استفدنا من كلام المطرى أن منازلهم بين العصبة وقباء ، ويستفاد مما قدمناه عن ابن زبالة أن من منازلهم بئر عذق وما حولها والمال الذى يقال له القائم ، وذلك معروف بقباء .

---

(١) بثرة بيضاء : أى حجارة بيض ، كما سيصرح به .

وخرجت بنو معـــاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف فسكنوا دارهم التى وراء بقيع الغرقد المعروفة بهم ، ولا يشكل عليه ما سيأتى فى دور بنى النجار من الخزرج من أن حُديلة[١] لقب لمعاوية بن عمرو بن مالك بن النجار للاشتراك فى الاسم ، ولـكن الشهرة ببنى معاوية لهؤلاء ، وأولئك يعرفون ببنى حُديلة[١] ، وقد اشتبه ذلك على المطرى فقال فى مسجد بنى معاوية ــ وهو مسجد الإجابة ــ مالفظه : هو مسجد بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ثم قال فى دور بنى النجار : إن بنى حُديلة[١] هم بنو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ودارهم عند بئر حاء. ثم قال : ودار بنى دينار بين دار بنى معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أهـل مسجد الإجابة ، ودار بنى حُديلة[١] ، فذكر أولا أنهم هم ، ثم غاير بينهما ، والصوابُ المغـايرة ، وأن بنى حُديلة[١] من الخزرج ، و بنى معاوية من الأوس ، وقد صرح بتغايرهما أهــــلُ السير ، ونسبوهما كما ذكرنا ، ومسجد الإجابة لبنى معاوية من الأوس ، والذى أوقع المطرى فى هذا ما سيأتى عن عياض فى بنى حُديلة[١] إن شاء الله تعـالى .

ومن بنى معاوية هؤلاء حاطبُ بن قَيْس ، وفيـه كانت حرب حاطب كما ذكره ابن حزم .

وخرجت بنو السميعة ــ وهم بنو لوذان بن عمرو بن عوف ــ فسكنوا عنـد زقاق ركيح ، وابتنوا أُطُما يقال له « السعدان » وموضعه فى الرّبع (حائط هناك) ذكره ابن زبالة ، ولعل الرّبع هو الحديقة المعروفة اليوم بالربعى ، وكان بنو السميعة يدعون فى الجاهلية بنو الصماء ، فسماهم النبى صلى الله عليه وسلم بنى السميعة .

ونزل بنو واقف والسلَم ابنا امرىء القيس بن مالك بن الأوس عند مسجد الفضيخ ، فكانا هنالك وولدهما .

وابتنى بنو واقف أطما يقال له « الزيدان » وله يقول قيس بن رفاعة :

---

(١) وقع فى المطبوعات « بنوجديلة » بالجيم — فى كل المواضع ، وهو كذلك فى الخلاصة ، والصواب أنه بالحاء المهملة المضمومة ، على زنة المصغر

وكيف أرجو لذيذ العيش بعدهمُ   وبعد مَنْ قد مَضَى من أهل زيدان

كان لهم عامة موضعه فى قبلة مسجد الفضيخ ، وأطما كان موضعه عند بئر عائشة الواقفى ، وغير ذلك ، ثم كان بين السَّلَم وواقف كلام ، فلطم واقف وهو الأكبرُ عينَ السلمِ — وكان شرساً — خلف لا يساكنه ، فنزل السَّلَم على بنى عمرو ابن عوف ، فلم يزل ولده فيهم ، (ومن بقيتهم سعد بن خيثمة بن الحارث) ثم انقرضوا سنة تسع وتسعين ومائة .

وكان لبنى السلم حصن شرقى مسجد قباء ، ذكره ابن زبالة ، وقد ذكر ابن حزم انقراض جميع بنى السلم ، قال : وكان قد بلغ عددهم فى الجاهلية ألف مقاتل .

قلت : وفى قبلة مسجد الفضيخ عند الحديقة المعروفة بالأشرفية والسابور آثار آطام وقرية وحصن عظيم ، فهى منازل بنى واقف .

ونزل بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس فى دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا أطما يقال له « الموجا » كان موضعه فى مسجد بنى وائل

ونزل بنو أمية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس فى دارهم المعروفة بهم التى بها الكبا يمر فيها سيل مذينيب بين بيوتهم ثم يلتقى هو وسيل بنى قُرَيظة بفضاء بنى خطمة ، ويؤخذ مما ذكره ابن زبالة فى منازل بنى النضير بالنواعم قربه منزل بنى أمية بن زيد منهم .

وفى صحيح البخارى عن عمر رضى الله عنه قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد ، وهى من عوالى المدينة ، نتناوب النزولَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن زبالة : وابتنوا أطما يقال له «أطم العذق» كان عند الكبا المواجهة مسجد بنى أمية ، وأطما كان فى دار آل رُوَيفع التى فى شرقى مسجد بنى أمية .

ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس

بصَفْنَةَ فوق بنى الْحُبْلَى ، وصفنة ـ كجفنة ـ بإهمال أوله سميت بذلك لارتفاعها عن السيول فلم تشرب بشىء منها ، وابتنوا فيها أطما اسمه «شاس[1]» كان لشاس بن قيس أخى بنى عطيـة بن زيد ، وهو الذى على يسارك فى رَحْبـة مسجد قباء مستقبل القبلة ، ووائل وأمية وعطية بنو زيد هم الجعادِرة[2] ، سموا به لأنهم [كانوا] إذا أجاروا جارا قالوا له : جعدر حيث شئت : أى اذهب حيث شئت ، فلا بأس عليك ، فقال الرمق بن زيد :

وإن لنا بين الجوارى وليـــدة   مقابلة بين الجعـــادِر والكسر
متى تَدْعُ فى الزيدين زيد بن مالك   وزيد بن قيس تأتها عزة النصر

قالوا : والكسر أمية وعبيد وضُبَيْعة بنو زيد بن مالك بن عوف ، كان يقال لهم كسر الذهب وذلك أراد الرمق بقوله « والكسر » كذا قاله ابن زبالة ، ونقل رزين أن الجعادرة الأوس كلهم فإنه قال فيما نقل عن الشرقى : فولد الأوس مالكا ومن مالك قبائل الأوس كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم : أوس الله ، وهم الجعادِرة ، سموا بذلك لقصر فيهم ، اه .

قلت : وسيأتى عن ابن إسحاق فى آخر الفصل السابع ما يقتضى أن أوس الله هم بنو أمية بن زيد ووائل وواقف وخطمة ، والله أعلم .

ونزل بنو خطمة ـ وخطمة هو عبد الله بن جُشَم بن مالك بن الأوس ـ دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا بها الآطام ، وغرسوا النخيل ، فابتنوا بها أطما يقال له « صع ذرع » ليس فيه بيوت ، جعلوه كالحصن الذى يتحصنون فيه للقتال ، وكان لخطمة كلها ، وكان موضعه عند مهراس بنى خطمة ، وإنما سمى « صع ذرع » لأنه كان عند بئر بنى خطمة التى يقال لها ذرع ، وابتنى أميـة بن عامر بن خطمة أطما كان موضعه فى مال الماجشون الذى يلى صدقة أبان بن أبى حُدير .

---

(١) فى خلاصة الوفا « شاش » بشينين معجمتين

(٢) فى المطبوعات « الجعاذرة » بالذال المعجمة ، وفى القاموس « والجعادرة بنو مرة بن مالك بن الأوس » بالدال مهملة

قلت : والظاهر أنه المسمى اليوم « بالمجشونية » فإن اسمه الأصلى «الماجشونية» على ما تقدم فى تربة صُعَيب .

وقال المطرى : منازل بنى خطمة لا يعرف مكانها اليوم ، إلا أن الأظهر أنهم كانوا بالعــوالى شرقى مسجد الشمس ؛ لأن تلك النواحى كلها ديار الأوس ، وما سَفَلَ من ذلك إلى المدينة ديار الخزرج ، اه .

وفى قوله « وما سفل إلخ » نظر ، والذى يظهر أن أول منازل الخزرج فى هذه الجهة منازل بنى الحارث كما سيأتى ، وفوقها بنو خطمة ، وسيأتى فى وادى بُطْحَانَ ووادى مهزور ما يؤيد ذلك .

وكان بنو خطمة متفرقين فى آطامهم ، لم يكن فى قصبة دارهم منهم أحد ، فلما جاء الإسلام اتخذوا مسجدهم ، وابتنى رجل منهم عند المسجد بيتاً سكنه ، فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عَدَا عليه ، ثم كثروا فى الدار حتى كان يقال لهم غزة ، تشبيهاً بغزة الشام ن كثرة أهلها .

وقد انتهى الكلام فى منازل الأوس وهذه منازل الخزرج .

قال ابن زبالة: ونزل بنو الحارث بن الخزرج الأكبر بن حارثة وَهم بلحارث دارَهُم المعروفة بهم بالعوالى : أى شرقى وادى بُطْحان وتربة صُعَيب ، يعرف اليوم بالحارث بإسقاط بنى ، وابتنوا أطما كان لبنى امرئ القيس بن مالك ، وخرج جشم وزيد ابنا الحارث بن الخزرج وهما التوءمان فسكنا السنح ، وهذا هو المراد بقول ابن حزم: كان سكنى بنى الحارث بالسُّنْح [1] على ميل من مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال ابن زبالة : وابتنوا أطما يقال له « السُّنْح [1] » وبه سميت الناحية ، ويقال

---

(١) قال ياقوت (١٤٨/٥) « سنح : بضم أوله وسكون ثانية وآخره حاء مهملة ، إحدى محال المدينة ، كان بها منزل أبى بكر الصديق حين تزوج مليكة — وقيل حبيبة — بنت خارجة بن زيد بن زهير بن مالك بن امرىء القيس » اه

بل اسمهُ « الريان» انتهى . وبالسُّنُح كان منزل أبى بكر الصديق رضى الله عنه بزوجته بنت خارجة بن زيد ، قاله عياض ، قال : وهو منازل بنى الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة ، و بينه و بين منزل النبى صلى الله عليه وسلم ميل ، انتهى . فكان السنح ـ وهو كما قال عياض وغيره بالسين المهملة ثم النون ـ بالقرب من منازل بنى الحارث بالعوالى(١) . وخرج عتبة بن عمر بن خديج بن عامر بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج فسكن الشوط وكوم الكومة يقال لها « كومة أبى الحمراء » ثم رجع فى السنح . وخرجت بنو خدْرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج حتى سكنوا الدار التى يقال لها « جرار سعد » مما يلى سوق المدينة ، وخرجت بنو الأبجر وهو خدرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج وهم بنو خدرة أخوة بنى خدارة فسكنوا دارهم المعروفة ببنى خدرة ، وابتنوا أطما يقال له « الأجرد » وهو الأطم الذى يقال لبئره البصة ، كان لمالك بن سنان جد أبى سعيد الُخدْرى ، وذكر ابنُ حزم للحارث بن الخزرج الأكبر ابناً اسمه الخزرج بن الحارث ، وقال فيه : فولد الخزرج كعباً ، فسار بعض بنيه إلى الشام مع غسان ، فليس من الأنصار ، ثم سمى مَنْ بقى منهم الأنصار .

ونزل سالم وغنم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدارَ التى يقال لها « دار بنى سالم » على طرف الحرة الغربية غربى الوادى الذى به مسجد الجمعة ببطن رانونا ، وابتنوا آطاما : منها « المزدلف » أطم عتبان بن مالك ، قاله المطرى ، وقال : المزدلف هو الأطم الذى بناه عتبان بن مالك ، كان لمالك بن العجلان السالمى ، وله يقول مالك * إنِّى بنيتُ للحروب المُزْدَلِفْ * ومنها « الشماخ » كان خارجاً عن بيوت بنى سالم من جهة القبلة ، ومنها أطم « القواقل » وهو الذى فى طرف بيوت بنى سالم مما يلى ناحية العصبة ، كان لبنى سالم بن عوف ، وتسميته بذلك يرجح ما ذكره ابنُ سيد الناس من أن القواقل(٢) بنو غنم

(١) فى الخلاصة « أول العالية »

(٢) فى القاموس « القوقل : اسم أبى بطن من الأنصار لأنه كان إذا أتاه إنسان يستجير به أو بيثرب قال له : قوقل فى هذا الجبل وقد أمنت ، أى ارتق ، وهم القواقلة »

و بنو سالم ابنى عوف ، سموا بذلك لأنهم كانوا إذا أجاروا جارا قال له : قوقل حيث شئت ، وأفهم سياقُ بعضهم أن القواقل بعضُ بنى سالم بن غنم ، وهم بنو الحبلى ، وما قدمناه هو الظاهر؛ لما سيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاء إلى المدينة . وقال ابن حزم : ولَدُ عوف بن عمرو سالم بطن ، وغنم بطن ، وعنز بطن ، وهو قوقل ، وذكر من ولده عُبَادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة ابن قوقل بن عوف بن عمرو .

ونزل بنو غصينة حيٌّ من بَلِى حُلَفَاء لبنى سالم عند مسجد بنى غصينة .

ونزل بنو الحبلى — بلفظ المرأة الحبلى — واسمه مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدارَ المعروفةَ بهم بين قباء و بين دار ابنى الحارث بن الخزرج التى شرقى وادى بُطْحان وصُعَيب ، كذا قاله المطرى ، وأظن مستنده ما تقدم فى منازل الأوس من قول ابن زبالة : ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس بصَفْنَةَ فوق بنى الحبلى إلى آخره ، وقال ابن حزم : كانت دار بنى الحبلى بين دار بنى النجار و بين بنى ساعدة .

قلت : وسيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاء إلى المدينة ما يؤيده ، وكذلك مروره صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبىّ فى ذهابه لعيادة سعد بن عبادة ، وما ذكره من أن الحبلى اسمه مالك بن سالم ذكره ابن زبالة ، وقال ابن هشام : الحبلى سالم بن غنم بن عوف ، وإنما سمى الحبلى لعظم بطنه ، انتهى .

وذكر ابن حزم نحوه ، والظاهر أن الحبلى كان يطلق على سالم والد مالك المذكور ، ثم اشتهر به ابنهُ هذا من بين بنيه ، وحينئذ فيحمل ما تقدم عن ابن زبالة فى نزول بنى عطية بن زيد بصَفْنَة فوق بنى الحبلى ، على أن المراد دار سالم ابن غنم فى دار بنى سالم ؛ لكونه ذكر فى آطام بنى الحبلى هؤلاء ما يوافق كلام ابن حزم فى نزولهم قرب دار بنى ساعدة ، فقال : وابتنوا آطاماً منها « مزاحم » بين ظهران بيوت بنى الحبلى ، وهو لعبد الله بن أبىّ بن سَلُولَ . ومنها أطم كان

بين مال عمارة بن نعيم البياضى و بين مال ابن زمانة . ومنها أطم كان فى جوف بيوتهم . انتهى . وسيأتى فى منازل بنى ساعدة ذكر الحماضة ، وهى مذكورة فى منازل بنى بَياضة ، وقد صرح ابن حزم وغيره من أهل السير وعلماء النسب بأن عبد الله بن أبىّ من بنى الْحُبْلَىٰ من الخزرج ؛ فالظاهر أن ما وقع للحافظ ابن حجر فى حديث زوجة ثابت بن قيس بن شماس[١] فى الخلع من أن عبد الله بن أبىّ من بنى مَغَالة من بنى النجار وَهمٌ . نعم داره غربى المسجد قريبة من دار بنى مَغَالة فيما يظهر . والله أعلم .

ونزل بنو سَلِمة بن سعد بن على بن أسد بن شاردة بن تزيد (بالمثناة من فوق) بن جُشَم بن الخزرج الأكبر ما بين مسجد القبلتين إلى المذاد أطمَ بنى حرام فى سَنَد تلك الحرة ، وكانت دارهم هذه تسمى خُربىٰ . قال ابن زبالة : فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلحة » كذا هو فى نسخة ابن زبالة بالطاء ، ونقله عنه الزين المراغى أيضاً كذلك كما رأيته بخطه . ولعل الصواب ما ذكره المجد فى تاريخه أن النبى صلى الله عليه وسلم سماها « صُلْحَة » بضم الصاد المهملة وسكون اللام ، وقال فى قاموسه : خُرْبا كحبلى : منزلة كانت لبنى سَلِمة غيَّرها صلى الله عليه وسلم وسماها صالحة .

ونزل بنو سواد بن غنم بن كعب بن سَلِمة عند مسجد القبلتين إلى أرض ابن عبيد الدينارى ، ولهم مسجد القبلتين ، قاله ابن زبالة ، وهو يرد ما سيأتى عن المطرى وغيره من أن المسجد لبنى حَرام ، وابتنوا أطما يقال له « الأغاب » كان على المهد الذى عليه الأحجار التى يستريح عليها السقاؤن حين يُفيضُونَ من زقاق رُومَةَ إلى بُطْحَان ، وأطما يقال له « خيط » فى شرقى مسجد القبلتين على شرف الحرة وعند منقطع السهل من أرض بنى سلمة ، وأطما يقال له « منيع » فى يمانى مسجد القبلتين على ظهر الحرة يمين الحزن الذى فى أرض ابن أبان أو دون ذلك قليلا .

---

(١) فى المطبوعات « بن شماش » بشينين معجمتين ـ تطبيع

ونزل بنو عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد الخربة إلى الجبل الذى يقال له الدويخل جبـــل بنى عبيد ، ولهم مسجد الخربة ، وابتنوا « الأشنق » وهو المواجه لمسجدالخربة ، كان للبرَاء بن مَعْرور صخر بن حسان ابن سنان بن عبيد ، وابتنوا « الأطول » عند قبلة مسجد الخربة أو عن يسارها.

ونزل بنو حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة عند مسجد بنى حرام الصــغير الذى بالقاع بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك والأرض التى كانت لمعبد بن مالك ، وكانوا بين مقبرة بنى سلمة إلى المذاد ، والمـذاد : هو الذى يقول له كعب بن مالك :

فليأت مأسدَةً تسن ســيوفها بين المَذَاد و بين جـزع الخنــدق

وهو أطُم لهم سميت به الناحية ، وابتنوا أطما يقال له « جاعس » كان فى السهل بين الأرض التى كانت لجابر بن عتيك و بين العين التى عملها معاوية بن أبى سفيان ، كان لعمرو بن الجَمُوح جد جابر بن عبد الله بن عمرو .

قلت : وهذه العين لعلها التى ذكر ابن النجار أنها تأتى إلى النخل الذى بأسفل المدينة حوالى مسجد الفتح ، يعنى فى غربيه ، ويعرف ذلك الموضع بالسَّيح ــ بالسين المهملة والمثناة التحتية ــ كما قال المطرى ، والله أعلم .

وابتنى بنو مر[1] بن كعب بن سلمة ــ وهم حلفاء بنى حرام ــ أطما يقال له « أخنس » وهو الأسود القائم فى بنى سلمة فى غربى الحائط الذى كان لجابر بن عتيك مما يلى جبل بنى عبيد ، ذكره ابن زبالة .

وقوله «عند مسجد بنى حرام الصغير» يفهم أن لهم مسجداً آخر كبيراً ، وهو الآتى فى منزلهم الثانى بشعب سلع ، وسيأتى فى المساجد وصف مسجد بنى حرام الذى صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه بالقاع ، وأنه لم يصل فى مسجدهم الأكبر .

وكل هؤلاء بنو سلمة ، وكانوا بهذه الدور ، وكلمتهم واحدة ، وملكوا عليهم

---

(١) فى المطبوعات كلها « بنو مرى بن كعب » تطبيع

أمة بن حرام ، فلبث فيهم زماناً حتى هلك رجل من بنى عبيد ذو أموال كثيرة ، له ولد واحد اسمه صخر ، فأراد أُمَةُ أن ينزع طائفة من أمواله فيقسمها فى بنى سَلِمة ، فعظم ذلك على صخر ، وشكا ذلك على بنى عبيد و بنى سَوَاد ، وقال : إن فعل أمة ذلك لأضر بنه بالسيف ، وسألهم أن يمنعوه إن هو فعل ، فأطاعوا له ، فلما فعل أمة ذلك ضربه صخر فقطع حبل عاتقه ، وقامت دونه بنو عبيد و بنو سواد ، فنذر أمة أن لا يؤويه ظل بيت ما عاش حتى يقتل بنو سلمة صخراً أو يأتوه به فيرى فيه رأيه ، وجلس أمة عند الضرب الذى فوق مسجد الفتح مما يلى الجرف فى الشمس ، فمرت به وليدة حطابة فقالت : مالك يا سيدى هنا فى الشمس ؟ فقال :

إن قومى أجمعوا لى أمرهم ... ثم نادَوْا لى صَخْراً فضرب

إننى آليت لا يَسْـتُرنى ... سَقْفُ بيت من حَرُورٍ و لَهَبْ

أبدا ما دام صـخر آمناً ... بينهم يمشى ولا يخشى العطب

فذهبت الجارية ، فأخبرتهم ، فربَطوا صخراً ثم أتوه به ، فعفا عنهم وأخذ الذى كان يريد أن يأخذ من أمواله ؛ فهذا خبر ما دخل بين بنى سلمة .

وروى ابن شبة عن جابر بن عبد الله أن بنى سلمة قالوا : يا رسول الله ، نبيع دورنا ونتحول إليك ؛ فإن بيننا و بينك واديا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اثبتُوا فإنكم أَوْتَادُهَا ، وما من عبدٍ يخطو إلى الصلاة خطوة إلا كتب الله له أجراً » .

وروى أيضاً عن يحيى بن عبد الله بن أبى قتادة قال : شكا أصحابنا — يعنى بنى سَلِمَةَ و بنى حرام — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السَّيْلَ يَحُولُ بينهم وبين الجمعة ، وكانت دورهم مما يلى نخيلهم ومزارعهم فى مسجد القبلتين ومسجد الخربة ، فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « وما عليكم لو تحوّلتم إلى سَفْحِ الجبل » يعنى سلعاً ، فتحولوا ؛ فدخلت حرام الشِّعْبَ [١] ، وصارت سواد وعبيد إلى السفح .

---

(١) قال المؤلف فى الخلاصة : والمعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم « اثبتوا فإنكم أوتادها » وإنما نقل بنى حرام إلى الشعب المعروف بهم عمر بن الخطاب » اهـ

قلت : وشعب بنى حرام معروف بسَلْع ، وهناك آثار منازلهم وآثار مسجدهم فى غربى جبل سَلْع على يمين السالك إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية ، وعلى يسار السالك إلى المدينة وعلى مقربة من محاذاته فى جهة المغرب حصن خل .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن جابر بن عبد الله قال : كان السيلُ يحول بين بنى حرام وبين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقلهم عمر بن الخطاب إلى الشعب ، وكلمَ قوما كانوا فيه من أهل اليمن يقال لهم بنو ناغضة ، فانتقلوا إلى الشعب الذى تحت مسجد الفتح ، فآثارهم هناك ، واشترت بنو حرام غلاما روميا من أعطياتهم ، وكان ينقل الحجارة من الحرة وينقشها ، فبنوا مسجدهم الذى فى الشعب وسَقَفوه بخشب وجريد ، وكان عمر بن عبد العزيز زاد فيه مدماكين من أعلاه ، وطابق سقفه ، وجعل فيه ذيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وآثار خرز أساطينه وما تكسر منها موجود اليوم فيه ، يعرف محله بالشعب المذكور .

وقد روى المجد فى فضل المساجد الخبرَ المتقدم ، إلا أنه قال : وجعل فيه ذيث مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : والذيث الساج الذى يظهر على الحائط ، انتهى . ولم يضبطه غير أنه بالذال فى كتابه ، والذى فى كتاب ابن زبالة ويحيى ما قدمناه ، والله أعلم .

ونزل بنو بيَاضة وزريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ابن جُشَم بن الخزرج الأكبر ، وبنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ، وبنو عذارة[١] وهم بنو كعب بن مالك بن غضب ، وبنو اللين وهم بنو عامر بن مالك ابن غضب ، وبنو أجدع[٢] وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب دارَ بنى بيَاضة.

(١) فى الخلاصة « بنو غدارة »

(٢) فى الخلاصة « وبنو جدع » بغير ألف هنا ، وبألف فيما يأتى .

قال المطرى : فيما بين دار بنى سالم بن عوف بن الخزرج التى عند مسجد الجمعة إلى وادى بُطْحان قبلىَّ دار بنى مازن بن النجار .

قلت : الذى يترجَّح عندى أن دارهم كانت فى شامى دار بنى سالم بن عوف وقبلى دار بنى مازن ، ممتدة فى الحرة الغربية ، حتى إن فى كلام ابن زبالة مايقتضى أن بعض منازلهم تمتد إلى منازل بنى ساعدة لما سنذكره .

وابتنوا بدارهم الآطام ، وروى ابن زبالة أنه كان بدارهم تسعة عشر أطما ، وأن الذى أحصاه لبنى أمية بن عامر بن بياضة خاصة ثلاثة عشر أطما : منها أطم أسود فى يمانى أرض فراس بن ميسرة ، كان فى الحرة ، ومنها « عقرب » كان فى شامى المزرعة المسماة بالرحابة فى الحرة على الفقارة ، ومنها « سويد » كان فى شامى الحائط الذى يقال له الحماضة ، ولصاحبه كانت الحماضة ، وسيأتى ذكر الحماضة فى منازل بنى ساعدة ، لكن يبعد أن يكون هى المراد هنا ، ومنها « اللواء » كان موضعه فى حد السرارة بينه وبين زاوية الجدار الشامى الذى يحيط على الحماضة عشرون ذراعا ، ومنها أطم كان فى السرارة ، والسرارة : ما بين أرض ابن أبى قليع إلى منتهى الحماضة ، وما بين الأطم الذى يقال له اللواء إلى الجدار الذى الذى يقال له بيوت بنى بياضة ، والجدار الذى بناه زياد بن عبيد الله لبركة السوق وسط السرارة ، قاله ابن زبالة ، وهو يقتضى أن السرارة قرب سوق المدينة ، ويؤيده ذكر الحماضة فى منازل بنى ساعدة ، لكن الظاهر أن المراد ببركة السوق هنا بركة كانت مما يلى سيل بُطْحان ورانونا ؛ لأن ابن شَبَّه قال فى سيل رانونا : إنه يقترن بذى صلب ، يعنى موضع مسجد الجمعة ، ثم يستبطن السرارة حتى يمر على قعر البركة ، ثم يفترق فرقتين ، إلى آخر ما سيأتى عنه .

ونقل رزين أن السرارة بين بنى بياضة والحماضة . ثم ذكر ابن زبالة بقية آطامهم ، وذكر ما يقتضى أن ما حول السرارة هو أقصى بيوت بنى بياضة .

ثم قال : وابتنى بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأطم الذى فى أدنى بيوت بنى بياضة الذى دونه الجسر الذى عند ذى ريش .
ثم قال : فلبث بنو غضب بن جُشَم بن الخزرج — أى الفرق المذكورين كلهم — فى دار بنى بياضة ، وأمرُهم جميعٌ ، ثم إن زريق بن عامر هلك فأوصى بنيه إلى عمه حبيب بن عبد حارثة ، فكان حبيب يكلفهم النَّضْحَ بأيديهم ، فلما اشتدّ عليهم عدَوْا عليه فقتلوه ، فحالف بنو حبيب بنى بياضة على نصرهم على بنى زريق ، فخافت بنو زريق أن يكثُروهم [١] . وكانت بنو بياضة حينئذ أثرى من بنى زريق، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى حلُّوا دارهم المعروفة بهم قبليَّ المصلّى وسور المدينة الموجود اليوم وداخله بالموضع المعروف بذروان وما والاه، وابتنوا آطاما منها أطم فى زاوية دار كبير بن الصلت بالمصلى ، وأطما يقال له « الريان » عند سقيفة آل سُرَاقة التى يقال لها « سقيفة الريان » وأقام بنو عمرو بن عامر بن زريق مع بنى بَيَاضة ،ولهم الأطم الذى فى شامى أرض فراس بن ميسرة فى أدنى بيوت بنى بياضة مما يلى السَّبخة ، فلبثوا هناك حتى انتقل رافع بن مالك هو وولده قبيل الإسلام فسكنوا طرف السبخة ما بين الأساس إلى طرف السبخة إلى الدار التى فيها يسكن إسحاق بن عبيد بن رفاعة ، وكان يقال لرافع بن مالك « الكامل » لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون لمن كان كاتباً شاعراً «الكامل» وانتقل سائر بنى عمرو بن عامر بعد ذلك ، فاشتروا من بنى عَوْف بن زُرَيق بعضَ دورهم وحقوقهم ، وخرجت بنو عوف بن زريق قبيل الإسلام إلى الشام ؛ فيزعمون أن هنالك ناسا منهم ، ولبث بنو بَيَاضة وبنو حبيب زمانا لا يقاتلون بنى زريق ، والرُسُلُ تجرى بينهم ، وبنو زريق يدعونهم إلى الصلح والدِّيَة ، وعرضوا على بنى حبيب أن يقطعوا لهم طائفة من ديارهم ، فقبلوا ذلك ، ووضعوا الحرب، وسمى الزقاق الذى دفعوه لهم « زقاق الدية»

---

(١) يكثروهم: يزيدوا عليهم فى العدد .

وانتقل بنو مالك بن زيد بن حبيب بن عبدحارثة من بنى بياضة ، ونزلوا الناحية التى وَدَّت بنو زريق ، وابتنوا أطماً كان لبنى المعلى بن لوذان ، وتخلف بنو الصَّمَّة ابن حارثة بن الحارث بن زيد بن حبيب فى بنى بياضة ، فابثت بنو المعلى بن لوذان فى بنى زريق ماشاء الله .

ثم إن عبيد بن المعلى قتل حصن بن خالد الزُّرَقى ، فأراد بنو زريق أن يقتلوه ، ثم بدا لهم أن يَدُوا حصن بن خالد من أموالهم عن عبيد على أن يحالفهم بنو المعلى ، ويقطعون حِلْفهم مع بنى بياضة ، ففعلوا ، وكان عامر بن زريق بن عبد حارثة والد زريق و بياضة لما حضرته الوفاة أوصى ابنَه بياضَةَ بالصبر فى الحروب وشـدة البأس ، وأوصاه بأخيه زريق وكان أصغرهما ، فقال بعض شعرائهم فى ذلك :

* بالصَّـبْرِ أوصى عامِرٌ بَيَاضَهْ *

ويقال للأوس والخزرج : أبطأهم فَرَّةً وأسرعهم كَرَّةً بنو بياضة و بنو زريق و بنو ظَفَر ، وإن الأوس والخزرج لم يلتقوا فى موطن قَطُّ إلا كان لهذه القبائل فضل بَيِّن على غيرهم من بطون الأوس والخزرج .

وأما بنو عذارة[1] بن مالك بن غضب بن جُشَم فكانوا أقل بطون بنى مالك ابن غضب عددا ، وكانوا قوما ذوى شَرَاسة وشِدَّة أنفس ، فقتلوا قتيلا من بعض بطون بنى مالك بن غضب إما من بنى اللين أو بنى أجدع ، وأبى أهلُ القتيل الديَةَ ، وذهبوا إلى بنى بَيَاضة ليعينوهم على بنى عذارة حتى يعطوهم القاتل ، فكلمت بنو بياضة بنى عذارة[1] فى ذلك ، فأبوا أن يُخَلوا بينهم و بينه ، فأرادت بنو بياضة أن يأخذوه عَنوة[2] ، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى نزلوا قباء على بنى عمرو بن عوف فحالفوهم وصاهروهم ، وامتنعوا من بنى بياضة ، ثم إنه دخل بين بنى عذارة وبين بنى عمرو بن عوف قبيل الإسلام أمر ، فأجمعوا أن ينتقلوا من عندهم إلى بنى زُرَيق ، وكرهوا أن يرجعوا إلى بنى بياضة ، فجاؤهم وذكروا لهم

(١) فى الخلاصة بنو غدارة (٢) عنوة — بفتح العين المهملة وسكون النون — أى قوة وغلبة

ذلك ، فَلَقُوهم بما يُحِبُّون ، وسَدَّدوا رأيهم[١] ، وأتوا أبا عبيدة سعيد بن عثمان الزرقى فذكروا له ذلك ، فرحَّبَ بهم وذكر شرفَهم وفضلهم ، ثم قال : إنى أشير عليكم أن ترجعوا إلى أخوالكم — يعنى بنى عمرو بن عوف — ولا تنتقلوا إلى بنى زُرَيق ، فإن فى أخلاقكم شَرَاسة وفى أخلاق بنى زريق مثلها ، فتفرقوا عن رأيه ، فلم يزالوا كذلك إلى أن فرض المهدىُّ للأنصار سنةَ ستين ومائة ، فانتقلوا بديوانهم إلى بنى بَيَاضة ، وكان بطنان من بطون بنى مالك بن غضب ممن كان بدار بنى بياضة ـ لا ندرى أهم من اللين أم من أجدع ـ كان بينهم ميراث فى الجاهلية ، فاشتجروا فيه ، فلما رأوا أنهم لا يستقيمون فيه على أمر تداعوا إلى أن يدخلوا حديقة كانت فى بنى بياضة فيقتتلوا فيها ، فدخلوا جميعاً ثم أغلقوها ، فاقتتلوا حتى لم يبق منهم عين تطرف ، فسميت تلك الحديقة « حديقة الموت » وكان بنو مالك بن غضب سوى بنى زريق ألف مقاتل فى الجاهلية ، وأما بنو أجدع فلم يبق منهم أحد ، وأما بنو اللين فكان بقى منهم رجلان ثم انقرضا لا عقب لهما

وذكر ابن حزم أن زيد بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب المتقدم ذكر بنيه كان له أخ ، وهو عبد الله بن حبيب ، وأن عبد الله بن حبيب هذا وَلَدُ[٢] أبي جبيلة الغسانى الذى جلبه مالك بن العجلان لقتل اليهود بالمدينة كما قدمنا الإشارة إليه ، والله أعلم .

ونزل بنو ساعدة بن كعب بن الخزرج الأكبر مفترقين فى أربع منازل : فنزل بنو عمرو و بنو ثعلبة ابنا الخزرج بن ساعدة دارَ بنى ساعدةَ التى بين السوق ـ أى سوق المدينة ـ و بين بنى ضمرة ؛ فهى فى شرقى سوق المدينة مما يلى الشام . وقال المطرى : قرية بنى ساعدة عند بئر بُضَاعة ، والبئر وسط بيوتهم . قال ابن زبالة : فابتنوا أطُماً يقال له « مُعرض » فى الدار المواجهة مسجد بنى ساعدة ، وهو

---

(١) سددوا رأيهم : صوبوه (٢) فى المطبوعات «والد أبى جبيلة – إلخ » تطبيع

آخر أطُم بُنى بالمدينة ، وقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يبنونه ، فاستأذنوه فى إتمامه ، فأذن لهم فيه ، وله يقول شاعرهم :

ونحن حَمَيْنَا عن بُضَاعة كلِّها ونحن بَنَيْنَا معرضا فهو مُشْرِفُ
فأصبح معموراً طويلاً فِدًى له وتخرب آطام بهـا وتصفصف

وأطماً فى دار أبى دُجَانة[1] الصغرى التى عند بُضَاعة، ونزلت بنو قشبة — واسم قشبة عامر بن الخزرج بن ساعدة — قريباً من بنى حُدَيلة ، وابتنوا أطُماً عنـد خوخة عمرو بن أمية الضَّمْرى .

قلت : فمنزلهم فى شرقىّ بنى ضَمْرَة ، والمنزل المذكور قبل ، والله أعلم .

ونزلت بنو أبى خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة — وهم رهط سعد بن عُبَادة الدارَ التى يقال لها جِرَارُ سَعْدٍ وهى جرار كان يسقى الناس فيها الماء بعد موت أمه . قال ابن زبالة : عرض سوق المدينة ما بين المصلى إلى جرار سعد بن عُبَادة .

قلت : فهى ممـا يلى السوق ، فإما أن يكون من جهة المشرق والمصلى حده من جهةالمغرب ، فيشهد ذلك لأنها الموضع المعروف اليوم بين أهل درب السويقة بسقيفة بنى ساعدة ، ويكون إطلاق السقيفة على ذلك المحل صحيحا ، لا كما قال المطرى : إنها بقرية بنى ساعدة عنـد بئر بُضَاعة ؛ لأن سعد بن عبادة لم يكن هناك ، وإنما كان مع رَهْطه فى منزلهم ، والسقيفة كانت عنـد منزله ، وإما أن يكون جِرارُ سعدٍ ممـا يلى السوق من جهة الشام ، ويكون المصلى حده القبلى ، وهـذا هو الأرجح ؛ لأن الجهة التى بالمشرق ممـا تقدم إنما هى من منازل بنى زريق ، والله أعلم .

قال ابن زبالة : فابتنوا أطما يقال له واسط ، وقد تقدم أن بنى خدارة نزلوا بجرار سعد أيضاً ، فكأنها كانت منزلها ، و بنو خدارة من بنى الحارث بن الخزرج كما تقـدم ، فدارهم المرادة فى حديث عِيادة سـعد بن عُبَادة فى بنى الحارث بن

(١) دجانة : بضم الدال ، واسم أبى دجانة سماك بن خرشة

الخزرج ، لا دار بنى الحارث المعروفة بهم لبعدها جداً عن منازل بنى ساعدة ، وليسوا قوم سعد إلا من حيث إن الكل من الخزرج .

وفى حديث عائشة فى الصحيح بعد قول عُرْوَة لها : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودَانِ التمرُ والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كانت لهم منايح ، الحديثَ .

قال الحافظ ابن حجر فى بيان ذلك : جيرانه صلى الله عليه وسلم من الأنصار سعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حزم وأبو أيوب وسعد بن زُرَارة ؛ فيبعد كون سعد بن عُبَادة فى دار بنى الحارث لعدِّه فى الجيران ، ومأخذ الحافظ ابن حَجَر فى ذلك مارواه ابن سعد عن أم سلمة قالت : كان الأنصار يُكْثِرُونَ إلطافَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم : سعد بن عُبادة ، وسعد بن معاذ ، وعمارة ابن حزم ، وأبو أيوب ، وذلك لقرب جوارهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى ، والله أعلم .

ونزلت بنو وقش و بنو عنان ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة الدارَ التى يقال لها « بنو ساعدة » ويقال لها أيضاً « بنو طريف » وهى بين الحماضة وجِرَار سعد ، وسيأتى فى ترجمة الشوط ما يقتضى أن لبنى ساعدة منزلا فى شامى مسجد الراية ، والظاهر أنه هذا المنزل ، والله أعلم .

ونزل بنو مالك بن النجار دارَهُم المعروفة بهم ، فابتنى بنو غنم بن مالك أُطُماً يقال له « فويرع » وفى موضعه دار حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ! .

قلت : وهى الدار المقابلة لدار جعفر الصادق التى فى قبلة المدرسة الشهابية ، كما سيأتى نقله عن ابن شبة .

وابتنى بنو مَغَالة — وهم بنو عدى بن عمرو بن مالك ، ومغالة أم عدى — أُطُماً يقال له « فارع » وهو الأطم الذى يواجه دور بنى طَلْحة بن عبيد الله ، ودخل

فى دار [جعفر] بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ، وله يقول حسان بن ثابت :

أرِقْتُ لتَوْمَاضِ البروق اللوامعِ ونحن نَشَاوَى بين سَلْعٍ وفارع

قاله ابن زبالة .

وقال الزين المراغى : إن هذا الأطم كان لثابت والد حسان بن ثابت ، وإنه دخل فى الدار المواجهة لباب الرحمة التى كانت دار عاتكة ، ومأخذه فى ذلك أن دار عاتكة من جملة دار جعفر بن يحيى ، لكن سيأتى من كلام ابن زَبالة ويحيى عند ذكر أبواب المسجد أن دار جعفر بن يحيى دخل فيها بيت عاتكة وفارع أطم حسان بن ثابت ، وبيَّنا محله هناك فى شامى الدار المذكورة ، أعنى دار عاتكة ، وفارع هذا هو الأطم الذى كانت به صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وعندها حسان .

وفى مسلم فى حديث ابن صَيَّاد « فوجده عند أطم بنى مَغَالة » .

قال عياض : بنو مَغَالة كل ما كان على يمينك إذا وقفت آخر البلاط مستقبل المسجد النبوى .

وابتنى بنو حُدَيْلة (بضم الحاء المهملة[1]) وهو — كما قال ابن زبالة وغيره — لقب معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أطما يقال له « مشعط » كان فى غربى مسجدهم الذى يقال له « مسجد أُبيّ » يعنى أبى بن كعب ، وفى موضعه بيت يقال له « بيت أبى نبيه » وقد أسند ابنُ زبالة عقب ذكره الحديث المتقدم « إن كان الوباء فى شىء فهو فى ظل مشعط » وذكر ابن شبة قصر بنى حُدَيْلة ، وقال : بناه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ليكون حصناً ، قال : وله بابان : بابٌ شارع على خط بنى حُدَيلة ، وباب فى الزاوية الشرقية اليمانية عند دار محمد ابن طلحة التَّيْمى ، وفى وسطه بئر حاء ، انتهى .

وقال عياض فى المشارق : بئر حاء : موضع يعرف بقصر بنى حُدَيلة ، وقد قال ابن إسحاق : بنو عمرو بن مالك بن النجار هم بنو حُدَيلة ، أى لأن حُدَيلة بطن

---

(١) كذا وقع هنا وفيما يلى (ص ٢١٢ س ٨) وضبطت فى الخلاصة بالجيم

منهم ؛ لما قدمناه من أنه لقب أبيهم معاوية بن عمرو بن مالك .

قلت : فليس بنو حُدَيلة هؤلاء بنى معاوية من الأوس أهل مسجد الإجابة كما قدمناه ، ولكن الاشتراك فى الاسم أوجب الوهم ، فقد وقع للقاضى عياض فى المشارق مايخالف كلام عامة الناس ، فقال : قال الزبير: كل ما كان من المدينة عن يمينك إذا وقفتَ آخِرَ البلاط مستقبلَ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بنومَغَالة ، والجهة الأخرى أى التى على يسارك بنوحُدَيلة ، وهم بنو معاوية وهم من الأوس .

قال الجوهرى : هى قرية من قرى الأنصار ، قال القاضى : هم بطن من الأنصار سميت جهتهم بهم ، وهم أيضاً بنو حُدَيلة (بحاء ودال مهملتين) وحُدَيلة أمهم ، انتهى .

والذى نقله غيره عن الزبير أن بنى حُدَيلة من بنى النجار من الخزرج ، و بنو معاوية من الأوس غيرهم ، وقد قدمناه عن ابن زبالة شيخ الزبير ، وقد ذكر ابنُ حزم فى الجمهرة معاوية من الأوس ، وذكر بنى حديلة من الخزرج ، فقال : وولد مالك بن النجار معاويةُ وأمه حديلة فنسب إليها ، والظاهر أن قول القاضى « وهم من الأوس » ليس من كلام الزبير فى هذا الموضع ، ولكن القاضى لما رأى قوله « وهم بنو معاوية » ظن أنهم بنو معاوية من الأوس ، وهذا موجب ماوقع للمطرى من الخبط فى هذا المحل ، حيث غاير بينهما مرة وجعلهما متحدين أخرى ، ولا يصح الجمع بما ذكره المراغى من احتمال أن يكون بنو معاوية بطناً أو فخذاً من بنى حُدَيلة ؛ لما قدمناه .

وابتنى بنومبذول[1] ـ واسمه عامر بن مالك بن النجار ـ أطُماً يقال له «السلج» وأطما كان فى دار آل حُيَيٍّ بن أخْطَبَ كان لبنى مالك بن مبذول ، وأطما كان فى دار سرجس مولى الزبير التى إلى بقيع الزبير كان لآل عبيد بن النعمان أخى النعمان بن عمرو بن مبذول ، و بقيعُ الزبيرِ ذُكِر فى أماكن يؤخذ منها أنه كان

(١) وقع فى المطبوعات « مبدول » بالدال المهملة ، تطبيع

فى شرق الدور التى تلى قبة المسجد النبوى إلى بنى زريق، وإلى بنى غنم، وإلى البقال[1] كما سيأتى .

ونزل بنو عدى بن النجار دارهم المعروفة بهم غربى المسجد النبوى ، على ما قاله المطرى ، وكان بها الأُطُم الذى فى قبلة مسجدهم ، وابتنوا أُطُماً يقال له «أطم الزاهرية» امرأة سكنته كان فى دار النابغة عند المسجد الذى فى الدار .

ونزل بنو مازن بن النجار دارهم المعروفة بهم قبلى بئر البصة ، وتسمى الناحية اليوم أبو مازن ، غَيَّرَها أهل المدينة .

قال المطرى : وابتنوا بها أطمين أحدهما يقال له «واسط» قلت : والذى يؤخذ من كلام ابن شبة الآتى فى منازل القبائل أن منازل بنى مازن كانت فى قبلة المدينة شرقى منازل بنى زريق قريبة منها ، والله أعلم .

ونزل بنو دينار بن النجار دارهم التى خلف بُطْحان المعروفة بهم ، وابتنوا أُطُماً يقال له «المنيف» عند مسجدهم الذى يقال له مسجد بنى دينار ، قاله ابن زبالة ، وقال المطرى فى بيان هذا المسجد : ودار بنى دينار بن النجار بين دار بنى حُدَيلة ودار بنى معاوية أهل مسجد الإجابة ، ودارُ بنى حُديلة عند بئر حاء ، اه ولا أدرى من أين أخذ هذا ، وما ذكره ابن زبالة أقربُ وأولىٰ بالأُعتماد لأمورٍ سنذكرها فى بيان مسجدهم .

قال ابن زبالة : وزعم بنو دينار أنهم نزلوا أولا دار أبى جَهْم بن حُذَيفة العَدَوى ، وكانت امرأة منهم هنالك ، وكان لها سبعة إخوة ، فوقفت على بئر لهم بدار أبى جَهْم ومعها مِدْرًى لها من فضة فسقط منها فى البئر ، فصرخت بإخوتها ، فدخل أولهم يخرجه فأسر ، فاستغاث ببعض إخوته حتى دخلوا جميعاً فماتوا فى تلك البئر ، فهذه منازل بنى النجار .

قال المطرى وتبعه مَنْ بعده : إن دار النابغة المتقدمة فى بنى عدى كانت غربى مسجد الرسول ، وهى دار بنى عدى بن النجار ، ومسجد الرسول صلى الله

(١) البقال : بفتح الباء ، وتشديد القاف ، وهو اسم موضع

عليه وسلم وما يليه من جهة الشرق دار بنى غانم بن مالك بن النجار ، ودورُ بنى النجار بالمدينة وما حولها من الشمال إلى مسجد الإجابة ، والنجار : هو تيم الله بن ثعلبة ، وسمى بذلك لأنه ضرب رجلا فنَجَره ، فقيل له : النجار ، وفى دور بنيه هؤلاء قال النبي صلى الله عليه وسلم «خيرُ دورِ الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل » وهم من الأوس كما سبق . وفى رواية أخرى « ألا أخبركم بخير دور الأنصار ؟ قالوا : بلى ، قال : بنو عبد الأشهل ، وهم رهط سعد بن معاذ ، قالوا : ثم مَنْ يارسول الله ؟ قال : ثم بنو النجار » وراويهما واحد ، وقد صحتا ، فاختلف عليه ، وتقديم بنى النجار روى عن أنس من غير اختلاف عليه ، ولها مؤيدات أخرى ، وهم أخوالُ عبدِ المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم[1] ، ولذلك نزل عليهم صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، ثم ذكر فى الرواية المذكورة بعد بنى عبد الأشهل بنى الحارث ابن الخزرج أى الأكبر « ثم بنو ساعدة» وقال فى هذه الرواية أيضا «وفى كل دور الأنصار خير » وكأن المفاضلة وقعت بحسب السبق إلى الإسلام ، وبحسب مَسَاعيهم فى إعلاء كلمة الله

قال ابن زبالة عقب ذكر جميع منازل الأنصار المتقدمة : ونزل بنو الشطبة حين قدموا من الشام ميطان ، فلم يوافقهم ، فتحولوا قريبا من جذمان ، ثم تحولوا فنزلوا براتج ، فهم أحد قبائل راتج الثلاث ، وقد ذكر راتج فى منازل يهود فقال : وكان براتج ناسٌ من اليهود، وكان راتج أطما سميت به تلك الناحية ، ثم صار لبنى الجذماء ، ثم صار بعدُ لأهل راتج الذين كانوا حلفاء بنى عبد الأشهل ، وهو الذى يقول له قيس ابن الخطيم :

* ألاَ إن بين الشَّرْعَبى وراتج * البيت

وقد قدمنا عن ابن حزم أن أهل راتج هم بنو زَعُورا بن جُشَم أخى عبد الأشهل بن جُشَم ، وذكر أيضا أن من أهل راتج بنى سعد بن مرة بن مالك ابن الأوس .

---

(١) ويقال إن عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم مدفون فى «دار النابغة»

وقال المطرى : راتج جبيل صغير غربى وادى بُطْحان ، وبجنبه جبيل آخر صغير يقال له جبل بنى عبيد ، انتهى . وسيأتى ما ينازع فيه مع بيان أن راتجا فى ناحية مسجد الراية

الفصل السادس

فيما كان بينهم من حرب بُعَاث

نقل رزين عن الشرقى أن الأوس والخزرج لبثوا بالمدينة ما شاء الله وكلمتهم واحدة ، ثم وقعت بين الأوس والخزرج حروب كثيرة حتى لم يُسْمَع قطُّ فى قوم أ كْثَرُ منها ولا أطول

الحروب قبل بعاث

أولها : حرب سُمَير ، وسببه رجلٌ من بنى ثعلبة كان حليفا لمالك بن العَجْلان ، قتله رجل من الأوس يقال له سُمَير بالمهملة مصغرا . ثم حرب كعب بن عمرو ، ثم يوم السّرارة ، وهو موضع بين بنى بَيَاضة والحماضة ، ثم يوم الديك ، وهو موضع أيضا ، ثم حرب بُعَاث ، وهو كان آخرَها ، قتل فيه سَرَاةُ الأوس والخزرج ورؤساؤهم .

قلت : فى كلام بعضهم أنه كان بين الأوس والخزرج وقائع من أشهرها يوم السرارة ، ويوم فارع ، ويوم الفِجَار الأول والثانى ، وحرب حضير بن الأسلت ، وحرب حاطب بن قيس ، إلى أن كان آخر ذلك يوم بُعَاث ، فقول الخطابى « يوم بعاث يوم مشهور كانت فيه مَقْتَلة عظيمة للأوس على الخزرج ، وبقيت الحرب قائمة مائة وعشرين سنة إلى الإسلام على ما ذكره ابن إسحاق وغيره » مُؤَول بأن حروب الأوس والخزرج كلها قبل بُعَاث وبعده مكثت هذه المدة ، وإلا فهو مردود ، وسيأتى تعيين تاريخ يوم بُعَاث

سبب حرب بعاث

وكان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان الظَّفَرُ فى أ كثرها للخزرج على الأوس ، حتى ذهبت الأوس لتحالف قُرَيْظَة ، فأرسلت إليهم [1] الخزرج : لئن

---

(١) إليهم : أى إلى بنى قريظة

فعلتم فأذَنُوا بحرب ، فتفرقوا وأرسلوا إلى الخزرج : إنا لا نحالفهم ، ولا ندخل بينكم ، فقالت الخــزرج لليهود : فأعطونا رَهَائِنَ ، وإلا فلا نأمنكم ، فأعطوهم أربعين غلاماً من بينهم ، ففرّقهم الخزرج فى دورهم ، فلما أَيِسَتِ الأوسُ من نُصْرة اليهود حالفت بطوناً من الخزرج منهم بنو عمرو بن عوف ، وقال سائرهم : والله لا نصالح حتى ندرك ثأرنا ، فتقاتلوا ، وكثر القتــلُ فى الأوس لما خَذَلهم قومُهم ، وخرج سعد بن معاذ الأشهلى ، فأجاره عمرو بن الجَمُوح الحرامى ، فلما رأت الأوس أن أمرهم إلى قُلّ عزموا على أن يكونوا حِلفاً للخزرج فى المدينة ، ثم اشْتَوَرُوا فى أن يحالفوا قريشاً ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بينهم أن مَنْ أراد حجاً أو عمرة لم يعرض له ، فأجار أموالهم بعدهم البَرَاء بن مَعْرور ، فأتوا مكة فحالفوا قريشاً ، ثم جاء أبو جهل ـ وكان غائباً ـ فنقض حِلْفَ قريش بحيلة احتالها .

قلت : روى ابن شبة عن أفلح بن سعيد ما يخالفه فى نسبة ذلك لأبى جهل مع بيان الحيلة ، فقال : خرجت الأوسُ جالية من الخزرج حتى نزلت على قريش بمكة فحالفتها ، فلما حالفتهم قال الوليدُ بن المغيرة : والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخـذوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقطَعُوا حلف الأوس ، فقالوا : بأى شىء ؟ قال : إن فى القوم حمية ، قولوا لهم : إنا نسـينا شيئاً لم نذكره لـكم ، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده ، فلما قالوا ذلك للأوس نفرت وقالوا : اقطعوا الحلف بيننا وبينكم ، فقطعوه ، انتهى .

فلما لم يتم لهم الحلف ذهبت النبيت إلى خيبر ـ قلت : أراد بالنبيت بعضهم ، وهم بنو حارثة ؛ لما قدمناه من أن النبيت يطلق عليهم وعلى بنى عبد الأشهل وبنى ظفر وبنى زعورا ، والذى انتقل من هؤلاء إلى خيبرهم بنو حارثة فقط كما سبق ، إلا أن يريد غيره ـ فأقاموا بها سنة ، وماتت منهم عجوز فقالوا « أهون حادث موت عجوز فى سـنة » فذهب مثـلا ، فلما رأت الخزرج أن قد ظفرت

بالأوس افتخروا عليهم فى أشعارهم ، وقال عمرو بن النعمان البَيَاضى : يا قوم إن بَيَاضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسى غسلا حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير وأقتل رُهُنَهم ، وكان لهم غزار المياه وكرام النخل ، وقال رجل منهم أيضاً شعراً يتغنى به يذكر جلاء النبيت إلى خيبر وأخْذَهم الرهُنَ من اليهود :

هَلُمَّ إلى الأحلاف إذ رقَّ عَظمُهم ... وإذ أصلحوا مالا لجذمان ضائعاً
إذا ما امرؤ منهم أساء عمارة ... بَعَثْنا عليهم من بنى العير جادعا
فأما الصَّرِيحُ منهمُ فتحمَّلُوا ... وأما اليهود فاتخذنا بضائعاً
وذاكَ بأنا حين نَلْقَى عدوَّنَا ... نصول بضرب يترك العز خاشعاً

فبلغ قولهم قريظة والنضير وهم المعنيون بالصريح لأنهم من بنى الكاهن بن هارون ، و بلغ ذلك أيضاً مَنْ كان فى المدينة من الأوس ، فَمَشَوْا إلى كعب بن أسد القُرَظى ، فدعوه إلى المحالفة على الخزرج ، ففعل ، ثم تحالفوا مع قريظة والنضير ، ثم أرسلوا بذلك إلى النَّبيت فقدموا فأخذت الخزرج فى قتل الرهن ، فقال لهم كعب بن أسد القرظى : إنما هى ليلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الخلف ، وأرسلوا إلى الأوس وقالوا لهم : انْهَضُوا إلينا ، فنأتيهم بأجمعنا ، فجاءت الخزرج إلى عبدالله ابن أبىّ فقالوا : مالك لا تقتل الرهن ؟ فقال : لا أغدرهم أبداً ، وأنتم البُغَاة ، وقد بلغنى أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت، ووالله ما يموتون أو تهلكون عامتكم ، فقال له عمرو بن النعمان : انتفخ والله سَحْرُكَ ، فقال : إنى لا أحضركم ، ولكأنى أنظر إليك قتيلا يحملك أربعة فى كساء .

فاجتمع الخزرج ورأسوا عليهم عمرو بن النعمان — قلت : الذى ذكره ابنُ حزم أن رئيس الخزرج يومئذ هو والد النعمان ، وهو رحيلة بن ثعلبة البياضى ، والله أعلم — فاقتتلوا فى بُعَاث ، وهو موضع عند أعلى قورى ، وكانت الدَّبْرَةُ على الخزرج ، وقتل عمرو بن النعمان ، وجىء به تحمله أربعة كما قال له ابن أبىّ ، وحلفت اليهود لتهدمَنَّ حِصْنَ عبدالله بن أبىّ ، وكان أبو عمرو الراهب مع الأوس،

وكانت تحته جميلة بنت أبيّ ، وهى أم حنظلة الغَسِيل ، فلما أحاطوا بالحصن قال لهم عبد الله : أما أنا فلم أحضر معهم ، وهؤلاء أولادكم الذين عندى فإننى لم أقتل منهم أحدا ، ونهبتُ الخزرج فعصونى ، وكان جل مَنْ عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ، ففرحوا حين سمعوا بذلك ، فأجاروه من الأوس ومن قريظة ، فأطلق أولادهم وحالفهم ، ولم يزل حتى ردهم حلفاء الخزرج بحيلٍ تحيَّلَ بها ، وكان رئيس الأوس فى هذه الحرب حُضَير الذى يقال له « حضير الكتائب » والدُ أُسَيْد بن حُضَير ، وبها قتل ، وقال خُفَاف بن نَدْبة يرثى حُضَيرا :

أتانى حديث فكذَّبْتُه وقالوا : خليلكَ فى المَرْمَسِ
فياعين بكى حُضَيْرَ الندى حضير الكتائب والمجلس

وكان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى كما تقدم أيضاً ، قال بعضهم : وكان النصر فيها أولا للخزرج ، ثم ثبّت حضيرٌ الأوسَ فرجعوا وانتصروا .

وذكر أبو الفرج الأصبهانى أن سبب ذلك أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لايقتل بالحليف ، فقتَلَ رجلٌ من الأوس حليفا للخزرج ، فأرادوا أن يُقِيدُوه فامتنعوا ، فوقعت بينهم الحرب لأجل ذلك .

وكان يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين على الأصح ، وقيل : بأربعين سنة ، وقيل : بأكثر ، وهو اليوم الذى تقول فيه عائشة رضى الله عنها كما فى الصحيح « كان يوم بُعَاث يوما قَدَّمَهُ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم فى الإسلام ، فقدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق مَلَؤُهم وقتلَتْ سَرَاتهم » يعنى الأوس والخزرج ، ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم مَنْ كان لايؤمَنُ أن يتكبر ويأنَفَ أن يدخل فى الإسلام لتَصلُّبه فى أمر الجاهلية ولشدة شكيمته حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقى منهم من هذا النمط عبدُ الله بن أبيٍّ بن سَلُولَ ، وقصته فى ذلك مشهورة ، وكذلك أبو عامر الراهب الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم بالفاسق ، قال أهل السير : قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيدُ أهلها عبدُ الله بن أبيّ بن

سلول ، كان من الخزرج ثم من بنى عوف بن الخزرج ثم من بنى الْحُبْلَى ، لا يختلف فى شرفه فى قومه اثنان ، لم تجتمع الأوسُ والخزرجُ قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه فى الأوس رجل هو فى قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفى بن النعمان أحد بنى ضبيعة بن زيد ، وهو أبو حنظلة الغَسِيل ، وكان قد ترهَّبَ ولبس المُسُوحَ ، فشَقِيَا بشرفهما : أما عبد الله بن أبىّ فلما انصرف عنه قومُه إلى الإسلام ضَغِنَ ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومَه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرا على نفاق وضغن ، فكان رأس المنافقين ، وإليه يجتمعون ، وهو القائل فى غزوة بنى المصطلق «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[1]» وأما أبو عامر فأبىَ إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال: ماهذا الدين الذى جئتَ به ؟ قال : جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها ، قال : إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها، قال : ما فعلتُ ، ولكنى جئتُ بها بيضاء نَقِيَّةً ، قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجَلْ ، فمَنْ كَذَبَ ففعل الله ذلك به ، فكان هو ذاك عدو الله : خرج إلى مكة مُفَارِقا الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق » فلما افتتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بها طريدا غريباً وحيداً .

وروى بعضهم أنه لم يكن فى الأوس والخزرج رجلٌ أوْصَفُ لمحمد صلى الله عليه وسلم من أبى عامر المذكور ، وكان يألف اليهود ويسائلهم فيخبرونه بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى يهود تَيْمَاء وإلى الشام ، فسأل النصارى

---

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

فأخبروه بذلك ، فرجع وهو يقول : أنا على دين الحنيفية ، وترهَّبَ ولبس المُسُوحَ ، وزعم أنه ينتظر خروجَ النبي صلى الله عليـه وسلم ، فلما ظهر بمكة لم يخرج إليه ، فلما قدم المدينة حَسَدَ و بغى ، وذكر إتيانه النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ماسبق ، إلا أنه قال : فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم « الكاذب أماته الله وحيداً طريداً » قال : آمين ، ثم ذكر خروجه إلى مكة ، وزاد: فكان مع قريش يتبع دينهم وترك ما كان عليه ؛ فهذا مصداق ما ذكرت عائشة رضى الله عنها .

الفصل السابع
فى مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبى صلى الله عليه وسلم وذكر العقبة الصغرى

اعلم أن تلك الحروب المتقدمة لم تزل بين الأوس والخزرج حتى أكرمهم الله باتباعه صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه صلى الله عليـه وسلم كان يَعْرِض نفسه فى كل مَوْسِم من مواسم العرب على قبائلهم ، ويقول : ألاَ رجلٌ يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربى ، فيأبونه ويقولون : قَوْمُ الرجل أعلم به .

وذكر ابنُ إسحاق عَرْضَه عليه الصلاة والسلام نفسَه على كِنْدَةَ وعلى كَلْب وعلى بنى حنيفة ، قال : ولم يكن أحد من العرب أقْبَحَ ردًّا عليه منهم ، وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : فكان فى تلك السنين ـ أى التى قبل الهجرة ـ يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول: لا أكره أحدا منكم على شىء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذينى حتى أبلغ رسالة ربى ، فلا يقبله أحد .

وذكر الواقدى دُعَاءه صلى الله عليه وسلم بنى عَبْس إلى الإسلام ، وأنه أتى غَسَّان فى منازلهم بعكاظ وبنى محارب كذلك ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم يَدْعُو إلى دين الله ، ويأمر به كلَّ مَنْ لقيه ورآه من العرب ، إلى أن قَدِم سُوَيْدُ بن

الصامت أخو بنى عمرو بن عوف من الأوس ، وكان يسمى « الكامل » لجلده وشعره ، وهو القائل :

فَرِشْنِي بخيرٍ طالمَا قد بَرَيْتَنِي فَخَيْرُ المَوَالِي مَنْ يَرِيشُ ولا يَبْرِي

فَدَعَاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، فلم يبعد ولم يجب ، ثم انصرف إلى يثرب ، فلم يلبث أن قتِلَ يوم بُعَاث .

قال ابن إسحاق : فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا نَرَاه قد قتل وهو مسلم ، وقدم مكة أبو الحَيْسَر (١) أنس بن رافع وهو فى فِتْيَةٍ من قومه بنى عبد الأشهل يطالبون الحِلْفَ ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام ، فقال رجل منهم اسمه إياس بن معاذ وكان شابا : هذا والله خير مما قدمنا له ، فضربه أبو الحَيْسَر (١) وانتهره ، فسكت ، ثم لم يتم لهم الحلف ، فانصرفوا إلى بلادهم ، ومات إياس بن معاذ فقيل : إنه مات مسلما .

وقال رزين فى ذكر هذه القصة : ثم جاءت الأوسُ تطلب أن تحالف قريشا ، فجاءهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض نفسَه عليهم ، وقال : اسْمَعُوا منى ، هل لكم فى خيرٍ مما جئتم له ؟ وتلا عليهم القرآن ، ثم قال : بايعونى واتبعونى ؛ فإنكم ستُجمعون بى ، فقال عمرو بن الجموح : هذا أىْ قَوْمِ والله خيرٌ لكم مما جئتم له ، فانتهروه ، وقالوا : ما جئنا لهذا ، ولم يُقْبِلُوا عليه ، ثم انصرفوا ، فكانت وقعة بُعَاث .

وقال ابن زبالة : إنه صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل فيأبونه ، حتى سمع بنفر من الأوس قدموا فى المنافرة التى كانت بينهم ، فأتاهم فى رحالهم ، فقالوا : مَنْ أنت ؟ فانتسب لهم ، وأخبرهم خبره ، وقرأ عليهم القرآن ، وذكرأنهم أخوالُه ، وسألهم أن يؤووه ويمنعوه حتى يبلغ رسالاتِ ربه ، فنظر بعضُهم إلى بعض وقالوا : والله هذا صادق ، وإنه للنَّبِيُّ الذى يذكر أهلُ الكتاب ويستفتحون

---

(١) فى المطبوعات كلها « أبو الجيسى » تطبيع ، وما أثبتناه عن سيرة ابن هشام

به عليكم ، فاغْتَنِمُوه وآمنوا به ، فقالوا : أنت رسول الله ، قد عَرَفْنَاكَ وآمنا بك وصدقناك ، فمرنا بأمرك فإنَّا لن نعصيك ، فسُرَّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يختلف إليهم ، ويزدادون فيه بصيرة ، ثم أمرهم صلى الله عليه وسلم أن يَدْعُوا قومَهم إلى دينهم ، فسألوه أن يرتحل معهم ، فقال : حتى يأذن لى ربى ، فلحقوا بأهلهم المدينة ، ثم شَخَصُوا إليه فى الموسم فكان من أمر العَقَبة ما كان، وهو مخالف لما تقدم من أن النفر من الأوس لم يقبلوا .

وقد أخرج الحاكم وغيره بإسناد حسن عن على رضى الله عنه قال : لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب وخَرَج وأنا معه وأبو بكر إلى مِنًى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، وتقدم أبو بكر وكان نسَّابة ، فقال : مَنِ القوم ؟ قالوا : ربيعـــة ، فذكر حديثا طويلا فى مُرَاجعتهم وتوقفهم أخيرا عن الإجابة ، ثم قال : ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، وهم الذين سَمَّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصـار ، لـكونهم أجابوه إلى إيوائه ونَصْره ، قال : فما نهضنا حتى بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن إسحاق فى ذكر العقبة الأولى : لمـا أراد الله عز وجل إظهار دينه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقى فيـه النفر من الأنصار ، فعرض نفسَه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينا هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج ، قال : أمن موالى[1] يهود ؟ قالوا : نعم، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى، فجلسوا معه. فدَعاهم إلى الله ، وعَرَض عليهم الإسلام ، وكان ممـا صنع الله لهم فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل علـم وكتاب ، وكانوا هم أهلَ شركٍ أصحابَ أوثانٍ ، وكانوا قد غزوهم فى بلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شىء قالوا لهم : إن نبيا مبعوث قد أظلَّ زمانهُ نتبعه نقتلكم معه قَتْلَ عادٍ وإرم ، فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم

---

(١) الموالى : جمع مولى ، وهو هنا بمعنى الحليف

إلى الله قال بعضهم لبعض : تعلَّموا[1] إنه للنبيُّ الذى تو َعَّدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فإنْ يجمعْهمُ الله عليك فلا رَجُلَ أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم ليدْعُوا قومهم ، فلما جاؤهم لم يبق دار من دور قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وهم ـ يعنى أصحاب العقبة الأولى ـ فيما ذكر لى ستة نفر من الخزرج ، وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، كلاهما من بنى غنم بن مالك بن النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان الزرقى ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وجابر بن عبد الله بن رئاب ، وعقبة بن عامر ابن نابى ، وهؤلاء الثلاثة من بنى سلمة .

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى وأبى الأسود عن عروة : هم أسعد بن زرارة ، ومعاذ بن عفراء وهى أمه ، وهو ابن عمرو بن الجَمُوح من بنى غنم بن مالك بن النجار أيضا ، ورافع بن مالك ، ويزيد بن ثعلبة البلوى ، ثم من بنى غصينة حليفهم ، وأبو الهيثم مالك بن التيهان الأوسى ، ثم من بنى جُشَم أخى عبد الأشهل بن جشم ، وعُوَيم بن ساعدة الأوسى ، ثم من بنى أمية بن زيد ، ويقال : كان فيهم عُبَادة بن الصامت الخزرجى ثم من بنى غنم أخى سالم بن عوف ، وذكوان الزرقى ، فيكونون ثمانية ، ومنهم من عَدَّهم سبعة فأسقط جابر ابن عبد الله أو عبد الله بن زيد ، وقيل : إنما أسلم فى العام الأول اثنان فقط ، هما أسعد بن زرارة وذكوان .

قال ابن إسحاق فى ذكر العقبة ـ يعنى الثانية لما قدمه ، وبعضهم يسميها الأولى ـ : فلما كان الموسمُ ـ يعنى من العام المقبل ـ وافاه منهم اثنا عشر رجلا ، فذكر الستة الذين قدمهم غير جابر بن عبدالله ، وزاد : ذكوان الزرقى ، وعُبَادة ابن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة بن نضلة الغنمى السالمى الخزرجى ،

---

(١) تعلموا هنا بمعنى اعلموا

ومعاذ بن عفراء ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة ، قال : فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة على بيعة النساء : أى على وَفق بيعة النساء التى نزلت بعد الفتح ، على أن لا يشركوا بالله شيئاً إلى آخر الآية[1] ، ولم يكن أمر بالقتال بعد ، بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ما عدا التوحيد والصلاة ، وأرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم معهم مُصْعَبَ بن عُمَيْر ليفقههم فى الدين ويعلمهم الإسلام ، فكان يصلى بهم ، وقيل : بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليعلمهم ويقرئهم القرآن ، فكان يسمى « المقرئ » وهو أول من سمى به ، فنزل على أسعد بن زُرَارة ، وقيل : بعث إليهم مُصْعَب بن عمير وابنَ أم مكتوم ؛ فكان مصعب بن عمير يؤمهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض ، فجَمَّعَ بهم أول جمعة فى الإسلام — وفى الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى مُصْعَب بن عمير أن يجمّع بهم فجمّع بهم وكانوا اثنى عشر — .

قال الزهرى : وعند ابن إسحاق أولُ من جَمَّع بهم أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وفى أبى داود من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كان أبى إذا سَمِع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة ، فسألته ، فقال : كان أول من جَمَّع بنا فى هَزْم النبيت من حَرَّة بنى بَيَاضة فى نقيع يقال له نقيع الخضمات . قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون . قال البيهقى : ولا يخالف هذا ما روى عن الزهرى مِن تَجْميع مصعب بن عمير بهم وأنهم كانوا اثنى عشر ؛ إذ مراد الزهرى أنه أقام الجمعة بمعونة النفر الاثنى عشر الذين بايَعُوا فى العقبة وبعثه صلى الله عليه وسلم فى صحبتهم أو على أثرهم حين كثر المسلمون ، ومنهم أسعد بن زُرَارة ، فالزهرى أضاف التجمع إلى مصعب لكونه الإمام ، وكعبٌ أضافه إلى أسْعَد لنزول مصعب أولا عليه ونَصْرِه له وخروجه به إلى دور الأنصار يدعوهم إلى الإسلام ، وأراد الزهرى

---

(١) أراد الآية الكريمة التى فى سورة النساء الصغرى (الممتحنة) ، رقم ١٢

بالاثنى عشر عدد الذين خرجوا به ، وكانوا له ظَهْراً[١] ، ومرادُ كعب جميعُ مَنْ صَلَّى معه ، هذا وقولُ كعب متصل ، وقولُ الزهرى منقطع ، اه .

وروى الطبرانى مرسلا فى خبر طويل قال فيه عن عروة : ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابْعَثْ إلينا رجلا من قِبَلك يدعو الناسَ بكتاب الله ؛ فإنه أدنى أن يُتَّبَع[٢] ؛ فبعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مصعبَ بن عمير أخا بنى عبد الدار ، فنزل فى بنى غَنْم على أسعد بن زُرارة ، فجعل يدعو الناس ، ويفشو الإسلام ، وهم فى ذلك مستخفون بدعائهم ، ثم إن أسعد بن زُرارة أقبل هو ومُصْعب بن عُمَير حتى أتيا مرقا أو قريباً منها ، فجلسا هنالك ، و بعثا إلى رَهْط من أهل الأرض ، فأتوهم مُسْتَخْفِينَ ، فبينا مصعب بن عمير يحدثهم و يقصُّ عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ ، فأتاهم فى لأمَتِه[٣] ومعه الرُّمْح حتى وقف عليه فقال : غُلَام يأتينا فى دارنا ، هذا الوحيد الفريد الطريد الغريب ليُسَفِّهَ ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم ، لا أراكما بعد هذا بشىء من جوارنا ، فرجعوا ، ثم إنهم عادوا الثانية ببئر مرق أو قريباً منها فأخبر بهم سعد بن معاذ الثانية ، فتوعدهم بوعيد دون الأول ، فلما رأى أسعد منه اللينَ قال : يا ابن خالة ، اسْمَعْ من قوله ، فإن سمعتَ منكراً فاردده بأهْدَى منه ، و إن سمعت خيراً فأجِبْ إليه ، فقال : ما ذا يقول ؟ فقرأ عليه مصعب « حٰمۤ ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون[٤] » فقال سعد : وما أسمع إلا ما أعرف ، فرجع وقد هداه الله ، ولم يظهر أمر الإسلام حتى رجع إلى قومه ، فدعا بنى عبد الأشهل إلى الإسلام وأظهر إسلامه ، وقال : مَنْ شك فيه من صغير أو كبير فليأتنا بأهْدَى منه ، فوالله لقد جاء أمر لتُحَزَّنَّ فيه الرقابُ ، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلامه ودعائه إلا مَنْ لا يذكر فكانت أولَ دارٍ من دور الأنصار أسلمت بأسْرِها ، ثم إن بنى النجار اشتدوا على أسعد بن زرارة ، وأخرجوا مُصْعب بن عُمير ، فانتقل إلى سعد بن معاذ ، فلم

(١) كانوا له ظهرا : أى أعوانا مساعدين (٢) أدنى أن يتبع : أقرب
(٣) اللأمة : السلاح كله (٤) من سورة الزخرف الآيات ١ ــ ٣

يزل يدعو ويهدى على يديه ، حتى قلّ دارٌ من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناسٌ ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجَمُوح ، وكسرت أصنامهم ، فكان المسلمون أعز أهلها ، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اﻫ .

وقد روى هذه القصة ابنُ إسحاق عَمّنْ سمى من شيوخه بزيادة ونقص ، فقال : إن أسعد بن زُرَارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظَفَر ، فدخل به حائطاً من حوائط بنى ظفر على بئر يقال لها بئر مرق ، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، فلما سمع بذلك سعدُ بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير — وهما يومئذ سيدا قومهما بنى عبد الأشهل — وكلاهما مُشْرِكٌ ، قال سعد لأُسَيْد : لا أبالك ! انطلق إلى هٰــذَين الرجلين الذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجُرْهما وانْهَهُمَا عن أن يأتيا دارَيْنَا؛ فإنه لولا أن أسعد بن زُرَارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ، فأخذ أسيد حَرْبته ثم أقبل إليهما فلما رآه أسعد بن زُرَارة قال لمُصْعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصْدُقِ الله فيه ، قال : فوقَفَ عليهما متشتما(١) ، فقال : ماجاء بكما إلينا تُسَفِّهَان ضعفاءنا ، اعْتزِلا نَا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيتَ أمْراً قبلته ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ، قال : أنْصَفْتَ ، ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله لَعرَفْنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، ثم قال : ما أحسن هــذا وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطَّهر ، وتطهر ثيابك ثم تتشهد شهادة الحق ، ثم تصلى ، فقام ففعل ذلك ، ثم قال لهما : إن ورائى رجلا إن اتَّبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن سَعْدَ بن مُعاذ ، ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلا قال : أحْلِفُ بالله لقد جاءكم أُسَيْدٌ بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما وقف على النادى قال

(١) فى نسخة «متسمتا» بالسين المهملة ، ووقع كذلك فى الخلاصة

له سعد : ما فعلتَ ؟ قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حُدِّثتُ أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرَارة ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابنُ خالتك ليُخْفِرُوكَ ، فقام سعد مُغْضَباً مبادِراً متخوفا للذى ذُكر له ، فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغنيتَ شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ثم قال : يا أبا أُمامة ، أما والله لولا ما بينى و بينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منى ، أتغشانا فى دارَينا بمـا نكره ، وقد قال أسعد لمصعب بن عمير أىْ مُصْعب، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه من قومه ، إن يَتْبَعْكَ لايتخلَّفْ عنك منهم اثنان ، فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته و إن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفتَ ، ثم ركَزَ الحربة فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنَا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتَسَهُّله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ؟ فذكرا له ما تقدم ، ففعله ، ثم أقبل عامداً إلى نادى قومه ومعه أسَيْدُ بن حُضَير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما وقف عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، أفْضَلُنا رأيا ، وأيمنُنَا نَقِيبَةً[1] ، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم حرام علىَّ حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، قال : فوالله ما أمسى فى دار بنى عبـد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة ، ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زُرَارة ، فأقام عنـده يدعو الناس إلى الإسـلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخَطْمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن صَيْفى بن الأسلَت ،وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون

(١) فلان ميمون النقيبة : يراد به أنه مظفر المطالب، والنقيبة : النفس ، أوهى الطبيعة والخليقة

منه و يطيعون ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم أسلموا كلهم .

وفى التاريخ الأوسط للبخارى أن أهل مكة سمعوا هاتفاً يهتف قبل إسلام سعد بن معاذ :

فإن يُسْلِمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحْ محمد بمكَّةَ لا يخشى خِلافَ المخالف
فيا سَعْدُ سَعْدَ الأوس كن أنت ناصرا و يا سَعْدُ سَعْدَ الخزرجين الغطارف
أجِيبَا إلى داعى الهدَى وتمنَّيَا على الله فى الفردوس مُنْيَةَ عارف

فى أبيات أخرى .

وذكر لها رزين سبباً آخر كما سيأتى ، وهذا أصح ، ولم يذكر ابن إسحاق فى الخبر المتقدم إسلام عمرو بن الجمُوح، بل ذكره بعد ذكر العقبة الآتية كما سنذكره، نعم ابنُه مُعَاذ شهد العقبة .

الفصل الثامن
فى العقبة الكبرى

و بعضُهم يسميها العقبة الثانية ، ومقتضى ما قدمناه أن تسمى الثالثة .

قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عُمَير رجع إلى مكة وخرج مَنْ خرج من الأنصار من المسلمين للقائهم النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومبايعته فى الموسم مع حُجَّاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد: من كرامته ، والنصر لنبيه ، و إعزاز الإسلام وأهله ، و إذلال الشرك وأهله .

وروى ابن إسحاق وصحّحه ابنُ حِبَّان من طريقه عن كعب بن مالك قال : خرجنا حُجَّاجاً مع مشركى قومنا، وقد صلينا وفقِهْنَا[1] ، ومعنا البراء بن معرور سيدُنا وكبيرنا ، فذكر شأن صلاته إلى الكعبة ، قال : فلما وصلنا إلى مكة ولم نكن رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فسألنا عنه ، فقيل : هو مع العباس فى

(١) الفقه: العلم، والمراد أنهم علموا ما أرسل الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم

المسجد ، فدخلنا فجلسنا إليه ، فسأله البراء عن القبلة ، ثم خرجنا إلى الحج وواعَدْنَاهُ العقبة ، فلما كانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ،وكنا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا ومعنا عبد الله بن عمرو والدجابر، ولم يكن أسلم قبل ،فعرَّفناه أمر الإسلام، فأسلم حينئذ وصار من النقباء [1] ،قال : فبِتْنا تلك الليلة فى قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلُث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تَسَلُّلَ الْقطَا مستخفين،فاجتمعنا فى الشِّعْب [2] عند العقبة ثلاثة وسبعين رجلا، ومعنا امرأتان: أم عمارة بنت كعب إحدى نساء بنى مازن ، وأسماء بنت عمر بن عدى إحدى نساء بنى سلمة ، قال : فجاء ومعه العباس ، فتكلم فقال : إن محمدا منا من حيث علمتم ، وقد مَنعْنَاه ، وهو فى عز ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم ، فإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وذاك ، وإلا فمن الآن ، قال : فقلنا : قد سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله فَخُذْ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم ، فدعا إلى الله ، وقرأ القرآن ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، فقال : نعم والذى بعثك بالحق لَنَمْنعنك مما نمنع منه أزُرَنَا ، فبايعنا يارسول الله فنحن والله أصحابُ الحروب وأهلُ الْحَلْقَة ورثناها كابرا عن كابر ، فاعترض القولَ والبراء يكلمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله ، إن بيننا و بين الرجال ـ يعنى اليهود ـ حِبَالاً ونحن قاطعوها ،فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنَا ، قال : فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم [3] ،أنا منكم وأنتم منى ،

---

(١) النقباء : جمع نقيب ، وهو كالعريف على القوم المقدم الذى يتعرف أخبارهم

(٢) شعب مبايعة العقبة يقع على يسار الذاهب إلى منى (مكى) وانظر ص ٢٣٢

(٣) الهدم : يروى بتحريك الدال وبسكونها ؛ فأما المحرك فمعناه القبر، يعنى أنى أقبر حيث تقبرون ، وقيل : هو المنزل ، والمعنى منزلكم منزلى ، وأما المسكن فمعناه إهدار دم القتل ، والمراد على هذا إن طاب دمكم فقد طلب دمى ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمى؛لاستحكام الألفة بيننا ، قاله ابن الأثير .

أحارب مَنْ حاربتم وأسالم من سالمتم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرِجُوا إلىّ منكم اثنى عشر نَقِيباً يكونون على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس : فمن الخزرج أسعد بن زُرَارة نقيب بنى النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن رَوَاحة نقيبا بنى الحارث ابن الخزرج ورافع بن مالك بن العَجْلان نقيب بنى زُرَيق ، والبراء بن مَعْرُور وعبد الله بن عمرو بن حرام نقيبا بنى سلمة ، وعُبَادة بن الصامت نقيب القبائل وفى الطبرانى أنه نقيب بنى عدى من الخزرج ، فكأنه نقيب الجميع ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو نقيبا بنى ساعدة - ومن الأوس أُسَيْد بن حُضَيْر نقيب بنى عبد الأشهل ، وسعد بن خَيْثَمة ورفاعة بن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف .

قال ابن إسحاق : وأهلُ العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان،ولا يعدون رفاعة قلت : فيكون أبو الهيثم نقيباً ثانياً لبنى عبد الأشهل فإنه منهم ، وقد صرحوا به .

وجعل صلى الله عليه وسلم النقباء على عدة الأسباط ، وروى أنه نقب على النقباء أسعد بن زرارة ، فتوفى بعدُ والمسجدُ النبوى يُبْنَى ، قيل : فاجتمعت بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يجعل منهم شَخْصاً بدله نقيباً عليهم ، فقال لهم: أنتم أخوالى ، وأنا فيكم ، وأنا نقيبكم ، وكره صلى الله عليه وسلم أن يخص بها بعضَهم دون بعض ، فكان ذلك من فضل بنى النجار الذى يَعُدُّون .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للنقباء : أنتم كُفَلَاء على قومكم كفالَةَ الحَوَارِيِّينَ لعيسى بن مريم ، قالوا : نعم .

وحدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن

عبادة بن نَضْلة أخو بنى سالم بن عوف : يامعشر الخزرج ، هل تدرون علامَ تبايعون هـذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حَرْب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهِكت(١) أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خِزْىُ الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له بما دعوتموه إليه على ما ذكرتُ لكم فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا: فإنا نأخذه على ماقلت ، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وَفينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ابْسُطْ يدك ، فبسط يده فبايعوه .

قال عاصم : ما قال ذلك العباسُ إلا ليشدَّ العَقْدَ فى أعناقهم ، وقال غيره: أراد التأخير تلك الليلة رجاء أن يحضر عبدُ الله بن أبيَّ بن سلولَ فيكون أقوى للأمر .

أول من بايع

قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أولَ مَنْ ضرب على يده ، و بنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان، وفى حديث كعب المتقدم أنه البراء ابن معرور ، ثم بايع القوم .

وفى المستدرك عن ابن عباس : كان البَرَاء بن معرور أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، وعند أحمد عن جابر وعند الحاكم فى الإكليل عن كعب بن مالك : قال عبدالله بن رَوَاحة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ماشئت ، فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل، فنزل « إن الله اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ »(٢) الآية .

وفى حديث كعب المتقدم بعد ذكر صُرَاخ الشيطان أن العباس بن نَضْلَة قال للنبى صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلَنَّ على أهل مِنًى غدا

(١) نُهِكت أموالكم مصيبة : استأصلتها ، وأصله قولكم « نهكت الناقة حلبا » إذا لم تبق فى ضرعها لبنا

(٢) من سورة التوبة من الآية ١١١

بأسيافنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : لم أُومَرْ بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها ، فلما أصبحنا غدت علينا جِلّةُ قريشٍ حتى جاؤنا فى منازلنا فقالوا : يامعشر الخزرج ، إنه بلغَنَا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله مامن حى من العرب أبغض إلينا أن تَنْشَبَ الحربُ بيننا وبينهم منكم ، فانبعث مَنْ هناك من مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علمناه ، ولقد صدقوا لم يعلموه .

وفى حديث غير كعب أنهم أتوا عبدَ الله بن أبىّ ، فقال لهم : إن هذا الأمر جَسيم ، ما كان قومى ليتفوّتوا علىّ بمثل هذا ، وما علمته كان ، وروى أن مشركى الأنصار الذين حجوا فى ذلك العام كانوا خمسمائة نفر ، وأن أهل العقبة كانوا سبعين نفرا .

عدة أهل البيعة

وفى لفظ عن ابن إسحاق: من الأوس أحد عشر رجلا : ومن القبائل أربعة نفر حلفاء الخزرج ، وكان من بنى الحارث بن الخزرج اثنان وستون رجلا ، فكأنه أدخل فى الخزرج حلفاءهم الأربعة ، وإلا فتزيد العدة على ثلاثة وسبعين أربعة .

وروى رزين أن أهل العقبة كانوا سبعين رجلا وامرأتان ؛ فإنه روى حديث العقبة هذه عن عُبادة بن الصامت بنحو حديث كعب المتقدم ، فقال : قال عبادة بن الصامت : فلما كان العام المقبل أتينا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ونحن سبعون رجلا وامرأتان من قومنا ، فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مسجد شِعْبِ العقبة ، عن يسارك وأنت ذاهب إلى مِنًى ، فلما توافينا عنده جاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس ، وقال : يا معشر الخزرج ، وهذا الاسم يغلب على الأوس والخزرج جميعاً إذ ذاك ، إن محمداً منا حيثُ علمتم ،

وقد منعناه كما بلغكم ، فإن كنتم تعلمون أنكم تقدرون على منعه ، و إلا فذَرُوه فهو مع قومه فى عز ومنعـــة ، فقام البَرَاء بن مَعْرور فقال : قد سمعنا ما قلت ، و إنا ما ضربنا إليه أكباد الإبل إلا وقد علمنا أنه نبى ، فبايعنا يا رسولَ الله ، واشترط لنفسك ولربك ماشئت ، فحمد الله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله ، ورغَّبَ فى الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نســاءكم ، فأخذ البَرَاء بيده ، وقال : نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أُزُرَنا ، ونحن أهل الحلَقَة والُحصُون والحروب ، فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يارسول الله إن بيننا و بين الرجال حبالا ، ونحن قاطعوها ، فهل عَسَيْتَ إن نصَرَكَ الله أن ترجع إلى قومك وتدَعَنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل الدم الدم والهدم الهدم ، المحيا محياكم ، والمماتُ مماتكم ، وأحارب مَنْ حاربكم ، وأسالم من سالمكم ، أخرِجُوا إلىَّ منكم اثنى عشر نقيباً يكونوا نقباء على الناس ، فأخْرَجُوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فبينما هم فى ذلك إذْ صَرَخ الشيطانُ يقول : يا أهل الجباجب ، وهى المنازل ، هل لــكم فى الصَّـبَأَة[1] قد اجتمعوا على حربكم ، فقــال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أزَبُّ العَقَبة لأفرُغَنَّ لك أىْ عدوَّ الله ، ارجعــوا إلى رحالــكم ، نَصرَكم الله ، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة : والذى بعثك بالحق نبياً لئن شئتَ لنميلَنَّ بأسيافنا غداً على منى ، فقال له : لم أومَرْ بذلك ، ثم ذكر قصة كلام قريش فى ذلك وحَلِفَ مشركى قومهم لهم عن ذلك ، قال : ثم إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتخرج معنا ؟ قال : ما أمرت به .

قال رزين : وقد قيل إنه وقَع بين قريش والأنصار كلام فى سبب خروج النبى صلى الله عليه وسلم معهم ، ثم ألقى الرعب فى قلوب قريش فقالوا : ليس يخرج معكم إلا فى بعض أشهر السنة ، ولا يتحــدث العرب بأنكم غلبتمونا ، فقالت الأنصار : الأمر فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن سامعون لأمره ، فأنزل

---

(١) الصبأة : جمع صابىء ، وكان مشركو مكة يسمون الرسول وأصحابه بذلك لأنهم خرجوا عن دينهم

الله على رسوله « وإن يريدوا أن يَخْدَعُوكَ فإن حَسْبَكَ اللهُ[1] » أى : إن كان كفار قريش يريدون المكر بك فسيمكر الله بهم ، فانصرفت الأنصار إلى المدينة .

وقيـل : إن قريشاً بدا لهم فخرجوا فى آثارهم ، فأدركوا منهم رجلين كانا تخلفا فى أمر ، فردوهما إلى مكة : المنذر ، وعباس بن عبادة، فأدركهما جُبَير بن مُطْعِم والحارث بن أمية ، فخلَّصاهما ولحقا أصحابهما .

قلت: والذى ذكره غيرُه أن الرجلين هما المنذر وسعد بن عبادة ، فأما المنذر فأعجز القومَ ونجا ، وأما سعد فأخذوه فربَطُوا يديه إلى عُنقه بنِسْـعِ رَحْـلِه ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمَّته ، وكان ذا شعر كثير ، ثم خلصه منهم جُبَير بن مُطْعم والحارث بن أمية ؛ لأنه كان يجير لهما تجارهما ويمنعهم أن يظلموا ببلده .

إسلام عمرو ابن الجموح

وذكر رزين عقب ما تقدم عنه إسلام عمرو بن الجَمُوح كما ذكره أهـلُ السير عقب ذلك أيضاً ، وكان عمرو شيخاً كبيراً من سادات بنى سلِمة ، وشهد معاذ ابنُه العقبةَ ، وكان لعمرو فى داره صنم من خَشَب يعبده يُدْعَى مَنَاة ، فكان معاذ ابنه ومعاذ بن جبل وفتْيَان بنى سلمة يدلجون بالليل على صنم عمرو فيطرحونه فى بعض حُفَر بنى سلمة وفيها عذر الناس منكَّساً على رأسه ، فإذا أصبح قال عمرو: مَنْ عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسَله وطيَّبه ثم يقول : والله لو أعلم مَنْ فعـل هذا بك لأخزيته ، فتكرر ذلك ، فطهره يوماً وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال : إنى والله لا أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك ، فلما نام أخذوا السيف وقرَنُوا كلباً ميتاً بالصنم بحبل ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر ، فلم يجده عمرو فى

---

(١) من سورة الأنفال من الآية ٦٢

مكانه ، فخرج حتى وجده كذلك ، فلما أبصر ما به وكلمه مَنْ أسلم من قومه فأسلم وحَسُن إسلامه ، وقال فى ذلك :

والله لو كنتَ إلاهاً لم تكن / أنت وكَلْبٌ وَسطٌ بئر فى قَرَنْ

أفّ لملقاك إلاهاً مستدن / الآن فتّشْناك عن سوء الغَبَنْ

الحمدُ لله العــلى ذى المَنَنْ / الواهب الرزاق ديّان الدين

هو الذى أنقذنى من قبـل أنْ / أكونَ فى ظلمة قبر مُرْتَهَن

الفصل التاسع

فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها

رؤيا النبى دار هجرته

روينا فى الصحيحين حديث « رأيت أنى أهاجرُ من مكة إلى أرض بها نخل ، فذهب وهلى[1] إلى اليمامة أو هجر، فإذا هى المدينة يثرب» ووقع للبيهقى من حديث صهيب « أُريتُ دار هجرتكم سبخة بين ظهرانى حرّتين،فإما إن يكون هجر أو يثرب » ولم يذكر اليمامة ، وللترمذى من حديث جرير « أوحى إلى : أىّ هؤلاء الثلاثة نزلت فهى دار هجرتك ، المدينة أو البحرين أو قنسرين » واستغرب به ، وفيه نظر ؛ لمخالفته لما فى الصحيح من ذكر اليمامة ، وأما هَجَر فيصح التعبير بها عنها لسكونها من بلاد البحرين ، وأما قنسرين فهى من أرض الشام ، ويحتمل أن يكون أرِىَ ما فى الصحيح وأوحى إليـه بالتخيير قبل أو بعد ، فاختار المدينة

وقال ابن التين : أرِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم أولا دارَ هجرته بصفة تجمع المدينة وغيرها ، ثم أرى الصفة المختصة بالمدينة فتعينت .

إذن النبى لأصحابه فى الهجرة

ثم أذن النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى المدينة، وأقام بمكة ينتظر أن يؤذن له فى الخروج، فتوجه بين العقبتين جماعة منهم ابن أُمّ مكتوم، ويقال: إن أول مَنْ هاجر إلى

---

(١) الوهل ، بفتح فسكون : الظن والوهم ، وانظر ص ١٠

المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى زوج أم سلمة ، وذلك أنه أوذِىَ لما رجع من الحبشة ، فعزم على الرجوع إليها ، ثم بلغه قصة الاثنى عشر من الأنصار فتوجَّه إلى المدينة ، فقدمها بُكْرَةً ، وقدم بعده عامر بن ربيعة عشية ، ثم توجه مصعب بن عمير ليفقه مَنْ أسلم من الأنصار كما تقدم ، ثم توالى خروجُهم بعد العقَبة الأخـــيرة ، فخرجوا أرسالا : منهم عمر بن الخطاب ، وأخوه زيد ، وطلحة بن عبيد الله ، وصُهَيب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وعبيدة ابن الحارث ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وعثمان بن عفان ، وغيرهم ، حتى لم يبق معه صلى الله عليه وسـلم بمكة إلا على بن أبى طالب والصديق رضى الله عنهما ، كذا قاله ابن إسحاق وغيره ، والظاهر أن المراد لم يبق من أعيانهم ؛ لما روى من أن مَنْ كان بمكة ممن يُطيق الخروج من المسلمين خرجوا بعد خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ، فطلبهم أبو سفيان وغيره من المشركين ، فردُّوهم وسَجَنوهم ، فافتتن منهم ناس ؛ ففى هذا دلالة على بقاء جماعة غير الصديق وعلى رضى الله عنهما مع النبى صلى الله عليه وسلم حينئذ ، فلما رأت قريش ذلك علموا أن أصحابه قد أصابوا مَنَعة ، ونزلوا دارا ، فحذروا[(١)] خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا بدار النَّدْوَة ليأتمروا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أبو جهل ، وزعم ابن دريد فى الوشاح أنهم كانوا خمسة عشر رجلا ، وفى المولد لابن دحية كانوا مائة رجل ، وجاءهم إبليس فى صورة شيخ نَجْدى فقال : أدخلونى معكم ، فلن تعدموا منى رأيا ، فأدخلوه ، فقال بعضُهم : نخرجه من بين أظهرنا ، وقال آخرون : بل نحبسه ولا يَطْعَمُ حتى يموت ، فقال أبو جهل : قد رأيتُ أصْلَحَ من رأيكم : أن يعطى خمسُ رجالٍ من خمس قبائل سيفا سيفا فيضربونه ضربَةَ رجلٍ ، فيتفرق دمه فى هذه البطون ، فلا يقدر لـكم بنو هاشم على شىء ، فقال النجدى : لا أرى غير هذا ، فأخبر جبريلُ النبىَّ صلى الله عليه

---

(١) حذروا خروجه : أى ظنوه وقدروه

وسلم ، فأنزل الله على نبيه « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين[١] » فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى : نَمْ على فراشي وتَسَجَّ بِبُرْدِي فلن يخلص إليك منهم أمر ، فترد هذه الودائعَ إلى أهلها ؛ لأن كفار قريش كانت تودع عنده لأمانته ، وكان اسمه عندهم الأمين الصادق ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق فأعلمه ، وقال : قد أُذِنَ لى ، فقال : الصحبة يارسول الله ، وكان إنما حَبَس نفسه عليه لما ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر لأصحابه رؤياه المتقدمةَ هاجر من هاجر منهم قبل المدينة ورجع عامة مَنْ كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على رِسْلِكَ فإنى أرجو أن يؤذن لى ، فقال له : وهل ترجو ذلك بأبى أنت وأمى ؟ قال: نعم ،فحبَس نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وكان عمرُ قد تقدم إلى المدينة ، وعلَف أبو بكر راحلتين كانتا عنده الخَبَطَ[٢] أربعةَ أشهر، فعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إحداهما ، فقال : بالثمن ، وفى رواية ابن إسحاق قال : لا أركب بعيرا ليس هو لى ، فقال : فهو لك ، قال : لا ولكن بالثمن الذى ابْتعتها به ، قال : أخذتهَا بكذا وكذا ، قال : قد أخذتها بذلك، قال : هى لك، والحكمة فيه ـ كما أفاده بعضهم ـ أنه صلى الله عليه وسلم أحبَّ أن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه ، وذكر ابن إسحاق أن الناقة التى أخذها هى الجَدْعَاء ، وأنها كانت من إبل بنى الحريش ، وكذا فى روايةٍ أخرجها ابنُ حبان ، وأنها الجَدْعاء ، وأفاد الواقدى أن الثمن كان ثمان مائة درهم ، وأن المأخوذة هى القصوى ، وأنها كانت من نَعَم بنى قُشَير ، وأنها عاشت حتى ماتت فى خلافة الصديق ، وكانت مُرْسَلة ترعى فى النقيع ، وفى طبقات ابن سعد أن ثمنها ثمان مائة درهم ، اشتراها أبو بكر من نَعَم بنى قشير ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم منه القصوى بثمنها ، وسيأتى

(١) من سورة الأنفال الآية ٣٠

(٢) الخبط ـ بفتح الخاء والباء جميعا ـ ورق الشجر الذى يتساقط إذا ضرب بالعصا

من رواية يحيى الحسينى أيضا أنها القصوى ، وجاء عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم أُذِنَ له فى الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى « وقل رب أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صدقٍ ، وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا[١] » أخرجه الترمذى وصححه هو والحاكم ، فذهب أبو بكر إلى عبد الله بن أريقط قاله ابن عقبة. وفى تهذيب ابن هشام «عبد الله بن أرقد» وفى رواية الأموى عن ابن إسحاق «ابن أريقد» وفى الغنية عن مالك اسمه «رقيط من بنى الديل من كنانة» فاستأجره ، وكان هاديا خِرِّيتا[٢] : أى ماهرا بالهداية ، وكان على دين الكفار. قال النووى : لا نعلم له إسلاما ، فأمره أن يأتيهما بعد ثلاث فى غار ثَوْرٍ ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله ، فجاءه على رضى الله عنه ، واجتمعت قريش على باب الدار ليقتلوه بزعمهم ، فقال لهم أبو جهل : لا تقتلوه حتى يجتمعوا ، يعنى الخمسة من القبائل الخمس ، وجعل يقول لهم : هذا محمد كان يزعم لكم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ، ويكون لكم فى الآخرة جنات تأكلون منها ، وإن لم تتابعوه يكون له فيكم ذبح فى الدنيا ، ويوم القيامة نار تحرقون فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم والله كذا أقول ، وكذا يكون ، وأنت أحدهم ، ثم أخذ حَفْنة من تراب فرماها فى وجوههم ، فأخذ على أبصارهم ولم على أصمختهم فجعل على رأس كل رجل منهم ترابا وهو يقرأ أول سورة يس يستتر بها منهم إلى « فهم لا يبصرون » وتلا « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا[٣] » ثم أتى منزل أبى بكر ، فخرجا من خُوخَةٍ كانت له ، وأتيَا غار ثَوْر ، وأقام المشركون ساعة ، فجعلوا يتحدَّثون ، فجاءهم رجل كان إذ ذاك بعيدا منهم فقال لهم : وما تنتظرون ؟ فقالوا : أن نصبح فنقتل محمدا ، قال : قبحكم الله وخيبكم ، أوليس قد خرج عليكم وجعل على رءوسكم التراب ، قال

(١) من سورة الإسراء الآية ٨٠ (٢) الخريت ـ بوزن سكين ـ الماهر الحاذق بالطرق
(٣) من سورة الإسراء الآية ٤٥

أبوجهل : أو ليس هو ذاك مُسَجًّى ببرده ؟ الآن كانا ، فلما أصبحوا قام على من الفراش ، فقال أبو جهل : صَدَقنا ذلك المخبر ، فاجتمعت قريش ، وأخذت الطُّرق ، وجعلت الجَعَائل[1] لمن جاء به ، فانصرفت أعينهم ولم يجدوا شيئا، فجاء الديلى بعد ثلاث بالراحلتين ، ولا ينافى هذا ما وقع فى رواية هشام بن عُرْوة عند ابن حبان حيث قال : فركبا حتى أتيَا الغار فتواريا ؛ لاحتمال أنهما ركبا غير هاتين الراحلتين، أو هما ثم ذهب بهما عامر بن فهيرة إلى الديلى .

وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب فى الحديث المتقدم أن عليا رقَد على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يورى عنه ، وباتت قريش تحلف وتأتمر ، أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه ، حتى أصبحوا فإذا بعلى ، فسألوه فقال : لا علم لى ، فعلموا أنه فرّ منهم .

وروى أحمد بإسناد حَسَن عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا » الآية فذكر تشاور قريش ثم قال : فبات علىّ عَلَى فراشه صلى الله عليه وسلم ، وخرج هو حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى ينتظرونه حتى يقوم فيفعلون به ما اتفقوا عليه ، فلما أصبحوا ورأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى ، فاقتَصُّوا أثره[2] ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نَسْجَ العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال ، وذكر نحوه موسى بن عقبة عن الزهرى ، وكله مقتضٍ لأن الخروج إلى الغار كان فى بقية تلك الليلة ، وكان ذلك بعد العقبة بشهرين وليال ، وقال الحاكم : بثلاثة أشهر أو قريبا منها ، ويرجّحُ الأول ما جزم به ابن إسحاق من أنه خَرَج أول يوم من ربيع الأول؛ فيكون بعد العقبة بشهرين وبضعة عشر يوما ، وكذا جزم به الأموى ، فقال : خرج لهلال

---

(١) الجعائل : جمع جعالة ، مثل سحابة وسحائب ، وهى الأجرة

(٢) اقتصوا أثره : تتبعوه

ربيع الأول ، وقدم المدينة لاثنى عشر خَلَتْ منه ، وعلى هـذا كان خروجه يوم الخميس ، وهو الذى ذكره محمد بن موسى ، لـكن قال الحاكم : تواترت الأخبار بأن الخروج كان يوم الاثنين ، وجمع الحافظ ابن حجر بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس : أى فى أثناء ليلته لما قدمناه ، وخروجه من الغار – يعنى غار ثور – ليلة الاثنين ؛ لأنه أقام فيه ثلاث ليال ، ومَنْ روى ليلتين لعله لم يحسب أول ليلة ، وأما حديث الحاكم « ابثت مع صاحبى » يعنى أبا بكر « فى الغار بضعة عشر يوما ، ما لنا طعام إلا ثمر البرير » أى الأراك ، فقال الحاكم : معناه مكثنا مختفين من الكفار فى الغار وفى الطريق بضعة عشر يوما ، وقال الحافظ ابن حجر : الذى يظهر أنها قصة أخرى ، لما فى الصحيح من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما فى الغار باللبن ، وكذا قصة نزولهما بخَيْمَة أم معْبَد ، وغير ذلك ، وكان مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة بضع عشر سنة . وقال عروة : عشرا ، وقال ابن عباس : خمس عشر سنة ، وفى رواية عنه : ثلاث عشرة ، ولم يعلم بخروجه إلا على وآل أبى بكر ، وكان من قصة نسج العنكبوت وغيره من أمر الغار ما كان ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما يردفه أبو بكر ويعقبه ، والدليل ، فأخذ بهم فى أسفل مكة حتى أتى بهما طريق السواحل أسفل من عُسْفَان ، ثم عارض الطريق على أمَجَ[1] ، ثم نزل من قديد خيام أم معبد الخزاعية من بنى كعب ، وبقية المنازل إلى قباء ذكرها ابن زبالة ، وقد أوضحناه فى الأصل ، واتفق فى مسيرهم قصة سُرَاقة عارضهم يوم الثلاثاء بقديد على ما ذكره ابن سعد وغيرها من القصص المشتملة على الآيات البينات .

قال رزين : وأقامت قريش أياما لا يدرون أين أخذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فسمعوا صوتا على أبى قبيس وهو يقول :

فإن يُسْلِم السَّعْدانِ يصبح محمد   من الأمن لا يخشى خلاف المخالف

---

(١) أمج : بفتح الهمزة والميم جميعا – مكان بعينه بين مكة والمدينة

فقالت قريش : لو علمنا مَنِ السعدان ، فقال :

أياسَعْدُ سعدَ الأوس كن أنت مانعا   ويا سَعْدُ سعدَ الخزرجين الغطارف
أجيبا إلى داعى الهدى وتبوّآ   من الله فى الفردوس زلفة عارف

فعلموا إذ ذاك أنه أخذ طريق المدينة .

قلت : والأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك ؛ لأن السعدَيْن كانا قد أسلما قبل ، ثم سمعوا قائلا بأسفل مكةَ لا يرى يقول :

جزى الله ربُّ الناس خَيْرَ جزائه   رفيقَيْنِ قالا : خَيْمَتَىْ أم معبد

قلت : وروى هذا مع الأبيات الآتية مما سمع حينئذ ، وقيل : سمعوا هاتفا على أبى قُبَيْس يقول:

قصة أم معبد

جزى الله خيراً والجزاء بكفه   رفيقَيْنِ قالا خيمتَىْ أمِّ مَعْبَدِ
هما رَحَلا بالحقّ وانتزلا به   فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فما حَمَلَتْ من ناقة فوقَ رَحْلِها   أبرّ وأوْفىٰ ذمةً من محمد
وأكْسىٰ لبُرْدِ الخال قبل ابتذاله   وأعطى لرأس السابح المتجدد
لِيَهْن بنى كَعْبٍ مكانُ فتاتِهِمْ   ومقعدها للمؤمنين بمرصد

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مرّ بأم معبد ، فاستسقاها لبناً ، فقالت : ما عندنا من لبن ، ونحن فى سنة[1] ، فنظر إلى شاة قد نحلت عَجْفاء من الهُزَال ، فقال : قرِّبِى لى هذه الشاة ، فقربَتْها ، فمسح ضَرْعَها بيده المباركة وسمّى ودعا ، ثم قال : هات قَدَحاً ، فجاءت بقدح ،فحلب فيه حتى امتلأ ، فأمر أبا بكر أن يشرب ، فقال : بل أنت فاشْرَبْ يا رسول الله ، قال : ساقى القوم آخرهم شربا ، فشرب أبو بكر ، ثم حلب فشرب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حلب فشربت أم معبد ، ثم حلب ، فقال : أرْفَعِى هذا لأبى معبد إذا جاءك ، ثم ركبوا وساروا ، فلما أتى أبو معبد أخبرته بما رأت ، وسقته اللبن ، فعلم

(١) يطلق العرب لفظ «السنة» على الجدب

أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فركب راحلته وخرج فى أثره يطلب أن يسلم ، فقيل : إنه قال فى طريقه :

جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائه ... رفيقَيْنِ قالا خيمتَىْ أم معبد
هما نزلاها بالهدى فاهتدَتْ به ... فقد فاز مَنْ أمسى رفيقَ محمد
فيا لَقُصَىٍّ ما زَوَى الله عنكمُ ... به من فعال لا تجارى وسُودَدِ
لِيَهْنِ بنى كعب مكانُ فتاتهم ... ومَقْعَدُهَا للمؤمنين بمرصد
سَلُوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بشاةٍ حائل فتحلَّبت ... له بصَرِيح ضرة الشاة مزبد
فغادَرَهَا رَهْناً لديها الحالِبٍ ... يرددها فى مصدر ثم مورد

وقال الشرقى : بلغنى أن أبا معبد أدركهما ببطن ريم ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف .

قلت : وذكر غير رزين هذه الأبيات كلها فيما سُمِعَ بأسفل مكة من القائل الذى لا يدرون ؛ فلما سمع حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك جعل يجاوب الهاتف ويقول :

لقد خاب قومٌ زال عنهم نبيهُمْ ... وقُدِّس مَنْ يسرى إليهم ويغتدى
ترحَّلَ عن قوم فضلت عقولهم ... وحَلَّ على قوم بنورٍ مُجَدَّد
هداهم به بعد الضلالة ربُّهم ... وأرشدَهم؛ مَنْ يَتبَعِ الحق يَرْشُدِ
وهل يستوى ضُلَّالُ قوم تسكعوا ... عَمًى وهُدَاةٌ يهتدون بمهتد (١)
لقد نزلت منه على أهل يثرب ... ركاب هُدًى حَلَّتْ عليهم بأسْعُدِ
نبى يرى مالا يرى الناسُ حولَه ... ويتلو كتابَ الله فى كل مسجد
وإن قال فى يوم مقالة غائب ... فتصديقُهَا فى اليوم أوفى ضُحَى غدِ
لِيَهْنِ أبا بكر سعادةُ جَدِّهِ ... بصُحْبَتِهِ ؛ من يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ

(١) تسكعوا : تحيروا ، قاله ابن الأثير .

خروج أبى بريدة لاستقبال الرسول صلى الله عليه وسلم

قال أبو سليمان الخطابى : لما شارف النبى صلى الله عليه وسلم المدينةَ لقيه بريدة الأسلمى فى سبعين من قومه بنى أسلم ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : بريدة فقال لأبى بكر : برد أمرنا وصلح ، ثم قال : ممن ؟ قال : من أسلم ، قال : سلمنا ، ثم قال : ممن ؟ قال : من بنى سَهْم ، قال : خرج سهمنا[1] .

وقد روى ابنُ الجوزى فى شرف المصطفى من طريق البيهقى موصولا إلى بريدة قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يتطير ، وكان يتفاءل ، وكانت قريش جعلت مائة من الإبل لمن يأخذ نبى الله صلى الله عليه وسلم فيرده إليهم حين توجه إلى المدينة ، فركب بريدة فى سبعين راكبا من أهل بيته من بنى سَهْم ، فلقى نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أنت ؟ قال : أنا بريدة ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه فقال : يا أبا بكر ، بَرَدَ أمرنا وصلح ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ممن أنت ؟ قال : من أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : سلمنا ، ثم قال : ممن ؟ قال : من بنى سَهْم ، قال : خرج سهمك[1] ، فقال بريدة للنبى صلى الله عليه وسلم : من أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله رسولُ الله ، فقال بريدة : أشهد أن لا إلهَ إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فأسلم بريدة وأسلم مَنْ كان معه جميعا ، فلما أصبح قال بريدة[2] للنبى صلى الله عليه وسلم : لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحلَّ عمامته ثم شدَّها فى رُمْح ثم مَشَى بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله تنزل على مَنْ ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن ناقتى هذه مأمورة ، قال بريدة : الحمد لله الذى أسلمت بنو سَهْم طائعين .

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبيرُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض .

---

(١) خرج سهمك : كناية عن ظفرت وفلجت (٢) وقع فى المطبوعات «أبو بريدة» مرارا ، و«بريدة» مرارا أخرى ، والصواب «بريدة» وهو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج ، الأسلمى ، وله ترجمة فى الإصابة (١٥٠/١ رقم ٦٣٢)

وروى أن طلحة كان قدم من الشام ومعه ثياب أهداها لأبي بكر من ثياب الشام ، فلما لقيه أعطاه ، فلبس منها النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر .

قال الحافظ ابن حجر : فيحتمل أن كلا من طلحة والزبير أهدى لهما ، والذى فى السير هو طلحة ؛ فالأولى الجمع ، وعند ابن أبي شيبة ما يؤيده ، وإلا فما فى الصحيح أصح .

الفصل العاشر

فى دخوله صلى الله عليه وسلم أرض المدينة ، وتأسيس مسجد قُباء

كان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحَرَّة أولَ النهار فينتظرونه ، فما يردهم إلا حَرُّ الشمس ، فبعد أن رجعوا يوما أوفىْ رجلٌ من اليهود على أُطُم من آطامهم لأمرٍ ينظر إليه ، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا بنى قَيْـلَة — يعنى الأنصار — وفى رواية : يا معشر العرب ، هذا جَدُّكم ، يعنى حظكم — وفى رواية : صاحبكم الذى تنتظرونه — فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقَّوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف بقُبَاء على كلثوم بن الهدم ، قيل : وكان يومئذ مشركا ، وبه جزم ابن زبالة ، وقال رزين : نزل فى ظل نخلة ، ثم انتقل منها إلى دار كلثوم أخى بنى عمرو بن عوف ، وفى « أخبار المدينة » ليحيى الحسينى جَدِّ أمراء المدينة اليوم فى النسخة التى رواها ابنُه طاهر بن يحيى عنه من طريق محمد بن معاذ ، قال : حدثنا مجمّع بن يعقوب عن أبيه وعن سعيد بن عبد الرحمن ابن رقيش عن عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة قالا : صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بظهر حرَّتنا ، ثم ركب فأناخ إلى عِذْق عند بئر غرس قبل أن تبزغ الشمس[1]

(١) تبزغ الشمس : تظهر

وما يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبى بكر ، عليهما ثياب متشابهة ، فجعل الناسُ يقفون عليهم حتى بزغت الشمس من ناحية أطمِهم الذى يقال له « شُنَيْف » فأمهل أبو بكر ساعة حتى خيل إليه أنه يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرّ الشمس ، فقام فستَرَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه ؛ فعرف القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يأتون فيسلمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت لمجمّع بن يعقوب : إن الناس يَرَوْنَ أنه جاء بعد ما ارتفع النهار وأحرقتهم الشمس ، قال مجمع : هكذا أخبرنى أبى وسعيد ابن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن يزيد قال : مابزغت الشمس إلا وهو جالس فى منزله صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم أرَ هذا الخبر فى النسخةالتى رواها ولد ابن يحيى عن جده ، وقوله « عند بئر غرس » الظاهر أنه تصحيف ، ولعله « بئر عذق » لبعد بئر غرس من منزله صلى الله عليه وسلم بقُباَء ، بخلاف بئر عذق ، وإلا فهو قادح فيما يعرفه الناس اليوم من أن بئر غرس هى المعروفة بمحلها الآتى بيانه

وفى كتاب يحيى أيضا عن محمد بن إسماعيل بن مجمّع قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليهوسلم على كُلثوم بن الهدم هووأبو بكر وعامر بن فُهيرة قال : يانجيح ، لمولًى له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفت إلى أبى بكر : أنجحت ، أو أنجحنا ، فقال : أطعمنا رطبا ، قال : فأتوا بقنو من أم جرذان فيه رطب منصف وفيه زَهْو[1] ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما هذا؟ قال : عذق أم جرذان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك فى أم جرذان ، وقد أخرجه أبو سعيد فى شرف المصطفى من طريق الحاكم ، وقال قوم بمنزله صلى الله عليه وسلم على سعد ابن خيثمة . وقد رواه يحيى أيضا ، قال رزين : والأول أصح اه .

---

(١) المنصف : الذى صار نصفه رطبا ، والزهو ـ بفتح فسكون ـ الذى قد احمر أو اصفر من البلح

وقال الحاكم : إنه الأرجح ، قال : وقد قاله ابن شهاب وهو أعرف بذلك من غيره ، وقال بعضهم : كان سعد عَزَبا ، فكان صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه فى بيته ، فلذلك قيل : إنه نزل عنده ، ويشهد له ما نقله ابنُ الجوزى عن ابن حبيب الهاشمى قال : نزل النبي صلى الله عليه وسلم على كلثوم ، وكان يتحدث فى منزل سعد بن خيثمة ، ويسمى «منزل العزاب» وفى الصحيح : فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعدل بهم[1] ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وفى رواية له : علو المدينة وقُباء معدودة من العالية ، وكأن حكمته التفاؤل له ولدينه بالعلو ، وذلك يوم الاثنين نهارا عند الأكثر ، قال الحافظ ابن حجر : وهو المعتمد ، وشذ من قال يوم الجمعة . قلت : لعل مراد هذا القائل القدوم الآتى للمدينة نفسها بعد الخروج من قُباء ، وقيل : ليلة الاثنين ؛ لقوله فى فى مسلم « ليلا » قال الحافظ ابن حجر : ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل ، فدخل نهارا . قلت : وفيه نظر، وكان ذلك أول ربيع الأول على مارواه موسى ابن عقبة عن ابن شهاب ، وقيل : لثمان خَلَوْنَ منه . وفى الإكليل عن الحاكم : تواترت الأخبار بذلك ، وفى رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق : قدمها لليلتين خَلَتَا من شهر ربيع الأول ، ونحوه عن أبى معشر ، ولكن قال : ليلة الاثنين ، ومثله عن ابن البرقى ، وثبت كذلك فى أواخر صحيح مسلم ، وفى رواية إبراهيم ابن سعد عن ابن إسحاق : لاثنتى عشرة ليلة خلت منه حين اشتد الضحى ، وهذا ما جزم به الكلبى فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر . وحكاه ابن الجوزى فى شرف المصطفى عن الزهرى فقال : قال الزهرى : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وبه جزم النووى فى السير من الروضة ، وكذا ابن النجار ، ونقل المراغى هذا عن النووى وابن النجار فقط ، وتعجب من عدم موافقته لشىء من الأقوال ، وكأنه فهم أن مرادهما

---

(١) عدل بهم : مال بهم

اختلاف العلماء فى تاريخ مقدمة المدينة

المدينة نفسها بعد الخروج من قُبَاء ، وليس ذلك مرادهما؛ فإن ابن النجار عبر بقوله : فعدل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الاثنين لاثنى عشر من شهر ربيع الأول ، وأما النووى و إن عبر بالمدينة فليس مراده سوى ذلك ، والعلماء كلهم يطلقون على ذلك قدوم المدينة . وفى شرف المصطفى لابن الجوزى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ولد رسول الله صلى عليه وسلم يوم الاثنين ، واسْتُنْبِئ يوم الاثنين ، ورفع الحَجَر يوم الاثنين ، وخرج مهاجرا من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبض يوم الاثنين . وفى روضة الأقشهرى : قال ابن الكلبى : خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، وقدم المدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت منه . قال أبو عمر : وهو قول ابن إسحاق إلا فى تسمية اليوم . وعند أبى سعيد فى شرف المصطفى من طريق أبى بكر بن حزم : قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول ، وهذا الجمع بينه و بين الذى قبله بالحمل على الاختلاف فى رؤية الهلال . وعنده من حديث عمر : ثم نزل على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع الأول ، ولعل الرواية خَلَتا ليوافق ما تقدم . ونقل ابن زبالة عن ابن شهاب أن ذلك كان فى النصف من ربيع الأول ، وقيل : كان قدومه فى سابعه ، وجزم ابنُ حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر ، وهذا يوافق قول هشام بن الكلبى إنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، فإن كان محفوظا فلعل قدومه قُبَاء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، و إذا ضم ذلك إلى ما سيأتى عن أنس أنه أقام بقُبَاء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة نفسها كان لاثنين وعشرين منه ، لكن الكلبى جزم بأنه دخلها لاثْنَتَىْ عَشْرَةَ خلَتْ منه ؛ فعلى قوله تكون إقامته بقُبَاء أربع ليال فقط ، و به جزم ابنُ حبان ؛ فإنه قال : أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس ، يعنى وخرج يوم الجمعة ، فلم يعتدّ بيوم الخروج ، وكذا قال موسى بن عقبة : إنه أقام فيهم ثلاث ليال ؛ فكأنه لم يعد

يوم الدخول ولا الخروج . وعن قوم من بنى عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوما ، حكاه ابن زبالة . وفى البخارى من حديث أنس « أقام فيهم أربع عشرة ليلة[١] » وهو المراد فى رواية عائشة بقولها « بضع عشرة ليلة[١] » وقال موسى ابن عقبة عن ابن شهاب : أقام فيهم ثلاثا ، قال : وروى ابن شهاب عن مجمع بن حارثة أنه أقام اثنتين وعشرين ليلة . وقال ابن إسحاق : أقام فيهم خمسا ، و بنو عمرو بن عوف يزعمون أكثر من ذلك . قال الحافظ ابن حجر : أنس ليس من بنى عمرو بن عوف ؛ فإنه من الخزرج ، وقد جزم بأربع عشرة ليلة ، فهو أولى بالقبول ، وأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالتأريخ فكتب من حين الهجرة فى ربيع ، رواه الحاكم فى الإكليل ، وهو مُعْضَل ، والمشهور أن ذلك كان فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وأن عمر قال : الهجرة فَرَقَتْ بين الحق والباطل ، فأرخ بها ، وابتدأ من المحرم بعد إشارة على وعثمان رضى الله عنهما بذلك ، وقد ذكرنا ما قيل فى سببه فى الأصل ، وأفاد السهيلى أن الصحابة رضى الله عنهم أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله تعالى « لَمَسْجِدٌ أسس على التقوى من أول يوم[٢] »

ابتداء التأريخ من الهجرة

وفى الصحيح أنهم لما قدموا قام أبو بكر للناس: أى يتلقّاهم ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطَفِقَ مَنْ جاء من الأنصار يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائه ، فعرف الناسُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : وجلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فطَفِقَ مَنْ جاء من الأنصار ممن لم يكن رآه يحسبه أبا بكر ، حتى إذا أصابته الشمسُ أقبل أبو بكر بشىء أظله به، وفى رواية ابن إسحاق : حتى رأينا أبا بكر ينْحَاز له عن الظل ، فعرفناه بذلك

---

(١) فى المطبوعات «أربع عشر ليلة» و«بضع عشر ليلة» تطبيع

(٢) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

ونزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب[1] بن إساف أحد بنى الحارث بن الخزرج بالسُّنْح ، ويقال : على خارجة بن زيد منهم .

وأقام علىّ رضى الله عنه بعد مخرجه صلى الله عليه وسلم أياما ، قال بعضهم : ثلاثة ، حتى أدّى للناس ودائعهم التى كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وخلفه لردّها، ثم خرج فلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ، فنزل على كلثوم بن الهدم ، قال فيما رواه رزين : فبينا أنا بائتٌ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا برجل يضرب باب امرأة ، فخرجتْ فأعطاها شيئا وانصرف، ثم فعل ذلك ليلة ثانية أيضا، فذكرتُ ذلك لها فقالت : هذا سهل بن حُنَيْف يَغْدُو كل ليلة على أصنام قومه فيكسرها ثم يأتى بها لأوقدَهَا حطباً ، وقد علم أن ليس لى من الحطب شىء .

وروى يحيى عن عبد العزيز بن عبيد الله بن عثمان بن حُنَيف قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم [على] بنى عمرو بن عوف، وقد كان بين الأوس والخزرج ما كان من العداوة ، وكانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس ، وكانت الأوس تخاف أن تدخل دار الخزرج ، وكان أسعد بن زُرَارة قتل نبتل بن الحارث يوم بُعَاث ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين أسعد بن زُرَارة ؟ فقال سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر ورفاعة بن عبد المنذر : كان يارسولَ الله أصابَ منا رجلا يوم بُعَاث ، فلما كانت ليلة الأربعاء جاء أسعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم مُتَقَنِّعاً بين المغرب والعشاء ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا أمامة ، جئتَ من منزلك إلى ها هنا و بينك وبين القوم ما بينك ؟ قال أبو أمامة : لا والذى بعثك بالحق ما كنت لأسمع بك فى مكانٍ إلا جئت ، ثم بات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح ، ثم غدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشر ابنى عبد المنذر : أجِيرُوه ، قالوا : أنتَ يارسول الله فأجِرْهُ فجِوَارُنا فى جوارك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجيره

(١) حبيب بن إساف الخزرجى : اختلف فى ضبط اسمه ؛ فذكره الطبرانى وابن عبد البر بالحاء المهملة كما هنا ، وقال ابن حجر : وهو تصحيف ، والصواب أنه «خبيب» بالخاء المعجمة مصغرا

بعضكم ، فقال سعد بن خيثمة : هو فى جوارى ، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد ابن زُرَارة فى بيته فجاء به مُخَاصَرَةً يدُه فى يده ظُهْرًا حتى انتهى به إلى بنى عمرو ابن عوف ، ثم قالت الأوس : يا رسول الله كلنا له جار ، فكان أسعد بن زُرَارة بعدُ يغدو و يروح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وكان لكلثوم بن الهدم بقُبَاء مِرْبَد ، والمربد : الموضع الذى يبسط فيه التمر ليببس ، فأخذه منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأسَّسَه و بناه مسجداً كما رواه ابن زبالة وغيره .

وفى الصحيح عن عروة : فلبثَ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسَّسَ المسجدَ الذى أسس على التقوى(١) ، وفى رواية عبدالرزاق عنه قال : الذين بنى فيهم المسجد الذى أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف ، وكذا فى حديث ابن عباس عند ابن عايد ، ولفظه : ومكَثَ فى بنى عمرو بن عوف ثلاثَ ليالٍ ، واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلى فيه ، ثم بناه بنو عمرو بن عوف ؛ فهو الذى أسس على التقوى .

وروى يونس بن بكير فى زيادات المغازى عن المسعودى عن الحكم بن عتيبة قال : لما قدم النبى صلى الله عليه وسلم فنزل بقُبَاء قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بُدٌّ من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ و يصلى فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قُباء ، فهو أول مسجد بُنِى ، يعنى لعامة المسلمين أو للنبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهو فى التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، و إن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد ، فقد روى ابنُ أبى شبة عن جابر قال : لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنتين نعمر المساجد ونقيم الصلاة ، ولذا قيل : كان المتقدمون فى الهجرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار بقُبَاء قد بَنَوْا مسجداً يصلون فيه ، يعنى هذا

(١) الإشارة إلى قوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه)

المسجد ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد قُبَاء صلى بهم فيه إلى بيت المقدس ، ولم يُحْدِث فيه شيئاً : أى فى مبدأ الأمر ؛ لأن ابن شبة روى ذلك ، ثم روى أنه صلى الله عليه وسلم بنى مسجد قباء وقدم القبلة إلى موضعها اليوم ، وقال: جبريل يؤم بى البيت ، وقد اختلف فى المراد بقوله تعالى « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء ، ولا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة « هو مسجدكم هذا » إذ كل منهما أسس على التقوى على ما سيأتى إيضاحه .

وفى الكبير للطبرانى — وفيه ضعيف — عن جابر بن سمرة قال : لما سأل أهلُ قُباء النبىَّ صلى الله عليه وسلم أن يبنى لهم مسجداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لِيَقُمْ بعضكم فيركب الناقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه فركبها فحركها فلم تنبعث ، فرجع فقعد ، فقام عمر رضى الله عنه فركبها فلم تنبعث ، فرجع فقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ليقم بعضكم فيركب الناقة » فقام على رضى الله عنه فلما وضع رجله فى غَرْز الركاب وثَبَتْ به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرْخِ زِمَامَهَا ، وابنُوا على مدارها فإنها مأمورة » .

وروى الطبرانى ـ وفيه من لم يعرف ـ عن جابر أيضاً قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال لأصحابه « انطلقوا بنا إلى أهل قُباء نسلم عليهم ، فأتاهم فسلم عليهم ، فرحَّبُوا به ، ثم قال : ياأهل قُبَاء ائتونى بأحْجَار من هذه الحرَّة ، فجمعت عنده أحجار كثيرة ، ومعه عَنَزَة له(٢)، فخط قبلتهم ، فأخذ حجراً فوضَعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أبا بكر ، خُذْ حجراً فضَعْه إلى حَجَرى ، ثم قال : يا عمر خُذْ حجراً فضَعْه إلى جنب حَجَر أبى بكر ، ثم قال : يا عثمان خذ حجراً فضعه إلى جنب حجر عمر ، ثم التفت إلى الناس فقال : لِيَضَعْ كل رجل حَجَره حيث أحب على ذلك الخط .

---

(١) يعنى يقصد بى جهة بيت الله الحرام ، والمراد أنه يحرر له القبلة إلى جهته ، وانظر ماسيأتى للمؤلف فى ص ٢٥٣

(٢) العنزة ـ بفتحات ـ عصا مثل نصف الرمح لها سنان مثل سنانه

متى بنى مسجد قباء

قلت : وهو يقتضى أن هذا البنيان لم يكن عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم إلى قُباء ، بل بعد قدوم عثمان رضى الله عنه من الحبشة ؛ فإنه كان قد هاجر إلى أرض الحبشة فاراً بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أول خارج إليها ، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة ؛ فيمكن أن النبى صلى الله عليه وسلم أسَّسه عند قدومه ، ثم بناه بعد ذلك ، وإلا فلم يكن عثمان رضى الله عنه حاضراً ، كذا نبه عليه بعضهم ، ولهذا قال السهيلى : أول مَنْ وضع حجراً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ولم يذكر عثمان ، ثم قال : وصلى فيه نحو بيت المقدس قبل أن يأتى المدينة ، انتهى . وسيأتى عند ذكره فى المساجد عن عمر رضى الله عنه أنه قال : والذى نفسى بيده لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وأصحابه ننقل حجارته على بطوننا ، ويؤسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل يؤم به البيت [١] ، ولم أر من نبه على تعيين زمان قدوم عثمان من الحبشة ، وسيأتى فى بنائه صلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة أخبار تقتضى حضور عثمان له ، وهو محتمل أيضاً للبناء الأول والثانى ، وسبق فى الفصل قبله عَدُّ عثمان فيمن قدم المدينة قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم إليها ، وهو كذلك فى كلام ابن إسحاق .

وقال المحب الطبرى : الظاهر أن قدوم عثمان من الحبشة كان قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم أو بعدها وقبل وقعة بدر ؛ لأنه صحّ أنه كان فى وقعة بدر متخلفاً بالمدينة على زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، ووقعة بدر فى الثانية ، وكان قدوم أكثر مهاجرى الحبشة فى السابعة كما سيأتى ، والله أعلم .

وفى الكبير للطبرانى ورجاله ثقات عن الشَّمُوس بنت النعمان قالت : نظرتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد مسجد قُباء ،

---

(١) انظر الهامشة ١ فى ص ٢٥١ وانظر ماسيأتى للمؤلف فى ص ٢٥٣

فرأيته يأخذ الحجَرَأو الصخرة حتى يَهْصِرَهُ الحجرُ ، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سُرَّته ، فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : بأبى وأمى يا رسول الله أعْطِنى أكْفِكَ ، فيقول : لا ، خـذ مثله ، حتى أسسه ، ويقول : إن جبريل عليه السلام هو يؤم الـكعبة ، قالت : فكان يقال : إنه أقومُ مسجدٍ قبلةً .

قلت : قد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يستقبل بيتَ المقدِس حتى نسخ ذلك ، وجاءت القبلةُ وهم فى صلاة الصبح فأخبرهم ، وكانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الـكعبة ؛ فيحتمل أن جبريل عليه السلام كان يؤم به البيت ليستدل به على جهة بيت المقدس لتقابل الجهتين ، ولعله بما يؤول إليه الأمر من استقبال الـكعبة ، أو أنه صلى الله عليه وسلم كان مخيَّرا فى ابتداء الهجرة فى التوجه إلى بيت المقدس أو إلى الـكعبة كما قاله الربيع فأمَّ به جبريلُ البيتَ لذلك ، واختياره الصلاة لبيت المقدس أولا لاستمالة اليهود ، أوأن استقبال الـكعبة كان مشروعا فى ذلك الوقت ثم نسخ ببيت المقدس ثم نسخ بالـكعبة ، لما قاله ابن العربى وغيره من أن القبلة نسخت مرتين ، أو أن ذلك تأسيس آخر غير التأسيس الأول ، ويدل لهذا الأخير ما قدمناه من رواية ابن شبة .

وقوله فى حديث الشموس المتقدم « حتى يهصره الحجر » أى يميله . وأورده المجد من رواية الخطابى بلفظ آخر ، فقـال : وروى الخطابى عن الشُّمُوس بنت النعمان قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجد قباء يأتى بالحجر قد صهره[1] إلى بطنه فيضعه، فيأتى الرجلُ يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدَعَه ويأخذ غيره ، ثم قال : صَهرَه وأصْهرَهُ إذا ألصقه بالشىء ، ومنه اشتقاق الصِّهرِ فى القرابة .

وروى ابنُ شبة أيضا أن عبـد الله بن رَوَاحة كان يقول وهم يبنون فى مسجد قُبَاء :

---

(١) أشار ابن الأثير إلى رواية « كان يؤسس مسجد قباء فيصهر الحجر العظيم إلى بطنه » أى يدنيه ويقربه

* أَفْلَحَ من يعـالج المساجدا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المساجدا » فقال عبد الله :

* ويقرأ القرآن قائما وقاعدا *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وقاعداً » فقال عبد الله :

* ولا يَبِيتُ الليلَ عنه راقداً *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « راقداً » والله أعلم .

الفصل الحادى عشر

في قدومه صلى الله عليه وسـلم باطن المدينة ، وسكناه بدار أبي أيوب الأنصارى ، وأمر هـذه الدار ، وما آلت إليـه ، وما وقع من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .

قال أهل السير : ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرْسَلَ إلى مـلأ بنى النجار ، فجاءوا متقلدين بالسيوف ، وكانوا أخْوَالَهُ ، وذلك أن هاشم ابن عبد مناف تزوج منهم امرأةً ، وهى سلمى بنت عمرو ، فجاءه منها ولد ، فلما مات هاشم وكبر الغلام مر به قوم من قريش فأبصروه وقد ترعرع وهو ينتضل[1] ويقول : أنا القرشى ، فجاءوا وأخبروا عمه المُطّلب بن عبد مناف ، فذهب فجاء به ، فدخل به مكة وهو رِدْفُهُ وعليه ثيـاب السفر ، فقالت قريش : هـذا عبد المطلب ، فغلب عليه هذا الأسم ؛ فلذلك كان أخواله بنى النجار ، فقـالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اركبوا آمنين مُطَاعين .

وفى البخارى من حديث أنس : قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل فى حى يقال لهم بنو عمرو بن عوف ، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة ، ثم أرسل إلى بنى النجار فجاءوا بالسيوف ، ثم رواه البخارى بلفظ آخر ، فقال : قدم النبى صلى الله

---

(١) يقال « انتضل القوم » أى تراموا بالسهام للسبق

عليه وسلم فنزل جانب الحرَّة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب حتى نزل جانب دار أبي أيوب.

قال الحافظ ابن حجر: تقديره فنزل جانب الحرة فأقام بقباء المدة التي أقام بها و بنى بها مسجده، ثم بعث إلى آخره.

وفي التاريخ الصغير للبخاري عن أنس أيضاً قال: إني لأسْعَى مع الغلمان إذ قالوا: محمد جاء، فننطلق فلا نرى شيئاً، حتى أقبل وصاحبُه[١]، فكَمَنا[٢] في بعض جوانب المدينة، و بعثا رجلا من أهل البادية يؤذن بهما[٣]، فاستقبله خمسمائة من الأنصار، فقالوا: انطلقا آمنين مُطَاعين، الحديثَ، ففيه طي لذكر قصة قُبَاء، إلا أن يريد أن ذلك وقع في مبدأ الأمر عند نزوله صلى الله عليه وسلم بقُبَاء، وهو ما اقتضاه رواية رزين، فإنه قال: عن أنس قال: كنت إذ قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ابنَ تسعِ سنين، فأسمع الغلمان والوَلائد يقولون: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنذهب فلا نرى شيئاً، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فكمنا في خرب[٤] في طرف المدينة، وأرسلا رجلا يؤذن[٣] لهما الأنصار، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، قال: فما رأيتُ مثلَ ذلك اليوم قط، والله لقد أضاء منها كل شيء، ونزلا على كلثوم بن الهدم، ثم ذكر تأسيس مسجد قُبَاء، ثم قال: ثم خرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد المدينة، فلا يمر بدارٍ من دور الأنصار إلا اعترضوا عليه، وذكر نحو ما سيأتي؛ فهو صريح في أن ذلك كان عند مَقْدَمه صلى الله عليه وسلم في بدء الأمر.

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من قُبَاء يوم الجمعة، وتعيينه من الشهر مرتب على ما تقدم في قدومها.

---

(١) الأفصح في العربية «أقبل هو وصاحبه»

(٢) كمنا: استترا (٣) يؤذن بهما: يعلم ويخبر

(٤) ذكر ابن الأثير أنه يروى «خرب» بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة على أنه جمع خربة، ويروى بحاء مهملة وآخره ثاء مثلثة، وهو الموضع المحروث للزراعة

وروى يحيى أنه صلى الله عليه وسلم لما شَخَص : أى من قباء ، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا : يا رسول الله أخرَجْتَ مَلالاً لنا أم تريد داراً خيراً من دارنا ؟ قال : إني أمِرْتُ بقريةٍ تأكل القرى ، فخلوها — أى ناقته — فإنها مأمورة فخرج صلى الله عليه وسلم من قُبَاء ، فعرض له قبائل الأنصار كلُّهم يدعوه ويَعِدُوه النصرة والمَنَعَة ، فيقول : خَلوها فإنها مأمورة ، حتى أدركته الجمعة فى بنى سالم ، فصلّى فى بطن الوادى الجمعةَ وادى ذى صلب .

قلت : قيل كانت هذه أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وقيل : إنه كان يصلى الجمعة فى مسجد قُبَاء فى إقامته هناك ، والله أعلم .

وروى أيضا عن عمارة بن خزيمة قال : لما كان يوم الجمعة وارتفع النهار دَعَا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم براحلته ، وحَشَدَ المسلمون ، ولبسوا السلاح ، وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ناقته القصوى ، والناس معه عن يمينه وعن شماله وخلفه : منهم الماشى والراكب ، فاعترضَنَا الأنصارُ فما يمر بدار من دورهم إلا قالوا هلم يا رسول الله إلى العز والمنعة والثروة ، فيقول لهم خيراً ، ويدعو ، ويقول : إنها مأمورة ، خلوا سبيلها ، فمر ببنى سالم ، فقام إليه عِتْبَان بن مالك ، ونوفل ابن عبد الله بن مالك بن العجلان وهو آخذ بزمام راحلته يقول : يا رسول الله أنزل فينا فإن فينا العدد والعدة والحلقة ، ونحن أصحاب العصا [1] والحدائق والدرك ، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البَحْرَة خائفاً فيلجأ إلينا فنقول له : قوقل حيث شئت ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم ويقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فقام إليه عُبَادة بن الصامت وعباس ابن الصامت بن نَضْلة بن العَجْلان فجعلا يقولان : يا رسول الله أنزل فينا ، فيقول النبى صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم ، إنها مأمورة ، فلما أتى

---

(١) فى المطبوعات « ونحن أصحاب الفضاء » وما أثبتناه عن الخلاصة

مسجد بنى سالم — وهو المسجد الذى فى الوادى — فجَمَّع بهم فخطبهم ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين الطريق حتى جاء بنى الحُبْلَى ، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبىّ ، فلما رآه ابنُ أبىّ وهو عند مُزَاحم أى الأطم مُحْتَبِياً قال : اذهَبْ إلى الذين دَعَوْكَ فانزل عليهم ، فقال سعد بن عبادة لاتَجِدْ[١] يارسول الله فى نفسك من قوله ، فقد قدمْتَ علينا والخزرجُ تريد أن تملكه عليها ، ولكن هذه دارى ، فمر ببنى ساعدة فقال له سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة : هلم يارسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد ، وسعد يقول : يارسول الله ليس من قومى أكثر عذقاً[٢] ولا فم بئر منى مع الثروة والجلد والعدد والحلقة ؛ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أبا ثابت خلِّ سبيلَها فإنها مأمورة ، فمضى ، واعترضه سعدُ بن الربيع وعبدُ الله بن رَوَاحة و بشير بن سعد فقالوا : يارسول الله لاتُجاوِزْنا فإنا أهل عدد وثروة وحلقة ، قال : بارك الله فيكم ، خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو — أى من بنى بَيَاضة — يقولان : يارسول الله هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة ، نحن أهل الدرك يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ثم مرَّ ببنى عَدِىّ بن النجار — وهم أخواله — فقام أبو سليط وصِرْمَة بن أبى أنيس فى قومهما فقالا : يارسول الله نحن أخوالُكَ هلم إلى العدد والمنعة مع القرابة ، لا تجاوزنا إلى غيرنا يارسول الله ، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، ويقال : إن أول الأنصار اعْتَرَضَه بنو بَيَاضة ، ثم بنو سالم ، ثم مال إلى ابن أبىّ ، ثم مر على بنى عدى بن النجار ، حتى انتهى إلى بنى مالك بن النجار .

قلت : وقول بنى عدى بن النجار « نحن أخوالك » لأنهم أقارب من جهة

---

(١) لا تجد : لا تغضب ، أولا تحزن .

(٢) أراد أكثر نخلا ، وهو كان ثروة أهل المدينة .

الأمومة ؛ لأن سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار كانت أمّ جده عبد المطلب، وقول البراء فى حديث الصحيح « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده ، أو قال أخواله ، من الأنصار» فيه تجوز من حيث إنه صلى الله عليه وسلم إنما نزل على إخوتهم بنى مالك بن النجار ، أو أراد أنه نزل بخطة بنى النجار لتقارب منازلهم الجميع ومنهم بنو عدى .

وقال الحافظ ابن حجر فى المقدمة فى الكلام على الحديث المذكور : هم من بنى عمرو بن عوف من الخزرج ، وكانت أم عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم منهم ، واسمها سلمى ؛ فهم أجداده حقيقة ، وأخواله مجازا ، والشك من راوى الخبر ، انتهى .

وهو وَهَم ، سببه اشتباه النزول الأول بقُباء بهذا النزول الذى وقع فيه الاستقرار، وليس بنو عمرو بن عوف ممن يوصف بذلك ، وقد تنبه له فى الشرح ؛ فذكره على الصواب كما قدمناه ، والله أعلم .

وروى رزين أنه صلى الله عليه وسلم سار من قُباء ومعه جماعةٌ من الأنصار فى السلاح وجميعُ المهاجرين ، وذكر صلاة الجمعة ، قال : ثم ركب فجاء بنى الحُبْلى فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبىّ بن سَلُولَ ، وكان جالساً محتبياً عند أطم له ، فقال : اذهَبْ إلى الذين دَعَوْكَ فانزل عليهم ، فقال سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تَجِدْ عليه ، فإن أهلَ هذه البَحْرَة كانوا قد أجمعوا على أن يُعَصِّبُوه ويُتَوِّجُوه(١) ، فلما رد الله عليه ذلك بالحق الذى أعطاك شَرِقَ لذلك(٢) .

قلت : الذى فى الصحيح ذكر سعد لذلك فى قصة عيادته صلى الله عليه وسلم له من مرض بعد سكناه بالمدينة ، والذى فى كتب السير عن ابن إسحاق أن الجمعة أدركته فى وادى رَانُونَا فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ، وكانوا أربعين ، وقيل : مائة ، فأتاه عتبان بن مالك فى رجال من بنى سالم فقالوا : يارسول الله أقِمْ عندنا

(١) أى يلبسوه التاج والعصابة ، والمراد أنهم كانوا أرادوا تمليكه عليهم .
(٢) شرق لذلك : كناية عن أن صدره قد ضاق بسببه .

فى العَدَدِ والعُدَّة والمَنَعَة ، قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، لناقته ، فَخَلّوْا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنَتْ دار بنى بَيَاضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو فى رجال من بنى بَيَاضة ، فأجابهم بمثل ماتقدم ، فخلوا سبيلها ، حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رَوَاحة فى رجال من بَلْحَارث ، فأجابهم بما تقدم ، فخلَّوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدىّ بن النجار – وهم أخواله دُنْيًا – اعترضهم سليط بن قيس فى رجال منهم ، فأجابهم بمثل ماتقدم ، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بَرَكَتْ على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، ثم وثَبَتْ وسارت غيرَ بعيدٍ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم واضعٌ لها زمامَهَا لا يَثْنِيها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مَبْرَكها أول مرة فبركت فيه ، ثم تلحلحت وأرزمت (١) ووضعت جِرَانها (٢) فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية أنها لما وثَبَتْ من مبركها الأول بركت على باب أبى أيوب الأنصارى ، ثم ثارت منه وبركت فى مبركها الأول ، وفى رواية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا المنزل إن شاء الله .

وذكر ابن سيد الناس بعد قصة بنى سالم أن راحلته انطلقت حتى وازنت دار بنى بَيَاضة ، فذكر قصتهم ، ثم قال : فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه سعدُ بن عُبَادة ، وذكر قصتهم ، ثم قال : فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع ، وذكر قصتهم ، ثم ذكر القصة كما قدمناه .

وذكر يحيى فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن سار من بنى سالم تيَامن ، فأتى منزل ابن أبىّ ، ثم مضى فى الطريق والطريقُ يومئذٍ فضاء حتى انتهى إلى سعد بن عُبادة ، ثم اعترضت له بنو بيَاضة عن يساره ، ثم مضى حتى أتى بنى عدى ابن النجار ، ثم أتى إلى بنى مازن بن النجار ، فقامت إليه وجوههم ، ثم مضى حتى

(١) فى المطبوعات « تحلحلت ورزمت » وما أثبتناه عن ابن الأثير ، وتلحلحت – بتقديم اللام على الحاء – تحركت ، وأرزمت : صوتت من غير أن تفتح فمها .
(٢) الجران – بزنة الكتاب – باطن العنق .

انتهى إلى باب المسجد وقد حَشَدَت[١] بنو مالك بن النجار فهم قِيَامٌ ينتظرونه إلى أن طلع فهش إليه أسعد بن زُرَارة وأبو أيوب وعمارة بن حزم وحارثة بن النعمان يقول : يارسول الله قد علمت الخزرجُ أنه ليس رَبْع أوسع من رَبْعى، قال : فبركت بين أظهرهم ، فاستبشروا ، ثم نهضت كأنها مذعورة تَرجُع الحنين[٢] ، فساءهم ذلك ، وجعلوا يَعْدُونَ بجنبها حتى أتت إلى زقاق الحبشى ببئر جمل فبركت والنبىُّ صلى الله عليه وسلم عليها مُرْخٍ لهـا زِمامَهَا ثم قامت عَوْدَهَا على بَدْئها تزيد فى المشى حتى بركت على باب المسجد وضربت بِجِرَانِهَا وعدلت ثَفِنَاتها[٣]، وجاء أبو أيوب والقومُ يكلمونه فى النزول عليهم ، فأخذ رَحْله فأدخله ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رَحْله وقد حط فقال « المرء مع رحله » .

وذكر رزين اعتراض بنى سالم له وقوله « خلوا سبيلها فإنها مأمورة » ثم قال : فمر ببنى بياضة فكذلك ، ثم ببنى ساعدة فكذلك ، ثم بدار بنى الحارث بن الخزرج فكذلك ، ثم مر بدار عدى بن النجار فكذلك ، فمضت حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب المسجد اليوم ، ولم ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت، ثم وثبت فسارت غيرَ بعيدٍ ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها الأول ، فنزل إذ ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أىُّ الدور أقربُ ؟ فقال أبو أيوب : دارى ، هـذا بابى ، وقد حَطَطْنَا رَحْلَكَ فيها ، فقال « المرء مع رَحْلِهِ » فمضت مثلا .

وروى ابن زبالة أنها لما بركت بباب أبى أيوب جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن ينزل فتحلحل[٤] فيطيف حوْلها أبو أيوب فيجد جبَّار بن صخر أخا بنى سلمة ينخسها برجله ، فقال أبو أيوب : ياجبار عن منزلى تنخسها؟ أما والذى بعثه بالحق لولا الإسلام لضربتك بالسيف ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزل أبى أيوب ، وَقَرَّ قَرَاره ، واطمأنت داره ، ونزل معه زيد بن حارثة .

---

(١) حشدت : اجتمعت (٢) ترجع الحنين : تردده

(٣) الثفنات : جمع ثفنة ـ بفتح فكسر ـ وهى ما يلى الأرض من كل ذات أربع عند بروكها ويحصل فيه غلظ من أثر البروك . (٤) أنظر هـ ١ ص ٢٥٩

وعند الحاكم عن أنس : جاءت الأنصار فقالوا : إلينا يارسول الله ، فقال : دعوا الناقة فإنها مأمورة ، فبركت على باب أبي أيوب .

وروى الطبراني في الأوسط وفيه صديق بن موسى — قال الذهبي : ليس بالحجة — عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فاستناخت راحلته بين دار جعفر بن محمد بن علي ودار الحسن بن زيد ، فأتاه الناسُ فقالوا : يارسول الله المنزل ، فانبعثت به راحلته ، فاستناخت ثم تحلحلت [1] ، وللناس ثم عَرِيش كانوا يرشونه ويعمرونه ويبردون فيه ، حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته فآوى إلى الظل فنزل فيه ، فأتاه أبو أيوب فقال : يارسول الله منزلي أقرب المنازل إليه [أ]فأنقل رحلك ؟ قال : نعم، فذهب برحله إلى المنزل ، ثم أتاه آخر فقال : يارسول الله انزل علي ، فقال : إن الرجل مع رحله حيث كان ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش اثنتي عشرة ليلة حتى بني المسجد

قلت : دار جعفر بن محمد هي التي في قبلة دار أبي أيوب ملاصقة لها ، ودار الحسن بن زيد تقابلها من جهة المغرب ، بينهما الشارع .

وعند ابن عائذ وسعيد بن منصور أن ناقته صلى الله عليه وسلم استناخت به أولا ، فجاءه ناس فقالوا : المنزل يارسول الله ، فقال : دعوها ، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ، ثم تحلحلت [1] ، فنزل عنها ، فأتاه أبو أيوب فقال : منزلي أقرب المنازل فَأْذَنْ لي أن أنقل رحلك ، قال: نعم ، وأناخ الناقةَ في منزله

وقال الواقدي : أخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده ، ونقله الحافظ ابن حجر عن ابن سعد ونقل الأقشهري في روضته عن ابن نافع صاحِب مالك في أثناء كلام نَقَلَه عن مالك أن ناقته صلى الله عليه وسلم لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها ، وأخذه الذي كان يأخذه عند الوحي ، ثم ثارت من غير أن تُزْجَرَ وسارت غير بعيد ، ثم التفتت ، ثم عادت إلى المكان الذي

(١) انظر الهامشة رقم ١ في ص ٢٥٩

بركت فيه أول مرة فبركت ، فَسُرِّيَ عنه ، فأمر أن يحط رحله ، وفى بعض الروايات أن القوم لما تنازعوا أيهم ينزل عليه قال : إنى أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك

وفى البخارى من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم أقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب ، فقال : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ أى أخوال جده ، فقال أبو أيوب : أنا يا نبى الله ، هذه دارى ، وهذا بابى ، قال : فانطلق فهيء لنا مَقِيلاً[١] .

وفى رواية لابن زبالة : اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه ، فنزل منزلَهُ وتخيره ، وأراد أن يتوسط الأنصار كلها .

قال المطرى : وهو غير مناف لما تقدم من قوله « دَعُوهَا فإنها مأمورة » ؛ لأن الله اختار له ما كان يختار لنفسه .

وفرح أهل المدينة بمقدمه صلى الله عليه وسلم إليهم فرحا شديدا ؛ ففى البخارى من حديث البَرَاء « ما رأيت أهلَ المدينة فرحوا بشىء فَرَحَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث ، وروى أبو داود أن الحبشة لعبت بحرابهم فرحا بقدومه صلى الله عليه وسلم .

قال رزين : وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير[٢] يقلن :

طلع البــدر علينا من ثَنِيَّاتِ الوَدَاع
وَجَبَ الشكر علينا مادعــا لله داعِ

وفى رواية :

أيهـا المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

والغلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَرَحاً به .

وفى شرف المصطفى : لما بركت الناقة على باب أبى أيوب خرج جوارٍ من بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جَوار من بنى النجار ياحبذا محمـــدٌ مِنْ جارِ

---

(١) المقيل : الموضع الذى تقضى فيه القيلولة ، هذا أصله .

(٢) الأجاجير : جمع إجار ، وهو سطح المنزل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتُحْبِبْنَانى ؟ قلن : نعم يارسول الله ، فقال : والله وأنا أحبكن ، قالها ثلاثا ، وفى رواية « يعلم الله إنى أحبكن » .

وأخرج الحاكم من طريق إسحاق بن أبى طلحة : فخرجت جوارٍ من بنى النجار يضربن بالدف وهن يقلن ، وذكر البيت المتقدم .

وروى عن أنس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة أظلم منها كل شىء ، فلما دخل المدينة أضاء منها كل شىء ، ورواه ابن ماجة بلفظ : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء . ورواه أبو داود بلفظ : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحا بقدومه صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت يوما كان أحْسَنَ ولا أضوأ[1] من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أضاء منها كل شىء ، الحديثَ . ورواه ابن أبى خيثمة عنه بلفظ : شهدتُ يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم أر يوما أحسن منه ولا أضوأ[1]

وروى يحيى عن عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس[2] إليه ، وقيل : قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فجئت أنظر ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شىء سمعته يتكلم قال : أيها الناس ، أفشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلُوا الأرحام ، وصَلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام ، وهذا الحديث بنحوه فى الترمذى وصححه

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبارافع إلى مكة أعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين ، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم بنتيه وسَوْدَة زوجته وأم

(١) أضوأ : أشد ضوءا

(٢) انجفل الناس إليه : ذهبوا نحوه مسرعين ، يقال : جفل ، وأجفل ، وانجفل .

أيمَنَ زوج زيد بن حارثة وأسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبى بكر معهم بعيال أبى بكر فيهم عائشة وأختها أسماء زوجُ الزبير وأمها أم رُومَان ، فلما قدموا المدينة أنزلهم فى بيت حارثة بن النعمان .

وقال رزين: إن أبا بكر أرسل عبدَ الله بن أُرَيْقط مع زيد بن حارثة ليأتيه بعائشة وأم رومان أمها وعبدِ الرحمن

قال بعضهم : ووجدوا طلحة بن عبيد الله على خروج ، فخرج معهم ، فقدموا كلهم .

وروى ابن إسحاق عن أبى أيوب الأنصارى قال : لما نزل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له : يانبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى أكره وأُعْظِمُ أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاظْهَرْ أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل ، فقال : يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يَغْشَانا أن نكون فى سُفْلِ البيت ، قال : فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى سفله ، وكنا فوقه فى المسكن ، فلقد انكسر حُبٌّ لنا[١] فيه ماء ، فقمتُ أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ننشِّفُ بها الماء تخوفاً أن يقطر على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء فيؤذيه .

قلت : وذكر بعضهم أن ذلك هو سببُ سكناه فى العلو بعد ذلك ، والذى فى صحيح مسلم عن أبى أيوب أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل عليه ، فنزل صلى الله عليه وسلم فى السفل وأبو أيوب فى العلو ، فانتبه أبو أيوب ليلة فقال : نمشى فوق رأس النبى صلى الله عليه وسلم ؟! فتنحَّوْا[٢] وباتوا فى جانب، ثم قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : السفل أرفق ، فقال : لا أعلو سقيفةً وأنت تحتها ، فتحول النبى صلى الله عليه وسلم فى العلو وأبو أيوب فى السفل

---

(١) الحب ــ بضم الحاء المهملة ــ الخابية (٢) تنحوا : ابتعدوا

وقد قدمنا[1] فى آخر الفصل الرابع أن ابن إسحاق ذكر أن هذا البيت بَناهُ تُبّعٌ الأول لما مر بالمدينة للنبي صلى الله عليه وسلم ينزله إذا قدم المدينة ، فتداولَ البيتَ المُلاَّكُ إلى أن صار لأبى أيوب ، وأن أبا أيوب من ذرية الحَبْر الذى أسلمه تبع كتابَهُ .

وقد نقل الحافظ ابنُ حجر ذلك عن حكاية ابن هشام فى التيجان ، قال : وأورده ابن عساكر فى ترجمة تبع ، فما نزل صلى الله عليه وسلم إلا فى بيته ، وقد ابتاع المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بيتَ أبى أيوب هذا من ابن أفلح مولى أبى أيوب الأنصارى بألف دينار ، فتصدق به ، وهو فى شرقىّ المسجد المقدس كما سيأتى فى الدور المطيفة بالمسجد

وقد اشترى الملكُ المظفر شهابُ الدين غازى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى عَرْصَةَ دار أبى أيوب هذه ، و بناها مدرسة للمذاهب الأربعة ، ووقف عليها أوقافا بميَّا فارقين[2] التى هى دار مُلكه ، وبدمشق لها وقف آخر أيضاً ، ولها بالمدينة الشريفة أيضا وقف من النخيل وغيرها ، غير أنه شمل ذلك ماعم الأوقاف ، وكان بها كتب كثيرة نفيسة فتفرقت أيدى سبَا ، وآل حالُ هذه المدرسة إلى التعطيل ، فسكنها بعض نظارها ، فتشاءمتْ على عياله ، واتصل ذلك بسلطان مصر فخرج منها ، والمدرسة قاعتان : كبرى ، وصغرى ، وفى إيوان الصغرى الغربى خزانة صغيرة جدا ، فما يلى القبلة فيها محراب

قال المطرى : يقال إنها مَبْرَكُ ناقة النبي صلى الله عليه وسلم

وكانت إقامته صلى الله عليه وسلم بهذه الدار كما أفاده ابن سعد سبعةَ أشهرٍ : أى بتقديم السين على الباء ، حتى بنى مساكنه . وقال رزين : أقام عند أبى أيوب من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الثانية ، وقال الدولابى : شهرا ، وفى كتاب يحيى عن زيد بن ثابت : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى أيوب

---

(١) انظر ص ١٨٨ وما بعدها من هذا الجزء

(٢) ميا فارقين : مدينة بديار بكر (ياقوت ٧/٢١٤)

لم يدخل منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية أولُ من هدية دخَلْتُ بها عليه قصعة مثرودة خبز بر وسمنا ولبنا فأضعها بين يديه ، فقلت : يارسول الله أرسلت بهذه القصعة أمي ، فقال: بارك الله فيها ،ودعا أصحابه فأكلوا ،فلم أرِم الباب(١) حتى جاءت قصعة سعد بن عُبَادة على رأس غلام مُغطاة،فأقف على باب أبي أيوب فأكشف غطاءها لأنظر ، فرأيت ثريدا عليه عراق ، فدخل بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال زيد : فقد كنا فى بنى مالك بن النجار مامن ليلة إلا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ويتناوبون بينهم ، حتى تحوَّلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من بيت أبي أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر ، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادة وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة

وفيه أنه قيل لأم أبي أيوب : أى الطعام كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عندكم ؟ قالت : ما رأيته أمرَ بطعام فصنع له بعينه ، ولا رأيناه أتى بطعام قطُّ فعابه

وقد أخبرنى أبو أيوب أنه تعَشى عنده ليلة من قَصْعة أرسل بها سعدُ بن عبادة طَفَيْشَل(٢) فقال أبو أيوب : فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ينهل تلك القدر مالم أره ينهل غيرها ، فكنا نعملها له ، وكنا نعمل له الهريس وكانت تعجبه ، وكان يحضر عَشاءَهُ خمسة إلى ستة عشر كما يكون الطعام فى الكثرة والقلة .

وفيه عن أبي أيوب أنهم تكلَّفُوا له طعاما فيه بعضُ هذه البقول ، فلما أتوه به كرهه وقال لأصحابه : كُلُوا فإنى لست كأحدكم ، إنى أخاف أن أوذِىَ صاحبى(٣)

وفى كتاب رزين عنه بعد ذكر نزوله عليه قال : وما مرت ليلة من نحو السنة إلا وتأتيه جَفْنة سعدِ بن مُعَاذ ثم سائر الناس، يتناوبون ذلك نُوَبًا ، قال أبو

---

(١) لم أرم الباب : لم أفارقه (٢) طفيشل ـ بزنة سفرجل ـ ضرب من المرق

(٣) صاحبه : الملك الذى يلازمه ، والمراد بالبقول نحو الكراث والبصل والثوم كما سيأتى فى رواية رزين التالية .

أيوب : فصنعتُ له ليلةً طعاما ، وجعلت فيه ثُوماً ، فلم يأكل منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ففزعت فنزلت إليه فقلت له : أحرامٌ هو؟ فقال: إنى أناجى ، وأنا أكرهه لذلك ، وأما أنتم فكلوه ، قال : فقلت : فإنى أكره ماتكره يارسول الله .

المواخاة بين الأنصار والمهاجرين

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وَادَعَ فيه يهود(١) ، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط لهم ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تآخَوْا فى الله أخَوَيْنِ أخَوَيْنِ ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى .

قلت : كانت هذه المواخاة بعد مَقْدَمه صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ، وقيل : ثمانية ، وهو يبنى المسجد ، وقيل : بعدهُ ، وقيل : قبله ، وذكره أبو حاتم فى السنة الأولى ، والظاهر أن ابتداءها كان فيها ، واستمرت على حسب مَنْ يدخل فى الإسلام أو يحضر ، كما يعلم من تفاصيلها ، قيل : وكانوا تسعين رجلا من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيل : مائة ، آخى بينهم على الحق والمواساة والتوارث ، وكانوا كذلك إلى أن نزل بعد بدر « وأولو الأرحام »(٢) الآية .

وقال الواقدى : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار .

وقال ابن عبد البر : كانت المواخاة مرتين : الأولى قبل الهجرة بمكة بين المهاجرين ، فآخى بين أبى بكر وعمر ، وهكذا حتى بقى على رضى الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن أكون أخاك ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فأنت أخى فى الدنيا والآخرة ، والمواخاة الثانية ما تقدم من مواخاة

---

(١) وادع فيه يهود : هادنهم وصالحهم . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٥ .

المهاجرين والأنصار ، وهى المرادة بقول الحسن : كان التوارث بالحِلْفِ[1] ؛ فنسخ بآية المواريث .

ولأبى داود عن أنس بن مالك : حالف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دارنا ، وحديث « لا حِلفَ فى الإسلام » معناه حلف التوارث ، والحلف على ما منع الشرع منه ، وعبر رزين عن المواخاة بين المهاجرين والأنصار فيما نقله عن أبى حاتم بقوله : ثم آخى بين أصحابه ، ودعا لكل واحد منهم دعوة ، وقال : أبْشِرُوا أنتم فى أعلى غُرَفِ الجنة ، وقال لعلى : ما أخرتك إلا لنفسى ، أنت أخى ووارث علمى ، وأنت معى فى الجنة فى قصرى مع ابنتى ، وقصة المواخاة الأولى أقربها الحاكم ؛ فذكر المواخاة بين أبى بكر وعمر ، وذكر جماعة ، ثم قال : فقال علىّ : يا رسول الله ، إنك آخيت بين أصحابك فمَنْ أخى ؟ قال : أنا أخوك .

وقد أنكر ابن تيمية فى الرد على ابن المطهر الرافضى المواخاة بين المهاجرين خصوصاً مواخاة النبى لعلى ، قال : لأنها شرعت للارفاق والتألف ؛ فلا معنى لها بينهم ، وهو رد للنص وغفلة عن حقيقة الحكمة فى ذلك ، مع أن بعضهم كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ، والارتفاق ممكن ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقوم بعلى من عهد الصبا ، واستمر ذلك .

وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم «آخى بين الزبير وابن مسعود» وهما من المهاجرين.

اليهود تحاول الإفساد بين الأوس والخزرج

والتأم شمل الحيين الأوسِ والخزرجِ ببركته صلى الله عليه وسلم ، فمر شاس ابن قيس ـ وكان شيخا من اليهود شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم ـ على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهِمْ وصلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد

---

(١) يعنى أن الحلف كان معدودا من أنواع العصبة فى أول الإسلام بالمدينة ، يرث به الحليف حليفه بعد مرتبة أهل الفروض والعصبة، ثم نسخ التوارث به بالآية .

اجتمع ملأُ بنى قَيْلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلؤُهم بها من قَرَار ، فأمر شابا من يهود كان معه فقال : أَجْلِسْ إليهم ثم اذكر يوم بُعَاث ، وما كان فيه ، وأَنْشِدْهُم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك ، فتنازع القومُ وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين عَلَى الرُّكَبِ ، وهما أوس بن قَيْظى وجَبَّار بن صخر ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جَذَعة ، وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعِدُكم الظاهرة ، وهى الحرة ، فخرجوا إليها ، و بلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، اللهَ اللهَ ، أبدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقَطَع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكَوْا ، وعانق الأوسُ والخزرجُ بعضُهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس ، فأنزل الله فى شأنه : « قل يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تَصُدُّونَ عن سبيل الله مَنْ آمَنَ تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (١) » ، وأنزل الله فى الذين صنعوا ما صنعوا من الحيين : « يا أيها الذين آمنوا إن تُطِيعُوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إلى قوله : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (٢) » .

وكان حُيَيُّ بن أخطب (٣) وأخوه أبو ياسر من أشد يهود للعرب حَسَداً ما خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فكانا جاهِدَيْنِ فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله تعالى فيهما : « وَد كثير من أهل الكتاب لو يردونكم » إلى قوله : « حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير (٤) » .

---

(١) من سورة آل عمران الآيتين ٩٨ و ٩٩ (٢) من سورة آل عمران الآيات ١٠٠ – ١٠٣ (٣) فى المطبوعات « يحى بن أخطب » وسيأتى على الصواب
(٤) من سورة البقرة الآية ١٠٩

وحدثت صفية بنت حُيَي رضى الله عنها قالت : كنت أحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قَطّ مع ولدهما إلا أخذانى دونه ، فلما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ غدا عليه أبى وعمى مُغَلِّسَيْنِ[1] ، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَا ، فهششت إليهما كما كنت أصنع . فوالله ما التفت إلىَّ واحدٌ منهما ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ، فَشَقِيَا بحسَدِهما ، والله أعلم .

الفصل الثانى عشر

فيما كان من أمره صلى الله عليه وسلم بها فى سِنِي الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل مختصرا .

وقد لخصه رزين من تاريخ أبى حاتم ، فزدت فيه نفائس ميزتها ، فأقول فى أولها « قلت » وفى آخرها « والله أعلم » وقد أقام صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين بالإجماع كما حكاه النووى[2] .

السنة الأولى

السنة الأولى ــ وقد تقدم بعضُ ما فيها من بناء مسجد قُبَاء وغيره .

وقال أبو حاتم : كان فيها بناء المسجد النبوى ، ومات أسعد بن زُرَارة والمسجد يُبْنَى ؛ فكان أول من دفن بالبقيع من المسلمين .

قلت : ومن هذا يعلم أن عثمان بن مظعون أول من دفن به من المهاجرين ، جمعا بين النقلين ، ومات كلثوم بن الهدم قبل أسعد بن زرارة ؛ فهو أول مَنْ مات من الأنصار بعد مَقدَم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل : توفى أسعد بن زرارة فى الثانية ، والله أعلم .

ومات البَرَاء بن مَعْرُور قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) مغلسين : فى وقت الغلس ، وهو الوقت بين الفجر وسطوع النور .

(٢) وقد جعلنا زيادة المؤلف مستقلة تبدأ من أول سطر بكلمة « قلت » وتنتهى بكلمة « والله أعلم » ثم يبدأ تلخيص رزين من أول سطر جديد وهكذا .

وأوصى أن يُوَجَّه إلى الكعبة ، وصلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على قبره ، وكانت الأنصار يتقربون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدايا رجالهم ونساؤهم ، وكانت أم سُلَيم تتأسف على ذلك ، وما كان لها شيء ، فجاءت بابنها أنس، وقالت : يَخْدُمُكَ أنس يا رسول الله ؟ قال : نعم .

قلت : الذى فى الصحيح عن أنس « قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ليس له خادم ، فأخذ أبو طلحة بِيَدِى ، فانطلق بى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن أنسا غلام كَيِّس [(١)] فليخدمك ، قال : فخدمته، الحديثَ ، وقد يجمع بأنها جاءت به أولا ، وانطلق به أبو طلحة ثانيا ؛ لأنه وليه وعَصَبَته ، وهذا غير مجيئه به لخدمته صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر كما يفهمه لفظ الحديث ، والله أعلم .

ثم زِيدَ فى صلاة الحضر ركعتين بعد مقدمه المدينة بشهر [(٢)] .

قلت : قال السهيلى : إن ذلك كان بعد الهجرة بعام أو نحوه ، والذى عليه الأكثر أن الصلاة نزلت بتمامها من بَدْء الأمر ، والله أعلم .

ووُعِكَ أصحابه فدعا بنقْلِ وبائها إلى الجُحْفَة ، وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة » ثم آخى بين أصحابه كما سبق ، ثم مات الوليد بن المغيرة بمكة ، ووُلِدَ عبدُ الله بن الزبير ، جاءت أمه أسماء بعد الهجرة فنفِسَت به فى قُباءَ فى شوال ، فكان أولَ مولود ولد فى الإسلام بها بعد الهجرة ، وكان أول شيء دخل جوفه ريقُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، تَفَلَ فى فيه .

قلت : سيأتى فى مسجد دار سعد بن خَيْثَمة من المساجد التى لاتعلم عينها أن الذهبيَّ قال : إن عبد الله ولد فى الثانية ، والله أعلم .

ثم عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء لابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب

---

(١) كيس : وصف من الكياسة . وهى الحذق وحسن التأنى للأمور .

(٢) فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، إلا المغرب ، ثم زيدت فى الحضر وأقرت فى السفر ، هكذا ورد فى حديث عائشة .

أول راية عقدت في الإسلام

على ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصارى، وهى أول راية عقدت فى الإسلام، ورمى فيها سعد بن أبى وقاص بسهم، فكان أول سهم رُمِىَ به فى الإسلام، فالتقى مع أبى سفيان بن حرب، وقيل عكرمة بن أبى جهل، وكان فى مائة من المشركين ببطن رابغ ويعرف بوَدَّانَ فانحاز إلى المسلمين من المشركين المِقْدَاد بن عمرو بن الأسود وعتبة بن غَزْوَان، وكان حامل اللواء لعبيدة مصلح بن أثاثة.

قلت: وذكر أبو الأسود فى مَغَازِيه عن عروة، ووصله ابن عائذ من حديث ابن عباس «أن النبى صلى الله عليه وسلم لما وَصَل إلى الأبواء[1] بعث عُبَيْدَة بن الحارث فى ستين رجلا» وذكر القصة، فيكون ذلك فى السنة الثانية، وبه صَرَّحَ بعض السير، والله أعلم.

ثم عقد لواء لعمه حمزة على ثلاثين من المهاجرين ـ قيل: ومن الأنصار ـ ليتعرض عِيرَ قريش، فلقى أبا جهل فى ثلاثمائة راكب، فحجب بينهم مَجْدِى ابن عمرو، وكان حليفاً للفريقين، وانصرفوا من غير قتال، وكان حاملَ لواء حمزة يومئذ أبو مَرْثَد.

قلت: قدم بعضهم هذه على سَرِيَّة عبيدة، وقال: إن لواء حمزة أول لواء عقد فى الإسلام، ورجَّحَ ابنُ إسحاق الأول، وقال: إنما أشكَلَ أمرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم شيعهما جميعاً، وذكر أبو عمر أن أول راية عقدت لعبد الله بن جَحْش. وقيل: إن سَرِيَّة حمزة هذه كانت فى السنة الثانية، والله أعلم.

زواج عائشة

ثم بَنَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وهى بنت تسع، وكان عَقَدَ بها فى مكة قبل الهجرة بثلاث وهى بنت ست.

زواج سودة بنت زمعة

قلت: وعقد على سَوْدَة بنت زَمْعَة بعد عائشة — وقيل: قبلها، وبنى بها بمكة ـ وكان بناؤه بعائشة على رأس تسعة أشهر — وقيل: ثمانية، وقيل ثمانية عشر شهرا — من قدومه، والله أعلم.

---

(١) الأبواء: قرية بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا، وقيل: جبل على يمين آرة ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة (ياقوت ١/ ٩٢) وانظر تحديدها للمؤلف فى ص ٢٧٤ س ١٥.

ثم عقد لواء لسعد بن أبي وَقّاص فى عشرين يريدون عِيرَ قريش فى ذى القعدة ، فخرجوا على أقدامهم يَكْمُنون (١) بالنهار و يسيرون بالليل، وكان حاملَ اللواء لسعد المقدادُ بن عمرو ، فلم يجدوا شيئاً ، ثم جاء أبوقيس بن الأسْلَتِ ليسلم، فلقيه ابنُ أبيّ ابن سَلُولَ، فقال : تَرَبَّصْ (٢) حتى ترى ، فرجع فمات كافرا .

إسلام عبد الله ابن سلام

قلت : وأسلم عبدالله بن سلام فى أول قدومه صلى الله عليه وسلم ؛ ففى البخارى من حديث عائشة التصريحُ بأنه جاء قبل دخوله صلى الله عليه وسلم دار أبي أيوب لما سمع بقدومه صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أهله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب : اذْهَبْ فَهَيِّيء لنا مَقِيلاً ، فقال : قوماً على بركة الله ، أى هو وأبو بكر، قالت : فلما جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنك قد جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فَسَلْهُم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت؛ فإنهم إنْ يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فىّ ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر اليهود ، ويلكم ! اتقوا الله ، فوالذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا ، قالوا : مانعلمه ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرأيتم إن أسْلَم ، قالوا : حاشا الله ما كان ليسلم ، قال : أفرأيتم إن أسلم ، قالوا : حاشا الله ما كان ليسلم ، كرر عليهم ذلك ثلاثا فيقولون له ذلك ، قال : يا ابن سلام اخرج عليهم ، فخرج عليهم ، فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله فوالذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى رواية أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء ، فلما أعلمه بها أسلم ، وفى هذه الرواية ذكر

(١) يكمنون : يختفون ويستترون (٢) تربص : انتظر وتمهل

قصة اليهود المتقدمة ، وأن عبد الله بن سلام لما خرج إليهم وتَشَهَّدَ قالوا : شرُّنا وابن شرنا ، وتنقَّصُوه ؛ فقال : هذا كنت أخاف يارسول الله ، ونَصَبت أحبار اليهود العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم بَغْيا وحَسَدا : منهم حُيَيُّ بن أخْطَب ، وأبو رافع الأعور ، وكعب بن الأشرف ، وعبد الله بن صوريا ، والزبير بن بَاطَا ، وشمويل ، ولبيد بن الأعصم ، وغيرهم ، ودخل منهم جماعة فى الإسلام نِفَاقاً ، وانضاف إليهم من الأوس والخزرج منافقون ، وأرى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الأذان ، وقيل : كان ذلك فى السنة الثانية عند ما شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة ؛ إذ كان اجتماعهم قبل بمنادٍ « الصلاَةَ جامعةً » والله أعلم .

السنة الثانية من الهجرة

السنة الثانية — فلما جاء العاشر من المحرم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصَوْمه ، وقال : « نحن أحق بموسى من اليهود » ثم زوج علياً بفاطمة .

قلت : وذلك قبل بدر ، فى رجب على الأصح ، وبَنَى بها فى ذى الحجة كما سيأتى ، وكان لها خمس عشرة سنة ، وقيل : ثمان عشرة ، وقيل : تزوجها بعد أحد ، والله أعلم .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى الأبواء(١) وهى من وَدَّان على ستة أميال مما يلى المدينة .

قلت : ولتقاربهما أطلق عليها « غزوة وَدَّانَ » والله أعلم .

واستخلف على المدينة سعد بن عُبَادة ، وكان حامل لوائه سعد بن أبى وقاص ، ثم رجع ، ولم يَلْقَ كيدا ، فانصرف بعد ما وادع مجدىَّ بن عمرو الضَّمْرِىَّ ، ثم غزا فى مائتين من أصحابه إلى ناحية رَضْوَى ، وحاملُ لوائه سعد بن أبى وقاص ، ثم رجع ولم يلق كيداً .

قلت : وهى غزوة « بُوَاط » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تجار قريش

---

(١) انظر الهامشة رقم ١ فى ص ٢٧٢

أيضاً ، حتى بلغ بُوَاط من ناحية رَضوَى ، وقال ابن هشام : واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، وفى نسخة السائب بن مظعون ، وقال الواقدى : سعد بن معاذ[1] ، والله أعلم .

ثم أغار على سَرْح المدينة كُرْزُ بن جابر الفِهْرِيُّ ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثره فى المهاجرين، وحاملُ لوائه على بن أبى طالب ، فانتهى إلى بدر ، وفاته كُرْز ، وهذه بدر الأولى .

قلت : ذكر ذلك ابن إسحاق بعد « العشيرة » بليال ، والله أعلم .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جَحْش فى سَرِيَّة ، وهم الذين قتلوا فى الشهر الحرام فى اثنى عشر نفساً ، فأضل عتبة بن غزوان وسعد بن أبى وقاص راحلتيهما ، فتخلفا عنهم ، ومضى العَشَرة حتى لقوا جماعة من قريش: منهم عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وافتدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحكم ابن كيسان ، أسلم ، وقتلوا عمرو بن الحضرمى .

قلت : ذكرها بعضُهم بعد العشيرة ، ووصلوا نَخْلَةَ على يوم وليلة من مكة ، فمرت بهم عِيرُ قُرَيشٍ تحمل زبيبا وأدَماً من الطائف معها الجماعة المذكورون فى آخر يوم من رجب ، فاستأسروا الأسيرين ، وقتلوا عمرا ، واستاقوا العِيرَ[2] ، وكانت أول غنيمة فى الإسلام ، والله أعلم .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العشيرة ، فوادَعَ بنى مُدْلج وحلفاءهم ، ثم رجع .

قلت : وكان خروجه فيها يعترض عِيراً لقريش ، ففاتته بأيام ، واستخلف أبا سلمة بن عبد الأسد ، والله أعلم .

التوجه إلى الكعبة

قال أبو حاتم : وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة ، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مُصَلًّى

---

(١) فى المطبوعات « سعيد بن معاذ » (٢) العير — بالكسر — الإبل تحمل الميرة

فدعا الله تعالى ، فأنزل « قد نرى تَقَلُّبَ وجهك » إلى قوله « وحيث ما كنتم فولوا وجهكم شطره[1] » وقت صلاة الظهر يوم الثلاثاء النصف من شعبان ثانية سِنِي الهجرة .

قلت : سيأتى ما فيه من الخلاف فى الفصل الثالث من الباب بعده ، والله أعلم .

ثم نزلت فريضة الصوم فى شعبان ، فصاموا رمضان ، فلما فرض رمضان لم يأمرهم بصيام عاشوراء ولا نهاهم .

ثم كانت غزوة بدر فى رمضان لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : يوم جمعة صبيحة سبع عشرة منه ، وقيل : صبيحة أربع وعشرين منه ، وكان المسلمون ثلاثمائة و بضعَةَ عشر[2] .

قلت : الراجح القول الثانى ، وخرجت الأنصار معه صلى الله عليه وسلم فيها ، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه ، ومعهم ثلاثة أفراس ، وكان المشركون ألفا ، ويقال : تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس ، وهذه بدر الثانية لما تقدم ، والله أعلم .

ثم قتَلَ عميرُ بن عدى الخطمى العصماء أُمرأة من الأنصار ، وهى زوج يزيد الخطمى ، كانت تؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعر ، فقتلها ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينتطح فيها عنزان » .

قلت : قال فى الاكتفاء : إن العصماء هذه نافقَتْ لما قتل أبو عفك (بالفاء و إهمال أوله) وقالت شعرا تعيب الإسلام وأهله ، وتؤنب الأنصار فى أتباعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إن عميرا رجع إلى قومه بعد قتلها وهم يومئذ كثيرٌ مَوْجُهم[3] فى شأنها ، ولها بنون خمسة رجال ، فقال : يابنى خطمة ، أنا قتلت

---

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ . (٢) فى المطبوعات «وبضع عشرة» تطبيع
(٣) كثير موجهم : يريد أن الحديث فى شأنها كان كثيرا مضطربا

بنت مروان َ، يعنى العصماء، فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون ، فذلك اليوم أول ماءَ الإسلام فى دار بنى خطمة ، وكان يستخفى بإسلامه فيهم مَنْ أسلم ، و يومئذ أسلم رجال منهم لما رأوا من عز الإسلام ، انتهى . والذى رواه ابن سيد الناس عن ابن سعد أنه قال بعد ذكر قتل عُمير للعصماء : ثم فى شوال كانت سرية سالم بن عمير إلى أبى عفك اليهودى ، وكان أبو عفك من بنى عمرو بن عوف شيخا قد بلغ عشرين ومائة ، وكان يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول الشعر ، فقال سالم بن عمير وهو أحد البكائين وممن شهد بدرا : علىّ نذر أن أقتل أباعفك أو أموتَ دونه ، وذكر قتله إياه ، وهو مخالف لما قدمناه عن الاكتفاء من تقديم قتل أبى عفك على قتل العصماء ، وذكر ابن سعد أيضا أن قتل العصماء كان لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان ، وأن عميرا كان ضرير البصر ، وسماه رسول صلى الله عليه وسلم البصير(١) ، قيل : وكان أول من أسلم من بنى خطمة ، وكان إمامَ قومه وقارئهم ، وكان يدعى « القارىء » والله أعلم .

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفطر بيومين يُعَلِّم الناس زكاة الفطر .

قلت : وقيل: فى أول شوال ، وصلى صلاة الفطر ، وفيها فرضت زكاة الأموال أيضاً ، وقيل : فى الثالثة ، وقيل : فى الرابعة ، وقيل : قبل الهجرة ، وثبتت بعدها ، والله أعلم .

ثم غزا بنى قَينقاع فى شوال .

قلت : قد تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد وادع اليهودَ ، وكانوا يرجعون إلى ثلاث طوائف: بنى قَيْنقَاع ،والنَّضِير ، وقرَيظة ، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعدطائفة،فأول من نقض منهم بنو قَيْنُقَاع فحاربهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد بدر فى شوال ، فألقى الله الرُّعْبَ فى قلوبهم ، فنزلوا على حكمه ، فأراد قتلهم ،

(١) من سنن العرب أن تسمى الشيء باسم ضده ، مثل تسميتهم الصحراء « مفازة » وتسميتهم اللديغ « السليم » ولا يزال هذا يجرى فى لسان العامة إلى اليوم

فاستوهبهم منه عبدُ الله بن أبيّ وكانوا حلفاءهُ فوهبهم له ، وأخرجهم من المدينة إلى أذرِعَات ، وفى الاكتفاء : وكان منشأ أمرهم ، يعنى فى نقض العهد ، أن امرأة من العرب قدمت بجَلَب[1] لها ، فباعته بسوق بنى قَيْنُقَاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كَشْف وجهها ، فأبَتْ ، فعمد الصائغ إلى طَرَف ثوبها فعقَده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فوقع الشر بينهم و بين المسلمين ، فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه .

وروى أن ابن أبيّ قال للنبى صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، أحْسِنْ فى مواليّ ، فأعرض عنه ، وأنه قال : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غَدَاة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك ، وقال مغلطاى فى غزوة بنى قينقاع : قال الحاكم : هذه و بنى النضير واحد ، ور بما اشتبهتا على من لا يتأمل ، وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكر أنهم أول مَنْ نقض العهد : فغزاهم النبى صلى الله عليه وسلم ثم بنى النضير ، وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بنى قَيْنُقَاع و إجلاء بنى النضير كان فى زمن واحد ولم يوافَقْ على ذلك ؛ لأن إجلاء بنى النضير كان بعد بدر بستة أشهر على قول عروة ، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق ، وذكر الواقدى أن إجلاء بنى قَيْنُقَاع كان فى شوال سنة اثنتين ، يعنى بعد بدر بشهر ، و يؤيده ما رَوَى ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر جمع يهود فى سوق بنى قينقاع فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا ، فقالوا : إنهم كانوا لا يعرفون القتال ، ولو قاتلتنا لعرفت أنا الرجال ؛ فأنزل الله « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون[2] »

---

(١) الجلب : اسم لما تجلبه من البادية لتبيعه فى المدينة

(٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢

إلى قوله «لأولى الأبصار» وأصاب صلى الله عليه وسلم مِنْ سلاح بنى قَيْنُقاع ثلاثةَ أسياف ودرعين أحدها تسمى فضة والأخرى تسمى السغدية (بالسين المهملة والغين المعجمة) قال بعض الحُفَّاظ : وكانت السغدية درع داود عليه السلام التى لبسها حين قتل جالوت ، والله أعلم .

ثم غزا غزوة «السويق» فى ذى القعدة

غزوة السويق

قلت : سميت به لأنه كان أكْثَرَ زاد المشركين ، وغنمه المسلمون لأن أبا سفيان خرج فى مائتى راكب، وقيل: فى أربعين، حتى أتوا العريض ، فحرّق نخلا ، وقتل رجلا من الأنصار وأجيرا له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طلبه ، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخفّفُون للهرب فيلقون جُرُبَ السويق ، فأخذها المسلمون فرجعوا ، وذلك بعد بدر ، فإن أبا سفيان حلَف بعدها أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ، ففعل ذلك ، ورأى أن يمينه انحلت ، والله أعلم

ثم مات عثمان بن مظعون فى ذى الحجة ، فهو أول مَنْ مات من المهاجرين بالمدينة ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العيد ، ثم ضحى بكبش ، ثم بنى علىّ بفاطمة فى ذى الحجة

قلت : وقال النووى : وتوفيت فى ذى الحجة منها رقية[١] ابنتُه صلى الله عليه وسلم ، لكن ذكر أهل السير ما يقتضى أن وفاتها كانت فى رمضان منها ، والله أعلم

السنة الثالثة من الهجرة

السنة الثالثة — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ لكعب بن الأشرف» ؟ فقال محمد بن مسلمة : أنا له ، ثم قتله

قلت : ابن الأشرف كان أصله عربيا من نَبْهَان على ما قاله ابن إسحاق، أتى أبوهُ المدينة فحالف بنى النضير ، فشرف فيهم ، وتزوج بنت أبى الحُقَيق ، فولدت له كعبا ، وكان جسيما شاعرا ، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر ، وخرج إلى مكة وأنشدهم الأشعار ، وبكى أصحابَ القَلِيب[٢] من قريش ، ونزل فيهم على المطلب

---

(١) كانت رضى الله عنها زوج عثمان بن عفان الأموى رضى الله عنه

(٢) أصحاب القليب : هم قتلى بدر من المشركين ، سموا بذلك لأنهم طرحوا فى قليب هناك ، والقليب : البئر

ابن أبى وَدَاعة السَّهْمى ، وعنده عاتكة بنت أبى العيص ابن أمية ، فهجاه حسان وهجا امرأته عاتكة ، فطردته ، فرجع إلى المدينة وشَبَّب بنساء المسلمين ، وكان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحرض عليه كفار قريش ، وقيل : صنع طعاما وواطأ يهود أن يدعو النبى صلى الله عليه وسلم فإذا حضر فتكوا به ، ثم دعاه، فجاء ، فأعلمه جبريل فقام منصرفا وقال « مَنْ لكعب بن الأشرف » فانتدب له محمد بن مسلمة فى نفر ، واحتال عليه حتى نزل له ليلا فقتله ، وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه ، والله أعلم .

غزوة الكدر

ثم غزا غزوة الكُدر ، وكان حامل لوائه علىّ بن طالب ، فرجع ولم يلق كيدا

قلت : خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد بنى سليم ، واستخلف سباع بن عرفطة ، وقيل : ابن أم مكتوم ، فبلغ ماء يقال له الكدر ، وتعرف بغزوة «قرقرة» ، ويقال نجران ، فلم يلق أحدا ، والله أعلم .

غزوة أنمار

ثم غزا غزوة أنمار ، فجاءه دعثور فوجده نائما تحت الشجرة ، فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم على رأسه بالسيف ، فقال له دعثور : مَنْ يمنعك منى ؟ قال : الله ، فوقع السيف من يده ، وأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك منى ؟ قال : لا أحد ، قال : اُذهب لشأنك ، فولّى وهو يقول : محمد خير منى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وأنا أحق بذلك منك ، فنذرت غطفان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهربوا .

غزوة ذى أمر

قلت : هذه غزوة ذى أمر ، وسماها الحاكم غزوة أنمار ، وسمى بعضهم الأعرابىَّ غورث ، ويقال : كان ذلك فى ذات الرقاع ، ولا مانع من تعدد ذلك ، وكأن أبا حاتم رأى اتحادهما فلم يذكر ذات الرقاع ، وهى بنخل عند بعضهم ؛ فلذلك لم يذكرها أيضا ، والله أعلم

ثم كانت سرية القَرْدَة ، وكان أميرها زيد بن حارثة ، فلقى بها عير قريش ،

فأخذها ، وأسر فرات بن حيان ، و بلغ الخمس من تلك الغنيمة عشرين ألفا

سرية القردة

قلت : والقَرْدَة ماء من مياه نجد ، فإن قريشا بعد بدر خافوا طريقهم التى كانوا يسلكون إلى الشام ، فسلكوا طريق العراق ، وكان فى هذه العير أبوسفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة هى عُظْم تجارتهم ، والله أعلم .

ثم كانت أُحُد

غزوة أحد

قلت : كانت فى شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وشذ من قال : سنة أربع ، وقال ابن إسحاق : لإحدى عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : لسبع ليال ، وقيل : لثمان ؛ وقيل : لتسع ، وقيل : فى نصفه ، وقال مالك : كانت بعد بدر بسنة ، وفيه تجوز ، لأن بدرا كانت فى رمضان باتفاق ، فهى بعدها بسنة وشهر لم يكمل ، ولهذا قال مرة أخرى : كانت بعد الهجرة بإحدى وثلاثين شهرا (١)

وكان السبب فيها أنه لما قتل الله مَنْ قتل من كفار قريش يوم بدر ورجع مَنْ بقى منهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بِعِيرهم ، فكلموا أبا سفيان ومَنْ له فى العير مال فى الاستعانة بها على حرب النبى صلى الله عليه وسلم ففعلوا ، وقيل : كان المال خمسين ألف دينار ، فسلَّم إلى أهل العير رؤس أموالهم ، وعزلت الأرباح ، وكانوا يربحون فى تجارتهم الدينار دينارا ، وجَهَّزُوا الجيش بذلك ، وحركوا مَنْ أطاعهم من القبائل ، وخرجوا بأحابيشهم ومَنْ تابعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعُن (٢) لئلا يفروا ، فخرج أبوسفيان — وكان قائِدَهم — بهند بنت عتبة ، وكذلك سائر أشرافهم خرجوا بنسائهم ، وكان جُبَير بن مُطْعم أمر غلامه وَحْشِياً الحبشى بالخروج مع الناس ، وقال له : إن قتلت حمزة عم محمد صلى الله عليه وسلم بعمى طعمة بن عدى فأنت عتيق ، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين (٣) جبل ببطن السبخة من قنَاة على شفير الوادى مقابل المدينة ، قاله ابن إسحاق ، ووادى قناة خلف عينين بينه وبين أحد ، فإن عينين فى مقابلة أحد ، فنزلوا هم أمام

---

(١) كذا (٢) الظعن : جمع ظعينة ، وهى المرأة مطلقا ، أو مادامت فى الهودج
(٣) جبل عينين : هو جبل الرماة الذى عليه البيوت قبلى قبة حمزة (مكى) .

عينين مما يلى المدينة وفى غربيه لجهة بئر رُومَة ؛ فلا يخالف ماسيأتى عن المطرى ، ونقل ابن عقبة أن أبا سفيان سار بجمعه حتى طلعوا من بئر الجَمَّاوَيْنِ، ثم نزلوا ببطن الوادى الذى قبل أحد ، وكان رجال من المسلمين أسِفُوا على ما فاتهم من مشهد بدر ، وتمنوا لقاء العدو، وأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجمعة رؤيا ، فلما أصبح قال : رأيت البارحة فى منامى بَقَراً تذبح ، والله خير، ورأيت سيفى ذا الفقار انقصم من عند ظُبَتِه[1] ، أوقال به فلُولٌ، فكرهته وهما مصيبتان ، ورأيت أنى فى درع حصينة ، وأنى مُرْدِف كبشا ، قالوا : ما أولتها ؟ قال: أولت البقر بقرا يكون فينا ، وأولت الكبش كبش الكتيبة[2] ، وأولت الدرعَ الحصينةَ المدينةَ ، فامكثوا فإن دَخَل القومُ الأزقَّةَ قاتلناهم ورموا من فوق البيوت ، ونقل ابن إسحاق أيضا أن عبد الله بن أبيّ قال : يارسول الله ، أقِمْ بالمدينة ، ولاتخرج إليهم ، فوالله ماخرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخَلَها علينا إلا أصبنا منه ، فَدَعْهُمْ ، فقال أولئك القوم : يانبى الله كنا نتمنَّى هذا اليوم ، وأبى كثير من الناس إلا الخروج ، فلما صلى الجمعة وانصرف دعا باللأمة فلبسها ، ثم أذن فى الناس بالخروج ، فندم ذوو الرأى منهم ، فقالوا : يارسول الله امكث كما أمرتنا ، فقال : ماينبغى لنبى إذا أخذ لأمة الحرب أن يرجع حتى يقاتل ، فخرج بهم وهم ألف رجل ، وكان المشركون ثلاثة آلاف . وقال المطرى : إن نزول قريش يوم أحد بالمدينة كان يوم الجمعة ، قال : وقال ابن إسحاق : يوم الأربعاء .

قال المطرى : فنزلوا برُومَة من وادى العقيق ، وصلى النبى صلى الله عليه وسلم الجمعة بالمدينة ، ثم خرج هو وأصحابه على الحرة الشرقية حرة واقم ، وبات بالشَّيْخَيْنِ موضعٍ بين المدينة و بين جبل أحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أحد ، وغدا صبح يوم السبت إلى أحد ، انتهى . ونَقَلَ الأقشهرى أنه صلى الله عليه وسلم

(١) ظبة السيف — بضم الظاء وفتح الباء مخففة — طرفه

(٢) فى ابن هشام « فأما البقر فهى ناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل » .

دعا بثلاثة أرماح فعقد ثلاثة ألوية ؛ فدفع لواء الأوس إلى أُسَيْد بن حُضَير ، ولواء الخزرج إلى الْحُبَاب بن المنذر بن الْجَمُوح ، وقيل : إلى سعد بن عبادة، ولواء المهاجرين إلى على بن أبى طالب ، وقيل : إلى مُصْعَب بن عمير ، واستخلف على المدينة عبدَ الله بن أم مكتوم ، ثم ركب فرسَهُ ، وتقلد القوس ، ثم أخذ قَنَاَته بيده، وفى المسلمين مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه سعدُ بن مُعاذ وسعدُ بن عُبادة والناسُ على يمينه وشماله ، فمضى حتى إذا كان بالشَّيْخَين — وهما أُطُمَان — التفت فنظر إلى كتيبة حسنة لها زَجَل[1] ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : حُلَفَاء ابن أُبَىّ من يهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نستنصر بأهل الشرك ، فلما بلغوا الشوط انخذل عبدُ الله بن أُبَىّ بثلث الناس ، انتهى .

وفى الاكتفاء أن مُخَيْرِيقاً كان من أحبار يهود، فقال لهم يومئذ : لقد علمتم إن نصر محمد عليكم لَحَقٌ ، فتعللوا بسَبْتِهم ، فقال لهم : لا سَبْتَ لكم ، وأخذ سيفه وعُدَّته فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتل معه حتى قتل بعد أن قال : إن أصِبْتُ فمالى لمحمد يصنع فيه ماشاء ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مخيريق خير يهود » انتهى .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط برجال ثقات عن أبى حميد الساعدى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثَنِيَّةَ الوَدَاع فإذا هو بكتيبة حسناء ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ قالوا : عبد الله بن أُبَىّ فى ستمائة من مَوَاليه من اليهود من بنى قَيْنُقَاع ، فقال : وقد أسلموا ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : مُرُوهُمْ فليرجعوا ، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين .

قال الأقشهرى عقب كلامه السابق : وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ عَرَض وردَّ من رَدَّ فى ذلك الموضع ، يعنى بالشَّيْخَين ، وأَذَّنَ بلال المغرب فصلى النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، وبات بذلك الموضع صلى الله عليه وسلم ، واستعمل على الحرس فى تلك الليلة محمد بن مسلمة فى خمسين يطوفون بالعسكر ،

---

(١) لها زجل : أى صوت

وأدْلَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السحَر وهو يرى المشركين ودليله أبو خيثمة الحارثى ، فانتهى إلى موضع القنطرة ، فحانت الصلاة فصلى بأصحابه الصبح صفوفاً عليهم السلاح ، قال : وقال مجاهد والكلبى والواقدى : غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة على رجليه إلى أحد ، فجعل يصفُّ أصحابه للقتال كما يُقَوَّمُ القِدْحَ ، وقال ابن إسحاق : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد حتى إذا كان بالشوط انخذل عبد الله بن أبىّ فى ثلاثمائة ، وفى رواية بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى ، وقال ابن عقبة : فبقى صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة ، فلما رجع عبدُ الله بن أبىّ سقط فى أيدى طائفتين من المؤمنين - وهما بنو حارثة و بنو سَلِمة — وقال الأقشهرى : فبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة ، ومعه فرسه وفرس لأبى بُرْدَة بن نيار ، وهذه رواية الواقدى ، والذى رواه ابن عقبة - كما سيأتى - أنه لم يكن مع المسلمين فرس ، وفى الاكتفاء بعد ذكر انخذال ابن أبىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى حتى سلكَ فى حرة بنى حارثة ، ثم قال : مَنْ رجل يخرج منا على القوم من كَثَب ، أى من قُرْبٍ ، من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ فقال أبو خيثمة أخو بنى حارثة : أنا يا رسول الله ، فنفذ به فى حرة بنى حارثة و بين أموالهم حتى سلك فى مال لمربع بن قَيْظى ، وكان منافقاً ضرير البصر ، فلما سمع حس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه قام فَحَثَا فى وجوههم التراب ويقول : إن كنتَ رسولَ الله فإنى لا أُحِلُّ لك أن تدخل حائطى ، وذكر أنه أخذ حَفْنة من تراب ، ثم قال : والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابْتَدَرَهُ القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد . وقال الأقشهرى : وجعل أحداً خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل عينين (١) الجبلَ عن

---

(١) فى المطبوعات «عينين الجبل» وقد مضى على الصحة وسيأتى على الصحة أيضا .

يساره ، وقال ابن عقبة : وصَفَّ المسلمون بأصل أحد ، وصف المشركون بالسبخة ، وتعبوا للقتال ، وعلى خيل المشركين ـ وهى مائة فرس ـ خالدُ بن الوليد ، وليس مع المسلمين فرس ، وصاحب لواء المشركين طلحة بن عثمان ، وأمَّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن جُبَير على الرُّماة وهم خمسون رجلا ، وعَهِدَ إليهم أن لا يتركوا منازلهم . ونقل الأقشهرى أنه جعلهم على جبل عينين . وفى الاكتفاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لأميرهم : أنضح الخيل عنا لا يأتونا من خلفنا ، إن كان لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتَيَنَّ من قبلك ، وظاهَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، وتعبأ قريش ، وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائة فرس قد جَنَبُوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل ، وقد كان أبو عامر الراهب من الأوس خرج عن قومه إلى مكة مُبَاعداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يَعِد قريشاً أن لو لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم هو فى الأحابيش وعِبْدَانِ أهل مكة ، فنادى : يا معشر الأوس أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ، وبذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمى فى الجاهلية الراهب ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتلهم قتالا شديداً ، ثم راضخهم بالحجارة ، انتهى .

وروى البزار ـ ورجاله ثقات ـ عن الزبير بن العوام قال : عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً يوم أحد فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام أبو دجانة فقال : يا رسول الله أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فخرج ، فأتبعتُه فجعل لا يمر بشىء إلا أفراه[1] وهتكه ، حتى أتى نسوة فى سفح الجبل ومعهن هند وهى تقول :

نحن بنات طارق   نمشى على النمارق
والدر فى المخانق   والمسك فى المفارق[2]

(١) أفراه وفراه : مزقه

(٢) المخانق : النحور ، أى الأعناق ، والمفارق : جمع مفرق ، وهو موضع فرق الشعر من الرأس

إن تُقْبِلُوا نُعَانق ونفـرش النمارق
أو تُدْبِرُوا نفارق فِرَاقَ غَيْرِ وامق (١)

يعنى تُحَرِّضُهم بذلك ، قال : فحمل عليها ، فنادت بالصحراء فلم يجبها أحد ، فانصرف عنها ، فقلت له : كل سيفك رأيته فأعجبنى غير أنك لم تقتل المرأة، قال : فإنها نادت فلم يجبها أحد ، فكرهت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لا ناصر لها .

وفى الاكتفاء : ذكر الزبير رضى الله عنه أن سيف عبد الله بن جَحْش انقطع يوم أحد ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرْجُوناً، فعاد فى يده سيفاً قائمهُ منه ، فقاتل به ؛ فكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل بعد يتوارث حتى بيع من بُغَا التركى بمائتى دينار .

وروى البزار برجال الصحيح عن بريدة أن رجلا قال يوم أحد : أللهم إن كان محمد على الحق فاخسف به ، قال : فخسف به .

وقال ابن إسحاق : قتل أصحاب لواء المشركين وهم تسعة بأحد واحد بعد واحد .

وقال غيره : أحَدَ عشر آخرهم غلام لبنى طلحة .

وقال ابن عقبة : وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير أخو بنى عبدالدار ، فبارز طلحة بن عثمان من بنى عبد الدار فقتله ، وحمل المسلمون على المشركين حتى أجْهَضُوهم (٢) ، وحملت خيل المشركين فنضَحَهم الرماة بالنبل ثلاث مرات ، فدخل المسلمون عسكر المشركين فانْتَهَبُوه ، فرأى ذلك الرماة ، فتركوا مكانهم ، ودخلوا العسكر، فأبصر ذلك خالد ومَنْ معه ، فحملوا على المسلمين فى الخيل ، فمزقوهم ، وصرخ صارخ : قتل محمد ، أخراكم ، فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضاوهم لا يشعرون، وانهزم طائفة منهم وتفرق سائرهم ، ووقع فيهم القتل، وثبت نبى الله حين

(١) الوامق : المحب ، ومقه يمقه مقة ، على مثال وصفه يصفه صفة
(٢) أجهضوهم : غلبوهم ونحوهم وأبعدوهم .

انكشفوا عنه وهو يدعوهم فى أخراهم ، حتى رجع إليه بعضُهم وهو عند المهراس فى الشعب ، وتوجه النبي صلى الله عليه وسلم يلتمس أصحابه ، فاستقبله المشركون فَرَمَوْا وجهه فأدْمَوْهَ وكسروا رَباعيته، فمر مُصْعِدا[١] فى الشِّعب ومعه طلحة والزبير، وقيل: معه طائفة من الأنصار منهم سهل بن بيضاء والحارث بن الصمة ، واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهـم يقطعون الآذان والأنوف والفروج ويَبْقُرون البطون ، وهم يظنون أنهـم أصابوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشراف أصحابه ، فقال أبو سفيان يفتخر بإلهه « أُعْلُ هُبَلُ » فناداه عمر : الله أعلى وأجل ، ورجع المشركون إلى أثقالهم .

الرسول يقتل أبى ابن خلف

قال ابن إسحاق : كان أول مَنْ عَرَفَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وتحدث الناس بقتله ، كَعْبَ بن مالك الأنصارى ، قال : عرفت عينيه يزهران تحت المِغْفر ، فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلىّ أن أنْصِتْ ، فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهَضُوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعْب معه أبو بكر وعمر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة ورَهْط من المسلمين، فلما أسند رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الشعب أدركه أبىّ بن خَلَف وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إنْ نجا ، فقال القوم : يارسول الله أيَعْطِفُ عليه رجل منا؟ فقال : دَعُوه ، فلما دَنَا تناول رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ، يقول بعض القوم : فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبله فطعنه فى عُنُقه طعنةً تدأدأ منها[٢] عن فرسه مرارا ، وكان أبىّ بن خلف يَلْقَى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول : يامحمد إن عندى العود فرسا أعلفه كل يوم فَرْقًا[٣] من ذرة أقتلك عليه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما رجع إلى قريش وقد خَدَشه فى عنقه خدشا غير كبير فاحتقن الدم ، قال : قتلنى والله محمد ، فقالوا :

---

(١) مصعدا : صاعدا راقيا فى الجبل .

(٢) تدأدأ منها : تمايل (٣) الفرق — بالفتح — مكيال يسع ثلاثة آصع

ذَهَبَ والله فؤادك ، والله إنْ يَكُ بأس[1] ، قال : إنه قد كان ، قال بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بَصَقَ عليَّ لقتلنى ، فمات عدوُّ الله بسرف وهم قافلون[2] إلى مكة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قاله يومئذ : اشتدَّ غَضَبُ الله على رجل قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسُحْقاً لأصحاب السعير .

وفى الصحيح عن عائشة قالت : لما كان يومُ أحد هزم المشركون هزيمة بينة ، فصاح إبليس : أى عباد الله ، أخراكم ، فرجعت أولاهم ، فاجتلدت مع أخراهم ، فنظر حذيفة فإذا هو بأبيه فنادى : أى عباد الله ، أبى أبى ، فقالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم .

ونقل الأقشهرى أن أبا سفيان بن حرب قال يومئذ لبنى عبد الدار : إنكم ضيعتم اللواء يوم بدر ، فأصابنا ما رأيتم ، فادفعوا اللواء إلينا نَكْفِكم ، و إنما أراد تحريضهم على القتال والثبات ، فغضبوا وأغلظوا له ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل : مَنْ يحمل لواء المشركين ؟ قيل : عبد الدار ، قال : نحن أحق بالوفاء منهم ؟ أين مصعب بن عمير ؟ فقال : ها أنا ، قال : خذ اللواء ، فأعطاه اللواء ، و إن حمزة رضى الله عنه حَمَلَ على عثمان بن طلحة حامل لواء المشركين فقطع يده وكتفه حتى انتهى إلى مُؤْتَزَره[3] ، ثم إن أصحاب اللواء قتلوا واحداً بعد واحد ، فانكشف المشركون منهزمين ، ونساؤهم يدعون بالويل والثبور ، وتبعهم المسلمون يَضَعُون فيهم السلاح ، ووقفوا يأخذون الغنائم ، فلما رأى الرماة ذلك أقبل جماعة منهم وخلوا الجبال ، فكر خالد بالخيل ، فتبعه عكرمة ، فحملوا على مَنْ بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جُبَير ، وانتقضت صفوف المسلمين ، ونادى إبليس : قتل محمد ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزول ، يرمى عن قوسه حتى صارت شَظَايا ، و يرمى بالحجارة ، وثبت معه عصابة من الصحابة أربعة عشر من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر وسبعة من الأنصار ، اه

---

(١) إن يك بأس : أى مايكون بأس (٢) قافلون : راجعون
(٣) مؤتزره : الموضع الذى يلبس فيه الإزار

وروى النسائى عن جابر قال : لما ولَّى الناسُ يوم أُحُدٍ كان النبى صلى الله عليه وسلم فى اثنى عشر رجلا من الأنصار فيهم طلحة .

ووقع عند الطبرى من طريق السدى قال : تفرق الصحابة فدخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناسَ إلى الله ، فرماه ابن قمِيئة بحجر فكسر أنفه ورَبَاعيته وشَجَّه فى وجهه فأثقله ، فتراجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثون رجلا ، فجعلوا يَذُبُّون عنه (١) ، فحمله منهم طلحة وسهل بن حُنَيف ، فَرُمِىَ طلحة بسهم فيبست يده ، وقال بعض من فر إلى الجبل : ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبىّ يستأمن لنا من أبى سفيان ، فقال أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، ثم ذكر قصة قتله ، وقصد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الجبل ، فأراد رجل من أصحابه أن يرميه بسهم ، فقال : أنا رسول الله ، فلما سمعوا ذلك فرحوا به ، واجتمعوا حوله ، وتراجع الناس .

وروى أحمد عن سعد بن (٢) أبى وَقَاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم أُحُد رجلين (٣) عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشدّ القتال ، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ ، وقد أخرجه الشيخان ، وفى رواية لمسلم : يعنى جبريل ومكائيل ، وقول مجاهد « لم تقاتل الملائكة يومئذ ولا قبله ولا بعده ، إلا يوم بدر » . قال البيهقى : أراد به أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُدٍ عن القوم حين عَصَوْا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به .

وعن عروة بن الزبير : كان الله وَعَدَهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين ، وكان قد فعل ، فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصَافَّهم وتركت الرماة عَهْدَه إليهم وأرادوا الدنيا رفع عنهم مَدَد الملائكة ،

(١) يذبون عنه : يدفعون عنه . (٢) فى المطبوعات « أسعد بن أبى وقاص »

(٣) فى المطبوعات « رجلان » .

وأنزل الله « لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه[١] » فصدق الله وعده ، وأراهم الفتح ، فلما عصوا أعقبهم البلاء .

وعند ابن سعد : ثبت معه صلى الله عليه وسلم سبعة من الأنصار وسبعة من قريش .

وفى مسلم من حديث أنس : أفرد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش طلحةَ وسعدٍ .

وقال ابن إسحاق : حدثنى حُمَيْدُ الطويلُ عن أنس قال : كسرت رَبَاعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وشُجَّ فى وجهه ، فجعل يسيل الدمُ على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يُفلِحُ قومٌ خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله تعالى « ليس لك من الأمر شيء[٢] » الآية .

وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وَقَّاص قال : ماحَرَصْتُ على قتل رجل قط حِرْصِى على قتل أخى عُتْبَة بن أبي وقاص لما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابنُ هشام فى حديث أبي سعيد الخدرى أن عُتبة بن أبي وقَّاص أخا سعد هو الذى كسر رَبَاعية النبي صلى الله عليه وسلم السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب هو الذى شَجَّه فى جبهته ، وأن عبد الله بن قميئة جرحه فى وَجْنَته ، فدخلت حلقتان من حلق المِغْفَر فى وجنته ، وأن مالك بن سنان مَصَّ الدمَ من وجهه ، ثم ازْدَرَدَه[٣] ، فقال له : لن تَمَسَّك النار .

وفى الطبرانى من حديث أبي أمامة قال : رمى عبدُ الله بن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فَشَجَّ وجهه ، وكسر رَبَاعيته ، وقال: خذها وأنا ابن قميئة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : مالَكَ أقمأك الله ، فسلط الله عليه تَيْسَ جبل ، فلم يزل يَنْطَحه حتى قطَّعَهُ قطعة قطعة .

---

(١) من سورة آل عمران من الآية ١٥٢ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢٨

(٣) ازدرده : ابتلعه

وقال السهيلي : الذى كسر رَبَاعية رسول الله صلى الله عليه وسلم عُتْبَةُ بن أبي وقاص أخو سعد ، لم يولد من نسله ولد فبلغ الحلم إلا وهو أبْخَر أو أهتم ، يُعرف بذلك في عقبه .

وروى ابن الجوزى عن محمد بن يوسف الفريابى قال : لقد بلغنى أن الذين كسروا رَبَاعية النبى صلى الله عليه وسلم لم يولد لهم صبى فنبتت له رَبَاعية .

وقيل : كان سبب الهزيمة أن ابن قميئة الليثى قتل مُصْعَب بن عمير ، وكان مصعب إذا لبس لأمَتَهُ يشبه النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قتله ظن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى قريش وقال: قد قتلت محمداً ، فازدادوا جُرْأة وصاح إبليس من العقبة: قتل محمد ، فلما سمع المسلمون ذلك وهم متفرقون كانت الهزيمة ، فلم يَلْوِ أحد على أحد(١) .

والصواب أن السبب مخالفة الرماة للأمر ، وهذا مؤكد له ومتمم ، مع أن الأصل فى ذلك — مع إرادة الله تعالى — مااتفق ببدر من أخذ الفداء ، فقد أخرج الترمذى(٢) والنسائى عن على أن جبريل هبط فقال : خيِّرهم فى أسارى بدر القتل أو الفداء على أن يقتل منهم مِنْ قابل مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا ، وقال الترمذى : حسن ، وذكر غيره له شواهد تقويه ، ولهذا جاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة ، وقتلوا سبعين ، وأسروا سبعين . وفيه أيضا أن المشركين أصابوا يوم أحد من المسلمين سبعين ، ولفظه من حديث البراء قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبى صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة ، وأمَّرَ عليهم عبد الله بن جُبَير ، وقال: لا تبرحوا ، فإن رأيتمونا ظهرنا عليهم(٣) فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعِينونا ، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يَشْتَدِدْنَ فى الجبل رفعن عن سُوقهن قد بدت خَلاَخِلُهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله :

(١) لم يلو أحد على أحد: أى لايلتفت إليه ولايعطف عليه . (٢) انظر ١٠/٢٩٧ بولاق

(٣) ظهرنا عليهم : غلبناهم ، ولا تبرحوا : لا تفارقوا مكانكم .

عهد إلىّ النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبوا صَرَفَ الله وجُوهَهم ، فأصيب سبعون قتيلا .

ووقع عند مسلم من طريق ابن عباس عن عمر في قصة بدر قال : فلما كان يوم أحد قتل منهم سبعون وفروا ، وكسرت رَبَاعية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهُشِمَت البيضة على رأسه ، وسال الدمُ على وجهه ، فأنزل الله تعالى : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها[1] » الآية ، والمراد بكسر الرباعية — وهى السن التى تلى الثَّنِية والناب — أنها كسرت فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها ، وقوله « وفروا » أى بعضهم ، أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم ، والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق : فرقة استمروا فى الهزيمة إلى قرب المدينة ، فما رجعوا حتى انقضى القتال ، وهم قليل ، وهم الذين نزل فيهم « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان[2] » وفرقة صاروا حَيَارى لما سمعوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل ، فصار غاية الواحد منهم أن يَذُبَّ عن نفسه ، أو يستمر على نصرته فى القتال إلى أن يقتل ، وهم أكثرهم ، وفرقة بقيت مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم تراجع إليهم القسمُ الثانى شيئاً فشيئاً لما عرفوا أنه حى ، وما ورد من الاختلاف فى العدد محمول على تعدد المواطن فى القصة .

ووقع عند أبى يَعْلَىٰ فى حديث عمر المتقدم : فلما كان عام أحد عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون .

وفى الاكتفاء : أنه لما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء علىّ بن أبى طالب ، فقاتل فى رجال من المسلمين ، ولما اشتد القتال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تحت راية الأنصار ، وأرسل إلى على أن قدم الراية ، فتقدم فقال : أنا أبو القصم ، فناداه أبو سعد بن أبى طلحة : هل لك يا أبا القصم فى البِرَاز[3] من حاجة ؟ قال : نعم ، فبرزا بين الصفين ، فاختلفا ضربتين :

---

(١) من سورة آل عمران من الآية ١٦٥ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٥٥

(٣) البراز : القتال

فضرب به علىّ فصرعه، ثم انصرف ولم يُجْهِزْ عليه[١]، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلني بعَوْرته ، فعطفتني عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله .

وقد قيل : إن سعد بن أبي وقاص هو الذى قتل أبا سعد هذا .

وروى الطبرانى برجال الصحيح عن ابن عباس قال : دخل على بن أبى طالب على فاطمة يوم أحد فقال : خذى هذا السيف غيرَ ذَميم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لئن كنتَ أحسنتَ القتالَ فقد أحسنه سَهْلُ بن حنيف وأبودجانة ابن خرشة .

وذكر فى الاكتفاء دخول الحلقتين من حلق المِغْفَر فى وَجْنته صلى الله عليه وسلم ، وأنه وقع فى حُفْرة من الحفر التى عمل أبو عامر الراهب ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأخذ علىّ بيده ، ورفعه طلحة حتى استوى قائماً ، ومَصَّ مالك ابن سِنان والدُ أبى سعيد الخدرى الدمَ من وجهه ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه صلى الله عليه وسلم فسقطت ثَنِيَّتُه ، ثم نزع الأخرى وسقطت ثنيته الأخرى ، ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال سعد : فلقد رأيته يُناولنى النَّبْلَ ويقول « ارْمِ فِداكَ أبى وأمى » ، وأصيب يومئذٍ عينُ قتادة بن النعمان فردها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فكانت أحْسَنَ عينيه ، وأصيب فم عبد الرحمن بن عَوْف فهتم ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها فى رجله فعرج ، فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشِّعْب ومعه أولئك النفرُ من أصحابه ، فبيناهم فى الشعب إذ علت عالية من قريش : الجَبَلَ ، فقال : اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورَهْط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع ، وقد كان بَدَّنَ[٢] وظاهر بين

(١) أجهز على الجريح : تمم قتله حتى زهقت روحه .

(٢) بدن : سمن وعلاه الشحم ، وذلك أثر من آثار السن .

درعين[١] ، فجلس تحته طلحة بن عبيدالله فنهض به حتى استوى عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَوْجَبَ طَلْحَةُ[٢] » وصلى النبى صلى الله عليه وسلم يومئذٍ الظهرَ قاعداً من الجراح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعودا .

وفى الصحيح من حديث البَرَاء أن أباسفيان ـ حين أرادالانصرافَ ـ قال : « لنا العُزَّى ولا عزَّى لكم » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أَجِيبُوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال « قولوا : الله مَوْلانا ولا مَوْلى لكم » .

وفيه أيضاً أن أبا سفيان أشرف يومِ أُحُدٍ فقال : أفى القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه ، فقال : أفى القوم ابن أبى قُحافة ؟ قال : لا تجيبوه ، قال : أفى القوم ابن الخطاب ؟ فلما لم يُجِبْهُ أَحَد قال : إن هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال : كَذَبْتَ يا عدو الله ، قد أبقى الله لك ما يُخْزِيكَ .

قال ابن إسحاق : فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له : هلم إلى يا عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : ائْتِهِ فانظر ماشأنه ، فجاء ، فقال له أبو سفيان: أَنْشُدُكَ بالله يا عمر أَقَتَلْنا محمداً ، فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال : أنت أَصْدَقُ عندى من ابن قميئة وأبر ، ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مثل ، والله مارضيتُ وماسخطت ، وما أمرت ومانهيت ، ولما انصرف أبو سفيان ومَنْ معه نادى : إن مَوْعِدكم بدر العامَ القابل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه « قل : نعم ، هو بيننا و بينكم موعد » ثم بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فقال : اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيلَ وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيلَ وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرَنَّ إليهم فيها ثم لأناجزَنهُمْ ، فخرج علىّ فرآهم قد جَنَبُوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، وفزع الناس اقتلاهم ،

(١) ظاهر بين درعين : جمع بينهما .

(٢) أوجب طلحة : أراد استحق الجنة ثوابا على جميل صنعه .

وانتشروا يبتغونهم ، وسيأتى خبرهم وتعيينهم إن شاء الله تعالى فى الفصل السادس من الباب الخامس ، و بكى المسلمون يومئذ على قتلاهم ، فسُرَّ المنافقون ، وظهر غِشُّ اليهودِ ، وفارت المدينة بالنفاق .

الحكم التى فى قصة أحد

قال العلماء : وكان فى قصة أحد من الحكم والفوائد أشياء عظيمة .

منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهى ؛ لما وقع من الرماة .

ومنها : أن عادة الرسل أن تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة .

ومنها : إظهار أهل النفاق حتى عرف المسلمون أن لهم عدوا بين أظهرهم .

ومنها : أن فى تأخير النصر هَضْماً للنفس .

ومنها : أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فسبَّبَ لهم ذلك ليبلغوها .

ومنها : أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء ، فساقها لهم بين يدى الرسول ليكون شهيداً عليهم .

قال ابنُ إسحاق : وفى شأن أحُد أنزل الله ستين آية من آل عمران .

وروى ابن أبى حاتم من طريق المِسْوَر بن مَخْرَمة قال : قلت لعبد الرحمن ابن عوف : أخبرنى عن قصتكم يوم أحُد ، قال : اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها « وَإذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى قوله « أَمَنَةً نُعَاساً » (١) .

أبو عزة الجمحى ومقتله

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الوقعة مرهباً لعدوه حتى انتهى إلى حَمْرَاء الأسد ، فأخذ فى وجهه ذلك أبا عَزَّةَ الْجُمَحِيَّ ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد مَنَّ عليه يومَ بدر بغير فداء ، وأخذ عليه أن لا يظاهر (٢) عليه أحد، وكان شاعرا ، فقال له صَفْوَان بن أمية : إنك امرؤ شاعر فأعِنّا بلسانك ، ولم يزل به

---

(١) من سورة آل عمران الآيات من ابتداء الآية ١٢١ .

(٢) لايظاهر أحدا عليه : لايعين أحدا عليه .

حتى خرج معهم ، فلما أَخَذَه النبى صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله أَقِلْنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لاتمسح عارضيك بمكة تقول: خَدَعْتُ محمداً مرتين ، اُضْرِبْ عُنُقه يازبير ، فضرب عنقه .

وفى رواية أنه قال له « إن المؤمن لايُلْدَغُ من جُحْرٍ مرتين ، اضربْ عنقه ياعاصمُ بن ثابت » فضرب عنقه .

تحريم الخمر

وفى هذه السنة أيضاً حرمت الخمر ، ويقال : فى التى بعدها ، وقال الحافظ ابن حجر : الذى يظهر أن تحريمها كان عامَ الفتح سنة ثمان ، واستدل بشىء فيه نظر .

وتزوّج النبى صلى الله عليه وسلم حَفْصَة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى شعبان على الأصح ، وقيل : فى التى قبلها ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين فى رمضان ، فمكثت عنده شهرين أو ثلاثة ، وقيل : ثمانية أشهر ، وماتت ، وولد الحسن بن على فى منتصف رمضان ، وعلقت أمه بالحسين بعد خمسين ليلة : وتزوج عثمان أمّ كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

السنة الرابعة من الهجرة

السنة الرابعة ـ وكانت بئر مَعُونة أولها فى المحرم .

قلت : فى الصحيح من رواية أنس قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه رعل وذَكْوَان وعصية وبنو لَحيَان ، فزعموا أنهم قد أسلموا ، واستمدُّوه على قومهم ، فأمدهم النبى صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار ، قال أنس : كنا نسميهم القراء ، يَحْطِبون بالنهار ويُصَلُّون بالليل ، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غَدَرُوا بهم وقتلوهم، فَقَنَتَ شهرا يدعو على رعل وذكوان وبنى لحيان، وفى بعض الروايات ما يقتضى أن الذين استمدوا لم يُظْهِرُوا الإسلام ، بل كان بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد ، وأنهم غير الذين قتلوا القراء لكنهم من قومهم ، وهو الذى فى كتب السير وقد بَيَّن ابن إسحاق فى المغازى وكذلك موسى بن عقبة عن ابن شهاب أسماء الطائفتين ، وأن أصحاب العهد هم بنو عامر ورأسهم أبو بَرَاء

عامر بن مالك بن جعفر ، المعروف بمُلَاعب الأَسِنَّة ، وأن الطائفة الأخرى من بنى سليم ، وأن عامر بن أخى ملاعب الأسنة أراد الغدر بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعا بنى عامر إلى قتالهم ، فامتنعوا وقالوا : لا نَخفِر[(١)] ذمة أبى بَرَاء ، فاستصرخ عليهم عصية وذكوان من بنى سليم ، فأطاعوه وقتلوهم ، قالوا : ومات أبو بَرَاء بعد ذلك آسفا على ماصنع به عامر بن الطُّفَيْل ، وقيل : أسلم أبو براء عند ذلك ، وقاتل حتى قتل ، وعاش عامر بن الطفيل حتى مات كافراً بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم ، أصابته غُدَّة كغُدَّة البعير[(٢)] ، ولم يكن القراء المذكورون كلهم من الأنصار ، بل كان بعضُهم من المهاجرين مثل عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ونافع بن ورقاء الخزاعى وغيرهما ، كما يؤخذ من الصحيح أيضاً ، والله أعلم .

ثم كانت غزة الرَّجِيع فى صفر .

غزوة الرجيع

قلت : ذكرها ابن إسحاق فى الثالثة قبل بئر مَعُونة ، والرجيع : موضع ببلاد هذيل ، والله أعلم .

ثم كانت غزوة بنى النضير .

غزوة بنى النضير

قلت : ذكرها بعضهم فى الثالثة قَبْلَ أحد ، وقال الزهرى : كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد ، وذكرها ابن إسحاق فى الرابعة بعد بئر مَعُونة وأن سببها أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءهم يستعينُهم فى دِيةٍ ، وجلس إلى جنب جدار لهم ، فخلا بعضُهم ببعض ، وأمروا عمرو بن جحاش أن يَرْقَى فيُلْقى عليه صخرة ، فأتاه الخبرُ من السماء ، فقام مُظهِراً أنه يقضى حاجة ، وقال لأصحابه : لا تبرحوا ، ورجع مسرعا إلى المدينة ، فأمر بحربهم والمسيرِ إليهم ، وأمر بقطع النخل والتحريق ، قال : وحاصرهم ستَّ ليالٍ ، فسألوا أن يُجْلَوْا من أرضهم على أن لهم ما حملت الإبلُ ، فصولحوا على ذلك ، فاحتملوا إلى خيبر وإلى الشام ؛ فكانت أموالهم له

---

(١) « لانخفر ذمته » تقول « خفرت ذمة فلان » إذا حفظتها ورعيتها ، وإذا نقضتها ، ضد

(٢) يروى أنه مرض فى الطريق ، فمال إلى بيت امرأة من سلول ، فلما اشتد به المرض كان يقول « غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » .

صلى الله عليه وسلم خاصة ، ووافق ابنَ إسحاق على ذلك جلُّ أهل المغازى ، وأصح منه ما رواه ابن مردويه بسند صحيح أنهم أجمعوا على الغَدْر ، فبعثوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم : اخْرُجْ إلينا فى ثلاثة من أصحابك و يلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك ، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر ، فأرسلت امرأة من بنى النَّضِير إلى أخ لها من الأنصار مُسْلم تخبره بأمْرِ بنى النضير ، فأخبر أخوها النبىَّ صلى الله عليه وسلم بأمر بنى النضير قبل أن يصل إليهم ، فرجع وصَبَّحهم بالكتائب ، فحصَرهم يومه ، ثم غدا على بنى قُرَيظة فحاصرهم ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بنى النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلَّتِ الإبلُ(١) إلا السلاح ، فاحتملوا أبواب بيوتهم ؛ فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها و يحملون ما يوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حَشْر الناس إلى الشام .

ورواه أيضا عبدُ بن حُمَيْد فى تفسيره ، وروى أيضا من طريق عِكْرِمة أن غزوتهم كانت صبيحة قتل كعب بن الأشرف ، وروى أن قريشا كتبوا لبنى النضير يحثونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأضمروا الغدر بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ولما حرق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نخلهم قال حسان رضى الله عنه يعير قريشا من أبيات :

وهان على سَرَاة بنى لؤى ... حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ولم يكن أسلم حينئذ :

أدام الله ذلك من صَنِيع ... وحَرَّق فى نواحيها السعير
سَتَعْلَمُ أيُنَا مِنْهَا بنُزْهٍ ... وتَعْلَم أى أرضينا تَضِيرُ

أى ستعلم أينا منها ببعد ، وأى الأرضين أرضنا أو أرضكم يحصل لها الضير : أى الضرر ؛ لأن بنى النضير إذا خربت أضرت بما جاورها وهو أرض الأنصار لا أرض قريش ، ونقل ابن سيد الناس عن أبى عمرو الشيبانى أن الذى قال البيت المتقدم المنسوب لحسان هو أبو سفيان بن الحارث ، وأنه لما قال :

---

(١) ما أقلت الإبل : ماحملته ، وبهذا اللفظ روى فى الرواية السابقة .

* وعَزَّ على سراة بنى لؤى *

بدل « هان » قال : ويروى « بالبويلة » بدل « بالبويرة » وأن المجيب له بالبيتين المتقدمين هو حسان ، وما قدمناه هو رواية البخارى .

قال ابن سيد الناس : وما ذكره الشيبانى أشْبَهُ .

قلت : كأنه استبعد أن يدعو أبو سفيان فى حالة كفره على أرض بنى النضير ، وقد قدمنا وجهه ، وكان أشراف بنى النضير بنو الحقيق وحُيَىّ بن أخطب ، فكانوا فى مَنْ سار إلى خيبر ، فدَان[1] لهم أهلها ، وأسلم منهم يامين بن عمير وأبو أسعد بن وهب ، فأحرزا أموالها .

وروى ابن شبة عن الكلبى قال : لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم على أموال بنى النضير قال للأنصار : إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينهم وبينكم جميعا ، وإن شئتم أمسكتم أموالكم فقسمت هذه فيهم ، قالوا : بل أقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت ، فنزلت (ويُؤْثِرُونَ على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة[2]) . وقال ابن إسحاق : قسمها صلى الله عليه وسلم فى المهاجرين إلا سهل بن حُنَيْف وأبو دجانة ، ذكرا فَقْراً فأعطاهما منها ، والله أعلم .

ثم ولد الحسين بن على .

قلت : المشهور فى ولادته أنها فى الثالثة كما قدمناه ، والله أعلم .

ثم كانت بدر الموعود .

قلت : هى بدر الثالثة لما تقدم ، والله أعلم .

ثم كان مقتل سلام[3] بن مشكم أى أبى رافع ، ويقال : عبدالله بن أبى الحقيق وهى سرية عبيد الله بن عتيك . ثم رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهوديين اللذين كان يحنى أحدهما على الآخر .

---

(١) دان لهم أهلها : خضعوا وانقادوا (٢) من سورة الحشر من الآية ٩

(٣) كذا فى الأصول وفى الخلاصة ، وفى نسخة « ابن سلام بن مشكم » وهو الصواب

زواج أم سلمة هند بنت أبي أمية

قلت : وفيها فى شوال تزوج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة هندَ — وقيل : رملة — بنت أبي أمية ، وهى أول من هاجر مع زوجها أبى سلمة إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة ، كذا ذكر بعض أهل السير ، وقال أبو عمر : تزوجها صلى الله عليه وسلم سـنة اثنتين بعد بدر فى شوال

غزوة ذات الرقاع

وفيها غزوة ذات الرقاع بعد بنى النضير بشهرين عند ابن إسحاق ، وقيل : فى الخامسة ، وذكرها البخارى بعد خيبر لما فى الصحيح من حضور أبى موسى الأشعرى فيها ، وهو من أصحاب السفينة ، ولامانع من التعدد ، والله أعلم .

السنة الخامسة من الهجرة

السنة الخامسة — ثم فَكَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سَلْمَانَ من الرق ، ثم خرج إلى دُومَة الجندل ، فرجع ولم يَلْقَ كيداً . ثم توفيت أم سعد بن عُبَادة .

ثم كسف القمر فى جمادى الآخرة ؛ فصلى بهم كصلاة كسوف الشمس

قلت : وجعلت اليهود يضربون بالطساس ، ويقولون : سحر القمر . وروى ابن حبان فى صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم صلى لـكسوف القمر ، والله أعلم

ثم أصابت قريشا شدة ، فبعث إليهم بفضة يتألفهم بها . ثم وفَد بلاَل بن الحارث المزنى ، فـكان أول وافد مسلم إلى المدينة . ثم قدم ضمام بن ثعلبة، ثم غزا المريسيع فى شعبان ، وفيها أنزلت آية التيمم بسبب عِقْدِ عائشة رضى الله عنها .

قلت : وسيأتى أن الأشبه أن بنى المُصْطَلَق هى هذه ، والله أعلم .

ثم غزوة الخندق

غزوة الخندق

قلت : هكذا ذكره ابن إسحاق ، وهو المعتمد ، وقال موسى بن عقبة : كانت فى شوال سنة أربع ، وصححه النووى فى الروضة ، مع قوله بأن بنى قريظة فى الخامسة ، وهو عجيب ؛ لما سيأتى من أنها كانت عقيب الخندق ، سميت بذلك لِحَفْرِ النبى صلى الله عليه وسلم الخندقَ بإشارة سَلْمان الفارسى، وتسمى بالأحزاب لاجتماع طوائف من المشركين فيها على الحرب ، وهم الذين سمـاهم الله تعالى الأحزاب ، وأنزل الله فى ذلك صَدْرَ سورة الأحزاب ، وذلك أن حُيَيَّ بن أَخْطَب فى نفر من بنى النَّضِير خرجوا من خيبر إلى مكة ، فحَرَّضوا قريشا على

الحرب ، وخرج كنانة بن أبي الحُقَيق يَسْعَى فى بنى غطفان ويحضُّهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لهم نصف ثمر خيبر ، فأجابه عُيَيْنَة بن حِصْن الفزَارى ، وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد فأقبل إليهم طُلَيْحَة بن خُوَيلد فيمن أطاعه ، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش ، فنزلوا مَرّ الظَّهْرَان ، فجاءهم مَنْ أجابهم من بنى سليم ، وكانوا قد استمدوهم فصاروا فى جمع عظيم — ذكر ابن إسحاق بأسانيد أن عدّتهم عشرة آلاف ، قال : وكان المسلمون ثلاثة آلاف — وقيل : كان المسلمون ألفا ، والمشركون أربعة آلاف — وذكر موسى بن عقبة أن مدة الحصار كانت عشرين يوما ، ونزلت قريش بمجتمع السيول من رُومَة بين الجرف وزُغابة ، وغطَفانُ ومن تبعهم من أهل نجد بذنب نقمى إلى جانب أحد .

وفى رواية ابن مردويه عن ابن عباس : ونزل عُيَيْنَة فى غطفان ومَنْ معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع ، والخندقُ بينه وبين القوم ، وجعل النساء والذرارى فى الآطام .

وقال ابن إسحاق : نزلت قريش بمجتمع السيول فى عشرة آلاف مِنْ أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وتهامة ، ونزل عُيَيْنَة فى غطفان ، وذكر ما تقدم من رواية ابن عباس المذكورة .

وروى الطبرانى ورجاله ثقات عن رافع بن خديج قال : لم يكن حصنٌ أحْصَنَ من حصن بنى حارثة ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم النساء والصبيان والذرارى فيه ، وقال : إن لم يكن أحد فالمعن بالسيف ، فجاءهن رجل من بنى ثعلبة بن سعد يقال له «نجدان» أحَدُ بنى جحاش على فرس حتى كان فى أصل الحصن ، ثم جعل يقول للنساء : أنزلن إلىّ خير لكنّ(١) ، فحركن السيف ، فأبصره أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدر الحصنَ(١) قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له : ظفر

---

(١) فى المطبوعات « خير لكم » تطبيع (٢) ابتدره : أسرع إليه

ابن رافع ، فقال : يا نجدان ابرز ، فبرز إليه، فحمل عليه فقتله، وأخذ رأسه فذهب به إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

وروى البزار بإسناد ضعيف عن الزبير بن العوام رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج للخندق جعل نساءه وعمته صفية فى أطم يقال له «فارع» وجعل معهم حسان بن ثابت ، فرقى يهودى حتى أشرف على نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عمته ، فقالت صفية : يا حسان قمْ إليه حتى تقتله ، قال : لا ، والله ما ذاك فىَّ ، ولو كان فى لخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت صفية : فاربط السيفَ على ذراعى، ثم تقدّمتْ إليه حتى قَتَلَتْهُ ، وقطعت رأسه ، فقالت له : خذ الرأس فارم به على اليهود ، قال : ما ذاك فىَّ ، فأخذت هى الرأس فرمت به على اليهود ، فقالت اليهود : قد علمنا أن لم يك يترك أهله خُلوفاً ليس معهم أحد ، فتفرقوا وذهبوا .

وروى أحمد بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير قال : كانت صفية فى حصن حسان بن ثابت يوم الخندق : أى وهو المسمى بفارع ، فذكر الحديث فى قتلها اليهودى وقولها لحسان : أنزل فاسلبه[1] ، فقال : مالى بسَلَبه حاجة .

وروى الطبرانى هذه القصة عن صفية رضى الله عنها فى غزوة أحد ، وفى إسناده اثنان ، قال الهيثمى : لم أعرفهما ، وبقية إسناده ثقات، والمذكور فى كتب السير أن هذه القصة فى الخندق ، وأن بعضهم كان بحصن بنى حارثة ، وبعضهم بفارع ، وأن صفية رضى الله عنها لما فرغت من قتل اليهودى ورجعت إلى الحصن قالت لحسان : انزل فاسْلُبْهُ[1] ، فإنى لم يمنعنى من سَلَبه إلا أنه رجل ، قال : مالى بسَلَبه من حاجة يا بنتَ عبد المطلب .

قال السهيلى : محمل هذا الحديث عند الناس أن حسان كان جبَانا شديدَ الجبن ، وقد دفع بعضُ العلماء هذا وأنكره ، وقال : لو صح هذا لهجى حسان به ،

(١) اسلبه : خذ ما معه من مال وأداة ، والسلب ـ بالتحريك ـ اسم لما يأخذه القاتل من قتيله

فإنه كان يُهاجى الشعراء ، وكانوا يردُّون عليه فما عَيَّره أحد بجبن ، وإن صح فلعل حسان كان معتلاً فى ذلك اليوم بعلة منعته من شهود القتال ، انتهى .

وروى الطبرانى برجال الصحيح عن عروة مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم أدْخَلَ نساءه يوم الأحزاب أطماً من آطام المدينة ، وكان حسان بن ثابت رجلا جبانا ، فأدخله مع النساء ، فأغلق الباب ، وذكر القصة .

وممن ذكر القصة فى الخندق ابنُ إسحاق ، ويؤيده أن اليهود إنما غدروا فى الخندق ، وذلك أن حُيَيّ بن أخْطَب توجَّه إلى بنى قُرَيْظَة ، فلم يزل بهم حتى غدروا ، وبلغ المسلمين غدرهم ، فاشتد بهم البلاء والحصار حتى تكلم معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف وأوس بن قَيْظى أخو بنى حارثة وغيرهما من المنافقين بالنفاق ، وأنزل الله تعالى : « إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مَرَضٌ ما وَعَدَنا الله ورسوله إلا غرورا[١] » الآيات . قال ابن عباس : وكان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قُرَيْظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان ، وكان حيي بن أخطب أتى كعب ابن أسد صاحبَ عَقْد بنى قُرَيظة وعهدهم ، فأغلق باب حصنه دونه ، وقال : لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا ، فقال له : إنى جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش وغطفان على قادتهما وسادتهما قد عاهدونى وعاقدونى أنْ لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومنْ معه ، فقال له كعب : جئتنى والله بذُلِّ الدهر ، وبجَهَام قد هَرَاق[٢] ماءه فهو يُرْعِد ويُبْرِق وليس فيه شىء ، فلم يزل حتى نقض كعبٌ عهده وبرىء مما كان بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، فاشتد الخوف بالمسلمين .

قال ابن إسحاق : ولم يقع بينهم حرب إلا مُرَاماة بالنَّبْل ، ولكن كان عمرو ابن عبدُ ودّ العامرى اقتحم هو ونفر معهم خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق ، فبارزه علىّ فقتله ، وبرز نَوْفَلُ بن عبد الله بن المغيرة المخزومى ، فبارزه الزبير فقتله ، ويقال : قتله علىّ ، ورجعت بقية الخيول منهزمة ، وقيل : اقتتلوا ثلاثة أيام قتالا

---

(١) من سورة الأحزاب الآية ١٢

(٢) الجهام ـ بالفتح ـ السحاب لامطر فيه ، وهراق : أراق وأفرغ

شديدا حتى يحجز الليل بينهم ، سيما فى اليوم الثالث ، حتى شغلهم القتالُ عن صلاة العصر والمغرب — وقيل : والظهر — وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى : « فإن خِفْتُمْ فرجالا أو ركبانا[١] » قال مالك: ولم يستشهد يوم الخندق إلا أربعة أو خمسة ، وذكر غيره ستة ، وهم : سعد بن معاذ كما سيأتى ، وأنس بن أوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهيل ، وهم من بنى عبد الأشهل ، وثعلبة بن غنمة ، والطفيل بن النعمان ، وهما من بنى سلمة ، وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار

وكان من المناوشات بين الفريقين أن مات بعضُ بنى عمرو بن عوف من أهل قُباء ، فاستأذن أقرباؤه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليدفنوه ، فأذن لهم ، فلما خرجوا إلى الصحراء لِدَفن ميتهم وافقوا ضِرَار بن الخطاب وجماعة من المشركين بعثهم أبو سفيان ليمتاروا له من قُرَيْظَة على إبل له ، فحملوا على بعضها قمحا ، وعلى بعضها شعيرا ، وعلى بعضها تمرا وتبنا للعلف ، فلما رجعوا و بلغوا ساحة قُبَاء وافقوا الذين كانوا يدفنون ميتهم ، فناهضهم المسلمون وغَلَبوهم ، فجرح ضرار جراحاتٍ ، فهرب هو وأصحابه ، وساق المسلمون الإبل بما عليها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان للمسلمين فى ذلك سَعَةٌ من النفقة

إسلام نعيم بن مسعود الأشجعى

ثم أتى نُعَيم بن مسعود الأشجعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم مُسْلِماً ، ولم يعلم به قومُه ، فقال: له : خَذِلْ عنا[٢] ، فمضى إلى بنى قُرَيظة ، وكان نَدِيماً لهم ، فقال : قد عرفتم محبتى ، قالوا : نعم ، فقال : إن قريشا وغَطَفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم فى البلاد مع محمد ، ولا طاقة لكم به ، قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رُهُنا ، فقبلوا رأيه ، فتوجَّه إلى قريش فقال لهم : إن اليهود نَدِمُوا على الغدر بمحمد ، فراسلوه فى الرجوع إليه ، فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رُهُنا فأقتلهم ، ثم جاء غطفان بنحو ذلك ، فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة

---

(١) من سورة البقرة من الآية ٢٣٩

(٢) خذل عنا : احمل أعداءنا على الخذلان والفشل وترك القتال

ابن أبى جهل إلى بنى قُرَيْظة بأنا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعًى ، فاغدُوا للقتال حتى نناجز محمدا ، فأجابوهم إن اليومَ يومُ السبت ، ولا نعمل فيه شيئا ، ولا بد لنا من الرُّهُنِ منكم لئلا تغدروا بنا ، فقالت قريش : هذا ما حَذَّرَكم نُعَيم ، فراسلوهم ثانيا : إنا لا نعطيكم رُهُنا ، فإن شئتم أن تخرجوا فافعلوا ، فقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نُعَيم ، ثم بعث الله عليهم الريحَ فما تركت لهم بناء إلا هدمته ، ولا إناء إلا أكْفَتْهُ ، لا تقر لهم قرارا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يامعشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مُقَام[١] ، لقد هلك الكُرَاعُ والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ماترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم ، وسمعت غطفانُ بما فعلت قريش فانشمروا[٢] راجعين إلى بلادهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا » .

وفى الذيل على أخبار المدينة لابن النجار لصاحبه العراقى عن الكلبى أنه قال : إن الملائكة اتَّبَعُوا الأحزاب حتى بلغوا الرَّوْحاَء يكرون فى أدبارهم ، فهربوا لا يَلْوُون على شىء[٣] ، والله أعلم

ثم كانت غزوة بنى قريظة .

غزوة بنى قريظة

قلت : قال أبو الربيع الكلاعى فى الاكتفاء : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ومعه المسلمون ، فلما كانت الظهر أتاه جبريل — ويقولون فيما ذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى المغتسل عند ما جاءه جبريل ، وهو يُرَجِّلُ رأسه[٤] ، قد رَجَّلَ أحد شقيه ، فجاءه جبريل على فرس عليه اللأمة وأثرُ الغُبَار ، حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبريل : غفر الله لك ! قد وضعتم السلاح ؟ قال : نعم ، قال جبريل : ما وضعت الملائكة

(١) دار مقام : دار إقامة (٢) انشمروا راجعين : مضوا فى جد وسرعة

(٣) لايلوون على شىء : لايلتفتون لشىء ولا يهتمون له

(٤) يرجل رأسه : يسرح شعره وينظفه

السلاح بعدُ ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم ، اه

وفى رواية أخرى أنه قال : انْهَضْ إليهم فلأضعضعنهم ، فأدبر جبريل ومَنْ معه من الملائكة حتى سطع الغُبَار فى زُقَاق بنى غَنْم من الأنصار ، وأصله فى البخارى فى باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب من رواية أنس ، قال : كأنى أنظُر إلى الغُبَار ساطعا فى سكة بنى غَنْم [من] موكب جبريل

ورواه ابنُ سَعْد من طريق حُمَيد بن هلال مُطولا ، لكن ليس فيه أنس ، وأوله : كان بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين بنى قُرَيظة عهد ، فلما جاءت الأحزاب نَقَضوه وظاهروهم ، فلما هزم الله الأحزاب تحصَّنوا ، فجاء جبريل فقال : يارسول الله ، انهض إلى بنى قريظة ، فقال : إن فى أصحابى جَهْداً ، قال : انهض إليهم فلأضعضعنهم ، قال : فأدبر جبريل ومَنْ معه من الملائكة حتى سطع الغبار فى زقاق بنى غنم من الأنصار

قلت : زقاقهم هو عند موضع الجنائز فى شرق المسجد ، كما علم من ذكر منازلهم

وفى رواية : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق والمسلمون ، ووضعوا السلاح ، أتى جبريلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُعْتَجِراً بعمامة[1] من إستبْرَق على بَغْلة عليها قَطيفة من ديباج ، فقال : أوَقد وضعت السلاح يارسول الله ؟ قال : نعم ، فقال : ما وضعت الملائكة السلاح بعدُ ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بلالا فأذَّنَ فى الناس : مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنَّ العصرَ إلا فى بنى قريظة ، وقدم على بن طالب برايته إلى بنى قريظة ، وابتدرَها الناسُ ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة فى رواية ، وفى أخرى خمس عشرة ، وعند ابن سعد عشرة ، حتى أجْهَدهم الحصار ، وقُذِفَ فى قلوبهم الرعبُ ، فعرض

---

(١) «اعتجر فلان بعمامته» الاعتجار : أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يجعل منها شيئا تحت ذقنه .

عليهم رئيسُهم كعبُ بن أسد وقال لهم : إما أن تؤمنوا بمحمد فوالله إنه نبى أو تقتلوا نساءكم وأبناءكم وتخرجوا مستقتلين ليس وراءكم ثَقَل(١) وتبيتوا المسلمين ليلة السبت ، فقالوا : لا نؤمن ولا نستحلّ السبت ، وأى عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا ؟ وأرسلوا إلى أبى لُبَابَة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عَوْف من الأوس ، وكانوا حلفاءهم ، فاستشاروه فى النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى حَلْقه ، يعنى الذبح ، ثم ندم ، فتوجه إلى المسجد النبوى ، وارتبط بسارية تُعْرَف به اليوم حتى تاب الله عليه ، واستشهد من المسلمين خلاد بن سويد من بنى الحارث بن الخزرج ، طَرَحت عليه امرأة من بنى قريظة رحًى فقتلته ، وأمر صلى الله عليه وسلم بقتلها بعد ذلك ، ومات فى الحصار أبو سنان بن محصن الأسدى أخو عُكَّاشة بن محصن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقبرة بنى قريظة التى تدافن فيها المسلمون لما سكنوها ، ولم يُصَبْ غيرُ هذين ، فلما اشتد بهم الحصار أذعنوا(٢) أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الأوس : قد فعلت فى موالى الخزرج — أى بنى قَيْنُقَاع — ما علمت ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك إلى سعد بن مُعَاذ ، وكان سعد قد أصابه سهم فى أَكْحَلِه(٣) يوم الخندق ، فأتاه قومُه ، فحملوه على حمار ، ثم أقبلوا معه يقولون : يا أبا عمرو ، أحْسِنْ فى مَوَاليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتُحْسِن فيهم ، فلما أكثروا قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فجاء سعد فردَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الحكمَ إليه ، فقال سعد : فإنى أحكم فيهم أن يُقتَل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرْقِعَة : سموات ، ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ،

---

(١) الثقل — بالتحريك — متاع المسافر (٢) أذعنوا : خضعوا
(٣) الأكحل : عرق فى وسط الذراع يكثر فصده

فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق وفيهم عدو الله حُيَيُّ بن أَخْطَب ؛ فإنه كان قد عاهد كعب بن أسد لئن رجعت قريش وغطفان لأدخلنّ معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك ، فلما رجعت الأحزاب دخل معه فى حصنه ، فكان ذلك ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل مَنْ أنبَتَ منهم ، ومن لم يُنْبِت استحياه ، ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة كانت طرحت رَحًى على خلاد بن سُوَيْد كما سبق

وعند ابن سعد من مرسل حُمَيد بن هلال : أن سعد بن معاذ حكم أيضا أن يكون دارهم للمهاجرين دون الأنصار ، فلامه الأنصار ، فقال : أحببت أن يستغنوا عن دُورِكم

واختلف فى عدتهم ؛ فعند ابن إسحاق كانوا ستمائة ، وعند ابن عائذ من مرسل قتادة كانوا سبعمائة ، وقال السهيلى : المكثر يقول : إنهم ما بين الثمانمائة إلى السبعمائة ، وفى النسائى وابن ماجة بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل ، وكان الزبير بن باطا القرظى قد مر على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية يوم بُعَاث ، فجاءه ثابت لما قتل بنو قريظة وهو شيخ كبير ، وذكّره بذلك ، ثم ذهب فاستوهبه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوهبه إياه ، فأتاه فقال : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد ، فما يصنع بالحياة ؟ فاستوهب له امرأته وولده ، ، فقال : أهل بيت بالحجاز لا مال لهم ، فما بقاؤهم ؟ فاستوهب له ماله ، فأتاه فأعلمه ، فقال : أىْ ثابت ما فَعلَ فلان وفلان ، وصار يذكر قومه ويَصِفهم ، فقال له : قتلوا ، قال : فإنى أسألك ياثابت بيدى عندك إلاّ ألحقتنى بالقوم ، فوالله مافى العيش بعد هؤلاء من خير ، فقدّمه ثابت فضرب عنقه

ثم قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ، وأسْهَمَ للخيل ، فكان أول فَىْء وقعت فيه السُّهمان(١) ، وأخرج منه

---

(١) السهمان — بضم فسكون — جمع سهم ، وهو النصيب ، ويجمع السهم أيضا على أسهم وسهام

الخمس ، واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بنى عمرو بن قُرَيظة ، فكانت عنده حتى توفى ، وكان يحرص عليها أن يتزوجها ، فقالت : تتركنى فى ملكك فهو أحق على وعليك ، فتركها ، وقد كانت حين سَبَاها كرهت الإسلام ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك من أمرها ، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال : إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرنى بإسلام ريحانة ، فكان كذلك ، وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم أعتقها وتزوجها ، وإنها ماتت فى حياته مَرْجِعَه من حجة الوَدَاع ، وهذا الأثبت عند الواقدى ، و بعضهم يقول : هى من بنى النضير

ولما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جَرْحُ سعد بن معاذ فمات شهيدا

وفى البخارى ما يقتضى أن قريظة كانوا قد حاربوا قبل ذلك مع بنى النضير ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم منَّ عليهم ، ولم أر التصريح بذلك ، ولم يتعرض له الحافظ ابن حجر فى شرحه ، وقد قدمنا فى بنى النضير من رواية ابن مردويه ما يشهد له ، ولفظ البخارى : عن ابن عمر قال : حاربت النضير وقريظة ، فأجلى بنى النضير ، وأقر قريظة ومنّ عليهم ، حتى حاربت قريظة ، فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأموالهم وأولادهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فأمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلَّهم : بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكل يهودى بالمدينة ، اه

ورواه أبو داود بنحوه ، إلا أنه قال : حتى حاربت قريظة بعد ذلك ، يعنى بعد محاربتهم الأولى وتقريرهم ، ويؤخذ من ذلك أن إجلاء من بقى من طوائف اليهود بالمدينة كان بعد قَتْل قريظة .

وفى البخارى أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن فى المسجد خرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انطلقوا إلى يهود ، فخرجنا حتى إذا جئنا بيت المِدْرَاس [1] قال : أسلموا تسلموا ، واعلموا أن الأرض لله ولرسوله وأنى

(١) بيت المدراس : البيت الذى يتدارس فيه اليهود توراتهم

أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ولرسوله ، وهو مقتضٍ لأن ذلك كان بعد خيبر ؛ لأن إسلام أبي هريرة بها في السنة السابعة ، والله أعلم

ثم كانت سرية عبيد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلي ثم اللحياني بِعُرَنَة[1] ، وفيها سقط رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فرسه[2] فجحش ، وفيها دَفَّتْ دَافَّةُ العرب[3] ، فنهى عن ادِّخَار لحوم الأضاحي فوق ثلاث .

قلت : وتزوج زينبَ بنت جَحْش ، وهي بنت عمته أميمة ، وقيل : في الثالثة ، وبسببها نزلت آية الحجاب ، وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، والله أعلم .

السنة السادسة من الهجرة

السنة السادسة — في أولها أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثمامة بن أثال أسيراً ، ثم كسفت الشمس ثانية بعد الكسوف الذي كان يوم مات ابنه إبراهيم .

قلت : لعل في النسخة خللا لما سنذكره من ولادة إبراهيم في الثامنة ووفاته في العاشرة ، فالكسوف في السادسة هو الكسوف الأول ، وفيها نزل حكم الظِّهار ، والله أعلم .

وفيها قتل المشركون سرية محمد بن مسلمة فلم يُفلِتْ منهم غيره ، وكانوا عشرة ، ثم كانت سرية علي بن أبي طالب إلى فَدَكَ في مائة رجال ، ثم كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دُومَة الجَنْدَل ، فظهر عليهم ، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تُمَاضر بنت الإصبغ بن عمرو الكلبي وهو ملكهم ، ثم أَجْدَبَ الناس فاستسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان في موضع المصلى فَسُقُوا ، ثم أرسل زيد بن حارثة في سرية ، فسبي سلمةُ بن الأكوع في تلك السرية بنت مالك بن حذيفة ، ثم كانت الحُدَيْبِيَة ، ثم أغار عُيَينة بن حِصْنٍ[4] الفَزَارى على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستنقذها .

---

(١) عرنة — بضم العين وفتح الراء — موضع عند الموقف بعرفات

(٢) في المطبوعات « عن فرسه فجحش » تطبيع ، والثابت في السنة « فجحش شقه » أي انخدش جلده (٣) دفت دافة : أي ورد قوم من الأعراب المدينة

(٤) في المطبوعات « عيينة بن حصين » تطبيع

قلت : قد قدمنا فى حدود الحرم أن لقاحه صلى الله عليه وسلم كانت ترعى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عُيَينة يوم ذى قَرَد[1] ، وهو الموضع الذى كان فيه القتال ، سميت الغزوة به ، وتسمى أيضاً غزوة الغابة .

غزوة ذى قرد

قال ابن إسحاق : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى لَحْيَان وكان فى شعبان سنة ست ، لم يُقِمْ إلا ليالى قلائل حتى أغار عُيَينة فى خيل من غَطَفَان على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامرأته ، فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة فى اللقاح ، وكان أول من نَذِرَ بهم سَلَمَة ابن الأكوع ، غدا يريد الغابة مُتَوشِّحا قوسَه ونبله حتى إذا علا ثَنِيَّة الوَدَاع نظر إلى بعض خيولهم ، فأشرف فى ناحية سَلْع ، ثم صرخ : وَاصَبَاحَاه ، ثم خرج يشتدُّ فى آثار القوم حتى لحقهم ، فجعل يردهم بالنبل ويقول إذا رمى : خُذها وأنا ابنُ الأكوع ، واليومُ يومُ الرُّضَّع ، فإذا وجهت الخيل نحوه هرب، ثم عارضهم ، وهكذا ، وبلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صياحُه ، فصرخ بالمدينة : الفزع ، الفزع ، فترامت الخيل إليه ، فلما اجتمعوا أمَّر عليهم سعد بن زيد الأشهلى ، وقال : اخْرُجْ فى طلب القوم حتى ألحقَكَ فى الناس ، فقتل أبو قتادة رضى الله عنه حبيبَ بن عُيينة بن حصن وغشاه برده ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين ، فإذا حبيبٌ مُسَجًّى ببرد أبى قتادة ولكنه قتيل ، فظنوه هو ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس بأبى قَتَادة ولكنه قتيل له ، وأدركَ عُكَاشَةُ بن محصن رضى الله عنه أوبارا وابنَه عمر بن أوبار ، وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح ، فقتلهما جميعاً ، واستنقذوا بعضَ اللقاح ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالخيل من ذى قَرَد ، وتلاحق به الناس ، وأقام عليه يوما وليلة ، وقال له سلمة : يا رسولَ الله لو سرَّحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السَّرْح وأخذت بأعناق القوم ، فقال له صلى الله عليه وسلم

---

(١) ذو قرد — بفتح القاف والراء جميعا — ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر ، ويقال «ذو القرد» بضم القاف وفتح الراء — قاله ابن الأثير (٣/ ٢٤٠)

إنهم ليقرون فى غَطفان ، فقسم صلى الله عليه وسلم فى أصحابه فى كل مائة جزورا، وأقاموا عليها ، ثم رجع ، وأفلتت امرأة الغفارى على ناقة من اللقاح حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته الخبر ، وقالت : إنى نَذَرْتُ لله أن أنحرها إن أنجانى اللهُ عليها ، فتبسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : بئس ما جزيتيها أن حَمَلكِ الله عليها ونجَّاكِ بها ثم تنحرينها ، إنه لا نَذرَ فى معصيةالله ولا فيما لا تملكين ، هذه رواية ابن إسحاق ، وقد ذكر فيها قتل اثنين من المسلمين .

وخرّج مسلم القصة عن سلمة مطولة ومختصرة ، وخالف ما ذكره ابن إسحاق فى مواضع : منها أنها كانت بعد انصرافه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وجعلها ابن إسحاق قبلها ، ومنها : أن فيه أن اللقاح كانت ترعى بذى قَرَد ، وكذا هو فى البخارى ، وقال ابن إسحاق : بالغابة ، وكذا هو فى حديث سلمة الطويل ، ولهذا قال عياض : إن الأول غلط ، ويمكن الجمع بأنها كانت ترعى تارة هنا وتارة هناك ، ومنها : أنه قال فيه : خرجت قبل أن يؤذن بالأولى فلقينى غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال : أخِذتْ لقاحُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصرخت ثلاث صرخات : يا صباحاه ، فأسمعت ما بين لابتى المدينة ، ثم اندفعت على وجهى حتى أدركتهم وقد أخذوا بذى قَرَد يسقون من الماء ، وفى رواية لمسلم ما يقتضى أن سَلَمة كان مع السَّرْح [١] لما أُغِير عليه ، وأنه قام على أكَمَة [٢] وصاح : ياصباحاه ، ثلاثاً ، وهذا يرجح أن السرح كان بالغابة ، ويبعد كونه بذى قرد ، ولو كان بذى قَرَدٍ لما أمكنه لحوقهم ، ومنها : أن فيه أنه استنقذ سَرْح رسول الله صلى الله عليه وسلم بجملته ، ومنها : أنه قال فيه : فرجعنا إلى المدينة ، فوالله ما لبثنا بها إلا ثلاثَ ليال حتى خرجنا إلى

(١) السرح — بالفتح — الماشية ، ويقال لها أيضا : سارح ، وسارحة

(٢) الأكمة — بفتحات — الرابية ، وهى المكان المرتفع

خَيْبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال القرطبي : لا يختلف أهل السِّيَر أن غزوة ذى قَرَد كانت قبل الحديبية ، انتهى .

وما فى الصحيح من التاريخ لها أصح مما فى السير ، ويمكن الجمع بتكرر الواقعة ، ويؤيده أن الحاكم ذَكَرَ فى الإكليل أن الخروج إلى ذى قَرَد تكرر ؛ ففى الأولى خرج إليها زيد بن حارثة قبل أُحُدٍ ، وفى الثانية خرج إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى ربيع الآخر سنة خمس ، والثالثة هى المختلف فيها ، انتهى . والله أعلم .

ثم كانت قصة العُرَنيين .

قصة العرنيين

قلت :[1] وذلك أن ثمانية منهم ، وفى رواية من عُكْلٍ ، قدموا فأسلموا واجْتَوَوُا المدينة[1] ، وقالوا : إنا كنا أهل ضَرْع ولم نكن أهل ريف ، فبعثهم النبى صلى الله عليه وسلم إلى لقاحه ، وفى رواية « إبِلِ الصدقة » وكأنهما كانا معاً ، فصح الإخبار بالبعث لكل منهما ، ليشربوا من أبوالها وألبانها ، فلما صحوا قتلوا الراعى واستاقوا الإبل ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبهم كُرْزَ بن خالد الفهرى فى عشرين ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسَمْل أعينهم وطَرْحهم فى الحَرَّة يستسقون فلا يُسْقَوْن ، حتى ماتوا ، هذا محصل ما فى الصحيح ، وذكر أهل السير أن اللقاح كانت ترعى ناحية الجَمَّاوات ، وفى رواية بذى الجدر غربى جبل عَيْر على ستة أميال من المدينة ، وذكر ابن سعد عن ابن عقبة أن أمير الخيل يومئذ سعيدُ بن زيد أحدُ العَشَرَة ، فأدركوهم فربطوهم وأردفوهم على خيلهم ، ورَدُّوا الإبل ، ولم يفقدوا منها إلا لِقْحَةً واحدة من لقاحه صلى الله عليه وسلم تدعى الحنا ، فسأل عنها ، فقيل : نحروها ، فلما دخلوا بهم المدينة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة .

---

(١) اجتووا المدينة : أى أصابهم الجوى ، وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول ، والمراد أنه لم يوافقهم هواء المدينة واستوخموها .

قال بعضهم : وذلك مرجعه من غزوة ذى قَرَدٍ، فخرجوا بهم، نحوه ، فلقوه بالزغابة ، فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمِلَتْ أعينهم وصلبوا هناك ، والله أعلم .

ثم غزا بنى المصطلق ، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى انصرافه على المُرَيْسِيع . وفيها كانت قصة الإفك .

غزوة بنى المصطلق (المريسيع)

قلت : قد قدم غزوة المريسيع فى السنة الخامسة ، وذكر أن فيها أنزلت آية التيمم ، وقد اقتضى كلامه أن المُرَيْسيع وقعت مرتين : فى الأولى التيمم ، وفى الثانية الإفك ، وفيه جمع بين ما ذكره كثير من أهل السير من أن المريسيع سنة خمس وبين ما نقله البخارى عن ابن إسحاق أنها سنة ست ، لكن قد ثبت فى الصحيح أن سعد بن مُعَاذ تنازع هو وسعد بن عُبَادة فى أصحاب الإفك ؛ فلو كانت المريسيع التى هى غَزَاة بنى المصطلق سنة ست مع كون الإفك كان فيها لكان ما وقع فى الصحيح من ذكر سعد بن معاذ غلطا ؛ لأن سعد بن معاذ مات أيام قُرَيْظة ، وكانت سنة خمس ، وقيل : أربع ؛ فالأشبه أن بنى المُصْطَلق والمُرَيْسيع واحد ، كلاهما فى سنة خمس .

وقد ذكر ابن عبد البر فى التمهيد أن التيمم كان فى غزاة بنى المصطلق ،وجزم به فى الاستذكار ، وسبقه إليه ابن سعد وابن حِبَّان .

وفى البخارى « غزوة بنى المصطلق ، وهى غزوة المريسيع » وفى الطبرانى حديث : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة المريسيع غزوة بنى المصطلق ، وبنو المصطلق بطن من خُزَاعة ، وكان رئيسهم الحارث بن أبى ضرار ، وكان معه عليه الصلاة والسلام بَشَر كثير ، خرج بهم إليهم لما بلغه أنهم يَجْمَعون له ، وكان معه ثلاثون فرسا وأم سَلَمة وعائشة ، فهزمهم وأسر من الكفار جمعاً عظيما ، وتزوج جُوَيْرِية بنت الحارث رئيسهم ، فأعتق الناس ما بأيديهم من الأسرى لمكانها ، وفى هذه الغزاة قال ابنُ أبىّ « لئن رَجَعْنَا (١) إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

منها الأذل» وقال « لا تُنفِقُوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا[١] » وذلك أن ابن أبيّ خرج فى عصابة من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا أن الله قد نَصَرَ رسولَه وأصحابه أظهروا قولا سيئاً ، واقتتل رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فظهر عليه المهاجرى ، فقال ذلك ابن أبيّ لقومه ، فأخبر زيد بن أرقم بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فأجهد ابن أبيّ يمينه ما فعل ، فحزن زيد بن أرقم لذلك ، فأنزل الله تصديقه ، واستأذن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ النبى صلى الله عليه وسلم فى قتل أبيه فيما رواه عروة بن الزبير ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتل أباك ، ولما كان بينهم و بين المدينة يوم تعجل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ حتى أناخ على مَجَامع طرق المدينة حتى جاء أبوه فقال له ابنه : لا والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلم اليوم من الأعز [و] من الأذل، فقال له : أنت من بين الناس ؟ فقال : نعم ، أنا من بين الناس ، فانصرف عبدُ الله حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتكى إليه ما صنع ابنُهُ ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنه « أن خَلِّ عنه » فدخل المدينة ، رواه ابن شبة .

وفى هذه السنة فرض الحج على الصحيح ، كما سيأتى، والله أعلم .

السنة السابعة من الهجرة

السنة السابعة — فيها قصة أبى سفيان مع هرقل فى الشام ، وفى أولها كَتَبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك و بعث إليهم رسله ، ثم كانت خيبر .

قلت : واستصفى صَفِيَّةَ بنت حُيَيٍّ بن أخطب من المغنم ، فأعتقها وتزوجها ، وجاءته مارية القبطية هدية و بغلته دلدُل ، وأسلم أبو هريرة ، وسَمَّتْه صلى الله عليه وسلم زينب بنت الحارث زوجة سَلاَّم بن مشكم ، ثم صار النبى صلى الله عليه وسلم إلى وادى القرى ، فحاصر أهله ليالى وأصاب غلامَهُ مدعم سَهمٌ غرب[٢] فقتله ،

(١) من سورة المنافقين من الآية ٧

(٢) سهم غرب : لا يعرف راميه ، ويقال بالإضافة وبالوصف ، ووقع فى المطبوعات « وأصاب غلامه مدعم بينهم غرب » تطبيع

وفى رجوعه إلى المدينة كان النوم عن صلاة الصبح ، وروى بعضهم أنه كان فى الرجوع من غزوة تبوك ، وقال الواقدى : وفى المحرم منهـا جاء رؤساء اليهود إلى لَبيد بن الأعصم — وكان حليفا فى بنى زريق ، وكان ساحرا — فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسْحَرُنا ، وقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا ، ونحن نجعل لك جُعْلاً على أن تسحره لنا سحرا ينـكَؤُه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير ، وذكر قصة سحره ، وفى رواية عن الزهرى بإسناد صحيح أن المدة التى مكث النبى صلى الله عليه وسلم فيها فى السِّحْر سنة ، وفى رواية أربعين ليلة ، والله أعلم .

وفيها جاءته أم حَبيبة بنت أبى سفيان ، وتزوج بها ، ثم كانت عُمْرة القَضِيَّة وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية .

السنة الثامنة من الهجرة

السنة الثـامنة — فيها كانت مُـؤْتة ، ثم كان الفتح ، ثم غـزوة هوازن ، ثم غزوة الطائف ، وأمر على مكة عتاب بن أسيد ، وأسلم مالك بن عوف النَّضْرِى ، وتألف المؤلفة من غنائم هوازن ، ثم انصرف إلى المدينـة فى آخر ذى القعدة .

قلت : وفى هذه السنة وُلد ابنهُ إبراهيم من مارية القبطية ، وحلق رأسه يوم سابعه ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وعَقَّ عنه بكبشين (١) ، ومات فى عاشر ربيع الأول من السنة العاشرة وسنه عام ونصف ، وقيل : عام وثلث ، وفى الثامنة أيضا توفيت ابنته زينب ، وهى أكبر أولاده ، وكانت زَوْجَ أبى العـاص بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس الذى أثنى عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى صهارته ، تزوجها قبل البعثة ، ولما قدم عليها مسلما ردَّها النبى صلى الله عليه وسلم بالنكاح الأول على الصحيح لقدومه عقب تحريم المسلمات على المشركين ، وذلك بعـد صلح الحديبية ، والله أعلم .

السنة التاسعة من الهجرة

السنة التاسعة — فيها هَجَرَ نساءه شهرا ، ثم تتابعت الوفود ، ثم فرض الحج.

قلت : قد اختلف فى وقته ، فقيل : قبل الهجرة ، وهو غريب ، والمشهور

(١) العقيقة : مايذبح يوم سابع الغلام ، والسنة أن يذبح عن الجارية شاة وعن الغلام شاتان

بعدها ، فقيل : سنة خمس ، وجزم به الرافعى فى موضع ، وقيل : ست ، وصححه الرافعى فى موضع آخر ، وكذا النووى ، وقيل : سبع ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع ، وصححه عياض ، والله أعلم .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج أبا بكر رضى الله عنه ، ثم نزلت براءة ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه ؛ لينبذ إلى الناس عهدهم .

قلت : وفيها فى شهر رجب كانت غزوة تَبُوكَ ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم على ما ذكره ابن إسحاق ، والله أعلم .

السنة العاشرة من الهجرة

السنة العاشرة — فى أولها قدم عَدِىُّ بن حاتم بوفد طىء ، ثم قدم وفد بنى حنيفة ، ثم وفد غسان ، ثم وفد نَجْرَان الذين كانت فيهم قصة المباهلة ، ثم جاء جبريل يعلم الناس دينهم ، ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوكا .

قلت : وهو مخالف لما قدمناه عن ابن إسحاق من كونها فى التاسعة ، والله أعلم .

ثم أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بالحج فى حَجَّة الوداع ورجع ، ثم مرض فى صفر لعشر بقين منه ، وتوفى صلى الله عليه وسلم لاثنتى عشرة ليلة خَلَتْ من ربيع الأول يوم الاثنين ، انتهى ما ذكره رزين عن أبى حاتم .

قلت : وشهر ربيع هذا من الحادية عشرة ، وكان ابتداء مرضه فى بيت مَيْمُونة ، وقيل : زينب بنت جَحْش ، وقيل : رَيحانة ، وذكر الخطابى أن ابتداءه يوم الاثنين ، وقيل : السبت ، وقيل : الأربعاء ، وحكى فى الروضة قولين فى مدته ، فقيل : أربعة عشر ، وهو الذى صَدَّر به ، وقيل : ثلاثة عشر ، وعليه الأكثر ، وقيل : عشرة ، وبه جزم سليمان التيمى ، ومقتضى ما تقدم أن المدة تزيد على عشرين يوما ، ولم أر مَنْ صرح به ، ولا خلاف فى أن الوفاة كانت يوم الاثنين ، وكونه من ربيع الأول ، كاد يكون إجماعا ، لكن فى حديث ابن مسعود عند

البزار : فى حادى عشر رمضان ، وكونها فى ثانى عشر ربيع الأول هو ما عليه الجمهور ، وذهب جماعة إلى أنها فى أوله ، ورواه يحيى عن ابن شهاب ، وقال : حين زاغت الشمس ، وعن أسماء بنت أبى بكر أنه توفى للنصف من ربيع الأول ، وقيل : ثانيه ، ورجحه السهيلى ، واستشكل قول الجمهور بأنهم اتفقوا على أن الوقفة فى حجة الوداع كانت الجمعة ، فأول ذى الحجة الخميس ، فمهما فرضت الشهور الثلاثة تَوَامّ أو نواقص أو بعضها ، لم يصح كون الوفاة يوم الاثنين مع كونه ثانى عشر ربيع الأول ، وأجاب البارزى باحتمال وقوع الثلاثة كوامل ، واختلاف أهل مكة والمدينة فى هلال ذى الحجة : فرآه أهل مكة ليلة الخميس ، ولم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة ، فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة ، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها ، فكان أول ذى الحجة الجمعة ، وهو وما بعده كوامل ، فأول ربيع الأول الخميس ، وثانى عشره الاثنين ، ولا يخفى بُعد هذا الجواب ، وقد جزم سليمان التيمى أحَدُ الثقات بأن بدء مرضه صلى الله عليه وسلم كان يوم السبت الثانى والعشرين من صفر ، ومات يوم الاثنين لليلتين خَلَتَا من ربيع الأول ، ومنه يعلم أن صفر كان ناقصا ، ولا يمكن أن يكون أول صفر السبت إلا إن كان ذو الحجة والمحرم ناقصين ؛ فيلزم عليه نقص ثلاثة أشهر متوالية ، وأما على قول من قال : « أول ربيع الأول » ؛ فيكون اثنان ناقصين وواحد كاملا ، وكذا على قول من قال : « للنصف منه »

وقال البدر ابن جماعة : يحمل قول الجمهور لاثنتى عشرة ليلة خلت : أى بأيامها ، فيكون موته فى اليوم الثالث عشر ، وتفرض الشهور كوامل ؛ فيصح قول الجمهور ، ويعكر عليه ما فيه من مخالفة أهل اللسان فى قولهم « لاثنتى عشرة » فإنهم لا يفهمون منها إلا مضى الليالى ، وأن ما أرخ بذلك يكون واقعا فى الثانى عشر .

قال الحافظ ابن حجر : فالمعتمد قول أبى مخنف أنه فى ثانى ربيع الأول ، وكأن

سبب غلط غيره تغيير ذلك إلى الثانى عشر ، وتبع بعضهم بعضا فى الوهم .

وغسله صلى الله عليه وسلم على بوصيته ، والعباسُ وابنُه الفضلُ يعينانِه ، وقُثَم وأُسامَة وشقران يَصُبُّون الماء ، وكفن فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية ليس فيها قميص ولا عمامة — وسحول : بلدة باليمن — وعن جعفر بن محمد عن أبيه : كفن فى ثوبين صحاريين مما يصنع بعمان من كرُسف[1] وبرد حِبَرَة ، وفى الإكليل ورواه يحيى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : كفن فى سبعة أثواب ، وصُلى عليه فى حُجْرته بغير إمام ؛ ونقل الأقشهرى عن الحسين بن محمد الصدفى أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه فى وسط الروضة من مسجده ، ثم حمل إلى بيته ودفن فيه .

قلت : هذا إنما هو معروف فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفى مستدرك الحاكم ومُسْنَد البزار بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُصَلُّوا عليه أرسالا بغير إمام ، ودفن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء ، وقيل : يومها ، وقيل : يوم الثلاثاء بعد أن عرف الموت فى أظفاره ، وقال قائلون : ندفنه بمسجده ، وآخرون بالبقيع ، ثم اتفقوا على دفنه ببيته ، فحمل بالفِرَاش ، وحُفِر له فى موضع الفراش ، وروى يحيى عن ابن أبى مليكة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما هلك نبى إلا دفن حيث تقبض روحه ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه بإخراج المشركين من جزيرة العرب كما فى الصحيح من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم أمر بذلك ، ولفظه: وأمرهم بثلاث، فقال: « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » والثالثة إما سكت عنها ، وإما أن قالها فنسيتها . قال سفيان : هذا — أى قوله والثالثة إلى آخره — من قول سليمان : أى شيخ سفيان ، قال الداوودى : الثالثة هى الوصية بالقرآن ، وقال المهلب : بل هى تجهيز جيش أسامة ، وقوّاه ابن بطال بأن الصحابة لما اختلفوا على

(١) الكرسف — بوزن قنفذ — القطن

أبي بكر في تنفيذ جيش أسامة ، قال لهم أبو بكر : إن النبي صلى الله عليه وسلم عهد بذلك عند موته .

وقال عياض : يحتمل أن يكون[1] قوله : « لا تتخذوا قبرى وَثَنا » فإنها ثبتت في الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود ، ويحتمل أن يكون ماوقع في حديث أنس أنها قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم »

والذى أجْلى المشركين من جزيرة العرب هو عمر رضى الله عنه ؛ ففى الصحيح من حديث ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهودَ والنصارى من أرض الحجاز ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها ، وكانت الأرض لما ظهر عليها لله وللرسول وللمؤمنين ، فسأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقركم على ذلك ما شئنا » فأقرُّوا حتى أجْلاهم عمر في إمارته إلى تيماء وأريحاء .

وفى الصحيح أيضاً عن ابن عمر : لما فدع[2] أهل خيبر عبد الله بن عمر قام عمر خطيباً ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عامَلَ يهود خيبر على أموالهم وقال : نُقِرِكم على ما أقركم الله ، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك ، فعُدِيَ عليه من الليل ، ففُدِعَت يداه ورجلاه ، وليس لنا هناك عدو غيرهم ، هم عدونا وتهمتنا ، وقد رأيت إجلاءهم ، فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى الحُقَيق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أتخرجنا وقد أقرنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وعاملنَا على الأموال ، وشرط ذلك لنا ، فقال عمر : أظننت أنى نسيتُ قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدُو بك قَلوصُك ليلة بعد ليلة » فقال : كانت هذه هزيلة من أبي القاسم صلى الله عليه

---

(١) أى يحتمل أن الثالثة هى قوله « لاتتخذوا قبرى وثنا »

(٢) الفدع — بالتحريك — زيغ بين القدم وبين عظم الساق ، وكذلك فى اليد ، وهو أن تزول المفاصل عن أماكنها

وسـلم ، فقال : كذبت يا عدو الله ، فأجلاهم عمر ، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعُرُوضا من أقتاب وحبال وغير ذلك .

وظاهر هذا أن عمر رضى الله عنه إنما استند فى إجلائهم لهذه القصة .

وروى ابن زبالة عن مالك عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان فى جزيرة العرب » .

قال ابن شهاب : ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلَجُ[1] واليقين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان فى جزيرة العرب » فأجلى يهود خيبر ، قال مالك : وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود نَجْرَان وفَدَك .

وروى البيهقى من حديث عمر مرفوعا «لئن عِشْتُ إلى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب» وخرجه مسلم بدون «لئن عشت» وفى مسند أحمد والبيهقى عن أبى عبيدة قال : كان آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب » الحديث .

وروى أحمد بسند جيد عن عائشة قالت : آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « لا يترك بجزيرة العرب دينان » .

قال الجُوَيْنِى والقاضى حسين من أصحابنا : الجزيرة هى الحجاز ، والمشهور أن الحجاز بعض الجزيرة .

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم لم يتفرغ أبو بكر رضى الله عنه لإخراجهم ، فأجلاهم عمر رضى الله عنه وهم زُهَاء أربعين ألفاً . ولم ينقل أن أحداً من الخلفاء أجلاهم من اليمن مع أنها من الجزيرة ؛ فدل على أن المراد الحجاز فقط .

وحكى أن بعض اليهود أظهر كتابا ، وادعى أنه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصحابة ؛ فعرض على أبى بكر الخطيب البغدادى فقال : هذا مُزَوَّر ؛ لأن فيه شهادة معاوية ، وهو أسـلم عام الفتح ، فلم يحضر ما جرى ، وفيه شهادة سعد بن مُعَاذ ،وقد مات فى بنى قُرَيظة بسهم أصابه فى الخندق ، وذلك قبل خيبر بسنتين ، وذلك من فوائد علم التاريخ ، والله أعلم .

(١) الثلج الاطمئنان ، وفعله من بابى فرح وخرج

الباب الرابع

فيما يتعلق بأمور مسجدها الأعظم النبوى ، والحُجُرات المنيفات ، وما كان مُطيفاً به من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلا .

الفصل الأول

في أخذه صلى الله عليه وسلم لموضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه

تقدم أن ناقته صلى الله عليه وسلم لما بركت عند باب المسجد قال صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » وفى كتاب يحيى عن الزهرى أنها بركتْ عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبَداً[1] لغلامين يتيمين فى حِجْر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت راحلته : هذا إن شاء الله المنزلُ ، وقال : اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ، قاله أربع مرات .

وروى رزين نحوه عن أنس ، ولفظه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » ثم أخذ فى النزول فقال « ربِّ أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ولم يقل قاله أربعاً .

وفى كتاب يحيى عن الزهرى أيضا أن المِرْبَد[1] كان لسَهل وسُهيل ، وأنهما كانا فى حجر أبى أمامة أسعد بن زُرَارة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال حين بركت به راحلته « هذا المنزل إن شاء الله » ثم دعا الغلامين فساوَمَهما بالمربد[1] ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نَهَبُه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله هِبَةً حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

---

(١) المربد — بزنة منبر — الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم ، وأصل اشتقاقه من « ربد بالمكان » إذا أقام فيه ، أو من « ربده » أى حبسه .

قال يحيى تبعاً لابن زبالة : وقال بعضهم : كان لغلامين يتيمين لأبي أيوب هماسهل وسهيل ابناعمرو ، فطلب المربد من أبي أيوب ، فقال أبو أيوب : يارسول الله المربد ليتيمين ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، فأعطاه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتخذه مسجداً . وعند ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لمن هـذا ؟ يعني المربد ، فقال له معاذ بن عفراء : هو لسهل وسهيل ابني عمرو يتيمان لى ، وسأرضيهما منـه ، فاتخذه مسجدا ، فأمر به أن يبنى . ويؤيده أنه وقع فى مرسل ابن سيرين عند أبي عبيد فى الغريب أنهما كانا فى حِجْر مُعَاذ بن عفراء . والذى فى صحيح البخارى أنهما كانا فى حجر أسعد بن زرارة ، كذا هو فى رواية الجميع إلا أبا ذر ، ففى روايته سعد بإسقاط الألف ، ورواية الجماعة هى الوجه ؛ إذ كان أسعد من السابقين إلى الإسلام ، وهو المكنى بأبى أمامة ، وأما أخوه سعد فتأخر إسلامه .

وقد يجمع باشتراك من ذكر فى كونهما كانا فى حجورهم ، أو بانتقال ذلك بعد أسعد إلى من ذكر واحداً بعد واحد ، سيما وقد روى ابن زبالة عن ابن أبى فديك قال : سمعت بعض أهل العلم يقولون : إن أسعدا توفى قبل أن يبنى المسجد ، فابتاعه النبي صلى الله عليه وسلم من ولى سهل وسهيل .

وروى ابن زبالة فى خبر : كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لسهل وسهيل ابنى أبى عمرو من بنى غنم ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبناه مسجدا .

وفى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى ملأ بنى النجار بسبب موضع المسجد ، فقال : يا بنى النجار ، ثامِنُونى(١) بحائطكم هذا ، فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . وعند الإسماعيلى « إلا من الله » وهو ظاهر فى أنهم لم يأخذوا له ثمنا .

وفى رواية فى باب الهجرة من الصحيح بعد ذكر تأسيس مسجد قُبَاء : ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته ، فسار يمشى معه الناس حتى بركت

(١) ثامنونى : ساومونى فى ثمنه ، والحائط : الحديقة

عند مسجد الرسول بالمدينة ، وهو يصلى فيه يومئذ رجالٌ من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل[1] ، ثم دعا الغلامين فساوَمَهما بالمربد ليتخذه مسجدا ، فقالا : بل نَهَبُه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجدا .

ووقع فى رواية ابن عُيَينة : فكلم عمهما — أى الذى كانا فى حجره — أن يبتاعه منهما ، فطلبه منهما فقالا : ما تصنع به ؟ فلم يجد بداً من أن يصدقهما ، فأخبرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراده ، فقالا : نحن نعطيه إياه ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبنَاه ، أخرجه الجندى . وطريق الجمع بين ذلك — كما أشار إليه الحافظ ابن حجر — أنهم لما قالوا لا نطلب ثمنه إلا إلى الله سأل عن من يختص بملكه منهم ، فعينوا له الغلامين ، فابتاعه منهما أو من وليهما أن كانا غير بالغين . وحينئذ فيحتمل أن الذين قالوا « لا نطلب ثمنه إلا إلى الله » تحملوا عنه للغلامين بالثمن ، فقد نقل ابن عقبة أن أسعد عوّضَ الغلامين عنه نخلا له فى بنى بَيَاضة . وتقدم أن أبا أيوب قال : هو ليتيمين لى ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، وكذلك معاذ بن عفراء ، فيكون ذلك بعد الشراء . ويحتمل أن كلا من أسعد وأبى أيوب وابن عفراء أرضى اليتيمين بشىء ، فنسب ذلك لكل منهم . وقد روى أن اليتيمين امتنعا من قبول عوض ، فيحمل ذلك على بَدْء الأمر ، لكن يشكل على هذا ما نقل عن التاريخ الكبير لابن سعد أن الواقدى قال : إنه صلى الله عليه وسلم اشتراه من ابنى عفراء بعشرة دنانير ذهباً ، دفعها أبو بكر الصديق ، وقد يقال : إن الشراء وقع من ابنى عفراء لأنهما كانا وليين لليتيمين ، ورغب أبو بكر فى الخير كما رغب فيه أسعد ، وأبو أمامة ومعاذ بن عفراء ، فدفع لهم أبو بكر العشرة ، ودفع كل من أولئك ما تقدم ، ولم يقبله صلى الله عليه وسلم بلا

---

(١) المنزل : موضع النزول

ثمن أولا لكونه لليتيمين ، لكن ابن سيد الناس نقل عن البلاذرى أنه قال عقب كلامه الآتى : فعرض — يعنى أسعد — على النبى صلى الله عليه وسلم أن يأخذها ويغرم لليتيمين ثمنها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وابتاعها منه بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر ، انتهى ؛ فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أخذ أولا بعضَ المربد ، ثم أخذ بعضاً آخر ؛ لما سيأتى من أنه زاد فيه مرة أخرى ؛ فليست القصة متحدة . ورأيت بخط الأقشهرى فى كلام نقله عن أبى جعفر الداوودى عن عبد الله بن نافع صاحب مالك أن المسجد كان مربداً لابنى عفراء .

قلت : يحتمل نسبته إليهما لولايتهما على اليتيمين ، أو أن لليتيمين أمًّا تسمى عفراء، وأما ابنا عفراء المشهوران فهما معاذ ومُعَوذ ابنا الحارث ، والذى فى الصحيح من تسمية الغلامين سهل وسهيل أصح ، والله أعلم .

وفى كتاب يحيى ما يقتضى أن أسعد بن زُرَارة كان قد بنى بهذا المربد مسجداً قبل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : حدثنا بكر ثنا محمد ابن عمر ثنا معاذ بن محمد عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرَارة قال : سمعت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول : أخبرتنى النوار بنت مالك أم زيد ابن ثابت أنها رأت أسعد بن زُرَارة قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس الصلوات الخمس ، ويجمع بهم فى مسجد بَنَاه فى مربد سهل وسهيل ابنى رافع بن أبى عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، قالت : فأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم صلى بهم فى ذلك المسجد وبناه ، فهو مسجده اليوم .

ونقل ابن سيد الناس عن ابن إسحاق أن الناقة بركَتْ على باب مسجده صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ ليتيمين من بنى مالك بن النجار فى حجر مُعَاذ بن عَفراء سهل وسهيل ابنى عمرو ، ثم قال : وذكر أحمد بن يحيى البلاذرِى ، قال :

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أبي أيوب ، ووهبت له الأنصار كل فضل كان فى خططها ، وقالوا : يا نبي الله إن شئت فخذ منازلنا ، فقال لهم خيراً ، قالوا: وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة يُجَمِّعُ بمن يليه فى مسجد له ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ، ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضاً متصلة بذلك المسجد كانت فى يده ليتيمين فى حجره يقال لهما سهل وسهيل ابنا رافع بن أبي عمرو ابن عائذ بن ثعلبة بن غنم ، كذا نسبهما البلاذرى ، وهو يخالف ما سبق عن ابن إسحاق وغيره ، والأول أشهر ، انتهى ، وتشهيره للأول — وهو كون الغلامين ابنى عمرو — تقدم ما يقتضيه ، لكن تقدم أيضاً ما يقتضى الثانى ، وهو الأرجح فقدم صرح ابن حزم فى الجمهرة ، ورواه ابن زبالة عن ابن شهاب ، وكذا ذكره ابن عبدالبر . وذكر السهيلى فيما نقله عنه الذهبي مايحصل به الجمع ويرفع الخلاف إلا أن فيه بعض مخالفة لما تقدم ، فقال : سهل بن عمرو الأنصارى النجارى أخو سهيل صاحب المربد ، وكانا فى حجر أسعد بن زرارة ، ينسبان إلى جدهما ، وهما ابنا رافع بن عمرو بن أبي عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن النجار ، انتهى . فعلى هذا يكون سقط من الرواية المتقدمة ابن عمرو بين رافع وأبي عمرو ، وتصحف عبيد بعائذ ، والله أعلم .

وقال المجد : ذكر البيهقى المسجدَ فقال : كان جدارا مُجَدَّرا ليس عليه سقف، وقبلته إلى القدس ، وكان أسعد بن زرارة بنَاه ، وكان يصلى بأصحابه فيه ، ويُجَمِّع بهم فيه الجمعة قبل مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل التى فى الحديقة وبالغَرْقَد أن يُقْطع ، وكان فيه قبور جاهلية ، فأمر بها فنبشت ، وأمر بالعظام أن تُغَيَّب ، وكان فى المربد ماء مسحل فسيره حتى ذهب ـ والمسحل : ممشى ماء المطر ، انتهى . ولم أره فى المعرفة للبيهقى، ولا فى السنن الكبير ، ولا فى الدلائل ، والمعروف أنه كان مربدا للتمر : أى يُجَفَّفَ فيه التمر ، وكأنه سماه حديقة لاشتماله على نخل ؛ فى الصحيحين أن

النبي صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أخذه كان فيه نخل وقبور المشركين وخرب ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالنخل فقطع ، و بقبور المشركين فنُبِشَتْ ، وبالخرب فسُوِّيَت ، فصفوا النخل قبلة له ، وجعلوا عضادتيه حجارة » وقد قدمنا الكلام على قطع هذا النخل فى أحكام الحرم ، وكأن معنى صف النخل قبلة له جعلها سَوَارِىَ فى جهة القبلة ليسقف عليها كما فى الصحيح « كان المسجدُ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنيا باللَّبِنِ ، وسقفه الجريد ، وعُمُدُه خشب النخل » وسيأتى فيما أسند يحيى أنه كان فى جوف الأرض ـ أى أرض المربد ـ قبور جاهلية ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقبور فنُبشت ، فرمى بعظامها ، فأمر بها فغيبت ، وكان فى المربد ماء مستنجل[1] فسيره حتى ذهب » ووقع فى رواية عطاف بن خالد عند ابن عائذ أنه صلى الله عليه وسلم «صلى فيه وهو عريش اثنى عشر يوما ، ثم بناه وسقفه » وسيأتى مايشهد له .

وأسند ابن زبالة عن أنس قال : بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعنى المسجدَ ـ أولَ مابناه بالجريد ، قال : وإنما بناه باللَّبِنِ بعد الهجرة بأربع سنين .

قلت : وهو وَاهٍ أو مؤَول ، والمعروف خلافه .

وأسند أيضاً عن شهر بن حَوْشَب قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحجر بناء المسجد قيل له : عريش كعريش أخيك موسى سبع أذرع ، وأسنده يحيى من غير طريقه عن شهر أيضاً بلفظ : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى المسجد ، وأورده رزين بلفظ : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء المسجد قال : قيل لى : عريش كعريش أخيك موسى سبعة أذرع ، ثم الأمر أعجل من ذلك . وأسند يحيى عن الحسن قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال :

---

(١) فى حديث عائشة رضى الله عنها « وكان واديها يجرى نجلا » تريد وادى المدينة ، والنجل : النز ، ويجمع على أنجال ، واستنجل الماء : صار نزا قليلا

ابنُوا لى مسجداً عريشاً كعريش موسى ، ابنُوه لنا من لَبِنٍ. وأورده رزين بلفظ : لما أخذ فى بناء المسجد قال : ابنُوا لى عريشاً كعريش موسى ، ثُمامات وخَشَبات وظُلَّة كظلة موسى ، والأمر أعجل من ذلك ، قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : كان إذا قام فيه أصاب رأسَهُ السقفُ ، وعمل فيه بنفسه صلى الله عليه وسلم ، ترغيبا لهم ؛ ففى الرواية المتقدمة فى الصحيح عقب قوله « حتى ابتاعه منهما » وطَفِقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى ثيابه ، ويقول وهو ينقل اللبن :

هذا الحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْ ... هـذا أبَرُّ رَبَّنَا وأطْهَرْ

ويقول :

اللهم إنَّ الأجرَ أجرُ الآخرهْ ... فارحم الأنصارَ والمُهَاجِرَهْ

قال ابن شهاب : فتمثَّلَ صلى الله عليه وسلم بشعر رجل من المسلمين ، ولم يبلغنا فى الأحاديث أنه تمثَّلَ ببيت شعر تام غير هذه الأبيات ، زاد ابن عائذ فى آخره : التى كان يرتجزهن وهو ينقل اللبن لبناء المسجد .

والحمال مُخَفَّفٌ بمهملة مكسورة : أى هذا المحمول من اللَّبِنِ أبر عند الله من حمال خيبر ، أى ذات التمر والزبيب . وقوله « رَبَّنَا » أى يا ربنا . وأسند يحيى عن الزهرى فى معنى قوله « هـذا الحمال لا حمال خيبر » قال : كانت يهود إذا صرمت نخلها جاءتهم الأعراب بركائبهم فيحملون لهم عروة بعروة إلى القرى ، فيبيعون ، يكون لهذا نصف الثمن ولهؤلاء نصفه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك . وفى الرواية المتقدمة فى الصحيح عقب قوله «وجعلوا عضادتيه حجارة» فجعلوا ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم معهم ، يقولون :

اللهم لاخَيْرَ إلا خيرُ الآخِرَهْ ... فانصر الأنصار والمُهَاجِرَهْ

---

(١) قال ابن الأثير : « وفى حديث بناء مسجد المدينة هذا الحمال لا حمال خيبر الحمال بالكسر من الحمل ، والذى يحمل من خيبر التمر ، أى أن هذا فى الآخرة أفضل من ذاك وأحمد عاقبة ، كأنه جمع حمل أو حمل ، ويجوز أن يكون مصدر حمل أو حامل » اه بحروفه .

ويذكر أن هذا البيت لعبد الله بن رواحة .

وعن الزهري : بلغني أن الصحابة كانوا يرتجزون به ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ويقول :

اللهم لا خير إلا خير الآخرهْ   فارحم المهاجرين والأنصار

وكان لا يقيم الشعر ، قال الله تعالى : «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَه(١)» وفعل ذلك احتساباً وترغيباً في الخير ؛ ليعمل الناسُ كلهم ، ولا يرغب أحد بنفسه عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا أسند ابنُ زَبالة عن مجمع بن يزيد أنه قال عقب ذلك : وعملوا فيه ودأبوا ، فقال قائل من المسلمين :

لَئِنْ قعدْنا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ   ذَاكَ إذاً لَلْعَمَلُ المُضَلَّلُ

وأسند أيضا أن على بن أبي طالب كان يرتجز وهو يعمل فيه يقول :

لاَ يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ المَساجِدَا   يَدْأَبُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدَا

* وَمَنْ يُرَى عَنِ الغُبَارِ حَائِدَا *

وأسند هو أيضا ويحيى من طريقه والمجدُ ، ولم يخرجه ، عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : بنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، فقرب اللبن وما يحتاجون إليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع رِداءهُ ، فلما رأى ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتَهم وأكسيتهم ، وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون :

* لَئِنْ قَعدنا والنبيُّ يعملُ * البيت

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه رجلا نظيفا متنظفا ، وكان يحمل اللبنة فيجافى بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفَضَ كمه ، ونظر إلى ثوبه ، فإنْ أصابه شيء من التراب نَفَضه ، فنظر إليه على بن أبي طالب فأنشأ يقول :

* لاَ يستوى مَنْ يعمرُ المساجدا * الأبيات المتقدمة .

---

(١) من سورة يس من الآية ٦٩

فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجز بها وهو لا يدرى مَنْ يعنى بها ، فمر بعثمان فقال : يا ابن سُمَية ، ما أعرفَنِي بمن تعرض ، ومعه جريدة فقال : لتكُفَنَّ أو لأعترضَنَّ بها وجهك ، فسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل بيتى ؛ يعنى أم سلمة ، وفى كتاب يحيي « فى ظل بيته » — فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : إن عمار بن ياسر جِلْدَةُ مابين عينى وأنفى ، فإذا بلغ ذلك من المرء فقد بلغ ، ووضع يده بين عينيه ، فكفَّ الناسُ عن ذلك ، ثم قالوا لعمار : إن النبى صلى الله عليه وسلم قد غضب فيك ، ونخاف أن ينزل فينا القرآن ، فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فقال : يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟ قال : مالك وما لهم ؟ قال : يريدون قتلى ، يحملون لبنةً لبنةً و يحملون علَيَّ اللبِنَتَيْنِ والثلاث ، فأخذ بيده فطاف به فى المسجد ، وجعل يمسح وَفْرَتَهُ[1] بيده من التراب و يقول : يا ابن سُمَية لايقتلك أصحابى ، ولكن تقتلك الفئة الباغية .

وقد ذكر ابن إسحاق القصة بنحوه كما فى تهذيب ابن هشام ، قال : وسألتُ غيرَ واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا : بلغنا أن على بن أبى طالب ارتجز به ، فلا ندرى أهو قائله أم غيره ، و إنما قال ذلك على رضى الله عنه مُطايبة ومباسطة كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل ، وليس ذلك طعنا .

وأخرج ابن أبى شيبة من مرسل أبى جعفر الخطمى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى المسجد وعبد الله بن رواحة يقول :

* أفلح من يعالج المساجدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول ابن رواحة :

* يتلو القران قائما وقاعدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى الصحيح فى ذكر بناء المسجد : وكنا نحمل لَبِنة لَبِنة وعمارٌ لَبِنتين

---

(١) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن

لَبِنَتين ، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل ينفض التراب عنه ويقول : « وَيْحَ عمارٍ تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » وقال : يقول عمار : أعوذ بالله من الفتن .

وأسند ابن زبالة ويحيى عن مجاهد قال : رآهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهم يحملون الحجارة على عمار ، وهو يبنى المسجد ، فقال : « ما لَهُمْ ولعمار ؟ يَدْعُوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار ، وذلك فعل الأشقياء الأشرار » .

وأسند الثانى أيضا عن أم سلمة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يَبْنُون المسجد ، فجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يحمل كل رجل منهم لَبِنة لَبِنة وعمار بن ياسر لَبِنتين لَبِنَةً عنه ولَبِنَةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فمسح ظهره وقال : « يا ابن سُمَيَّة لك أجْرَانِ وللناس أجر ، وآخِرُ زادِكَ من الدنيا شَرْبَة من لَبَنٍ ، وتقتلك الفئة الباغية » .

وفى الروض للسهيلى : أن معمر بن راشد رَوَى ذلك فى جامعه بزيادة فى آخره ، وهى : فلما قُتِلَ يوم صِفِّينَ دخل عمرو على معاوية رضى الله عنهما فزعاً فقال : قُتل عمار ، فقال معاوية : فماذا ؟ فقال عمرو : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : «تقتله الفئة الباغية» فقال معاوية : دحضت[1] فى بَولك ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله مَنْ أخْرَجه .

وروى البيهقى فى الدلائل عن عبد الرحمن السلمى أنه سمع عبدَ الله بن عمرو ابن العاص يقول لأبيه عمرو : قد قَتَلْنا هذا الرجُل ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ما قال ، قال : أى رجُل ؟ قال : عمار بن ياسر ، أما تذكر يوم بَنَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجدَ ؟ فكنا نحمل لبنة لبنة ، وعمار يحمل لبنتين لبنتين ، فمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « تحمل

(١) قال ابن الأثير : «وفى حديث معاوية أنه قال لابن عمرو: لا تزال تأتينا بهنة تدحض بها فى بولك ، أى تزلق ، ويروى بالصاد : أى تبحث فيها برجلك » اهـ

لبنتين لبنتين وأنت ترحض[1] ، أما إنك ستقتلك الفئة الباغية ، وأنت من أهل الجنة » فدخل عمرو على معاوية فقال : قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال : اسكت ، فوالله ما تزال تدحض فى بولك ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله علىّ وأصحابه ، جاءوا به حتى ألقوه بيننا .

قلت : وهو يقتضى أن هذا القول لعمار كان فى البناء الثانى للمسجد ؛ لأن إسلام عمرو كان فى الخامسة كما سبق .

وأسند ابن زبالة عن حسن بن محمد الثقفى قال : بينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يبنى فى أساس مسجد المدينة ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فمر به رجل فقال : يارسول الله مامعك إلاهؤلاء الرَّهْط ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء ولاة الأمر من بعدى .

وروى أبو يَعْلَى برجال الصحيح إلا أن التابعى لم يُسَمَّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أسَّسَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسجدَ المدينة جاء بحَجَرٍ فوضَعه ، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه ، وجاء عمر بحجر فوضعه ، وجاء عثمان بحجر فوضعه ، قالت : فسُئِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : هذا أمر الخلافة من بعدى .

وتقدم فى تأسيس مسجد قُبَاء نحو ذلك من غير ذكر أمر الخلافة

وقال الأقشهرى فى روضته : روى صاحبُ السيرة ولم يسمه أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يامحمد ، إن الله يأمرك أن تبنى له بيتا ، وأن ترفع بنيانه بالرهص والحجارة — والرهص : الطين الذى يتخذمنه الجدار — فقال : كم أرفعه ياجبريل ؟ قال : سبعة أذرع ، وقيل : خمسة أذرع ، ولما ابتدأ فى بنائه أمر بالحجارة وأخذ حَجَرا فوضعه بيده أولا ، ثم أمر أبا بكر فجاء بحجر

---

(١) ترحض : أى تسيل عرقا ، مأخوذ بن الرحضاء ، وهو عرق يغسل الجلد لكثرته ، وكثيراً مايستعمل فى عرق الحمى والمرض .

فوضعه إلى جنب حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم عمر كذلك ، ثم عثمان كذلك ، ثم عليا ، انتهى ما ذكره الأقشهرى ومن خطه نقلته .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما بنى النبى صلى الله عليه وسلم المسجدَ وضَع حجرا ، ثم قال : ليَضع أبو بكر حجره إلى جنب حجرى ، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبى بكر ، ثم قال : ليَضَعْ عثمان حجره إلى جنب حجر عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هٰؤُلَاء الخلفاء من بعدى » .

وأسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقيه أُسَيْدُ بن حُضَير فقال : يا رسول الله أعْطِنيهِ ، فقال : اذْهَبْ فاحتمل غيره ، فلست بأفقر إليه منى .

وعن مكحول قال : لما كثر أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : اجعل لنا مسجدا ، فقال: خَشَبَاتٌ وثُمَامات ،عريش كعريش أخى موسى صلوات الله عليه ، الأمر أعجل من ذلك .

ورواه رزين ، وزاد فيه : فطَفِقُوا ينقلون اللَّبِنَ وما يحتاجون إليه ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ، فلقيه رجلٌ ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنة فقال : أعطنيها يا رسول الله ، فقال : اذْهَبْ فخذ غيرها ، فلست بأفقرَ إلى الله منى .

ونقل المجدُ عن رواية محمد بن سعد نحوه ، قال : وجاء رجل يحسن عجْنَ الطين ، وكان من حَضْرَمَوْتَ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَحِمَ الله امرأ أحسن صنعته ، وقال له الزم أنت هذا الشغل فإنى أراك تحسنه

وفى كتاب يحيى من طريق ابن زبالة عن الزهرى : كان رجل من أهل اليمامة يقال له طلق من بنى حنيفة يقول : قدمتُ على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبنى مسجده ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنتُ صاحبَ علاج وخَلْط

طين ، فأخذت المِسْحَاة أخلِطُ الطينَ والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ويقول : إن هذا الحَنَفِيَّ لصاحبُ طين .

وروى أحمد عن طلق بن على قال : بنيتُ المسجدَ مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان يقول : قربوا اليمامى من الطين فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم منكبا .

وعنه أيضا قال : جئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يبنون المسجد ، قال : فكأنه لم يعجبه عملهم ، قال : فأخذتُ المِسْحَاة فخَلَطْتُ بها الطين ، فكأنه أعجبه أخذى المسحاة وعملى فقال : دَعُوا الحَنَفِيَّ والطينَ فإنه من أصنعكم للطين .

وأسند ابنُ زبالة ويحيى من طريقه فى أثناء كلامٍ عن ابن شهاب فى قصة أخذ المِرْبَد ، قال : فبناه مسجدا ، وضرب لبِنَهُ من بقيع الخَبْخَبَةِ ناحية بئر أبى أيوب بالمناصع والخبخبة : شجرة كانت تنبت هناك .

وأسند يحيى من طريق عبد العزيز بن عمر عن يزيد بن السائب عن خارجة ابن زيد بن ثابت قال : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين فى ستين ذراعا أو يزيد ، ولَبَّنَ لبِنَهُ من بقيع الخبخبة ، وجعله جدارا ، وجعل سَوَارِيه خشبا شقة شقة ، وجعل وسطه رحبة ، وبنى بيتين لزوجتيه .

قال عبد العزيز : فسألت زيدا : أين بقيع الخبخبة ؟ قال : بين بئر أبى أيوب وتلك الناحية ، وهذا بقيع الغرقد لبقيع المقبرة ، وقال : سألت عبد العزيز عن بقيع الخبخبة فقال : هى ـ أى الخبخبة ـ يسار بقيع الغرقد حين تقطع الطريق وتلقاها عند مسجد يحيى ، فقلت : ومن يحيى صاحب المسجد الذى ذكرت ؟ فقال : يحيى بن طلحة بن عبيد الله .

قلت : بقيع الخبخبة لا يعرف اليوم كما ذكره شيخ مشايخنا الزين المراغى ، لكن الخارج من درب البقيع إذا مشى فى البقيع لجهة مشهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه وصار مشهد سيدنا إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم على يمينه يكون على يساره طريق تمر بطرف الكومة ، فإذا سلكها انتهى بعد رأس

العطفة التى على يمينه إلى حديقة تعرف قديما بأولاد الصيفى بها بئر ينزل إليها بدرج تعرف ببئر أيوب قديما وحديثا ، وعن يسار الخارج من درب البقيع أيضا إذا سلك طريق سيدنا حمزة فى شامى الحديقة المعروفة بالرومية حديقة تعرف بالرباطية وقف رباط الثمنة بها بئر . قال المراغى : تعرف ببئر أبوب أيضا ، يتبرك بها الناس ، وهى بالقرب من الحديقة المعروفة بدار نخل ، وهى عن يسار بقيع الغرقد أيضا ، قال الزين المراغى : ولعلها أقرب إلى المراد

قلت : والذى يظهر أن الأولى هى المراد ، لما سنبينه فى الآبار .

وفى كتاب رزين مالفظه : عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسميط لَبِنَةً على لبنة ، ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى ، ثم كثروا فقالوا : يارسول الله لو زيد فيه ، ففعل ، فبنى بالذكر والأنثى ، وهى لبنتان مختلفتان ، وكانوا رفعوا أساسه قريباً من ثلاثة أذرع بالحجارة ، وجعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وكذا فى العرض ، وكان مربعاً . وفى رواية جعفر: ولم يسطح ، فشكوا الحر فجعلوا خشبه وسَوَارِيه جُذُوعا ، وظللوا بالجريد ثم بالخصف ، فلما وكف[1] عليهم طَيَّنوه بالطين، وجعلوا وسطه رحبة ، وكان جداره قبل أن يُظَلَل قامة وشيئاً ، انتهى . والظاهر أنه ليس جميعه من كلام جعفر ؛ بدليل قوله فى الأثناء « وفى رواية جعفر »

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من غير طريقه كلام جعفر متمحضا فأسندا عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان بناء مسجده بالسميط لبنة لبنة ، ثم إن المسلمين كثروا فبناه بالسعيدة ، فقالوا : يا رسول الله لو أمرت مَنْ يزيد فيه ، فقال : نعم ، فأمر به فزيد فيه ، وبنى جداره بالأنثى والذكر ، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا : يارسول الله لو أمرتَ بالمسجد فظُلِّل ، قال : نعم ، فأمر به فأقيمت فيه سَوَارى

(١) وكف عليهم : أراد نزل المطر وتقاطر من سقفه . تقول : وكف المطر يكف — مثل وعد يعد — إذا وقع ونزل

من جُذُوع النخل ، ثم طرحت عليها العوارض والخَصَفُ والإذخر ، فعاشوا فيه ، وأصابتهم الأمطار ، فجعل المسجد يَكِفُ عليهم ، فقالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فُطيِّن ، فقال : لا، عريش كعريش موسى ، فلم يزل كذلك حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جداره قبل أن يُظَلل قامة ، فكان إذا فاء الفيء ذراعا وهو قدمان يصلى الظهر ، فإذا كان ضِعْفَ ذلك صلى العصر ، ثم نقلا عنه تفسير السميط والسعيدة والأنثى والذكر بما تقدم ، ولم يذكرا ذرعا .

وفى الإحياء عن الحسن مرسلا : لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال : ابْنِهِ سبعَةَ أذرع طولا فى السماء ، ولا تزخرفه ، ولا تنقشه ، انتهى .

وتقدم فيما نقله الأقشهرى عن صاحب السيرة عن جبريل عليه السلام فى ارتفاعه سبعة أزرع ، وقيل : خمسة .

وأسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقيه أسيد بن حُضَير ، وذكر ما قدمناه ، ثم قال : قال — يعنى زيداً — ورفعوا الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، وكان فى جوف الأرض قبور جاهلية ، فأمر بالقبور فنبشت فرمى بعظامها ، وأمر بها فغيبت ، وكان فى المربد ماء مستنجل فسَرَّ بَهُ حتى ذهب ، وكان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وفى الجانبين الآخرين مثل ذلك فهو مربع ، ويقال : إنه كان أقل من مائة ذراع ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، أى وهو فى جهة

---

(١) العوارض : أراد بها قطع الخشب ، والخصف : جمع خصفة ، وهى الجلة التى يكنز فيها التمر ، وتكون من الخوص ، وكأن المراد هنا ما قدم من ذلك حتى صار لا يصلح للاستعمال ، والإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب

القبلة اليوم ، وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو باب آل عثمان اليوم ، وهذان البابان لم يُغيرا بعد أن صُرِفت القبلة ، ولما صرفت القبلة سَدَّ النبى صلى الله عليه وسلم البابَ الذى كان خلفه وفتح هذا الباب ، وحذاء هذا الباب ـ أى ومحاذيه ـ هذا البابُ الذى سُد . وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : ولما صرفت القبلة سد الباب الذى كان خلفه وفتح بابا حذاءه . قال المجد : أى تجاهه ، انتهى

وذكر الأقشهرى فى خبرٍ عن ابن عمر ما يخالف هذا ، فإنه قال : وعن عبد الله بن عمر قال : كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زمانه من اللَّبِن ، وسَقفُهُ من غصن النخل ، وله ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، وباب عاتكة وهو باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه وهو باب عثمان ، وهو الذى يسمى اليوم باب جبريل ، ولما صُرِفت القبلة سد الباب الذى خلفه وفتح الباب الآخر ، وهو الذى يسمى باب النساء ، انتهى . وهو غريب ، ولعل قوله « وهو الذى يسمى باب النساء » مِنْ تصرفه وفهمه فى معنى الخبر ، ولذلك أورد عقبه حديث أبى داود مرفوعا « لو تركنا هذا الباب للنساء » لكن أبو داود بيّن أن الأصح أنه من قول عمر كما سيأتى ، وعلى ما ذكره فلم يجعل للمسجد بعد التحويل بابا خلفه ، ويرده قول يحيى عقب ماتقدم عنه « فكان المسجد له ثلاثة أبواب : باب خلفه ، وباب عن يمين المصلى ، وباب عن يسار المصلى ، ثم انتهوا إلى البناء باللبن ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل معهم اللبن فى ثيابه ويقول :

* هذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خيبر * الرجز المتقدم

وروى أحمد عن أبى هريرة أنهم كانوا يحملون اللبن إلى بناء المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، قال : فاستقبلتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو عارضٌ لبنةً على بطنه ، فظننت أنها شقَّتْ عليه ، فقلت : ناولنيها يا رسول الله ، قال : خذ غيرها يا أبا هريرة فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة

قلت : وهذا فى البناء الثانى ، أى لأن أبا هريرة لم يحضر البناء الأول ؛ لأن قدومه عام فتح خيبر

وأسند ابنُ زَبالة من طريق ابن جُرَيج عن جعفر بن عمرو قال : كان المِرْبَدُ لسهل وسهيل ابنى عمرو فأعطياه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فبناه ، وأعان أصحابه أو بعضهم بنفسه فى عمله ، وكان على بن أبى طالب يرتجز وهو يعمل فيه ، قال : وبناه النبى صلى الله عليه وسلم مرتين : بناه حين قدم أقل من مائة فى مائة ، فلما فتح الله عليه خيبر بناه وزاد عليه مثله فى الدور

زيادة النبى فى مسجده

وروى الطبرانى بإسناد فيه ضعيف عن أبى المليح عن أبيه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لصاحب البقعة التى زِيدَتْ فى مسجد المدينة ــ وكان صاحبها من الأنصار ــ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لك بها بيت فى الجنة » قال : لا ، فجاء عثمان فقال له « لك بها عشرة آلاف درهم » فاشتراها منه ، ثم جاء عثمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله اشترِ منى البقعة التى اشتريتهاَ من الأنصارى ، فاشتراها منه ببيت فى الجنة ، فقال عثمان : إنى اشتريتها بعشرة آلاف درهم ، فوضع النبى صلى الله عليه وسلم لبنة ، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنة ، ثم دعا عمر فوضع لبنة ، ثم جاء عثمان فوضع لبنة ، ثم قال للناس « ضَعُوا » فوضعوا

وروى الترمذى وحَسَّنَه فى حديث قصة إشراف عثمان على الناس يوم الدار (١) عن ثمامة بن حَزْن القُشَيرى أن عثمان رضى الله عنه قال : أَنْشُدُكم بالله وبالإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير له منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صُلْب مالى ، فأنتم اليوم تمنعونى (٢) أن أصلى فيها ركعتين ، قالوا : اللهم نعم ، الحديثَ ، وأخرجه الدار قطنى أيضا ، وكذا أحمد بنحوه .

وأخرجا أيضا حديثا طويلا عن الأحنف بن قيس فيه : أن عثمان رضى الله عنه

---

(١) يريد إشرافه على الخارجين عليه فى خلافته حين حاصروه ومنعوه الخروج إلى المسجد للصلاة فيه (٢) فى المطبوعات « تمنعونى »

قال : أههنا علىّ ؟ قالوا : نعم ، قال : أههنا طلحة ؟ قالوا : نعم ، قال : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمَنْ يبتاع مِرْبَدَ بنى فلان غفر الله له ، فابتعته بعشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفا ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : قد ابتعته ، فقال : أجعله فى مسجدنا وأجره لك ، قالوا : اللهم نعم .

وأخرج خيثمة بن سليمان فى فضائل عثمان عن قتادة قال : كانت بقعة إلى جَنْب المسجد فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مَنْ يشتريها ويُوَسِّعها فى المسجد له مثلها فى الجنة ، فاشتراها عثمان ، فوسَّعها فى المسجد .

وأسند ابنُ زبالة عن خالد بن مَعْدَان قال : خرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على عبدالله بن رَوَاحة وأبى الدرداء ومعهما قَصَبة يَذْرَعان بها المسجد ، فقال : ما تصنعان ؟ فقالا : أردنا أن نبنى مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنيان الشام ، فيقسم ذلك على الأنصار ، فقال : هاتياها ، فأخذ القصَبَة منهما ، ثم مشى بها حتى أتى الباب ، فَدَحَا[1] بها ، وقال : كلا ، ثُمَام وخُشَيْبات وظُلَّة كظلة موسى ، والأمر أقرب من ذلك ، قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : إذا قام أصاب رأسَهُ السقفُ .

وروى البيهقى فى الدلائل من طريق يَعْلَى بن شداد عن عُبادة أن الأنصار جَمَعُوا مالا فأتوا به النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ابْنِ بهذا المسجدَ وزَيِّنْهُ ، إلى متى نصلى تحت هذا الجريد ؟ فقال : مابى رغبة عن أخى موسى ، عريش كعريش موسى .

وروى البيهقى أيضاً عن الحسن فى بيان عريش موسى قال : إذا رفع يَدَه بلغ العريش ، يعنى السقف .

وعن ابن شهاب : كانت سَوَارى المسجد فى عهد رسول الله صلى الله عليه

---

(١) دحا بها : رمى بها وألقاها

وسلم جُذُوعا من جذوع النخل ، وكان سقفه جريداً وخوصاً ليس على السقف كثير طين ، إذا كان المطر امتلأ المسجد طيناً ، إنمـا هو كهيئة العريش .

وفى الصحيح فى ليلة القدر : وإنى أُريتُ أنى أسجد فى ماء وطين ، فمن كان اعتكف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرجع ، فرجعنا ومانَرَى فى السماء قزعة(١) فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد ، وكان من جريد النخـل ، وأقيمت الصلاة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فى الماء والطين ، حتى رأيت أثر الطين فى جبهته .

الفصـــل الثانى

فى ذَرْعِه وحُدُوده التى يتميز بها عن سائر المسجد اليوم .

اعـلم أن الذراع حيث أطلق فالمراد به ذراع الآدمى ، وقد قدمنا فى تحديد الحرم أنه(٢) ذراع غير ثمن من ذراع الحديد المستعمل بمصر و بمكة ، وهو شـبران تقريباً ، وقد تحصلنا كما تقدم فى ذرع المسجد على أربع روايات : الأولى: سبعون ذراعا فى ستين أو يزيد ، والثانية : مائة ذراع فى مائة ، وأنه مربع ، والثالثـة : أنه أقل من مائة ذراع ، وهذا صادق بالأولى فليحمل عليها ، الرابعة : أنه بَنَاه أولا أقلّ من مائة فى مائة ، ثم بناه وزاد عليه مثـله فى الدور ، ولا يصح أن يُرَاد بذلك الأذرع قطعاً ؛ لأنها تقتضى أنه بعد البناء الثـانى صار أحد امتداديه إما الطول أو العرض نحو مائتى ذراع ، والامتداد الآخر نحوها ، ولا شـك أن حَدَّ مسجده صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق غايته الحجرة الشريفة ، فعرضه من جدارها إلى جدار المسجد الغربى ، وذرع هذا القدر اليوم بعد الزيادات المجمع عليها لاتبلغ مائة وخمسين ذراعا كما اختبرته ، بل تنقص أزيد من ستة أذرع ، وقد أجمع المؤرخون على أن عمر وعثمان رضى الله عنهما زادا فى المسجد من هذه الجهة ، ثم غيرهما من الخلفاء ؛

---

(١) القزعة — بفتحات — القطعة من الغيم ، وجمعها قزع

(٢) أى ذراع الآدمى

فالظاهر أن المراد من هذه الرواية الأشبار لا الأذرع ، فيقتضى أن المسجد النبوى بعد البناء الثانى صار أحدُ امتداديه مائتى شبر ، والامتداد الآخر نحوها ؛ فيوافق رواية مائة ذراع فى مثلها ، على أن ما ذكره المتأخرون من التحديد بالأمور الآتية يقتضى أنه لم يكن مائة ذراع ؛ فهو مقتض لترجيحهم الرواية الأولى ، وهى سبعون ذراعا فى ستين ، وتكون السبعون للطول والستون للعرض .

وقد نقل النووى ذلك فى منسكه عن خارجة بن زيد أحدِ فقهاء المدينة السبعة ، ولفظه : بَنَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين ذراعا فى ستين أو يزيد ، وهو الذى جزم به ابن النجار فقال : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده مربعا ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وطوله سبعين ذراعا فى ستين ذراعا أو يزيد ، انتهى .

هذا ، وقد قال يحيى قبيل ما جاء فى حُجَر أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم : حدثنى هارون قال : حدثنا محمد بن يحيى — يعنى صاحب مالك — قال : فيما كان انتهى إلينا من ذَرْعِ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم من القبلة إلى حده الشامى أربعة وخمسون ذراعا وثلثا ذراع ، وحده من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، يكون ذلك مكسرا ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين ذراعا ، انتهى .

وقال ابن النجار : أعلم أن حدود مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أى الذى كان فى زمنه — من القبلة الدرابزيناتُ التى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة ، ومن الشام الخَشَبَتَان المغروزتان فى صحن المسجد ، وأما من المشرق إلى المغرب فهو من حجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوان الذى بعد المنبر ، وهو آخر البلاط ، انتهى .

وفيما ذكره ابن النجار مناقشة : أما ما ذكره من التحديد بالدرابزينات من جهة القبلة وبالخشبتين من جهة الشام ، فالخشبتان اليوم غير معروفتين ، وقد نبه

على فَقْدِهما الزينُ المراغى ، وكلام المطرى يفهمه ، ولم أر لهما ذكرا فى كلام المتقدمين ، نعم ذكر ابن زبالة كلاما فيه غموض يقتضى تحديدَ بعض جهات المسجد بعُودَيْنِ علاَ الكبسُ على أحدهما ، وأن الآخر كان موجودا فى زمانه ، فلعل ذلك مأخذ ابن النجار ، وعبارة ابن زبالة تنبو[1] عن ذلك ؛ إذ لم يذكرهما فى حد جهة الشام ، والحد من هذه الجهة اليوم — على ما يعرف فى زماننا — الحَجَرَان الآتى ذكرهما فى صحن المسجد ، وسيأتى ما يقتضى رد ذلك

وذكر ذلك ابن جماعة فى منسكه فقال : قد عَرَّفَ المتأخرون مقدارَ المسجد الذى كان عليه أولا فقالوا : كان على التربيع من الحجرة المقدسة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، ومن موضع الدرابزين الذى هو بين الأساطين المتصل بالصندوق أمام المصلَّى الشريفِ إلى موضع الحَجَرَيْن المغروزين فى صحن المسجد الشريف ، انتهى . ومستنده فى ذلك قول المطرى فى الحجرين المذكورين يذكر أنهما حد المسجد من جهة الشام والمغرب ، قال : لكنهما ليسا على سَمْت المنبر الشريف ، بل هما داخلان إلى جهة المشرق بمقدار أربعة أذرع أو أقل ، وكذا متقدمان إلى القبلة بمثل ذلك ، قال : لأنى اعتبرتُ ذلك بالذرع فوجدتهما ليسا على ذرع المسجد الأول .

قلت : كونهما داخلين عن سَمْتِ المنبر إلى جهة المشرق بما ذكر لا يقدح فى كونهما الحدَّ المذكور ؛ لأن المراد أن جهة المغرب هناك فى سَمْتهما ، كما أن المراد أن جهة الشام فى سَمْتهما ، لا أنها ما يحاذى الحجرين فقط ، ووقع الاستغناء عن تحرير ابتداء جهة المغرب بما تقدم له نقلا عن ابن النجار من الأسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة ، كما استغنى بكون الحجرة الشريفة حده من جهة المشرق ؛ إذ لم يذكر حد لجهة المشرق مما يلى الحجرين فى جهة الشام ، وفى الحقيقة لم يقصد بهما سوى بيان جهة الشام ، عَلَى أنه يحتمل أن مقدم المسجد كان أعرض من

(١) تنبو : تبعد ، وأراد أنها لا توافق

مؤخره كما هو موجود اليوم ، فيكون الحجران حده من جهة المغرب حقيقة ، وأما قوله إنهما متقدمان إلى القبلة بأربعة أذرع وإنهما ليسا على ذَرْعِ المسجد الأول يعنى السبعين التى ذكرها ابن النجار فقد بَنَاه على ما قاله أيضا من أن الدرابزينات التى ذكرها ابن النجار من جهة القبلة متقدمة على موضع الحائط القبلى ؛ لأن الحائط القبلى كان محاذيا لمصلًّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما جعل هذا الصندوق الذى فى قبلة المصلى الشريف أى بين المصلى والدرابزينات سترة بين المقام المشريف وبين الأسطوانات ، قال : وورد أيضا أنه كان بين الحائط القبلى وبين المنبر ممر الشاة ، وبين المنبر والدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع وربع ذراع ، والمنبر لم يغير من جهة القبلة ، وكذا المصلى الشريف، انتهى. فلم يعتبر الذرع من الدرابزينات

وقد اختبرتُ أنا ذلك بنفسى من الدرابزينات المذكورة إلى الحجرين المذكورين فكان سبعين ذراعا بذراع اليد المتقدم ذكره ، وقد قال ابن جماعة : إنه اختَبَر ذلك بذراع العمل فكان ستة وأربعين ذراعا وثلثى ذراع ؛ فهو موافق لذرعنا ، بل يرجح قليلا ؛ لأن ذراع العمل ذراع ونصف راجح من ذراع اليد .

وأما ما ذكره المراغى فى كتابه من الذَّرْعِ فغير موافق لذرعنا ؛ لأنه اعتمد فى ذلك كما صرح به على ذراع المدينة الشريفة اليوم ، وقد اختبرته فوجدته يزيد على ذراع اليد الذى حررناه بأكثر من قيراط ، وقول المطرى « إن بين المنبر والدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع وربع » مخالفُ لما اختبرناه ؛ فإن بينهما ثلاثة أذرع ونصف بالذراع الذى حررناه ، لكن سيأتى أن المنبر اليوم ليس هو ذلك ، وأنه قد اتضح لنا عند الحفر لتأسيس المنبر الرخام الآتى ذكره صحة ما قاله المطرى ، وأن المنبر الذى أدركناه قُدِّمَ عن محل المنبر الأصلى لجهة القبلة أزيد من نصف ذراع ، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من طريقه نقلا عن غير واحد من أهل العلم تحديدَ المسجد الشريف من هذه الجهة فقالا : وعلامته فى القبلة حروف المرمر الذى المنبرُ وسَطه ، وعلامته من الشام أربعة طيقان من ناحية المشرق والمغرب ، وعلامة الطيقان الأربع أنهن مخضرات الأجْوَاف بالفُسَيْفِساء كلهن .

قلت : والمرمر اليوم لايظهر منه شيء . لكن يؤخذ من كلام ابن زبالة فى وصف هذا المرمر أنه كان دكة مرتفعة حول المنبر قدر الذراع ، وأنه ممتد من المغرب قدر ثلاثة أذرع ، ومن المشرق ثلاثة ، ومن القبلة ثلاثة ، فإنه قال : حدثنى محمد بن إسماعيل قال : رأيت طِنْفِسَة[1] كانت لعبد الله بن حسن بن حسن تطرح قبالة المنبر على مرمر كان هناك ، قال : فحبس عبد الله بن حسن سنة أربعين ومائة ، وبقيت الطنفسة بعده أياماً ، ثم رفعت ، قال : ثم إن الحسن بن زيد بن الحسن بن على رضى الله عنهم لما ولى المدينة سنة خمسين ومائة فى خلافة أبى جعفر نَقَضَ المرمر ووسَّعه من جوانبه كلها حتى ألحقه بالسوارى ، فكلمه أبو مودود عبد العزيز بن أبى سليمان أن يدَعَ له مُصَلاه فتركه ولم يلحق المرمر بالأساطين المقدمة ؛ فالمرمر اليوم هو الذى عمل الحسن بن زيد ، والمرمر الذى حَوْلَ المنبر المرتفع عن المرمر الذى عمل الحسن بن زيد بين ستة أساطين ثلاثة أذرع من قبل القبلة وثلاثة أذرع من قبل المشرق وثلاثة أذرع من قبل المغرب ، وهو مرتفع عن الأرض نحوا من ذراع ، انتهى .

وقال فى موضع آخَر : عَرْضُ المرمر الذى حول المنبر ثمانية أذرع ، وطوله ثمانى عشرة ذراعا ، وسماه فى موضع آخر رخاما ، وهو يطلق عليه لغة ، وسيأتى ذكر هذه الدكة التى المنبرُ فى وسطها عن ابن النجار حيث قال : وارتفاع الدكة التى المنبر عليها شبر وعقد ، فكأنَّ الكَبْس علا ؛ فإنها كانت ذراعا فى زمن ابن زبالة ، وفى زمن ابن النجار شبرا وعقدا ، ثم علا الكبس فلم يوجد اليوم ،

(١) الطنفسة — بكسر فسكون فكسر — البساط .

وقد ظهر أثرها وأثر الرخام المذكور عند حَفْر ما حول المنبر الشريف ، وشاهدتُ الرخام الذى فى قبلته كما سيأتى ، وتلخص من هذا أن المرمر كان فى جهة القبلة ثلاثة أذرع بعد المنبر ، والظاهر أن عَرْضَ جدار المسجد الشريف أدخل فى ذلك من جهة القبلة ؛ فقد روى يحيى فى ترجمة ما جاء فى زيادة الوليد أن عمر بن عبد العزيز أحْضَرَ رجالا من قريش فأرَوْهُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [و] الذى زاد فيه عمر ، والذى زاد فيه عثمان ، فعلّم عمر بن عبد العزيز المسجد الأول الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان جدار القبلة من وراء المنبر ذراعا وأكثر من ذراع . وروى ابن زبالة أخباراً تتضمن أن جدار القبلة كان بينه وبين المنبر قدر ممر العَنْزِ ، وفى العتبية ممر الرجل منحرفاً ، وفى الصحيح عن سهل : كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الجدار ممر الشاة . وفيه أيضاً عن سلمة : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة تجوزه ؛ فتعين ما أشرنا إليه من إدخال جدار المسجد فى ذلك الممر الذى جعل علامة فى جهة القبلة ، وأما الطاقات الأربع التى ذكرها علامة لنهاية المسجد من جهة الشام فغير معروفة اليوم ، إلا أنه سيأتى فيما نقله المرجانى عن الحارث المحاسبى ما يبين محلها .

وأما الجواب على ما ذكر المطرى من كون الدرابزينات متقدمة فالظاهر أن ابن النجار فَهِمَ أن المراد إدخال عرض الجدار الذى كان موجوداً فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، لما تقرر عندنا من أن جدار المسجد من جملة المسجد ، ويؤيده ما تقدم من التحديد بالمرمر من تلك الجهة ، وما سيأتى فى الفصل الثانى عشر من رواية أحمد عن نافع أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد من الأسطوانة — أى التى عند المصلَّى الشريفِ — إلى المقصورة ؛ لأن ذلك هو الرواق الذى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة وبين الأساطين التى تليها فى القبلة . وقد قال المراغى : إن الذى ظهر له أن الصندوق الذى فى قبلة المصلَّى الشريف جعل فى

مكان الجدار القديم ، ويشهد له ماسيأتى عن يحيى فى ذَرْعِ ما بين المصلى الشريف وجدار القبلة اليوم ، لكن عرض هذا الصندوق ذراعان ، وبينه وبين الدرابزين أرجح من نصف ذراع ، وذلك فيما يظهر أزيد من عرض الجدار القديم بنحو الذراع ؛ لأنى شاهدت لبناً أخرج من جدران الحجرة الشريفة فى العمارة التى أدركناها أولا يزيد فى الطول على الذراع ، وعرضه نصف ذراع ، وسمكه ربع ذراع ، وفيه شىء مرتفع طوله وعرضه وسمكه واحد ، وكل ثنتين منه طول لبنة مما قدمناه ، والذى يظهر أنه كان من بقايا لبن الحجرة الشريفة التى كانت مبنية به أولا جعل للتبرك لأنه أتى غير مستوٍ ، والجدار مبنى بالحجارة الوجوه المحكمة وبالقصة ؛ فلا يناسبه وضع ذلك فيه ، ولهذا جعل بين الحجارة الوجوه فى أعالى الجدار ، وقد تقدم أن الذى استقر عليه عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم الأنثى والذكر ، وهما لبنتان مختلفتان ، واللبنتان المختلفتان من هذا اللبن الذى رأيناه أو اللبنة ونصف الأخرى وهو السعيدة يزيد على ذراع ونصف يسيراً ، فيكون ذلك هو عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، ويشهد له ماشاهدناه أيضاً فى عرض جدار الحجرة الشريفة على ما سنذكره ، ثم اتضح الحال بظهور المرمر الذى فى قبلة المنبر ؛ فإنا وجدنا بينه وبين الدرابزين المذكور أرجح من ذراع ، وبينه وبين طرف محل المنبر الأصلى من جهة القبلة ثلاثة أذرع سواء ، كما ذكر ابن زبالة ؛ فذلك هو عرض الجدار مع ما كان بين المنبر وبينه .

وأما ماذكره ابن النجار من التحديد بالأسطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب وأنها آخر البلاط وبالحجرة الشريفة من جهة المشرق ؛ فالبلاط الذى ذكره لا يوجد اليوم ، وكأنه يريد به الرخام الذى كان المنبر وسطه ، وقد عبر عن ذلك ابن جماعة كما تقدم بقوله : من الحجرة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، فإن السابعة من صف الأساطين المذكورة هى التى تلى المنبر من

المغرب إن عَدَدْنَا الأسطوان الملاصق للحجرة ، ولم أر لما ذكره ابن جماعة مستنداً فى كلام المؤرخين سوى ماذكره ابن النجار ؛ فيتعين الحمل على الأسطوانة المذكورة، وقد ذرَعْتُ ما بين الأسطوانة التى تلى المنبر عند ظهره من المغرب إلى حائز عمر بن عبد العزيز الذى داخله الحجرة الشريفة بمقط ؛ فكانت مساحته سبعة وخمسين ذراعاً ونصف ذراع راجح ، وعرض الحائز المذكور ذراع وربع راجح ، كما تحرر لى عند عمارة ما نقض منه ، وليس بينه و بين جدار الحجرة من هذه الجهة فضاء أصلا ، بل هو لاصق به ليس بينهما مغرز إبرة خلاف ما ذكره المؤرخون ؛ فيكون ما بين الأسطوانة المذكورة والحجرة الشريفة تسعة وخمسون ذراعاً ينقص يسيراً ، وكأنّ ابن النجار جرى على قول من تقدمه من المؤرخين فى أن بين الحائز وجدار الحجرة فضاء من هذه الجهة ، وظن أن عرض الحائز أكثر مما ذكرناه ؛ فجعل نهاية قولهم فى عرض المسجد ستين ذراعاً أو يزيد إلى الاسطوانة التى تلى المنبر أو أن ذلك القدر الناقص لتفاوت الأذرعة ، على أن الظاهر أن ابن جماعة لم يعتبر الأسطوانة اللاصقة بالحجرة ، وأنه جعل السارية السابعة هى التى تلى السارية التى تلى المنبر فى جهة المغرب ، وهى الثانية من المنبر فى تلك الجهة ، فإنه قال: إنه ذَرَعَ ما بين الأسطوانة السابعة إلى حائز الحجرة الشريفة فكان ذلك اثنين وأربعين ذراعاً وثلثى ذراع بذراع العمل .

قلت : وقد اعتبرت ماذكره من الذرع بذراع العمــــل فرأيته ينتهى إلى الأسطوانة الثانية من المنبر فى جهة المغرب ، وذرعته بذراع اليـد الذى حررناه فكان خمساً وستين ذراعاً ، وهو مطابق لما قاله ابن جماعة ولما اختبرناه بذراع العمل ؛ لأن ذراع العمل ذراع وثلث من ذراع الحديد المستعمل بمصر ، وذلك اثنان وثلاثون قيراطاً ، والذراع الذى حررناه أحد وعشرون قيراطاً ، فذراع العمل ذراع ونصف قيراط بالذراع الذى حررناه ، وقد مال المراغى إلى اعتبار التحـديد بهذه الأسطوانة — أعنى الثانية من المنبر — فإنه ذكر عدم وجود البلاط اليوم ،

ثم قال : لـكنى اعتبرت ذَرْعَه من المشرق إلى المغرب على رواية يحيى ثلاثة وستين ، وهى من أقل الروايات ؛ فـكان من جدار الحجرة الشريفة يعنى الحائز الظاهر إلى الاسطوانة الثانية من المنبر لا التى بعده ستون ذراعا تقريبا ، قال : وعلى هذا يكون عرض جدار عمر بن عبد العزيز وما بينه و بين جدار الحجرة الشريفة الأصلى ثلاث أذرع تقريبا ، انتهى . ولايخفى مافيه ؛ لأنه جعل المسافة المذكورة ستين ذراعا تقريبا وهى خمسة وستون تحريرا ، وتبع مَنْ تقدمه من المؤرخين فى ثبَات فضاء بين حائز عمر بن عبد العزيز وجدار الحجرة ، فخمن أن ذلك مع عرض الحائز ثلاثة أذرع ، وقد علمت أن عرض الحائز ذراع وربع يرجح يسيرا ، وليس بينه وبين جدار الحجرة شىء

وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه أشياء فى تحديد المسجد وذَرْعَه يقتضى أن جدار المسجد الشريف فى زمنه صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق لم ينته إلى حائز عمر ابن عبد العزيز ، بل الحائز و بعض مايليه من المغرب فى موضع حجرة عائشة رضى الله عنها ، وأن جدار حجرة عائشة كان فيما بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر و بين الأساطين التى بينها المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان قد بنى المسجد أولا وجعله ثلاث أساطين عن يمين المنبر فى المغرب وثلاث أساطين عن يساره فى المشرق ، وأن نهايته من جهة المشرق كانت أولا أسطوان التوبة ؛ لأنها تكون فى موضع الجدار بعد الأساطين الثلاث ، وأن مساحة ذلك من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، وقيل : خمس وخمسون ، وأنه زاد فيه بعد ذلك من المشرق والمغرب ، ومع ذلك لم ينته زيادته فى المشرق إلى موضع حائز عمر بن عبد العزيز ، وأنه لم يزد فيه من جهة القبلة ولا من جهة الشام

قلت : وهو موافق لما روى أنه كان مائة ذراع كما سنبينه ، و يرجحه عندى أن المنبر الشريف يكون حينئذ متوسطا للمسجد ؛ إذ يبعد أنه صلى الله عليه وسلم لا يتوسط أصحابه و يقف على منبر فى طرفهم ، وكون المسجد النبوى لا ينتهى

إلى موضع حائز عمر بن عبد العزيز كما قدمناه خلافُ ما عليه متأخرو المؤرخين ، لكنه حسن ؛ إذ يبعد أن يبنى عمر بن عبد العزيز حائزه فى شىء من المسجد ، وينتقص الروضة الشريفة به ، حاشاه من ذلك ، والذى صح أن محل القبور الشريفة فى صفة بيت عائشة ، ولا بد للصفة من مرافق ، فيظهر أن الحائط الذى فى جوف الحائز هو حائط الصفة ، والحائز فيما خرج عنها من بقية البيت

ثم ظفرت فى كلام المرجانى نقلا عن الحارث المحاسبى بما يصرح بذلك ، لما سيأتى من أنه ذكر فى تحديد المسجد ستة أساطين من جهة شرقى المنبر ، ثم قال : والروضة ما بين القبر والمنبر ، فما كان منها فى الأسطوانة السادسة التى حددت لك عن يمين المنبر فليس من المسجد الأول ، وإنما كان من حجرة عائشة رضى الله عنها فوسع به المسجد ، وهو من الروضة ، انتهى

ولنورد عبارة ابن زبالة فإن يحيى روَى ذلك عنه من غير زيادة ولا مخالفة مع ما فيها من أشياء لا تعرف اليوم ، ولكن إفادة هذه الأمور الغريبة التى لم يذكرها متأخرو المؤرخين اقتضت إيرادنا لذلك فنقول : أسند ابن زبالة عن عبيد بن عمر بن حفص بن عاصم أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثلاث أساطين مما يلى المشرق ، وثلاث أساطين مما يلى المغرب ، سوى ما خرج فى الرحبة أى الأساطين المصفوفة من الرحبة إلى القبلة ، ولولا ما سيأتى من التصريح بأن هذه الست كانت ثلاثة منها على يمين المنبر وثلاثة عن يساره — يعنى فى البناء الأول — لحملنا ذلك على أن ابتداء هذه الست من الأسطوانة التى تلى المنبر ؛ فيكون نهايتها الأسطوان التى يلى أسطوان التوبة ، ويكون جدار الحجرة بعدها ، فيوافق التحديد المتقدم ، لكنه قال عقبه : وقال جمهور الناس من أهل العلم وغيرهم: هو إلى الفرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والتى فى القبر

قلت : لاتعرف اليوم فى المسجد القديم مربعة غربية ، غير أن الذى ظهر لى — من مقابلتها بمربعة القبر ومما سيأتى فى بيان الحائز الذى عمل لمنع ماء المطر أن يغشى المسقف القبلى — أنها الأسطوانة العظيمة المثمنة اليوم فى المسقف القبلى ، فإنها كانت ركن رحبة المسجد فى هذا المسقف من جهة المغرب ، كما أن مربعة القبر كانت ركن الرحبة فى جهة المشرق ، قبل زيادة الرواقين اللذين ذكرهما فى المسقف القبلى كما يؤخذ من مواضع فى كلام ابن زبالة ويحيى ، والذى يظهر أن تثمين الأسطوانة المذكورة حادث ، وإنما كانت مربعة ، كما ثمنوا ما ظهر من مربعة القبر وما يلى الحجرة منها باقٍ على تربيعه ، ومربعة القبر هى التى فى نهاية الصفحة الغربية من الحائز الدائر على الحجرة من جهة الشام ، وتعرف بأسطوان مقام جبريل عليه السلام كما سيأتى إيضاحه ، والأسطوان التى دونها هى الملاصقة بالشباك الدائر على الحجرة اليوم ، وهى بين المربعة وبين أسطوان الوفود ؛ فيكون جدار الحجرة على هذا كان فيما بين مربعة القبر والتى يليها

قال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه : واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف فى المسجد فى موضع مجلس بنى عبدالرحمن بن الحارث ، وأن عائشة رضى الله عنها كانت تُرَجِّلُ رأسه وهو معتكف فى المسجد وهى فى بيتها ، وكان مالك بن أنس يقول : الجدار من المشرق فى حد القناديل التى بين الأساطين التى فى صفها أسطوان التوبة وبين الأساطين التى تلى القبر ، وأرفة[1] عمر بن عبدالعزيز من ورائها فى الأسطوانة التى تلى القبر

قلت : ما نقله عن مالك صريح فيما قدمناه من أن جدار المسجد الشرقى كان فيما بين الأساطين اللاصقة بالقبر وبين الأساطين المقابلة لها ؛ فيكون فى محاذاة القناديل الآخرة من القبلة إلى الشام فيما بين هذه الأساطين ، ويكون عمر بن

---

(١) الأرفة — بالضم — هى الحد بين الأرضين ، وعدم معرفة المصنف معنى هذه الكلمة كما سيذكره (ص ٣٥٢) دليل على أن قراءتها تصحفت عليه .

عبد العزيز أخره إلى الأسطوان اللاصق بجدار القبر ، وسيأتي مايصرح بذلك من كلام المحاسي أيضا وأما قوله « واحتجوا إلى آخره » فوجـه الاحتجاج أن معتـكفه صلى الله عليه وسلم كان لاصقاً بحجرته ، بحيث إن عائشة رضى الله عنها كانت ترجّل رأسه وهو فى مُعْتَـكَفِهِ وهى فى بيتها ، ولهذا أورد ابن زبالة عقبه حديثَ « كان يَدْنُو منى وأنا حائض فأرجـله وهو فى المسجد » ومجلس بنى عبد الرحمن بن الحارث الذى ذكره ابن زبالة لايعرف اليوم، وروى ابن زبالة ويحيى فى بيان معتـكفه صلى الله عليه وسلم أشياء سنذكرها إن شاء الله تعالى ، والمناسبُ لما نحن فيه منها : أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم سرير من جريد فيه سَعَفُه يوضع بين الأسطوان التى وُجاه القبر[1] و بين القناديل، كان يضطجع عليه صلى الله عليه وسلم وقوله «التى وُجاه القبر» يريد به المواجهة له، وهى اللاصقة بشباك الدائر على الحجرة اليوم فى صف أسطوان التوبة ، بل قيل : إنها أسطوان التوبة كما سيأتى ، وهذا مطابق لما ذكره مالك من أن الجدار كان فى حد القناديل المذكورة .

وأسند ابن زبالة أيضاً عن غير واحد من أهل العلم أن مسجد رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان ثلاث أساطين عن يمين المنبر وأنت مستقبل القبلة فى موضع معتكف حسن بن زيد الذى كان يعتكف فيه ، ومن الشق الآخر إلى أسطوان التوبة ، وكان ذرعه من المشرق إلى المغرب ثلاثة وستين ذراعا ، وقال عبد الرحمن ابن سعد عن أشياخه : كان خمسين فى خمسين .

قلت : فيكون الُحجَر التى فى شرق المسجد أدخلت بعد أو بعضها فى الزيادة الآتية أو أنها لم تستقر فى شرقيه إلا بعد ذلك .

ثم قال ابن زبالة : قالوا : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أى الذى بنى عندمقدمه من مكة ـ وذكرَ علاماتٍ كانت فى السقف المحترق والفسيفساء التى زالت فلا تعرف اليوم ، ثم قال : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بنى عندمَقْدَمِهِ من خيبرقالوا: ترك رسول صلى الله عليه وسلم المسجد من القبلة فى تلك البنية على حده الأول ، وزاد فيه من ناحية المشرق إلى الأسطوان التى دون

---

(١) وجاه القبر : فى مواجهته

المربعة التى عند القبر ،وعلامة تلك الأسطوان أن لها نجافا(١) طالعاً فى الرحبة من بين الأساطين ، ومن المغرب إلى الأسطوان التى تلى المربعة التى لها نجاف(١) أيضاً من بين الأساطين ، وظهر ذلك أى حد المسجد بحجارة ، وعبارة يحيى : وقد صمد بحجارة تحت الحصباء ، منها أرفة عند الأسطوان التى بين أسطوان التوبة و بين القبر فى صف الأسطوان التى لها نجاف ، ومن المغرب مثل ذلك بأرفة حجارة فى الأرض مبنية ، وترك مما يلى الشام لم يزد فيه ، انتهى كلام ابن زبالة بحروفه .

وقوله « ومن المغرب مثل ذلك » أى ظهر الحد بأرفة حجارة فى الأرض ، ولا أدرى معنى قوله بأرفة(٢) .

وذكر ابن زبالة أيضا فى موضع آخر ذَرْعَ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان فى زمنه ، يعنى ما استقر عليه فى آخر الأمر ، ثم قال : وحده من شرق المنبر أربع أساطين ، ومن غربيه أربع أساطين ، انتهى .

والعجب من ابن النجار فَمَنْ بعده من المؤرخين حيث لم يتعرضوا لهذا ، لكن ابن النجار اعتذر فى أول كتابه بأنه كان مجاورا بالمدينة ، ولم تكن كتبه حاضرة عنده ، وذكر ما يقتضى أنه كتب ذلك مما علق بفكره ، والمطرى جرى على منواله ، وابن زبالة ويحيى عمدة فى ذلك ؛ فإنهما أقدم مَنْ أرخ للمدينة لأن ابن زبالة هو محمد بن الحسن أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس ، ويؤخذ من كلامه أنه وَضَع كتابه فى صفر سنة تسع وتسعين ومائة ، وأما يحيى فهو من أصحاب أصحابه ، وكانت وفاته سنة سبع وسبعين ومائتين عن ثلاث وستين سنة ، وأما ابن شبة فكان معاصرا ليحيى وقبله بيسير ، ولم أظفر من كتابه بهذا المحل المشتمل على ذكر المسجد ، ولو ظفرت به لكان الشفاء ؛ فإنه يوضح الأمور إيضاحا تاما ، وهو إمام ثقة ، وابن زبالة وإن كان ضعيفا لكن اعتضد بموافقة يحيى له وروايته لكلامه من غير تعقيب .

(١) أصل النجاف — بزنة الكتاب — عتبة الباب ؛ فالمراد هنا أن لهذا الأسطوان دكا فى الأرض تعتمد عليه وتعرف به

(٢) قد ذكرنا لك أن الأرفة بضم الهمزة الحد الذى تحدبه الأرضون

ثم ظفرتُ فى كلام المرجانى نقلا عن المحاسبى بما يوافق كلامه ؛ فهو العمدة عندى .

قال المرجانى : قال الحارث بن أسد المحاسبى : حد المسجد الأول ستة أساطين فى عرضه عن يمين المنبر إلى القناديل التى حذاء الخوخة ، وثلاث سوَارٍ عن يساره من ناحية المنحرف منه ، ومنتهى طوله من قبلته إلى مؤخره حذاء تمام الرابع من طيقان المسجد اليوم : أى فى زمنه ، وما زاد على ذلك فهو خارج عن المسجد الأول ، قال ـ يعنى المحاسبى ـ : وقد روى عن مالك أنه قال : مؤخر المسجد بحذاء عضادة الباب الثانى من الباب الذى يقال له باب عثمان ، أعنى العضادة الآخرة السفلى ، وهو أربع طيقان من المسجد ، ثم قال : والروضة ما بين القبر والمنبر ، إلى آخر ما قدمناه عنه .

وقوله « عن يمين المنبر » أى فى جهة المشرق ، لما سبق عنه خلاف ما تقدم فى كلام ابن زبالة ، فإنه عنى يمين مستقبل المنبر ، والطيقان التى ذكرها لها ذكر فى كلام ابن زبالة ويحيى كما تقدم ، وهى غير موجودة اليوم ، والباب الثانى من باب عثمان هو المعروف اليوم بباب النساء ؛ فهو صريح فى رَدِّ ما تقدم من تحديد جهة الشام بالحجرين الموجودين اليوم فى صحن المسجد ، ومؤيد للرواية المتقدمة فى الذرع ، وهى رواية مائة ذراع فى مائة ذراع ؛ لأنه يقرب من ذلك .

وقد تحصَّلْنا من هذا مع ما تقدم عن المتأخرين على خلاف فى نهاية المسجد النبوى من جهة المغرب .

فأحد الأقوال : أنه إلى الأسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة ، وهو الذى عَوَّلَ عليه ابن النجّار ومن اتبعه .

والثانى : أنه إلى التى تليها ، وهى الثانية من المنبر من تلك الجهة أيضا ، وهما بعيدان .

والثالث : أنه إلى الأسطوانة الثالثة من المنبر فى تلك الجهـة ، وقد اقتضى كلام ابن زبالة أن ذلك حد المسجد قبل زيادة النبى صلى الله عليه وسلم فيـه ، خلاف ما يظهر من كلام المحاسبى .

والرابع : أنه إلى الأسطوانة الرابعة من المنبر ؛ لما تقدم من أنه كان على ثلاثة أساطين عن يمين المنبر ؛ فيكون جداره الغربى فى موضع الأسطوانة الرابعة فى صفها من جهة القبلة أسطوان مربع من أسفله رفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وفى صفه من جهة الشام أسطوان محراب الحنفية المحدث .

والخامس : أنه إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ؛ لما تقدم من أن النبى صلى الله عليه وسلم زاد فيه بعد فتح خيبر من جهة المغرب بقدر أسطوان آخر ، كما يؤخذ مما تقدم ، ولما صرح به ابن زبالة كما قدمناه أيضا حيث قال فى حده : وعن غربيه أربع أساطين ؛ فينتهى حده إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ، وهى التى تلى الأسطوانة المذكورة فى جهة المغرب فى صفها ، وهى مربعة من أسفلها بقدر الجلسة أيضا ، وفى صفها من جهـة الشام الأسطوان التى تلى محراب الحنفية من جهة المغرب ، فهاتان المربعتان هما اللتان يتردد فيما يكون منهما فى موازاة حد المسجد النبوى من جهة المغرب ، وقد ذهب تربيعهما فى العمارة المتجددة فى زماننا بعد الحريق ؛ والمربعة الثانية — أعنى الخامسة من المنـبر — هى التى يترجح عندى أيضا ؛ لأن تجاهها فى حائط القبلة طراز آخذ من السقف نازل إلى العصابة السفلى الظاهرية ، لـكنه انقشر بعضه عند إصلاح العصابة العليا وتبييض الجدار فى العمارة التى أدركناها أولا ، وذهب منـه ما كان بين العصابتين ، وبعض ما فوق العليـا ، وبقى منه ما بين العصابة العليـا والسقف ، ثم ذهب بقيته فى الحريق الحادث فى زماننا ، وبقى موضعه أصباغ ملونة فى الجـدار من صناعة الأقدمين ، وقد ذهب ذلك عند هدم الجدار القبلى ؛ فالظاهر أنه علامـة نهاية

المسجد النبوى من هذه الجهـة ، خلاف ما سيأتى عن المطرى فى جَعْـلِهِ علامةً لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ لوجوه :

الأول : أنى ذَرَعْتُ من الأسطوان التى المنبر إلى الأسطوان المحاذية لهـذا الطراز ؛ فكان ذلك سبعا وثلاثين ذراعا ، فإذا أضفنا ذلك إلى الذَّرْع المتقدم فيما بين الأسطوان التى تلى المنبر و بين الحجرة الشريفة ، وهو نحو الستين ذراعا كما تقدم ، قارَبَ ذلك المائة التى تقدمت الرواية بها .

الثانى : أنه يبعد أن يجعل هذا الطراز لزيادة عثمان رضى الله عنـه كما زعمه المطرى ، ويترك التعليم للمسجد الأصلى والاعتناء به أشد . وقد قال ابن زبالة : إن له عـلامات فى الفسيفساء ، والظاهر أن الفسيفساء لما زالت جعل هذا بدلها .

الثالث : أنه سيأتى أن عمر لما زاد فى المسجد جعل عرضه مائة وعشرين ذراعا ، وأنه لم يزد فيه من جهة المشرق شيئا ؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه من جهة المشرق الحجرة الشريفة ، وقد علمت أن من الحجرة الشريفة إلى ما يحاذى الطراز المذكور ينقص عن المـائة ، فـكيف يكون نهاية زيادة عثمان ؟ وعثمان قد زاد أسطوانا من جهة المغرب على زيادة عمر ، فلو كان ذلك الطراز نهاية زيادة عثمان لزم أن يكون عرض المسجد فى زمن عمر نحو التسعين ، ولا قائل به .

الرابع : أنه سيأتى أن عثمان رضى الله عنه لم يزد فى جهة المغرب غير أسطوانة واحدة ، وأن زيادة الوليد من المغرب أسطوانتان ، ولاشك أن من الأسطوانة التى تحاذى الطراز المذكور إلى جدار المسجد الغربى خمس أساطين ، فإذا سقط منها ثلاث أساطين لعثمان رضى الله عنه وللوليد بقى أسطوانتان لزيادة عمر رضى الله عنه ، وهما يقربان من عشرين ذراعا التى زادها عمر رضى الله عنه على المائة كما سيأتى .

الخامس : أن موضع المنبر لم يغير كما سيأتى ، ويبعد كلَّ البعدِ أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم موضع منبره فى طرف مسجده ولا يتوسط أصحابه فى حال قيامه .

السادس : أنه سيأتى أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد شيئا من دار العباس وأن ما بقى منها زاد عثمان رضى الله عنه بعضه ، وما بقى دخل فى دار مَرْوَان بن الحكم . وروى يحيى فى قصة زيادتها ما يصرح بأنها كانت ملاصقة بجدار المسجد النبوى ، بل روى أنه كان لها ميزاب يصب فيه ، وقد نقل يحيى أنها كانت فيما بين الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم ، أى والباب الذى يلى دار مروان ابن الحكم ؛ لما تقدم من دخول بعضها فى دار مروان ؛ فوجب أن تكون المربعة المذكورة أول دار العباس وآخر المسجد النبوى .

السابع : ما قدمناه من أن المربعة الغربية إذا أطلقت ، فالمراد بها الأسطوانة التى كانت ركن صحن المسجد فى المغرب عند نهاية المسقف القبلى قبل زيادة الرواقين الآتيين فيه ، وهى المثمنة اليوم ؛ فهى المرادة بما تقدم عن الجمهور من أن المسجد النبوى كان إلى الفرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والتى فى القبر كما نقله ابن زبالة ، ولا شك أن الأسطوانة الخامسة من المنبر فى جهة المغرب دون المربعة المذكورة ؛ لأن المربعة المذكورة هى السادسة من المنبر ، فوضح أنها المراد بذلك ، فيكون الجمهور على رواية أن المسجد كان مائة فى مائة ، ومما يرجح هذه الرواية أيضا ما تقدم عن المحاسبي من تحديد مؤخر المسجد الأول نقلا عن مالك بعضادة الباب الثانى من باب جبريل — وهو باب النساء — وما سيأتى من أن باب الرحمة — ويعرف بباب عاتكة — لم يغيره عمر رضي الله عنه ، يعنى أنه نقله فأخَّره فقط وجعله فى تجاه الباب الأول ، لأنه زاد فى المسجد من جهة المغرب ، و بين باب الرحمة و بين الحجرين اللذين ذكر أنهما حد المسجد

من جهة الشام تفاوت ظاهر ؛ لتأخره عن موازاتهما كثيرا ، وكأنهما إنما جعلا هناك تميزا لفوهتى بالوعة عندهما الحجران المذكوران هناك ؛ فالذى يترجح فى النقد رواية المائة وما ذكرناه من التحديد ، ويحتمل أن ابن النجار لما رأى اختلاف الروايات أراد الأخذ بالأقل لأنه المحقق فذكر التحديد المتقدم ، وتبعه مَنْ بعده ، على أنه اعتذر فى أول كتابه بغيبة كتبه ، وأن الحفظ قد يزيد وينقص ، ولما اتضح ذلك للمقَرّ الشجاعى شاهين الجمالى ناظر الحرم الشريف النبوى وشاد عمائره وشيخ خدامه اتخذ لأعالى الأسطوانة الخامسة من المنبر من صف الأساطين التى فى قبلة المنبر طرازاً متصلا بالسقف منقوشا فيه أن ذلك هو الذى استقر عليه الأمر فى نهاية المسجد النبوى وحده ، فالله تعالى يوفقه لمداومة على حفظ الحدود ، ويلحقه بالمقربين الشهود .

ويتفرع على ذلك مسألة ذكرها النووى فقال فى شرح مسلم والمناسك وغيرهما : إن الصلاة إنما تتضاعف فى المسجد الذى كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم دون بقية الزيادات ، ولم يحك غيره ، لكن الخطيب بن حملة نقل عن المحب الطبرى أن المسجد المشار إليه فى حديث المضاعفة هو ما كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم مع ما زيد فيه ، لأخبار وآثار وردت فى ذلك ، واستحسنه ابن حملة على ما ذهب إليه النووى فى كتبه من التخصيص ، مع أن البرهان ابن فرحون نقل فى شرحه لابن الحاجب الفرعى أنه لم يخالف فى هذه المسألة غير النووى ، وأن الشيخ محب الدين الطبرى نقل فى كتابه الإحكام أن النووى رجع عن ذلك ، قال : ونقل أبو عبد الله بن فرحون فى شرح مختصر الموطأ أنه وقف على كتاب من كتب المالكية فيه أن مالكا سُئل عن ذلك فقال : ما أراه عليه السلام أشار بقوله : « فى مسجدى هذا » إلا لما سيكون من مسجده بعده ، وأن الله أطلعه على ذلك ، انتهى .

قلت : أما قوله « إنه لم يخالف فى ذلك إلا النووى » فممنوع ؛ فقد نقل ذلك ابنُ الجوزى فى الوفاء عن ابن عقيل الحنبلى ، وأما ما نقله عن الإحكام للطبرى فقد راجعتها فرأيته ترجم لبيان أن مسجده صلى الله عليه وسلم المشار إليه بالتفضيل هو الموجود فى زمنه مع ما زيد فيه ، وأورد بعضَ الأخبار الآتى ذكرها فى آخر الفصل الثانى عشر ، ثم قال : وقد يتوهم بعضُ مَنْ لم يبلغه ذلك قَصْرَ الفضيلة على الموجود فى زمنه صلى الله عليه وسلم لمكان الإشارة ، وقد وقع ذلك لبعض أئمة العصر ، فلما رويت له ما سبق جَنَحَ إليه وتلقاه بالقبول ، انتهى .

فكأن ابن فرحون فهم أن المراد من قولهم « بعض أئمة العصر » النووى .

وأما ماحكاه عن مالك فقد نقله الأقشهرى فى روضته عن عبد الله بن نافع صاحب مالك عن مالك ، ولفظه فى أثناء كلام : قيل له — أى لمالك — فحدُّ المسجد الذى جاء فيه الخبرُ هو على ما كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم أوعلى ما هو الآن ؟ قال : بل هو على ما هو الآن ، قال : لأن النبى صلى الله عليه وسلم أُخْبِرَ بما يكون بعده ، وزُوِيَتْ له الأرض فأُرِىَ مشارقَها ومغاربها ، وتحدث بما يكون بعده ، فحفظ ذلك مَنْ حفظه فى ذلك الوقت ، ونسى ذلك من نسيه ، ولولا هذا ما استجاز الخلفاء الراشدون المهديون أن يزيدوا فيه بحضرة الصحابة ولم ينكر عليهم ذلك منكر ، انتهى .

قلت : ومتمسَّكُ مَنْ ذهب إلى التخصيص الإشارة فى قوله « مسجدى هذا » ولعله صلى الله عليه وسلم إنما جاء بها ليدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة غير هذا المسجد ، لا لإخراج ما سيزاد فيه ، وقد سَلَّم النوويُّ أن المضاعفة فى المسجد الحرام تعم ما زيد فيه ، فليكن مسجد المدينة كذلك ، كما أشار إليه

ابن تيمية ، قال : وهو الذى يدل عليه كلامُ الأئمة المتقدمين وعملهم ، وكان الأمر عليه فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما ، فإن كلا منهما زاد فى قبلة المسجد ، وكان مقامه فى الصلوات الخمس فى الزيادة وكذلك مقام الصف الأول الذى هو أفضل مايقام فيه ، ويمتنع أن تكون الصلاة فى غير مسجده أفْضَلَ منها فى مسجده ، وأن يكون الخلفاء والصفوفُ الأول كانوا يصلون فى غيرمسجد[ه]، قال : ومابلغنى عن أحد من السلف خلاف هذا ، إلا أن بعض المتأخرين ذكر أن الزيادة ليست من مسجده ، وما علمت له سلفاً فى ذلك .

وسيأتى فى زيادة عمر بن الخطاب ما ورد من الأخبار والآثار المقوية لذلك وليست مسألة الحلف على أن لا يدخل هذا المسجد فزيد فيه من هذا القبيل ، لأن الأيمان مَبْنَاها على العرف .

الفصل الثالث

فى مقامه الذى كان يقوم به صلى الله عليه وسلم فى الصلاة قبل تحويل القبلة، وبعد ما جاء فى تحويلها .

روينا فى البخارى عن البَرَاء بن عازب رضى الله عنه قال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّى نحوَ بيتِ المقدس ستةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة ، فأنزل الله تعالى « قَدْ نَرَى تقلبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ »(١) فتوجَّه نحوَ الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود « ماوَلَّاهم عن قبلتهم التى كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٢) فصلَّى مع النبى صلى الله عليه وسلم رجلٌ ، ثم خرج بعد ما صلى ، فمر على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال : هو يشهد أنه صَلَّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه توجَّهَ نحو الكعبة ، فتحرَّفَ القومُ حتى توجهوا نحو الكعبة .

---

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

(٢) من سورة البقرة من الآية ١٤٢ .

وأسند يحيى عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وَقَفَ يصلى اُنتظر أمْرَ الله فى القبلة ، وكان يفعل أشياء مما لم يؤمر بها ولم يُنْهَ عنها من فعل أهل الكتاب ، قال : فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلِّى، فأشار له جبريل : يامحمد صَلِّ إلى البيت ، وصَلّى جبريلُ عليه السلام إلى البيت ، قال : فدَار النبى صلى الله عليه وسلم إلى البيت ، قال: فأنزل الله تعالى « قَدْ نرى تَقَلُّبَ وجهك فى السماء فلنولينك قِبْلَةً ترضاها » إلى « وما الله بغافل عما تعملون [1] » قال : فقال المنافقون : حَنَّ محمد إلى أرضِهِ وقومِهِ ، وقال المشركون : أراد محمدٌ أن يجعلنَا له قبلةً ، وأن يجعلنا له وسيلة ، وعرف أن ديننا أهدى من دينه ، وقالت اليهود للمؤمنين : ما صَرَفكم إلى مكة وتركتم قبلة موسى ويعقوب والأنبياء ؟ والله ما أنتم إلا تَعْبَثُون ، وقال المؤمنون : لقد ذهب منا قوم ماتوا ما ندرى أكُنَّا نحن وهم على قبلة أم لا ؟ فأنزل الله تعالى فى ذلك « سيقول السفهاء من الناس » إلى قوله « إن الله بالناس لرؤف رحيم [2] » .

وروى ابن زبالة عن عثمان بن عبد الرحمن قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذاوقفَ يصلى انتظرَ أمْرَ الله فى القبلة ، وكان يفعل أشياء مما لم يؤمر بها ولم يُنْهَ عنها من فعل أهل الكتاب، فبينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصلى الظهر فى مسجده قد صلى ركعتين إذ نزل عليه جبريلُ فأشار إليه أنْ صَلِّ إلى البيت ، وصلى جبريل إلى البيت ، وذكر نحو ما تقدم .

وأسند يحيى عن رافع بن خديج قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين، وأمر أن يُوَجَّه إلى المسجد الحرام، فاستدار، قال رافع : فأتانا آتٍ ونحن نصلى فى بنى عبد الأشهل فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُمِرَ أن يوجه إلى الكعبة ، قال : فأدارَنا إمامُنَا إلى الكعبة ودُرْنَا معه .

(١) من سورة البقرة ، الآية ١٤٤ .
(٢) من سورة البقرة الآيتين ١٤٢ و ١٤٣ .

وعن ابن عمر قال : بينما نحن فى صلاة الصبح بقُبَاء جاءهم رجل فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أُنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمِرَ أن يستقبل الكعبة ، ألا فاستقبلوها، وكانت قبلة الناس إلى الشام ، فاستداروا وتوجَّهُوا إلى الكعبة ، وهو فى الصحيحَين بلفظ: كانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة ، وفى لفظ : كانوا ركوعا فى صلاة الصبح .

وعن عثمان بن محمد بن الأخنس أنه صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه فيه — يعنى فى مسجد القبلتين — الظهر ، فلما صلى ركعتين أمر أن يُوَجه إلى الكعبة، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، واستقبل الميزاب .

وعنه أيضاً نحوه ، وأن الفريضة كانت الظهر ، وأنها يومئذ كانت أربع ركعات .

وعن سعيد بن المسيب قال : صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس سبعةَ عشَرَ شهرا ، وصُرِفت القبلة قَبْلَ بدرٍ بشهرين ، والثبت عندنا أنها صرفت فى الظهر فى مسجد القبلتين .

وفى رواية أخرى عنه : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الله بعد أن قدم المدينة نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم حولت القبلة قبل بدر بشهرين .

وعن كثير بن عبدالله المزنى عن أبيه عن جده قال: صُرِفت القبلة يوم الاثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً .

وفى مسلم عن البَرَاء بن عازب : صَلَّيْتُ مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً حتى نزلت الآية التى فى البقرة « وَحَيْثُ ما كنتم فولوا وجوهكم شَطْرَه[1] » فنزلت بعد ما صلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فانطلق رجل من القوم فمر بناسٍ من الأنصار وهم يصلون ، فحدثهم بالحديث ، فولَّوْا وجوهَهم قبل البيت .

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

تاريخ تحويل القبلة

وفى رواية له عنه أيضاً : ستةعشر شهراً ، أو سبعة عشرشهراً ، على الشك .

وعند الزمخشرى : صُرِفت القبلة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد بنى سَـلِمة — يعنى مسجد القبلتين — وقد صلى بأصحابه ركعتين من صـلاة الظهر ، فتحول فى الصلاة ، واستقبل الميزاب، وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال .

وروى ابن أبى حاتم فى تفسيره من طريق تويلة بنت أسلم قالت : صليتُ الظهر والعصر فى مسجد بنى حارثة ، فاستقبلت مسجد إيلياء ، فصلينا سجدتين : أى ركعتين ، ثم جاءنا مَنْ يخبرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام ، فتحول النساء مكان الرجال ، والرجال مكان النساء ، فصلينا السجدتين الباقيتين إلى البيت الحرام .

قال الحافظ ابن حجر : وهذه القصة المرادة بقوله فى الحديث المتقدم « فمر على قوم من الأنصار يصلون فى صلاة العصر نحو بيت المقدس » فهؤلاء القوم هم بنو حارثة ، والمار عباد بن بشر ، ووصل الخبر وقت الصبح إلى أهل قُبَاء ، فلا منافاة بين الحديثين .

وسيأتى فى مسجد القبلتين أن ابن زبالة نقل أن القبلة صُرِفت ونَفَر من بنى سَلِمة يصلون الظهر فى مسجد القبلتين ، فأتاهم آتٍ فأخبرهم وقدصلوا ركعتين فاستداروا حتى جعلوا وجوههم إلى الكعبة ، فبذلك سمى مسجد القبلتين .

قال المجد : فعلى هذا كان مسجد قُبَاء أولى بهذه التسمية .

مدة الصلاة إلى بيت المقدس

وعند أبى القاسم القُشَيرى فى لطائف التفسير : صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس بعدقُدُومه المدينة مهاجرا ستة عشر شهرا عن قتادة ، وقيل : سبعة عشر شهرا عن ابن عباس ، وقال أنس : كان تسعة أشهر أو عشرة أشهر ، وقال معاذ بن جبل : ثلاثة عشر شهراً استمالةً لقلوب اليهود أن يصلى إلى قبلتهم ربما يرغبون فى دينه ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم كره موافقتهم فى أمر القبلة لما

قالوا : لولا أنَّ ديننا حق لما صلى إلى قبلتنا ، ولما اسْتَنَّ بسنتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل : وَدِدْتُ أن ربى صرَفنى عن قبلة اليهود إلى غيرها ، فقال جبريل: إنما أنا مَلَكٌ عبد ، لا أملك شيئاً ، فَسَلْ ربك ، فصعد جبريل السماء ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصحراء نحو أُحُدٍ يصلى ههنا ركعتين وههنا ركعتين ، ويدعو الله أن يُجيز له فى ذلك ، فلم يزل كذلك يديم النظر إلى السماء ، حتى دخل ناحية أحد ، فأنزل الله تعالى فى رجب بعد زوال الشمس قبل الظهر « قَدْ نَرَى تقلب وجهك فى السماء[1] » الآية ، وصُرِفت القبلة ، وذلك قبل بدر بشهرين ، وفى السير لابن حبان : حولت بعد سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام ، وحديث البراء المتقدم رواه ابن خُزَيمة فى صحيحه «ستة عشر شهراً» على الجزْم كرواية مسلم الأولى ، وقال الشيخ شرف الدين الدمياطى : حُوِّلت القبلة نصف رجب بعد خمسة عشر شهرا ونصف ، ونقل النووى فى سير الروضة عن محمد بن حبيب الهاشمى أن التحويل يوم الثلاثاء النصف من شعبان من السنة الثانية . ونقل المجد عن ابن حبيب أنها حُوِّلت فى النصف من شعبان فى الركعة الثالثة ، وقيل : فى صلاة العصر . وعند النحاس بعد بضعة عشر شهرا . وعن عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك : صُرِفت فى جُمادى ، قال : وهو أولى الأقوال بالصواب . وقال ابن جرير عن مُعاذ: بعد ثلاثة عشر شهراً من مَقْدَمه المدينة ، قال : وعن أنس عشرة أو تسعة أشهر ، انتهى مانقله المجد .

وقت تحويل القبلة

وقال ابن سعد : يقال : إنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين من الظهر فى مسجده بالمسلمين ، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام ، فاستدار ودار معه المسلمون ، ويقال : زار النبي صلى الله عليه وسلم أمَّ بِشْر بن البَرَاء بن مَعْرور فى بنى سَلِمة وصنعت له طعاما ، وحانت الظهرُ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ركعتين ، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فسمى مسجد

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

القبلتين . قال ابن سعد : قال الواقدى : هذا أثبت عندنا .

أول صلاة إلى الكعبة

وفى الصحيح أن أول صلاة صلاها ـ أى متوجها إلى الكعبة ـ صلاة العصر .

قال الحافظ ابن حجر : التحقيقُ أن أول صلاة صلاها فى بنى سَلِمة الظهر ، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوى العصر . قال : وأسانيد الروايات المتقدمة — أعنى رواية ثلاثة عشر شهرا وتسعة عشر شهرا ونحوها — شاذة . قال : وأما رواية الصحيح فطريق الجمع بين رواية سبعة عشر شهرا وستة عشر ، ورواية الشك فى ذلك : أن مَنْ جَزَم بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا ، وألغى الأيام الزائدة ، ومَنْ جزم بسبعة عشر شهرا عدهما معا ، ومن شك تردد فى ذلك ، وذلك أن القدوم كان فى شهر ربيع الأول بلا خلاف ، وكان التحويل فى نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح ، وبه جزم الجمهور ، ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ، وقول ابن حبان : « سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام » مبنىٌّ على أن القدوم كان فى ثانى عشر ربيع الأول .

وقال الربيع : كان النبى صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الهجرة مخيرا فى التوجه إلى بيت المقدس أو الكعبة ، إلا أنه أمَرَه الله بالتوجه إلى بيت المقدس ، فكان التوجه إليه فرضا ، وإن كان مخيرا فيه كالمخير فى كفارة اليمين أىَّ واحدٍ اختار فهو فرض عليه ، وقال ابن عباس : بل كان الفرض التوجه إلى بيت المقدس ثم نسخ .

وقال ابن العربى وغيره : نُسِخت القبلة مرتين .

إلى أى جهة كانت الصلاة بمكة قبل الهجرة

وقال ابن رشد فى البيان : ولم يختلف فى أن صلاته صلى الله عليه وسلم كانت بالمدينة إلى بيت المقدس حتى حولت القبلة ، وإنما اختلف فى صلاته بمكة قبل قدومه المدينة ، فروى أنها كانت إلى الكعبة ، وروى أنها كانت إلى بيت المقدس ، وروى أنه كان يصلى إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه — أى بين الركنين

اليمانيين — وحكى ابن عبدالبر الاختلافَ فى صلاته صلى الله عليه وسلم بمكة : هل كانت إلى الكعبة ، أو بيت المقدس ؟ ثم قال : وأحسن من ذلك قول من قال : كان يصلى بمكة مستقبل القبلتين يجعل الكعبة بينه و بين بيت المقدس .

وروى الطبرى وغيره عن ابن عباس قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واليهودُ أكثَرُ أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم ، فكان يدعو و ينظر إلى السماء ، فنزلت ، وهو ظاهر فى أن استقبال بيت المقدس كان بِوَحْىٍ ، لا باجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه إنما وقع بعد الهجرة ، لكن أخرج أحمد عن ابن عباس : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبةُ بين يديه » فيجمع بأنه لما هاجر أمر بأن يستمر على الصلاة لبيت المقدس .

وروى الطبرى أيضا من طريق ابن جُرَيج قال : صلى النبى صلى الله عليه وسلم أولَ ما صلَّى إلى الكعبة ، ثم صُرِف إلى بيتِ المقدس وهو بمكة ، وصلى ثلاثَ حِجَج ، وهاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا ، ثم وَجَّهَهُ الله إلى الكعبة .

كيف حررت قبلة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم

وقال ابن النجار : وصلى النبى صلى الله عليه وسلم فيه — أى فى مسجده — إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم أمر بالتحول إلى الكعبة ، فأقام رهطا على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال : يا رسول الله ضَعِ القبلةَ وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كلَّ جبل بينه و بينها ، فوضع القبلة وهو ينظر إلى الكعبة لا يَحُولُ دون نظره شىء ،

فلما فرغ قال جبريل عليه السلام هكذا ، فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

وأسند يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن الخليل بن عبد الله الأزدي عن رجل من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام رَهْطاً على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله ، ضَعِ القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كلَّ جبل بينه وبين القبلة ، فوضع تربيع المسجد وهو ينظر إلى الكعبة لا يَحُولُ دون نظره شيء ، فلما فرغ قال جبريل عليه السلام بيده هكذا ، فأعاد الجبال والشجر والأشياء على حالها ، وصارت قبلته إلى الميزاب .

وعن نافع بن جُبَير من طرق مرفوعا : ما وضَعْتُ قبلة مسجدى هذا حتى رُفعت إلى الكعبةُ فوضعتها أؤمها [1] .

وعن ابن عَجْلاَن قال : وضَع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مسجده وجبريل قائم ينظر إلى الكعبة ، ثم كشف له ما بينه وبينها .

وعن ابن شهاب مرفوعا : ماوضعت قبلة مسجدى هذا حتى فُرِجَ لى مابينى وبين الكعبة فوضعتها أؤُمها [1] .

وأسند العراقى فى ذيله من طريق أبى على بن شَاذَانَ بسنده عن إبراهيم بن دينار عن مالك بن أنس عن زيد بن أنس عن زيد بن أسلم قال : قال ابن عمر : وضع جبريل عليه السلام القبلَةَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، تفرد به عن مالك ومحمد بن إبراهيم — قلت : وهو ثقة .

وفى العُتْبية : قال مالك : سمعت أن جبريل عليه السلام هو الذى أقام لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة المسجد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد المدينة ، انتهى .

---

(١) أؤمها : أقصدها .

وأسند ابن زبالة عن أبي هريرة قال : كانت قبلة النبي صلى الله عليه وسلم الشام ، وكان مُصَلاَّه الذى يصلى فيه بالناس إلى الشام فى مسجده أن تضع موضع الأسطوان المخلَّق اليوم خَلْفَ ظهرك ثم تمشى إلى الشام ، حتى إذا كنت بيمنى باب آل عثمان كانت قبلته ذلك الموضع .

قال الذهبي : هذه القبلة كانت فى شمالى المسجد ، فلما حولت القبلة بَقِيَ حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة ، انتهى . والأسطوانة المخلقة هى التى تدعى أسطوان عائشة رضى الله عنها فيما قاله المطرى ، وسيأتى ما نقله ابن زبالة فيها من أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضعة عشر يوما بعد أن حولت القبلة ، ثم تقدم إلى مُصَلاَّه الذى وُجَاه المحراب فى الصف الأوسط ، هذا لفظه بحروفه .

وقوله : « وجاه المحراب » يريد المحراب العثمانى الكائن فى جدار القبلة .

وقال المطرى : إن الحائط القبلى — أى الأول — كان مُحَاذيا لمصلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لما ورد أن الواقف فى مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون رمانة المنبر الشريف حَذْوَ منكبه الأيمن ، قال : فمقام النبي صلى الله عليه وسلم لم يغير باتفاق ، وكذلك المنبر لم يؤخر عن منصبه الأول : أى من جهة القبلة ؛ لما سيأتى أنه زِيدَ فيه من جهة الشام ، قال : وإنما جعل هذا الصندوق الذى قبالة مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سترة بين المقام وبين الأسطوانات ، انتهى .

وسيأتى فى ذكر الجذع الذى كان يخطب النبي صلى الله عليه وسلم إليه اختلافٌ فى محله : هل هو عن يمين المصلى الشريف أو عن يساره لجهة القبر الشريف ؟

وسيأتى ما عبر به ابن النجار فى حكاية الرواية الأولى حيث قال : كان فى موضع الأسطوانة المخلَّقة التى عن يمين محراب النبى صلى الله عليه وسلم عند الصندوق

والرواية الثانية هى المرادة بما أسنده يحيى عن ابن أبى الزناد وغيره من علماء المدينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جِذْعٍ فى المسجد كان موضعه عند الأسطوانة المُخَلَّقة التى تلى القبر : أى فى جهة القبر التى عن يسار الأسطوانة المخلقة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى عندها التى هى عند الصندوق ، هذا لفظه ، والغرضُ مِن إيراده هنا قوله : « التى عن يسار الأسطوانة المخلقة .. إلى آخره » فهذه الأسطوانةُ المشارُ إليها — أعنى التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إليها — هى التى عن يمين الواقف فى المصلى الشريف من جهة القبلة ، وعلم أن وَضْعَ الصندوق هناك كان من الزمن القديم ، لكنه كان صندوق مصحف كما سيأتى ، ووصفها بالمخلقة لا يشكل عليك بما اشتهر من وصف أسطوانة المهاجرين — وهى أسطوانة عائشة — بالمخلقة ، فالوصف بالمخلقة يطلق على أساطين متعددة كما سنوضحه ، ولهذا اشتمل هذا الكلام على وصف كل من هاتين الأسطوانتين بهذا الوصف .

ونقل المرجانى أن فى العتبية ما لفظه : أحَبُّ مواضع التنفل فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصَلاه حيث العمود المخلق ، انتهى .

وقال ابن القاسم : أحَبُّ مواضع الصلاة فى مسجده صلى الله عليه وسلم فى النفل العمود المخلَّق ، وفى الفرض فى الصف الأول ، قال ابن رشد : فى كون العمود المخلق كان قبلةَ النبى صلى الله عليه وسلم أو أقرب إلى قبلته صلى الله عليه وسلم قول ابن القاسم وسماعه .

قلت : وهو دال على أن العمود المخلق هو الذى عند المصلَّى الشريف ، ولهذا رَوَى ابنُ وهب عن مالك أنه سئل عن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل له : أى المواضع أحب إليك الصلاة فيه ؟ قال : أما النافلة فموضع مصلاه ، وأما المكتوبة فأول الصفوف ، انتهى . فعبر هنا عن العمود المخلق بمُصَلاه .

ورأيت فى جامع العتبية من البيان لابن رشد ما لفظه: قال مالك: ليس العمود المخلق قبلة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقبلة النبى صلى الله عليه وسلم هو حذو قبلة الإمام،

و إنما قدمت القبلة حَذْوَ قبلة النبي صلى الله عليه وسلم سواء .

قال ابن رشـد عقبه : وقد مر فى كتاب الصلاة عن ابن القاسم أن مُصَلَّى النبي صلى الله عليه وسلم هو العمود المخلَّق، خلاف قول مالك هنا ، انتهى. وقول مالك « و إنما قدمت القبلة » يشير به إلى المحراب الذى فى جدار القبلة بزيادة عثمان رضى الله عنه ، وهذا الذى ذكره يكاد أن يكون قطعياً ، وليس مراد ابن القاسم إلا أن العمود المخلق أقرب شىء إلى قبلة النبى صلى الله عليه وسلم فيعرف به ، ولهذا نقل ابن النجار عن مالك ما يقتضى أن الأسطوانة المذكورة علم لمُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : قال مالك بن أنس : أرسل الحجاج ابن يوسف إلى أمهات القُرَى بمصاحف ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها كبير ، وكان فى صندوق عن يمين الأسطوانة التى عملت عَلَماً لمقام النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن زبالة فيما سيأتى عنه : إن الخَيْزُرَانَ لما أمرت بأن تخلق المسجد أشار عليهم إبراهيم بن الفضل فزادوا فى خَلُوق أسطوانة التوبة والأسطوان التى هى عَلَم عند مصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخلقوهما حتى بلغوا بهما أسفلهما، وزادوا فى الخَلُوق فى أعلاهما ، انتهى . وقد توهم جماعة أن المرادَ من كلام ابن القاسم ، وما نقل عن مالك ، الأسطوانةُ المعروفة اليوم بالمخلقة ، وهى التى بأوسط الروضة ، وهو مردود ؛ لأن الأسطوانة المذكورة ليست علماً على مصلى الرسول عليه السلام اتفاقاً ، ومنشأ الوهم ظنهم اختصاصها بوصف المخلقة ، وممن اعتقد ذلك الحافظ ابن حجر فقال فى الكلام على قول يزيد بن عبيد « كنت آتى مع سَلَمَة بن الأكوع فيصلى عند الأسطوانة التى عند المصحف » ما لفظه : هذا دال على أنه كان للمصحف موضع خاص به ، ووقع عند مسلم بلفظ : يصلى وراء الصندوق ، وكأنه كان للمصحف صندوق يوضع فيه ، قال : والأسطوانة المذكورة حَقَّقَ لنا بعضُ مشايخنا أنها المتوسطة فى الروضة ، وأنها تعرف بأسطوانة المهاجرين ،

وأمرت بها عائشة لابن الزبير ، ثم وجـدت ذلك فى تاريخ المدينـة لابن النجار ، وذكره قبله محمـد بن الحسن فى أخبار المدينـة ، هذا كلام الحافظ ابن حجر ، ومرادُه بمحمد بن الحسن ابنُ زبالة ، وليس فى كلامه ولا فى كلام ابن النجار ما يقتضى أن الأسطوانة التى عنـد الصندوق هى أسطوانة المهاجرين ، إلا من حيث وصف كل منهما بالمخلقـة ، فتـوهم اتحادهما ، وليس كذلك ، والله أعلم .

محراب المسجد النبوى ، ومتى صنع ؟

وسيأتى أن المسجد الشريف لم يكن له محراب فى عهده صلى الله عليـه وسلم ولا فى عهد الخلفاء بعده ، وأن أول مَنْ أحدَثه عمر بن عبد العزيز فى عمارة الوليد، وزعم الأقشهرى فى روضته أن مصلى النبى صلى الله عليه وسلم فى موضع الصندوق، وفى موضعه اليوم المحراب المرخم المرتفع عن المصـلى الشريف وبنائه ، فإنه قال ومن خطه نقلت : إنه قيل : إن منبر النبى صلى الله عليـــه وسلم لم يتغير تقديماً ولا تأخيرا ؛ فالزيادة وقعت فى المنبر شماليا لا غير ، وحد المنبر الأصلى اليوم مُساوية مع مصلى الإمام ، ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه فى موضع الصندوق اليوم فهو خارج عن حد المنبر ، انتهى . واستنتج من ذلك أن يكون ما حاذى الصندوق يَمْنَة ويَسْرة ، قال : وهو مما زاده عمر روضة من رياض الجنة ، قال : لأن المصلى الشريف روضة بلا شك ، أى فما حاذاه كذلك ، وهو عجيب لم أر من سبقه إليه ، وما زعمه من أن حد المنبر ـ يعنى من القبلة ـ مساوٍ لمصلى الإمام اليوم ، يريد به أن نهاية مصلى الإمام اليوم مساوية لنهاية المنبر من جهة القبلة ، فإنه صور ذلك بخطه كما ذكرناه ، وكأنه توهم أن مصلاه صلى الله عليه وسلم كان فى محرابٍ بارزٍ عن سَمْتِ المسجد ؛ لأنه جعل ما عن يمينه ويساره من زيادة عمر رضى الله عنه ، ولم يقل به أحد ، مع أن ما زَعمه من الاستواء لا يشهد له عقـل ولا نقل ؛ لأن المنبر الذى كان فى زمنه هو المنبر الذى كان فى زمن المطرى ، فإنهما متعاصران ، وقد سبق عن المطرى فى الفصل قبله أن بين المنبر والدرابزين الذى

فى القبلة مقدار أربع أذرع وربع ، وأنه اتضح لنا صحة ما قاله ، وذلك هو محل المنبر النبوى كما سنوضحه ، وعرض الصندوق المذكور وما بعده إلى الدرابزين المذكور ذراعان ونصف راجح ، والمنبر الذى أدركناه أولا لم يكن بينه و بين الدرابزين القبلى سوى ثلاثة أذرع ونصف راجحة ، ومع ذلك فحدُّ المنبر متأخر عن حد مصلى الإمام من جهة القبلة بنحو الذراع ، وعلى ما ذكره المطرى ـ وهو الصواب ـ يكون متأخرا بأزْيَدَ من ذلك ، وذلك فيما يظهر هو القدر الوارد فيما كان بين المنبر والجدار القبلى ، وأوضح من ذلك فى الرد عليه أن يحيى نقل فى كتابه عن محمد بن يحيى صاحب مالك قال : وجدنا ذَرْعَ ما بين مسجد النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان بِعَهْدِه إلى جدار القبلة اليوم الذى فيه المحراب عشرين ذراعا وربعا ، وهذه هى الزيادة التى زيدت بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال المراغى : وقد اعتبرتُه من وَجْهِ سترة مصلى النبى صلى الله عليه وسلم إلى جدار القبلة فكان كذلك ، و به يظهر أن المصلَّى الشريف لم يُغَير عن مكانه ، وأن الصندوق إنما جعل فى مكان الجدار الأول ، انتهى .

وقد اعتبرت ما ذكره من جدار المسجد القبلى إلى طرف المصلى الشريف المحاذى لطرف صندوق السترة ، فكان ذلك إحدى وعشرين ذراعاً ونصف[1] وربع يرجح قيراطاً ، فإذا أسقط من ذلك عرض الجدار ـ وهو ذراع ونصف راجح ـ كان الباقى عشرين ذراعاً وربعاً كما ذكره يحيى ، وقد علمت أن الصندوق المذكور له أصل قديم هناك ، فكيف يكون فى موضع المصلى الشريف ولا ينبه عليه أحد ؟ بل يذكرون ما يدل على خلافه ، بل كيف يمكنون من ذلك ، ويحرمون المسلمين التيمن بمكانه صلى الله عليه وسلم ؟ هذا مما يكاد العقل يُحِيله .

(١) الصواب عربية أن يقول «ونصفاً وربعاً يرجح قيراطاً» .

وقال النووى فى مناسكه مالفظه : وفى إحياء علوم الدين أنه ـ أى المُصلّى ـ يجعل عود المنبر حذاء منكبه الأيمن ، ويستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق ، وتكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه ، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قلت : وكأن المراد من استقبال السارية المذكورة جعلها عن جهة اليمين كما عليه وضع المصلى اليوم . وقد ذكر ابن زَبَالة هذه الأسطوانة ثم قال : حدثنى إبراهيم بن محمد عن غير واحد منهم خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : إذا عدلت عنها ـ أى عن الأسطوانة المذكورة ـ قليلا وجَعَلْتَ الجزعة التى فى المقام بين عينيك والرمانة التى فى المنبر إلى شحمة أذنك قُمْتَ فى مَقَام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن الرمانة المذكورة كانت فى أعلى عمود المنبر النبوى ، ولذا عبر به فى الإحياء .

وسيأتى أنه لما حفر بعد الحريق الثانى لتأسيس المنبر الرخام وجدوا محل المنبر الأصلى شبه حوض من حجر ، وفى جانبيه من المشرق والمغرب فرضتان منقورتان فى الحجر بهما شىء من الرصاص بحيث لا يخفى على مَنْ أحاط عِلماً بصفة المنبر النبوى أنهما محلُّ عَمُوديه كانا محكمين بالرصاص فيهما ، وقد وقفت فى المصلى الشريف مما يلى مؤخرهُ ، وتأملت الفرضة التى مما تلى الروضة فوجدتها فى محاذاة يمينى ، فظهر أنها المرادة .

وأما الجزعة فذكر المطرى أن هذه الجزعة كانت فى المحراب القبلى المقابل للمصلى الشريف ، وأنها أزيلت منه ، قال : وما حققه الغزالى عند ذكر المصلى الشريف بقوله « إذا وقف المصلى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم تكون رُمَّانة المنبر حذو منكبه الأيمن ويجعل الجزعة التى فى القبلة بين عينيه فيكون واقفا فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان قبل حريق المسجد ، وقبل أن يجعل هذا

اللوح القائم فى قبلة مصلى النبى صلى الله عليه وسلم : أى فإنه صار يحجب عن مشاهدة ما فى المحراب القبلى ، قال : وإنما جعل بعد حريق المسجد ، قال : وكان يحصل بتلك الجزعة فتنة كبيرة وتشويش على من يكون بالروضة الشريفة من المجاورين وغيرهم .

وذلك أنه كان يجتمع إليها الرجال والنساء ، ويقال : هذه خرزة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عالية لا تُنَال بالأيدى ، فتقف المرأة لصاحبتها حتى ترق على ظهرها وكتفيها حتى تصل إليهـا ، فربما وقعت المرأة وانـكشفت عورتها ، وربما وقعتا معا .

فلما كان سنة إحدى وسبعمائة جاور الصاحبُ زينُ الدين أحمـد بن محمد المعروف بابن حنا المصرى ، فرأى ذلك ، فاستعظمه وأمر بقلع الجزعة ، فقُلعت ، قال : وهى الآن فى حاصل الحرم ، ثم توجه إلى مكة فى أثناء السنة فرأى أيضاً ما يقع من الفتنة عند دخول البيت الحرام ، وتعلق الناس بعضهم ببعض ، وحَمْل النساء على أعناق الرجال للاستمساك بالعروة الوثقى فى زعمهم ، فأمر بقَلْع ذلك المثال ، وزالت تلك البدعة أيضاً، ولله الحمد .

قلت : والظاهر أن هذه الجزعة هى التى ذكرها ابن جُبَير فى رحلته فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة لما قدم المدينة ، قال : رأيت على المحراب مسمارا مُثبتاً فى جداره فيـه شِبْهُ حُقٍّ صغير لا يعرف من أى شىء هو يزعمون أنه كأس كسرى ، وشاهدت على رأس المحراب حجرا مربعاً أصفر قدر شبر فى شبر ظاهر البريق والبصيص ، يقال : إنه مرآة كسرى ، والله أعـلم بحقيقة ذلك كله ، انتهى .

ثم رأيت فى العِقْدِ لابن عبد ربه ـ وهو أقدم من ابن جُبَير ـ أن على ترس يعنى المحراب العثمانى فضة ثابتة غليظة فى وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة

رضى الله عنها ، ثم فوقه إزار رخام فيه نقوش صفائح ذهب مثمنة فيها جزعة مثل جمجمة الصبى الصغير مسمرة ، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مُخَلَّق بالخَلُوق فيه الوَتِدُ الذى كان صلى الله عليه وسلم يتوكأُ عليه فى المحراب الأول ، انتهى

قلت : وقد سألت عن هـذه الجزعة المتولِّىَ لأمر حاصل الحرم الشريف وخازِنَ دارِهِ ــ وكان قديم الهجرة ــ وغيرهما، فقالوا : إنه ليس عندهم بالحاصل شئ من ذلك،ولعل ذلك ذهب فيما أخذه الأمير جماز عند كسر حاصل الحرم الشريف ، وقد وسع المحراب القبلى عما كان عليـه وزيد فى طوله بعد هدم الجدار القبلى بعد الحريق الثانى

وقال ابن زبالة : إن ذَرْعَ ما بين المنبر ومقام النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يصلى فيه حتى توفى صلى الله عليه وسلم أربعة عشر ذراعا وشبرا

قلت : وقد ذَرَعْتُ ما بين المنبر الموجود قبل الحريق الثانى وأعلى الحفرة الذى ينزل منه إلى درجتها من ناحية مؤخر المصلى الشريف ، فكان أربعة عشر ذراعا ، وعرض الدرجة شبر راجح ؛ فصح ذلك ، وأما حده من جهة المشرق فسيأتى أن جعله على هذه الهيئة الموجودة اليوم أمر حادث

وقد قال ابن زبالة : إن ذَرْعَ ما بين مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم من مسجده الأول و بين أسطوان التوبة سبع عشرة ذراعا ، وأسطوان التوبة فى جهة المشرق ، وقد ذَرَعْتُ ما بينها و بين درجة الحفرة الشرقية فـكانت ست عشرة ذراعا ، فعلمنا بذلك أن المصلى الشريف فى جانب الحفرة الغربى ، وأن مايلى المشرق منها ليس منه ، ويشهد له ما سبق من كلام مالك والإحياء لذكرهما السارية التى عندها الصندوق ، بل فى خط الأقشهرى فى مصنفه فى الزيادة ضبط قول ابن زبالة فيما بين المصلى الشريف وأسطوان التوبة تسع عشرة ذراعا ــ بتقديم التاء على السين ــ وقد ذرعت مابين طرف أسطوان التوبة الشرقى و بين طرف الحفرة

الغربى فكان كذلك

ونقل الأقشهرى أيضا عن أبى غسان أحَدِ أصحاب مالك أن مابين الحجرة الشريفة ومقام النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يقوم فيه ثمانية وثلاثون ذراعا ، وأن مابينه و بين المنبر الشريف مثل ما سبق عن ابن ز بالة ، وقد اختبرت ما بين طرف الحفرة الغربى ورُخَام جدار الحجرة الشريفة فكان ثمانية وثلاثين ذراعا ، فعلمنا أن المحافَظَ عليه فى حد المصلى الشريف هو طرف الحفرة الغربى ، ولم تكن هذه الحفرة فى الزمن القديم ، ولهذا قال المجد : حكى ابنُ النجار الإجماعَ على أن المصلى الشريف لم يغير بتقديم وتأخير ، و إنما غيرت هيئته فى هذا العصر الأخير بجعل المصلى شبه حفير أو حوض صغير منخفض عن موقف المأمومين نحو ذراع بسبب ترخيمه وتكاثر الرمل المفروش به الروضة

قلت : وهو الآن شبه حوض مربع ينزل إليه بدرجة طولهُ ذراعان ونصف وثمن ، وعرضه ذراعان ونصف ونصف ثمن ، لكن زاد وافى طوله فى العمارة الحادثة بعد الحريق أرجح من نصف ثمن ذراع ونحوه فى العرض

قال البدر ابن فرحون وغيره : وما زال العلماء الأئمة يَتَحَرَّجون من ذلك ، وفى أيام القاضى السراج — وهوأول قاض ولى لأهل السنة — فمن بعده كانت ترفع تلك الحفيرة بالرمل حتى تزول الكراهة ، إلى أيام الشرف الأسيوطى ، فأراد طمْسَ الحفرة أو رَفْعَهَا و إزالة الخشب المنقوش أمامها الآتى ذكره ، فقام عليه بعض الناس من الخدام ، واستعانوا عليه بالأشراف ، فكف وانتقل عن المحراب ، وصار يصلى إلى الأسطوانة التى تقابل أسطوانة الوفود — أى من مقدم الروضة — ولزمها إلى أن مات ، وصار من الفقهاء مَنْ يرفع الكراهة بما يحصل من القرب إلى مقامه صلى الله عليه وسلم وموضع قدمه ، وهذه نزغة ؛ فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الموقف سواء ، فمن خالف سنته بالهوى فقد غوى

قلت : وهذه الحفرة بعيدة من موقف النبى صلى الله عليه وسلم لعلو الأرض ؛ لما سيأتى عن البدر ابن فرحون أنهم وجدوا عند تجديد المنارة التى بباب السلام باب مروان وتحصيب المسجد الشريف القديم بعد حَفْر قامة ، ولما اتضح لنا فى العمارة الآتى ذكرها ؛ فقد اعتبرتُ أرضَ الحجرة الشريفة وأرضَ المسجد ، فكان بينهما من التفاوت ذراعان ونصف وأزيد ، لكن مقتضى ما ظهر من الرخام الذى وصفه ابنُ زبالة حول المنبر ومشاهدتنا لما انكشف منه فيما بين المنبر والأساطين التى خلفه عدم بعض أرض هذه الحفرة من محل الموقف الشريف فى ذلك العصر ؛ لأن نسبة ما بين هذه الحفرة والرخام المذكور أقل من نصف ذراع ، وقد حققتُ مسألة انخفاض المصلى الشريف فى كتابى الموسوم « بكشف الجلباب والحجاب عن القدوة فى الشباك والرحاب » ولم يتحرر لى ابتداء ترخيم المصلى الشريف وجعله على هذه الهيئة ، وسماه ابنُ جُبَير فى رحلته بالروضة الصغيرة ، وقال : إن الإمام يصلى بالروضة الصغيرة المذكورة إلى جانبها الصندوق ، وقال قبل ذلك فى وصفها : وبإزائها لجهة القبلة عمود مطبق يقال : إنه على بقية الجذع الذى حَنَّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق ، انتهى .

ولم يذكر فيها ترخيما ولا انخفاضا ، مع ذكره لذلك فى المحل الذى عليه المنبر كما سيأتى ، والظاهر أن حدوث انخفاض المصلى الشريف بما حوله تجدد بعد الحريق الأول ، وقد اقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد الحريق الثانى أن يخفض أرض المسجد حتى تكون مساوية للمصلى الشريف ، فقطع من الأرض نحو ذراع ؛ فكانوا يجدون طبقة من التراب ، وتليها طبقة من الرمل ، حتى وصلوا إلى الأرض المساوية للمصلى الشريف ، وظهر لهم الرخام الذى كان عليه المنبر الشريف بعد حفر نحو نصف ذراع ، وحصل بذلك إزالة هذه البدعة ، ولله الحمد والمنة .

وكان فى قبلة المصلى الشريف صندوق خشب بديع الصنعة يعلوه محراب قد

أُمْتِج الصناع فيه نتائج مبدعة من صنعة النجارة ، والمحرابُ المذكور شبه باب نَقَنْطر لموضع لطيف على ظهر الصندوق المذكور مكتوب فى داخله أمام مُسْتَقْبِلِه بعد البسملة آية الكرسى[١] ، وعلى ظاهر الباب المقنطر بعد البسملة « قد نرى تَقَلُّبَ وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها[٢] » الآية ،وفيه صنعة عجيبة وصبغ باللازَوَرْدِ وتَذْهِيبٌ عجيب يشغل الخاطر ، ويفرق القلب الحاضر ؛ إذ لا قَلْبَ أجمع وأعلى وأرفع من قلب سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد قال فى شأن الخميصة من أجل تلك الأعلام « اذهبوا بخميصتى[٣] هذه إلى أبى جَهْم وائتونى بأنبجانية أبى جهم ، فإنها ألهتنى آنفا عن صلاتى » وسيأتى أنه لما قال عمر بن عبد العزيز بعد زخرفة المسجد لعمرو بن عثمان رضى الله عنه : بناؤنا أحسن أم بناؤكم ؟ فقال له : بنيناه بناء المساجد ، و بنيتموه بناء الكنائس

وقال مالك فيما نقله عنه صاحب التبصرة : كره الناسُ ما فعل فى قبلة المسجد بالمدينة من التزاويق؛ لأنه يشغل الناس فى صلاتهم، ورأى أن يُزَالَ كل ما يشغل الناس عن الصلاة ، وإن عَظُمَ ما كان أنفق فيه فالله تعالى يبعث لهذا المصلى الشريف مَنْ يزيل عنه هذه الزخارف ويسويه كما كان فى زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد أدْعِمَ[٤] هذا المحراب الخشبى من ورائه بدعامة شبه التاج العظيم حتى اتصل بالدرابزين الذى بين الأساطين فى قبلة الروضة ، وبرز عنها ، وجعل فى أعلاه وعن يمينه وشماله مع امتداد الروضة مغارز لفرخات القناديل المسماة بالبزاقات تسرج فى ليالى الزيارات ، وفى داخله كسوة جليلة من الحرير من جنس كسوة الحُجْرة الشريفة ذات طراز منسوج ، وقد احترق ذلك كله فى الحريق الثانى الآتى ذكره ، وذلك بعد تمام هذا التأليف ، فاقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد ذلك إبداله بمحراب مُرَخَّم فى دعامة تبنى فى محل الصندوق المذكور ، لحفروا هناك

(١) هى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة (٢) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

(٣) الخميصة : ثوب مخطط من خز أو صوف ، وقيل : الأسود المخطط خاصة .

(٤) فى المطبوعات «وقد أوهم» تطبيع .

لأساسها نحو القامة ، فوجدوا هناك قبرا بدا لحده مسدودا باللبِن أخرجوا منه بعض العظام ، ووجدوا الأقدمين لما أسسوا الأسطوانة التى عنده حرفوا أساسها عنه قليلا ، فتركوه على حاله ، وأسسوا المحراب المذكور ، ورخّموه بالرخام الملوّن ترخيما بديعا فيه صبغ ذهبي وغيره ، وهو أبهى منظرا من الأول ، وجعلوا أرض المحراب المذكور مرتفعة قليلا على المصلى الشريف ؛ لأنه إنما جعل فى محل الصندوق الذى كان أمام المصلى الشريف ، فليتنبه لذلك ، والله أعلم .

تنبيهات — الأول : قال البخارى فى صحيحه « باب قدركم ينبغى أن يكون بين المصلى والسترة » ثم روى عن سهل بن سعد قال : كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين الجدار ممر الشاة ، ثم روى عن سلَمة — يعنى ابن الأكوع — قال : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة ، تجوزها : أى المسافة ، وهى ما بين المنبر والجدار ، وقوله فى الحديث الأول « كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى مقامه فى صلاته ، وكذا هو فى رواية أبى داود ، وقوله « و بين الجدار » أى جدار المسجد مما يلى القبلة كما صرح به من طريق ابن غسان فى الاعتصام ، ومنه يعلم مافى قول النووى فى شرح مسلم : يعنى بالمصلى موضع السجود ، والحديث الثانى رواه الإسماعيلى بلفظ : كان المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينه و بين حائط القبلة إلا قدر ما تمر العنز . قال الكرمانى فى بيان مطابقته للتبويب : إن ذلك من حيث إنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم بجنب المنبر : أى ولم يكن لمسجده محراب ، فيكون مسافة ما بينه وبين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار ، فكأنه قال : الذى ينبغى أن يكون بين المصلى وسترته قدر ما كان بين منبره صلى الله عليه وسلم وجدار القبلة

قلت : وكأنّ الكرمانى بنى ذلك على ما عهده فى غالب المساجد من أن مصلى الإمام يكون إلى جانب المنبر ، وقد تقدم بيانُ ما بينهما من المسافة وحكايةُ الإجماع على أنه لم يغير ، وأيضا فلا يلزم من كونه صلى الله عليه وسلم كان يصلى

إلى جانب المنبر أن يكون بينه و بين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار كما لا يخفى، وأوضح مما ذكره — كما قال الحافظ ابن حجر — ما ذكره ابن رشد من أن البخارى أشار إلى حديث سعد بن سهل الذى فى باب الصلاة على المنبر فإن فيه أنه صلى الله عليه وسلم « قام على المنبر حين عمل ، وصلى عليه » فاقتضى ذلك أن ما بين المنبر والجدار يؤخذ منه موضع قيام المصلى .

قلت : لكن يلزم من ذلك التأخر عند السجود ؛ لأن ذلك المقدار لا يتأتى فيه السجود ، وقد ثبت رجوعه صلى الله عليه وسلم القَهْقَرَى[1] من أجل السجود لما صلى على المنبر لعدم تأتِّيه عليه .

وقال ابن بطال : هذا أقل ما يكون بين المصلى وسترته ، يعنى قدر ممر الشاة ، وقيل : أقل ذلك ثلاثة أذرع ؛ لحديث بلال أن النبى صلى الله عليه وسلم « صلى فى الكعبة و بينه و بين الجدار ثلاثة أذرع » كما فى الصحيح، وجمع الداودى بأن أقله ممر الشاة، وأكثره ثلاثة أذرع ، وجمع بعضهم بأن الأول فى حال القيام والقعود ، والثانى فى حال الركوع والسجود ، قاله الحافظ ابن حجر .

قلت : ويلزمه التأخر عن موقفه الأول عندهما كما قدمناه ، وهو متعين ؛ إذ لا يتأتى السجود فى أقل من ثلاثة أذرع ، ولهذا كان حريم المصَلِّى الذى يكون بينه و بين سترته ثلاثة أذرع عندنا .

وقال ابن الصلاح : قدروا ممر الشاة بثلاث أذرع[2] .

قال الحافظ ابن حجر : ولا يخفى ما فيه .

قلت : الظاهر أن البخارى إنما أورد حديث سلمة المشتمل على بيان ما بين المنبر والجدار ليستدل به على مقدار ممر الشاة ، فإن ما بينهما كان معلوما عندهم ، وقد تقدم عن العتبية أنه كان بينهما قدر ما يمر الرجل منحرفا ، والذى اقتضى حمل

(١) رجع القهقرى : أى إلى خلف .

(٢) هذا نوع آخر من الجمع بين حديث ممر العنز وحديث ثلاث الأذرع وملخصه أن العبارتين مترادفتان ، لكنه ليس بمسلم ، كما أشار إليه ابن حجر ، وأوضحه المؤلف بعده .

ابن الصلاح ممر الشاة على ما ذكره أن ذلك هو القدر الذى يتأتى فيه السجود مع الاستمرار فى الموقف .

وقد قال البغوى : استحب أهلُ العلم الدنوَّ من السترة بحيث يكون بينه و بينها قدر إمكان السجود ، وكذلك بين الصفوف ، وقد ورد الأمر بالدنو من السترة مع بيان حكمة ذلك ، وهو ما رواه أبو داود وغيره مرفوعا : « إذا صلى أحدكم إلى سترة فَلْيَدْنُ منها لا يقطع(1) الشيطان عليه صلاته » ، قال الحافظ ابن حجر : وهو حديث حسن ، والله أعلم .

التنبيه الثانى — فى العُودِ الذى كان فى المصلَّى الشريفِ .

روينا فى كتاب يحيى عن مصعب بن ثابت قال : طلبنا علم العود الذى كان فى مَقَامِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم نقدر على أحد يذكر لنا فيه شيئا ، قال مصعب : حتى أخبرنى محمد بن مسلم بن السائب صاحب المقصورة قال : جلس إلىَّ أنسُ بن مالك ، فقال : تدرى لم صُنِعَ هذا العود ؟ وما أسأله عنه ، فقلت : لا والله ما أدرى لم صنع ، فقال أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَضَعُ عليه يمينه ثم يلتفت إلينا فيقول : استَوُوا، واعدلوا صفوفكم .

وعن أنس بن مالك قال : لما سُرِقَ العودُ الذى كان فى المحراب فلم يجده أبو بكر حتى وجده عمر رضى الله عنهما عند رجل من الأنصار بقُبَاء قد دُفن فى الأرض أكلته الأرَضَةُ ، فأخذ له عودا ، فشقه فأدخله فيه ، ثم شَعَبه(2) ، فرده فى الجدار ، وهو العود الذى وضعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى القبلة ، وهو الذى فى المحراب اليوم باقٍ فيه .

وعند أبى داود عن محمد بن أسلم صاحب المقصورة قال : صَلَّيْتُ إلى جنب أنس بن مالك يوما فقال : هل تدرى لم صنع هذا العود ؟ فقلت : لا والله ،

---

(1) يقطعها بالمرور فى المكان المتروك ، أو يحمل من يمر فيها فيكون مروره قاطعاً للصلاة .

(2) شعبه : أصلحه .

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليه فيقول : « استووا واعدلوا صفوفكم » .

قلت : سيأتى فى الكلام على الجذع أن الأسطوانة المتقدم ذكرها التى هى عَلَم المصلَّى الشريف كان بها خشبة ظاهرة محكمة بالرصاص ، يقول الناس : إنها من الجذع الذى حَنَّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن المطرى قال : إن الأمر ليس كذلك ، وإن العز ابن جماعة أمر بإزالتها ، فأزيلت عام خمس وخمسين وسبعمائة .

قال المجد : ورأى بعضُ العلماء أن إزالتها كانت وهما منهما ، وذلك أن إتقان هذه الخشبة ، وترصيصها بين حجارة الأسطوان وإبرازها لم يكن سُدًى[1] ، وإنما شاهد الحالِ يشهدُ بأنه كان من عمل عمر بن عبد العزيز ؛ فالظاهر أنه كان من الجذع .

قلت : بل الظاهر أنها ليست منه ؛ إذ لم ينقل بقاء شىء منه ، بل الظاهر أنها من هذا العود المذكور ؛ لما قدمناه فيه ، ولما سيأتى عن ابن النجار .

وقول الزينى المراغى : « إن احتمال ذلك كان يمكن تسليمه قبل حريق المسجد ، أما بعده فمردود ؛ لأنه بقى من حريق المسجد بقايا خشب كثيرة كما سنحققه » .

وقول المؤرخين : « إنه لم يبق ولا خشبة واحدة » مردود ؛ فقد شاهدت عند إزالة هَدْم الحريق من الحجرة الشريفة ما لا يحصى من أطراف الخشب المحترق ، حتى ميزاب الحجرة الشريفة رأيته من عَرْعَر[2] فيما أظن احترق بعضُه وبقى منه قَدْرُ الذراع ، وأخذ الناسُ كثيرا من تلك الأخشاب ، واتخذ متولّى العمارة وغيره منها سُبَحاً كثيرة ، وعبارة ابن النجار صريحة فيما ذكرناه من كون العود المذكور كان بالأسطوانة المذكورة ، فإنه ترجم عليه بقوله : « ذكر العود الذى

(١) لم يكن سدى : أى لم يكن بغير سبب ، وفى بعض النسخ « لم يكن أسداً » تحريف ، وفى المطبوعات « لم يكن سداً » خطأ فى الكتابة .

(٢) العرعر ــ بفتح العينين وسكون الراء بينهما ــ شجر السرو ، وذكر المجد أنها فارسية .

فى الأسطوانة التى عن يمين القبلة » ، ثم روى عن أهل السير خبر مُصْعَب بن ثابت المتقدم .

وشيُوعُ أن تلك الخشبة من الجذع قديم ، فقد قال ابن جُبَيْر فى رحلته : إن بإزاء الروضة — يعنى المصلى الشريف منها — لجهة القبلة عمودا مطبقا يقال: أنه على بقية الجذع الذى حَنَّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقطعة منه وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس و يبادرون للتبرك بلَمْسِها ومسح خدودهم فيها ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق ، انتهى .

واستفيد منه أيضا أن وضع الصندوق هناك كان قبل حريق المسجد فى زمنه ، وسبب الشيوع المذكور فى تلك الخشبة ما سيأتى من أن الجذع كان قريبا من محل الأسطوانة المذكورة ؛ فالظاهر أن الخشبة المذكورة كانت قريبا منه فى الجدار ، فجعلت فى تلك الأسطوانة لقربها من المحل الأول ؛ فقد روى يحيى أيضا عن أنس ابن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يَسْتَمْسك بعود كان فى القبلة ، ثم يلتفت عن يمينه وعن شماله ، فإذا استوت الصفوف كبر » .

وروى ابن زبالة عن عمرو بن مسلم قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم حين أسَنَّ قد جُعِلَ له العود الذى فى المقام ، إذا قام فى الصلاة توكأ عليه ، قال : ثم ألصق إليه عود معه ، وروى أيضا هو ويحيى من طريقه عن مسلم بن خباب قال: لما قدم عمر رضى الله عنه القبلة فَقَدَ العود الذى كان مغروسا فى الجدار ، فطلبوه ، فذُكر لهم أنه فى مسجد بنى عمرو بن عَوْفٍ أخذوه فجعلوه فى مسجدهم ، فأخذه عمر فرده إلى المحراب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة أمسكه بكفه يعتمد عليه ، ثم يلتفت فى شقه الأيمن فيقول : عَدِّلوا صفوفكم ، ثم يلتفت إلى الأيسر فيقول مثل ذلك ، ثم يكبر للصلاة ، وذلك العود من طَرْفَاء الغابة [١] .

---

(١) الطرفاء : اسم لأربعة أنواع من الشجر : أولها الأثل ، وواحدته طرفاءة ، وطرفة ، وبها لقب طرفة بن العبد البكرى ، وفى الشعراء أربعة غيره سموا بهذا الاسم .

هل مصلاه صلى الله عليه وسلم على عين القبلة و جهتها ؟

التنبيه الثالث — أسند يحيى عقب ما تقدم عن ابن عباس قال : كنت أرى صفحة خد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليمنى فى مسجده يَتَيَامن .

وعن عروة : كان الزبير بن العوام وأناسٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيامنون ويقولون : إن البيت تِهامى ، قال يحيى : وسمعت غير واحد من مشايخنا ممن يقتدَى به يقول : المنبر على القبلة .

قلت : لعلّ ما ذكره من التيامن فى غير المصلّى الشريفِ ، والذى ذكره أصحابنا أنه لا يجتهد فى محراب النبى صلى الله عليه وسلم لأنه صواب قطعا ؛ إذ لا يُقَرُّ على خطأ ؛ فلا مَجَال للاجتهاد فيه حتى لا يجتهد فى اليَمْنَةِ واليَسْرَة ، بخلاف محاريب المسلمين ، سيما وقد تقدم أنه وضعه وجبريل يؤمُّ به البيت ، والمراد بمحرابه صلى الله عليه وسلم مكان مُصلَّاه ، فإنه لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم محراب ، نعم إن ثَبَتَ تيامنه صلى الله عليه وسلم فى مكان مصلاه فما نقله متجِه ، ويؤيده أن الدكة التى ظهرت فى محل المنبر ووجد فيها آثار قوائم المنبر النبوى كما سيأتى متيامنة ، ولذا حرّضتُ على بقائها على ماوجدت عليه فبقيت على حالها ، إلا أنهم وضعوا المنبر عليها غيرَ متيامن فصار محرفا عنها ، وعبارة النووى فى التحقيق : وكل موضع صلى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وضبط موقفه تعين ، ولا يجتهد فيه بتيامن ولا تياسر ، انتهى .

وقال الشيخ محب الدين الطبرى فى شرح التنبيه ، ومن خطه نقلت : إن قيل محرابه صلى الله عليه وسلم على عين الكعبة ؛ إذ لا يجوز فيه الخطأ ، فيلزم ممـا قلتم أنه لا يصح صلاة من بينه وبينه من أحد جانبيه أكثر من سَمْت الكعبة إلا مع الانحراف .

قلنا : من أين لكم أنه على عين الكعبة ؟ فيجوز أن يكون ذلك ولا خطأ بناء على أن الفرض (١) الجهة ، نعم إن روى فى الصحيح أنه نصب على العين فنقول :

(١) يريد أن فرض الاستقبال فى الصلاة هو جهة القبلة ، وهو قول من أقوال معتبرة للفقهاء ، والثانى أن الفرض هو عين القبلة ، والثالث الفرق بين من يصلى عند الكعبة فيتعين عليه الاتجاه إلى عينها ، ومن يصلى بعيداً ففرضه جهتها .

مقتضى الدليل ما ذكرتموه على القولين ، أما على العين فظاهر ، وأما على الجهة فإنما ذلك عند عدم المشاهدة ، وهذا المحراب منزل منزلة الكعبة فمشاهدُهُ كمشاهدِها ، إلا أن إجماع الصحابة رضى الله عنهم على بناء مسجد النبى صلى الله عليه وسلم واسعا وصلاتهم فى أقطاره من غير أن ينقل الانحرافُ عنهم دليلٌ على طَرْدِ حكم البعد فى كل مكان ، سواء تحقق صَوْبُ عين الكعبة أم لا ، توسعة وتعميما للحكم ، وتحقيقاً للقول بأن فرض البعيد هو الجهة مطلقا ، ولا أعلم أحدا تكلم فى هذه المسألة ، والظاهر فيها ما ذكرته ، انتهى .

وفيه نظر ، بل صلاة مَنْ بينه و بين المصلى الشريف أكثر من سَمْت الكعبة صحيح ، واعتبار العين من غير انحراف لما تقرر من أن المسامتة تصدق مع البعد ، ألا ترى أن الدائرة إذا عظمت اتسعت الخطوط فيُسامت الخطُّ الخارجُ من جبين المصلى الكعبَةَ ظناً ، وهو المكلف به فى البعد ، نعم هذا يقتضى جواز الاجتهاد بالتيامن والتياسر لمن بينه و بين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة إلا أن ينقل عدمه عن الصحابة فى زمنه صلى الله عليه وسلم مع إقراره صلى الله عليه وسلم لهم على ذلك ، والله أعلم .

قد تم — بعونة الله تعالى وحسن توفيقه — الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » تأليف العلامة المحقق ، والمؤرخ المدقق ، نور الدين على السمهوديّ ، أحد علماء القرن العاشر الهجرى ، و يليه — إن شاء الله تعالى — الجزء الثانى منه ، وأوله « الفصل الرابع ، فى خبر الجذع الذى كان يخطب إليه النبى صلى الله عليه وسلم — إلخ » نسأل الله الذى بيده تتم الصالحات أن يعين على إكماله ، بمنه وفضله ؛ إنه لامعين سواه ، ولا يوفق للخير غيره .

وفاء الوفا

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين على بن أحمد السمهودى

المتوفى فى عام ٩١١ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

الجزء الثانى

الطبعة الأولى

فى سنة ١٣٧٣ من الهجرة — ١٩٥٤ من الميلاد

تطلب من السيد محمد النمنكانى ، المدنى

الكتبى بالمدينة المنورة

مطبعة السعادة بمصر

الحمدُ لله الذى اختار رسولَه محمدا صلى الله عليه وسلم من أطيب الارومات ، والصلاةُ والسلامُ الأتمَّانِ الأكْملاَن على أشرف الكائنات ، وعلى آله وصحبه الذين فَدَوْهُ بالأنْفُس والأموال وبالآباء والأمهات . وعلى مَنِ اتبعه واتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

الفصل الرابع

في خبر الجذع الذي كان يخطب إليه صلى الله عليه وسلم واتخاذه المنبر، وما اتفق فيه، وماجعل بدله بعد الحريق، واتخاذ الكسوة له

الروايات في حنين الجذع

روينا في صحيح البخارى عن ابن عمر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ إلى جِذْعٍ، فلما اتخذ المنبرَ تحول إليه، فحَنَّ الجذعُ، فأتاه فمسح يده عليه

وفيه عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم «كان يقومُ يومَ الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رَجُل: يارسول الله، ألا نجعل لك منبرا؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فضَمَّهُ إليه وهو يئِنُّ أنينَ الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها.

وفيه أيضا عنه: كان المسجد مسقوفا على جُذُوع من نخل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جِذْعٍ منها، فلما صُنِع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت[1] العِشَار، الحديثَ.

وعند النسائي في الكبرى عن جابر: اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخَلُوج: أي التي انتزع ولدها منها

وعند ابن خزيمة عن أنس: فحَنَّتِ الخشبة حَنين الوالِهِ[2].

وفى روايته الأخرى عند الدارميّ: خارَ[3] ذلك الجذع كخُوَار الثور.

وفى حديث أبي بن كعب عند أحمد والدارمى وابن ماجة: فلما جاوزه خار الجذع حتى تصدع وانشق.

وفى حديثه: فأخذ أبي بن كعب ذلك الجذع لما هدم المسجد فلم يزل عنده حتى بلى وعاد رُفَاتا[4].

---

(١) العشار: جمع عشراء — بضم العين وفتح الشين — وهى الناقة الحامل، وفى القرآن الكريم: (وإذا العشار عطلت).

(٢) الواله: وصف من الوله، وهو ذهاب العقل حيرة من عشق أو حزن أو نحوهما.

(٣) خار: صوت. (٤) عاد: صار، والرفات — بضم الراء — الهشيم.

وفى حديث أبى سعيد عند الدارمى : فأمر به أن يُحفَر له ويُدْفَنَ ، وسيأتى أحاديث بذلك ، ولا تنافى بين ذلك ؛ لاحتمال أن يكون ظَهَرَ بعد الهدم عند التنظيف ، فأخذه أبى بن كعب .

وقال أبو اليمن بن عساكر فى تحفته : وفى رواية فلما جلس عليه أى المنبر حنت الخشبة حنين الناقة على ولدها ، حتى نزل النبى صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، فلما كان من الغد رأيتها قد حُوِّلَتْ ، فقلنا : ما هذا ؟ قال : جاء النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فحولوها ، انتهى .

وفى مسند الدارمى من حديث بريدة : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب قام فأطال القيام ، فكان يَشُقُّ عليه قيامُه ، فأتى بجذع نخلة ، فحفر له وأقيم إلى جنبه قائما للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خطب فطال القيام عليه استند فاتّكى عليه، فبصر به رجل كان وَرَدَ المدينة فرآه قائما إلى جنب ذلك الجذع ، فقال لمن يليه من الناس : لو أعلم أن محمداً يحمدنى فى شىء يرفق به لصنعت له مجلسا يقوم عليه ، فإن شاء جلس ماشاء ، وإن شاء قام ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ائتونى به ، فأتوه به ، فأمر أن يصنع له هذه المراقى الثلاث أو الأربع ، هى الآن فى مسجد المدينة ؛ فوجد النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك راحة ، فلما فارَقَ النبى صلى الله عليه وسلم الجذعَ وعمد إلى هذه التى صنع له جَزِعَ الجذع فحَنَّ كما تحنُّ الناقة ، حين فارقه النبى صلى الله عليه وسلم ، فزعم ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم حين سمع حنين الجذع رجع إليه فوضع يده عليه ، وقال : اخترْ أن أغرسك فى المكان الذى كنت فيه فتكون كما كنت ، وإن شئت أن أغرسَكَ فى الجنة ، فتشرب من أنهارها وعيونها فتحسُنَ زينتك ، وتثمر ، فتأ كل أولياء الله من ثمرتك وتخلد ؛ فعلْتُ ؛ فزعم أنه سمع من النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : نعم قد فعلت ، مرتين ، فسئل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اختار أن أغرسه فى الجنة .

ولفظه عند عياض : إن شئتَ أردك إلى الحائط[1] الذى كنت فيه تُنْبِتُ لك عروقك، ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة ، وإن شئْت أغرسك فى الجنة فيأ كل أولياء الله من ثمرك ، ثم أصغَى له النبي صلى الله عليه وسلم يسمع مايقول ، فقال : بل تغرسنى فى الجنة فيأ كل منى أولياء الله وأ كون فى مكان لا أبلى فيه فسمعه مَنْ يليه ، قال صلى الله عليه وسلم : قد فعلت ، ثم قال : اخْتارَ دار البقاء على دار الفناء ، فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال : ياعبادَ الله ، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا إليه لمكانه ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه ، وهو فى كتاب يحيي بنحوه ، وفى حديث سهل بن سعد عند أبى نعيم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة ، فأقبل الناس عليها فسمعوا من حنينها حتى كثر بكاؤهم .

وفى لفظ عند ابن عبد البر : فلما جاوزه خار الجذع حتى تصدع وانشق، فرجع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسحه بيده حتى سكن ، ثم رجع إلى المنبر ، قال : فكان إذا صلى صلى إليه ، فلما هُدم المسجد أخَذَ ذلك الجذعَ أبيٌّ بن كعب فلم يزل عنده حتى أكلته الأرَضَةُ وعاد رُفَاتا .

وهذا يبعد ماقدمناه من التأويل ؛ إذا ظاهرهُ أنه لم يدفن .

ويحتمل أن ذلك كان بعد دفنه، ومشى يصلى إليه قريبا منه ؛ لأنه كان عند مُصَلاَّه كما سنحققه .

وفى كتاب يحيي عن أبى سعيد : كان صلى الله عليه وسلمَ يخطب إلى جذع نخلة ، فأتاه رجل رومى ، فقال : أصنع لك منبرا تخطب عليه ، فصنع له منبره الذى ترون ، فلما قام عليه فخطب حَنَّ الجذع حنين الناقة إلى ولدها، فنزل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فضمه فسكن ، وأمر به النبى صلى الله عليه وسلم أن يُدْفَنَ ويحفر له .

---

(١) الحائط : الحديقة والبستان من النخيل إذا كان عليه جدار

وعن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صل الله عليه وسلم يخطب إلى جذع يتساند إليه ، فمر رومى فقال : لو دعانى محمد لعملت له ما هو أرفق له من هذا ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه ، فدعاه ، فجعل له المنبر ، ثم ذكر حنين الجذع وتخيير النبى صلى الله عليه وسلم له ، قال : فقالت : فسمعنا النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول : فنعم ، فغار[١] الجذع فذهب .

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى الجذع ، فلما اتخذ المنبر وعدل إليه حن الجذع حتى أتاه فاحتضنه فسكن ، وقال : لو لم أفعل هذا الحنّ إلى يوم القيامة .

وذكر الإسفرايينى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعاه إلى نفسه ، فجاء يخرق الأرض ، فالتزمه ، ثم أمره فعاد إلى مكانه .

وفى كتاب ابن زبالة عن خالد بن سعيد مرسلا أن تميما الدارى كان يَرَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يشتدُّ عليه وَجع كان يجده فى فخذيه يقال له الزجر[٢] ، فقال له تميم : يا رسول الله ألا أصْنَع لك منبرا تقوم عليه ، فإنه أهون عليك إذا قمت وإذا قعدت ؟ قال : وكيف المنبر ؟ قال : أنا يا رسول الله أصنعه لك ، قال : فخرج إلى الغابة فقطع منها خَشَبَاتٍ من أثْلٍ ، فعمل له درجتين : أى غير المقعد ، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخشبة التى كان يستند إليها إذا خطب ، ثم ذكر حنينها ، وقال : بلغنا أنها دفنت تحت المنبر. صانع المنبر

وعن المطلب بن حنطب أنه صلى الله عليه وسلم أمر بالجذع فحفر له تحت المنبر فدفن هنالك ، قال : والذى عمل المنبر غلام نصيبة المخزومى ، وكان المنبر من أثْـلةٍ كانت قريباً من المسجد .

وعن سهل بن سعد الساعدى نحو ما فى الصحيح أن رجالا أتوا سهلا وقد امتروا[٣] فى المنبر مِمَّ عودُهُ ، فسألوه عن ذلك ، فقال : والله إنى لأعرف مِمَّ هو ،

(١) فغار الجذع : أراد فغاص فى الأرض .

(٢) الزجر : هكذا وقع هذا اللفظ فى الأصول كلها ، ولم أتحققه على ما أحب .

(٣) امتروا : شكوا .

ولقد رأيته أولَ يومٍ وُضعَ ، وأول يوم جلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرسل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى فلانة امرأةٍ من الأنصار قد سماها سهل : مُرِى غلامَكِ النجار ، أن يعمل لى أعواداً أجلس عليها إذا كلمت الناس ، فأمرته فعملها من طَرْفاء الغابة ، ثم جاء بها فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بها فوضعت ههنا ، ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليها وكبر وهو عليها ، ثم ركع وهو عليها ، ثم نزل القَهْقَرَى فسجد فى أصل المنبر ، هذا لفظ الصحيح ، وزاد فيه ابن زبالة : وقطعْتُ خشب المنبر بيدى مع الذى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملت إحدى الدرجات .

ورواه يحيى بلفظ : عُمل من أثلٍ ، يعنى المنبر ، وكنت ممن حمل درجته هذه ، ثم ذكر حنين الجذع ، وفى رواية للبخارى فى كتاب الهبة « فجاؤا به — يعنى المنبر — فاحتمله النبى صلى الله عليه وسلم ، فوضعه حيث ترون » .

وقال الحافظ ابن حجر : صحف بعض الرواة قوله إلى فلانة امرأة من الأنصار فقال إلى علاثة (بالعين المهملة والمثلثة) وهو خطأ ، والمرأة لا يعرف اسمها ، ونقل ابن التين عن مالك أن النجار كان مولى لسعد بن عُبادة ؛ فيحتمل أنه كان فى الأصل مولى امرأته ، ونسب إليه مجازاً ، واسم امرأته فكيهة بنت عبيد بن دليم ، وهى ابنة عمه ؛ فيحتمل أن تكون هى المرأة ، لكن رواه ابن رَاهوَيْه عن ابن عيينة وقال : مولى لبنى بَيَاضة ، ووقع عند الكرمانى قيل : اسمها عائشة ، وأظنه صَحَّفَ المُصَحِّفَ ، ثم وجدت فى الأوسط للطبرانى من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى إلى سارية فى المسجد ، ويخطب إليها ، ويعتمد عليها ، فأمرت عائشة ، فصنعت له منبره هذا ، فذكر الحديث ، وإسناده ضعيف ، ولو صح لما دل على أن عائشة هى المرادة فى حديث سهل هذا إلا بتعسف ، والله أعلم .

وأسند ابن سعد فى الطبقات من حديث أبى هريرة ، ورجالُه ثقاتٌ إلا الواقدى أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يخطب وهو مستند إلى جذع ، فقال : إن القيام قد شَقَّ علىَّ ، فقال تميم الدارى : ألا أعمل لك مِنْبَرًا كما رأيتُ يصنع بالشام ؟ فشاور النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذه ، فقال العباس ابن عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كلاب أعْمَلَ النَاسِ ، فقال : مُرْهُ أن يعمل » الحديثَ .

موضع الجذع

وأسند يحيى منقطعاً عن ابن أبى الزناد وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة إلى جذع فى المسجد كان مَوضِعُه عند الأسطوانة المخلَّقة التى تلى القبر التى عن يسار الأسطوانة المخلّقة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى عندها التى هى عند الصندوق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن القيام قد شَقَّ على ، وشكا صلى الله عليه وسلم ضَعْفاً فى رجليه ، قالوا : فقال تميم الدارى — وكان رجلا من لخم من أهل فلسطين — يا رسول الله أنا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ، قالوا : فلما أجمعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وذو الرأى من أصحابه على اتخاذه قال العباس بن عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كلاب أعمل الناس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مُرْهُ يعمل ، فأرسله الى أثلةٍ بالغابة فقطعها ثم عملها دَرَجتين ومجلساً ، ثم جاء بالمنبر فوضعه فى موضعه اليوم ، ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ، فلما جاوز الجذع يريد المنبرَ حَنَّ الجذع ثلاث مرات كأنه خُوار بقرةٍ ، حتى ارتاع[1] الناس، وقام بعضهم على رجليه ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مَسَّه بيده ، فسكن ، فما سُمِع له صوت بعد ذلك ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنبر فقام عليه ، فلم يزل كذلك فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما هَدَم عثمانُ المسجد اختلف فى الجذع ، فمنهم من قال : أخذه أبى بن كعب ، فكان عنده حتى أكلته

(١) ارتاع الناس : أخذهم الروع ، وهو الخوف .

الأرَضة ، ومنهم من قال : دفن فى موضعه .

شهرة حديث حنين الجذع

وقال عياض : حديثُ حنين الجذع مشهور منتشر ، والخبر به متواتر ، أخرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر .

وقال البيهقى : قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التى حَمَلَهَا الخلفُ عن السلف ، ورواية الأخبار الخاصة فيها كالتكلف ، وفيه دليل على أن الجمادات قد يخلق الله لها إدرا كاً كأشرف الحيوان .

وقد نقل ابن أبى حاتم فى مناقب الشافعى عن أبيه عن عمرو بن سواد عن الشافعى قال: ما أعْطَى الله نبياً ما أعطى محمداً ، فقلت : أعطى عيسى إحياء الموتى ، قال : أعطى محمدا حَنِينَ الجذع حتى سمع صوته ؛ فهذا أكبر من ذلك .

الموضع الذى دفن فيه الجذع

ونقل ابن زبالة اختلافا فى دفن خشبته ؛ فعن عثمان بن محمد : دفنت دون المنبر عن يساره ، وقال بعضهم : دفنت شرقى المنبر إلى جنبه ، وقال بعضهم : دفنت تحت المنبر ، وتقدم فى رواية أنه دفن فى موضعه الذى كان فيه ، ومحصل الرواية المتقدمة فى كلام يحيى أنه كان فى جهة المشرق يسار المُصَلَّى الشريف .

ونقل ابن زبالة عن عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان الملطَّخ بالخَلُوق ثلثاها أو نحو ذلك محرابها موضع الجذع الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إليه ، بينها و بين القبلة أسطوان ، و بينها و بين المنبر أسطوان .

قلت : وهذه الأسطوانة هى التى تقدم أنها عَلَم المصلَّى الشريف عن يمينه ، ولهذا روى عقبة ما قدمناه من القيام بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة لمن عَدَلَ عنها قليلا ، وهذا مستند المطرى فى قوله : وكان هذا الجذع عن يمين مُصَلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصقاً بجدار المسجد القبلى فى موضع كرسى الشمعة اليمنى التى توضع عن يمين الإمام المُصَلَّى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، والأسطوانة التى قبلى الكرسى متقدمة عن موضع الجذع ؛ فلا يعتمد على قول

بدعة اصطنعها الناس بسبب الجذع

مَنْ جَعَلها فى موضع الجذع ، قال : وفيهـــا خشبة ظاهرة مثبتة بالرصاص سـداد لموضع كان فى حجر من حجارة الأسطوانة مفتوح قد حوط عليـه بالبياض والخشبة ظاهرة ، تقول العامة : هـذا الجذع الذى حَنَّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وليس كذلك بل هو من جملة البدع التى يجب إزالتها لئلا يفتن بهـا الناس ، كما أزيلت الجزعة التى كانت فى المحراب القبلى ، وذكر قصـة الجزعة التى قدمناها .

وقال المجد : إن الخشبة المذكورة كان يُزدَحَمُ على زيارتها والتمسح بهـا ، ويعتقد الناس عامةً أنها الجذع ، فظن بعض الفقهاء أن هذا من المنكر الذى يتعين إزالته ، وصرح بهـذا فى كتبه ، إلى أن وافق على ذلك شيخُنا العز بن جَماعة فأمر بإزالتها ، إلى آخر ما قدمناه عنـه . قال : وكان موضع الخشبة من الأسطوان المذكور على مقدار ذراعين من الأرض ارتفاعاً ، وقد طُلِيَ عليه بالقصة ، ولا عَيْنٌ منه ولا أثر .

قلت : الذى يظهر ـ كما قدمته ـ أن هذه الخشبة كانت من العود الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يضع يده عليه ويقول : عدلوا صفوفكم ، كما تقدم ، والله أعلم .

عود إلى الاختلاف فى صانع المنبر

ونقل ابن زبالة الاختلافَ فى الذى عمل المنبر ، فقيل : غلام نصيبة المخزومى ، وقيـل : غلام للعباس ، وقيل : غلام لسعيد بن العاص يقال له باقول (بموحدة وقاف مضمومة) وقيـل : غلام لامرأة من الأنصار من بنى ساعدة ، أو لامرأة لرجل منهم يقال له مينا ، وقوله «يقال له مينا» يحتمل المولى وزوجَ المرأة ، لـكن عند يحيى قال إسماعيل بن عبد الله : الذى عمل المنبر غلام الأنصارية واسمه مينا ، وعند ابن بشكوال عن أبى بن أويس : عمل المنبر غلام لامرأة من الأنصار من بنى سلمة أو بنى ساعدة أو امرأة لرجل منهم يقال له مينا ، وهذا محتمل كالأول ،

وقيل : عمله تميم الدارى ، هذا حاصل ما ذكره ابن زبالة ، وفى رواية ليحيى : عمل المنبر صُبَاح غلام العباس (بضم المهملة بعدها موحدة خفيفة) وتقدم تسميته كلابا ، ونقل المراغى عن بعض شيوخه أن الذى عمله باقوم (بالميم) بانى الكعبة لقريش ، وفى الاستيعاب عن باقوم الرومى قال : صنعتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم منبراً من طَرْفاء له ثلاث درجات : المقعدة ، ودرجتيه ، قال ابن عبد البر : وإسناده ليس بالقائم[1] .

وفى طبقات ابن سعد أن الصحابة قالوا : يا رسول الله إن الناس قد كثروا ، فلو اتخذت شيئاً تقوم عليه إذا خطبت ، قال صلى الله عليه وسلم : ما شئتم ، قال سهل رضى الله عنه : ولم يكن بالمدينة إلا نجار واحد ، فذهبت أنا وذاك النجار إلى الغابة فقطعنا هذا المنبر من أثلة ، وفى لفظ : فحمل سهل منهن خشبة ، قال المجد : إسنادهما صحيح ، وعند قاسم بن أصبغ : وكان بالمدينة نجار واحد يقال له ميمون ، فذكر الحديث ، وعند الطبرانى عن سهل : كنت جالساً مع خالٍ لى من الأنصار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اخرج إلى الغابة وأتنِى من خشبها فاعمل لى منبراً ، الحديثَ . وأخرج الطبرانى بإسناد فيه متروك أن اسم صانع المنبر إبراهيم ، وفى أسماء الصحابة لابن شبة مرسلا : اسمه قبيصة أو قصيبة بتقديم الصاد ، المخزومى ، مولاهم . وعند أبى داود بإسناد جيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بَدَّنَ قال تميم الدارى : يا رسول الله ألا تتخذ لك منبراً يحمل – أو يجمع – عظامك ، قال صلى الله عليه وسلم : بلى ، فاتخذ له منبراً مرقاتين : أى غير المقعدة .

قال الحافظ ابن حجر : وليس فى الروايات التى سمى فيها النجار قوى السند إلا هذا ، وليس فيه تصريح بأن الذى اتخذ المنبر تميم ، بل قد تبين من رواية ابن

---

(١) قال المؤلف فى الخلاصة : إن أشهر الأقوال فى تسمية صانع المنبر أن اسمه «باقوم» بالميم ، وسيبين هنا بعد قليل أن اشتهاره لا ينافى ضعف إسناده (انظر ص ٣٩٧)

سعد المتقدمة أن تميما لم يعمله ، وأشبه الأقوال بالصواب أنه ميمون ؛ لكون الإسناد من طريق سهل ، ولا اعتداد بالأقوال الأخرى لكونها واهية .

قلت : ولا ينافيه قوله فى مقدمة الشرح « باقوم أشهر الأقوال » فقد يشتهر الواهى [١] .

وفى التحفة لابن عساكر : روينا من حديث أبى كبشة السلولى عن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنْ أتَّخِذْ منبراً فقد اتخذه أبى إبراهيم ، وإن اتَّخِذِ العصا فقد اتخذها أبى إبراهيم . صلى الله عليهما وسلم .

وأسند ابن النجار من حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إلى جنب خشبة مُسْنِداً ظهره إليها ، فلما كثر الناسُ قال : ابنُوا لى منبراً ، فبنوا له منبرا له عتبتان ، وهو يقتضى أن المنبر كان بناء ، ويحتمل أنه أطْلَقَ على تأليفه من الأخشاب اسمَ البناء ، لكن قال الحافظ ابن حجر : حكى بعض أهل السير أنه صلى الله عليه وسلم « كان يخطب على منبر من طين قبل أن يتخذ المنبر الذى من خشب » ويعكر عليه ما تقدم فى الأحاديث الصحيحة من أنه كان يستند إلى الجذع إذا خطب .

قلت : يحتمل أن ذلك المنبر المتخذ من الطين كان إلى جانب الجذع ، وكأنه كان بناء مرتفعاً فقط ، وليس له درج ومقعدة بحيث يكمل الارتفاق به ؛ فلا ينافى ما تقدم فى سبب اتخاذ المنبر من خشب ، ويؤيد ذلك ما ورد فى حديث الإفك فى الصحيحين عن عائشة قالت : فثار الحيان الأوسُ والخزرجُ حتى كادوا أن يقتتلوا ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، الحديثَ ، وهذه القصة متقدمة على اتخاذ المنبر من الخشب ؛ فقد جزم ابن النجار بأن عمله كان سنة ثمان ، وجزم ابن سعد بأنه كان فى السنة السابعة ، على أن ذكر تميم والعباس فى عمله كما تقدم

(١) قد نبهناك إلى هذا فى هوامش ص ٣٩٦ .

يقتضى تأخره عن ذلك أيضاً ؛ فقد كان قُدُومُ العباس بعد الفتح فى آخر سنة ثمان ، وقدومُ تميم سنة تسع ، وفى بعض طرق الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين أصحابه ، فيجىء الغريب فلا يدرى أيهم هو ، فطلبنا إليه أن نجعل له مجلسا يعرفه الغريب إذا أتاه ، فبنينا له دكاناً(١) من طين كان يجلس عليه ، الحديثَ . وفى بعض طرقه أنه جاء والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب : أى على ذلك الدكان ، والله أعلم .

وروى يحيى عن ابن أبى الزناد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجلس على المجلس ، ويضع رجليه على الدرجة الثانية ، فلما ولى أبو بكر قام على الدرجة الثانية ، ووضع رجليه على الدرجة السفلى ، فلما ولى عمر قام على الدرجة السفلى ، ووضع رجليه على الأرض إذا قعد ، فلما ولى عثمان فعل ذلك ست سنين من خلافته ؛ ثم علا إلى موضع النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : قالوا فلما استخلف معاوية زاد فى المنبر ، فجعل له ست درجات ، وكان عثمان أول مَنْ كسا المنبر قُبْطية(٢) .

أراد معاوية أن ينقل المنبر إلى الشام

قالوا : فلما قدم معاوية عام حجّ حرَّكَ المنبر ، وأراد أن يخرجه إلى الشام ، فكسفت الشمس يومئذ ، حتى بدت النجوم ، فاعتذر معاوية إلى الناس ، وقال : أردت أنظر إلى ما تحته ، وخَشِيتُ عليه من الأَرَضَة . قال بعضهم : وكساه يومئذ قُبْطية أولينة . ثم أسند عن سعيد بن عمرو قصة تحريك معاوية للمنبر ، وأن الشمس كسفت ، واعتذاره بأنه خشى عليه الأَرَضَة ، وأنه كساه يومئذ قُبْطية يكون عليه أولينة ، فكان يقال : هو أول من كساه ، قال يحيى : وأثبتهما عندنا أن عثمان هو أول مَنْ كساه ، وقد نقل ذلك ابن النجار عن الواقدى عن ابن أبى الزناد ، قال : فسرقت الكسوة امرأة ، فأتى بها عثمان ، فقال لها : هل سرقت ؟ قولى لا ، فاعترفت ، فقطعها ، واتفق لامرأة مع ابن الزبير مثل ذلك .

وفى تاريخ الواقدى : أراد معاوية رضى الله عنه سنة خمسين تحويل منبر

---

(١) الدكان : المكان المرتفع ، شبه الدكة ، ويسمى فى ريف مصر (مصطبة)
(٢) القبطية ــ بضم القاف وسكون الباء ــ الثوب الرقيق الأبيض من ثياب مصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمشق ، فكسفت الشمس يومئذ ، وكلمه أبو هريرة رضى الله عنه فيه ، فتركه ، فلما كان عبد الملك أراد ذلك فكلمه قبيصة فتركه ؛ فلما كان الوليد أراد ذلك فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز فكلمه فيه فتركه، فلما كان سليمان قيل له فى تحويله قال: لا ؛ هاالله ، أخذنا الدنيا ونعمد إلى علم من أعلام الإسلام نريد تحويله ؟ ذاك شيء لا أفعله ؛ وما كنت أحب أن يذكر هذا عن عبد الملك ولا عن الوليد ! مالنا ولهذا ؟

رفع المنبر ست درجات

وأسند ابن زبالة عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال : بعث معاوية رضى الله عنه إلى مروان يأمره أن يحمل إليه منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر به أن يُقْلَعَ ، فأظلمت المدينة ، وأصابتهم ريح شديدة ، قال : فخرج عليهم مروان فخطبهم، وقال : يا أهل المدينة إنكم تزعمون أن أمير المؤمنين بَعَثَ إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأميرُ المؤمنين أعلم بالله من أن يغير منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ما وضَعه عليه ، إنما أمرنى أن أكرمه وأرفعه ، قال : فدعا نجارا فزاد فيه الزيادة التى هو عليها اليوم ، ووضعه موضعه اليوم .

وفى رواية له عن ابن قطن : قلع مروان بن الحكم منبر رسول الله ، وكان درجتين والمجلس ، وأراد أن يبعث به إلى معاوية ، قال : فكسفت الشمس حتى رأينا النجوم ، قال : فزاد فيه سِتَّ درجاتٍ ، وخطب الناس فقال : إنى إنما رفعته حين كثر الناس

وعند يحيى فى رواية أخرى : كتب معاوية رضى الله عنه إلى مروان وهو على المدينة أن أرْسِلْ لى بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج مروان فقلعه ، فأصابتنا ريح مظلمة بدَتْ فيها النجومُ نهارا ، ويَلْقَى الرجلُ الرجلَ يَصُكُّه[1] فلا يعرفه ، وذكر اعتذار مروان المتقدم ، وقال : إنما كتب إلىَّ يأمرنى أن أرفعه من

---

(١) يصكه : أراد أن أحدهما يصطدم بالآخر دون أن يراه .

الأرض ، فدعا له النَّجَاجِرَةَ[١] ، فعمل هذه الدرجات ورفعوه عليها ، وهىَ ـ أى الدرجات التى زادها ـ ستٌّ درجاتٍ ، قال : ثم لم يزد فيه أحد قبله ولا بعدهُ .

وقال ابن زبالة عقب حديث رواه من طريق سفيان عن كثير بن زيد عن المطلب مالفظه : والذى زاد فى درج المنبر معاوية بن أبى سفيان .

قال سفيان : قال كثير : فأخبرنى الوليد بن رباح قال : كسفت الشمس يوم زاد معاوية فى المنبر حتى رؤيت النجوم .

وروى ابن النجار زيادة مروان فيه ، وأنه صار تسع درجات بالمجلس[٢] ، عن ابن أبى الزناد ، ثم قال : ولما قدم المهدى المدينة سنة إحدى وستين ومائة ، فقال لمالك بن أنس : إنى أريد أن أعيد منبر النبى صلى الله عليه وسلم على حاله ، فقال له مالك : إنما هو من طرفاء ، وقد سُمِّرَ إلى هذه العيدان وشُدَّ ، فمتى نزعتهُ خِفْتُ أن يتهافت ويهلك ، فلا أرى أن تغيره ، فانصرف المهدِى عن تغييره .

وروى ابن شبة قصة المهدى عن محمد بن يحيى عن محمد بن أبى فديك .

عدد درجات المنبر

قلت : وجميع ما قدمناه من كلام المؤرخين مقتضٍ لاتفاقهم على أن منبره صلى الله عليه وسلم كان درجتين غير المجلس[٢] ، ونقله ابن النجار عن الواقدى ، لـكن سبق فى رواية الدارمى «هذه المَرَاقى[٣] الثلاث أو الأربع» على الشك ، وفى صحيح مسلم « هذه الثلاث درجات » من غير شك ، وقال الـكمال الدميرى فى شرح المنهاج : وكان صلى الله عليه وسلم منبره ثلاث دَرَج غير الدرجة التى تسمى المستراح[٤] ، ولعل مأخذه ظاهر ذلك مع حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم رقى المنبر فلما رقى الدرجة الأولى قال: آمين، ثم رقى الدرجة الثانية فقال : آمين ، ثم رقى الدرجة الثالثة فقال : آمين ، فقالوا : يارسول الله سمعناك قلت آمين ثلاث مرات ، قال : لما

---

(١) النجاجرة : جمع نجار . (٢) المجلس : الموضع الذى يجلس عليه .

(٣) المراقى : جمع مرقاة ، وهى الدرجة من درجات السلم ، سميت بذلك لأنه يرقى بها

(٤) المستراح : اسم للمكان الذى يستراح فيه ، وهو الذى سمى فى بعض الروايات بالمجلس وفى بعضها الآخر بالمقعد ، ووجه التسمية فى كل رواية ظاهر لا يحتاج إلى تنبيه .

رَقِيتُ الدرجةَ الأولى جاء جبريل عليه السلام فقال : شَقِيَ عبد أدرك رمضان فانسلخ عنه فلم يغفر له ، قلت : آمين ، ثم قال : شقى عبدٌ ذُكِرتَ عنده فلم يصلِّ عليك ، قلت : آمين ، ثم قال: شقى عبد أدرك والديه أو أحَدَهما فلم يدخلاه الجنة ، فقلت : آمين ، رواه يحيى بن الحسن عن جابر، ورواه الحاكم عن كعب بن عجرة(١) وقال : صحيح الإسناد ، ولفظه : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احضروا المنبر ، فحضرنا ، فلما رقى درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين ، فلما نزل قلنا : يارسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ، قال : إن جبريل عَرَضَ لى فقال : بَعُدَ مَنْ أدرك رمضان فلم يغفر له ، قلت : آمين ؛ فلما رقيت الثانية قال : بَعُدَ مَنْ ذُكِرْتَ عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين ، فلما رَقِيتُ الثالثةَ قال : بَعُدَ من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قلت : آمين، ويمكن حمله على أنه صلى الله عليه وسلم ارتقى حينئذ على المجلس وهى الدرجة الثالثة .

مساحة المنبر

قال ابن زبالة : وطولُ منبر النبى صلى الله عليه وسلم خاصةً ذراعان فى السماء ، وعرضه ذراع فى ذراع ، وتربيعه سواء ، وفيه مما كان يلى ظهره إذا قعد ثلاثةُ أعوادٍ تدور ، ذَهَبَ إحداهن ، وانقلعت إحداهن سنة ثمان وتسعين ومائة ، وأمر به داود بن عيسى فأعيد ، وفيما عمل مروان فى حائط المنبر الخشب عشرة أعواد لا يتحركن ، وطول منبر النبى صلى الله عليه وسلم مرتفع فى السماء مع الخشب الذى عمله مروان ـ أى الأعواد المتقدمة ـ ثلاث أذرع ونصف .

وقال عقب كلامه الآتى فى ذرع ما عليه المنبر اليوم ، يعنى زمنه ، ما لفظه : وطول المجلس — أى مجلسه صلى الله عليه وسلم — شبران وأربع أصابع فى مثل ذلك . مربع ؛ فقوله أولا : « وعَرْضه ذراع فى ذراع » إنما أراد به مقعد المنبر ؛

(١) كعب بن عجرة : ابن أمية بن عدى ، أبو محمد ، القضاعى ، البلوى ، المدنى ، حليف القواقل ، روى عنه البخارى ومسلم ، مات سنة إحدى وخمسين .

لما قاله هنا فى وصف المقعد بدون درجتيه ؛ ولأنه قال هنا عقب ما تقدم : ومابين أسفل قوائم منبر النبي صلى الله عليه وسلم الأول الى رُمَّانته خمسة أشبار وشىء ؛ وعرض دَرَجِهِ شبران ، وطولها شبر ، وطوله من ورائه — يعنى محل الاستناد — شبران وشىء ؛ فيؤخذ من ذلك أن امتداد المنبر النبوى من أوله — وهو ما يلى القبلة — إلى ما يلى آخره فى الشام أربعة أشبار وشىء ؛ لقوله : إن عرض درجه شبران ، وإن المجلس شبران وأربع أصابع ، وقوله : « وما بين أسفل قوائم منبر النبي صلى الله عليه وسلم — إلى آخره » معناه أن من طرف المنبر النبوى الذى يلى الأرضَ إلى طرف رمانته التى يضع عليها يده الكريمة خمسة أشبار وشىء ؛ وَذلك نحو ذراعين وَنصف ، وقد تقدم أن ارتفاع المنبر النبوى خاصة ذراعان ؛ فيكون ارتفاع الرمانة نحو نصف ذراع

وقال ابن النجار : طولُ منبر النبي صلى الله عليه وسلم ذراعان وشبر وثلاث أصابع ، وعرضه ذراع راجح ، وطول صدره — وهو مستنَدُ النبى صلى الله عليه وسلم — ذراع ، وطول رُمانتى المنبر اللتين كان يمسكهما بيده الكريمتين إذا جلس شبر وأصبعان ، وعرضه ذراع فى ذراع ، يزيد وتربيعه سواء ، ولا يخفى ما فيه من المخالفة لكلام ابن زبالة .

وقال ابن زبالة فى الكلام على فضل مابين القبر والمنبر ، بعد ذكر المرمر الذى حول المنبر، مالفظه : وفى المنبر من أسفله إلى أعلاه سبع كُوَى(١) مستطيرة من جوانبه الثلاث ، وفى جنبه الذى عمل مروان من قبل المشرق ثمانى عشرة كوة(١) مستديرة شبه المربعة ، ومن قبل المغرب ثمانى عشرة كوة مثل ذلك ، وكان فيه خمسة أعواد تدور ، فذهب بعضها و بقى اثنان منها ، فسقط أحدهما فى سلطان داود بن عيسى على المدينة فى سنة ثمان وتسعين ومائة ، فأمر به فأعيد .

وقال فى موضع آخر : وفيما عمل مروان فى حائط المنبر الخشب عشرة أعواد

---

(١) الكوة — بفتح الكاف أو ضمها وتشديد الواو — أصله الخرق فى الحائط ، والمراد به هنا الخرق مطلقا ، والجمع : كوى ، وكواء ، بضم الكاف فى الجمعين .

لا يتحركن ، ثم قال : وفى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة خمسةُ أعوادٍ من جوانبه الثلاث ، فذهب بعضها .

وقال بعد ما تقدم عنه فى ذَرْع منبره صلى الله عليه وسلم ما لفظه : وذَرْع طول المنبر اليوم أربع أذرع ، وعرضه ذراع وشىء يسير ، وما بين الرمانة المؤخرة والرمانة التى كانت فى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم القديم ذراع وشىء ، وما بين رمانة منبر النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرمانة المحدثة فى مقدم المنبر ذراعان وعَظْم الذراع ، وما بين الرمانة والأرض ثلاث أذرع وشىء ، وطول المنبر اليوم من أسفل عتبته إلى مؤخره سبع أذرع — أى بتقديم السين — وشبر ، وطوله فى الأرض إلى مؤخره ست أذرع ، هذه عبارته بحروفها ، ويتعين حمل كلامه على أن امتداد المنبر فى الأرض من أسفل عتبته الرخام التى أمامه إلى مؤخر المنبر سبعة أذرع وشبر ، وطول امتداده وهو فى الأرض إلى مؤخره مع إسقاط العتبة ست أذرع، حتى يلتئم كلامه ، وقدذكر فيماقدمناه عنه أن حول المنبرمرمر مرتفع[(١)] قدر الذراع ، وفيه شىء مُحْدَث غيرمرتفع زاده الحسن بن زيد .

وقال فى موضع آخر : والمنبر مبنى فوق رخام ، وهو فى وسط الرخام ، فسمى المرمر رُخَامًا ، وقال : إن هذا الرخام حَدُّه من الأسطوانتين اللتين فى قبلة المنبر — أى خلفه — إلى الأسطوانتين اللتين تليانهما مما يلى الشام — أى أمام المنبر — وقد سمى ابن النجار هذا الرخام الذى عليه المنبر دِكَّةً ، وقال : إن طولها شبر وعَقْد ، يعنى فى الارتفاع ، وسمى ذلك أبو الحسين بن جُبَير فى رحلته حَوْضًا ، وكأنه أخذ هذه التسمية مما ورد فى أن المنبر على الحوض ، وذكر فى طول هذا الرخام وعرضه ما يقرب مما قدمناه فى حدود المسجد النبوى ، قال : وارتفاعه شبر ونصف .

قلت : ولما حفر متولى العمارة فى زماننا أرضَ المسجدِ الشريف وسَوّاها بأرض المصلَّى الشريف وجَد هذا الرخام المذكور ، وارتفاعه عن أرض المصلى

---

(١) كذا ، والعربية تقتضى «مرمرا مرتفعا» .

الشريف نحو ما ذكره ابن النجار وابن جُبَير ؛ ثم لما أردوا تأسيس المنبر الرخام الآتى ذكره حفَرُوا حول الدكة المذكورة فظهر أنهـا منخفضة عن أرض المصلَّى الشريف التى استقر عليها الحالُ اليومَ يسيرا ، وخلفها من جهة القبلة إفريز نحو ثلث ذراع ، وطولها سبع أذرع ، بتقديم السين ، وشبر ، وهى مجوّفة شبيهة بالحوض ، فصح ما ذكره ابن جُبَير فى تسميتها حوضـا ، وصح أيضـا ما سيأتى عنه من أن سَعَة المنبر خمسة أشبار ؛ لأن جوف هذا الحوض الذى وجدناه بمـا دخل من عَمُودى المنبر فى أحجاره خمسة أشبار ، وقولُ ابن زبالة أولا « وذرع طول المنـبر اليوم أربع أذرع » مرادُهُ ارتفـاعهُ فى الهواء مع الدرج الست التى زادها مروان ؛ فيـكون طول الدرج الست ذراعين ؛ فتـكون كل درجة ثلث ذراع ، فيقرب مما قدمه ابن زبالة فى طول درج منبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى تقتضيه المناسبة

ونَقَلَ الزين المراغى عن ابن زبالة أنه قال : طول منبر النبى صـلى الله عليه وسـلم بما زيد فيه أربعة أذرع ، ومن أسفل عتبته إلى أعلاه تسعة أذرع وشبر .

قلت : كذا رأيته بخط الزين ، وضبط قوله « تسعة أذرع » بتقديم التاء الفوقية ، وهو غلط فى النسخة التى وقعت له ؛ لأن الذى قدمناه عن ابن زبالة إنما هو من أسفل عتبته إلى مؤخره ، وقررناه بما تقدم ، وإنما قضينا على ذلك بالغلط لأنه حينئذ لا يلتئم أطرافُ كلامِه ، ولأنه يقتضى أن يـكون ارتفاع المنبر فى الهواء تسعة أذرع ، بتقديم التاء ، وشبرا ، فإذا قام عليه القائم يقرب من سقف المسجد ، ويبعد كل البعد كون منبر فى ذلك الزمان ارتفاعه هذا القدر ، وأيضا فابن زبالة قد صرح بأن الذى زاده مروان ست درج ، فيلزم أن يكون كل درجة ذراعاً وشيئا ، وهو فى غاية البعد ، وما نقلناه عن ابن زبالة يقرب مما ذكره ابن النجار ؛ فإنه قال عقب ما قدمناه عنه فى وصف منبر النبى صـلى الله عليه وسـلم

مالفظه : وطولُ المنبر اليوم ثلاثة أذرع وشبر وثلاث أصابع ، والدكة التى عليها من رخام طولها شبر وعقد ، ومن رأسه ـ أى المنبر ـ دون دكته إلى عتبته خمسة أذرع وشبر وأربع أصابع ، وقد زيد فيه اليوم عتبتان وجعل عليه باب يفتح يوم الجمعة ، انتهى ؛ فهو قريب مما ذكره ابنُ زبالة من أن طول المنبر ـ يعنى فى الهواء ـ أربعة أذرع ، وامتداده هو خاصة فى الأرض من عتبته إلى مؤخرهِ ستة أذرع ، ويوافق أيضا ما ذكره الفقيه أبو الحسين محمد بن جُبَير من حديث القدر ، فإنه قال : رأيت منبر المدينة الشريفَ فى عام ثمان وسبعين وخمسمائة ، وارتفاعهُ من الأرض نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خُطوات ، وأدراجه ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مُقْفَل يفتح يوم الجمعة ، وطوله ـ أى الباب ـ أربعة أشبار ونصف شبر ، وهذا المنبر هو الذى وصَفَه[1] ابن النجار فيما يظهر ؛ لأنه وضع تاريخه سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وتوفى قبل حريق المسجد سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وكان احتراق المسجد كما سيأتى سنة أربع وخمسين وستمائة ، وفيه احترق هذا المنبر ، وفَقَدَ الناسُ بركته .

وقد زاد ابن جبير على ابن النجار فى وصف هذا المنبر فقال : وهو مُغَشًّى بعود الآبنوس ، ومقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر قد طبق عليه لوح من الآبنوس غير متصل به يَصُونه من القعود عليه ؛ فيدخل الناس أيديهم إليه ويمسحونه بها تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رِجْلِ المنبر الأيمن حيث يضع الخطيبُ يدَه إذا خطب حلقةُ فضةٍ مجوَّفة مستطيلة تشبه حلقة الخياط التى يضعها فى أصبعه إلا أنها أكبر منها ، وهى لاعبة تستدير فى موضعها ، انتهى .

والظاهر أن هذا المنبر غير الذى وصفه ابن زبالة لأنه لم يصفه بذلك ، ويوضح ذلك ماذكره فى الطراز لسند من المالكية حيث قال : إن منبر النبى صلى الله عليه

---

(١) فى المطبوعات كلها « وضعه » وما أثبتناه هو الذى يقتضيه المقام ، وهو الذى يعينه قول المؤلف بعد قليل « فى وصف هذا المنبر » وغيره من العبارات

وسلم جعل عليه منبر كالغلاف ، وجعل فى المنبر الأعلى طاق مما يلى الروضة ، فيدخل الناس منها أيديهم يمسحون منبر النبى صلى الله عليه وسلم ويتبركون بذلك ، انتهى ؛ فهذا شىء حدث بعد ابن زبالة .

وقد قال المطرى : حدثنى يعقوب بن أبى بكر من أولاد المجاورين ، وكان أبوه أبو بكر فراشا من قُوَّام المسجد ، وهو الذى كان حريقُ المسجد على يدهِ ، أن المنبر الذى زاده معاوية ورفع منبر النبى صلى الله عليه وسلم عليه تهافت على طول الزمان ، وأن بعض خلفاء بنى العباس جَدَّده ، واتخذ من بقايا أعواد منبر النبى صلى الله عليه وسلم أمشاطا للتبرك ، وعمل المنبر الذى ذكره ابن النجار فيما تقدم .

قال يعقوب : سمعت ذلك من جماعة بالمدينة ممن يوثق بهم ، وأن المنبر المحترق هو الذى جدده الخليفة المذكور ، وهو الذى أدركه ابن النجار ؛ لأن وفاته قبل الحريق .

قلت : وظاهر كلام ابن عساكر فى تحفته أنه كان قد بقى من المنبر الشريف بقايا فقط إلى احتراق المسجد ، وهو ممن أدرك حريقه ، وأورد فى كتابه ما ذكره شيخه ابن النجار ، ولفظه : وقد احترقت بقايا منبر النبى صلى الله عليه وسلم القديمة ، وفات الزائرين لمس رُمانة المنبر التى كان صلى الله عليه وسلم يضع يده المقدسة المكرمة عليها عند جلوسه عليه ، ولمس موضع جلوسه منه بين الخطبتين وقبلهما ، ولمس موضع قدميه الشريفتين بركة عامة ونفع عائد ، وفيه صلى الله عليه وسلم عوض من كل ذاهب ودَرْكٌ من كل فائت ، انتهى. وهو صريح فى بقاء ماذكره إلى حين الحريق ، ويؤيده ماتقدم عن رحلة ابن جُبَير وصاحب الطراز ، بل ظفرنا بما يشهد لصحة ذلك ؛ فإنه لما أراد متولى العمارة تأسيسَ المنبر الرخام الآتى ذكره حفروا على الدكة التى تقدم أن المنبر كان عليها فوجدت مجوفة كالحوض ، وبه عبر ابن جبير عنها ، فوجدوا فيما يلى القبلة منها قطعا كثيرة من أخشاب المنبر المحترق — أعنى الذى كان فيه بقايا منبر النبى صلى الله عليه وسلم — فوضعها الأقدمون

فى جوف ذلك المحل حِرْصاً على البركة ، وَبَنَوْا فوقها بالآجُرِّ بحيث سدوا جوف ذلك الحوض كله ، فصار دكة مستوية ، ووضعوا المنبر الآتى ذكره عليها ، وشاهدت آثار قائمتى المنبر الشريف اللتين كان بأعلاهما رُمَّانتاه قد نُحِتَ لهما فى الحجر المحيط بالحوض المذكور على نحو ذراع وثلث من طرف باطن الحوض المذكور مما يلى القبلة ، وسَعَةُ الحوض المذكور خمسة أشبار كما ذكره ابن جُبَيْر فى سعة المنبر ، وعرضُ جدار الحوض المذكور خلف المنبر نحوُ نصفِ ذراع ، وقد حرصْتُ على وَضْع ماوجد من تلك الأخشاب فى محلها ، فوضع ما بقى منها فى محله من الحوض المذكور ، و بنوا عليه كما سيأتى ، والله أعلم .

ولما احترق المنبر المذكور فى جملة الحريق أرسل الملك المظفر صاحب اليمن فى سنة ست وخمسين منبرا له رمانتان من الصَّنْدَل ، فنُصِبَ فى موضع منبر النبى صلى الله عليه وسلم كما ذكره المطرى فمن بعده ، قال : ولم يزل يخطب عليه عشر سنين ، فلما كان فى سنة ست وستين وستمائة أرسل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى هـــذا المنبر الموجود اليوم : أى زمن المطرى ، فقلع منبر صاحب اليمن ، وحمل إلى حاصل الحرم ، ونصب هذا المنبر مكانه ، وطوله أربع أذرع فى السماء ، ومن رأسه إلى عتبته سبع أذرع يزيد قليـلا ، وعدد درجاته تسع بالمقعد .

قال المجد : وله باب بمصراعين ، فى كل مصراع رمانة من فضة ، ومكتوب على جانبه الأيسر اسم صانعه « أبو بكر بن يوسف النجار » وكان من أكابر الصالحين الأخيار ، وهو الذى قدم بالمنبر إلى المدينة ، فوضعه فى موضعه ، فأحسن وضعه ، وأتقن نِجارته وصنعته ، ثم انقطع فى المدينة .

قال الزين المراغى : و بقى منبر الظاهر بيبرس يُخْطَبُ عليه من سنة ست وستين وستمائة إلى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فكانت مدة الخطبة عليه مائة سنة واثنتين وثلاثين سنة ، فبدأ فيه أكل الأَرَضَة ؛ فأرسل الظاهر برقوق صاحب

مصر هذا المنبر الموجود اليوم : أى زمن المراغى ، أرسله فى آخر سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وقلع منبر الظاهر بيبرس ، انتهى .

قلت : ولم يزل هذا المنبر موجودا إلى ما بعد العشرين وثمان مائة ، كما أخبرنى به جماعة من مشايخ الحرم منهم الشيخ صالح المعمر الجمال عبد الله بن قاضى القضاة عبد الرحمن بن صالح ، قال : فأرسل سلطان مصر الملك «المؤيد شيخ» هذا المنبر الموجودَ اليوم عام اثنين وعشرين وثمان مائة .

ثم رأيت فى كلام الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر أن المنبر الموجود اليوم أرسله المؤيد سنة عشرين وثمان مائة ؛ فهذا هو المعتمد ، لكن لم يطلع ابن حجر على ما ذكره المراغى من منبر الظاهر برقوق ، وجعل إتيان منبر المؤيد هذا بدلا عن منبر الظاهر بيبرس، وكلام المراغى أولى بالاعتماد فى ذلك ؛ فإنه كان بالمدينة حينئذ ، وعلى هذا فمدة الخطبة على منبر الظاهر برقوق ثلاث أو أربع وعشرون سنة، ثم وضع منبر المؤيد.

وأخبرنى السراج النفطى أنه صَنَعه أهلُ الشام ، وجاؤا به المؤيدَ ليجعله بمدرسته المؤيدية ، فوجدوا أهلَ مصر قد صنعوا لها منبرا ، فجهز المؤيد منبر أهل الشام إلى المدينة الشريفة ، وقال لى الجمال عبد الله بن صالح : شاهدتُ وَضْعَه موضع المنبر الذى كان قبله .

قلت : ويدل على صحة ذلك ما قدمناه من اختبار ذَرْع ما بينه و بين المصلَّى الشريف ؛ إذ المنقول أن بينهما أربعة عشر ذراعاً وشبراً ، وقد اختبرتُهُ من ناحية المصلَّي الشريف إلى ما حاذاه من المنبر فى المغرب فكان كذلك ؛ فوَضْعُه من هذه الجهة صحيح لاشك فيه، وأمامن جهة القبلة فقد قال المطرى : إن المنبر الذى أدركه بينه وبين الدرابزين الذى فى قبلة الروضة مقدار أربعة أذرع وربع ذراع ، وقد ذكر الزين المراغى فى كتابه ما ذكره المطرى من الذَّرْع ، ولم يتعقبه ؛ فاقتضى أن المنبر الذى تقدم وضعه فى زمنه وضع موضع المنبر الذى كان فى زمان المطرى ، وأقر أيضا قول المطرى فى حدود المسجد أن المنبر لم يغير عن منصبه الأول .

وقد ذكر ابنُ جماعة أيضا ذَرْعَ ما بين المنبر والدرابزين ، وهو يعنى المنبر الموجود زمن المطرى ، فقال : إن بينهما ثلاثة أذْرُع بذراع العمل ، وهو أزيد مما ذكره المطرى بربع ذراع راجح ؛ لأن ذراع العمل كما تقدم ذراعٌ ونصف ، وكأنَّ المطرى يعنى ذراع المدينة اليوم كما يؤخذ من كلام المراغى فيوافق كلام ابن جماعة ، والذى بين هذا المنبر الموجود اليوم و بين الدرابزين المذكور ذراعان وثلث بذراع العمل ، وذلك ثلاثة أذرع ونصف من الذراع الذى قدمنا أنه المراد عند الإطلاق ؛ فيحتمل أن يكون هذا المنبر مقدم الوضع لجهة القبلة على المنبر الذى كان قبله ، وهو مقتضى ما نقله الأثبات ، لكنى أستبعده للأخبار ممن لقيناه بوَضْعِه موضع ذاك

ثم تبين عند انكشاف الدكة التى تقدم ذكرها من آثار المنبر المحترِق قديما ما علمنا به صوابَ ما ذكره المطرى وغيره أن هذا المنبر مقدم الوضع على الذى قبله من جهة القبلة بما يقرب من ذراع ، وكذا ظهر زيادته من جهة الشام أيضاً على الدكة الأصلية المتقدم وصفُها بقريبٍ من ذراع ، ووجد محرفا عنها من طرفه الشامى نحو المغرب قدر شبر لما فيها من التيامن الذى تقدمت الإشارة إليه فى التنبيه الثالث من الفصل قبله ، وكنت قد أبدت وضعه بكونه أقرب إلى ماورد فيما كان بين المنبر والجدار القبلى كما سيأتى فانكشف الحق لذى عينين ، والذى لقيناهُ وأخبر بوضعه موضع المنبر الذى كان قبله هو الجمال بن صالح فى آخر عمره ، وكان غير تام الضبط حينئذٍ ، وكنت قد أبدت خبره بأنا قد قدمنا إلى الصندوق الذى فى قبلة المصلىّ الشريف فى عرض الجدار ، وأن المُصلَّى الشريف لم يغير باتفاق ، وأن منبر النبى صلى الله عليه وسلم كان بينه وبين الجدار القبلى ممر الشاة أو ممر الرجل منحرفا ، وأقصى ماقيل فيه ذراع وشىء كما قدمناه ، فإذا أسقطت قدر مابين طرف المصلىّ الشريف والدرابزين الذى أمامه مما بين المنبر اليوم والدرابزين المذكور وهو ثلاثة أذرع ونصف بقى ذراع ، وهو نحو القَدر المنقول فيما بين المنبر القديم وجدار المسجد

الشريف ، ثم تبين لنا مما سبق فى حدود المسجد النبوى وبانكشاف المرمر الذى فى قبلة المنبر تقدم الدرابزين المذكور عن ابتداء المسجد النبوى بأَزْيَدَ من ذراع كما قدمناه فى حدود المسجد النبوى ؛ فالصواب ماذكره المطرى ومن تبعه .

وطولُ هـذا المنبر فى السماء سوى قبتهِ وقوائمها ، بل من الأرض إلى محل الجلوس ، ستة أذرُع وثلث ، وارتفاعُ الخافقتين اللتين يمينَ المجلس وشِمَالَهُ ذراع وثلث ، وامتداد المنبر فى الأرض من جهة بابه إلى مؤخره ثمانية أذرع ونصف راجحة ، وعددُ درَجِه ثمانية ، و بعدها مجلسٌ ارتفاعُه نحو ذراع ونصف ، وقبته مرتفعة ، ولها هلال قائم عليها مرتفع أيضاً ، وما أظن منبرا وضع قبله فى موضعه أرفع منه ، وله باب بمصرعتين .

وقد احترق هذا المنبر فى حريق المسجد الثانى الحادث فى رمضان عام ستة وثمانين وثمان مائة ، فكانت مدة الخطبة عليه نحو سبع وستين سنة .

ولما نظف أهلُ المدينة محله جعلوا فى موضعه منبرا من آجُرٍّ مُطْلى بالنورة ، واستمر يخطب عليه إلى أثناء شهر رجب سنة ثمان وثمانين ، فهدم رابع الشهر المذكور ، وحفروا لتأسيس المنبر الرخام الموجود اليوم ظاهر الدكة المتقدم ذكرها، فوجدت على النحو المتقدم ، ونقضوا من بعضها قريب القامة فلم يبلغوا نهايتها ، ووجدوها محكمة التأسيس فى الأرض ، فأعادوها كما كانت ، إلا ما كان فوقها من نحو أزيد من نصف ذراع من الآجر ، وسَوَّوْا ما وجد مجوفا منها كالحوض بالبناء بعد وضع ما تقدم ذكره مما وجد بمقدمها من بقايا المنبر القديم المحترق فى الحريق الأول بمقدمها أيضا ، وكانوا قد سألونى عن ابتداء حد المنبر القديم من جهة القبلة والروضة فأخبرتهم بذلك ، وأن ذلك الحوض وما به من محل قوائم المنبر الأصلى إمام يقتدى به لموافقته ما ذكره المؤرخون قديما وحديثا ، فشرعوا فى وضع رخام المنبر عليهـا على سَمْت ما ظهر من الفرضة التى وجدوها فى الحوض المذكور على الاستقامة من غـير انحراف ، و بينها و بين طرف الدكة الشرقى خمسة أصابـع ،

لما ظهر من أن المنبر الأصلى كان بالحوض المذكور ، ومشاهدة محل قوائمه نَقْراً فى الحجر و بقايا الرصاص الذى كانت القوائم مثبتة به ، وما وصفه المؤرخون فى أمر المنبر الأصلى شاهدٌ لذلك ، ومعلوم أن الحوض الموجود فى باطن تلك الدكة لا يمكن وَضع المنبر فيه إلا على الاستقامة ، سيما وَقد طابقت سَعَته ما ذكره ابن جُبَير فى سَعَة المنبر الأصلى ، وَإحكامُ تلك الدكة بحيث إنهم حفروا منها قرب القامة ، وَلم يدركوا آخرها ، وَإتقان فرضتى الحوض المذكور بالرصاص ، وَترخيمُ تلك الدكة قديما ، كُلُّه قاضٍ بجعل السلف لها من أجل وَضع المنبر فيها ، كما صرح به المؤرخون ، وَلم يكن السلف مع عظيم إتقانهم يجعلونها لوضع المنبر ويحرفونها عن وضعه ؛ لأن وضعها تابع لوضعه إذ جعلت من أجله ، وقد كان وضعه مشاهَداً لهم ؛ لوجود المنبر النبوى بين أظهرهم و إتقانها وما سبق من المتقدمين فى ذكر تَرْخيمها شاهد بعملها فى عمارة عمر بن عبد العزيز للمسجد إن لم يكن من زمن معاوية رضى الله عنه عند تحريكه المنبر كما سبق ، ولم أرْتَبْ عند مشاهدتها فى وضع المنبر بها كذلك ، وتيامُنُ حوضها الذى كان المنبر به يَسِيرٌ جدا لا يخرج صدر المستقبل عن القبلة ، وقد أشار يحيى فيما قدمناه عنه فى التنبيه الثالث إلى تصويب وضعه ، وأيضاً فقد يكون النبى صلى الله عليه وسلم وَضَعه متيامنا لما أوضحناه فى الرسالة الموسومة بالنصيحة ، والمنبرُ جمادٌ ليس بمحل حتى يحرر أمره فى الاستقبال و يترك ما وجد من حدوده الأصلية المجمع عليها فى الأعصر الماضية المترتب عليها حدود الروضة الشريفة ، فشرعوا فى وضع رُخَام المنبر المذكور على النحو الذى ذكرته ، غير أنهم جعلوا جداره من جهة القبلة على الأحجار التى خلف الحوض من جهة القبلة ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ولو كان لى من الأمر شىء ما وافقت عليه .

ثم وقع من بعض ذوى النفوس ما أوضحناه فى الرسالة الموسومة (بالنصيحة الواجبة القبول ، فى بيان وضع منبر الرسول) صلى الله عليه وسلم .

والحاصل أنهم نقضوا ما سبق ، وزادوا خلف أحجار الحوض المذكور نحو ربع ذراع العمل حتى ساوى ذلك محل المنبر المحترق من جهة القبلة ، وحرفوه على تلك الدكة لجهة المغرب أزيد من تحريف المنبر المحترق ، وجعلوا هذا المنبر فى محل المحترق من جهة القبلة ومساوٍ لطرفها الشرقى مما يلى القبلة أيضاً ، وزعموا أنه لايعول على كلام من قدمناه من الأئمة ، ويتحرر مما سبق أنه مقدم على محل المنبر الأصلى لجهة القبلة بعشرين قيراطا من ذراع الحديد ، وهو نحو ذراع اليد ، وأن المنبر النبوى لم يقع فى محله تغيير إلا من تاريخ وضع المنبر المحترق فى زماننا لأنه خفى على واضعه مافى جوف الدكة المذكورة ، ولم يدركه أحد من مؤرخى المدينة ، وكان مفرط الطول بحيث كان قاطعاً للصف الباقى من الروضة ، وقد اقتدى به واضعُ هذا المنبر لكونه من آبائه ، ولم يبال ولى الأمر بتفويته المنقبة العظيمة فى إعادة وضع منبر الرسول صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه ، وهذا المنبر ــ أعنى الرخام ــ أقصرُ من امتداد المنبر المحترق فى الأرض بنحو ثلاثة أرباع ذراع ، وعدد درجه مع مجلسه كالمحترق ، ومحل عود المنبر الأصلى منه مما يلى الروضة وهو الذى كان بأعلاه رمانة المنبر النبوى قبل عمود هذا المنبر بأزيد من قيراط ، وذلك على نحو ذراعين وشىء من طرف المنبر المذكور من القبلة .

وقد اشتهر محله من أحجار الدكة المذكورة بسبب تحريف المنبر المذكور بحيث تغيرت حدود الروضة الشريفة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

كسوة المنبر

وفى يوم الجمعة يجعل على باب المنبر سِتْر من حرير أسود مرقوم بحرير أبيض وقد قدمنا أول مَنْ كَسَا المنبر .

وأسند ابنُ زبالة عن هشام بن عروة أن ابن الزبير كان يلبس منبر النبى صلى الله عليه وسلم القباطى فسَرَقت امرأة قُبْطية فقطعها ، وقال ابن النجار : ولم يزل الخلفاء إلى يومنا هذا يرسلون فى كل سنة ثوبا من الحرير الأسود له عَلَم

ذهب يُكْسَى به المنبرُ ، قال : ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستوراً على أبواب الحرم .

ستور الأبواب

قلت : قد استقر الأمر بعد قَتْل الخليفة المستعصم على حَمْل الكُسْوة من مصر كما قاله الزين المراغى ، قال : والأبواب مستقلة اليوم بستور ، قال : وإنما يظهرونها فى أوقات المهمات كقدوم أمير المدينة ، وذكَرَ ما سيأتى فى كسوة الحجْرة من وقف قرية بمصر على ذلك وعلى كسوة الكعبة الشريفة ؛ فالكعبة تكسى كلَّ عام مرة ، والحجرة والمنبر فى كل ست سنين مرة .

كسوة الحجرة

وقال المجد : والمنبر يحمل له فى كل سبعة أعوام أو نحوها من الديار المصرية كسوة معظمة ملوكية يُكْسَاهَا من الجمعة إلى الجمعة ، ورايتان سَوْدَاوان يُنْسَجَان أبدَعَ نسجٍ يرفعان أمام وجه الخطيب فى جانبى المنبر قريباً من الباب .

قلت : فى زماننا تمضى السبع سنين والعَشْرُ وأكثر من ذلك ولا تصل كسوة ، والذى يجمل اليوم على المنبر إنما هو الستر المتقدم ذكره مع الرايتين اللتين ذكرهما المجد ، والله أعلم .

الفصل الخامس

فى فضائل المسجد الشريف

قال الله تعالى «لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التقوى من أول يوم أحَقُّ أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المتطهرين (١) » .

المسجد الذى أسس على التقوى

روينا فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت لبعض نسائه ، فقلت : يارسول الله ، أى المسجدين الذى أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفا من حَصْبَاء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا ، لمسجد المدينة .

---

(١) من الآية ١٠٨ من سورة التوبة .

ولأحمد والترمذى من وجه آخر عن أبى سعيد : اختلف رجُلاَنِ فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن ذلك ، فقال : هو هـذا ، وفى ذلك – يعنى مسجد قباء – خير كثيرٌ ، وأخرجه أحمد من وجه آخر مرفوعاً ، وفى العتبية عن مالك مالفظه : وقال : المسجد الذى ذكر الله عزوجل أنه أسس على التقوى من أول يوم الآية هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ، أى مسجد المدينة ، ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أليس فى هذا ؟ ويأتونه أولئك من هنالك .

وقد قال الله سبحانه وتعالى: « وإذا رأوا تجارة أولهواً انفضوا إليها وتركوك قائما »[1] فإنما هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال عمر بن الخطاب : لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعته يريد أن يقدم القبلة ، وقال عمر بيده هكذا ، ماقدمتهاَ ، ثم قدمها عمر موضع المقصورة الآن ، انتهى .

قال ابن رشد فى بيانه : ما ذهب إليه مالك مروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء ، فاستدلوا بما روى أن الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم خيراً ، الحديثَ ، قال : ولا دليل فيه ؛ لأن أولئك كانوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان معمورا بالمهاجرين والأنصار ومَنْ سواهم ، قال : واستدلالُ مالك بقول عمر المتقدم ظاهرٌ ؛ لأن الله تعالى لما ذكر فيه أنه أسس على التقوى لم يستجز نَقْضَ بنائه وتبديل قبلته ، إلا بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ورآه قد أراد أن يفعله .

---

(١) من الآية ١١ من سورة الجمعة .

قلت : ما ذكره مالك من كون مسجد المدينة هو المراد هو ظاهر ماقدمناه ، لكن قوله تعالى « من أول يوم » يقضى أنه مسجد قُباء ؛ لأنه ليس المراد أول أيام الدنيا ، بل أول أيام حُلولِهِ صلى الله عليه وسلم بدار الهجرة ، وذلك هومسجد قباء ، إلا أن يدعى أن النبى صلى الله عليه وسلم شرع فى تأسيس مسجد المدينة أيضاً من أول يوم قدومه لها ، أو يقال : المراد من أول يوم تأسيسه ، وسيأتى فى مسجد قُبَاء أشياء صريحة فى أنه المراد ؛ فتعين الجمع بأن كلا منهما يصدق عليه أنه أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه كما هو معلوم ، وأنهما المراد من الآية ، لكن يشكل عليه كونُ النبى صلى الله عليه وسلم أجاب عند السؤال عن ذلك بتعيين مسجد المدينة ، وجوابه أن السر فى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أراد به رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء كما هو ظاهر ما فهمه السائل ، وتنويهاً بمزية مسجده الشريف لمزيد فضله ، والله أعلم .

فضل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وفى الصحيحين حديثُ أبى هريرة « لاتُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

وعند مسلم « إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد : الكعبة ، ومسجدى ، ومسجد إيلياء » .

وعند أبى داود بلفظ « ومسجدى هذا » .

وفى الكبير والأوسط للطبرانى برجال ثقات عن ابن عمر ، و برجال الصحيح عن أبى الجعد الضَّمْرِى « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » ، وذكر نحو رواية الصحيحين .

وفى صحيح ابن حِبَّان ومسند أحمد والأوسط للطبرانى و إسنادهُ حسنٌ من حديث جابر «خير ما رُكِبَتْ إليه الرواحِلُ مسجدى هذا والبيت العتيق » .

وهو عند البزار بلفظ « خير ما ركبت إليه الرواحل مسجد إبراهيم ومسجد محمد صلى الله عليه وسلم » ورجاله رجال الصحيح إلا عبد الرحمن بن أبى الزناد وقد وثقه غير واحد .

فضل الصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « صَلاَةٌ في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في ما سواه من المساجد إلا المسجدَ الحرام » هذا لفظ البخاري ، زاد مسلم « فإني آخر الأنبياء ، وإن مسجدي آخر المساجد » .

قلت : يريد آخر مساجد الأنبياء كما نقله المحب الطبري عن أبي حاتم ، وإلا فهو من أول مساجد هذه الأمة ، وإذا كانت الألف واللام هنا لمعهود — وهو مساجد الأنبياء — فالألف واللام أيضا في قوله «فيما سواه من المساجد» للعهد ، والمراد مساجد الأنبياء ؛ فيتحصل من معناه أن الصلاة في مسجده أفضل من الصلاة في سائر مساجد الأنبياء بألف صلاة إلا المسجدالحرام ؛ فيقتضي ذلك أن تكون الصلاة بمسجده أفضل من ألف صلاة في بيت المقدس ؛ لأنه من جملة مساجد الأنبياء ، ولم يُسْتَثْنَ ، ويدل على ذلك ما رواه البزار عن أبي سعيد قال : وَدَّعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال له : أين تريد ؟ قال : أريد بيت المقدس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صلاةٌ في مسجدي أفضلُ من ألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام ، وأسنده يحيى بزيادة تسمية الرجل فقال : عن الأرقم أنه تجهز يريد بيتَ المقدسِ ، فلما فرغ من جهازه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يودّعه ، وقال فيه : فجلس الأرقم ولم يخرج ، وأسنده ابن النجار عن الأرقم بلفظه : إنني أريد الخروجَ إلى بيت المقدس ، قال صلى الله عليه وسلم : ولم ؟ قلت : للصلاة فيه ، قال : ههنا أفضل من الصلاة هناك ألف مرة ، ورواه الطبراني برجال ثقات عن الأرقم بلفظ : صلاةٌ هٰهُنَا خيرٌ من ألف صلاة ثَمَّ .

وقد روى أبو يعلى برجال ثقات عن ميمونة قالت : يارسول الله أفتِنا في بيت المقدس ، قال : أرض المحشر ، وأرض المَنْشَر ، ائتُوه فصلوا فيه ، فإن صلاة فيه كألف صلاة ـ أي في غيره من مساجد الأنبياء قبله ، ومساجد غير الأنبياء ماعدا المسجدين ـ لقيام الدليل على ذلك ؛ فتكون الصلاة بمسجد المدينة

خيرا من ألف ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى، فأما المسجد الأقصى فإنها أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فيه فقط ، ولا يعلم قدر زيادتها فى الفضل على ذلك إلا الله تعالى ، ولمثل هذا تضرب آباطُ الإبل ، وتُستحق الرحلة ، ولا يعكر على ذلك مارواه أحمد برجال الصحيح عن أبى هريرة وعائشة قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الأقصى » لأن المحفوظ إنما هو استثناء المسجد الحرام ، وحديث أبى هريرة فى الصحيح خلا قوله « إلا المسجد الأقصى » وهو مُعارَض بما تقدم ، ولأن الهيثمى أورده فى مجمع الزوائد ثم قال : رواه أحمد ، وأعاده بعد هذا بسنده فقال : إلا المسجد الحرام ، فاتَّضح بذلك ما قلناه .

وأما المسجد الحرام فاختلف الناس فى معنى استثنائه ، فذهب مالك فى رواية أشهب عنه — وقاله ابن نافع صاحبه وجماعة من أصحابه — إلى أن معنى الاستثناء أن الصلاة فى مسجد الرسول أفضلُ من الصلاة فى سائر المساجد بألف صلاة، إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم أفضلُ من الصلاة فيه بدون الألف ، وذهب بعضُهم إلى أن الصلاة فى مسجد المدينة أفضلُ من الصلاة فى مسجد مكة بمائة صلاة ، وحمل على ذلك الاستثناء فى الحديث المتقدم ، واحتجوا برواية سليمان بن عتيق عن ابن الزبير عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « صلاة فى المسجد الحرام خير من مائة صلاة فى ما سواه » فيأتى فضيلة مسجد الرسول عليه بتسعمائة ، وعلى غيره بألف ، وتُعُقِّبَ بأن المحفوظ بالإسناد المتقدم «صلاة فى المسجد الحرام أفضلُ من ألف صلاة فيما سواه ، إلا مسجد الرسول فإنما فَضَلَه عليه بمائة صلاة » .

قلت : وروى الطبرانى فى الأوسط عن عائشة مرفوعا « صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى غيره » لكن فيه سويد بن عبد العزيز ، قال

البخارى : فى حديثه نظر لا يحتمل ، وقد صح ما يقتضى رد ماذهب إليه هؤلاء ؛ فقد روى أحمد والبزار وابن خُزَيمة برجال الصحيح من طريق حبيبٍ المعلِّم عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا أفضلُ من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاةٌ فى المسجد الحرام أفضلُ من مائة صلاة فى هذا » زاد ابن خزيمة « يعنى فى مسجد المدينة » لـكن لفظ البزار « صلاة فى مسجدى هـذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام فإنه يزيد عليه بمائة » وهى محتملة لأن يكون الضمـير فى « فإنه يزيد » لمسجده أو للمسجد الحرام ، وقد صحح ابنُ عبد البر حديثَ أحمد ، وقال : هو الحجة عند التنازع ، نص فى موضع الخلاف ، قاطعٌ له عند من أُلهِمَ رشدَهُ ، ولم تمل به العصبية ، قال: ولا مَطْعَنَ فيه إلا لمتعسف لا يُعَرِّجُ على قوله فى حبيب ، وقد كان الإمام أحمد يمدحه ، ويوثقه ، ويثنى عليه ، وكان عبد الرحمن بن مَهْدِى يحدث عنه ، ولم يرو عنه القطان ، وروى عنه أئمة ثقات يُقْتَدَى بهم ، ومنهم مَنْ أعلَّه باختلاف على عطاء ؛ لأن قوما يروونه عنه عن ابن الزبير ، وآخرين يروونه عنه عن ابن عمر ، وآخرين عنه عن جابر ، ومن العلماء مَنْ يجعل مثل هذا علةً فى الحديث ، وليس كذلك ؛ لأنه يمكن أن يكون عن عطاء عنهم ، والواجبُ أن لا يُدْفَعَ خبرٌ نقله العدول إلا بحجة .

قال البزار : هـذا الحديث قد روى عن عطاء ، واختلف على عطاء فيه ، ولا نعلم أحداً قال بأنه يزيد على مسجد المدينة مائة إلا ابن الزبير ، وقد تابع حبيبا المعلم الربيعُ بن صُبَيح ؛ فرواه عن عطاء عن ابن الزبير ، ورواه عبد الملك ابن أبى سليمان عن عطاء عن ابن عمر ، ورواه ابن جُرَيج عن عطاء بن أبى سلمة عن أبى هريرة أو عائشة ، ورواه ابن أبى ليلى عن عطاء عن أبى هريرة ، انتهى .

وقال الذهبى فى مختصر سنن البيهقى : إسناده صالح ، ولم يخرجه أصحاب السنن.

قلت : هذا أمر آخر ، وهو أن الحديث المذكور لما اختلف لفظه على وجهين أحدهما ليس نصا فى الدلالة كما قدمناه احتمل أن تكون الرواية فى الواقع به ، ومَنْ رواه بالوجه الآخر رواه بالمعنى بحسب فهمه ، إلا أن وروده من الطرق الأخرى بذلك اللفظ تُوهِنُ هذا الاحتمالَ ، وعلى تقدير ثبوته فهو من ابن الزبير، وهو أعرف بفهم مَرْوِيه ؛ لأن عبد الرزاق روى عن ابن جريج قال : أخبرنى سليمان بن عتيق وعطاء عن ابن الزبير أنهما سمعاه يقول« صلاة فى المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيه » ويشير إلى مسجد المدينة ، وقد قال ابنُ عبد البر : إن رجال إسناد حديث ابن عمر علماء أجلاء ، ورواهُ ابن وضاح عن ابن الزبير من كلام عمر بن الخطاب بنفسه ، قال ابن حزم : وسندُه كالشمس فى الصحة، وروى ابن أبى خيثمة عن أبيه حدثنا مسلم عن الحجاج عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : الصلاة فى المسجد الحرام تَفْضُلُ على مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بمائة ضعف ، قال : فنظرنا فإذا هى تَفْضُلُ على سائر المساجد بمائة ألف صلاة ، قال ابن عبد البر وابن حزم : فهذان صحابيان جليلان يقولان بفضل المسجد الحرام على مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا مخالف لهما من الصحابة ؛ فصار كالإجماع منهم على ذلك .

وفى ابن ماجة من حديث جابر مرفوعا « صلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » وفى بعض النسخ « من مائة صلاة فيما سواه » فعلى الأول معناه فيما سواه إلا مسجد المدينة ، وعلى الثانى معناه من مائة صلاة فى مسجد المدينة لما تقدم عن جابر .

قلت : وقد روى يحيى حديث الصحيحين المتقدم عن جبير بن مطعم بلفظ « إن صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد غير الكعبة » وفى رواية النسائى وغيره « إلا مسجد الكعبة » ولهذا ذهب بعضهم إلى أن المراد من المسجد الحرام الكعبة ، وبه قال العمرانى من أصحابنا وغيره،

وروى البزار عن عائشة حديث « أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدى خاتم مساجد الأنبياء ، أحق المساجد أن يزار وتُشَد إليه الرواحل المسجدُ الحرام ومسجدى ، وصلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام »

وروى ابن ماجة مرفوعاً برجال ثقات إلا أبا الخطاب الدمشقى فهو مجهول « صلاة الرجل فى بيته بصلاة ، وصلاته فى مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة ، وصلاته فى المسجد الذى يجمع فيه بخمس مائة صلاة ، وصلاته فى المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة فى مسجدى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » وهو يقتضى أن الصلاة بمسجد المدينة مساوية لمسجد بيت المقدس ، وأنهما معا على النصف من الصلاة بالمسجد الحرام ، وهو مخالف لما فى الصحيح، مع أن مفهوم العدد ليس بحجة؛ فلاينفى ماثبت من الزيادة لمسجد المدينة على مسجد بيت المقدس سيما بالطريقة التى قدمناها

وفى الطبرانى — وهو حسن ، وفى بعض رجاله كلام — عن أبى الدرداء مرفوعا « الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدى بألف صلاة ، والصلاة فى بيت المقدس بخمسمائة صلاة » ورواه ابنُ خزيمة فى صحيحه بنحوه ، والبزار وحَسَّنه ، وقال المجد : أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب ، قال : ولا نعلم حديثا يشتمل على فضيلة الصلاة بالمساجد الثلاثة خصوصا[1] سواه مما يصح عند الاعتبار معناه

قلت : لم أره فى الترمذى ، وقد ساقه ابن عبد البر محتجا به ، وهو غير مانع مما قدمناه من كون الصلاة بمسجد المدينة أفضل من ألف صلاة بمسجد بيت

(١) المساجد الثلاثة: هى الأقصى، ومسجد المدينة ، والمسجد الحرام ، و«خصوصا» أراد به بيان فضل الصلاة فى كل مسجد منها على انفراده من غير أن يذكر زيادة الصلاة فيه على الصلاة فى غيره من المساجد .

المقدس ؛ لأن العدد لا ينفى الزائد ، وكذا حديث الأوسط للطبرانى برجال الصحيح عن أبى ذر : تذاكرنا ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أيما أفضلُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بيت المقدس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من أربع صلوات فيه ، ولنعم المصلَّى هو » وقد يقال فى ذلك كما قيل فى نظائره من احتمال أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أولا ببعض ذلك بحسب ما أوحى إليه ، ثم أعلم بالزيادة ، ويكون حديث الأقل قبل حديث الأكثر ، ثم تفضل الله بالأكثر شيئاً بعد شىء ، ومحصله ما قررناه من الأخذ بالزائد ، ويحتمل أن ينزل تلك الأعداد على اختلاف الأحوال[1] ؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى غير نهاية

ونقل الزركشى فى أعلام المساجد عن الكبير للطبرانى بسند فيه مُقَاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام بعشرة أمثالها مائة ألف صلاة ، وصلاة الرجل فى بيت المقدس بألف صلاة ، وصلاة الرجل فى بيته حيث لا يراه أحد أفضل من ذلك كله »

هل فضل الصلاة فى المساجد الثلاثة يختص بالفرض ؟

قلت : وهو ضعيف ، ولم يورده الهيثمى فى مجمعه[2] فى فضل الصلاة فى المساجد الثلاث

وهذه المضاعفة المذكورة فى هذه المساجد لا تختص بالفريضة ، بل تعم الفرض والنفل ، كما قال النووى فى شرح مسلم إنه المذهب

قال الزركشى : وهو لازم تعليل الأصحاب استثناء النفل بمكة فى الأوقات المكروهة بمزيد الفضيلة

وقال الطحاوى من الحنفية : هو مختص بالفرض ، وفعل النوافل بالبيت

(١) اختلاف الأحوال : أى أحوال الناس من احتمال المشقة الشديدة ، والإخلاص فى العمل ، وطهارة الظاهرة والباطن من الدنيا وعلائقها

(٢) مجمعه : هو مجمع الزوائد لابن حجر الهيتمى

أفضل ، وإليه ذهب ابنُ أبي زيد من المالـكية ، وهو المرجح عندهم ، وفرق بعضهم بين أن يكون المسجد خاليا أم لا

فإن قيل : كيف تقولون إن المضاعفـــــة تعم الفرض والنفل وقد تطابقت الأصحاب ونص الحديث الصحيح على أن فعـل النـافلة فى بيت الإنسان أفْضَلُ ؟ .

قلنا : لا يلزم من المضاعفة فى المسجد أن يكون أفضلَ من البيت كما قاله الزركشى وغيره ، وغاية الأمر أن يكون فى المفضول مزية ليست فى الفاضل ، ولا يلزم من ذلك جعله أفضل ؛ فان للأفضل مزايا إن كان للمفضول مزية ، ولهذا بحث التاج السبكى مع أبيه فى صلاة الظهر بمنى يوم النحر إذا جعلنا منًى خارجة عن محل المضاعفة: هل يكون أفضل من صلاتها فى المسجد لأنه صلى الله عليه وسلم فعلها بمنى يومئذ أو فى المسجد للمضاعفة ؟ فقال والده : بل فى منًى وإن لم يحصل بها المضاعفة ؛ فإن فى الاقتداء بأفعال النبى صلى الله عليه وسلم مايَرْبُو على المضاعفة ، على أن الحافظ ابنَ حَجَر ذكر ما يقتضى إثبات المضاعفة للتنفل فى البيوت بالمدينة ومكة ، عملا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم «أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة» فقال : وقد تقدم النقل عن الطحاوى وغيره أن ذلك ــ يعنى التضعيف ــ مختصّ بالفرائض ؛ لحديث « أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة » ويمكن أن يقال : لا مانع من إبقاء الحديث على عمومه ؛ فتكون النافلة فى بيت بالمدينة أو مكة تضاعف على صلاتها فى البيت بغيرهما ، وكذا فى المسجدين ، وإن كانت فى البيوت أفضل مطلقا

مرجع مضاعفة فضل الصلاة

ثم إن التضعيف المذكور يرجع إلى الثواب بتلك الأعداد ، لا إلى الإجزاء ، باتفاق العلماء كما نقله النووى وغيره ؛ فلو كانت عليه صلوات فصلى فى أحد المسجدين صلاة لم تُجْزِه إلا عن واحدة ، وقد أوهم كلام أبى بكر النقاش فى تفسيره

خلاف ذلك ؛ فإنه قال : حسبت الصلاة فى المسجد الحرام فبلغت صلاة واحدة بالمسجد الحرام عمر خمسة وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة ، اه . وهذا مع قطع النظر عن التضعيف بالجماعة والسواك ونحوه، لكن هل تجمع التضعيفات أولا؟ محل بحث

هل يختص التضعيف بالصلاة ؟

قلت : وينبغى أن لا يختص هذا التضعيف بالصلاة ، بل سائر أنواع الطاعات كذلك قياسا على ما ثبت فى الصلاة ، كما صرحوا به فى مسجد مكة المشرفة ، وصرح به فيما يتعلق بالمدينة صاحبُ الانتصار أبو سليمان داود من المالكية ، ثم رأيته فى كلام الغزالى فى الإحياء كما قدمناه فى فصل الخصائص ، ويشهد له ما فى الكبير للطبرانى عن بلال بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رمضانُ بالمدينة[1] خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان ، وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان » ونقل المجد عن أبى الفرج الأموى أنه أخرجه بسنده عن ابن عمر

قلت : ورواه ابن الجوزى فى شرف المصطفى عن ابن عمر أيضا بلفظ « صيام شهر رمضان بالمدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة بالمدينة كألف صلاة فيما سواها »

وروى البيهقى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، والجمعة فى مسجدى هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وشهر رمضان فى مسجدى هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام » ورواه أيضا عن ابن عمر بنحوه

---

(١) المراد صيام رمضان كما ورد فى الحديث الآخر الذى سيرويه المؤلف بعد هذا بقليل ؛ فالكلام على حذف مضاف ، وكذلك قوله « وجمعة » المراد به « صلاة الجمعة » إلا أن يراد بلفظ الجمعة صلاتها؛ فإن أريد به ذلك لم يحتج إلى تقدير المضاف .

وهذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة فإذا ضمت إلى ما قدمناه من القياس على الصلاة ثم الاستدلال ، وقد قدمنا فى حدود مسجده صلى الله عليه وسلم الخلافَ المذكور فى المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا » ، وترجيح أن ذلك يتناول ما زيد فيه .

وروى أحمد والطبرانى فى الأوسط ورجالُه ثقاتٌ عن أنس بن مالك حديث « من صلى فى مسجدى أربعين صلاة » زاد الطبرانى « لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبرىء من النفاق » . تقدم هذا الحديث بدون زيادة الطبرانى ، وهو عند الترمذى بغير هذا اللفظ .

وروى ابن المنذر وابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدى فرِجْلٌ تكتبُ حسنة وَرِجْلٌ تحطُّ عنه خطيئة » .

وقال البيهقى بعد ذكر حديث فضل مسجد قُبَاء ما لفظه : ورواه يوسف بن طهمان عن أبى أمامة بن سهل عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وزاد « ومن خرج على طهر لا يريد إلا مسجدى هذا — يريد مسجد المدينة — ليصلى فيه كانت بمنزلةِ حجة » وقد أسند ذلك ابن زبالة ومن طريقه ابن النجار عن سهل أيضاً ، وفى إسناده ابن طهمان أيضاً ، وهو ضعيف عند البخارى وابن عَدِىّ ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، ولفظ ابن زبالة « مَنْ خرج على طهر لا يريد إلا الصلاة فى مسجدى حتى يصلى فيه كان بمنزلة حجة » وأسند هو ويحيى عن سهل بن سعد حديث « مَنْ دخل مسجدى هذا يتعلم فيه خيراً أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان كالذى يرى ما يعجبه وهو لغيره » وفى رواية لهما عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه « مَنْ دخل مسجدى هذا لا يدخله إلا ليعمل خيراً أو يتعلمه كان بمنزلة المجاهد

فى سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة من يرى ما يعجبه وهو فى يدَىْ غيره » .

وروى ابن ماجة عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ جاء مسجدى هذا لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد فى سبيل الله ، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره » ورواه الطبرانى من حديث سعد مرفوعاً بمعناه ، إلا أنه قال « من دخل مسجدى ليتعلم خيراً أو ليعلمه » ورواه ابن حِبان فى صحيحه بلفظ الطبرانى لكن من حديث أبى هريرة .

وأسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دخل مسجدى هذا لصلاة أو لذكر الله أو يتعلم خيراً أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد فى سبيل الله » ولم يجعل ذلك لمسجد غيره ، وعند يحيى أيضاً عن كعب أنه قال « ما من مؤمن يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو أو لا يروح إلا ليتعلم خيراً أو يعلمه أو يذكر الله أو يذكِّرَ به إلا كان مَثَلُه فى كتاب الله كمثل الجهاد فى سبيل الله ، وما من رجل يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو ولا يروح إلا لأخبار الناس وأحاديثهم إلا كان مثله فى كتاب الله كمثل الرجل يرى الشىء يعجبه ويرى المصلين وليس منهم ، ويرى الذاكرين وليس منهم » ، وعنده أيضاً عن أبى سعيد المَقْبُرِى عن الثقة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا إخال إلا أن لكل رجل منكم مسجداً فى بيته » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال « فوالله لو صليتم فى بيوتكم لتركتم مسجد نبيكم ، ولو تركتم مسجد نبيكم لتركتم سننه ، ولو تركتم سننه إذاً لضللتم » .

وفى الصحيح من حديث ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى غزوة خيبر « مَنْ أكل من هذه الشجرة — يعنى الثوم — فلا يقربَنَّ مسجدنا » .

قال الكرمانى : قال التيمى : قال بعضهم : النهىُ إنما هو عن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، من أجل ملائكة الوَحْىِ ، والأكثر على أنه عام ، انتهى . وقد حكى ابن بَطَّال القولَ بالاختصاص عن بعض أهل العلم ووَهَّاه[1] ، والله أعلم .

الفصـــل السادس

فى فضل المنبر المنيف ، والروضة الشريفة

روينا فى الصحيحين حديثَ عبد الله بن زيد المازنى رضى الله عنه « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » زاد البخارى من حديث أبى هريرة ، « ومنبرى على حَوْضِى » .

وروى أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه على بن زيد وقد وثق عن جابر بن عبد الله مرفوعا « ما بين بيتى إلى منبرى روضة من رياض الجنة ، وإن منبرى على تُرْعَة من تُرَعِ الجنة» .

وروى أحمد برجال الصحيح عن سَهْل بن سعد مرفوعا « منبرى على ترعة من ترع الجنة » وفيه تفسير الترعة بالباب ، وقيل : الترعة الروضة تكون على المكان المرتفع خاصة ، وقيل : الدرجة .

ورواه يحيى عن أبى هريرة وغيره بلفظ « على رَتْعَةٍ من رتع الجنة » وكذا هو فى رواية لرزين ، وظنه بعضهم تصحيفا فكتب فى هامشه « صوابه ترعة » وليس كذلك ، بل معناه صحيح؛ إذ الرتع الاتساع فى الخصب،والرَّتْعَةُ ـ بسكون التاء وفتحها ـ الاتساع فى الخصب ، وكل مخصب مرتع .

وفى الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارْتَعُوا » ، وروى البزار عن معاذ ابن الحارث نحوه .

---

(١) وهاه : جعله واهياً أى ضعيفاً .

وفى الكبير للطبرانى من طريق يحيى الحمانى وهو ضعيف عن أبى واقد الليثى مرفوعا « قوائم منبرى رَوَاتِبُ فى الجنة » ورواه ابن عساكر وابن النجار ويحيى عن أم سلمة ، وقال المجد : أخرجه عنها النسائى ، وفى رواية لابن عساكر « وضعت منبرى هذا على تُرْعةٍ من تُرَعِ الجنة ».

وأسند يحيى عن أبى المعلى الأنصارى وكانت له صحبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر « إن قدمى على ترعة من ترع الجنة » .

وعن أبى سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على منبره « أنا قائم الساعةَ على عقر حوضى (١) » وفى رواية له « إنى على الحوض الآن » .

وأسند ابن زبالة عن نافع بن جبير عن أبيه حديث « أَحَدُ شِقّىِ المنبرِ على عقر الحوض، فمن حلف عنده على يمين فاجرة يقتطع بها حق امرئ مسلم فليتبوأ مقعده من النار » قال : وعقر الحوض من حيث يصب الماء فى الحوض .

وفى سنن أبى داود من حديث جابر مرفوعا « لا يحلف أحد عند منبرى هذا على يمين آثمة ولو على سواك أخضر إلا تبَوَّأ مقعده من النار ، أو وجبت له النار » ، ورواه ابن خُزَيمة وابن حبان والحاكم وصححوه .

وروى النسائى برجال ثقات عن أبى أمامة بن ثعلبة مرفوعا « مَنْ حلف عند منبرى هذا يميناً كاذبة استحَلَّ بها مالَ امرىء مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلا » .

وفى الأوسط للطبرانى وفيه ابن لَهِيعَةَ عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا « منبرى على تُرْعَة من تُرَعِ الجنة ، وما بين المنبر و بيت عائشة روضة من رياض الجنة » .

وفى الصحيحين حديث ابن عمر « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة ».

---

(١) عقر الحوض : المكان الذى منه يصب الماء فى الحوض ، وسيفسره بذلك المؤلف فى الحديث التالى ، وسيفسر عقر الحوض بمؤخره فى ص ٤٢٩ .

وروى أحمد برجال الصحيح عن أبى هريرة وأبى سعيد حديثَ « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » .

وروى البزار برجال ثقات عن سعد بن أبى وَقَّاص حديثَ « مابين بيتى ومنبرى ، أو قبرى ومنبرى ، روضة من رياض الجنة » وفى الأوسط للطبرانى وفيه متروك عن أنس بن مالك حديث «مابين حُجْرَتى ومُصَلاَّىَ روضة من رياض الجنة » وفى رواية لابن زبالة من طريق عائشة بنت سعد عن أبيها « مابين منبرى والمصلى » وفى رواية «مابين مسجدى إلى المصلى روضة من رياض الجنة» ورواه أبو طاهر بن المخلص فى انتقائه ويحيى فى أخبار المدينة بلفظ «مابين بيتى ومُصَلاَّىَ روضة من رياض الجنة» قال جماعة : المراد به مصلى العيد ، وقال آخرون : مُصَلاَّهُ الذى يصلى فيه فى المسجد ، كذا قاله الخطابى .

قلت: ويؤيد الأول أن فى النسخة التى رواها طاهر بن يحيى عن أبيه يحيى عقب الحديث المذكور مالفظه : قال أبى: سمعت غير واحد يقولون : إن سعدا لما سمع هذا الحديث من النبى صلى الله عليه وسلم بَنَى داره فيما بين المسجد والمصلى ، وكذا ما سيأتى فى مصلى العيد من رواية ابن شبة عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص .

قلت : وهو شاهد لما سيأتى من عموم الروضة لجميع مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما زيد فيه من جهة المغرب .

وروى عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند برجال الصحيح إلا أن فيهم فليحا ــ وقد روى له الجماعة، وقال الحاكم : اتفاقُ الشيخين عليه يقوى أمره، وقال الساجى : ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الدارقطنى : فليح يختلفون فيه ، وقال بعضهم : إنه كثير الخطأ ــ عن عبد الله بن زيد المازنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مابين هذه البيوت ــ يعنى بيوتَهُ ــ إلى منبرى روضة من رياض الجنة ، والمنبر على تُرْعَة من تُرَعِ الجنة » .

معنى كون المنبر على الحوض

وقد اختلف فى معنى ذلك؛ فقال الخطابى: معنى قوله «ومنبرى على حوضى» أن قصد منبره والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه، وهذا قول الباقى، والثانى: أن منبره الذى كان يقوم عليه صلى الله عليه وسلم يُعِيدُهُ اللهُ كما يعيدُ سائرَ الخلائقِ، ويكون على حوضه فى ذلك اليوم، واعتمد ذلك ابن النجار، وحكى ابن عساكر القولَ بأن المراد منبره بعينه الذى كان فى الدنيا، ثم قال: وهو أظهر، وعليه أكثر الناس، فتبع شيخه ابن النجار فى ذلك، والثالث أن المراد منبر يخلقه الله تعالى له فى ذلك اليوم، ويجعله على حوضه.

قلت: ويظهر لى معنى رابع، وهو أن البقعة التى عليها المنبر تعاد بعينها فى الجنة، ويعاد منبره ذلك على هيئة تناسب ما فى الجنة؛ فيجعل المنبر عليها عند عُقْرِ الحوض، وهو مؤخره، وعن ذلك عبر بترعة من ترع الجنة، وذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك لأمته للترغيب فى العمل فى هذا المحل الشريف ليُفْضِى بصاحبه إلى ذلك، وهذا فى الحقيقة جمع بين القولين الأولين، وسيأتى فى الزيارة ما ذكره ابن عساكر من أن الزائر يأتى المنبر الشريف، ويقف عنده، ويدعو

معنى أن الروضة من رياض الجنة

واختلفوا أيضاً فى معنى ما جاء فى الروضة الشريفة، قال الحافظ ابن حجر: محصل ما أول به العلماء ذلك أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة فى نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل فيها من مُلَازمة حِلَقِ الذكر، لا سيما فى عهده صلى الله عليه وسلم؛ فيكون مجازا، أو المعنى أن العبادة فيها تُؤَدِّى إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضا، أو هو على ظاهره، وأن المراد أنها روضة حقيقة بأن ينقل ذلك الموضع إلى الجنة؛ ثم قال: وهذه الأقوال على ترتيبها هذا فى القوة، وهو محتمل لقوية الأول أو الأخير، والأخير أقواها عندى، وهو الذى ذهب إليه ابن النجار، ونقله البرهان ابنُ فرحون فى منسكه عن ابن الجوزى وغيره عن مالك، فقال: وقوله «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة» حمله مالك رحمه الله على ظاهره، فنقل عنه ابن الجوزى وغيره أنها روضة من رياض الجنة تنقل إلى الجنة، وأنها ليست

كسائر الأرض تذهَبُ وتَفْنَى ، ووافقه على ذلك جماعة من العلماء ، انتهى، ونقله الخطيبُ ابن حملة عن الدارودى ، وصححه ابن الحاج فى مدخله ؛ لأن العلماء فهموا من ذلك مزية عظيمة لهذا المحل

ثم رأيت فى كلام الحافظ ابن حجر ترجيحَه فى موضع آخر ، فقال فى الكلام على الحوض : والمرادُ بتسمية ذلك الموضع روضة أن تلك البقعة تنقل إلى الجنة فتكون روضة من رياضها ، أو أنها على المجاز لكون العبادة فيه تؤولُ إلى دخول العابد روضة الجنة ، ثم قال : وهذا فيه نظر ؛ إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة ، والخبر مَسُوق لمَزِيد شرف تلك البقعة على غيرها ، انتهى

قلت: وأحْسَنُ من ذلك ماذهب إليه ابن أبى جَمْرَةَ من الجمع بين هذا وما قبله ، ومنه استنبطنا ما قدمناه فى أمر المنبر ؛ فإنه لم يُعَوِّل على ذكر المعنى الأول وقال بعد ذكر المعنيين الأخيرين : الأظهر — والله أعلم — الجمعُ بين الوجهين ؛ لأن لكل منهما دليلا يَعْضُدُه[1] ، أما الدليلُ على أن العمل فيها يوجب الجنة فلما جاء فى فضل مسجدها من المضاعفة ، ولهذه البقعة زيادة على باقى بُقَعِهِ ، وأما الدليل على كونها بعينها فى الجنة فلإخباره صلى الله عليه وسلم بأن المنبر على الحوض ، لم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره ؛ وأنه حق محسوس موجود على حوضه .

قلت : وفيه نظر ؛ لما قدمناه

قال: وقد تقرر فى قواعد الشرع أن البُقع المباركة مافائدة بركتها لنا والإخبار بذلك إلا تعميرها بالطاعات ؛ قال: ويحتمل وجها ثالثا ؛ وهو أن تلك البقعة نفسها روضة من رياض الجنة كما أن الحجر الأسود من الجنة ؛ فيكون الموضع المذكور روضة من رياض الجنة الآن ؛ ويعود روضة فى الجنة كما كان ؛ ويكون للعامل بالعمل فيه روضة فى الجنة ؛ قال : وهو الأظهر ؛ لعلو مكانته عليه السلام ؛ وليكون بينه

---

(١) يعضده : يقويه ويؤيده .

و بين الأبوة الإبراهيمية فى هذا شبه ، وهو أنه لما خص الخليل بالحَجَر من الجنة خص الحبيب بالروضة منها .

قلت : وهو من النَّفَاسة بمكان ، وفيه حمل اللفظ على ظاهره ؛ إذلا مقتضى لصَرْفه عنه ، ولا يقدح فى ذلك كونُها تُشاهَد على نسبة رياض الدنيا فإنه مادام الإنسان فى هذا العالم لا ينكشف له حقائق ذلك العالم لوجود الحُجُب الكثيفة والله أعلم .

وتخصيص ما أحاطت به البَيْنِيَّةُ المذكورة بذلك إما تعبد وإما لكثرة تردده صلى الله عليه وسلم بين بيته ومنبره وقرْب ذلك من قبره الشريف الذى هو الروضة العظمى كما أشار إليه ابنُ أبى جَمْرَة أيضا .

وقال الجمال محمد الراسانى الريمى : اتفقوا على أن هذا اللفظ معقول المعنى ، مفهوم الحِكْمَة ، و إنما اختلفوا فى ذلك المعنى ماهو ، فقيل : اللفظ على حقيقته ، و إن ذلك روضة من رياض الجنة بمعنى أنه بعينه نُقِل من الجنة ، أو أنه سينقل إليها ، وقيل: مجاز معناه أن العبادة فيه تُؤَدِّى إلى الجنة ، أولما ينزل فيه من الرحمة وحصول المغفرة ، كما سمى مجالس الذكر رياض الجنة فى حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا[1] » وفى رواية لأبى هريرة « قلت : مارياض الجنة ؟ قال : المساجد ، قلت : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر » .

وقال ابن عبد البر : لما كان صلى الله عليه وسلم يجلس فى ذلك الموضع ويجلس الناسُ إليه للتعلم شبَّهه بالروضة؛ لكريم مايجتنى فيه ، وأضافها إلى الجنة لأنها تؤول إلى الجنة ، كقوله « الجنة تحت ظلال السيوف » أى أنه عمل يُدْخِلُ الجنةَ .

وقال الخطابى : روضة من رياض الجنة بالطاعة فيه ، كقوله« عائد المريض

---

(١) قال ابن الأثير (النهاية : ٢/٦٤) « ومنه الحديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، أراد برياض الجنة ذكر الله ، وشبه الخوض فيه بالرتع فى الخصب » اهـ .

فى مَخْرَفَةِ الجنة[١] » أى يرجى له بذلك مخرفة الجنة؛ فأطلق اسم المسبب على سببه كقوله « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

هذا ما نقله الخطيب ابن حملة من المعانى ،ثم تعقب الأخير بأنه لا يبقى حينئذ لهذه الروضة مزية ، وقد فهم الناس من ذلك المزية العظيمة التى بسببها فضلها مالك على سائر البقاع

وقد تعقب الجمالُ الريمى الخطيب فى ذلك ، وقال : أظهر المعانى تضعيف أجر الطاعات ، وتعليم الناس وجوه الخير ؛ لاتفاق الخطابى وابن عبد البر عليه ، وهما عمدة الأمة فى فقه الحديث ، ولأن النظائر تؤيده ، وأما المعنيَانِ الآخَرَان فلم يعزُهما الخطيبُ إلى أحد ، فدلَّ على ضعفهما ، ولم يذكر عياضٌ القولَ بأن هذا الموضع بعينه نقل من الجنة ، وذكر ما عداه ، فدل على شذوذه ؛ لأن مثل هذا طريقه التوقيفُ كما جاء فى الركن والمقام ، على أن القول به يؤدى إلى إنكار المحسوسات أو الضروريات ، وجواب ما ذكره الخطيب أن المزية ظاهرة ، وهو أن العمل فى النظائر المتقدمة يؤدى إلى رياض الجنة ، والعمل فى هذا المحل يؤدى إلى روضة أعلى من تلك الرياض .

قلت : إنما حَمله على هذا ذهابُه إلى أن اسم الروضة يعم جميع مسجده صلى الله عليه وسلم،وأنه إذا ثبت لما زيدَ فيه حكمُ المضاعفة تعدى ذلك إليه، فاختار كون التسمية بذلك مجازية ، ووضع فى ذلك كتاباً سماه « دلالات المسترشد ، على أن الروضة هى المسجد » وقد صنف الشيخ صفى الدين الكازرونى المدنى مصنفاً فى الرد عليه ، وقد لخصتهما مع سلوك طريق الإنصاف بينهما فى كتابى الموسوم « بدفع التعرض وَالإنكار ، لبسط رَوْضة المختار» وَسنذكر الصوابَ فى ذلك، وَاستدلالُه على ضعف القول بأن ذلك الموضع بعينه نقل من الجنّة بأن عياضا لم يذكره عجيبٌ لاحتمال أنه لم يَطلع عليه ، وقوله « إن ذلك طريقهُ التوقيف

(١) فى النهاية « عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » والمخارف : جمع مخرف أو مخرفة — بفتح الراء فيهما — وهو الحائط من النخل : أى أن العائد فيما يحوز من الثواب كأنه على نخل الجنة يخترف ثمارها ، وقيل : المخارف جمع مخرفة ، وهى سكة بين صفين من نخل يجتنى من أيهما شاء .

كما جاء فى الركن » فنقول : أى توقيف أعظم من إخبار الصادق المصدوق بذلك ؟ وهو المخبر بأمر الركن والمقام ، والأصلُ فى الإطلاق الحقيقة ، فكيف سَلَّمه فى الركن والمقام ولم يسلمه هنا ؟ والذى فهمه العلماء من الحديث أن هذا الموضع روضة ، سواء كان به ذاكرون ومصلون أم لم يكن ، بخلاف حِلَقِ الذكر مثلا ، فإن ذلك يزول عنها بقيامهم ، فالروضة ماهم فيه بخلاف هذه ، ولهذا فسر الرَّتْعَ هناك بالذكر ، والمراد فى حديث « الجنة تحت أقدام الأمهات » أن لزوم خدمتهن تؤدى إليها ، وقوله « إن القول بذلك يؤدى إلى ماذكره » عجيبٌ ، وقد قدمنا السبب المانع من شهود ذلك على حقيقته ، وأى حُسْن أحْسَن من القول بأن ذلك روضة من الجنة أكرم الله به نبيه ؟ ويؤيده أحاديثُ المنبر المتقدمة وماسيأتى فى أحُدٍ وعَيْرٍ ؛ إذ لم يقل أحد إن المراد أن المتعبد عند أحُدٍ يُفْضِى به ذلك إلى الجنة ، والمتعبد عند عَيْرٍ يفضى به ذلك إلى النار ، وأما قوله فى بيان المزية « إن العمل فى ذلك المحل يؤدى إلى روضة أعلى » فليس فى الحديث وصفه بأنه أعلى الرياض ، بل أطلق ذلك ، فإذا ثبت ذلك لغيره فلا خصوصية ، بل قد يقول الذاهب إلى تفضيل مكة : إن العمل فيها يؤدى إلى روضة أعلى وأفضل ، ولظهور مزية تلك البقعة على غيرها بذلك استدل به بعضُ الأئمة على تفضيل المدينة على مكة بإضافة حديث « لَقَابُ قوسٍ[1] أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » وتعقبه ابن حزم بأن جعلها من الجنة إنما هو على سبيل المجاز ، إذ لو كانت حقيقة لكانت كما وصف الله الجنة « إنَّ لَكَ أنْ لاَ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى » قال : وإنما المراد أن الصلاة فيها تؤدى إلى الجنة كما يقال فى اليوم الطيب : هذا يومٌ من أيام الجنة .

قلت : لايلزم من ثبوت عدم الجوع والعُرْىِ لمن حل فى الجنة ثبوتُه لمن حل

---

(١) قاب القوس : مقداره ، وفى القرآن الكريم : (ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى)

فى شىء أخرج منها ؛ إذ يلزمه أن ينفى بذلك عن حجر المقام كونه من الجنة حقيقة، ولا قائل به، ومسألة عموم الروضة لجميع مسجده صلى الله عليه وسلم ذات خلاف ؛ فقد قال الأقشهرى : سئل أبو جعفر بن نصر الداودى المالكى عن قوله « ما بين بيتى ومنبرى روضة » فقال : هو روضة كله ، ونقل الريمى عن الخطيب ابن حملة أنه قال: قوله «ما بين بيتى» مفرد مضاف قد يفيد العموم فى بيوته، ثم ذكر بيان مكان بيوته، ثم قال: ولهذا قال السمعانى فى أماليه: لما فَضَّل الله مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه وبارك فى العمل فيه وضعفه سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم روضة من رياض الجنة ، فتراه جعل المسجد كله روضة ، والمشهور أن المراد بيت خاص ، وهو بيت عائشة رضى الله عنها ؛ للرواية الأخرى « ما بين قبرى ومنبرى » قال ابن خزيمة: أراد بقوله ما بين بيتى الذى أقبر فيه ؛ إذ النبى صلى الله عليه وسلم قبر فى بيته الذى كانت تسكنه عائشة ، قال الخطيب : فعلى هذا تُسَامِتُ — يعنى الروضة — حائط الحجرة من القبلة والشمال من جهة الحجرة، ولا تزال تقصر إلى جهة المنبر ، أو توجد المسامتة مستوية فلينظر ، هذا كله كلام الخطيب .

قلت : فتلخص من ذلك ثلاثة آراء : الأول : أنها المسجد الموجود فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، الثانى : أنها ماسامَتَ[1] المنبر والحجرة فقط ، فتتسع من جهة الحجرة وتضيق من جهة المنبر لما تقدم فى مقداره ، وتكون منحرفة الأضلاع لتقدم المنبر فى جهة القبلة وتأخر الحجرة فى جهة الشام ، فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعاه على قدر المنبر ، الثالث : أنها ماسامَتَ[1] كلا من طرفى الحدين ، فتشمل ماسامَتَ المنبر من مقدم المسجد فى جهة القبلة و إن لم يسامت[1] الحجرة ، و يشمل ما سامَتَ الحجرة من جهة الشمال و إن لم يسامت[1] المنبر ، فتكون مربعة ، وهى الأروقة الثلاثة : رواق المصلى الشريف ، والرواقان بعده ، وذلك هو مسقف مقدم المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد تحرر لنا فى هذه العمارة التى أدركناها

---

(١) سامت الشىء الشىء : قابله ووازاه

أن صف أسطوان الوُفودِ ـ وهى التى كانت إلى رحبة المسجد كما سيأتى ـ واقعٌ خلف الحجرة سواء، حتى إن الأسطوانة التى تلى مربعة القبر فى صفها الداخلة فى الزور بعضها داخل فى جدار الحجرة الشامى كما سيأتى بيانه .

وأما أدلة هذه الأقوال فقد استدل الريمى للأول بأشياء غالِبُها ضعيفٌ مبناه على أن إطلاق الروضة من قبيل المجاز لما فى ذلك من المضاعفة ونحوه، وأحسنها ما أشار إليه الخطيبُ ابن حملة وأيده الريمى بأشياء، فقال : قوله « بيتى » من قوله « ما بين بيتى » مفرد مضاف، فيفيد العمومَ فى سائر بيوته صلى الله عليه وسلم، وقد كانت بيوته مُطِيفة بالمسجد من القبلة والمشرق ـ وفيه بيت عائشة ـ والشام كما سيأتى عن ابن النجار وغيره، ولم يكن منها فى جهة المغرب شىء، فعرف الحد من تلك الجهة بالمنبر الشريف، فإنه كان فى آخر جهة المغرب بينه و بين الجدار يسير ؛ لأن آخره من تلك الجهة الأسطوانة التى تلى المنبر، والمنبر على ترعة من ترع الجنة، فقد حدد الروضة بحدود المسجد كلها .

قلت : وهو مُفَرَّع على ما ذكره ابن النجار فى تحديد المسجد من جهة المغرب، وقد مشيت عليه فى تواليفى قبل أن أقف على ما قدمته فى حد المسجد، وقد مشى على ذلك الزين المراغى فقال : ينبغى اعتقاد كون الروضة لا تختص بما هو معروف الآن، بل تتسع إلى حد بيوته صلى الله عليه وسلم من ناحية الشام، وهو آخر المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ فيكون كله روضة، وهذا إذا فرعنا على أن المفرد المضاف[1] للعموم، وقد رجحه فى كتب الأصول جماعة، ثم ذكر ما تقدم .

قلت : وفاتهم الجميع الاستدلال بحديث زوائد مسند أحمد المتقدم بلفظ « ما بين هذه البيوت » يعنى بيوته « إلى منبرى روضة من رياض الجنة » والعجبُ أن المعتنين بأمر الروضة لم يذكروه، مع أن فيه غنية عن التمسك بكون

---

(١) هو قوله فى الحديث «بيتى» والمراد بعمومه أنه يشمل كل بيوته صلى الله عليه وسلم، ولهذا كانت رواية «ما بين هذه البيوت إلخ» يغنى عن الرجوع إلى هذه القاعدة

المفرد المضاف يفيد العموم ، فقد ناقش الصفى الكازرونى فى ذلك بأشياء : منها أن رواية « ما بين قبرى ومنبرى » بينت المراد من البيت المضاف . قلت : ليته قال رواية « ما بين المنبر و بيت عائشة » لأنه يلزم عليه أن يكون الروضة بعرض القبر فقط ، والتخصيصُ بذلك بعيد ، ومن قال «إن المراد من البيت القبر» ليس مراده والله أعلم إلا أن رواية القبر لعدم إبهامها تعين البيت ، ولعله مراد الصفى ، ولهـذا قال الطبرى : وإذا كان قبره صلى الله عليه وسلم فى بيته اتفقت معانى الروايات ، ولم يكن بينها خلاف، انتهى ، ولك أن تقول : رواية «قبرى»ورواية « حجرة عائشة » من قبيل إفراد فرد من العام، وذكره بحكم العام ، وهو لا يقتضى التخصيص على الأصح ، بل يقتضى الاهتمام بشأن ذلك الفرد ، على أن القرطبى قال : الرواية الصحيحة « بيتى » ويروى « قبرى »وكأنه بالمعنى ، والله أعلم .

ومنها : أن القرافى حمل إطلاق عموم اسم الجنس على ما يقع منه على القليل والـكثير كالماء والمال ، بخلاف مالا يصدق إلا على الواحد كالعبد والبيت والزوجة فلا يعم ، ولهذا لو قال عبدى حر أو امرأتى طالق لا يعم سائر عبيده ونسائه، قال : ولم أره منقولا . قلت: قال التاج السبكى : خالف بعض الأئمة فى تعميم اسم الجنس المعرف والمضاف[١] ، والصحيح خلافه ، وفصل قوم بين أن يصدق على القليل والـكثير فيعم ، أو [لا][٢] فلا ، واختاره ابن دقيق العيد ، انتهى .

فقد جعل مابحثه القرافى وجهاً ثالثاً مفصلا ، وذلك يأبى حمل إطلاق المطلقِينَ عليه ، فما بحثه منقول ، لـكن الصحيـح خلافه ، وما استدل به من عدم عموم عبدى حر وامرأتى طالق جوابه من أوجه ذكرناها فى دفع التعرض ، وأحسنها ما أشار إليه الأسنوى من أن عدم العموم فى ذلك لـكونه من باب الأيمان ، والأيمان يسلك فيها مسلك العرف ، انتهى . ونقل الأزرقى فى نفائسه عن ابن

---

(١) فى جميع المطبوعات «المعروف» تطبيع ، والمراد باسم الجنس المعرف المقترن بالألف واللام مثل : الماء ، والخل ، والزيت

(٢) كلمة «لا» هذه ساقطة من الأصول كلها ، ولا يتم الكلام بدونها .

عبد السلام أنه قال : الذى تبين لى طَلَاقُ الجميع وعتق الجميع ، وفى كتب الحنابلة نص أحمد على أنه لو قال مَنْ له زوجتان أو عبيدٌ «زوجتى طالق ، أو عبدى حر» ولم ينو[١] مُعَيَّناً ، وقع الطلاق والعتق على الجميع، تمسكا بالقاعدة المذكورة ، فقد جرى ابن عبدالسلام والحنابلة على مقتضى ذلك ؛ فهذه الطرق من أحسن الأدلة، ولكن على شمول الروضة لما بين المنبر والبيوت الشريفة فهو رأى آخر ، وقد قدمنا من الحديث ما يصرح به ، وَيؤيده ما أشار إليه الريمى من أن المقتضى لكون ذلك روضة كثرة تردده صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان يصلى قبل تحويل القبلة فى طرفه الذى يلى الشام ، ومُتَهَجَّدُه كما سيأتى فى جهة المشرق إلى الشام أيضاً ، ومنبره الشريف فى نهاية هذا الموضع المحدود من جهة المغرب ، ومصلاه الشريف بمقدمه و به الأساطين الآتية ذوات الفضل .

وأما الرأى الثانى فدليله التمسكُ بظاهر لفظ البينيَّة الحقيقية ، وحمل البيت على حجرة عائشة رضى الله عنها ، و يضعفه أن مقدم المصلى الشريف يلزم خروجه عن اسم الروضة حينئذ ؛ لخروجه عن موازاة طرفى المنبر والحجرة ، مع أن الظاهر أن معظم السبب فى كون ذلك روضة تشرفهُ بجبهته الشريفة ، على أنى لم أر هذا القول لأحد ، و إنما أخذته من تردد الخطيب ابن حملة المتقدم .

وأما الرأى الثالث فهو ظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس، ووَجْهُه حَمْل البيت على مافى الرواية الأخرى من ذكر حجرة عائشة ، وجعل ما تقدم فى أمر خروج مقدم المصلى الشريف دليلا على أن المراد من البينية ما حاذى واحداً من الطرفين ، وأن المراد مقدم المسجد المنتهى من جهة مؤخر الحجرة الشريفة لصف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وفى كلام الأقشهرى إشارة له ، وهذا إنما علمناه فى العمارة التى سنذكرها ، ولم يكن معلوماً قبل ذلك ، ولهذا قال المجد فى الباب الأول فى فصل الزيارة من كتابه ما لفظه: ثم يأتى -يعنى الزائر- إلى الروضة المقدسة،

---

(١) يريد لم ينو زوجة معينة من الزوجتين أو الزوجات ، ولا عبدا معينا من العبدين أو العبيد

وهى ما بين القبر والمنبر طولا ، ولم أر مَنْ تعرض له عرضاً[1] ، والذى عليه غلبة الظنون أنه من المحراب إلى الأسطوانة التى تُجَاهَهُ ، وأنا لا أوافق على ذلك ، وقد بينته فى موضعه من هذا الكتاب ، وذكرت أن الظاهر من لفظ الحديث يقتضى أن يكون أكثر من ذلك ؛ لأن بيت النبى صلى الله عليه وسلم بجميع مَرَافق الدار كان أكثر من هذا المقدار ، انتهى .

ولم يذكر فى الموضع الذى أحال عليه شيئاً ، وقوله «من المحراب إلى الأسطوانة التى تجاهه » كأنه يريد به الأسطوان المخلّق وماحاذاها ؛ فتكون الروضة على ذلك التقدير الرواق الأول منها فقط ، وهو غلط ؛ لأن الحجرة الشريفة متأخرة عن ذلك لجهة الشام ؛ وصَفُّ الأسطوان المذكور مُحاذٍ لطرف جدارها القبلى . وقال ابن جماعة : قد تحرر لى طول الروضة ، ولم يتحرر لى عرضها ، يريد أن طولها من المنبر إلى الحجرة ، وهو كما قال ابن زبالة ثلاثة وخمسون ذراعا وشبرا ، وقال فى موضع آخر : أربعة وخمسون ذراعاً وسدس .

قلت : وما ذكره أولا أقربُ إلى الصواب كما اختبرناه ، فإنى ذَرَعْتُ بحبل من صفحة المنبر القبلية إلى طرف صفحة الحجرة القبلية فكان ثلاثة وخمسين ذراعاً .

وذكر ابن جماعة ذراعاً أقل من هذا ، وكأنه ذَرَعَ على الاستقامة ، ولم يعتبر الذَّرْعَ من الطرفين المذكورين ، فقال : وذرعت ما بين الجدار الذى حول الحجرة الشريفة و بين المنبر فكان أربعاً وثلاثين ذراعا وقيراطاً بذراع العمل . قلت : وذلك نحو اثنين وخمسين ذراعا بذراع اليد الذى قدمنا تحريره ، وأما قول من قال « إن طول الروضة اليوم ينقص عن خمسين ذراعاً بثلثى ذراع » فلا وجه له إلا أن يكون اعتبر بذراع اليد المفرط الطول ، والله أعلم .

وأما نهاية الحجرة فلم تكن معلومة لابن جماعة وغيره ، وعليها يتوقف بيان

---

(١) يريد أنه لم يقف فى كلام أحد على بيان مقدار عرضه ومبدئه ومنتهاه .

العرض ، ولهذا قال الريمى : لا ندرى الحجرة فى وسط البناء المحيط بها أم لا ؟ ولا ندرى إلى أين ينتهى امتدادها ؟ وغالب الناس يعتقدون أن نهايتها فى محاذاة أسطوان على رضى الله عنه ، ولهذا جعلوا الدرابزين الذى بين الأساطين ينتهى إلى صفها ، واتخذوا الفرش لذلك فقط ، والصوابُ ما قدمناه ؛ فقد انجلى الأمر ولله الحمد.

الفصـــل السابـع
فى الأساطين المنيفة

الأسطوان المخلق

منها الأسطوان الذى هو عَلَمٌ على المصلَّى الشريف ، ويعرف بالمخلَّق ، وقد قدمنا قول ابن زبالة « المخلق نحو من ثلثيها » وقول ابن القاسم « إن المصلى الشريف حيث الأسطوان المخلق » وبينَّا أن المراد أنها أقربُ أسطوان إليه ، وأن الجذعَ الذى كان يخطب إليه صلى الله عليه وسلم ويتكئ عليه كان هناك ، وأن الأسطوان الموجود اليوم متقدم على المحل الأول ، وأن المحل الأصلى هو موضع كرسى الشمعة التى عن يمين الإمام الواقف فى المصلى الشريف ، فمن أراد التبرك بذلك فليصل هناك .

وروى ابن زبالة عن يزيد بن عبيد أنه كان يأتى مع سَلَمَةَ بن الأكوع إلى سبحة الضحى ، فيعمد إلى الأسطوان دون المصحف فيصلى قريباً منهما ، فأقول : ألا تصلى ههنا ؟ وأشير له إلى بعض نواحى المسجد ، فيقول : إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَتَحَرَّى هذا المقام ، وهذا الحديثُ فى الصحيحين ، ولفظ البخارى « كنت آتى مع سَلَمَةَ بن الأكوع ، فيصلى عند الأسطوان التى عند المصحف ، فقلت : يا أبا سلمة أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة ، قال : فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها » ولفظ مسلم عن سلمة أنه كان يتحرَّى موضعَ المصحف يسبح [١] فيه ، وذكر أن النبى صلى الله عليه

(١) يسبح : يصلى ، والسبحة ؛ بالضم : صلاة النافلة ، والمراد هنا سبحة الضحى ، كما ورد فى رواية ابن زبالة ، وقال ابن الأثير « وقد تكرر ذكر السبحة فى الحديث كثيرا ، فمنها الحديث : اجعلوا صلاتكم معهم سبحة ، أى نافلة » اهـ

وسلم كان يتحرى ذلك ، وقد قدمنا فى الكلام على المصلى الشريف ما يبين أن المراد هذه الأسطوانة .

أسطوان القرعة

ومنها أسطوان القُرْعَة ، وتعرف بأسطوان عائشة رضى الله عنها ،و بالأسطوان المخلق أيضاً ، و بأسْطوان المهاجرين .

روينا فى كتاب ابن زبالة عن إسماعيل بن عبد الله عن أبيه أن عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وثالثاً كان معهما دخلوا على عائشة رضى الله عنها فتذاكروا المسجد ، فقالت عائشة : إنى لأعلم سارية من سَوَارى المسجد لو يعلم الناس ما فى الصلاة إليها لاضطربوا عليها بالسُّهْمَان[1] ، فخرج الرجلان و بقى ابن الزبير عند عائشة ، فقال الرجلان : ما تخلَّفَ إلا ليسألها عن السارية ، ولئن سألها لتخبرَنَّه ، ولئن أخبرته لا يعلمنا ، و إن أخبرته عَمِدَ لها إذا خرج فصلَّى إليها ، فاجلس بنا مكاناً نراه ولا يرانا ، ففعلا ، فلم يَنْشَبْ أن خرج مسرعاً فقام إلى هذه السارية فصلى إليها متيامناً إلى الشق الأيمن منها ، فعُلم أنها هى ، وسميت أسطوانة عائشة بذلك ، و بلغنا أن الدعاء عندها مُسْتَجَاب ، هذا لفظ ابن زبالة .

وفى الأوسط للطبرانى عن عائشة رضى الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فى مسجدى لبقعة قبل هذه الأسطوانة لو يعلم الناسُ ماصلَّوا فيها إلا أن تطير لهم قرعة ، وعند عائشة جماعة من أبناء الصحابة فقالوا : يا أم المؤمنين وأين هى ؟ فاستعجمت عليهم ، فمكثوا عندها ساعة ثم خرجوا وثبت عبدُ الله بن الزبير فقالوا : إنها ستخبره بذلك المكان ، فأرقبوه فى المسجد حتى

---

(١) السهمان : جمع سهم ، والسهم فى الأصل القدح الذى يضرب به فى الميسر ثم سمى به مايفوز به الفالج ، وكثر ذلك حتى سمى كل نصيب سهما ، والمراد من قولها « لاضطربوا عليها بالسهمان » أنهم كانوا لا يسمحون لأحدهم بالصلاة عندها إلا إذا ضربوا عليها بالسهام فخرج لأحدهم سهم بالصلاة فيها ؛ لحرص كل واحد على الصلاة عندها

تنظروا حيث يصلى ، فخرج بعد ساعة فصلى عند الأسطوانة التى صلى إليها عامر ابن عبد الله بن الزبير ، فقيل لها : أسطوانة القُرْعَة .

قال عتيق : وهى الأسطوانة التى [هى] واسطة بين القبر والمنبر : عن يمينها إلى المنبر أسطوانتان ، و بينها و بين القبر أسطوانتان ، و بينها و بين الرحبة أسطوانتان، وهى واسطة بين ذلك ، وهى تسمى أسطوانة القرعة ، هذا لفظ الأوسط .

وقال ابن زبالة : حدثنى غير واحد من أهل العلم منهم الزبير بن حبيب أن الأسطوان التى تدعى أسطوان عائشة هى الثالثة من المنبر ، والثالثة من القبر ، والثالثة من القبلة ، والثالثة من الرحبة ، أى قبل زيادة الرواقين الآتى ذكرهما المتوسطة للروضة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليها بضع عشرة المكتوبة ثم تقدم إلى مُصَلاَّه الذى وُجَاه المحراب فى الصف الأوسط ، أى الرواق الأوسط ، وأن أبا بكر وعمر والزبير بن العوام وعامر بن عبد الله كانوا يصلون إليها ، وأن المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها ، وكان يقال لذلك المجلس مجلس المهاجرين ، انتهى .

وقد ذكر ابن النجار هذه الرواية عن الزبير بن حبيب ، وزاد : وقالت عائشة فيها: لو عرفها الناس لاضطربوا على الصلاة عندها بالسهمان، فسألوها عنها فأبت أن تسميها ، فأصغى إليها ابن الزبير فسارَّتْهُ بشىء ، ثم قام فصلى إلى التى يقال لها أسطوان عائشة ، قال : فَظَنَّ مَنْ معه أن عائشة أخبرته أنها تلك الأسطوانة ، فسميت أسطوان عائشة ، قال : وأخبرنى بعض أصحابنا عن زيد ابن أسلم قال : رأيت عند تلك الأسطوانة موضع جبهة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيت دونه موضع جبهة أبى بكر ، ثم رأيت دون موضع جبهة أبى بكر موضع جبهة عمر ، ويقال : الدعاء عندها مستجاب ، هذا لفظ رواية ابن النجار عقب ما قدمناه من رواية ابن زبالة . وزاد فيما ذكره ابن زبالة عقب قوله « إن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضعَ عشرة ، ثم تقدم إلى مصلاه

اليوم » مالفظه : وكان يجعلها خلف ظهره ، قلت : ولم أره فى كلام غيره ، والظاهر أن مراده أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستند إليها إذا جلس هناك ، لا أنه يجعلها خلف ظهره إذا صلى ؛ لما ذكره عن زيد بن أسلم من أنه رأى موضع جبهة النبى صلى الله عليه وسلم عندها ، ووصف هذه الأسطوانة بالمخلَّقة يؤخذ مما تقدم عن ابن زبالة من قول أبى هريرة « وكان مصلاه صلى الله عليه وسلم الذى يصلى فيه بالناس إلى الشام من مسجده أن تضع موضع الأسطوان المخلقة خلف ظهرك ثم تمشى إلى الشام » إلى آخر ماتقدم . قلت : وهذه الأسطوان بصف الأساطين التى خلف الإمام الواقف بالمصلى الشريف ، وهى الثالثة من القبلة وكانت الثالثة أيضا من رحبة المسجد كما تقدم ، وذلك قبل أن يزاد فى مسقف مقدم المسجد الرواقان الآتى بيانهما فى رحبته ، وبهما صارت خامسة من الرحبة .

أسطوان التوبة

ومنها أسطوان التوبة ، وتعرف بأسطوان أبى لبابة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عوف الأوسى أحدِ النقباء ، واسمه رفاعة ، وقيل غير ذلك ، سميت به لأنه ارتبط إليها حتى أنزل الله توبته كما قدمناه فى غَزْوَة بنى قُرَيظَة .

وقال الأقشهرى : اختلف أهل السير والتفسير فى ذنب أبى لبابة ، فقال قوم : كان من الذين تخلَّفُوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوكَ ، وقال ابن هشام تبعا لابن إسحاق : سببه قضية بنى قُرَيظَة واستشارتهم إياه ، وأسند يحيى عن عبد الرحمن بن يزيد قصته معهم ، وأنهم قالوا له : أننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، وهو الذبح . وفى رواية أخرى أنه لما جاءهم قام إليه الرجال ، وأجْهَشَ إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، فرقَّ لهم ، فكان منه ما تقدم ، قال أبو لُبَابَة : فوالله ما زالت قَدَمَاىَ حتى علمت أنى خُنْتُ الله ورسوله . قال يحيى فى الرواية المتقدمة : فلم يرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ومضى إلى المسجد ، وارتبط إلى جِذْع فى موضع أسطوانة التوبة ، وأنزل الله عز وجل فيه « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » وفى رواية : فربَطَ نفسه فى السارية ، وحلف لا يحل

نفسه حتى يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنزل توبته ، قال : فجاءت فاطمة رضى الله عنها تحله ، فقال : لا ، حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم: إنما فاطمة بضْعَةٌ منى ،وفى رواية لابن النجار أن أبا لُبَابة عاهد الله تعالى أن لا يطأ بنى قريظة أبدا ، وقال: لا يرانى الله فى بلدٍ خُنْتُ الله ورسوله فيه أبدا ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما بلغه خبره — وكان قد استبطأه — «أما لو جاءنى لاستغفرت الله له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » فأنزلت توبته ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أم سلمة ، قالت : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السَّحَر يضحك ، فقلت : مِمَّ تضحك أضْحَكَ الله سِنَّكَ ؟ قال : تِيبَ على أبى لُبَابة ، قلت : ألا أبشره بذلك يارسول الله ؟ قال : بلى إن شئتِ ، فقامت على باب حجرتها قبل أن يُضْرَبَ عليهن الحجابُ فقالت : يا أبا لبابة أبْشِرْ فقد تاب الله عليك ، قال : فثار الناسُ إليه ليطلقوه ، قال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُطْلِقُنِى بيده ، فلما مر عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سعيد بن المسيب قصة أبى لبابة فى بنى قريظة ، وأنه تخلف فى غزوة تبوك ، فلما قَفَلَ[1] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جاءه يُسَلِّمُ عليه ، فأعرض عنه ، ففزع[2] أبو لبابة ، فارتبط بسارية التوبة التى عند باب أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم سبعا بين يوم وليلة فى حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قَطْرَةً .

وروى مالك بن أنس عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن أبا لُبَابة ارتبط إليها بسلسلة ربوض ، والربوض : الثقيلة[3] ، بِضْعَ عَشْرَةَ ليلةً ،حتى ذهب سمعه

---

(١) قفل : رجع (٢) فزع: خاف أشد الخوف (٣) قال ابن الأثير «وفى حديث أبى لبابة أنه ارتبط بسلسلة ربوض ، هى الضخمة الثقيلة اللازقة بصاحبها ، وفعول من أبنية المبالغة يستوى فيه المذكر والمؤنث » اهـ

فما يكاد يسمع ، وكاد بصره يذهب ، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة وإذا أرَادَ أن يذهب لحاجته حتى يفرغ ثم تأتى به فترده فى الرباط كما كان .

وأورد الزمخشرى قصة أبى لُبَابة فى تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لاتَخُونُوا الله والرسول» الآية ، وقال فيها : قال أبولبابة : فما زالت قَدَمَاىَ حتى علمت أنى قدخُنْتُ الله ورسوله ، فنزلت : أى الآية المتقدمة ، فشدَّ نفسَه على سارية من سوارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علىّ ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، وذكر فى القصة أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه فحلَّه فقال : إن من تمام توبتى أن أهجر دارَ قومى التى أصَبْتُ فيها الذنبَ ، وأن أنخلع من مالى ، فقال عليه السلام « يُجْزِئُكَ الثلثُ أن تتصدق به »

ونقل ابن النجار عن إبراهيم بن جعفر أن السارية التى ربط إليها ثمامة ابن أثال الحنفى هى السارية التى ارتبط إليها أبو لبابة ، ونقل ذلك أيضا عن ابن شبة

وروى البيهقى عن ابن عباس فى قوله تعالى « وآخَرُون اعترفوا بذنوبهم » الآية ، قال : كانوا عشرةَ رَهْطٍ تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبُوكَ ، فلما حضر رجوع النبى صلى الله عليه وسلم أوثق سبعةٌ منهم أنفسَهم بسَوَارى المسجد ، فلما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ هؤلاء ؟ قالوا : هذا أبو لُبَابة وأصحابٌ له تخلفوا عنك ، الحديث ، وفيه توبة الله عليهم وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم وأطلقهم

وروى ابن زبالة عن عمر بن عبد الله بن المهاجر عن محمد بن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى نوافله إلى أسطوانة التوبة

وفى رواية له عن عمر بن عبد الله ، لم يذكر ابن كعب ، أنه قال فى أسطوان التوبة : كان أكثر نافلة النبى صلى الله عليه وسلم إليها ، وكان إذا صلى الصبح

انصرف إليها ، وقد سبق إليها الضعفاء والمساكين وأهل الضر وضيفان النبى صلى الله عليه وسلم والمؤلفة قلوبهم ومن لا مَبيتَ له إلا فى المسجد ، قال : وقد تحلقوا حولها حِلَقًا بعضها دون بعض، فينصرف إليهم من مُصَلَّاه من الصبح،فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته ، ويحدثهم ويحدثونه ، حتى إذا طلعت الشمسُ جاء أهل الطَّوْلِ والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مجلسا ، فَتَاقَتْ أنفسهم إليه وتاقت نفسه إليهم ، فأنزل الله تعالى « واصْبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » إلى منتهى الآيتين، فلما نزل ذلك فيهم قالوا : يارسول الله اُطْرُدْهُمْ عنا ، ونكون نحن جلساءك وإخوانك ولانفارقك ، فأنزل الله عز وجل « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » إلى منتهى الآيتين .

وفى العُتْبية عن مالك وَصْفُ أسطوان التوبة بالمخلَّقة ، وقد قدمنا فى الكلام على المصلى الشريف ما ذكره ابن زبالة من خلوقها وخلوق غيرها من الأساطين .

وروى ابن زبالة خبر مالك بن أنس المتقدم عن عبد الله بن أبى بكر بنحو ما تقدم ، وقال فيه : وهى الأسطوان المخلق نحو من ثلثيها ، تُدْعَى أسطوان التوبة ، منها حلَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا لُبَابَةَ حين نزلت توبته ، وبينها وبين القبر أسطوان .

وأسند أيضا عن ابن عمر أنه كان يقول فى الأسطوان التى ارتبط إليها أبو لبابة :هى الثانية من القبر ، وهى الثالثة من الرحبة .

قلت : كانت الثالثة من الرحبة قبل تجدد الأسطوانتين المشار إليهما فى أسطوانة القرعة بسبب تجدد الرواقين الآتى ذكرهما ، وهذه الأسطوانة إلى جانب الأسطوانة المتقدم ذكرها من جهة المشرق ؛ فهى الرابعة من المنبر ، والثانية من

---

(١) الضيفان : أحد جموع ضيف ، ومن جموعه أضياف وضيوف

القبر ، والثالثة من القبلة ، والخامسة فى زماننا من رحبـــة المسجد ، وفيها اليوم هيئة محراب من الجِصّ تتميز به عن سائر الأساطين ، لـكنه أزيل فى الحريق الثانى

وفهم البدر ابن فرحون من رواية ابن عمر المتقدمة أنها التى تلى هـــذه الأسطوانة فى جهة المشرق ، وهى اللاصقة بالشباك اليوم كما سيأتى ، فقال : إن أسطوان التوبة هى اللاصقة بالشباك على ما قاله عبد الله بن عمر، وتبعه مالك بن أنس ، وما قيل إنها غيرها فغلط أوجبه أشياء يطول ذكرها ، انتهى كلامه .

قلت : بل الصواب ما قدمناه فى بيانها ، ومنشأ ما فهمه عَدُّهُ للأسطوانة اللاصقة بجدار القبر ، فحمل قول ابن عمر أنها الثانية من القبر ، وقولَ مالك بينها و بين القبر أسطوان على الأسطوانة اللاصقة بالشباك اليوم ، وقد علم من كلامهم فى أسطوان القرعة أنهم لا يعدُّون اللاصقة بجدار القبر لما تقدم من قولهم فيها : إنها الثالثة من المنبر والثالثة من القبر ، ولو عدوا اللاصقة بجدار القبر لـكانت الرابعة من القبر ، وأيضاً فاللاصقة بجدار القبر أحْدَثَها عمرُ بن عبد العزيز ، ولم يدرك ذلك ابن عمر ، وأوضح من ذلك أن ابن زبالة قال : إن بين أسطوان التوبة و بين جدار القبر الشريف عشرين ذراعاً ، وقد اعتبرتُ ذلك من الأسطوانة التى ذكرناها فكان كذلك .

وقال أيضاً فيما قدمناه عنه: « إن ذَرْعَ ما بين مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم و بينها سبع عشرة ذراعاً » وقد قدمنا فى المصلى الشريف ما يقتضى صحة ذلك عند اختبارنا لما بينهما مع بيان أن المصلى الشريف فى طرف الحفر الذى يلى المغرب، وإن جعـل المصلى الشريف على تلك الهيئة حادث ، وفى نسخة من ابن زبالة « تسع عشرة ذراعا » بتقديم التاء ، فإن صحت[1] فقد علمت أنه لم يكن المصـلى الشريف فى عهـد ابن زبالة على هذه الهيئات ، بل كانت الأرض مستوية ،

---

(١) يريد إن صحت هذه النسخة من الرسم ، ولم تكن خطأ من الناسخ فإن لها وجها يجعلها غير متخالفة مع النسخة الاخرى

فكأنه اعتبر الذراع من ابتداء طرف المصلى الشريف الغربي ، ومنه إلى الأسطوان المذكور تسع عشرة ذراعا بتقديم التاء ، وأما ذَرْعُ ما بين المصلَّى الشريف والأسطوانة التي يعنيها البدر فخمس وعشرون ذراعاً ، فلا يصح إرادتها بوجه .

وأسند ابن زبالة ويحيى في بيان مُعْتَكَفِ النبي صلى الله عليه وسلم عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طرِحَ له فراشه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » .

وروى ابن ماجة عن نافع أن ابن عمر أراهُ المكانَ الذي كان يعتكف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم روى عن نافع عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طُرِحَ له فراشُه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » . قال البدر بن فرحون : ونقل الطبراني في معجمه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن ذلك مما يلي القبلة « يستند إليها »[١] .

قلت : ررواه البيهقي بسند حسن ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطْرَحُ له فراشه أو سريره إلى أسطوانة التوبة مما يلي القبلة يستند إليها » ونقل عياض عن ابن المنذر أن مالك بن أنس كان له موضع في المسجد ، قال : وهو مكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو المكان الذي كان يُوضَعُ فيه فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف ، كذا قال الأويسي .

أسطوان السرير

ومنها: أسطوان السرير ، أسند ابن زبالة ويحيى في بيان معتكف النبي صلى الله عليه وسلم عقب ذكر ما تقدم من وضع فراشه وسريره وراء أسطوان التوبة عن محمد بن أيوب أنه « كان للنبي صلى الله عليه وسلم سرير من جَرِيد فيه سَعَفه[٢] يوضَع بين الأسطوان التي تجاه القبر وبين القناديل ، كان يضطجع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

---

(١) هذه الجملة « يستند إليها » من تتمة وصف ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله

(٢) السعف — بفتح السين والعين جميعا — جمع سعفة ، وهى أغصان النخيل إذا كانت رطبة ، كذا قال ابن الأثير ، والظاهر من هذا الحديث أن السعف هو الخوص ، وأن الجريد هو الغصن .

قلت : وهذه الأسطوانة هى اللاصقة بالشباك اليوم فى شرقى أسطوان التوبة وابن فرحون يجعلها إياها كما تقدم ، ويؤيده ما تقدم فى أسطوان التوبة من أن سريره صلى الله عليه وسلم كان يوضع إليها ، إلا أن يجاب بأنه كان يوضع مرة عند هذه ومرة عند تلك ، بدليل أنه تقدم فى أسطوان التوبة أن وضع ذلك كان مما يلى القبلة يستند إليها ، وذكر فى هذه أنه « كان يوضع بينها وبين القناديل » وذلك فى جهة شرقيها .

وقال البدر ابن فرحون : روينا بالسند الصحيح إلى ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطْرَحُ له وِسادة ، ويوضع له سرير من جَريد فيه سَعَفه ، يوضع له فيما بين الأسطوان التى وُجَاه القبر الشريف وبين القناديل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع عليه » قال أبو وحرة ـ بحاء مهلة ـ السعدى وهو يذكر السرير ويمدح آل الزبير لقرب مجلسهم منه :

وإذا غَدَا آلُ الزبير غدا النَّدَى ... وإذا انْتَدَى فإليهمُ ما يَنْتَدِى

وإذا هُمُ راحوا فإنهــــمُ هُمُ ... أهل السرير وأهل صَدْر المسجد

أسطوان المحرس

ومنها : أسطوان المحرس[1] ، ويسمى أسطوان أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

قال يحيى : حدثنا موسى بن سلمة قال : سألت جعفر بن عبد الله بن الحسين عن أسطوان على بن أبى طالب، فقال: إن هذه المحرس[1] ، كان على بن أبى طالب يجلس فى صفحتها التى تلى القبر مما يلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحرُسُ النبى صلى الله عليه وسلم .

قال الجمال المطرى وتبعه مَنْ بعده : وهو مقابل الخوخة التى كان النبى

(١) المحرس : اسم مكان من «حرسه يحرسه» لما سيأتى من أن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه كان يجلس إلى هذه الأسطوانة ليحرس النبى صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا كان فى بيت عائشة إلى الروضة للصلاة ، وهى خلف أسطوان التوبة من جهة الشمال .

قلت : هى الأسطوان الذى يصلى عندها أمير المدينة يجعلها خلف ظهره ، ولذا قال الأقشهرى : إن أسطوان مُصَلَّى علىّ كرم الله وجهه اليوم أشهر من أن تخفى على أهل الحرم ، ويقصد الأمراء الجلوس والصلاة عندها إلى اليوم ، وذكر أنه كان يقال لها مجلس القلادة لشرف من كان يجلس فيه ، وذلك إنما هو فى أسطوان الوفود لما سيأتى .

أسطوان الوفود

ومنها : أسطوان الوفود ، قال المطرى : هى خلف أسطوان المحرس من جهة الشمال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته ، وكانت مما يلى رحبة المسجد قبل أن يزاد فى السقف القبلى الرواقان ، وكانت تعرف أيضاً بمجلس القلادة ، يجلس إليها سَرَوَاتُ الصحابة وأفاضلهم رضوان الله عليهم .

وقال الأقشهرى ، ومن خطه نقلتُ : وأما الأسطوان الذى كان يجلس إليها صلى الله عليه وسلم لوفود العرب إذا جاءته ، فقال : إذا عَدَدْتَ الأسطوان التى فيها مقام جبريل عليه السلام كانت هى الثالثة ، انتهى ، وكأنه سقط من خطه فاعدد فقال ، وقد أخذه من تحفة ابن عساكر ، وقد رأيت فى نسخة معتمدة منها موضع بياض بعد « فقال » .

وهذا مطابق لما تقدم عن المطرى ؛ لأن الأسطوان التى فيها مقام جبريل هى مربعة القبر كما سيأتى ، وبينها وبين أسطوان الوفود المذكور أسطوان .

وقال ابن زبالة : حدثنا غيرُ واحدٍ من أهل العلم منهم عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان التى إلى الرحبة التى فى صف أسطوان التوبة بينها وبين أسطوان التوبة مصلى على بن أبى طالب ، وأنه المجلس الذى يقال له مجلس القلادة ، كان يجلس فيه سَرَاةُ الناسِ قديما .

وأورده المجد، وزاد فى آخره : وإنما سمى القلادة لشرف مَنْ كان يجلس إليها من بنى هاشم وغيرهم .

أسطوان مربعة القبر

ومنها أسطوان مربعة القبر ، وسيأتى أنه يقال له أيضاً أسطوان مقام جبريل عليه السلام ، وقد تقدم فيما نقله الأقشهرى فى أسطوان الوفود ما يشهد له .

وأسند ابن زبالة ويحيى عن سليمان بن سالم عن مسلم بن أبى مريم وغيره : كان باب بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المربعة التى فى القبر ، قال سليمان : قال لى مسلم : لا تنس حظك من الصلاة إليها ؛ فإنها باب فاطمة رضى الله عنها الذى كان على يدخل عليها منه .

قلت : وهى فى حائز عمر بن عبد العزيز عند منحرف الصفة الغربية منه إلى جهة الشمال ، فى صف أسطوان الوفود ، بينهما الأسطوانة اللاصقة بالشباك التى شرق أسطوان الوفود ، وسيأتى لها مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

ومن فضلها ما أسنده يحيى عن أبى الحمراء قال : شهدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين صباحا يجىء إلى باب على وفاطمة وحَسَن وحُسَين حتى يأخذ بِعِضَادَتى[1] الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت « إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً » وفى رواية له : رابطتُ بالمدينة سبعة أشهر كيوم واحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى بابَ علىٍّ كلَّ يوم فيقول : الصلاةَ ، الصلاةَ ، ثلاث مرات « إنما يريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُم الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويطهركم تطهيراً » وقد حرم الناسُ الصلاةَ إلى هذه الأسطوان لإدارة الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وغلق أبوابه .

أسطوان التهجد

ومنها : أسطوان التهجد ، أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخْرِجُ حَصِيراً كل ليلة إذا انكفتَ الناس[2] ، فيُطْرَحُ وراء بيت على ، ثم يصلى صلاة الليل ، فرآه رجل فصلى بصلاته ، ثم

(١) عضادتا الباب ـ بكسر أوله ـ خشبتان من جانبيه .

(٢) انكفت الناس : انصرفوا إلى منازلهم .

آخر فصلى بصلاته ، حتى كثروا ، فالتفتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بهم ، تأمر بالحصير فطُوِىَ ثم دخل ، فلما أصبح جاءوه فقالوا : يا رسول الله ، كنتَ فصلى الليل فنصلى بصلاتك ، فقال : إنى خَشِيتُ أن ينزل عليكم صلاة الليل ثم لا تقوون عليها ، قال عيسى بن عبد الله : وذلك موضع الأسطوان التى على طريق باب النبى صلى الله عليه وسلم مما يلى الزوراء .

قلت : صَحَّفَ بعضُهم هـذه اللفظة فقال : مما يلى الدور[1] ، ورأيت بخط الأقشهرى : لعله مما يلى دوره ، انتهى . والظاهر أن الرواية مما يلى الزور ـ بالزاى ـ يعنى الموضع المزور فى بناء عمر بن عبد العزيز خلف الحجرة كما سيأتى ، والله أعلم .

قال عيسى : وحدثنى سعيد بن عبدالله بن فضيل قال: مرّ بى محمد بن الحنفية وأنا أصلى إليها ، فقال لى: أراك تلزم هذه الأسطوانة ، هل جاءك فيها أثر ؟ قلت: لا ، قال : فالزمها فإنها كانت مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل .

قلت : تقدم فى حدود المسجد النبوى ما يقتضى أن الموضع المذكور كان خارج المسجد تُجَاه باب جبريل قبل تحويله إلى محله اليوم ، وهو موافق لما سيأتى عن المؤرخين فى بيان موضع هذه الأسطوانة ، والمعروف من حاله صلى الله عليه وسلم أن قيامه فى غير رمضان إنما كان فى بيته ، وهذا الموضع ليس منه ، وفيما سبق مع أحاديث قيام رمضان ما يوهم أن القصة المذكورة كانت فيه ، ففى صحيح البخارى عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتَّخذ حجرة ، قال : حسبت أنه قال : من حصير ، فى رمضان فصلى فيها ليالى فصَلَّى بصلاته ناس ـ الحديث » ورواه مسلم عنه بلفظ أن النبى صلى الله عليه وسلم « اتخذ حجرة فى المسجد من حصير ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلا ، حتى اجتمع إليه ناس ، فذكره نحوه » وفى رواية لأبى عَوَانة عن زيد « اتخذ حجرة من

---

(١) وقع فى المطبوعات « الدوره » بهاء فى آخره ، تطبيع .

حصير فى المسجد فى رمضان ـ الحديث » . ولعلها القبة التى كان يعتكف صلى الله عليه وسلم فيها فى رمضان ، فقد روى الطبرانى فى الكبير عن أبى ليلى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف فى قبة من خوص ، وفى الكبير والأوسط عن مُعَيْقِيب قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة من خوص بابُها من حصير والناس فى المسجد » وأسند يحيى عن أبى حازم مولى الأنصار قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فى رمضان فى قبة على بابها حصير » ، وعن ابن عمر قال : بنى النبى صلى الله عليه وسلم بيتا من سَعَف فى المسجد فى آخر شهر رمضان يصلى فيه .

وقال المطرى فى بيان موضع هذه الأسطوانة : هى خلف بيت فاطمة رضى الله عنها ، والواقفُ إليها يكون بابُ جبريل المعروفُ قديما بباب عثمان على يساره ، وحولها الدرابزين : أى لاصقاً بها يميناً ويسارا ، وهو الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وعلى بيت فاطمة رضى الله عنها ، وقد كتب فيها بالرخام : هذا مُتَهَجَّدُ النبى صلى الله عليه وسلم[1] .

وقال ابن النجار : هذه الأسطوانة وراء بيت فاطمة من جهة الشمال ، وفيها محرابٌ إذا توجه المصلى إليه كانت يساره إلى باب عثمان المعروف اليوم بباب جبريل .

قلت : وقد جدد محرابها فى هذه العمارة التى أدركناها أولا ، وزِيد فى رخامه فوق المحراب الأول ، وكتبوا فى ذلك بالرخام بروز الأمر بتجديد عمارة الحجرة الشريفة من السلطان الأشرف قايتباى ـ أعز الله أنصاره ! ـ وأن ذلك على يد الخواجا الجناب الشمسى بن الزمن ، وتاريخ العمارة المذكورة ، كل ذلك مكتوب بالرخام فى أعلى محراب الأسطوانة المذكورة ، ثم لما جاء الحريق الحادث

(١) متهجد النبى : موضع تهجده .

بعد تمام هذا التأليف أزال ذلك كله ، ثم اقتضى رأيهم عند بناء الدعائم التى اتخذوها للقبة المحاذية لأعلى الحجرة والعقود التى خلفها إبدالَ هذه الأسطوانة بدِعامة اتخذوا فيها محرابا .

وهذه الأسطوانة آخر الأساطين التى ذكر لها أهلُ التاريخ فضلا خاصا ، وإلا فجميعُ سَوَارى المسجد الشريف لها فضل ؛ ففى البخارى من حديث أنس قال : لقد أدركت كبار أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبتدرون السوارى عند المغرب ، قال ابن النجار : فعلى هذا جميعُ سَوَارى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم يستحب الصلاة عندها ؛ لأنه لا يخلو أن كبار الصحابة صَلَّوْا إليها ، والله أعلم .

الفصل الثامن

فى الصُّفة وأهلها ، وتعليق الأقناء لهم بالمسجد

وصف الصفة وموضعها

قال عياض : الصفة ــ بضم الصاد وتشديد الفاء ــ ظُلة فى مؤخر مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، يأوى إليها المساكين ، وإليها ينسب أهل الصُّفة على أشهر الأقاويل .

وقال الحافظ الذهبى : إن القبلة قبل أن تُحَوَّلَ كانت فى شمالى المسجد ، فلما حُوِّلَتْ القبلة بقى حائط القبلة الأعلى مكان أهل الصفة .

وقال الحافظ ابن حجر : الصفة مكان فى مؤخر المسجد النبوى مُظَلَّل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل ، وكانو يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر .

وقد سَرَدَ أسماءهم أبو نعيم فى الحلية فزادوا على المائة ، وقد أخرج أبو نعيم فى الحلية من مرسل الحسن قال : بُنِيت صُفَّةٌ فى المسجد لضعفاء المسلمين .

وقال المجد نقلا عن الدارقطنى : الصفة هى ظُلة كان المسجد فى مؤخرها ،

ثم قال المجد : وذكر ابن جُبَيْر فى رحلته عند ذكر قباء قال : وفى آخر القرية تلّ مشرف يعرف بعرفات يدخل إليه على دار الصفة حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة ، وكأن هذا وهم ، والله أعلم .

قلت : يظهر من قول عياض فيما قدمناه عنه « على أشهر الأقوال » أن فى ذلك خلافا ؛ فيكون ماذكره ابن جبير أحد الأقوال ، لكنه مرجوح أو مُؤَول بأن مَنْ ذكر من أهل الصفة اتخذوا تلك الدار بعد ، فاشتهرت بذلك .

أهل الصفة

وقد روى ابن سعد فى مرسل يزيد بن عبد الله بن قسيط : كان أهل الصفة ناسا فقراء لا منازل لهم ، فكانوا ينامون فى المسجد لا مأوى لهم غيره .

وروى البيهقى عن عثمان بن اليمان قال : لما كثرت المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم دار ولا مأوى أنزلهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وسماهم أصحاب الصفة ، فكان يجالسهم و يأنس بهم .

وأسند يحيى عن فضالة بن عبيد قال : كنا نصلى مع رسول صلى الله عليه وسلم فيخر قوم من قامتهم من الخَصَاصة[1] ، حتى يقول الأعرابى : مجانين ، وهم أهل الصفة ، فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فوقَفَ عليهم ، فقال : لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقرا وحاجة .

وفى صحيح البخارى عن عبد الرحمن بن أبى بكر أن أصحاب الصفة كانوا ناسا فقراء ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال مرة : مَنْ كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس ــ الحديثَ .

وفيه من حديث أبى هريرة قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد رَبَطُوه ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

---

(١) الخصاصة ــ بفتح الخاء المعجمة ــ الفقر والحاجة ، وفى القرآن الكريم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وفيه من حديث أبى هريرة أيضا أنه كان يقول : والله الذى لا إلهَ إلاهو إنْ كنت لأعتمد بكَبِدِى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشدُّ الحجَر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدتُ يوما فى طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليستتبعنى ، فمر ولم يفعل ، ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسّم حين رآنى وعرَف مافى نفسى وما فى وجهى ، ثم قال : أباهر ، قلت : لَبَّيْكَ يا رسول الله ، قال : الحق ، فمضى فتبعته ، فدخل فاستأذن ، فأذن لى ، فدخلت فوجدنا لبنا فى قدح ، فقال : من أين هذا اللبن ؟ فقالوا : أهداهُ لك فلان أو فلانة ، قال : أباهر ، قلت : لبيك يارسول الله ، قال : الحق إلى أهل الصفة فادْعُهم لى ، وأهلُ الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئا ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءنى ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة ؟ كنتُ أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شَرْبة أتقوّى بها ، فلما جاؤا أمرنى فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، فأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : يا أبا هريرة ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : خُذْ فأعطهم ، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يردُّ علىَّ القدحَ فآخذه فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى القومُ كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم ، وقال : يا أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : بقيتُ أنا وأنت ، قلت : صَدَقت يارسول الله قال : اقعد فاشرب ، فقعدت فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول اشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجدُ له مسلكا ، قال : فأرِنِى ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفَضْلَة .

وقد وقع لأبى هريرة رضى الله عنه قصة أخرى فى تكثير الطعام مع أهل الصفة

وأخرج ابن حبان من طريق مسلم بن حيان عن أبيه عنه قال : أتت علىّ ثلاثة أيام لم أطعم ، فجئت أريد الصفة ، فجعلت أسقط ، فجعل الصبيان يقولون : خر أبو هريرة ، حتى انتهيت إلى الصفة ، فوافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة من ثريد ، فدعا عليها أهل الصفة وهم يأكلون منها ، فجعلت أتطاول كى يَدْعُونى ، حتى قاموا وليس فى القصعة إلا شىء فى نواحيها ، فجمعه صلى الله عليه وسلم فصارت لقمة ، فوضعها على أصابعه فقال لى : كُلْ باسم الله ، فوالذى نفسى بيدهِ ما زلت آكل منه حتى شبعت .

وروى أبو نعيم فى الحلية من حديث معاوية بن الحكم فقال : بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصفة ، فجعل يوجه الرجل مع الرجل من الأنصار ، والرجلين والثلاثة ، حتى بقيت فى أربعة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم خامسُنا ، فقال : انطلقوا بنا ، فقال : يا عائشة عَشِّينا ـ الحديث .

وروى أيضا من طريق نعيم المجمر عن أبى هريرة : كنت من أهل الصفة ، وكنا إذا أمسينا حَضَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر ، فيبقى مَنْ بقى عشرة أو أقل أو أكثر ، فيؤتى النبى صلى الله عليه وسلم بعشائه فيتعشى معهم ، فإذا فرغنا قال : ناموا فى المسجد .

وروى ابن شبة عن طلحة البصرى قال : كان مَنْ قَدِمَ المدينةَ فكان له بها عريف نزل على عريفه ، ومن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت فيمن نزل الصفة ، فوافقت رجلين كان يُجْرَى علينا فى كل يوم مُدَّيْنِ من تمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداه رجل من أهل الصفة : يا رسول الله أحْرَقَ التمرُ بطونَنَا وتحرفت علينا الحرف ، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم إلى منبره فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر مالقى من قومه حتى إن كان ليأتى علىّ وعلى صاحبي بضعة عشر يوماً مالنا طعام إلا البرير[1] ، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وجُلُّ طعامهم التمر ، فواسَوْنا ، ولو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم ، ولكن لعلكم ستدركون زماناً أو مَنْ أدركه منكم يلبسون فيه مثل أستار الكعبة ويغدى ويراح عليكم بالجفان .

مبدأ تعليق الأقناء

وقال ابن النجار : روى أهلُ السير أن محمد بن مسلمة رأى أضيافاً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، فقال : ألا نفرق هذه الأضياف فى دور الأنصار ، ونجعل لك فى كل حائط قِنواً ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقوام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، فلما جَدَّ مالَه[2] جاء بقنو فجعله فى المسجد بين ساريتين ، فجعل الناس يفعلون ذلك ، وكان معاذ بن جبل يقوم عليه ، وكان يجعل حَبْلاً بين الساريتين ثم تُعَلَّقُ الأقناء على الحبل ، وتجمع العشرين وأكثر فيهش عليهم بعَصا من الأقناء فيأكلون حتى يشبعون ، ثم ينصرفون ويأتى غيرهم فيفعل بهم مثل ذلك ، فإذا كان الليل فعل لهم مثل ذلك .

قلت : بَوَّبَ البخارى للقسمة وتعليق القنو فى المسجد ، ولم يذكر فى الباب تصريحاً بتعليق القنو ، فأشار بذلك إلى ما رواه النسائى عن عوف بن مالك الأشجعى قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيده عصا ، وقد علّق رجلٌ قِنوَ حَشَفٍ ، فجعل يطعن فى ذلك القنو ، ويقول : لو شاء ربُّ هذه الصدقة تصدق بأطيب من هذا ، إن رب هذه الصدقة يأكل حَشَفاً يوم القيامة ، وليس على شرط البخارى ، وإن كان إسناده قوياً ، فأشار إليه بالتبويب ولم يذكره كعادته .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه أن ناساً كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم لا شىء لهم ، فقالت الأنصار :

(١) البرير — بفتح الباء بزنة رغيف — ثمر الأراك .
(٢) جد ماله : قطعه ، وماله هو التمر .

يا رسول الله ، لو عجلناك قنوا من كل حائط لهؤلاء ، قال: أجل فافعلوا ، ففعلوا ، فجرى ذلك إلى اليوم ، فهى الأقناء التى تعلق فى المسجد عند جدار النخل فيعطاها المساكين ، وكان عليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل .

وقال يحيى : حدثنى هرون بن موسى عن غير واحد من أهل المدينة أن الناس أصابتهم فى ثمارهم عاهة من العاهات فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما على أحدكم لو بعث بقنو من نخله للمساكين ، فبعث ذلك الناس ، واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأقناء معاذ بن جبل ، فكان يمد حبلا بين جذعين ويعلق عليه الأقناء ، فرفع الله تلك العاهة ، فصارت سنة ، ولم تزل الأئمة عليها إلى اليوم .

وروى يحيى أيضاً عن عاصم بن سويد قال : سمعت أبى يقول : عُوَيْم بن ساعدة أتى بقنو إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتسى الناسُ به أهل العالية وأهل السافلة .

وأخرج ثابت فى الدلائل أن النبى صلى الله عليه وسلم « أمر من كل حائط بقنو يعلق فى المسجد » يعنى للمساكين .

وفى رواية له : وكان عليها معاذ بن جبل : أى على حفظها ، أو على قسمتها، والله أعلم .

الفصل التاسع

فى الحجرة الشريفة ، وبيان إحاطتها بالمسجد الشريف إلا من جهة المغرب

قد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم لما بنى مسجده الشريف بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسَوْدَة رضى الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل .

قال ابن النجار: وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عَرْعَر أوساج[1] ،قال :

---

(١) العرعر — بوزن جعفر — هو شجر السرو ، والساج : شجر يعظم جداً ، وخشبه أسود رزين لاتكاد الأرض تبليه ، ومنبته بلاد الهند .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه بنى لهن حُجَراً ، وهى تسعة أبيات ، وهى ما بين بيت عائشة رضى الله عنها إلى الباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم ، انتهى . ومراده بالباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم الباب الذى فى الجهة المقابلة له من المغرب ، وهو المعروف الآن بباب الرحمة ، وإنما حملنا كلامه على ذلك لأنه وقع فى كلامه استعمال الباب الذى يليه بمعنى الباب الذى يقابله ، ولأنه قال عقبه : قال أهل السير : ضرب النبى صلى الله عليه وسلم الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشام ، ولم يضربها فى غربيه ، وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة فى المسجد ، انتهى .

وكأن الخطيب ابن حملة فهم من هذا اختلافا فى مواضع الحجر ، فقال : قيل كانت كلها فى جهة المشرق ، وقيل : فى جهات المسجد ما عدا المغرب .

قلت : ويرجح ما قررناه ما رواه ابن الجوزى فى شرف المصطفى بسنده إلى محمد بن عمر قال : سألت مالك بن أبى الرجال : أين كانت منازل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرنى عن أبيه عن أمه أنها كانت كلها فى الشق الأيسر إذا قمت إلى الصلاة إلى وجه الإمام فى وجه المنبر هذا أبعدها ، ولما توفيت زينب أدخل — أى النبى صلى الله عليه وسلم — أم سلمة بيتها ، انتهى ، ووجه المنبر ووجه الإمام يعنى إذا قام على المنبر بجهة الشام فى جهة الباب المعروف الآن بباب الرحمة قبل أن ينقل إلى محله اليوم ، وهو يقتضى أنه لم يكن من الحجر شىء فى جهة القبلة ، إلا أن تكون الرواية إلى وجه الإمام وفى وجه المنبر فيوافق ما تقدم عن أهل السير .

وأسند ابن زَبالة عن محمد بن هلال قال : أدركت بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كانت من جريد مستورة بمسوح الشعر (١) مستطيرة فى القبلة وفى

---

(١) المسوح : جمع مسح — بالكسر — كساء من شعر كثوب الرهبان ، ويجمع على أمساح أيضاً ، وانظر حديث عطاء الخراسانى فى ص ٤٦١ الآتية .

للمشرق والشام ، ليس فى غربى المسجد شىء منها ، وكان باب عائشة مواجهَ الشام ، وكان بمصراع واحد من عرعر أوساج .

وأسند يحيى من طريق الواقدى عن عبد الله بن يزيد الهذلى قال : رأيت بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز كانت من لبِن[1] ، ولها حجر من جريد مطرورة بالطين ، عددت تسعة أبيات بحُجَرها ، وهى ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم إلى منزل أسماء بنت حسن اليوم .

قلت : وقوله « إلى الباب الذى يلى باب النبى صلى الله عليه وسلم » قد تقدم ما يؤخذ منه أن المراد به باب الرحمة ، وقوله « إلى منزل أسماء إلى آخره » يقتضى أن البيوت المذكورة كان بعضها خارجاً عن سَمْتِ[2] المسجد؛ لأن بيت أسماء المذكور كان فى مقابلة الباب الذى كان يلى باب النساء من شاميه ، ويبعد أن يكون المسجد النبوى ممتداً إلى تلك الجهة فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، لكن سيأتى فى بيت فاطمة رضى الله عنها ما يصرح بأن بيتها كان ينتهى إلى الباب المذكور ؛ فيحتمل أن المسجد كان ممتداً إليه ، ويحتمل أن بعض البيت المذكور لم يكن فى محاذاة المسجد ، على أن البخارى روى فى صحيحه حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وعنده أزواجه فرجعن ، فقال لصفية بنت حيى : لا تعجلِى حتى أنصرف معك ، وكان بيتها فى دار أسامة ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم معها — الحديث » .

وفى رواية له عن صفية قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً ، فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ثم قمت ، فانقلبت ، فقام معى ليقلبنى ، وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار — الحديثَ .

وفى رواية له أنها جاءت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم تزورُه وهو معتكف

(١) اللبن — بفتح فكسر — الطوب النىء

(٢) سمت المسجد : طريقه .

فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان ، ثم قامت تنقلب ، فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ قريباً من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مر بهما رجلان من الأنصار ـ الحديث ، وهو يقتضى أن صفية لم يكن مسكنها فى الحجر المحيطة بالمسجد .

ولم يتعرض ابن شبة لاتخاذ أسامة لدار ، وذكر أن أباه اتخذ دارين إحداهما دخلت فى المسجد لما زيد فيه ، ولعلها المرادة والله أعلم .

ولنرجع إلى بقية ما أسنده يحيى عن عبد الله بن زيد ، قال : ورأيت بيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وحجرتها من اللبن ، فسألت ابن ابنها ، فقال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دُومَة الجندلِ بنت حجرتها بلبن ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى اللبن ودخل عليها أول نسائه ، فقال : ماهذا البناء؟ فقالت : أردتُ يارسول الله أن أكُفَّ أبصار الناس ، فقال : يا أم سلمة إن من شر ماذهب فيه مالُ المسلم البنيان ، قال الواقدى : فحدثت بهذا الحديث معاذ بن محمد الأنصارى ، فقال : سمعت عطاء الخراسانى فى مجلس فيه عمران بن أبى أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر : أدركت حُجُرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود (١) ، فحضرت كتاب الوليد ابن عبد الملك يقرأ يأمرنا بهدم حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما كان أكثر باكيا من ذلك اليوم . قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها يَنْشَأ ناشىء من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فيَرَى ما اكتفى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس فى التكاثر والتفاخر فيها ، قال معاذ : فلما فرغ عطاء الخراسانى من حديثه قال عمران بن أبى أنس : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مُطَينة لا حجر لها على أبوابها مسوح الشعر ، ذرعت الستر فوجدته

(١) انظر ص ٤٥٩ السابقة .

ثلاثة أذرع فى ذراع وعظم الذراع ، فأما ماذكرت من كثرة البكاء فلقد رأيتنى فى المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد عبدالرحمن وأبو أمامة بن سهل وخارجة بن زيد وإنهم ليبكون حتى أخضَلَ لحاهم الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامة : ليتها تركت حتى ينقص الناس من البنيان ويروا مارضى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيحُ خزائن الدنيا بيده .

وروى رزين عن عبدالله بن يزيد الهذلى قال: رأيت بيوتَ أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين هدَمها عمرُ بن عبد العزيز يُدخِلها فى المسجد مبنيةً باللبِن حولها حُجَر من جريد ممدودة إلا حجرة أم سلمة ، وذكر نحو ما تقدم باختصار .

وقال ابن الجوزى فى الوفاء : قال محمد بن عمر : كانت لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله ، وكلما أحدث رسول الله صلى عليه وسلم أهلا(١) نزل له حارثة عن منزله حتى صارت منازله كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .

قلت : وظاهره يخالف ماتقدم من أنه صلى الله عليه وسلم بنى أولا بيتين لزوجتيه ، وأنه لما تزوج نساءه بنى لهن حجرا، وظاهره أنه كان كلما أحدث زوجة أحدث لها بناء حجرة ، فيحمل ما هنا على أن حارثة كان ينزل له عن مواضع المساكن ، وكان صلى الله عليه وسلم يبنيها .

ونقل الزركشى عن الشمس الذهبى أنه قال : لم يبلغنا أنه صلى الله عليه وسلم بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد ، ولا أحسبه فعل ذلك ، إنما كان يريد بيتا واحدا حينئذ لسودة أم المؤمنين ، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى لعائشة رضى الله عنها ، فى شوال سنة اثنين ، فكأنه صلى الله عليه وسلم بناها فى أوقات مختلفة . انتهى .

وهو مقتضى ماقدمناه ، غير أنه مخالف لما قدمناه فى بيت عائشة رضى الله عنها ، لما تقدم أنه بناه مع بناء المسجد ، وهو الظاهر ؛ لأنها كانت حينئذ زوجته ،

---

(١) أهل الرجل هنا : زوجته ، يريد كلما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم .

غير أنه لم يَبْنِ لها فتأهب لذلك بأن بنى لها حجرتها .

وذكر الأقشهرى أن ابن عبد البر روى من طريق الزبير بن بكار عن عائشة رضى الله عنها خبرا طويلا فى قدومها المدينة قالت فيه : ثم إنا قدمنا المدينة ، فنزلتُ مع آل أبى بكر ، ونزل آلُ النبى صلى الله عليه وسلم عليه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى مسجده وأبياتا حول المسجد ، فأنزل فيها أهله ، فمكثنا أياما ، ثم قال أبو بكر : يارسول الله ما يمنعك أن تبنى بأهلك ؟ قال : الصداق ، فأعطاه أبو بكر اثنتى عشرة أوقية ونَشًّا[1] فبعث بها إلينا ، وبنى لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى هذا الذى أنا فيه ، وهو الذى توفى فيه ودفن فيه .

قلت : ولم أرَ فى كلام المؤرخين مَنْ تعرض للمشربة التى اعتزل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما آلىَ من نسائه شهرا ، ومقتضى ذلك أنه لم يكن بابها من بيت واحدة منهن ليتأتى عدم الدخول عليهن ، والذى فى الصحيح قول حفصة : هو ذا فى المشربة ، وفى رواية تسميتها عِلِّية ، وفى رواية غرفة ، وقد بوب عليه البخارى باب هجرة النبى صلى الله عليه وسلم نساءه فى غير بيوتهن ، وفى رواية « هو فى خزانته فى المشربة » وفى رواية « فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مشربة يرقى عليها بعجلة » وفى رواية « فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على أُسْكُفَّةَ المشربة[2] مدل رجليه على نقير من خشب وهو جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر » المشربة

وقال السهيلى : قال الحسن البصرى : كنت أدخل بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق وأنال السقف بيدى ، وكان لكل بيت حجرة ، وكانت حجرة من أكسية من خشب عَرْعَر .

---

(١) النش — بفتح النون وتشديد الشين — نصف الأوقية ، وهو عشرون درهما . ويطلق النش على النصف من كل شىء .

(٢) الأسكفة — بضم الهمزة وسكون السين وضم الكاف وتشديد الفاء مفتوحة — الخشبة التى يطأ عليها الداخل من الباب .

وورد أن بابه صلى الله عليه وسلم كان يقرع بالأظافير : أى لا حلَق له .

وقال مالك : كان المسجد يضيق عن أهله ، وحُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولـكن أبوابها شارعة فى المسجد [(١)] .

وقال ابن سعد : أوصت سَوْدَة ببيتها لعائشة رضى الله عنها ، وباع أولياء صفية بنت حُيَي بيتَها من معاوية بمائة ألف وثمانين ألف درهم ، واشترى معاوية من عائشة منزلَهَا بمائة ألف وثمانين ألف درهم ، وقيل : بمائتى ألف ، وشرط لها سكناها حياتَهَا ، وحمل إليها المال ، فما قامت من مجلسها حتى قسمته ، وقيل : بل اشتراه ابن الزبير من عائشة ، وبعث إليها خمسة أجمال تحمل المال ، وشَرط لها سكناها حياتَهَا ، ففرقت المال .

وأسند ابن زبالة عن هشام بن عروة قال : إن ابن الزبير ليعتدُّ بمكرمتين مايعتد أحد بمثلهما : أن عائشة أوصته ببيتها وحجرتها، وأنه اشترى حجرة سَوْدة.

قلت : وهذا يقتضى أن الحجر الشريفة كانت على ملك نسائه صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده ما تقدم من تصرف أم سلمة وبنائها لحجرتها فى غيبته صلى الله عليه وسلم ، ويعارضه ما تقدم من أن زينب بنت خزيمة لما توفيت أدخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أم سلمة بيتها ، وقد أضيفت البيوت فى القرآن العظيم مرة إليه صلى الله عليه وسلم ومرة إليهن ، والظاهر أن الإضافة الأولى هى الحقيقية ؛ لما تقدم من أن النبى صلى الله عليه وسلم بناها ، ولأنه كان يجب عليه إسكانهن ، غير أن لهن فيها بعده حق السكنى لحبسهن لحقه صلى الله عليه وسلم .

وقال الزبير بن المنير : إن غرض البخارى حيث ترجم بقوله « باب ماجاء فى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم » وما نسب من البيوت إليهن وقول الله عز وجل « وَقَرْنَ فى بيوتكن » « ولا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لـكم » أن يبين أن بهذه النسبة تحقيق دوام استحقاقهن البيوت ما بَقِينَ ؛ لأن نفقتهن وسكناهن من خصائص النبى صلى الله عليه وسلم ، والسر فيه حَبْسُهن عليه ، انتهى

---

(١) شارعة فى المسجد : مفتوحة فيه .

ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان قد مَلَّكَ بعضهن بيتها ، أو ملكهن كلهن كما ذهب إليه بعضهم .

قال الطبرى : قيل : كان النبى صلى الله عليه وسلم مَلَّكَ كلا من أزواجه البيت التى هى فيه فسكنَّ بعده فيهن بذلك التمليك ، وقيل : إنما لم يُنَازَعْنَ فى مساكنهن لأن ذلك من جملة مؤنتهن التى كان النبى صلى الله عليه وسلم استثناه لهن مما كان بيده أيام حياته حيث قال : ما تركت بعد نفقة نسائى ومؤنة عاملى فهو صدقة ، قال الطبرى : وهذا أرجح ، ويؤيده أن ورثتهن لم يرثوا عنهن منازلهن ، ولو كانت البيوت ملكا لهن لانتقلت إلى ورثتهن ، وفى ترك ورثتهن حقوقهم منها دلالة على ذلك ، ولهذا زيدت بعدهن فى المسجد لعموم نفعه للمسلمين ، انتهى .

وقد يناقش فيما ذكره من عدم إرث ورثتهن لمنازلهن ؛ إذ لا يلزم من عدم نقله انتفاؤه مع أن فى قصة إدخال بيت حَفصة فى المسجد وما وقع من آل عمر فى أمر طريق بيت حفصة ما يشهد لأن ورثتهن ورثوا ذلك ، ويحتمل أن إدخال الحُجَر فى المسجد كان بعد شرائها من الورثة ، وقد تقدم عن ابن سعد ما يشهد لذلك ، وقد قال فى طبقاته أيضاً : أخبرنا إسرائيل عن جابر عن عامر قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُوصِ إلا بمسكن أزواجه وأرض ، انتهى . وهذا يحتمل الوصية للأزواج بذلك ، ويحتمل غيره ، والله أعلم .

وادعى المهلب أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حبس عليهن بيوتهن ، ثم استدل به على أن مَنْ حبس دارا جاز له أن يسكن منها فى موضع ، وتَعَقَّبَه ابن المنير بمنع أصل الدعوى ، وقد ترجم ابن شبة لعلم دور أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وذكر عن جماعة منهن اتخاذ دور فى أماكن متفرقة من المدينة ، فتلك غير الحُجَر المذكورة ، والظاهر أن اتخاذهن لذلك كان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

الفصل العاشر

فى حجرة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها

أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر، بينه و بين بيت النبي صلى الله عليه وسلم خَوْخَة .

وأسند عن عمر بن على بن عمر بن على بن الحسين قال : كان بيت فاطمة فى موضع الزور مخرج النبى صلى الله عليه وسلم، وكانت فيه كُوَّة[1] إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى المخرج اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى : إن ابنىَّ أمْسَيَا عليلين فلو نظرت لنا أدما[2] نستصبح به[3] ، فخرج علىّ إلى السوق فاشترى لهم أدما ، وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت ، فدخلت عائشة المخرج فى جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم ، وذكر كلاما وقع بينهما ، فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يَسُدَّ الكوة ، فسدها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأسند يحيى عقب ذلك حديث عائشة « قلت : يارسول الله ندخل كنيفك فلا نرى شيئاً من الأذى ، فقال : الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء من الأذى فلا يرى منه شىء » فأشعر صنيع يحيى أن المراد من المخرج موضع الكنيف ، وأفهم ذلك أن المخرج المذكور كان خلف حجرة عائشة رضى الله عنها ، بينها و بين بيت فاطمة رضى الله عنها ، وذلك يقتضى أن يكون محله فى الزور ، أعنى الموضع المزور شبه المثلث فى بناء عمر بن عبد العزيز فى جهة الشام .

و يشهد لذلك ما أسنده يحيى عن مسلم عن ابن أبى مريم أن عرض بيت

---

(١) كوة - بضم الكاف أو فتحها وتشديد الواو مفتوحة - الخرق فى الحائط .

(٢) الأدم : أراد به هنا الزيت . وأصله كل ما يؤكل مع الخبز

(٣) نستصبح به : نستضىء ، ومعناه الحرفى نطلب به الصباح

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوانة التى خلف الأسطوان المواجهة الزور ، قال : وكان بابه فى المربعة التى فى القبر .

وقد أسند أبو غسان كما قاله ابن شبة عن مسلم بن سالم بن مسلم بن أبى مريم قال : عَرَّسَ على رضى الله عنه بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوان التى خلف الأسطوان المواجهة الزور ، وكانت داره فى المربعة التى فى القبر ، قال سليمان : وقال مسلم : لا تَنْسَ حظك من الصلاة إليها ؛ فإنه باب فاطمة التى كان علىّ يدخل إليها منه ، وقد رأيت حسن بن زيد يصلى إليها .

وقد ذكرنا فى فضل أسطوان مربعة القبر ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم « كان يأتى باب على كل يوم » وفى رواية « عند صلاة الصبح » وفى رواية يحيى « إلى باب علىّ وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضادتى الباب و يقول : السلام عليكم أهل البيت » وفى رواية فيقول « الصلاةَ الصلاةَ الصلاةَ ، ثلاث مرات ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرا » وذكرنا أيضاً أن أسطوان التهجد خلف بيت فاطمة رضى الله عنها .

وروى الطبرانى من حديث أبى ثعلبة : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى أزواجه ، وفى لفظ : ثم بدأ ببيت فطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه .

وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مَسكتين[1] من ورِق وقلادةً وقُرْطين ، وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليها ، ووقف أصحابه على

---

(١) مسكتين : تثنية مسكة ـ بالتحريك ، والمسكة : السوار يتخذ من قرون الأوعال ، وقيل من جلود دابة بحرية ، والمراد هنا السوار مطلقاً ؛ لأنه ذكر أنهما من فضة .

الباب لايدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عُرِف الغَضَبُ فى وجهه ، حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعَتِ الستر و بعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتُكَ السلام، وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله ، فلما أتاه قال : قد فَعَلَتْ فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جَنَاحَ بعوضةٍ ما سقى كافرا منها شربة ماء ، ثم قام فدخل عليها .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قومٌ عُرَاة كانوا غُزَاة بالروم ، فدخل على فاطمة وقد سترت سترا قال : أيَسُرُّكِ أن يسترك الله يومَ القيامة ؟ فأعطنيه ، فأعطته ، فخرج به فشقه لكل إنسان ذراعين فى ذراع .

وعن على رضى الله عنه قال : زارنا النبى صلى الله عليه وسلم ، فبات عندنا والحسنُ والحسين نائمان، واستسقى الحسن، فقام النبى صلى الله عليه وسلم إلى قِرْبة لنا فجعل يعصرها فى القدح ثم جعل يَصُبُّه[1] ، فتناول الحسين فمنعه ، و بدأ بالحسن، فقالت فاطمة : يارسول الله كأنه أحَبُّ إليك ، قال : إنما استسقى أول ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى و إياك وهذان وهذا الراقد يعنى عليا يوم القيامة فى مكان واحد ، وعن أبى سعيد الخدرى أيضاً مثله .

وعن على قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعملنا له خزيرة[2] ، وأهدت لنا أم أيمن قَعْباً من لبن وصحفة من تمر ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكلنا معه ، ثم وَضَّأت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسه وجبهته بيده ، ثم استقبل القبلة فدعا بما شاء ، ثم أكَبَّ إلى الأرض بدموع

(١) وقع فى المطبوعات كلها «يعبعبه» تحريف ما أثبتناه

(٢) خزيرة: هى لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق .

غزيرة[1] ، يفعل ذلك ثلاث مرات، فتهيبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأله ، فوثب الحسينُ على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم و بكى ، فقال له : بأبى وأمى ما يبكيك ؟ قال : يا أبتِ رأيتك تصنع شيئا ما رأيتك تصنع مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بنىَّ سُرِرْتُ بكم اليوم سرورا لم أسرَّ بكم مثله قط ، و إن حبيبى جبريل عليه السلام أتانى وأخبرنى أنكم قَتْلَى ، وأن مصارعكم شَتَّى ، فأحزننى ذلك ، ودعوت الله تعالى لكم بالخِيَرَة .

وقال ابن النجار : و بيت فاطمة اليوم حوله مقصورة وفيه محراب ، وهو خلف حجرة النبى صلى الله عليه وسلم .

قلت : المقصوره اليوم دائرة عليه وعلى حجرة عائشة رضى الله عنها كما سيأتى بيانه ، والمحراب الذى ذكره خلف حجرة عائشة من جهة الزور بينه و بينه موضع تحترمه الناس ولا يدوسونه بأرجلهم ، يذكر أنه موضع قبر فاطمة رضى الله عنها كما هو أحد الأقوال الآتية فيه ، وقد اقتضى ماقدمناه أن بيت فاطمة رضى الله عنها كان فيما بين مربعة القبر وأسطوان التهجد ، وأنه عَرَّس بها إلى الأسطوان الذى إليه المحراب الموجود اليوم فى بيتها ؛ لأن الأسطوان المواجه للزور هو الأسطوان الذى فى صف المربعة اللاصق بالجدار الداخل من الحجرة الشريفة ، كان بعضه فى حائطها الشامى ، وأدخل كله فيه فى العمارة التى أدركناها ، وخلفه الأسطوانة التى التقى عندها زاويتا الزور ، وخلفها الأسطوانة التى إليها المحراب المذكور ؛ فيصدق عليها ما تقدم فى كلام ابن شبة نقلا عن رواية أبى غسان من أن عليا رضى الله عنه عَرَّس بفاطمة إلى الأسطوان التى خلف الأسطوان المواجه الزور ، لكن قال ابن شبة قبل ذلك ما لفظه : واتخذ على بن أبى طالب بالمدينة دارين إحداهما دخلت فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى منزل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التى كان يسكن ، وموضعها من المسجد بين دار

---

(١) غزيرة : كثيرة

عثمان بن عفان التى فى شرقى المسجد و بين الباب المواجه دار أسماء بنت حسن ابن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فى شرقى المسجد ، والأخرى دار علىّ التى بالبقيع ، وهى بأيدى ولد علىّ على حوز الصدقة ، اه .

وقوله « بين دار عثمان » أى ما يحاذيها ، وقوله « و بين الباب المواجه دار أسماء » أى ما يحاذيه أيضا ، وسيأتى أن هذا الباب كان بعد باب النساء مقابلا لرباط النساء المعروف اليوم برباط السبيل ، وهو بعيد من وجوه :

أحدها : ما تقدم فى أسطوان التهجد من أنه كان خلف بيت فاطمة .

الثانى : أنهم متفقون على أن باب جبريل المقابل لدار عثمان كان موجودا فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فكيف يَصح كون دار على فى ذلك الموضع .

الثالث : أن عمر بن الخطاب أول من زاد فى المسجد وأحدث باب النساء ، وهو فيما بين باب جبريل والباب الذى ذكره ابن شبة ، و بيتُ فاطمة إنما أدخله فى المسجد الوليدُ ، وسنذكر ما اتفق عند إدخاله فى زيادة الوليد .

وقد يقال : إن الشارع كان بين المسجد النبوى و بين بيت فاطمة من جهة مؤخرهِ ، فيتأتى مع ذلك اتخاذ عمر اباب النساء من غير تعرض لبيت فاطمة ، وكذا يقال فى باب جبريل : إنه كان فى محاذاة موضعه اليوم ، لكن كان الشارع بينه و بين بيت فاطمة من تلك الجهة . ويؤيد ذلك أنهم لما حفروا للدعامة الغربية التى إليها باب الحجرة الشامى عند بناء القبة والعقود التى حولها بالحجرة الشريفة بعد الحريق الذى أدركناه وجدوا فى محاذاة باب جبريل أمام باب الحجرة المذكور درجا تحت الأرض آخذة لجهة الشام ، وقدسبق فى حدود المسجد النبوى ما يقتضى أن جداره فى المشرق كان هناك ، فترجح عندى أن تلك الدرج كانت لباب جبريل عليه السلام ، وأنه كان هناك قبل تحويله ، والله أعلم

الفصل الحادى عشر

فى الأمر بسدّ الأبواب الشارعة فى المسجد الشريف

و بيان ما استثنى من ذلك .

قال البخارى : باب قول النبى صلى الله عليه وسلم سُدُّوا الأبواب إلا باب أبى بكر ، قاله ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد وَصَله البخارى فى الصلاة بلفظ سدوا عنى كل خوخة ، فكأنه ذكره هنا بالمعنى ، ثم أسند البخارى فى الباب حديثَ أبى سعيد الخدرى قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ وقال : إن الله خَيَّرَ عبدا بين الدنيا و بين ما عنده ، فاختار ذلك العبدُ ما عند الله . قال : فبكى أبو بكر ، فتعجبنا لبكائه أن يخبر[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خُيِّرَ ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير ، وكان أبو بكر أعلمَنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أمَنَّ الناسِ علىّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقَيَنَّ فى المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلا بابَ أبى بكر .

ورواه مسلم من طريق مالك بن أنس بنحوه ، وقال : لا يبقَيَنَّ فى المسجد خَوْخة إلا خَوْخة أبى بكر .

والخوخة : طاقة فى الجدار تفتح لأجل الضوء ، ولا يشترط علوها ، وحيث تكون سفلى يمكن الاستطراق منها لاستقراب الوصول إلى مكان مطلوب ، وهو المقصود هنا ، ولهذا أطلق عليها باب ، وقيل : لا يطلق عليها باب إلا إذا كانت تغلق

وفى حديث ابن عباس المشار إليه فى الصلاة أن ذلك فى مرضه صلى الله عليه وسلم الذى مات فيه ، ولمسلم من حديث جندب : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بخمس ليال ، وذكر الحديث .

---

(١) « أن يخبر » أى لأن يخبر ، ومعناه فتعجبنا لبكائه من أجل أن يخبر النبى صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله — إلخ

وروى عبدُ الله بن أحمد برجال ثقات عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار ، سُدُّوا كل خَوْخة في المسجد غير خَوْخة أبي بكر .

وروى الطبراني بإسنادٍ حسنٍ عن معاوية رضي الله عنه نحوه ، وفيه أن ذلك بعد أن صُبَّ عليه صلى الله عليه وسلم من سبع قرب من آبار شتى ، ولفظه : انظروا هذه الأبواب الشَّوَارع (١) في المسجد فسدوها إلا ما كان من باب أبي بكر .

وروى أبو يَعْلَى - ورجالُه ثقات - عن عائشة نحوه أيضا .

وفي طبقات ابن سعد : أخبرنا قتيبة بن سعيد البَلْخِي ثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظم الناس على مَنًّا في صحبته وذات يده أبو بكر ، فأغلقوا هذه الأبواب الشارعة كلها في المسجد إلا باب أبي بكر .

وقال قتيبة بن سعيد : قال الليث بن سعد : قال معاوية بن صالح : فقال ناس : أَغْلَقَ أبوابنا وترك باب خليله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر ، وإني أرى على باب أبي بكر نورا ، وأرى على أبوابكم ظلمة .

وفيها أيضاً : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبواب تسد إلا باب أبي بكر قال عمر : يا رسول الله دَعْنِي افتحْ كُوَّةً أنظر إليك حين تخرج إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا

قال الخطابي وابن بطال : في هذا الحديث إشارة قوية إلى استحقاق أبي بكر رضي الله عنه للخلافة ، ولاسيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر

---

(١) الشوارع : جمع شارع ، ومعناه نافذ ، أي الأبواب النافذة في المسجد

قال الحافظ ابن حجر : وقد ادعى بعضهم أن الباب كناية عن الخلافة ، والأمر بالسد كناية عن طلبها ، كأنه قال : لا يطلبن أحد الخلافة إلا أبا بكر فإنه لا حَرَجَ عليه فى طلبها ، و إلى هذا جَنَحَ ابن حبان، وقوى بعضهم ذلك بأن منزل أبى بكر كان بالسُّنح[1] من عوالى المدينة فلا يكون له خَوْخة إلى المسجد

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الاستناد ضعيف ؛ لأنه لا يلزم من كون منزله كان بالسُّنح[1] أن لا يكون له دار مجاورة للمسجد، ومنزله الذى كان بالسنح[1] هو منزل أصهاره من الأنصار ، وقد كان له إذ ذاك زوجة أخرى، وهى أسماء بنت عُمَيْس ، بالاتفاق ، وأم رومان على القول بأنها كانت باقية يومئذ ، وقد ذكر عمر بن شبة فى أخبار المدينة أن دار أبى بكر التى أذن له فى إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت ملاصقة للمسجد ، ولم تزل بيد أبى بكر حتى احتاج إلى شىء يعطيه لبعض مَنْ وفَدَ عليه فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم .

قلت : وسيأتى بقية ما ذكره فى إدخالها فى المسجد فى زيادة عمر رضى الله عنه

وقال ابن شبة أيضا فى ذكر دور بنى تَيْم : اتخذ أبو بكر رضى الله عنه دارا فى زُقَاق البقيع قبالة دار عثمان الصغرى ، واتخذ منزلا آخر أيضا عند المسجد ، وهو المنزل الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدوا عنى هذه الأبواب إلا ما كان من باب أبى بكر .

قال أبو غسان : أخبرنى محمد بن إسماعيل بن أبى فديك أن عمه أخبره أن الخوخة الشارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد خوخة أبى بكر الصديق التى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُدُّوا عنى هذه الأبواب إلا ما كان من خوخة أبى بكر الصديق، واتخذ أبو بكر أيضا بيتا بالسُّنح[1]، اه كلام ابن شبة .

وقال الجمال المطرى : وأما خوخة أبى بكر رضى الله عنه فإن ابن النجار قال : قال أهل السير: إن باب أبى بكر كان غربى المسجد، ونقل أيضا أنه كان قريب المنبر،

---

(١) السنح ـ بضم السين وسكون النون ويقال : بضم السين والنون جميعاً ـ موضع بعوالى المدينة فيه منازل بنى الحارث بن الخزرج

ولما زادوا فى المسجد إلى حده فى الغرب نقلوا الخوخة[١] وجعلوها فى مثل مكانها أولا، كما نقل باب عثمان إلى موضعه اليوم .

قال المطرى : وباب خوخة أبى بكر اليوم هو باب خزانة لبعض حواصل الحرم ، إذا دخلت من باب السلام كانت على يسارك قريباً من الباب .

قلت:وهذه الخزانة جعل فى جهتها عند عمارة المدرسة الأشرفية ثلاثة أبواب، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام، وتعرف قديماً بخزانة النورة لوضعها فيها للعمارة .

وكلامه فى ذلك يوافق ما ذكره ابن زبالة فإنه قال : وحدثنى محمد بن إسماعيل عن إسحاق بن مسلم أن الخوخة التى إلى جنب باب زياد فى غربى المسجد الشارعة فى رحبة القضاء هى يُمْنَى خوخة أبى بكر ، لما زيد فى المسجد نُحِّيَتْ فجعلت يمناها : أى فى موازاتها من جهة اليمين ، ورحبة القضاء خلف الخوخة المتقدم وصفها من جهة الحصن العتيق المتخذ مدرسة للسلطان الأشرف بعد الحريق الذى أدركناه .

قال الحافظ ابن حجر : وقد جاء فى سد الأبواب التى حول المسجد أحاديث يخالف ظاهرها ما تقدم : منها حديث سعد بن أبى وقاص قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة فى المسجد ، وترك باب على ، أخرجه أحمد والنسائى وإسناده قوى ، وفى رواية للطبرانى فى الأوسط رجالها ثقاة : فقالوا يا رسول الله سددت أبوابنا ، فقال : ما أنا سددتها ولكن الله سدها ، وعن زيد ابن أرقم قال : كان لنفر من الصحابة أبواب شارعة فى المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُدُّوا هذه الأبواب إلا باب علىّ ، فتكلم ناس فى ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى والله ماسددت شيئا ولا فتحته ، ولكن أمرت بشىء فاتبعته ، أخرجه أحمد والنسائى والحاكم ورجاله ثقات .

---

(١) الخوخة ـ بفتح الخاء وسكون الواو ـ باب صغير كالنافذة الكبيرة، وتكون بين بيتين ينصب عليها باب ، قاله ابن الأثير .

قلت : لفظ رواية أحمد : عن زيد بن أرقم قال : كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب شارعة فى المسجد ، قال : فقال يوماً : سُدُّوا هذه الأبواب إلا باب علىّ ، فتكلم أناس فى ذلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد فإنى قد أمِرْتُ بسدّ هذه الأبواب غير باب على ، فقال فيه قائلكم ، و إنى والله ما سَدَدْتُ شيئاً ولا فتحته ، الحديثَ .

وعن ابن عباس قال : أمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأبواب المسجد فسُدَّت إلا باب على ، وفى رواية : وأمر بسد أبواب المسجد غير باب على ؛ فكان يدخل المسجد وهو جنب ليس له طريق غيره ، أخرجهما أحمد والنسائى ، ورجالهما ثقات .

وعن جابر بن سمرة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب على ، فربما مر فيه وهو جنب ، أخرجه الطبرانى .

وعن ابن عمر : كنا نقول فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خيرُ الناس ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ولقد أعطى على بن أبى طالب ثلاث خصال لأن يكونَ لى واحدةٌ منهن أحَبُّ إلىّ من حُمُرِ النَّعَم: زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له ، وسدّ الأبواب إلا بابه فى المسجد ، وأعطى له الراية يوم[1] خيبر ، أخرجه أحمد ، و إسناده حسن .

وأخرج النسائى من طريق العلاء بن عرار — بمهملات — قال : قلت لابن عمر : أخبرنى عن على وعثمان ، فذكر الحديث ، وفيه : وأما على فلا تسأل عنه أحَداً ، وانظر إلى منزله مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد سدّ أبوابنا فى المسجد وأقر بابه ، ورجاله رجالُ الصحيح ، إلا العلاء وقد وثَّقه يحيى بن مَعين وغيره.

---

(١) أى بعد أن قال قبل إعطائها إياه : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله »

قال الحافظ ابن حجر : وهذه الأحاديث تقوى بعضها بعضاً ، وكل طريق منها صالحة للاحتجاج ، فضلا عن مجموعها ، وقد أورد ابنُ الجوزى هذا الحديث فى الموضوعات ، وأخرجه من حديث سعد بن أبى وقاص وزيد بن أرقم وابن عمر مقتصراً على بعض طرقه عنهم ، وأعَلّه ببعض من تكلم فيه من رواته ، وليس ذلك بقادح لما ذكرت من كثرة الطرق ، وأعله أيضاً بأنه مخالف للأحاديث الصحيحة الثابتة فى باب أبى بكر ، وزعم أنه من وضع الرافضة قابلوا به الحديث الصحيح فى باب أبى بكر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد أخطأ فى ذلك خطأ شنيعاً ؛ فإنه سلك رد الأحاديث الصحيحة بتوهمه المعارضة ، مع أن الجمع بين القصتين ممكن .

وقد أشار إلى ذلك البزار فى مسنده فقال : وَرَدَ من روايات أهل الكوفة بأسانيدَ حسانٍ فى قصة على ، وورد من روايات أهل المدينة فى قصة أبى بكر فإن ثبتت روايات أهل الكوفة فالجمعُ بينهما بما دل عليه حديثُ أبى سعيد الخدرى — يعنى الذى أخرجه الترمذى — أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا يحلّ لأحد أن يطرق هذا المسجد جنباً غيرى وغيرك ، والمعنى أن باب على كان إلى جهة المسجد ، ولم يكن لبيته باب غيره ؛ فلذلك لم يؤمر بسده .

ويؤيد ذلك ما أخرجه إسماعيل القاضى فى أحكام القرآن من طريق المطلب ابن عبد الله بن حنطب أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحدٍ أن يمر فى المسجد وهو جنب إلا لعلى بن أبى طالب ؛ لأن بيته كان فى المسجد ، ومحصل الجمع أن الأمر بسد الأبواب وقع مرتين ؛ ففى الأولى استثنى علياً لما ذكره من كون بابه كان إلى المسجد ولم يكن له غيره ، وفى الأخرى استثنى أبا بكر ، ولكن لا يتم ذلك إلا بأن يحمل ما فى قصة علىّ على الباب الحقيقى ، وما فى قصة أبى بكر على الباب المجازى ، والمراد به الخوخة كما صرح به فى بعض طرقه ،

وكأنهم لما امِرُوا بسد الأبواب سَدُّوها وأحدثوا خوخا يستقربون الدخول إلى المسجد منها ، فأمروا بعد ذلك بسدها .

فهذه طريقة لا بأس بها فى الجمع بين الحديثين المذكورين ؛ وبها جمعَ بينهما الطحاوى فى مشكل الآثار ، والكلاباذى فى معانى الأخبار ، وصرح بأن بيت أبى بكر كان له باب من خارج المسجد وخوخة إلى داخل المسجد ، وبيت على لم يكن له باب إلا من داخل المسجد ، انتهى ما أورده الحافظ بن حجر فى ذلك .

قلت : والعبارة تحتاج إلى تنقيح ؛ لأن ما ذكره بقوله « ومحصل الجمع » طريقة أخرى فى الجمع غير الطريقة المتقدمة ؛ إذ محصل الطريقة المتقدمة أن البابين بَقِيا ، وأن المأمورين بالسد هم الذين كان لهم أبواب إلى غير المسجد مع أبواب من المسجد ، وأما على فلم يكن بابه إلا من المسجد ، وأن الشارع صلى الله عليه وسلم خَصّه بذلك ، وجعل طريقه إلى بيته المسجدَ لما سبق ، فباب أبى بكر هو المحتاج إلى الاستثناء ، ولذلك اقتصر الأكثر عليه ، ومَنْ ذكر باب على فإنما أراد بيان أنه لم يسد ، وأنه وقع التصريح بإبقائه أيضاً ، والطريقة الثانية تعدد الواقعة ، وأن قصة على كانت متقدمة على قصة أبى بكر رضى الله عنهما .

ويؤيد ذلك ما أسنده يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد الله بن مسلم الهلالى عن أبيه عن أخيه قال : لما أمر بسد أبوابهم التى فى المسجد خرج حمزة بن عبد المطلب يجرُّ قطيفةً له حمراء ، وعيناه تَذْرِفانِ يبكى يقول : يا رسول الله أخرجْتَ عمك وأسكنت ابن عمك ، فقال : ما أنا أخرجتك ولا أسكنته ، ولكن الله أسكنه ، فذكر حمزة رضى الله عنه فى القصة يدل على تقدمها .

وروى البزار وفيه ضعفاء قد وثقوا عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق فمرهم فليسدوا أبوابهم ، فانطلقت فقلت لهم ،

ففعلوا إلا حمزة ، فقلت : يارسول الله قد فعلوا إلا حمزة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لحمزة فليحول بابه ، فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تحول بابك ، فحوله ، فرجعت إليه وهو قائم يصلى ، فقال : ارجع إلى بيتك .

وروى البزار بإسناد قال الهيثمى : فيه من لم أعرفه ، عن على رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ، فقال : إن موسى سأل ربه أن يطهر مسجده بهارون ، وإنى سألت ربى أن يطهر مسجدى بك وبذريتك ، ثم أرسل إلى أبى بكر أن سُدَّ بابك ، فاسترجع ثم قال : سمع وطاعة ، فسد بابه ، ثم أرسل إلى عمر ، ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أنا سَدَدْتُ أبوابكم وفتحت باب على ، ولكن الله فتح باب على وسد أبوابكم »

قلت : ذكرُ العباسِ بَدَل حمزة هنا وفيما سيأتى فيه نظر ؛ لأنه يقتضى تأخر ذلك ؛ لأنه إنما قدم المدينة عام الفتح

وأسند ابن زَبالة ويحيى من طريقه عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما الناسُ جلوس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خرج مُنَادٍ فنادى : أيها الناس سُدُّوا أبوابكم ، فتحسحس[1] الناس لذلك ولم يقم أحد ، ثم خرج الثانية فقال : أيها الناس سدوا أبوابكم ، فلم يقم أحد ، فقال الناس: ما أراد بهذا ؟ فخرج فقال : أيها الناس سدوا أبوابكم قبل أن ينزل العذاب ، فخرج الناس مبادرين ، وخرج حمزة بن عبد المطلب يجر كساءه حين نادى سدوا أبوابكم ، قال : ولكل رجل منهم باب إلى المسجد أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، قال : وجاء على حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مايقيمك ؟

(١) تحسحس الناس لذلك : توجعوا ، يقال : حسست لهذا الأمر أحس ــ من باب ضرب ــ وحسحست وتحسحست : أى توجعت له ورققت وتحركت

ارجع إلى رَحْلك ، ولم يأمره بالسد ، فقالوا : سدَّ أبوابَنَا وترك باب على وهو أحْدَثُنا [١] ،فقال بعضهم: تركه لقرابته، فقالوا: حمزة أقربُ منه، وأخوه من الرضاعة وعمه ، وقال بعضهم : تركه من أجل ابنته ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم بعد ثالثة فحمد الله وأثنى عليه محمرا وجهه ـ وكان إذا غضب احمر عِرْقٌ فى وجهه ـ ثم قال : أما بعد ذلكم فإن الله أوحى إلى موسى أن اتخذ مسجدا طاهرا لا يسكنه إلا هو وهارون وأبناء هارون شبرا وشبيرا ، و إن الله أوحى إلى أن أتخذ مسجداً طاهرا لا يسكنه إلا أنا وعلى وأبناء على حسن وحسين ، وقد قدمت المدينة ، واتخذت بها مسجدا ، وما أردت التحول إليه حتى أمرت ، وما أعلم إلا ما عُلِّمت ، وما أصنع إلا ما أمرت . فخرجْتُ على ناقتى ، فلقينى الأنصار يقولون : يارسول الله انزل علينا ، فقلت : خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى نزلت حيث بركت ، والله ما أنا سددت الأبواب وما أنا فتحتها ، وما أنا أسكنت علياً ، ولـكن الله أسكنه .

وروى أحمد بإسناد حسن عن سعد بن مالك قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة فى المسجد ، وترك باب على رضى الله عنه ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبرانى فى الأوسط ، وزاد : قالوا : يا رسول الله سددت أبوابنا كلها إلا باب على ، قال : ما أنا سددت أبوابكم ، ولـكن الله سدها .

وأسنده يحيى عنه بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأبواب فسدت إلا باب على ، فقال العباس : يارسول الله سددت أبوابنا إلا باب على ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا سددتها ولا أنا فتحتها .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُدّوا أبواب المسجد إلا باب على ، فقال رجل : اترك لى قَدْرَ ما أخرج وأدخل ، فقال رسول

(١) أحدثنا : أصغرنا سناً

الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، قال : اترك بقدر ما أخرج صدرى يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، وانصرف ، قال رجل : فبقدر رأسى يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، وانصرف واجدا[١] باكيا حزينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أومر بذلك ، سدوا الأبواب إلا باب على .

و رواه الطبرانى عن جابر مختصرا ، وفيه ناصح بن عبد الله ، وهو متروك ، ولفظ الطبرانى : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب على رضى الله عنه ، فقال العباس : يا رسول الله اترك لى قدر ما أدخل أنا وحدى وأخرج ، فقال : ما أمرت بشىء من ذلك ، فسَدَّها كلها غير باب على ، قال : وربما مر وهو جنب .

وأسند ابن زَبَالة ويحيى من طريقه عن عمرو بن سهل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بسدّ الأبواب الشوارع فى المسجد ، قال له رجل من أصحابه : يارسول الله دَعْ لى كُوَّةً أنظر إليك منها حين تغدو وحين تروح ، فقال : لا والله ولا مثل ثقب الإبرة .

قلت : وقد اقتضى ذلك المنع من الخوخة أيضا ، بل ومما دونها ، عند الأمر بسد الأبواب أولا ، فإن صح ذلك فيحمل الإذن بعده فى اتخاذ الخوخ ، ثم كانت قصة أبى بكر بعد ذلك .

وفى طبقات ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنى عبد الرحمن بن الواقفى عن صالح بن حسان عن أبى البداح بن عاصم بن عدى قال : قال العباس بن عبد المطلب : يا رسول الله ما بالُكَ فتحت أبواب رجال فى المسجد ، وما بالك سَدَدْتَ أبواب رجال فى المسجد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عباس ما فتحتُ عن أمرى ولا سددت عن أمرى ، والله أعلم .

---

(١) واجداً : غضبان ، وجد يجد وجداً وموجدة : أى غضب ، وفى حديث الإيمان « إنى سائلك فلا تجد على » أى لا تغضب من سؤالى

الفصل الثانى عشر
فى زيادة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المسجد

سيأتى فى الفصل الرابع عشر من رواية البخارى وأبى داود عن ابن عمر أن أبا بكر رضى الله عنه لم يَزِدْ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، وزاد فيه عمر ، وسيأتى فى رواية لأبى داود أن سَوَارِيَ المسجد نَخِرَتْ فى خلافة أبى بكر ، فبناها بجذوع النخل ، وهو لاينافى رواية أنه لم يزد فيه ، وقال أهل السير : لم يزد أبو بكر فى المسجد شيئاً لأنه اشتغل بالفتح ، فلما ولى عمر قال : إنى أريد أن أَزِيدَ فى المسجد ، ولولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن يزاد المسجد » مازدت فيه شيئا .

وفى تاريخ اليافعى أن زيادته فيه كانت فى سنة سبع عشرة ، وذكر غيره أنه زاد فى هذه السنة فى المسجد الحرام ، ولم يتعرض لتاريخ زيادته فى مسجد المدينة .

وأسند ابن زَبالة عن أنس قال : لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبو بكر لم يحول المسجد ، فلما ولى عمر جعل أساطينه من لَبِن[1] ، ونزع الخشب ، ومده فى القبلة ، وكان حد جدار عمر من القبلة ، على أول أساطين القبلة التى إليها المقصورة : أى التى كانت بين صف الأساطين التى تلى القبلة على الرواق القبلى .

والذى فى صحيح البخارى وسنن أبى داود كما سيأتى أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد ، وبَنَاه على بنائه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللَّبِن[1] والجريد ، وأعاد عمده خَشَبا ، وهذا مخالف لما فى رواية ابن زبالة من أن عمر جعل أساطينه من لَبِن[1] ، والمُعَوَّلُ عليه روايةُ الصحيح .

وروى أحمد عن نافع أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد من الأسطوانة

(١) اللبن — بفتح فكسر — الطوب النىء الذى لم يحرق بالنار .

إلى المقصورة ،، وقال عمر : لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغي أن نَزِيد في مسجدنا » مازدت .

وأسند يحيى عن ابن عمر أن عمر رضي الله عنهما قال : لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغي أن نزيد في المسجد » ما زدت في المسجد شيئاً .

وفي رواية له أن ابن عمر قال : إن الناس كثروا في عهد عمر ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين لو وسَّعْتَ في المسجد ، فقال عمر : لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إني أريد أن أزِيدَ في قبلة مسجدنا » ما زدت فيه .

وأسند ابن زَبَالة عن مسلم بن حباب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما وهو في مصلاه في المسجد « لو زدنا في مسجدنا » وأشار بيده نحو القبلة ، فأدخلوا رجلا وأجلسوه في موضع مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رفعوا يَدَ الرجل وخفضوها حتى رأوا أن ذلك نحو ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يده ، ثم مدوا مِقَاطاً[1] فوضعوا طرفه بيد الرجل ، ثم مدوه ، فلم يزالوا يقدمونه و يؤخرونه حتى رأوا أن ذلك فيه بما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزيادة ، فقدم عمر القبلة ، فكان موضع جدار عمر في موضع عيدان المقصورة .

بين عمر والعباس

وقال ابن سعد : أنا يزيد بن هارون ، أنا أبو أمية بن يعلى عن سالم أبي النضر قال : لما كثر المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه وضاق بهم المسجد فاشترى عمر ما حول المسجد من الدور إلا دار العباس بن عبد المطلب وحُجَرَ أمهات المؤمنين ، فقال عمر للعباس : يا أبا الفضل ، إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم ، وقد ابتغتُ ماحوله من المنازل نوسع به على المسلمين في مسجدهم إلا دارك وحُجَرَ أمهات المؤمنين ، فأما حُجَر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسِّع بها في مسجدهم ، فقال العباس : ما كنت لأفعل ، قال : فقال له عمر :

---

(١) المقاط — بكسر الميم ، بزنة الكتاب — حبل صغير شديد الفتل يكاد يقوم من شدة فتله ، قاله ابن الأثير ، وقد وقع في المطبوعات «مدوا مقطا» بدون ألف .

اُختر منى إحدى ثلاث : إما أن تبيعنيها بماشئت من بيت المال ، وإما أن أخطك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، وإما أن تَصَّدَّقَ بها على المسلمين فتوسع فى مسجدهم ، فقال : لا ، ولاواحدة منها ، فقال عمر : اجعل بينى و بينك مَنْ شئت ، فقال : أبى بن كعب ، فانطلقا إلى أبى فقصّا عليه القصة ، فقال أبى : إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : حَدِّثْنا ، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أوحى إلى داود أن ابْنِ لى بيتا أذكر فيه ، فخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس ، فإذا تربيعها بزاوية بيت رجل من بنى إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياها ، فأبى ، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه : أن ياداود أمرتك أن تبنى لى بيتاً أذكر فيه ، فأردت أن تدخـل فى بيتى الغَصْبَ ، وليس من شأنى الغَصْبُ ، و إن عقو بتك أن لاتبنيه ، قال: يارب فمن ولدى، قال : فمن ولدك ، فأخذ عمر بمجامع أبى بن كعب فقال: جئتك بشىء فجئت بماهو أشد منه، لتخرجَنّ مما قلت (١) ، فجاء يقوده حتى دخل المسجد ، فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبوذر ، فقال أبىّ : نشَدْتُ الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره، فقال أبو ذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال آخر : أنا سمعته، يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأرْسَلَ أبيا ، قال : فأقبل أبى على عمر فقال : يا عمر أتتهمنى على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : والله يا أبا المنذر ما اتهمتك عليـه ، ولـكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم ظاهراً ، قال : وقال عمر للعباس: اذهب فلا أعرض لك فى دارك ، فقال العباس: أما إذ قلت ذلك فإنى قد تصدقت بهـا على المسلمين أوسع عليهم فى مسجدهم ،

---

(١) كان عمر — رضى الله تعالى عنه — شديد الحرص على ألا يروى أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عن تثبت ، وله فى ذلك حوادث كثيرة ، ومقصده بقوله «لتخرجن مما قلت» أن يجيئه بمن يشهد له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك .

فأما وأنت تخاصمني فلا ، قال : فخط له عمر داره التي هي اليوم ، و بناها من بيت مال المسلمين .

وفي سنن البيهقي قبل كتاب الرجعة عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال : لما أراد عمر رضي الله عنه أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت زيادته على دار العباس رضي الله عنه ، فأراد عمر أن يدخلها في المسجد ويعوضه منها ؛ فأبى ، وقال: قطيعةُ(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختلفا ، فجعل بينهما أبي بن كعب رضي الله عنـه ، فأتياه في منزله ، وكان يسمى سيد المسلمين ، فأمر لهما بوسادة ، فألقيت لهما فجلسا عليها بين يديه ، فذكر عمر ما أراد ، وذكر العباس قطيعة(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال أبي رضي الله عنه : إن الله عز وجل أمر عبده ونبيه داود أن يبني له بيتا ، قال : أيْ ربِّ ، وأين هذا البيت ؟ قال : حيث ترى الملك شاهرا سيفه ، فرآه على الصخرة ، و إذا ما هنالك يومئذ أندر(٢) لغلام من بني إسرائيل، فأتاه داود عليه السلام فقال : إني قد أمرت أن أبني هذا المكان بيتا لله تعالى ، فقال له الفتى: الله أمرك أن تأخذ مني بغير رضاي ؟ قال : لا ، فأوحى الله إلى داود إني قد جعلت في يدِكَ خزائنَ الأرض فأرضِهِ ، فأتاه داود عليه السلام فقال : إني قد أُمِرْتَ برضاك ، فلك بها قنطار من ذهب ، فقال : قد قبلت ، فيا داود هي خير أم القنطار ؟ فقال : بل هي ، قال : فأرضِنِي ، قال : فلك بها ثلاثُ قناطير ، فلم يزل يشدد على داود حتى رضي منه بتسع قناطير ، قال العباس رضي الله عنه : اللهم لا آخذ لها ثوَابا ، وقد تصدقت بها على جماعة المسلمين ، فقبلها عمر ، فأدخلها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يُفهِمُ أن داود صلوات الله وسلامه عليه بنى بيت المقدس ، وأنه

---

(١) قطيعة رسول الله : أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعه إياها ، والإقطاع يكون تمليكا يستبد به وينفرد ، ويكون غير تمليك كعارية وإباحة وما أشبه ذلك ، وظاهر من كلام العباس رضي الله عنه أنه كان ملكه هذه البقعة .

(٢) الأندر والبيدر بمعنى ، وهما في لغة أهل مصر الجرن .

أول مَنْ بناه ، والرواية المتقدمة تقتضى أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه هو الذى بناه ، ويؤيده ما روى الطبرانى من حديث رافع بن عميرة مرفوعا قال : قال الله عز وجل لداود : ابنِ لى بيتا فى الأرض ، وإن داود عليه السلام بنى المسجد ، فلما تم السور سقط ثلثاه ، فشكا ذلك إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه إنه لا يصلح أن يبنى لى بيتا ، وذكر قصة غير ما تقدم ، فشق ذلك على داود ، فأوحى الله تعالى إليه : إنى سأقضى بناءه على يد ابنك سليمان .

وروى النسائى من حديث عمرو بن العاص مرفوعا بإسناد صحيح أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثا ـ الحديث .

وسواء كان البانى له داود أو سليمان عليهما السلام يشكل عليه ما فى الصحيحين عن أبى ذر : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض ، فقال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : وكم بينهما ؟ قال : أربعون عاما ، ووجه الإشكال كما ذكره ابن الجوزى أن إبراهيم عليه السلام بنى الكعبة وبينه وبين سليمان أكثر من ألف سنة ، وقد مشى ابن حبان على ظاهر الحديث المذكور ، فقال : فيه رد على من زعم أن بين داود وإبراهيم ألف سنة ، ولو كان كما قال لكان بينهما أربعون سنة ، وهذا عين المحال ؛ للاتفاق على طول الزمان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ، ثم إن نص القرآن أن قصة داود فى قتل طالوت كانت بعد موسى بمدة .

وأجاب ابن الجوزى بأن الإشاره فى حديث الصحيحين إلى أول البناء ، ووضع أساس المسجد ، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس ؛ فقد روى أن أول من بنى الكعبة آدم ، ثم انتشر ولده فى الأرض ، فجائز أن يكون بعضُهم قد وضع بيت المقدس بعد ذلك بأربعين سنة ، ثم بنى إبراهيمُ الكعبةَ بنص القرآن .

وذكر ابن هشام فى كتاب التيجان أن آدم عليه السلام لما بنى البيت أمره جبريل عليه السلام بالمسير إلى بيت المقدس وأن يبنيه ، فبناه ونَسَكَ فيه[1] .

وأجاب بعضُهم بأن داود وسليمان عليهما السلام إنما كان لهما من المسجد الأقصى تجديدُه لا تأسيسه ، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق عليهما السلام بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا القدر

ويشكل على ذلك ذكر القصة المتقدمة ؛ لأنه حينئذ لا يحتاج إلى شراء أرضه ، نعم قال الخطابىُّ : يشبه أن يكون المسجد الأقصى وُضِع قبل داود وسليمان ، ثم زادا فيه ووسَّعاه فأضيف إليهما بناؤه ، فيحتمل حينئذ أن القصة المتقدمة وقعت فيما وقع الأمر بزيادته فيه ، ويؤيد ذلك ما رواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى يحيى الضرير زيد بن الحسن البصرى حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب أنه قال للعباس رضى الله عنهما: إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نزيد فى المسجد ، ودارك قريبة من المسجد ، فأعْطِنَاهَا نزيدها فيه ، وأقطع لك أوسع منها ، قال : لا أفعل ، قال : إذاً أغلبك عليها ، قال : ليس لك ذلك ، قال : فأجعل بينى و بينك من يقضى بالحق ، قال : ومن هو ؟ قال : حُذَيفة بن اليمان ، قال : فجاءوا إلى حذيفة رضى الله عنه ، فقصوا عليه ، فقال حذيفة : عندى فى هذا خبر ، قالوا : وما ذاك ؟ قال : إن داود النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يزيد فى بيت المقدس ، وقد كان بيتٌ قريب من المسجد لِيَتِيم ، فطلب إليه فأبى ، فأراد أن يأخذه منه ، فأوحى الله عز وجل إليه إنَّ أنْزَهَ البيوتِ عن الظلم لَبَيْتِى ، قال : فتركه ، فقال له العباس : فبقى شىء ؟ قال : لا ، قال : فدخل عمر المسجد فإذا ميزاب للعباس شارعٌ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيل ماء المطر منه ، فقال عمر بيده فقلَع الميزاب ، فقال : هذا الميزاب لا يسيل فى مسجد رسول الله

(١) نسك فيه : النسك ـ بضم النون والسين جميعاً ـ العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى ، وما أمرت به الشريعة ، والناسك : العابد ، وأصل مأخذه من النسيكة ، وهى سبيكة الفضة المصفاة ، كأنه سمى بذلك لأنه صفى نفسه لله تعالى .

صلى الله عليه وسلم ، فقال له العباس : والذى بعث محمدا بالحق إنه هوالذى وضع هذا الميزاب فى هذا المكان ونزعته أنت يا عمر ، فقال عمر رضى الله عنه : ضَعْ رجليك على عنقى لترده إلى ما كان ، ففعل ذلك العباس ، ثم قال العباس رضى الله عنه [قد أعطيتك الدار تزيدها(١)] فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادها عمر فى المسجد، ثم قطع للعباس دارا أوسع منها بالزوراء ،وقال الحاكم : هذا الحديث كتبناه [عن أبى جعفر وأبى على الحافظ(١)] ولم يكتبه إلا بهذا الإسناد ، والشيخان لم يحتجا بعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : وقد وجدت له شاهدا من حديث أهل الشام ، ثم ساقه من طريق شعيب الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أراد أن يزيد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت منازعة على دار العباس ، فذكر نحوه .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن عبد الله بن أبى بكر قال : كان للعباس بيت فى قبلة المسجد ، وكثر الناس ، وضاق المسجد ، فقال عمر للعباس : إنك فى سَعَة فأعطنى بيتك هذا أوسع به فى المسجد ، فأبى العباس ذلك عليه ، فقال عمر : إنى أثمنك وأرضيك ، قال : لا أفعل ، لقد ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقى وأصلح ميزابه بيده فلا أفعل ، قال عمر : لآخذنَّه منك ،فقال أحدهما لصاحبه : فاجعل بينى و بينك حكما ، فجعلا بينهما أبى بن كعب ، فأتياه فاستأذنا على الباب، فحَبَسهما ساعة ثم أذن لهما وقال : إنما حبستكما أنى كنت كما كانت الجارية تغسل رأسى ،فقص عليه عمر قصته، ثم قص عباس قصته، فقال: إن عندى علما مما اختلفتما فيه ، ولأقضين بينكما بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول : إن داود لما أراد أن يبنى بيت المقدس وكان بيت ليتيمين من بنى إسرائيل فى قبلة المسجد

---

(١) هذه الزيادة عن كتاب المستدرك لأبى عبدالله الحاكم (ج٣ ص ٣٣٢ طبع حيدرأباد سنة ١٣٤١) وفى موضعها بياض فى أصول كتابنا هذا .

فأراد منهما البيع فأَبَيَا عليه ، فقال: لآخذنه ، فأوحى الله عز وجل إلى داود : إن أغْنَىَ البيوت عن المظالمة بيتى، وقد حَرَّمْتُ عليك بنيان بيت المقدس، قال: فسليمان، فأعطاه سليمان ، فقال عمر لأبى : ومَنْ لى بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ؟ فقال أبى لعمر : أتظن أنى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لتخرجَنَّ من بيتى ، فخرج إلى الأنصار فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، حتى قال ذلك رجالٌ ، فلما علم ذلك عمر قال : أما والله لو لم يكن غيرك لأجزت قولك ، ولكنى أردت أن أستثبت .

وفى رواية ليحيى عن أبى الزناد أنّ عمر بن الخطاب لما زاد فى المسجد دعا مَنْ كان له إلى جانبه منزل فقال : اختاروا منى بين ثلاث خصال : إما البيع فأثمن ، وإما الهبة فأشكر ، وإما الصدقة على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابه الناس ، وكان للعباس دار عن يمين المسجد ،فدعاه عمر، فقال : ياأباالفضل اختر منى بين ثلاث خصال ، وذكر نحو ما تقدم ، فقال العباس : ماأجيبك إلى شىء مما دعوتَنِي إليه ، فقال عمر : إذاً أهدمها ، فقال العباس : مالك ذلك ، وذكر التحاكم إلى أبى ، وقصّةَ بيت المقدس مع مخالفةٍ فى ذكر قصته لبعض ما تقدم .

وفى رواية له عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه كلَّم العباس فى داره ، وكانت فى مابين موضع الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم ، قَطِيعةً كان قطع له النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلمه عمر رضى الله عنه يُدْخِلها فى المسجد ، وأعطاه بها ثمنا حسنا ، وقال : يا أبا الفضل إن الناس قدشَكَوْا ضيق مسجدهم ، وأَحَبُّوا الاتساع ؛ فأبى العباسُ أن يبيعه، فقال عمر : أنا أعطيك خيرا منها فى أى نواحى المدينة شئت ، فأبى العباس ذلك ، فقال عمر : فتصدَّقْ على الناس ، فأبى

فقال عمر : لآخذنَّه ، فقال العباس : ليس ذلك لك ، قال عمر : اجعل بينى و بينك رجلا ، فجعلا أبى بن كعب ، فأتياه فحبسهما ساعة ثم أذن لهما ثم قال : إن جاريتى كانت تغسل رأسى ، فأيكما يستعدى على صاحبه ؟ فقال عمر : أنا ، جعلناك حكما بيننا ، وما رأيتَ من أمرٍ لزمَنَا ، فقال أبى : ماتقول يا أبا الفضل ؟ قال : أقول ذلك ، فذهب عمر يتكلم ، فقال أبى : تكلم يا أبا الفضل ، دَعْه يابن الخطاب يتكلم لمكانه من نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فتكلم العباسُ فقال : هذه خِطَّة خَطَّها لى رسول الله صلى اعليه وسلم وابتنيتهُا و بناها رسول الله صلى الله عليه وسلم معى ، وهو والله شَدَّ هذا الميزاب الذى يصبُّ فى المسجد ، وذكر القصة أيضا ، وأن العباس قال : أما إذ قضيت به لى فهوصدقة على المسلمين أما والله يا عمر لقد هَدَمْتَ الميزابَ وما شددته إلا ورجلاى على عاتِقَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : فو الله لاتشدُّه إلا ورجلاك على عاتقى ، قال : ثم هدم الدار ووسَّع فى المسجد وغيَّرَ جذوعا كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أسفلها قد أكلته الأرَضَة .

وقد أورد رزين فى كتابه خبر ابن عمر المتقدم ، ولفظه: عن نافع عن ابن عمر قال : إن الناس كثروا فى عهد عمر رضى الله عنه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين لو وسَّعْتَ لنا فى المسجد ، فزاد فيه عمر ، فكلم عمر العباس فى داره ، وكانت لاصقةً بالمسجد ، وقال له : أعطيك خيرا منها وتصدَّقْ بها على الناس، فأبى العباس ، وقال : خطَّها لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ووضع ميزابها بيده ، فقال عمر : فإنى آخذها ، قال العباس : ليس لك ذلك ، فجعلا بينهما أبيا ، فحجبهما ساعة ثم أذن لهما فقصَّا عليه خبرهما، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت المقدس كان ليتيمين من بنى إسرائيل بيتٌ فى الموضع الذى خط أن يبنى المسجد عليه ، فقال لهما : بِيعَاهُ منى

(١) الخطة ـ بالكسر ـ الأرض يختطها الإنسان لنفسه ، بأن يعلم عليها علامة ويخط عليها خطا ليعلم أنه قد احتازها ، قاله ابن الأثير .

ورغبهما فى الثمن ، فباعاه ثم قالا له : الذى أخذت منا خير أم الذى أعطيتنا ؟ قال الذى أخذت ، قالا : فإنا لا نجيز البيع ، فزادهما حتى كان ذلك منهما ومنه سبع مرات ، فقال : أزيدكما كذا وكذا على أن لا تسألانى، فقالا له : نبيعك بحكمنا ولا نسألك، قال : افعلا ، فطلبا منه مالا كثيرا، فتعاظم ذلك داود [١]،فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى داودَ : إنْ كنت إنما تعطيهما من مالك فأنت أعلم، و إن كنت إنما تعطيهما من رزقنا فأعْطهما حتى يرضيا فإن أغنى البيوت عن مظلمةٍ بيتى ، وقد حرمت عليك بناءه ، فقال داود : يارب فأعطه سليمان ، فقضى به أُبَىٌّ للعباس . فقـال العباس : أما إذ قضيتَ لى به فهو صدقة على المسلمين ، فذهب عمر فهدَم الميزابَ فأسف العباسُ لما وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : والله لقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رجليه لعلى عاتِقىَّ ، فقال عمر للعباس : والله لتردّنه ورجلاك على عاتِقىَّ ، فرده ، ثم قال عمر للعباس : اُهدم الآن بيدك .

وقد روى أن نزع الميزاب كان قبل ذلك لأجل أنه كان يسكب الماء داخل المسجد للزوقه به [٢]، انتهى لفظ رواية رزين .

وروى يحيى بسند جيد عن سفيان ابن عُيَينة عن موسى بن أبى عيسى قال: كان فى دار العباس ميزابٌ يصب فى المسجد ، فجاء عمر فقلعه ، فقال العباس : إن النبى صلى الله عليه وسلم الذى وضعه بيده ، فقال عمر للعباس : لا يكن لك سُلّمٌ إلا ظهرى حتى تردّه مكانه .

وروى ابن إسحاق عن أسباط بن محمد عن هشام بن سعد عن عبد الله بن عباس قال : كان للعباس ميزاب على طريق عمر ، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعـة وقد كان ذُبِحَ للعباس فرخان ، فلما وافى الميزاب صب فيه ماء من دم الفرخين ،

---

(١) تعاظم ذلك : رآه عظيما ، يريد أنه استكثر المقدار الذى طلبا .

(٢) للزوقه به : يعنى أنه واقع فى لصق المسجد ، والزاى والسين والصاد حروف يقع بعضها موقع بعض .

فأصاب عمر ، فأمر عمر بقلعه ، ثم رجع فطرح ثيابه ، ثم لبس غيرها ، ثم جاء فصلى بالناس ، فأتاه العباس فقال : والله إنه الموضع الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر للعباس : فأنا أعزم عليك[1] لما صَعَدْتَ على ظهرى حتى تضعه فى الموضع الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم [فيه[2]] ، ففعل ذلك العباس .

ورواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث هشام بن سعد عن عبيد الله بن عباس أخى عبد الله فذكره ، وكذا رواه ابن سعد ، وقال ابن أبى حاتم : إنه سأل أباه عنه ، وقال : هو خطأ ، وأخرجه ابن سعد من طريق موسى بن عبيدة عن يعقوب أن عمر خرج فى يوم جمعة ، فذكره بنحوه .

وروى يحيى عن أبى مصعب الزهرى الفقيه قال: حدثنا يوسف بن الماجشون عن الثقة أنه كان فى دار مروان ميزابٌ يصبُّ على الناس إذا خرجوا من المسجد فى المطر ، وكانت دار مروان للعباس بن عبد المطلب ، فأمر عمر بن الخطاب بذلك الميزاب فنُزِع ، فجاءه العباس بن عبد المطلب فقال : أما والله لوضَعَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده ، قال : فأعاده عمر حيث كان ، وقال : والله لا تعيده إلا وأنت على رقبتى ، فأعاده العباسُ يومئذ على رقبة عمر .

قلت : وهذه الدار بقية من التى وقع النزاع المتقدم فيها ، ونسبتها إلى مروان لما سيأتى أنها دخلت فى داره ، وروى أنها مِرْبَدُها، فكأن هذا الميزاب كان فى تلك البقية ، فيجمع بين الروايات بأنه كان للدار المذكورة ميزابان : ميزاب يصب فى المسجد ، وميزاب يصب فى الطريق ، واتفق فى كل منهما قصة ، ويؤيد ذلك مارواه يحيى فى زيادة عثمان رضى الله عنه عن الأعمش قال : بنى عباس بن عبد المطلب داره التى إلى جنب المسجد ، فجعل يرتجز يقول :

---

(١) أعزم عليك : أشدد عليك وأوجب وأؤكد

(٢) كلمة « فيه » ساقطة من المطبوعات كلها .

بنيتهـا باللبن والحجـاره * والخشـبات فوقها مطاره

* يا ربنا بارك لأهل الداره [١] *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك فى هذه الداره ، قال : وجعل العباس ميزابها لاصقاً بباب المسجد يصب عليه ، فطرحه عمر بن الخطاب ، فقال عباس : أما والله ما شدّه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنه لَعَلَيَّ [٢] منكبيَّ ، فقال له عمر : لا جَرَمَ والله لا تشده إلا وأنت على منكبيَّ [٢] ، فشده عمر ، وابتاع عثمان بن عفان تلك الدار فزادها فى المسجد إلا ثلاثة عشر ذراعاً أو أربعة عشر ذراعاً ، فقال : لا أدرى كان ابتاع البقية أم لا ؟ .

قلت : فالذى يظهر أن العباس أبقى لنفسه بقية الدار بعد أخذ ما احتيج إلى زيادته منها ، وأنه كان فى تلك البقية ميزاب ، فلما أحدث عمر الباب الذى عند دار مروان كما سيأتى صار الميزاب يصب على الباب فى طريق المسجد ، ثم اشترى عثمان من تلك البقية ما احتاج إلى إدخاله فى زيادته .

وروى ابن أبى الدنيا قصةَ دار العباس هذه مطولة ، وقال : إن العباس قال لعمر : أما والله ما شدّه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، حَمَلنى والله على عاتقه حين شده ، قال : وبعضُ الناس يقول : بل العباسُ حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن عقبة ـ يعنى راويه ـ : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع قدميه على رقبة أبيه أو عمه ، ولكنه حمل العباس على عاتقه ، وقولُ يحيى فى رواية ابن عمر المتقدمة « وكانت — يعنى دار العباس — فيما بين الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحكم » أى والباب الذى يلى دار مروان لدخول بعضها فى دار مروان . قال الزين المراغى : وسيأتى بيان المربعة ، أى فى زيادة عثمان رضى الله

---

(١) الدارة ، والدار : بمعنى واحد .

(٢) المنكب ـ بفتح الميم وكسر الكاف ـ وهو ما بين الكتف والعنق .

عنه ، وقد ذكر هناك تبعاً للمطرى أنها الأسطوانة التى فى صف الأساطين التى تلى القبلة ، وقد رفع أسفلها مربعا قدر الجلسة .

قلت : والتى تليها مربعة أيضا ، وهى التى تلى دار مروان ؛ فهى المراد هنا كما قدمنا الإشارة إليه فى تحديد المسجد النبوى ، وهى الخامسة من المنبر فى جهة المغرب ، فيكون ابتداء زيادة عمر رضى الله عنه من جهة المغرب من الأسطوانة المذكورة ، خلاف قول المطرى والمراغى إن المربعة التى ذكراها قبل هذه منتهى زيادة عمر رضى الله عنه ، وكيف يكون منتهى زيادته مع كونها مبتدأ دار العباس التى هى أول الزيادة ؟ وأيضا فذَرْعُ ما بين الأسطوان التى ذكراها والحجرة الشريفة نحو تسعين ذراعا ، وقد قال يحيى فى رواية ابن عمر أيضا « إن المسجد كان طوله أى من القبلة إلى الشام على عهد عمر رضى الله عنه أربعين ومائة ذراع وعرضه عشرون ومائة، وطول السقف أى ما بينه و بين الأرض أحد عشر ذراع » انتهى . وكيف يصح أن يكون الأسطوان المذكور نهاية زيادته ؟ بل ابتداء زيادته من الأسطوان التى تليها ، فيكون زيادته بعد الأسطوان المذكورة فى جهة المغرب عشرين ذراعا ، لما قدمناه من رواية أن المسجد كان عرضُهُ مائة ذراع فزيادته عشرون ، وذلك نحو أسطوانين ، فيكون نهاية المسجد فى زمنه من تلك الجهة الأسطوانة السابعة من غربى المنبر ، ومن المشرق الحجرة الشريفة ، لأنه لم يزد فى تلك الجهة شيئا ، ومن القبله صف الأساطين التى تلى القبلة ، وكانت إليها المقصورة الآتى ذكرها ، وقد احترقت ، ومن بقاياها خشبة فى سفل الأسطوان التى فى هذا الصف عن يسار مستقبل المحراب العثمانى ، مثبتة تلك الخشبة فى الأسطوان المذكور مما يلى الأرض ، وقد زالت فى الحريق الثانى ؛ فزيادة عمر رضى الله عنه من جهة القبلة الرواق المتوسط بين الروضة ورواق القبلة ، وذلك نحو عشرة أذرع ، وأما الشام فيستفاد من كون المسجد كان طوله فى زمنه أربعين

ومائة ذراع ، وأن منها فى جهة القبلة نحو عشرة أذرع أنه يمتد فى زمنه بعد الحجرين المتقدم ذكرهما فى حدود المسجد الأصلى اللذين فى صحنه نحو ستين ذراعا ؛ لأنا قدمنا أن من مقدم المسجد الأصلى إليهما نحو السبعين فقط .

وبقى أمر آخر لم أر من نبه عليه ، وهو أن حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كان بعضها فى جهة الشام كما تقدم ، ومقتضى ما قدمناه من رواية ابن سعد — وهو ظاهر ما سيأتى فى زيادة الوليد — أن عمر رضى الله عنه لم يُدْخِل منها شيئا فى المسجد ، وإنما أدخلها الوليد ، فكأن عمر ترك ما كان منها فى جهة الشام قائما على حاله ، وصار المسجد حواليها .

وقال السيد القرافى فى ذيله : واشترى عمر أيضا نصفَ موضع كان خطه النبى صلى الله عليه وسلم لجعفر بن أبى طالب وهو بالحبشة دارا بمائة ألف فزاده فى المسجد .

قلت : سيأتى من رواية يحيى أن الذى شَرَى ذلك عثمان رضى الله عنه ، كذا فى النسخة التى رواها ابن ابنه الحسن بن محمد عنه ، ثم رأيت فى النسخة التى رواها ابنه طاهر عنه ما ذكره القرافى ، ولم يذكر ابن زبالة ويحيى وغيرهما إدخال عمر دار أبى بكر رضى الله عنه فى المسجد ، ويتعين أن يكون عمر هو الذى أدخلها ؛ لما سبق فى الفصل قبله من أن باب خَوْخَتها كان غربىّ المسجد ، وأن الخوخة المجعولة فى محاذاتها عند إدخال الدار هى الخوخة الموجودة اليوم غربى المسجد ، وهذا لا خلاف فيه عند المؤرخين ، ولهذا قال ابن النجار نقلا عن أهل السير : كانت خَوْخَة أبى بكر فى غربى المسجد ، فعلمنا بذلك أن دار أبى بكر كانت فى غربى المسجد ، وأن عمر رضى الله عنه أدخلها ، لكن قال الحافظ ابن حجر : إن ابن شبة ذكر فى أخبار المدينة أن دار أبى بكر التى أَذِنَ له فى إبقاء الخوْخَة منها إلى المسجد كانت مُلَاصقة للمسجد ، ولم تزل بيد أبى بكر حتى احتاج

إلى شيء يُعْطيه لبعض مَنْ وفد عليه ، فباعها ، فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، فلم تزل بيدها إلى أن أرادوا توسيعَ المسجد فى خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسعوا بها المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك دارا أوسَعَ منها ونجعل لك طريقا مثلها ، فسلَّمت ورضيت .

قلت : هذه القصة إنما ذكرها ابن شبة فى دار حَفْصَة التى فى قبلة المسجد[1] ، وذكر معها شراءها لدار أبى بكر المذكورة بصيغة تقتضى التضعيف ، واقتضى ذلك أن دار أبى بكر كانت فى قبلة المسجد على تلك الرواية الضعيفة ، وأن طريق آل عمر اليوم منها ، فنسب إليه الحافظ ابن حجر الجزمَ به[2] ، وليس الأمر كذلك كما سنوضحه إن شاء الله تعالى فى الفصل الرابع عشر .

وقال يحيى فى روايته المتقدمة : وجعل أساطينه من جُذُوع نخل وسقفه بالجريد ذراعين فوق المسجد سترة حائطه ثلاثة أذرع ، وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : وسقفه جريد ذراعان ، و بنى فوق ظهره سترة ثلاثة أذرع ، انتهى . والذى يظهر أن فى عبارة يحيى خللا ، وتبعه عليه ابن النجار ، وأن المراد ما ذكره رزين فى هذه الرواية بعينها ، فإنه قال فيها : وجعل عمر سترة المسجد فوقه ذراعين أو ثلاثة ، فكأن لفظ « أو » سقط قبل قوله ثلاثة أذرع .

وقال يحيى ورزين عقب ذلك : وكان بَنَى أساسَه بالحجارة إلى أن بلغ قامة ، زاد يحيى : وكان لبنه ضَرَبه بالبقيع ، وجعل له ستة أبواب : بابين عن يمين القبلة ، و بابين عن يسارها ، و بابين خلف القبلة ، ولم يغير باب عاتكة ــ أى المعروف بباب الرحمة ــ ولا البابَ الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فتَح الباب الذى عند القبر ، فهذان البابان من الشق الأيسر : أى

---

(١) يريد فى جهة القبلة منه .

(٢) الجزم به : أى القطع به وعدم التردد فيه .

المشرق ، وفتح الباب الذى عند دار مروان بن الحكم ، وفتح بابين من مؤخر المسجد ، انتهى .

وقوله : « إنه لم يغير باب عاتكة ، ولا الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم » مُسَلَّم فى الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم . قال المراغى تبعاً للمطرى : وهو باب جبريل ؛ لأنه لم يزد فى جهة المشرق شيئاً ، وأما باب عاتكة ففيه نظر ؛ لأنه زاد من جهة المغرب كما تقدم ، فالمراد بكونه لم يغير أنه أخره فى محاذاة الباب الأول ، وهذه الرواية تقتضى أن الباب المعروف اليوم بباب النساء لم يكن موجودا فى زمن عمر رضى الله عنه ؛ لأن المستفاد مما ذكره أن الباب الذى زاده فى جهة المشرق جعله عند القبر ، ولعله تصحيف ؛ لأنه إذا لم يزد من جهة المشرق شيئا كيف يحدث بابا عند القبر ويترك الجهة التى زادها من جهة الشام بغير باب ؟ والمنقول كما سيأتى أن إحداث الباب الذى عند القبر إنما هو فى زيادة الوليد ، وسيأتى فى سبب تسميته باب النساء أن عمر رضى الله عنه قال حين بنى المسجد : هذا باب النساء ، كما رواه يحيى ؛ فتبين أن باب النساء هو الباب الباقى فى جهة المشرق على عهد عمر رضى الله عنه ، وأنه الذى أحدثه ، وسيأتى فى زيادة عثمان عند ذكر اقتصاره على الأبواب التى جعلها عمر ما هو كالصريح فى ذلك ، والله أعلم .

وفى البخارى تعليقا عن أبى سعيد قال : أمر عمر ببناء المسجد ، وقال : أَكِنَّ الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس (١) .

وروى ابن شبة ويحيى من طريق عبد العزيز بن عمران عن مليح بن سليمان عن ابن أبى عمرة قال : زاد عمر بن الخطاب فى المسجد من شاميه ، ثم قال : لو زدنا فيه حتى نبلغ به الجَبَّانة كان مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد

---

(١) أكن الناس فيه : أى أسترهم فيه ، و« إياك أن تحمر أو تصفر » يريد لا تجعل فيه ألوانا من الطلاء ، فتشغل الناس بالنظر إليه عن الخشوع الواجب للصلاة .

يحيى : وجاء الله بعامر، وعبد العزيز هو ابن أبي ثابت ، تركوه ، كانت كتبه قد قد احترقت فحدَّث من حفظه فاشتد غلطه .

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وهو ضعيف : حدثني محمد بن إسماعيل عن ابن أبي ذئب قال : قال عمر بن الخطاب : لو مُدَّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذي الحليفة لكان منه ، ورواه ابن شبة من طريق أبي غسان المدني بدل ابن زبالة ، وعلى كل حال هو مُعْضَل (١) .

وروى ابن شبة ويحيى والديلمي في مسند الفردوس بسندٍ فيه متروكٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو بني هذا المسجد إلى صَنْعَاءَ كان مسجدي، وكان أبو هريرة يقول : لو مد هذا المسجد إلى باب داري ما عَدَوْت أن أصلي فيه ، ثم قال يحيى : وحدثنا هرون بن موسى نبأ عمر بن أبي بكر الموصلي عن ثقاتٍ من علمائه قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مسجدي ، وما زيد فيه فهو منه ، ولو بلغ بمسجدي صنعاء كان مسجدي .

قلت : وهو منقطع ، لكن اجتماع هذه الروايات تقوى ماقدمناه في آخر الفصل الثاني عن مالك رحمه الله من أن المضاعفة الواردةَ في المسجد النبوي تعم مازيد فيه ، والله أعلم .

الفصل الثالث عشر

في البطيحاء التي بناها عمر رضي الله عنه بناحية المسجد ، وَمَنْعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، وماجاء في ذلك .

روى ابن شبة ويحيى بسندٍ جيد عن سالم بن عبد الله أن عمر ـ يعني ابن الخطاب ـ اتخذ مكانا إلى جانب المسجد يقال له « البطيحاء » وقال : مَنْ أراد

(١) المعضل من الحديث : نوع من المنقطع ، وهو ـ في الأشهر ـ الذي سقط من رواته اثنان على الولاء فأكثر ، وذلك بأن يروى تابع التابعي حديثا يقفه على التابعي ، فيسقط منه الصحابي والرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلا .

أن يلغط[1] أو يرفع صوتا أو ينشد شعرا فليخرج إليه، ولفظُ يحيى : أن عمر بن الخطاب بَنَى فى ناحية المسجد رحبة تدعى البطيحاء ، ثم قال: مَنْ أراد أن يلغط[1] أو ينشد شعرا أو يرفع صوتا فليخرج إلى هذه الرحبة ، زاد ابن شبة عقيب روايته من طريق محمد بن يحيى : قال محمد : وقد دخَلَتْ تلك البطيحاء فى المسجد فيما زيد فيه بعد عمر رضى الله عنه .

وذكر ابن شبة فى موضع آخر مايبين أن البطيحاء كانت فى جهة شرقى المسجد مما يلى مؤخره زمَنَ عمر رضى الله عنه ، فإنه قال : اتخذ خالد بن الوليد داره التى كانت بالبطيحاء ، إلى آخر ما سيأتى عنه ، مع بيان أنها الرِّبَاط المعروف اليوم برباط السبيل فى شرقى المسجد

وروى ابن شبة أيضا بسند جيد عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه كان إذا خرج من الصلاة نادى فى المسجد : إياكم واللغَطَ[1] ، ويقول : ارتفعوا فى أعلى المسجد

ورواه يحيى بلفظ : كان إذا خرج إلى الصلاة

و وى ابن شبة بسند جيد إلا أن فيه عنعنة ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عمر رضى الله عنه سمع ناسا من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا فى المسجد ، فقال: إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله ، فإذا ذكرتم تجاراتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع

وروى أيضا عن شيخه سليمان بن داود قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع صوتَ رجلٍ فى المسجد ، فقال : أتدرى أين أنت ؟ كأنه كره الصوت

وعن عبد الرحمن بن حاطب قال : كان بين عثمان وطلحة تَلَاحٍ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ عمر رضى الله عنه ، فأتاهم وقد ذهب عثمان

---

(١) لغط يلغط لغطا ـ بوزن فرح يفرح فرحا ـ ضج وصوت صوتا لايفهم معناه

وبقى طلحة ، فقال : أفى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ وما لا يصلح من القول ؟ قال : فجثا طلحة على ركبتيه وقال : إنى والله لأنا المظلوم المشتوم ، فقال : أفى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ وما لا يصلح من القول ؟ ما أنت منى بِنَاج ، فقال : اللهَ اللهَ يا أمير المؤمنين ، فوالله إنى أنا المظلومُ المشتوم ، فقالت أم سلمة من حُجْرتها : والله إن طلحة لهو المظلوم المشتوم ، قال : فـكفَّ عمرُ رضى الله عنه

وعن السائب بن يزيد قال : كنت مضطجعا فى المسجد ، فحَصَبنى رجل[1] ، فرفعتُ رأسى ، فإذا عمر رضى الله عنه فقال : اذْهَبْ فأتنى بهذين الرجلين ، فجئت بهما ، فقال : مَنْ أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، قال : لو كنتما من أهل البلد ما فارقتمانى حتى أوجعكما جَلْدا ، ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟!

وعن طارق بن شهاب أن عمر رضى الله عنه أتى برجل فى المسجد وقد أخذ فى شىء ، فقال : أخرِجاه من المسجد فاضرباه ، أو اُضربوه

وروى يحيى عن نافع أن عمر بينما هو فى المسجد عِشاء إذ سمع ضحك رجل ، فأرسل إليه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا رجل من ثقيف ، فقال : أمن أهل البلد أنت ؟ فقال : بل من أهل الطائف ، فتوعَّده فقال : لو كنتَ من أهل البلد لنـكّلت بك ، إن مسجدنا هذا لا تُرْفع فيه الأصوات

وعن ابن سيرين أن ابن مسعود سمع رجلا يرفع صوته فى المسجد ، فسَبَّه ، فقيل له : ما كنت فَحَّاشا ، فقال : أُمِرْنا بهذا

وروى ابن زبالة ويحيى عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب مَرَّ بحسَّان ابن ثابت وهو ينشد فى المسجد ، فلحظ إليه ، فقال حسان : قد كنتُ أنشد وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبى هريرة فقال : أَنْشُدُكَ الله هل سمعت

(١) حصبنى : رمانى بالحصباء ، وهى صغار الحصى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَجِبْ عنى ، اللهم أيده بروح القدس » قال : اللهم نعم ، وقد رواه البخارى فى الصحيح بنحوه ، وفى رواية ليحيى عقب قوله « قد كنت أنشد فيه من هو خير منك » فانصَرَفَ عمر وقد عرف أنه يريد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى رواية ذكرها الحافظ ابنُ حجر فقال : كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ، وفى الترمذى من طريق أبى الزناد عن عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَنْصِبُ لحسان منبرا فى المسجد ، فيقوم عليه يهجو الكفار

وأما ما رواه ابن خزيمة فى صحيحه والترمذى وحسنهُ من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن تناشد الأشعار فى المساجد ، قال الحافظ ابنُ حجر : صحيح إلى عمرو ، فمن يصحح نسخته يصححه ، وفى هذا المعنى عدة أحاديث ، لكن فى أسانيدها مَقَال ، والجمع بينها وبين ماتقدم أن يُحْمَل النهى على تناشد أشعار الجاهلية والمُبْطِلين، وهو مرادُ عُمَرَ بقوله: من أراد أن ينشد شعرا فليخرج إلى هذه ، يعنى البطيحاء ، والمأذون فيه ما سَلِمَ من ذلك ، وقيل : المنهى عنه ما إذا كان غالبا على المسجد حتى يتشاغل به مَنْ فيه ، وأبعد بعضُهم فأعْمَلَ أحاديث النهى ، وادعى نسخَ الإذن ، ولم يوافَقْ على ذلك . وروى ابن زبالة عن على بن زيد بن جدعان قال : أنشد كعبُ بن زُهَيْر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد أبياتا

* بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِى اليومَ مَتْبُول[1] * والله أعلم

الفصل الرابع عشر

فى زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه

روينا فى صحيح البخارى وسنن أبى داود عن نافع أن عبد الله — يعنى ابنَ عمر — أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة كعب ، وعجزه * متيم إثرها لم يفد مكبول * .

مَبْنِيًّا باللبِنِ ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر و بناه على بنائه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشباً ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة ، و بنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّةِ(١) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج

وروى أبو داود أيضا ـ وسكت عليه ـ عن عطية عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن مسجد النبى صلى الله عليه وسلم كانت سوَاريه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جُذُوع النخل ، أعلاه مُظَلَّل بجريد النخل ، ثم إنها نَخِرَتْ فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فبناها بجُذُوع النخل و بجريد النخل ، ثم إنها نَخِرَتْ فى خلافة عثمان رضى الله عنه فبناها بالآجُرِّ ، فلم تزل ثابتة حتى الآن ، هكذا رأيته فى أصول متعددة معتمدة من السنن ، وأورده المجد بلفظ : ثم إنها نخرت فى خلافة عمر ـ بدل أبى بكر ـ ولم أره فى شىء من النسخ .

وفى هذا الخبر ما يقتضى أن السبب فى بناء عثمان للمسجد كون الجذوع التى هى السوارى نَخِرَت ، وأن عثمان بناها بالآجر لا الحجر ، فلعل البعض كان فى زمنه مبنيا بالآجر وهو بعيد ، وماتقدم من رواية الصحيح أصح .

وفى صحيح مسلم عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد ، فكره الناسُ ذلك ، وأحبوا أن يَدَعَه على هيئته ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ بنى « مسجداً لله » بنى الله له فى الجنة مثله

وفيه وفى البخارى عن عبيد الله الخَوْلَانى أنه سمع عثمان عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول : إنكم قد أكثرتم ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ بنى مسجدا لله عز وجل ، الحديثَ

وقوله فى الرواية الأولى إن عثمان أراد بناء المسجد يبين أن المراد من قوله حين بناء المسجد حين أراد بناءه ، إلا أن يكون ذلك قد تكرر من عثمان

(١) القصة ـ بفتح القاف وتشديد الصاد مفتوحة ـ الجص ، وسمى موضع قرب المدينة بذى القصة لأنه قد كان به قصة : أى جص .

لتكرر كلامهم قبل البناء و بعده ، وهو الأقرب ، وقوله « وأحبوا أن يدَعه على هيئته » أى بجذوع النخل واللبِنِ كما فعل عمر رضى الله عنه لموافقته لفعله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال البغوى فى شرح السنة : لعل الذى كره الصحابة من عثمان بناؤه بالحجارة المنقوشة ، لا مجرد توسيعه ، اه . ويؤيده ما سيأتى من أن الناس شَكَوْا إليه ضيقَ المسجدِ ؛ فقوله « لما أراد عثمان بناء المسجد » أى على الهيئة التى بناه عليها ، ويؤخذ من هذا إطلاق البناء المرغَّب فيه فى حق من جدَّد ووسَّع ؛ لأن عثمان لم يبن المسجد كله إنشاء ، وقوله « إنكم أكثرتم » أى الكلامَ بالإنكار ونحوه

وروى يحيى عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال : لما ولى عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين كلَّمه الناسُ أن يزيد فى مسجدهم ، وشكوا إليه ضِيقه يوم الجمعة ، حتى إنهم لَيُصَلّون فى الرحاب ، فشاور فيه عثمان أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه ، فصلى الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إنى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه ، وأشهد لَسَمِعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة ، وقد كان لى فيه سَلَف وإمام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه و بنَاه ، وقد شاورتُ أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه و بنائه وتوسيعه ، فحسَّنَ الناسُ يومئذ ذلك ودعوا له ، فأصبح فدعا العمال و باشَرَ ذلك بنفسه ، وكان رجلا يصوم الدهر و يصلى الليل ، وكان لا يخرج من المسجد ، وأمر بالقَصَّة المنخولة تعمل ببطن نخل ، وكان أول عمله فى شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين ، وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ثلاثين ، فكان عمله عشرة أشهر .

قلت : قوله أولا «لما ولى عثمان سنة أربع وعشرين» إلى قوله «فأصبح ودع العمال» يفهم أنه فى تلك السنة ، وقوله أخيراً «وكان أول عمله إلى آخره» يأباه ، وما ذكره أخيراً هو الصواب المذكور فى كلام غيره ؛ فيحمل ما ذكره أولا على أنه لم يَشْرَع فى المشاورة والعمارة عقب كلام الناس له ، بل استمر تلك السنين ، وربما تكرر الكلام فخطبهم فى السنة التى وقعت فيها العمارة .

وقد روى رزين الخبر المذكور عن المطلب المذكور بلفظ : لما ولى عثمان وكان سنة أربع من خلافته كلمهُ الناس أن يزيد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكوا إليه ضيقه ، فشاور عثمان أهل الرأى ، فأشاروا عليه بذلك ، وذكر نحو ما تقدم ، وينبغى حمله أيضاً على أن الكلام وقع من الناس سنة أربع من خلافته وتأخرت العمارة إلى سنة تسع وعشرين – بتقديم المثناة الفوقية على السين – وإلا فهو مخالف لما تقدم ؛ لأن عثمان رضى الله عنه ولى غرة المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين ، فسنة أربع من خلافته هى سنة سبع وعشرين – بتقديم السين على الموحدة – والأول هو الأصح ؛ فقد روى يحيى وابن زبالة أن عثمان زاد فى المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين ، وعثمان قتل فى ذى الحجه سنة خمس وثلاثين .

وقال الحافظ ابن حجر : كان بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور ، وقيل : فى آخر سنة من خلافته ؛ ففى كتاب السير عن الحارث بن مسلم عن ابن وهب : أخبرنى مالك أن كعب الأحبار كان يقول عند بنيان عثمان المسجدَ : لوددت أن هذا المسجد لاينجز[1] ؛ فإنه إذا فرغ من بنيانه قتل عثمان ، قال مالك : فكان كذلك .

قال الحافظ ابن حجر : ويمكن الجمع بأن الأول كان تاريخ ابتدائه ، والثانى تاريخ انتهائه .

---

(١) لاينجز : لايتم بناؤه ولا يكمل ، مخافة ما يقع بعد تمامه .

قلت : قد تقدم ما يردُّ هذا الجمع ، وأن الفراغ منه كان فى سنة ثلاثين ، لكن يمكن أن عثمان رضى الله عنه أحدث فيه عمارة أخرى آخر سنة من خلافته وقد وصَل ابن شبة ما نقله مالك عن كعب ؛ فروى بسنده من طريق الأعمش عن أبى صالح قال : قال كعب ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم يُبْنَى : والله لوددت أنه لا يفرغ من برج إلا سقط برج ، فقيل له : يا أبا إسحاق أما كنت تحدثنا أن صلاةً فيه أفضل من ألف صلاة فى غيره إلا المسجد الحرام ، قال : بلى ، وأنا أقول ذلك الآن ، ولكن فتنةً نزلت من السماء ليس بينها و بين أن تقع إلا شبر ، ولو فرغ من بناء هذا المسجد وقعت ، وذلك عند قتل هذا الشيخ عثمان بن عفان ، فقال رجل : وهل قاتله إلا كقاتل عمر ، قال : بل مائة ألف أو يزيدون ، ثم يحل القتل ما بين عدن أبين إلى دروب الروم (١) .

وروى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال : لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر و يشاورهم قال له مروان بن الحكم : فِدَاكَ أبى وأمى ، هذا أمر خير لو فعلته ولم تذكر لهم ، فقال : ويحك ! إنى أكره أن يَرَوْا أنى أستبدُّ عليهم بالأمور ، قال مروان : فهل رأيت عمر حيث بناه وزادفيه ذكر ذلك لهم ؟ قال : اسكت ، إن عمر اشتدَّ عليهم فخافوه ، حتى لو أدخلهم فى جُحْر ضب دخلوا ، و إنى لِنْتُ لهم حتى أصبحت أخشاهم ، قال مروان بن الحكم : فِدَاكَ أبى وأمى لا يسمع هذا منك فيجترأ عليك .

وعن عبد الرحمن بن سفينة قال : رأيت القَصَّةَ تحمل إلى عثمان وهو يبنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بطن نَخْلٍ ، رأيته يقوم على رجليه

(١) عدن أبين — بفتح الهمزة والياء وسكون الباء بينهما — مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند ، لا ماء بها ولا مرعى ، وشربهم من عين بينها و بين عدن مسيرة نحو يوم ، قاله ياقوت ، والدروب : جمع درب ، وهوالطريق الموصل إلى بلادالروم .

والعمالُ يعملون فيه حتى تأتى الصلاة فيصلى بهم ، وربما نام ثم رجع ، وربما نام فى المسجد .

وعن خارجة بن زيد قال : هدم عثمان بن عفان المسجد وزاد فى قبلته ، ولم يزد فى شرقيه ، وزاد فى غربيه قدر أسطوان ، وبناه بالحجارة المنقوشة والقَصَّة وعُسُب النخل والجريد ، وبيضه بالقَصَّة ، وقدر زيد بن ثابت أساطينه فجعلها على قدر النخل ، وجعل فيه طيقان مما يلى المشرق والمغرب ، وذلك قبل أن يقتل بأربع سنين ، وزاد فيه إلى الشام خمسين ذراعا .

وعن محمد بن إبراهيم بن الحارث التَّيمى عن أبيه قال : زاد عثمان فى المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين فزاد من القبلة ، فوضع جداره على حد المقصورة اليوم ، وزاد فيه من المغرب أسطواناً بعد المربعة ، وزاد فيه من الشام خمسين ذراعاً ، ولم يزد من المشرق شيئاً ، وزعم المطرى وتبعه المراغى أن المراد بهذه المربعة المربعة المتقدم وصفها فى تحديد المسجد النبوى فى زيادة عمر رضى الله عنه ، وهى الأولى من المربعتين اللتين يليان القبلة فى صف الأسطوان الرابع من المنبر فى جهة المغرب ، وجعلا نهاية زيادة عثمان إلى الأسطوانة التى تليها فى المغرب المقابلة للطراز المتقدم وصفه ، فقالا : أراد بالمربعة الأسطوانة التى تليها فى المغرب التى فى القبلة التى رفع أسفلها مربعاً قدر الجلسة ، وهى منتهى زيادة عثمان من المغرب ، وقبالة الأسطوانة التى زادها عثمان فى الحائط القبلى طرازاً آخر من العصابة السفلى إلى سقف المسجد ، وهو حد زيادة عثمان ، انتهى .

ومحصله أن زيادة عثمان هى الرواق الكائن بين الأسطوانتين المذكورتين ، ولم أر من سبقهما لذلك ، وقد قدمنا فى تحديد المسجد النبوى ما يقتضى أن الطراز المذكور فى مُوَازاة حد المسجد النبوى على الراجح ، وأن زيادة عمر وعثمان رضى الله عنهما من بعد ذلك فى جهة المغرب ، وأن عمر رضى الله عنه جعل المشرق

إلى المغرب مائة وعشرين ذراعاً ، وأن من المربعة التى ذكرا أنها نهاية زيادته إلى الحجرة الشريفة ينقص عن تسعين ذراعاً ، و إلى محاذاة الطراز نحو المائة ؛ فيبقى لعمر فى جهة المغرب بعد الطراز رواقان آخران ؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه الأسطوانة السابعة من المنبر ، وفى صف السابعة من المنبر أسطوان أسفله مربع لكنه ليس مرتفعاً عن الأرض بقدر الجلسة ، بل تربيعه على وجه الأرض ، وقد زال تربيعه فى العمارة الحادثة بعد الحريق الثانى ، وليس هو فى صف الأساطين التى تلى القبلة ، بل فى صف الأساطين التى خلف محراب الحنفية ؛ فالظاهر أن هذه المربعة هى المرادة هنا ؛ فيكون لعثمان رضى الله عنه فى جهة المغرب الرواق الذى بعدها ؛ فيكون نهاية المسجد فى زمنه الأسطوانة الثامنة من المنبر فى جهة المغرب ، ويدل على صحة ذلك ما سيأتى أن الوليد زاد بعد عثمان رضى الله عنه فى جهة المغرب أسطوانين ، ولم يزد أحد بعد الوليد فى جهة المغرب شيئاً ، والباقى من الأسطوانة الثامنة من المنبر أسطوانتان فقط فى جهة المغرب ، فهما زيادة الوليد ، وهناك أسطوان مربعة مرتفعة قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة بوجاه الداخل من باب السلام ، الظاهرُ أنها جعلت علامة لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه ، وابتداء زيادة الوليد ، وإن قلنا بأن نهاية المسجد النبوى المربعة الأولى التى تلى القبلة كما سبقت الإشارة إليه فحينئذ يكون لعمر رضى الله عنه منها إلى جهة المغرب أسطوانتان فيكون نهاية زيادة الأسطوانة السادسة من المنبر ، وفى صفها أسطوان مربع قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة المثمنة اليوم ، وتكون زيادة عثمان رضى الله عنه إلى الأسطوانة التى بعدها فى جهة المغرب وهى السابعة ، وتبقى للوليد منها إلى جدار المسجد ثلاثة أساطين ، وسيأتى فى عمارته رواية تقتضى ذلك ، على أن الذى أفهمه من كلام متقدمى المؤرخين كما قدمناه فى حدود المسجد أن المربعة حيث أطلقت فى جهة المغرب فالمراد بها الأسطوانة المقابلة لمربعة القبر فى جهة المغرب

عند ركن صحن المسجد قبل زيادة الرواقين الآتى بيانهما ، وهى المثمنة اليوم ، وفى ركنى الصحن الشاميين أسطوانتان على هيأتها أيضاً ، وتثمينها حادث كما تقدم بيانه ، ويعبرون عنها بالمربعة الغربية ، وهى السادسة من المنبر ؛ فيترجح بذلك أنها نهاية زيادة عمر وابتداء زيادة عثمان رضى الله عنه ، ولو كان كما زعم المطرى ومن تبعه لكان بعد نهاية زيادة عثمان رضى الله عنه فى المغرب خمس أساطين ، فيكون كلها للوليد ، ولا قائل بذلك ، وفيما قدمناه فى تحديد المسجد النبوى كفاية فى رد ما قالاه .

وروى يحيى عن عبد الله بن عطية بن عبد الله بن أنيس قال : بنى عثمان المسجد بالحجارة المنقوشة والقَصَّة ، وجعل عُمُدَه حجارة منقوشة ، وبها عمد الحديد فيها الرصاص ، وسقفه ساجا ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه خمسين ومائة ذراع ، وجعل أبوابه ست أبواب على ما كان على عهد عمر رضى الله عنه : باب عاتكة ، أى المعروف بباب الرحمة ، والباب الذى يليه أى يقرب من محاذاته فى المشرق ، وهو باب النساء ، وباب مروان : أى المعروف بباب السلام ، والباب الذى يقال له باب النبى صلى الله عليه وسلم : أى المعروف بباب جبريل ، وبابين فى مؤخر المسجد .

قلت قوله « وجعل طوله ستين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم من كونه زاد فيه من جهة الشام خمسين ذراعاً ؛ لأنه قد تقدم أن عمر رضى الله عنه جعل طول المسجد أربعين ومائة ذراع ، فلو زاد فيه عثمان خمسين ذراعاً لكان طوله فى زمنه تسعين ومائة ذراع ، على أن الأقرب أن طوله فى زمن عثمان كان ستين ومائة ذراع ، لما سيأتى فى الزيادة بعده . وقوله « وعرضه خمسين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم من كونه لم يزد من جهة المغرب سوى أسطوانة واحدة ، ولم يزد فى جهة المشرق شيئاً ، بل هذه الرواية خطأ ؛ للاتفاق على أن عثمان رضى الله عنه لم يزد من جهة المشرق شيئاً ؛ فيكون نهايته فى زمنه الحجرة الشريفة ، وذَرْعُ المسجد اليوم من جداره الغربى إلى جدار الحجرة الشريفة لا يبلغ خمسين ومائة ذراع ، بل ينقص عن ذلك أكثر من سبعة أذرع ، ثم تبقى زيادة الوليد من جهة المغرب ،

وهى متفق عليها أيضا ؛ فالصواب أنه لم يزد من المغرب سوى أسطوانة ، وأن عرض المسجد فى زمنه نحو مائة وثلاثين ذراعا ، والله أعلم .

وروى يحيى كما فى النسخة التى رواها ابنُه عن أبى الحسن المدائنى أنه قال فى حديث ساقه : إن النبى صلى الله عليه وسلم خط لجعفر بن أبى طالب دارا وهو بأرض الحبشة ، فاشترى عثمان نصفها بمائة ألف ، فزادها فى المسجد .

قلت : تقدم فى زيادة عمر رضى الله عنه نقل مثل ذلك عن فعل عمر رضى الله عنه ؛ فيحتمل أن كلا منهما شرَى نصف ذلك وأدخله مرتبا ، والله أعلم .

وروى ابن زبالة عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : مَدَّ عمر بن الخطاب جدار القبلة إلى الأساطين التى إليها المقصورة اليوم ، ثم زاد عثمان بن عفان حتى بلغ جداره اليوم ، قال : فسمعت أبى يقول : لما احتيج إلى بيت حفصة قالت : فكيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقال لها : نعطيك أوسع من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطاها دار عبيد الله بن عمر ، وكانت مِرْبَدًا[1] .

قلت : وهذه العبارة محتملةٌ لأن القائل « نعطيك إلى آخره » عمر أو عثمان رضى الله عنهما ، ويرجح الثانى أنه أورده فى سياق زيادة عثمان رضى الله عنه ، وأنه روى عقبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن عمر قدم جدار القبلة إلى المقصورة ، ثم قدمه عثمان إلى موضعه اليوم ، وأدخل بقية دار العباس بن عبد المطلب مما يلى القبلة والشام والمغرب ، وأدخل بعض بيوت حفصة بنت عمر مما يلى القبلة ، فقام المسجد على تلك الحال حتى زاد فيه الوليد .

قلت : تقدم فى زيادة عمر رضى الله عنه أن الحافظ ابن حجر نقل عن

---

(١) المربد ــ بزنة منبر ــ الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم ، واشتقاقه من « ربد بالمكان » إذا أقام فيه . و « ربده يربده » إذ احبسه .

ابن شبة أن دار أبى بكر التى أذن له فى إبقاء الخَوْخَة منها إلى المسجد اشترتها حفصة أم المؤمنين ، فلم تزل فى يدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد فى خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسِّعَ بها فى المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك دارا أوسع منها ونجعل لك طريقا مثلها ، فسلمت ورضيت ، والذى ذكره ابن شبة فى علم دور أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سنذكره عنه فى الدور التى كانت حول المسجد من أن حفصة اتخذت دارها التى فى قبلة المسجد لها خَوْخَة فى المسجد ، فورثها عبدُ الله بن عمر ، وذكر ما سيأتى فى أصل هـذه الدار من كونها كانت مِرْبَداً كما سيأتى ، ثم ذكر لحفصة دارا أخرى ، ثم قال : وأخبرنى مخبر قال : كان بيت أبى بكر الذى أذن له النبى صلى الله عليه وسلم فى إبقـاء خَوْخَته بيد عبد الله بن عمر ، وهو البيت الذى على يمينك إذا دخلتَ دار عبد الله من الخوخة التى فى المسجد ، فتلقاك هناك خوخة فى جوف الخوخـة التى هى الطـريق المبوب ، فتلك الخوخة خوخة أبى بكر ، قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبى بكر ، والدار الذى ذكرت فوق هذه الشارعة على باب دار عبـد الله إلى جنب دار هشام ، فباع أبو بكر رضى الله عنه ذلك المسكن وتلك الدار من حفصة بأربعة آلاف درهم ، ونقدها عنها عثمان بن عفان ، وإنما باع ذلك أبو بكر لناسٍ قدموا عليه من بنى تميم فسألوه .

ثم قال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : سمعت أبى يقول : لمـا احتيج إلى بيت حفصة قالت : وكيف طريقى فى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك أوسَعَ من بيتك ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطاها دار عبد الله بن عمر ، وكانت مربَدا ، انتهى . والذى يقتضيه قوله « وأخبرنى مخبر » تضعيف هذه الرواية .

وقد روى فى ذكر دور بنى تَيْم كما قدمناه أن دار أبى بكر المذكورة كانت شارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد ، وقد صدَّر كلامه بأن أصل دار حفصة إنما هو المِرْبَدُ ، وختم كلامه بذلك . وقوله « لما احتيج إلى بيت حفصة » المراد به سكنها ، هو الذى كان شارعا فى المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

وتقدم فى زيادة عمر رضى الله عنه ما رواه يحيى من أن عثمان رضى الله عنه شَرَى دار العباس فزادها فى المسجد إلا ثلاثة عشر ذراعا أو أربعة عشر ذراعا ، فقال الراوى : لا أدرى أكان ابتاع البقية أم لا ، وحملناه على أن المراد بدار العباس ما بقى منها بعد ما زاده عثمان رضى الله عنه ، والظاهر أن تلك البقية هى التى دخلت فى دار مروان . وقد ذكر ابن زبالة ويحيى وابن النجار اتخاذ مروان لداره عقب ذكر زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ فيحتمل أنه اتخذها فى حال زيادة عثمان رضى الله عنه أو بعده ، وهو الظاهر ؛ لأنهم ذكروا أنه اتخذ لها خَوْخَة فى المسجد من جهة القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، فجعل لها بابا عن يمينك حين تدخل ، ثم جعل الباب الثالث الذى على باب المسجد ، كما سيأتى ، والله أعلم .

الفصل الخامس عشر
فى المقصورة التى اتخذها عثمان رضى الله عنه فى المسجد
وما كان من أمرها بعده

روى ابن زبالة وابن شبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن أول من عمل المقصورة بلَبِنٍ عثمان بن عفان ، وأنه كانت فيه كُوًى ينظر الناسُ منها إلى الإمام ، وأن عمر بن عبد العزيز هو الذى جعلها من ساج حين بنى المسجد .

وروى الأول أيضا عن عيسى بن محمد بن السائب ومحمد بن عمرو بن مسلم بن السائب بن خباب وعمر بن عثمان بن عبد الرحمن أن عثمان بن عفان أول من وضع المقصورة من لبن ، واستعمل عليها السائب بن خباب ، وكان رزقه دينارين فى كل شهر ، فتوفى عن ثلاثة رجال : مسلم ، و بكير ، وعبد الرحمن ، فتواسَوْا فى الدينارين ، فجريا فى الديوان على ثلاثة منهم إلى اليوم ، قال ابن زبالة : وقال مالك بن أنس : لما استخلف عثمان بعد مقتل عمر بن الخطاب عمل عثمان مقصورةً من لبن ، فقام يصلى فيها للناس خوفا من الذى أصاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت صغيرة

وروى يحيى هذا كله فى زيادة عثمان رضى الله عنه ، ثم روى فى زيادة الوليد عن عبد الحكيم بن عبد الله بن حنطب قال : أول من أحدث المقصورة فى المسجد مروان بن الحكم ، بناها بالحجارة المنقوشة ، وجعل لها كُوًى ، وكان بعث ساعيا[1] إلى تهامة ، فظلم رجلا يقال له دب ، فجاء دب إلى مروان ، فقام حيث يريد أن يقوم مروان، حتى [إذا] أراد أن يكبر ضربه بسكين فلم يصنع شيئا ، فأخذه مروان فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : بعثت عاملا فأخذ ذودى بمرة[2] ، وتركنى وعيالى لا نجد شيئا ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثك فاقتله ؛ فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان حينا فى السجن ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، فكانت المقصورة .

ورواه ابن شبة بنحوه ، إلا أنه سمى الرجل فى موضع دبا ، وفى آخر ذبابا ، وقال : بعثتَ عاملكَ ، فأخذ منى بقرة ، فتركنى وعيالى لا نجد شيئا ، وأنا امرؤ خبيث النفس ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثه فأقتله فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان فى الحبس حينا ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، وعمل المقصورة .

---

(١) الساعى : الذى يجبى الزكاة .

(٢) الذود — بفتح الدال وسكون الواو — الجماعة من الإبل من ثلاثة إلى عشرة ويقال : من اثنين إلى تسعة ، ومعنى « أخذها بمرة » أنه أخذها كلها .

قلت : وجزم بذلك فى العتبية فيما حكاه ابن رشد فى بيانه ، فقال فى كتاب الصلاة : مسألة قال مالك : أول من جعل المقصورة مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى ، قال : فجعل مقصورة من طين ، وجعل فيها تشبيكا ، انتهى . قال ابن رشد فى شرح ذلك : وَجْهُ قوله هذا الإعلامُ بأن المقصورة مُحْدَثة لم تكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا على عهد الخلفاء بعده ، وإنما أحدثها الأمراء للخوف على أنفسهم ، فاتخاذها فى الجوامع مكروه(١) ، انتهى .

وفى شرح مسلم للنووى أن أول من اتخذ المقصورة فى المسجد معاوية رضى الله عنه حين ضربه الخارجى ، انتهى .

وأفهم كلام ابن زبالة أنها كانت فى زمن عمر بن عبد العزيز مرتفعة عن أرض المسجد ؛ لأنه ذكر فى زيادة المهدى أنه أمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فأوطأها مع المسجد ، وكأن المراغى فهم أن المراد بذلك سقف المقصورة لا أرضها ، فإنه قال فى زيادة المهدى : وخفض سقف المقصورة ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد فأوطأوها مع المسجد ، انتهى .

ورأيت لفظة « سقف » مُلْحَقة بخطه ، والظاهر أن ذلك هو المراد ، وذكر المطرى ما يقتضى أن المهدى جعلها من خشب على الرواق القبلى بأجمعه ، وهو مراد ابن جُبَير بقوله فى رحلته ـ بعد أن ذكر أن فى الجهة القبلية من المسجد خمس بلاطات ـ يعنى أروقة ، قال : والبلاط المتصل بالقبلة من الخمس المذكورة تحويه مقصورة تَكْنُفُه طولا(٢) من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، انتهى .

وقد احترقت هذه المقصورة فى حريق المسجد الأول ، والله أعلم .

---

(١) وجه الكراهة أنها شىء لم يكن فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما هو ظاهر .

(٢) تكنفه : تحيط به .

الفصل السادس عشر

فى زيادة الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز

نقل رزين أن المسجد بعد أن زاد فيه عثمان رضى الله عنه لم يزد فيه على ولا معاوية رضى الله عنهما ، ولا يزيد ولا مروان ، ولا ابنه عبد الملك شيئاً ، حتى كان الوليد بن عبد الملك — وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة — بعث الوليدُ إلى عمر بن عبد العزيز بمال وقال له : مَنْ باعك فأعطه ثمنه ، ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال ، فإن أبى أن يأخذه فاصرفه إلى الفقراء ، انتهى

وقال ابن زبالة : حدثنى عبد العزيز بن محمد عن بعض أهل العلم قال : قدم الوليد بن عبد الملك حاجا ، فبينا هو يخطب الناسَ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حانت منه التفاتة فإذا بحسن بن حسن بن على بن أبى طالب فى بيت فاطمة فى يده مرآة ينظر فيها ، فلما نزل أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فقال : لا أرى هذا قد بقى بعدُ ، أشتر هذه المواضع ، وأدخل بيتَ النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وأسدده .

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد العزيز بن محمد بنحوه .

وروى أيضاً عن موسى بن جعفر بن أبى كثير قال : بينما الوليد يخطب على المنبر إذ انكشفت الكلة[1] عن بيت فاطمة عليها السلام ، وإذا حسن بن حسن يُسَرِّح لحيته، وهو يخطب على المنبر ، فلما نزل أمر بهدم بيت فاطمة رضى الله عنها

قال يحيى : وحدثنى عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على رضى الله عنهما مثله ، وزاد فيه أن حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين أبَوْا أن يخرجوا منه ، فأرسل إليهم الوليد بن عبد الملك : إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم، فأبوا أن يخرجوا ، فأمر بهدمه عليهم وهما فيه وولدهما ، فنزع أساس البيت وهم فيه ،

(١) الكلة — بكسر الكاف وتشديد اللام — ستر مربع يخاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض ونحوه .

فلما نزع أساس البيت قالوا لهم : إن لم تخرجوا قوّضناه[1] عليكم ، فخرجوا منه حتى أتوا دار على نهارا .

وروى ابن زبالة عن منصور مولى الحسن بن على قال : كان الوليد بن عبد الملك يبعث كل عام رجلا إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها ، قال : فأتاه فى عام من ذلك ، فسأله ، فقال : لقد رأيت أمرا لا والله ما لك معه سلطان ولا رأيت مثله قط ، قال : وما هو ؟ قال : كنت فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا منزل عليه كلّة ؛ فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ، ثم أرخيت الكلة ، وأُتىَ بالغداء فتغدى هو وأصحابه ، فلما أقيمت الصلاة فَعَلَ مثل ذلك ، وإذا هو يأخذ المرآة والكحل وأنا أنظر ، فسألت ، فقيل : إن هذا حسن بن حسن ، قال : ويحك ! فما أصنع هو بيته وبيت أمه ، فما الحيلة فى ذلك ؟ قال : تزيد فى المسجد وتدخل هذا البيت فيه ، قال : فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة فى المسجد ويشترى هذا المنزل ، قال : فعرض عليهم أن يبتاع منهم فأبوا ، وقال حسن : والله لا نأكل له ثمنا أبدا ، قال : وأعطاهم به سبعة آلاف دينار أو ثمانية ، فأبوا ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك فى ذلك ، فأمره بهدمه وإدخاله ، وطرح الثمن فى بيت المال ، ففعل ، وانتقلت منه فاطمة بنت حسين بن علىّ إلى موضع دارها بالحرّة فابتنتها .

قلت : وسيأتى بقية هذا الخبر فى ذكر بئرها ، إن شاء الله تعالى .

قال ابن زَبالة : وحدثنى غير واحد من أهل العلم منهم : إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه عن عبد الرحمن بن حميد ، ومحمد بن إسماعيل عن محمد بن عمار عن جده ، ومحمد بن عبد الله عن عبيد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمر بن حفص وعبد العزيز بن محمد عن عبيد الله بن عمر بن حفص ، وسليمان بن محمد بن أبى سبرة

---

(١) قوضناه : هدمناه ، وأصله تقويض الخيام ، وهو نقضها وإزالتها عن مكانها إلى مكان آخر .

ومحمد بن طلحة عن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان ، و بعضهم يزيد على بعض ، أن عمر بن عبد العزيز لما جاءه كتاب الوليد بهدم المسجد والزيادة فيه بعث إلى رجال من آل عمر ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أبتاع بيت حفصة ، وكان عن يمين الخوْخة : أى خوخة آل عمر ، وكان بينه و بين منزل عائشة الذى فيه قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق ، وكانتا يتهاديان [1] الكلام وهما فى منزليهما من قرب ما بينهما ، فلما دعاهم قال : إن أمير المؤمنين قد أمرنى أن أبتاع هذا المنزل وأدخله فى المسجد ، قالوا : ما نبيعه بشىء ، قال : إذاً أدخله فى المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإنا لا نقطعها ، فهدم البيت وأعطاهم الطريق ووسّعها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان ، وكانت قبل ذلك ضيقة قدر ما يمر الرجل منحرفا .

قال عبد العزيز بن محمد : فكنت أسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أخرجنى الله من الدنيا حتى أراها قد سدت ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يلقى الصور الصور .

قلت : وسنورد بقية هذا الخبر .

وروى يحيى فى قصة هذه الدار عن مالك بن أنس فى جملة خبر أن الحجاج قال لعبيد الله بن عبد الله بن عمر : يعنى منزلَ حفصة ، قال : لا والله ما كنت لآخذ لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنا أبدا ، قال : إذا والله أهدمه ، قال : والله لا تهدمه إلا على ظهرى ، فأمر الحجاج صائحا صاح فى الناس بالعتل والمساحى والفوس [2] ، فقام عبد الله فدخل بيت حفصة ، وجاء الغوغاء بالعتل والفوس ، فأمرهم الحجاج بهدمه ، فصعدوا ليهدموه وعبيدُ الله فيه ، فجاءت بنو عدى إلى عبيد الله فقالوا له : ما أضعفك ! هو يتأسف على قتل أبيك و يَزَعُ عن قتلك [3] ، فأخرجوه ، فهدمه الحجاج ، وكتب إلى الوليد يعلمه ما صنع ، وامتناع عبيد الله

(١) انظر هذه العبارة فى ص ٥٤٣ .

(٢) العتل : جمع عتلة — بالتحريك — وهو عمود من حديد تهدم به الأبنية ، والمساحى : جمع مسحاة ، والفوس : جمع فأس ، وأصله فؤوس ، فلما سهل الهمزة اجتمع واوان فحذف إحداها .

(٣) فى الخلاصة « ويزع عن قتلك »

من الثمن ، فكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره يعرض على عبيد الله الثمن ، فإن أبى جعل له مكرمة بداله فى المسجد ، فجعل له عمر الخَوْخة التى فى قبلة المسجد التى إلى دار حفصة اليوم ، وهو يقتضى أن الذى هدم دار حفصة هو الحجاج .

وعن جعفر بن وردان عن أبيه قال : لما استعمل الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة أمره بالزيادة فى المسجد و بنيانه واشتراء ما حوله من المشرق والمغرب والشام ، فلما خلص إلى القبلة قال له عبيد الله بن عبد الله بن عمر : لست أبيع هذا ، هو من حق حفصة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يسكنها ، فقال له عمر : ما أنا بتارككم أو أدخلها المسجد ، فلما كثر الكلام بينهما قال له عمر : أجعل لكم فى المسجد باباً تدخلون منه ،وأعطيكم دار الدقيق[1] مكان هذا الطريق ، وما بقى من الدار فهو لكم ، ففعلوا ، وأخرج بابهم فى المسجد وهو الخَوْخة التى فى المسجد تخرج فى دار حفصة بنت عمر، وأعطاهم دار الدقيق[1]، وقدّم الجدار فى موضعه اليوم ، وزاد فى المشرق ما بين الأسطوان المربعة إلى جدار المسجد اليوم ، ومعه عشرة أساطين من مربعة القبر إلى الرحبة إلى الشام ، ومده فى المغرب أسطوانين ، وأدخل فيه حُجُرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وأدخل فيه دور عبد الرحمن بن عوف الثلاث التى كان يقال لها القرائن اللاتى يقول فيهن أبو قطيفة بن الوليد بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا بَقيعُ المصلّى أو كعهدى القرائنُ

وقد سمعنا من يقول: القرائن كانت جنابذ[2] ثلاثا لعبد الرحمن بن عوف، انتهى

قلت : وأخبار المؤرخين متطابقة على أن حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم أدخلت فى المسجد بأمر الوليد ، وقد قدمنا فى الفصل التاسع قول عطاء الخراسانى : أدركت حُجُرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المُسُوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ يأمر بإدخال حُجَر

(١) فى المطبوعات « دار الرقيق » بالراء .

(٢) جنابذ : جمع جنبذة — بضم كل من الجيم والباء وبينهما نون ساكنة — وهى القبة ، وفى الحديث فى صفة الجنة « فيها جنابذ من لؤلؤ » .

أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت يوما كان أكثر باكيا من ذلك اليوم، قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، لكن نقل الزين المراغى عن السهيلى أنه نقَل أن الحجر والبيوت خلطت بالمسجد فى زمن عبد الملك بن مروان ، قال : ويرده تصريح رزين وغيره بضد ذلك .

قلت : ولعل مراد مَنْ نسب ذلك إلى عبد الملك أنه جعلها للمسلمين يصلون فيها لضيق المسجد من غير هدم لها ، وقد كان الناس يصلون فيها قبل إدخالها فى المسجد فى يوم الجمعة ، فقد نقل مالك رحمه الله عن الثقة عنده أن الناس كانوا يدخلون حُجَرَ أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يصلون فيها يوم الجمعة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان المسجد يضيق عن أهله ، قال : وحُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولكن أبوابها شارعة فى المسجد ، انتهى .

وأما بقية خبر ابن زبالة المتقدم فقد قال عقب ذلك : ثم سام[1] عمر بن عبد العزيز بنى عبد الرحمن بن عوف بدارهم ، فأبوا ، فهدمها عليهم وأدخلها فى المسجد ، قال عبد الرحمن بن حميد : فذهب لنا متاع فى هدمهم ، وأدخَلَ حجرات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم مما يلى المشرق ومن الشام ، وأدخل القرائن دور عبد الرحمن بن عوف ، وأدخل دار عبد الله بن مسعود التى يقال لها دار القراء ، وأبيات هاشم بن عُتبة بن أبى وَقَّاص ، وأدخل فيه من المغرب دارا كانت لطلحة بن عبيد الله ، ودارا كانت لأبى سبرة بن أبى رُهم كانت فى موضع المربعة التى فى غربى المسجد ، وداراً لعمار بن ياسر كانت إلى جنب دار أبى سبرة ، وبعض دار العباس بن عبد المطلب ، فأعلم ما دخل منها فى المسجد ، فجعل منابر سَوَاريها التى تلى السقف أعظم من غيرها من سوارى المسجد ، وأدخل دارا كانت لمخارق مولى العباس ابن عبد المطلب .

---

(١) سام : أصل المساومة المجاذبة على السلعة بين البائع والمشترى ، وتقول : سامه يسومه ، وساومه ، واستام السلعة .

قلت: قوله «وأدخل إلى آخره» وإن كان مبنيا لما لم يسم فاعله، لكن إيراده هنا يقتضى أن ذلك كله فى زيادة الوليد المذكورة، وفيه نظر؛ لما تقدم من أن عثمان رضى الله عنه زاد فى المسجد أسطوانا بعد المربعة، فيكون زيادة الوليد بعد ذلك فى جهة المغرب، فلا يصح إدخاله لدار أبى سبرة؛ لقوله إنها كانت فى موضع المربعة، إلا أن يريد بالمربعة هنا الأسطوانة التى عن يمينك إذا دخلت من الباب الذى يلى دار مروان، وهو باب السلام، وهى الثانية من الباب المذكور، فإنها أول زيادة الوليد؛ لقوله فى رواية يحيى المتقدمة «ومدّه فى المغرب أسطوانين» لكن قال ابن شبة نقلا عن ابن أبى يحيى: إنه كانت لأبى سبرة بن أبى رُهم دار موضعها عند الأسطوان المربعة التى فى المسجد اليمانية الغربية، وكانت جديدة، وكانت هناك دار لعمار بن ياسر، فأدخلتا فى المسجد، انتهى. وهو ظاهر فى أن المراد بالمربعة الأسطوان المثمَّنَة اليوم التى قدمنا وصفها فى زيادة عثمان رضى الله عنه، وقوله «وبعض دار العباس بن عبد المطلب» ظاهر أيضاً فى أن الوليد أدخل من دار العباس شيئاً، ولعله مما كان بقى منها وأدخله مروان فى داره، فيستفاد منه أن الوليد أدخل بعض دار مروان وهو ظاهر؛ لما قدمناه من أن دار مروان كانت ملاصقة للمسجد فى جهة المغرب ولها خَوْخَة فيه، ولا شك أنه اتخذها قبل زيادة الوليد، فإن وفاة مروان كانت فى سنة خمس وستين بعد أن أقام فى الخلافة عشرة أشهر.

ولنرجع إلى تكميل خبر ابن زبالة المتقدم، قال: قالوا: وكتب الوليد بن عبد الملك إلى ملك الروم «إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم، فأعنّا فيه بعمال وفُسَيْفساء[1]»، قالوا: فبعث إليه بأحمال من فسيفساء وبضعة وعشرين عاملا، وقال بعضهم: بعشرة عمال، وقال: قد بعثت إليك بعشرة يعدلون مائة، وبثمانين ألف دينار عَوْناً له.

(١) الفسيفاء: قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره يؤلف بعضها إلى بعض ثم تركب فى حيطان البيوت من داخل، ويقال: هذه الكلمة رومية وليست بعربية

قلت : روى ذلك يحيى أيضاً ، وذكر فى رواية أخرى عن قدامة بن موسى أن ملك الروم بعث إليه بأربعين ، يعنى عاملا من الروم ، وبأربعين من القبط ، وبأربعين ألف مثقال ذهب . وفى رواية لرزين : فبعث إليه ثلاثين عاملا ، وأربعين من الروم ، ومثلهم من القبط ، وبثمانين ألف مثقال ، وبأحمال من الفُسَيْفساء ، وبأحمال من سلاسل القناديل ، انتهى .

ولنرجع إلى تكميل خبر ابن زبالة له أيضاً ، قال عقب ما تقدم : وبعث بهذه السلاسل التى فيها القناديل ، قالوا : وهدمه عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وتسعين – أى بتقديم التاء الفوقية على السين — وبناه بالحجارة المنقوشة المطابقة وقَصَّة[1] بطن نخل ، وعمله بالفسيفساء والمرمر ، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب ، وهدم حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فأدخلها فى المسجد ، ونقل لَبِنَ المسجد ولبن الحجرات فبنى به داره التى بالحرة فهو فيها اليوم له بياض على اللبن ، قال : فبينما أولئك العمال يعملون فى المسجد إذ خلا لهم المسجد فقال بعض أولئك العمال من الروم : ألا أبول على قبر نبيهم ، فتهيأ لذلك فنهاه أصحابه ، فلما هَمَّ أن يفعل اقتلع فألقى على رأسه ، فانتثر دماغه ، فأسلم بعض أولئك النصارى ، وعمل أحد أولئك الروم على رأس خمس طاقات فى جدار القبلة فى صحن المسجد صورة خنزير ، فظهر عليه عمر بن عبد العزيز فأمر به فضربت عنقه ، وقال بعض أولئك العمال الذين عملوا الفسيفساء : إنا عملناه على ما وجدنا من صور شجر الجنة وقصورها ، انتهى خبر ابن زبالة .

وفى خبر يحيى المتقدم عن قدامة بن موسى أن عمر بن عبد العزيز أخمر النورة التى تعمل بها الفسيفساء سنة ، وحملوا القَصَّة[1] من بطن نخل منخولة ، وعمل الأساس بالحجارة والجدار بالحجارة المطابقة والقَصَّة[1] ، وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص ، وكان طوله مائتى ذراع وعرضه فى مقدمته مائتين وفى

---

(١) القصة – بفتح القاف وتشديد الصاد – الجص .

مؤخرهِ ثمانين ومائة ، وهو من قبل كان مقدمه أعرض ، انتهى .

وما ذكره فى ذَرْع عرض المسجد غيرُ صحيح ؛ لما سيأتى عن ابن زبالة فى الفصل الحادى والثلاثين أنه ذكر فى موضع آخر أن عرض المسجد من مقدمه فى زمنه مائة وخمسة وستون ذراعا ، وعرضه من مؤخره مائة وثلاثون ذراعا ، وسيأتى أيضاً أن الذى حررناه أن عرضه اليوم من مقدمه فى جهة القبلة مائة ذراع وسبعة وستون ذراعا ونصف ، وأن عرضه من مؤخره فى جهة الشام مائة وخمسة وثلاثون ذراعا ، ولا شك أن المسجد لم ينقص من عرضه شىء ، فهذا الذَّرْع المذكور فى هـذه الرواية غير صحيح ، وقد نقله ابن النجار عن أهل السير ، وتعقبه المطرى بنحو ما ذكرناه .

وروى ابن زبالة عن محمد بن عمار عن جده قال : لما صار عمر بن عبد العزيز إلى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالى فقال لهم : تعالوا احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غير عمر قبلتنا ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً ، فكانت زيادة الوليد بن عبد الملك من المشرق إلى المغرب ستة أساطين ، وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر أربع عشر أسطواناً منها عشر فى الرحبة وأربع فى السقايف الأولى التى كانت قبل ، وزاد من الأسطوان التى دون المربعة إلى المشرق أربع أساطين فى السقايف ، فدخل بيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وبقى ثلاث أساطين فى السقايف .

قلت : فاستفدنا من ذلك أن الستة أساطين [1] التى زادها فى المشرق والمغرب ليس منها فى جهة المغرب سوى اثنتين ، وأن أربعة منها فى جهة المشرق ؛ فيكون ابتداء زيادته فى المشرق من الأسطوان اللاصق اليوم بالشباك الدائر حول

(١) الستة أساطين : هذا التعبير خطأ فى العربية ، لا يقول بصحته بصرى ولا كوفى ، والبصريون يوجبون أن يقال «ست الأساطين» والكوفيون يجيزون هذا الذى أوجبه البصريون ، ويجيزون وجها آخر وهو «الست الأساطين» بإدخال لام التعريف على العدد وعلى المعدود جميعا ، والعدد يقع فى هذا الكتاب مضطربا .

الحجرة الشريفة على ما قدمناه فى تحديد المسجد النبوى ، وذلك هو المراد بقوله « من الأسطوان التى دون المربعة إلى المشرق » وقوله « وبقى ثلاث أساطين » أى من الأربعة المذكورة « فى السقايف » أى المسقف الشرقى كما هو اليوم ، لكن فى رواية يحيى المتقدمة أنه زاد فى المشرق ما بين الأسطوان المربعة أى مربعة القبر إلى جدار المسجد يعنى الشرقى ؛ فعلى هذا يكون له فى المشرق ثلاثة أساطين فقط ؛ فيحتمل أن يكون له فى المغرب ثلاث أيضاً ، وقوله «وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر ـ إلى آخره» معناه أنه لما أحدث المسقف الشرقى جعل ابتداءه مما يلى رحبة المسجد مربعة القبر ، وجعل فى صفها إلى جهة الشام أربع عشر أسطواناً منها عشر فى الرحبة وأربع فى السقايف التى كانت قبل : أى فى المسقف الشامى ، فيكون قد صيّر المسقف الشامى رحبة ، وجعل المسقف الشامى بعد أربع عشر أسطوانا ، فهذا معنى زيادته لهذا العدد .

ويستفاد منه أن جدار المسجد من جهة الشام فى زمنه كان بعد ثمان عشرة أسطوانة ، من مربعة القبر ؛ لأنك إذا ضممت أربع أساطين للسقايف التى أحدثها بدل الأولى إلى الأربع عشرة المذكورة بلغ ذلك ، فيكون محل الجدار المذكور قريباً مما يوازى الأسطوان التى قبل المسقف الشامى بأسطوان فيما يليه من الرحبة ، وذلك موافق لما تقدم من أنه جعل طوله ـ يعنى من القبلة إلى الشام ـ مائتى ذراع ، فيتحرر من ذلك أن زيادته من جهة الشام على ما ذكر من الذّرْع فى زمن عثمان رضى الله عنه أربعون ذراعا ، ويحتمل أن يكون معنى قوله « وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر أربع عشرة أسطوانة » أن المسجد ينتهى فى جهة الشام فى زمنه بعد أربع عشرة أسطوانا من المربعة إلى جهة الشام ؛ فيكون الجدار الشامى فى موازاة الأسطوانة الخامسة من طرف الدكاك التى هى المسقف الشامى ، وهناك أسطوان فى الصف الأوسط من المسقف الشرقى مربع أسفله قدر الجلسة ؛ فعلى هذا يكون علامة لذلك ، لكنه مخالف لما تقدم من أنه جعل طوله مائتى ذراع ، بل يكون طوله على هذا التقدير نحو مائة وستين ذراعا ، وذلك هو

ما تقدم فى طوله زمن عثمان رضى الله عنه ، فيكون هذا الاحتمال مردوداً ، ولـكن سيأتى فى زيادة المهدى ما يقتضيه ، والله أعلم .

وروى يحيى عن محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عمن يثق به من مشايخ البلد أن عمر بن عبد العزيز أمر حين بنى المسجد بأسفل الأساطين فجعل قدر سترة اثنين يصليان إليها وقدر مجلس اثنين يتساندان إليها .

وعن صالح بن كيسان قال : لما جاء كتاب الوليد من دمشق لهدم المسجد سار خمس عشرة ، فجرد فى ذلك عمر بن عبد العزيز ، قال صالح : واستعملنى على هدمه و بنائه ، فهدمناه بعمال المدينة ، فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، حتى قدم علينا الفَعَلة الذين بعث بهم الوليد ، وقال ابن زبالة فيما رواه عن محمد ابن عمار عن جده : وكان فى موضع الجنائز ـ أى شرقى المسجد فى زمان الوليد أبن عبد الملك ـ نخلتان إذا أتى بالموتى وضعوا عندهما فيصلى عليهم ، فأراد عمر بن عبد العزيز قطعهما حين ولى عمل المسجد للوليد بن عبد الملك ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين ،فاقتتلت فيهما بنو النجار من الأنصار ،فابتاعهما عمر بن عبدالعزيز فقطعهما.

قلت : ولا ينافى ذلك ما تقدم من أن عمر هـدم المسجد فى سنة إحدى وتسعين ؛ لجواز أن يكون ولايته لذلك سنة ثمان وثمانين ، واستمر فى تحصيل الأهبة وشراء الأماكن وتخمير النورة[1] إلى سنة إحدى وتسعين .

وفيما رواه يحيى عن حفص بن مروان عن أبيـه أن عمر مكث فى بنـائه ثلاث سنين .

قلت : فعلى هذا يكون قد فَرَغَ منه فى آخر سنة ثلاث وتسعين ، وهى السنة التى عُزل فيها عمر عن المدينة ، وفيه رد لقول من زعم أن هدمه كان فى سنة ثلاث

---

(١) النورة : من الحجر الذى يحرق ويسوى منه الـكلس ، وقيل : إن هذه الـكلمة ليست عربية فى الأصل ، واشتقاقها يشبه اشتقاق العربى ، يقـال : انتور الرجل ، وانتار ، إذا تطلى بالنورة .

وتسعين ، لكن فى رواية لابن زبالة مايقتضى أن البداءة فى هدم المسجد وعمارته كانت فى سنة ثمان وثمانين ؛ فإنه قال فيها : وابتدأ عمر بن عبد العزيز بناء المسجد سنة ثمان وثمانين ، وفرغ سنة إحدى وتسعين ، وفيها حج الوليد .

قال : ولما فرغ عمر بن عبد العزيز من بنيان المسجد أرسل إلى أبان بن عثمان، فحمل فى كساء خز حتى انتهى به إليه ، فقال: أين هذا البناء من بنيانكم ؟ فقال : بنيناه بناء المساجد و بنيتموه بناء الكنائس ، قال : وقال الوليد حين رأى خَوْخَة آل عمر : صانعتهم لمكان الخوخة ، هكذا فى النسخة التى وقعت لنا ، ولعلها لمكان الخؤلة ؛ لأن المطرى قال : إن الوليد قال له : صانعت أخوالك ، وقد كانت أم عمر بن عبد العزيز منهم .

وروى يحيى عن جعفر بن وردان عن أبيه ما يقتضى أن المخاطِبَ لأبَانَ بن عثمان هو الوليد ؛ فإنه قال : فلما قدم الوليد حاجا جعل يطوف فى المسجد و ينظر إليه و يصيح بعمر : ها هنا ، ومعه أبان بن عثمان ، فلما استنفد الوليدُ النظرَ إلى المسجد التفت إلى أبان وقال : أين بناؤنا من بنائكم ؟ قال أبان : إنا بنيناه بناء المساجد و بنيتموه بناء الكنائس .

قلت:وكان قد اعتنى عمر بتحسينه ؛فقد روى يحيى عن النضر بن أنس قال: كان عمر بن عبدالعزيز إذا عمل العاملُ الشجرة الكبيرة من الفُسَيْفِساء فأحسن عملها نَفَّله[١] عمر ثلاثين درهما ، وذكر هو وابن زبالة ما كان فيه من الكتابات داخله وخارجه وعلى أبوابه فتركناه لزواله .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه قال : ولما قدم الوليد ابن عبد الملك المدينة حاجا بعد فراغ عمر بن عبد العزيز من المسجد جعل يطوف فى المسجد و ينظر إلى بنيانه ، فقال لعمر بن عبد العزيز حين رأى سقف المقصورة :

---

(١) نفله : أراد أعطاه زيادة عن أجره ، وأصله النفل ـ بالتحريك ـ وهو العطاء ، واستعمل فى الشرع لما يعطيه الإمام للمقاتلين من الغنائم .

ألا عملت السقف كله مثل هذا ، قال : إذاً يا أمير المؤمنين تعظم النفقة جداً ، قال : وإن ، قال : وكان نفقته فى ذلك أربعين ألف دينار .

وروى ابن النجار هذا الخبر عن أهل السير بهذا اللفظ ، إلا أنه قال: فقال: يا أمير المؤمنين إذاً تعظم النفقة جداً ، قال : وإنْ ، قال : أتدرى كم أنفقت على عمل جدار القبلة وما بين السقفين ؟ قال : وكم ، قال : خمسة وأربعون ألف دينار ، وقال بعضهم : أربعون ألف دينار ، قال : والله لكأنك أنفقتها من مالك ، وقيل : كانت النفقة فى ذلك أربعين ألف مثقال ، انتهى .

وذكر يحيى رواية ابن زبالة المتقدمة من غير طريقه ، وقال عقب قوله : « وكانت النفقة فى ذلك أربعين ألف دينار » قال : ثم انتهى إلى القبر فقال ابنُ الوليد لعمر بن عبد العزيز : من هذا فى القبر ؟ قال : رسول الله وأبو بكر وعمر ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : دفن فى حال تشاغل من الناس وقد أسىء أدبك[1] .

وروى ذلك ابن زبالة أيضاً ، وزاد فقال : وسمعت بعض أهل العلم يقول : السائلُ بكار بن عبد الملك ، وكان ضعيفاً .

وقال ابن شبة : حدثنا أيوب بن عمر بن أبى عمرو ، قال : أخبرنى موسى ابن عبد العزيز قال : قال عمر بن عبد العزيز لى : أتكأ الوليدُ على يدى حين قدم المدينة ، فجعل يطوف المسجد ينظر إلى بنائه ، ثم أتى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فوقف عليه ، ثم أقبل علىَّ فقال : أمعه أبو بكر وعمر ؟ قلت : نعم ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فالله أعلم إنى لظننت أنه لا يبرح حتى يخرجهما ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن الناس كانوا حين قُتل عثمان فى فتنة وشغل فذلك الذى منعهم من أن يدفنوه معهم ، فسكت .

وروى يحيى أنه جعل المقصورة من ساج ، قال : وكانت قبلُ من حجارة ، وأن الواقدى قال : حدثنى عبدالله بن يزيد قال : كان عمل القبط مقدم المسجد،

---

(١) كذا ، والعبارة ليست على ما ينبغى.

وكانت الروم تعمل ما خرج من السقف جوانبه ومؤخره ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول : عمل هؤلاء أحكم ، يعني القبط .

الفصل السابع عشر

فيما اتخذه عمر في المسجد في زيادة الوليد من المحراب والشُّرُفَات والمنائر ، واتخاذ الحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه

أول من أحدث المحراب والشرفات

أسند يحيي عن عبد المهيمن بن عباس عن أبيه قال : مات عثمان وليس في المسجد شُرُفات ولا محراب ، فأول مَنْ أحدث المحراب والشرفات عمر بن عبد العزيز ، وعن القاسم وسالم أنهما نَظَرَا إلى شرفات المسجد فقالا : إنها من زينة المسجد ، وأسند أيضاً من طريق ابن زبالة ورأيته فيه أن عمر بن عبدالعزيز هو الذى عمل الرصاص على طنف[1] المسجد والميازيب التي من الرصاص ، فلم يبق من الميازيب التي عمل عمر بن عبدالعزيز غير ميزابين : أحدهما في موضع الجنائز ، والآخر على الباب الذى يدخل منه أهل السوق الذى يقال له باب عاتكة ، ولم يكن للمسجد شُرُفات حتى عملها عبد الواحد بن عبد الله النصرى ، وهو والٍ على المدينة ، سنة أربع ومائة ، انتهى .

فهذا يقتضى أن عمر بن عبد العزيز لم يحدث الشرفات في زيادة الوليد ، بل ولا في زمن خلافته بعده ؛ لأن وفاته كانت في رجب سنة إحدى ومائة .

وفى سنن البيهقى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ابنوا المساجد واتخذوها جماء » وعن ابن عمر : نهانا ـ أو نُهينَا ـ أن نصلى في مسجد مشرف .

قال أبو عبيد : الجم التي لا شرف لها ، حكاه في شرح المهذب .

قال الزين المراغى : وليس للمسجد شرفات منذ حريقه ، وقد جددت له

(١) طنف ـ بوزن قفل أو عنق أو جبل أو فلس ـ ما نتأ من الجبل ، وإفريز الحائط ، وما أشرف خارجا عن البناء ، والسقيفة تشرع فوق باب الدار .

شرفات سنة سبع وستين وسبعمائة فى أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد صاحب مصر ، انتهى .

شرفات المسجد

والمراد بالشرفات المذكورة ما على ما أحاط بجدرات صحن[1] المسجد من جوانبه الأربعة ، و بينها فرج شبه طاقات الشباك ، وهى المرادة فيما حكاه البدر بن فرحون عن القاضى فخر الدين بن مسكين الفقيه الشافعى أنه كان يجلس فى مُصَلاه حتى تطلع الشمس فيصلى الضحى ، وأنه رأى الناس يرتقبون بصلاتهم الشيخَ أبا عبد الله بن فرحون ولد البدر ، قال : وكان يقوم إذا وصلت الشمس فى الحائط الغربى إلى تحت الشبابيك الصغار ، قال : فاجتمعت به ، وكنت به جاهلا ، فقلت له : رأيتك تقوم للضحى قبل وقتها ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنها حتى ترتفع الشمس وتبيضّ ، فالتفت إلى وقال : بعد اليوم نؤخر كما قلت ، وسكت عنى .

قلت : و إنما ذكرت ذلك لأن كثيرا من الناس اليوم يشرعون فى الصلاة عند وقوع الشمس على رؤس الشراريف ، وذلك قبل ارتفاع الشمس كرمح ، والله أعلم

المنارات التى عملها عمر بن عبد العزيز

وروى ابن زبالة و يحيى من طريقه عن محمد بن عمار عن جده ، قال : جعل عمر بن عبد العزيز لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بناه أربَعَ منارات فى كل زاوية منه منارة .

قال كثير بن حفص : وكانت المنارة الرابعة مُطِلة على دار مروان ، فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن ، فأطلّ عليه ، فأمر سليمان بتلك المنارة فهدمت إلى ظهر المسجد ، و بابها على باب المسجد ، وفى نسخة يحيى « و بابها على المسجد مما يلى دار مروان من قبل المسجد »

قلت : فكان المسجد بعد ذلك له ثلاث منارات فقط ، وهو المراد من قول

---

(١) كذا ، ولعل أصله « بجدران صحن المسجد » فإن ثبتت الكلمة على ما فى الأصل فهى جمع جدر الذى هو جمع جدار .

ابن زبالة فى موضع آخر : ولمسجد النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث منارات طول كل منارة ستون ذراعا ، وقال فى موضع آخر : وطول المنارة الشرقية اليمانية فى السماء خمس وخمسون ذراعا ، والمنارة الشرقية الشامية خمس وخمسون ، والمنارة الغربية الشامية ثلاث وخمسون ، وعرض المنارات ثمانُ أذرع فى ثمانِ أذرع ، اه .

وذكر ابن جبير فى رحلته ما يقتضى أن المنارتين الشاميتين كانتا صغيرتين ، بخلاف الشرقية اليمانية ، فإنه قال : وللمسجد المبارك ثلاث صوامع إحداها فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنتان فى ركنى الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة بُرْجَين ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع

قلت : فكأن الشاميتين غيرتا بعد ابن جبير؛ فإنهما اليوم على هيئة الشرقية اليمانية المعروفة اليوم بالرئيسيّة؛لاختصاص الرئيس بها ، وكان طول المنارة الرئيسيّة فى زماننا أولا من رأس هلالها إلى أسفلها خارج المسجد بالبلاط سبعة وسبعين ذراعا ، بتقديم السين ، ثم سقط منها نحو ثلثها بسبب الصاعقة التى نشأ عنها حريق المسجد الثانى كما سيأتى ، فاقتضى الحالُ هدمَ جميعها ، ثم أعيدت فكان طولها اليوم أزيد من مائة ذراع ، فصارت أطول المنارات ، ثم ظهر منها خلل بعدُ،فبعث السلطان الأشرف الشجاعى شاهينَ الجمالىَّ وأمره بهدمها،فهدمها غير محكم، فحفر أساسها إلى الماء ، وأعادها متقنة جدا فى عرض جدارها الشرقى من موضع الجنائز شرقى المسجد ، وزاد فى ارتفاعها أيضا حتى بلغ زيادة عن مائة وعشرين ذراعا ، وطول المنارة الشرقية الشامية وهى المعروفة بالسنجارية تسعة — بتقديم التاء على السين — وسبعون ذراعا ، وطول الشامية الغربية المعروفة بالخشبية اثنان وسبعون ذراعا — بتقديم السين فيهما — كل ذلك من أعلى الهلال إلى الأرض الخارجة عن المسجد ، و به يعلم أن المنارات التى كانت فى زمن ابن زبالة ليست هى الموجودة اليوم .

قال المطرى : ولم يزل المسجد على ثلاث منارات إلى أن جددت المنارة

الرابعة ، وذكر فى موضع آخر تجديدها ، فقال بعد ذكر خَوْخة مروان المتقدم ذكرها فى ركن المسجد الغربى : إنه شاهد الخوخة المذكورة عند بناء المنارة الكبيرة المتجددة فى سنه ست وسبعمائة ، أمر بإنشائها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون

قال المطرى : وكان باب الخَوْخة عليها ، وهو من ساج ، فلم يَبْلَ إلى هذ التاريخ ، كان مروان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت ـ يعنى الخَوْخة ـ بحائط المنارة الغربى ، اه

قلت : وقد ذكر البدر بن فرحون بناء هذه المنارة فإنه أدرك ذلك ، وذكر أنه لم يوجد عند الحفر أثر لما ذكر من وجود منارة قبلها ، فقال ما ملخصه : إنه لما حج سِلاّر وبيبرس كلمهما شيخ الخدام شبل الدولة كافور المظفرى المعروف بالحريرى فى بناء المنارة التى بباب السلام اليوم ، فأنعما[1] ، ثم خشى أنهما يشتغلان عن ذلك ويستثقلان النفقة ، فقال : أنا لا أطلب منكم مالا ، عندى من قناديل الذهب والفضة مايقوم بها وزيادة ، فأنعما[1] له بإرسال الصناع ، وأمر بالحفر لها فى مكانها اليوم ، فلم ينزلوا إلا قليلا إذ وجدوا باب مروان بن الحكم أسفل من أرض المسجد بقدر قامة ، ثم وجدوا تحصيب المسجد فى أيام مروان بالرمل الأسود يشبه أن يكون من جبل سَلْع ، ثم نزلوا فى الأساس حتى بلغوا الماء ، ثم أمر الحريرى مَنْ كان بالمدينة يتعانى البناية كالشيخ إبراهيم البنا والشيخ على الفراش الحجار وغيرهما ممن ليس له فى البناية كبير قدم ، فدكوا الأساس ، فلما حضر الصناع فى الموسم قال مقدمهم للشيخ : لا تبنى حتى تنقض ذلك ، فإنا لا نأمن عاقبته ، فامتنع الشيخ ، فرجع إلى مصر من حينه ، فقال الشيخ لمن كان معه من المعلمين : اعملوا أنتم ، فعملوها على ما هى عليه اليوم ، وعَمَّ نفعها ؛ لأنها متوسطة المدينة حتى إن رئيس المؤذنين محمد بن إبراهيم قال لى : لو تركت لى هـــذه المأذنة لـكفيت

(١) أنعما : المراد أنهما استجابا له ، يقـال : « أحسنت إلى وأنعمت » أى زدت على الإحسان ، ويقال : معنى أنعم دخل فى النعيم ، كما يقال : « أشمل » أى دخل فى الشمال .

المدينة ، وهو حق ؛ فإن امتداد المدينة وقوة عمارتهـا من جهة المغرب ، يعنى فى محاذاة المنارة المذكورة .

قال : وكان بعض المؤرخين يذكر أنه كان هناك مأذنة مُشْرِفة[1] على دار مروان ، فهدمها غَيْرة على أهله من مؤذنيها ، فلم يوجد لذلك صحة ولا أثر البتة ، انتهى ما ذكره ابن فرحون .

قلت : وجواب ما ذكره أخيراً أن تلك المنارة تحتمل أن تكون على باب المسجد وسطحه مما يلى دار مروان ، وليس لها فى الأرض أساس ، ويدل على ذلك قوله فى الرواية المتقدمة : وبابها على المسجد ، أو على باب المسجد ؛ فلا يلزم من عدم وجود أثرها عند الحفر عدم وجودها أصلا ورأساً فى تلك الجهة ، ولم يتعرضوا لذَرْع هذه المنارة ، وكانت أطول منارات المسجد . وقد ذَرَعْتُهَا من أعلى هلالها إلى الأرض ، فكان ذلك خمسة وتسعين ذراعا ـ بتقديم التاء على السين ـ لـكن صارت المنارة الرئيسية المجددة بعـــد الحريق أطول منها كما سبق ، والله أعلم .

ويظهر من سياق ماتقدم أن أول جعل المنارات فى المسجد كان فى زيادة الوليد ، ويشهد لذلك مارواه ابن إسحاق وأبو داود والبيهقى أن امرأة من بنى النجار قالت : كان بيتى من أطول بيت حول المسجد ، وكان بلال يؤذن عليـه الفجر كل غداة ، فيأتى بسحر ، فيجلس على البيت لينظر إلى الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللهم إنى أحمـدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك ، قالت : ثم يؤذن .

وروى خالد بن عمرو عن أبى بَرْزَة الأسلمى قال : من السنة الأذان فى المنارة والإقامة فى المسجد .

---

(١) مشرفة : أى مطلة ؛ لأنها فى جهتها .

وروى غيره أن الأذان فى زمنه صلى الله عليه وسلم كان على أسطوانة فى دار عبد الله بن عمر التى فى قبلة المسجد .

قال ابن زبالة : حدثنى محمد بن إسماعيل وغيره قال : كان فى دار عبد الله بن عمر أسطوان فى قبلة المسجد يؤذن عليها بلال يرقى إليها بأقتاب[١]، والأسطوان مربعة قائمة إلى اليوم يقال لها المطار ، وهى فى منزل عبيد الله بن عبد الله بن عمر .

قلت : والظاهر أنها المرادة بقوله فى الرواية المتقدمة فى قصة الخوخة التى جعلت بدل طريق بيت حفصة: ووسعها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان .

وقال الأقشهرى، ومن خطه نقلت : عن عبد العزيز بن عمران قال : كان فى دار عبد الله بن عمر أسطوان فى قبلة المسجد يؤذن عليها، وهى مربعة قائمة إلى اليوم. قال الأقشهرى : وهى باقية إلى يومنا هذا ، قال ، يعنى عبد العزيز : وكان يقال لها المطار .

وأسند يحيى من طريق عبد العزيز بن عمران عن قدامة العمرى عن نافع عن ابن عمر ، قال : كان بلال يؤذن على منارة فى دارة حفصة بنة عمر التى تلى المسجد ، قال : وكان يرقى على أقتاب[١] فيها ، والأسطوان فى البيت الذى كان بيد عبيد الله بن عمر الذى يقال له بيت عبد الله بن عمر ، وقد كانت خارجة من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن فيه ، وليست فيه اليوم ، والظاهر أنه تجوز فى تسمية الأسطوان منارة، وعبد العزيز بن عمران كان كثير الغلط ؛ لأن كتبه احترقت ؛ فكان يروى من حفظه، فتركوه، ثم الظاهر أن عمر وعثمان رضى الله عنهما لم يتخذا فى المسجد منارة ، وإلا لنقل .

عثمان أول من خلق المسجد ورزق المؤذنين

وروى يحيى عن جابر بن عبد الله قال : كان أول من خلّق المسجد ، ورَزَقَ المؤذنين[٢] ، وجلس على الدرجة الثالثة من المنبر بعد النبى صلى الله عليه وسلم عثمان رضى الله عنه .

---

(١) الأقتاب : جمع قتب ، وأصله إكاف صغير على قدر سنام البعير يوضع عليه

(٢) رزق المؤذنين : جعل لهم رزقا على الأذان .

اتخاذ حرس للمسجد

وروى ابن زبالة عن موسى بن عبيدة أن عمر بن عبد العزيز استأجر حَرَساً للمسجد لايحترف فيه أحد .

وعن كثير بن زيد قال : نظرت إلى حرس عمر بن عبد العزيز يطردون الناس من المسجد أن يُصَلَّى على الجنائز فيه .

وعن عثمان بن أبي الوليد عن عروة بن الزبير أنه قال له: تضربون الناس فى الصلاة فى المسجد على الجنائز ؟ قال : قلت : نعم ، قال : أما إن أبا بكر قد صُلى عليه فى المسجد .

قلت : وذكر يحيى ما يقتضى أن الحرس كانوا قبل زمن عمر بن عبد العزيز يمنعون الناس من الصلاة على الجنائز فى المسجد ؛ فإنه روى عن ابن أبى ذئب عن المقبرى أنه رأى حَرَسَ مروان بن الحكم يخرجون الناس من المسجد يمنعونهم أن يصلوا فيه على الجنائز .

قلت : وأما ما كان من ذلك فى زمنه صلى الله عليه وسلم فقد روى ابن شبة عن صحابى سقط اسمه من النسخة التى وقفتُ عليها حديثا محصله أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان إذا اُحتضر الميت آذَنُوه فحضره واستغفر له،حتى إذا قبض انصرف النبى صلى الله عليه وسلم ومَنْ معه ، وربما قَعَد ومن معه فربما طال حَبْسُ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،قال : فلما خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض : لو كنا لا نُؤْذِنُ النبى صلى الله عليه وسلم بأحدٍ حتى يُقْبَضَ ، فإذا قبض آذناه(١) ، فلم يكن عليه فى ذلك مشقة ولاحبس، ففعلنا ذلك ، وكنا نؤذنه بالميت بعد أن يموت فيأتيه فيصلى عليه ، فربما انصرف ، وربما مكث حتى يدفن ، فكنا على ذلك حينا ، فقلنا : لو لم نُشْخِصْ(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملنا جنائزنا إليه حتى يصلى عليها عند بيته كان ذلك أرفق به ، ففعلنا ، فكان ذلك الأمر إلى اليوم .

---

(١) آذناه : أعلمناه وأخبرناه . (٢) أشخصه يشخصه : أزعجه

الصلاة على الجنائز في المساجد

وعن ابن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هلك الهالكُ شهده يصلى عليه حيث يدفن، فلما ثَقُلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم و بَدَّنَ[1] نقل إليه المؤمنون موتاهم فصلى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنائزِ عند بيته فى موضع الجنائز اليوم، ولم يزل ذلك جاريا .

قال ابن شبة : وحدثنى محمد بن يحيى قال : حدثنى من أثق به أنه كان فى موضع الجنائز نخلتان إذا أتى بالموتى وُضعوا عندهما فصلى عليهم ، فأراد عمر ابن عبد العزيز حين بنى المسجد قَطْعهما ، فاقتتلت فيهما بنو النجار ، فابتاعهما عمر فقطهما .

وفى صحيح البخارى من حديث ابن عمر فى قصة اليهوديين « فَرُجِما قريباً من موضع الجنائز عند المسجد » فدل ذلك على أن الموضع المذكور كان معروفاً بذلك .

وفى صحيح مسلم من حديث عائشة أنها أمرت أن يمر بجنازة ابن أبى وقّاص فى المسجد فتصلى عليه ، فأنكر الناس ذلك عليها ، فقالت : ما أَسْرَعَ مانسىَ الناسُ ! ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سُهَيل بن البيضاء إلا فى المسجد ، وفى رواية لها : والله لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابْنَىْ بيضاء فى المسجد سُهَيْلٍ وأخيه .

قلت : و يفهم منه أن ذلك نادر ، وأن الكثير من فعله صلى الله عليه وسلم ما تقدمت الإشارة إليه .

وروى يحيى بسند جيد عن عبد الله بن عمر أنه صلّى على عمر بن الخطاب فى المسجد ، وفى رواية أخرى له عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب صلى على أبى بكر فى المسجد ، وأن صُهَيْباً صلى على عمر بن الخطاب فى المسجد ، و بيّن فى رواية أخرى أن ذلك كان عند المنبر ، وقد روى ذلك ابن أبى شيبة ، وقال فى رواية : وضعت الجنازة فى المسجد تُجَاه المنبر .

---

(١) بدن : سمن

قال الحافظ ابن حجر : وهذا يقتضى الإجماع على جواز ذلك ، وقد تقررت المذاهب فى ذلك .

وقال ابن النجار عقب ذكر ماتقدم عن عمر بن عبد العزيز فى ذلك : والسنةُ فى الجنائز باقية إلى يومنا هذا ، إلا فى حق العلويين ومن أراد الأمراء من الأعيان وغيرهم ، والباقون يصلَّى عليهم خَلْفَ الحائط الشرقى من المسجد ، إذا وقف الإمام على الجنائز هناك كان النبى صلى الله عليه وسلم عن يمينه . انتهى .

قلت : وقد انتسخ ما ذكره ابن النجار ، وصار يصلَّى على الجنائز كلها فى المسجد ، ويخص الأعيان بالصلاة عليهم بالروضة الشريفة بين القبر والمنبر ، وغيرهم يصلى عليه أمام الروضة بعد أن يوقف بالجنازة بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أمام الوجه الشريف إلى عام اثنين وأربعين وثمانمائة فى دولة السلطان الظاهر جَقْمق ، فوردت مراسيمُه على شيخ الحرم فارس بالأمر بمنع جنائز الشيعة من المسجد ، فمنع المنسوبون للشيعة من إدخال جنائزهم إلى المسجد إلا الأشراف العلويين ، وجرى الأمر على ذلك إلى يومنا هـذا ، لا يدخل المسجد إلا جنائز الأشراف وأهل السنة ، وحاول بعضُ أهـل المدينة إدخال بعض الشيعة غير الأشراف فقام فى ذلك بعض أمراء الترك ومنع منه ، وكان صاحبنا العلامة أحد شيوخ المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس القسنطينى يُنْكِر الصلاة على الموتى بالروضة الشريفة ومقدم المسجد ؛ لكون رجلى الميت تصيران إلى جهة الرأس الشريف ، حتى إنه أوصى أن يصلَّى عليه خارج المسجد فى موضع الجنائز ، وأكثر قبل وفاته من الاستفتاء فى ذلك ، وأرانى خطوط جماعة من علماء الشام وغيرها من الشافعية وغيرهم يتضمن موافقته على ذلك ، وفى كلام بعض الشافعية : ينبغى أن تكون الصلاة بالمسجد خلف الحجرة الشريفة أو شرقيها ، والتمس منى الكتابة فى ذلك ، فكتبت بما حاصله أن الله تعالى قد أوجب على هـذه الأمة

الشيعة غير الأشراف

تعظيمَ نبيها صلى الله عليه وسلم وتوقيره وسلوكَ الأدب التام معه ، ولا شك أن الميت إذا وُضِـع فى مقدم الروضة أو المسجد كما يوضع اليوم و إن لم تكن رجلاه فى محاذاة الرأس الشريف حقيقة ؛ لأن الرأس الشريف فى محاذاة صف أسطوان التو بة والمخلقة : أى حذاء الأسطوانات التى تكون خلف المصلى على الميت ، لـكن تكون رجلاه فى محاذاة الجهة المذكورة ، وقد تصدق المحاذاة مع البعد ، ولو رأينا شخصا اضطجع بذلك المحل من الروضة وجعل رجليه لتلك الجهة الشريفة لأنكرنا ذلك عليه ، وما ننكره على الأحياء لا ينبغى أن نفعله بالأموات ، وقد تأملت كتب المذاهب الأربعة فلم أر فيها تعرضا لذكر السنة فى جهة رجلى الميت ، بل ذَكَر الشافعية فيما إذا حضرت جنائز وصلى عليها الإمام دفعة وجهين : أصحهما وضع الجميع صفا بين يدى الإمام فى جهة القبلة ، زاد أبو زُرْعة العراقى فى شرح البهجة : والأولى جعلها عن يمينه ، والثانى يوضع الجميع صفا واحدا رأسُ كل إنسان عنـد رجل الآخر ، ويجعل الإمام جميعهم عن يمينه ، و يقف فى محاذاة الأخير ، هذا إذا اتحد النوع ، فإن اختلف النوع تعين الوجه الأول ، ذكره فى أصل الروضة ، و يؤخذ منه استحباب جعل رجلى كل ميت عن يمين الإمام على الوجه الثانى ، و إلا فلا يكون الجميع صفا عن يمينه ، وأما على الوجه الأول فيؤخذ ذلك أيضاً مما تقدم عن أبى زرعة ، ولعل مأخذه فيه ما ذكر فى الثانى ، و إذا ثبت ذلك فى الجماعة فالواحد كذلك ؛ فيكون الأولى جعل رجليه عن يمين الإمام ، ولـكن الذى عليه الناسُ جعلهما على يساره .

ورأيت فى كتب المالـكية ما يقتضى أن ذلك هو الأولى ، وأن الناس مَضَوْا على ذلك .

وقد ظهر لى أن السر فى ذلك أن السلف ــ كما يؤخذ مما قدمناه ــ إنما كانوا يصلون على الجنائز خارج المسجد فى شرقيه فى الموضع المعروف بذلك ، والواقف

هناك يكون القبر الشريف عن يمينه ، فرأوا ـ والله أعلم ـ أن الأدب جعل الرجلين عن يسار الإمام صَرْفاً لهما عن تلك الجهة الشريفة ، ثم توارثوا ذلك ، واستمر العمل عليه ، فلما ترك ذلك وصلوا على الجنائز فى المسجد مَشَوْا على ما اعتادوه من جعل رجلى الميت عن يسار الإمام مع الغفلة عن ذلك ، وإذا لم تثبت سنة فى جعل رجلى الميت عن يسار الإمام فينبغى جعلهما عن يمينه فى هذا المحل الشريف ، استعمالا لكمال الأدب .

وقد قال لى الشيخ فتح الدين بن تقى الدين الكازرونى ـ وكان يُعَد من فضلاء الشافعية ـ وقد ذاكرته بذلك : إذا أنامُتّ فليجعل رجلاى عن يمين الإمام، ففعل به ذلك رحمه الله ، على أن الموضع الذى يلى الأرجل الشريفة من المسجد هو من موضع الجنائز فى زمنه صلى الله عليه وسلم فيما يظهر ، ويدل عليه ما أتفق لبنى النجار لما أراد عمر بن عبد العزيز قَطْع النخلتين عند عمارته للمسجد ؛ فلو صلى فيه اليوم على مَنْ يدخل به المسجد من الجنائز لكان أولى ؛ فإنه يتأتى فيه كون الرجلين عن يسار الإمام والرأس فى جهة الأرجل الشريفة ، ويكون أفضل لما جرت به العادة من الخروج بالميت من باب جبريل ، وأوفق لفعل السلف فى الصلاة على موتاهم هناك ، ولم يوافق على شىء من ذلك المتمسكون بالعادات ، وقد ذكرت نص ما أجبت به فى ذلك مبسوطا استطرادا فى كتابى «دفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار» والله أعلم .

الفصل الثامن عشر

فى زيادة المهدى

نقل ابن زَبَالة ويحيى أن المسجد لم يزل على حالة ما زاد فيه الوليد إلى أن هم أبو جعفر المنصور بالزيادة فيه ، ثم توفى ولم يزد فيه ، حتى زاد فيه المهدى ،

لكن ذكر يحيى فى حكاية ما كان مكتوبا فى جدار القبلة مالفظه : ثم إلى جنب هذا الكتاب — أى ما كتب فى زمن المهدى — كتاب كتب فى ولاية أبى العباس ، يعنى السفّاح ، وصل هذا الكتاب أى كتاب المهدى إليه ، وهو : أمَرَ عبدُ الله عبد الله أميرُ المؤمنين بزينة هذا المسجد وتزيينه وتوسعته مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ابتغاء رضوان الله وثواب الله ، وإن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيرا ، انتهى .

وهو يقتضى أن أبا العباس السفاح — وهو أول خلفاء بنى العباس — زاد فى المسجد أول ولايته ، وولايته سنة اثنتين وثلاثين ، ووفاته سنة ست وثلاثين ومائة ، وسنشير إلى محمل ذلك آخر الفصل .

ولفظ ما نقله ابن زبالة عن غير واحد من أهل العلم — منهم عبد العزيز بن محمد ومحمد بن إسماعيل — قالوا : لم يزل المسجد على حال ما زاد فيه الوليد بن عبد الملك حتى ولى أبو جعفر عبدُ الله — يعنى المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس — فهمّ بالزيادة ، وأراده ، وشاور فيه ، وكتب إليه الحسنُ بن زيد يصف له ناحية موضع الجنائز ، ويقول : إن زيد فى المسجد من ناحيته الشرقية توسَّطَ قبرُ النبى صلى الله عليه وسلم المسجد ، فكتب إليه أبو جعفر : إنى قد عرفت الذى أردت ، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فتوفى أبو جعفر ولم يزد فيه شيئاً ، ثم حج المهدى — يعنى ابن أبى جعفر — سنة ستين ومائة ، فقدم المدينة مُنْصَرَفَه عن الحج ، فاستعمل عليها جعفر بن سليمان سنة إحدى وستين ومائة ، وأمر بالزيادة فيه ، وولّى بناءه عبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن شبيب الغسانى ، فمات ابنُ عاصم ، فولى مكانه عبد الله بن موسى الحمصى ، وزاد فيه مائة ذراع من ناحية الشام ، ولم يزد فى القبلة ولا فى المشرق والمغرب شيئاً ، وذلك عشر أساطين فى صحن المسجد إلى سقائف النساء ، وخمسا سقائف النساء الشامية .

وروى يحيى ذلك من طريق ابن زبالة وغيره ، وقال فى رواية له عقب قوله واستعمل عليها جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس : وأمره بالزيادة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، وولاه بناءه هو وعبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز بن مروان وعبد الملك بن شبيب الغسانى من أهل الشام ، فزيد فى المسجد من جهة الشام إلى منتهاه اليوم ، وكانت زيادته مائة ذراع ، ولم يزد فيه من المشرق ولا المغرب ولا القبلة شيئاً .

قلت : ما روياه من أنه زاد فى مؤخر المسجد مائة ذراع يخالفه ما تقدم فى زيادة الوليد أنه جعل طوله مائتى ذراع ؛ لأنه يقتضى أن يكون طولُ المسجد بعد زيادة المهدى ثلاثمائة ذراع ، وطول المسجد اليوم على ما صرح به ابن زبالة مائتا ذراع وأربعون ذراعاً ، وقد اختبرته فزاد على ذلك ثلاثة عشر ذراعاً كما سيأتى ، ومع ذلك فهو مؤيد لما قدمناه من الاحتمال المتبادر إلى الفهم فى الرواية المتقدمة فى زيادة الوليد المقتضى لأن نهاية المسجد من جهة الشام فى زمنه كانت بعد أربع عشر أسطوانة من مربعة القبر ، ومنها إلى آخر المسجد أربع وعشرون أسطوانة فإذا أسقطنا من ذلك أربع عشرة للوليد بقى عشرة أساطين وقدرها نحو مائة ذراع ، وهذا معنى قوله فى الرواية المتقدمة « وذلك عشر أساطين فى صحن المسجد إلى سقائف النساء » أى إلى آخر سقائف النساء ، وهى المسقف الشامى ، وقوله « وخمس فى السقائف » أى من العشرة المذكورة ، مع أنه يقتضى أن المهدى جَعَلَ المسقف المذكور خمس أساطين ، وهذا كان فى ذلك الزمان كما سنوضحه ، وهو اليوم أربع فقط ، وقد قدمنا ترجيحَ أن المراد مما ذكر فى زيادة الوليد أنه جعل أربع عشرة أسطوانة فى الرحبة بما فيها من أربع أساطين فى السقائف التى كانت أولا ، وأنه جعل السقائف الشامية فى زمنه بعد الأربع عشرة المذكورة ؛ لموافقة ما ذكره فى ذَرْعِ المسجد فى زمنه ولما ذكر فى زيادة عثمان

رضى الله عنه من أنه جعل المسجد مائة وستين ذراعاً ، فإن ذلك يقتضى أن يكون نهايته فى جهة الشام يقرب من أربعة عشر أسطوانة من المربعة المذكورة ، فيتحصل من ذلك أن زيادة الوليد على ما ذكر فى زيادة عثمان رضى الله عنه أربعون ذراعاً ، وأن زيادة المهدى نحو خمسة وخمسين ذراعاً فقط ؛ فيكون للمهدى نحو ستة أساطين فى مؤخر المسجد ، لكن سيأتى فى ذكر أبواب المسجد ما يقتضى أن الباب الذى كان يواجه دارَ خالدِ بن الوليد كان مكتوباً عليه: زيادة المهدى ، وكذا الباب الذى بعده فى الشام عليه ما يقتضى ذلك ، وكذا البابان المقابلان لهما فى جهة المغرب ، دون ما قبل ذلك من الأبواب ، وذلك يقتضى ترجيح رواية أنه زاد فى المسجد مائة ذراع ، وقد رأيت فى المسقف الشرقى أسطوانة هى التاسعة من جدار المسجد الشامى مربع أسفلها مرتفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وهى محاذية لما وَصفوه من الباب المقابل لدار خالد بن الوليد ، فإن صحت هذه الرواية فهى علامة على ابتداء زيادة المهدى ، والله أعلم .

وقال ابن زبالة ويحيى فى روايتهما المتقدمة أيضاً : وكان — يعنى المهدى — قبل بنيانه قد أمر به ، فقدَّروا ما حوله، فابتيع ، وكان مما أدخل فى المسجد من الدور دار مليكة .

قال ابن زبالة : وأخبرنى إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه قال : كانت دار مليكة لعبدالرحمن بن عوف ، وإنما سميت دار مليكة لأن عبدالرحمن أنزلها مليكة ابنة خارجة بن سنان ، فغلب عليها اسْمُها ، ثم باعها بنو عبد الرحمن بن عوف من عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فباعها عبدُالله حين بناء المسجد ، فأدخل بعضها فى المسجد ، وبعضها فى رحبة المسارب ، وبعضها فى الطريق ، قالوا : وأدخل دار شرحبيل بن حَسَنة ، وكانت صدقة ، فابتاعوا دوراً ومنازل فأوقفوها صدقة وبقيت منها بقية ، فابتاعها منهم يحيى بن خالد بن بَرْمَك فدخلت فى الحش حش طلحة.

قلت : وقد ذكر ابن شبة دار مليكة وقال : فباعها عبد الله من معاوية رضى الله عنه ؛ فصارت فى الصوافى ؛ فأدخلها المهدى فى المسجد ، وذكر دار شرحبيل هذه فى ترجمة علم دور أزواج النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة: أى غير الحُجَر ، فقال : قال أبو غسان : اتخذت أم حَبِيبة بنتُ أبى سفيان رضى الله عنها الدار التى يقال لها دار آل شرحبيل ، فوهبتها لشرحبيل بن حَسَنة ، فلم تزل لبنيه حتى باعوا صدرها من المهدى فزادها فى مؤخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة إحدى وستين ومائة ، ثم ذكر ما سنورده فى ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

وقال ابن زبالة عقب ما تقدم : وأدخل بقية دار عبد الله بن مسعود التى يقال لها دار القُرَّاء ، ودارَ المِسْوَر بن مَخْرَمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ابن زُهْرة .

قلت : ذكر ابنُ شبة هذه الدار فى دور بنى زُهْرة ، فقال : واتخذ مخرمة ابن أهيب بن نوفل داراً ، وهى فى زاوية المسجد عند المنارة الشرقية اليمانية ، فاشترى المهدى بعضها فأدخله فى رحبة المسجد القُصْيا وفى الطريق ، و بيعت بقيتها فصارت لرجل من آل مطرف ثم صارت لبعض بنى بَرْمَك ثم صارت صافية اليو ، انتهى .

وقوله « المنارة الشرقية اليمانية » تحريفٌ والصواب الشامية .

قال ابن زبالة ويحيى عقب ما تقدم : وفرغ من بنيان المسجد سنة خمس وستين ومائة ، وقد كان هم بسد خَوْخَة آل عمر ، وأمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فأوطأها مع المسجد ، فكلمه آلُ عمر فى خَوْخَتهم حتى كثر الكلام بينهم ، فأذن لهم ففتحوها وخَفَضوها فى الأرض شبه السَّرَب ؛ فصارت فى المسجد : أى خارج المقصورة عليها شباك حديد ، وزاد فى المسجد لتلك الخَوْخَة ثلاث درجات؛فهى على ذلك إلى اليوم .

ويؤخذ مما ذكره ابن زبالة من الكتابة على أبواب المسجد فى زمن المهدى أنه زَخْرَفه بالفُسَيْفِسَاء[1] كما فعل الوليد، ويشهد لذلك بقية من الفسيفساء كانت فيما زاده فى مؤخر المسجد عند المنارة الغربية الشامية ، وفيما يقرب منها من الحائط الغربى ، ولم أر فى كلام أحد من مؤرخى المدينة أن المسجد الشريف زِيدَ فيه بعد المهدى ، لكن قال الزين المراغى ما لفظه : وقيل : إن المأمون زاد فيه ، وأتقن بنيانه أيضاً فى سنة اثنتين ومائتين .

قال السهيلى : وهو على حاله ، ورزين ينكر ذلك ، ويمكن الجمع بأنه جدده ولم يزد ، انتهى .

قلت : ولم أر فى كلام رزين تعرضاً لحكاية ذلك حتى ينكره ، وهذا بعيد جداً ؛ لأن مَنْ أدرك زمن المأمون من مؤرخى المدينة لم يتعرض لشىء من ذلك، نعم رأيت فى المعارف لابن قتيبة بعد ذكر زيادة المهدى ما لفظه : وزاد فيه المأمون زيادةً كثيرةً ووسعه ، وقرأت على موضع زيادة المأمون : أَمَرَ عبد الله بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين ومائتين ، وذكر أشياء من الأمر بالعدل وتقوى الله ، وهذا لا دلالة فيه على زيادة المأمون فى المسجد ؛ لاحتمال أنه وقع فى زمنه عمارة من غير أن يزيد فيه ، على أن فى كلام يحيى وغيره فى حكاية ما كان مكتوباً فى المسجد ما يدل على كتابة مثل ذلك لمن تجددت ولايته من الخلفاء فقط ، والله أعلم .

الفصل التاسع عشر

فيما كانت عليه الحجرة الشريفة الحاوية للقبور المنيفة فى مبدأ الأمر

قد قدمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بنى المسجد بنى بيتين لزوجتيه عائشة وَسَوْدَةَ رضى الله عنهما على نعت بناء المسجد من لَبِنٍ وجريد النخل ،قال ابن النجار: وكان لبيت عائشة رضى الله عنها مصراع واحد من عَرْعَرٍ أوساج، وتقدم أيضاً

---

(١) الفسيفساء : انظر ص ٥١٨ من هذا الجزء .

فى الفصل التاسع عن جماعة ممن أدرك بيوت النبى صلى الله عليه وسلم لما أدخلت فى المسجد أنها كانت من جريد مستورة بمُسُوح الشعر ، وأن عمران بن أبى أنس قال : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، الخبَر المتقدم

أول من بنى جدارا على بيت عائشة

قلت: وكان بيت عائشة رضى الله عنها أحد الأربعة المذكورة. لكن سيأتى من رواية ابن سعد أنه لم يكن عليه حائط زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن أول مَنْ بنى عليه جداراً عمرُ بن الخطاب ، وليحمل على أن حجرة الجريد التى كانت مضافة له ، أبدلها عمر بجدار ، جمعا بين الروايات ، وتقدم أيضا قول عبد الله بن يزيد الهذلى : ورأيتُ حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز مبنية باللبن حولها حجر من جريد ممدودة ، إلا حجرة أم سلمة ، وقول الحسن البصرى : كنت أدخل بيوتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مُرَاهق ، وأنالُ السقف بيدى ، وكان لكل بيت حجرة ، وكانت حُجَرهُ من أكسِية من شَعَر مربوطة فى خشب عَرْعَر

قلت : والظاهر أن ما يستر به الحجر المذكورة هو المراد فى حديث كشفه صلى الله عليه وسلم لسَجْفِ[1] حجرته ، كما فى الصحيح ، والسجف لغة : الستر

وفى التحفة لابن عساكر عن داود بن قيس أنه قال : أظن عرض البيت من الحجرة إلى باب البيت نحو من ست أو سبع أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والتسع نحو ذلك ، ووقفتُ عند باب عائشة فإذا هومستقبل المغرب ،وهوصريح فى أن الباب كان فى جهة المغرب ، وسيأتى ما يؤيده .

وكذا ما روى فى الصحيح من كشفه صلى الله عليه وسلم سجْفَ الباب[1] فى مرضه وأبو بكر رضى الله عنه يؤم الناس ، وترجيل عائشة رضى الله عنها شَعْره وهو فى معتكفه وهى فى بيتها كما تقدم فى حديث : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف يُدْنِى إلىّ رأسه فأرجّله[2] ،وفى رواية النسائى :يأتينى وهو

(١) السجف ـ بكسر السين وفتحه ـ ومثله السجاف ـ بزنة الكتاب ـ الستر
(٢) أرجله : أسرح شعره

معتكف فى المسجد ، فيتكئ على عتبة باب حجرتى ، فأغسل رأسه وأنا فى حجرتى وسائره فى المسجد ، لكن سبق أيضا ما يقتضى أن الباب كان مستقبل الشام ، وهو ضعيف أو مؤول ، أما ضعفه فلما تقدم من أن بيت فاطمة رضى الله عنها كان ملاصقا له من جهة الشام وأن مربعة القبر كانت بابَ على ، ويحتمل أن بعضه من جهة الشام كان ملاصقا بيت فاطمة دون بعضه ، فيتأتى ذلك ، ويدل له ما قدمناه فى بيت فاطمة رضى الله عنها من أن الموضع المزور فى بناء عمر ابن عبد العزيز كان مخرجا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأما تأويله فبأحد أمرين كما أشار إليه الزينُ المراغى : أحدهما حَمْلُه على أنه باب شَرَعَتْه عائشة رضى الله عنها لما ضربت حائطا بينها و بين القبور المقدسة بعد دفن عمر رضى الله عنه ، لا أنه الباب الذى كان فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وفيه بعد ؛ لأنه سيأتى ما يؤخذ منه أن الحائط الذى ضربته كان فى جهة المشرق ، ثانيهما لأنه كان له بابان ؛ إذ لامانع من ذلك، وهذا محمل مارواه ابن عساكر عن محمد بن أبى فديك عن محمد بن هلال أنه رأى حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من جريد مستورة بمُسُوح الشَّعَر، فسألته عن بيت عائشة ، فقال : كان بابه من جهة الشام ، قلت : مصراعا كان أو مصراعين ؟ قال : كان باب واحد ، قلت : من أى شىء كان ؟ قال : من عرعر أوساج ، وهذا مستند ابن عساكر فى قوله : وباب البيت شامى ، ولم يكن على الباب غَلَق مدة حياة عائشة ، اه

ثم ظفرت فى طبقات ابن سعد بمـا يصرح بأن الحجرة الشريفة كان لهـا بابان ؛ فإنه روى من طرق أنهم صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم بحجرته ، وروى فى أثناء ذلك عن أبى عسيم قال : لمـا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كيف نصلى عليه؟قالوا : ادخلوا من ذا الباب أرْسَالاً أرسالا(١) فصلوا عليه ، واخرجوا من الباب الآخر ، والله أعلم

(١) أرسالا : جمع رسل ـ بفتح كل من الراء والسين ـ وهى الجماعة

وكان بيتُ حفصة بنت عمر رضى الله عنها ملاصقا لبيت عائشة رضى الله عنها من جهة القبلة

ونقل ابن زبالة فيما رواه عن عبد الرحمن بن حميد وعبيد الله بن عمر بن حفص وأبى سَبْرة وغيرهم أنه كان بين بيت حفصة و بين منزل عائشة الذى فيه قبر النبى صلى الله عليه وسلم طريق، وكانتا يتهادَيَانِ الـكلام وهما فى منزليهما[1] ، من قُرْبِ ما بينهما ، وكان بيت حفصة عن يمين الخَوْخَة

قلت : فهو موقف الزائرين اليوم داخل المقصورة وخارجها ، كما ذكره المطرى ، وتقدم فى حدود المسجد النبوى أن جدار الحجرة مما يلى المسجد كان فى حد القناديل التى بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر ، و بين الأساطين المقابلة لها ، وهى التى إليها المقصورة الدائرة على الحجرة من جهة المغرب ، وأن المسجد زيد فيه من تلك الجهة شىء من الحجرة ، وأن الظاهر أن ما ترك فى المسجد من الحجرة كان من مرافقها كالدهليز للبـاب ، وأن ما بنى عليه من ذلك هو صفة بيت عائشة رضى الله عنها التى وقع الدفن بها

هـذا ما تحصل لى من كلام متقدمى المؤرخين ، خلاف ما اقتضاه كلام متأخريهم، من أن جدار الحجرة الذى [فى] جوف الحائز الدائر عليها اليوم هو جدارها الأول ، و إليه ينتهى حد المسجد ، وأن جدار الحائز الذى جعله عمر بن عبد العزيز إنمـا جعله فيما يلى الحجرة من المسجد ، وقد قدمنا من كلام ابن زبالة والمحاسبى نقلا عن مالك ما يرد ذلك ، والله أعلم

الفصل العشرون

فيما حَدَثَ من عمارة الحجرة بعد ذلك ، والحائز الذى أدير عليها

روى ابن زبالة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: ما زِلتُ أضَعُ خمارى[2]

---

(١) انظر هذه العبارة فى ص ٥١٥ من هذا الجزء

(٢) الخمار ــ بكسر الخاء ــ غطاء الوجه ، ومعنى وضعه أنها تتركه ولا تلبسه

وأتَفَضَّل فى ثيابى[١] حتى دفن عمر؛ فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى و بين القبور جدارا

وعن المطلب قال : كانوا يأخذون من تراب القبر ، فأمرت عائشة بجدار فضرب عليهم ، وكانت فى الجدار كوة فكانوا يأخذون منها ، فأمَرَتْ بالكوة فسدّت

وقال ابن سعد فى طبقاته : أخبرنى موسى بن داود قال : سمعت مالك بن أنس يقول : قسم بيت عائشة باثنين : قسم كان فيه القبر ، وقسم كان تكون فيه عائشة و بينهما حائط ؛ فكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فُضُلا[١] ، فلما دفن عمر لم تدخله إلا وهى جامعة عليها ثيابها

وقال ابن سعد أيضا : أخبرنا يحيى بن عباد قال : حدثنا حماد بن زيد قال : سمعت عمرو بن دينار وعبيد الله بن أبى يزيد قالا : لم يكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم على بيت النبى صلى الله عليه وسلم حائط ، وكان أول من بنى عليه جدارا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

قال عبيد الله بن أبى يزيد : كان جداره قصيرا ، ثم بناه عبد الله بن الزبير

وقال الأقشهرى : قال أبو زيد بن شبة : قال أبو غسان بن يحيى بن على ابن عبد الحميد — وكان عالما بأخبار المدينة ومن بيت كتابة وعلم — : لم يزل بيت النبى صلى الله عليه وسلم الذى دفن فيه هو وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما ظاهرا حتى بنى عمر بن عبد العزيز عليه الحِظَار[٢] المزور الذى هو عليه اليوم حين بنى المسجد فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، و إنما جعله مزورا كراهة أن يشبه تربيعه تربيع الكعبة، وأن يتخذ قبلة فيصلى إليه

قال أبو زيد : قال أبو غسان : وقد سمعت غير واحد من أهل العلم يزعم

---

(١) فضلا — بضم كل من الفاء والضاد — أى مقتصرة على ثياب المهنة ، وتفضلت : اقتصرت فى لباسها على ذلك

(٢) الحظار — بكسر الحاء ، بزنة الكتاب — الحائط وكل ما حال بينك وبين شىء .

أن عمر بنى البيت غير بنائه الذى كان عليه ، وسمعت من يقول : بنى علىّ بيت النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجْدُر ، فدور القبر ثلاثة أجدر : جدار بناء بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وجدار البيت الذى يزعم أنه بنى عليه يعنى عمر بن عبد العزيز ، وجدار الحِظار الظاهر ، انتهى مانقله الأقشهرى .

قلت : ولم يوجد على الحجرة الشريفه عند انكشافها فى العمارة التى أدركناها غير جدار واحد جوف الحظار الظاهر .

وقال ابن سعد : أخبرنا أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى المكى قال : حدثنا مسلم بن خالد قال : حدثنى إبراهيم بن نوفل بن سعيد بن المغيرة الهاشمى عن أبيه قال : انهـــدم الجدار الذى على قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى زمان عمـر بن عبد العزيز ، فأمر بعمارته ، قال : فإنه لَجالس وهو يبنى إذ قال لعلى بن حسين : قم يا على فقُمَّ البيتَ[١] ، يعنى بيتَ النبى صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه القاسم بن محمد قال : وأنا أصلحك الله ، قال : نعم وأنت فقُم ؛ ثم قال له سالم بن عبدالله : وأنا أصلحك الله ، قال: اجلسوا جميعا ، وقُمْ يا مزاحم ، فقُمَّه ، فقام مزاحم فقمه، قال مسلم: وقد أثبت لى بالمدينة أن البيت الذى فيـه قبر النبى صلى الله عليه وسلم بيت عائشة ، وأن بابه و باب حجرته تُجاه الشام ، وأن البيت كما هوسقفه على حاله، وأن فى البيت جرة وخلق رخالة ، انتهى.

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز الزهرى عن أبيه قال :جاف[٢] بيت النبى صلى الله عليه وسلم من شرقيه ، فجاء عمر بن عبد العزيز ومعه عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، فأمر ابن وردان أن يكشف عن الأساس ، فبينا هو يكشفه إلى أن رفع يده وتَنَحَّى[٣] واجما، فقام عمر بن عبد العزيز فَزِعا ، فقال عبد الله بن عبيد الله : أيها الأمير لا يَرُوعَنَّك فتانك قَدَمَا جدك عمر ابن الخطاب ضاق البيت عنه فحفر له فى الأساس، فقال: يا ابن وردان[٤] غَطِّ ما رأيت، ففعل.

---

(١) قم البيت يقمه ـ مثل شده يشده ـ أى كنسه ، والقمامة كالكناسة وزنا ومعنى

(٢) جاف : أى ظهرت له رائحة ، وقد جاء فى بعض الروايات أن هرة ماتت داخله

(٣) تنحوا : ابتعدوا

(٤) لعل ابن وردان كان يعمل مع أبيه فتارة يسند العمل إليه وتارة يسنده إلى أبيه

وروى أيضاً عن المطلب أنه لما سقط الجدار من شق موضع الجنائز أمر عمر بقَبَاطِيّ مخيطت[1] ، ثم ستر بها ، وأمر أبا حفصة مولى عائشة وناساً معه فبنوا الجدار ، فجعلوا فيه كُوَّة ، فلما فرغوا منه ورفعوه دخل مزاحم مولى عمر فَقَمَّ ماسقط على القبر من التراب والطين ، ونزع القباطى ، وكان عمر يقول : لَأَنْ أَكونَ وليتَ ما ولى مُزَاحم من قَمِّ القبور أحبُّ إلى من أن يكون لى من الدنيا كذا وكذا ، وذكر مرغوباً من الدنيا .

وروى يحيى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال : كنت أخرج كل ليلة من آخر الليل حتى آتى المسجد ، فأبدأ بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم عليه ، ثم آتى مُصَلَّاىَ فأجلس به حتى أصلى الصبح ، فخرجت فى ليلة مَطِيرة حتى إذا كنتُ عند دار المُغِيرة بن شُعْبة لقيتنى رائحةٌ لا واللهِ ما وجدْت مثلها قط ، فجئت المسجد فبدأت بقبر النبى صلى الله عليه وسلم فإذا جِدَاره قد انْهَدَم ، فدخلت فسلمت على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومكثت فيه مَلِيًّا ، وذكر صفة القبور كما سيأتى عنه ، قال : فلم أَلبَثْ أن سمعتُ الحِسّ ، فإذا عمر ابن عبد العزيز قد أخبر فجاء ، فأمر به فستر بالقَبَاطِى[1] ، فلما أصبح دعا وردان البنّاء فقال له : أُدخل فدخل فكشف فقال : لا بد لى من رجل يناولنى ، فكشف عمر بن عبد العزيز سَاقَيْه يريد يدخل ، فكشف القاسم بن محمد ، فكشف سالم بن عبد الله ، فقال عمر : مالكم ؟ فقالوا : ندخل والله معك ، قال : فلبث عمر هنيهة ثم قال : والله لا نؤذيهم بكثرتنا اليوم ، أُدخل يا مُزَاحم فناوِله ، فقال عمر : يا مزاحم كيف ترى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : متطاطيا ، قال : فكيف ترى قبر الرجلين؟ قال : مرتفعين . قال : أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواه رزين عن عبد الله المذكور باختصار ، وخالف سياق يحيى فى وصف القبور كما سيأتى التنبيه عليه ، وقال فيه : فأخبرت بذلك عمر ، فجاء فأمر به فستر بالقباطى[1] ، وذكره بنحوه .

(١) القباطى : ثياب كانت تصنع فى مصر

وفى العتبية: قال مالك: انهدم حائط بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيــه قبره، فخرج عمر بن عبد العزيز واجتمعت رجالات قريش، فأمر عمر ابن عبد العزيز فستر بثوب، فلما رأى ذلك عمر بن عبد العزيز من اجتماعهم أمر مُزَاحما أن يدخل ليخرج ما كان فيه، فدخـل فَقَمَّ ما كان فيه من لَبِنٍ أو طين، وأصلح فى القبر شيئاً كان أصابه حين انهدم الحائط، ثم خرج وستر القبر ثم بنى، انتهى.

وروى البخارى فى الصحيح من حديث هشام بن عُرْوَة عن أبيه، قال: لما سقط عنهم الحائط زمان الوليد بن عبد الملك أخذوا فى بنائه، فَبَدَتْ لهم قَدَم، ففزعوا وظنوا أنها قدم النبى صلى الله عليه وسلم، فما وجدوا أحداً يعلم ذلك، حتى قال لهم عروة: لا والله ما هى قدم النبى صلى الله عليه وسلم، ما هى إلا قدم عمر.

ويستفاد مما تقدم أن السبب فى هـذا البناء سقوطُ الجدار المذكور بنفسه، ولعله بسبب المطر المشار إليه فى الرواية المتقدمة.

ويخالفه ما رواه أبو بكر الآجرى من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام ابن عُرْوة قال: أخبرنى أبى قال: كان الناس يَصِلُونَ إلى القبر، فأمر به عمر ابن عبد العزيز فرفع حتى لا يصل إليه أحد، فلما هدم بَدَتْ قدمٌ بساق وركبة، ففزع عمر بن عبد العزيز، فأتاه عروة فقال: هذا ساق عمر وركبته! فسُرِّىَ[1] عن عمر بن عبد العزيز.

ومن طريق مالك بن مغول عن رجاء بن حَيْوة قال: كتب الوليـد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز، وكان قد اشترى حُجَر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، أن اهْدِمْهَا ووسِّع بها المسجد، فقعد عمر فى ناحية، ثم أمر بهدمها، فما رأيت باكيا أكثر من يومه، ثم بناها كما أراد، فلما أن بَنَى البيت على القبر وهدم البيت الأول ظهرت القبور الثلاثة، وكان الرمل الذى عليها قد انهار،

---

(١) سرى عن عمر: ذهب عنه ما كان أصابه من الفزع

ففزع عمر بن عبد العزيز ، وأراد أن يقوم فيسوِّيها بنفسه ، فقلت له : أصلحك الله ! إنك إن قمتَ قام الناس معكَ ، فلو أمرت رجلا أن يصلحها ، ورجوتُ أن يأمرنى بذلك ، فقال : يامزاحم — يعنى مولاه — قم فأصلحها .

ونقل الأقشهرى عن الرشيد أبى المظفر الكازرونى شارح المصابيح أنه قال : سألت جمعا من العلماء عن سبب ستر القبور عن أعين الناس : أى باتخاذ جدار لا بابَ له ، فذكر بعضهم أنه لما مات الحسن بن على أوصى أن تحمل جنازته ويحضر بها قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يرفع و يقبر فى البقيع ، فلما أراد الحسين أن يجيز وصيته ظن طائفة أنه يدفن فى الحضرة ، فمنعوه وقاتلوه ، فلما كان عبد الملك أو غيره سَدُّوا وستروا .

وقال أبو غسان فيما حكاه الأقشهرى : أخبرنى الثقة عن عبدالرحمن بن مهدى عن منصور بن ربيعة عن عثمان بن عروة قال : قال عروة : نازلت[1] عمر بن عبد العزيز فى قبر النبى صلى الله عليه وسلم أن لا يجعل فى المسجد أشَدَّ المنازلة ، فأبىٰ، وقال : كتاب أمير المؤمنين لابد من إنفاذه ، قال : فقلت: فإنْ كان لابدَّ فاجعل له حوجوا (أى وهو الموضع المزور خلف الحجرة) .

وروى ابن زبالة عن محمد بن هلال وعن غير واحد من أهل العلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه قبره صلى الله عليه وسلم ، وهو بيت عائشة الذى كانت تسكن ، وأنه مُرَبَّع مبنى بحجارة سود وقَصَّة الذى يلى القبلة منه أطوله ، والشرقى والغربى سواء ، والشامى أنقصها ، و باب البيت مما يلى الشام ، وهو مسدود بحجارة سود وقَصَّة ، ثم بنى عمر بن عبد العزيز على ذلك البيت هذا البناء الظاهر ، وعمر بن عبد العزيز زوّاه لأن يتخذه الناس قبلة تخص فيه الصلاة من بين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله اليهودَ اتَّخَذُوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « اللهم لاتجعل قبرى وَثناً يعبد — الحديث » قالوا: والبناء الذى حول البيتِ بيتِ رسول الله صلى

---

(١) نازلت عمر أشد المنازلة: غالبته فى النزول ، كل منازل يدعو راغبا فى ذلك أشد الرغبة

الله عليه وسلم بينه و بين البناء الظاهر اليوم مما يلى المشرق ذراعان، ومما يلى المغرب ذراع، ومما يلى القبلة شبر، ومما يلى الشام فضاء كله، وفى الفضاء الذى يلى الشام مركن مكسور[1] ومكيل خشب ، قال عبد العزيز بن محمد: يقال إن البنّائين نسوه هناك ، انتهى .

وروى يحيى عن أبى غسان محمد بن يحيى قال : سمعت من يقول فى الحظار الذى على قبر النبى صلى الله عليه وسلم مركن وخشبة وحديدة مسندة ، قال محمد بن يحيى : وقال عبد الرحمن بن أبى الزناد : هو مركن تركه العمال هناك ، وقال محمد بن يحيى - يعنى أبا غسان - فأما أنا فإنى أطلعتُ فى الحظار فلم أرى شيئاً ، فزعم لى زاعم أنه قد رأى ثَمَّ المركن وشيئاً موضوعاً مع المركن ، وأما أنا فلم أرَهُ ، ولم أعلم أحداً يدرى من أخذه ، ولم أر للبيت الذى فى الحظار باباً ولا موضع بابه ، وقد أخبرنى ابن أبى فديك أنه رأى باب بيت النبى صلى الله عليه وسلم مما يلى الشام ، انتهى . وقد حكى الأقشهرى عن أبى غسان أيضاً نحو ذلك .

قلت : ولم نر للبيت عند انكشافه فى العمارة التى أدركناها باباً ولا موضع باب ، ولم يوجد فى الفضاء الذى يلى الشام من الحظار المذكور مركن[1] ولا غيره مما ذكر ، وسيأتى فى الفصل الثالث والعشرين أن ابن عاث ذكر أنهم وجدوا عند عمارة حائط سقط بالحجرة قعباً انكسر عند سقوط الحائط ، وأنه حمل إلى بغداد، فإن صح فلعله المراد ، وفيما قدمناه إشعار بأن موضع القبور الشريفة كان مسقفاً تحت سقف المسجد كما سيأتى التصريح به ، ولهذا لما انكشف سقف المسجد رأوا ما بين الحظار الظاهر والحجرة ؛ ولم يروا جَوْفَ الحجرة ، ويدل له ما سيأتى عن أبى الجوزاء قال : قُحِطَ أهلُ المدينة قحطاً شديداً ، فشكوا إلى عائشة، فقالت: فانظروا قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه و بين السماء سقف ، ففعلوا ، فمُطِروا ، الخبرَ الآتى ، لكن سيأتى فى الفصل الرابع والعشرين عن ابن رشد أنه قال فى بيانه : إن الثقة أخبره أنه لا سقف له فى زمنه تحت سقف المسجد ، وكنت أظن أن ذلك بعد حريق المسجد ، فإن

---

(١) المركن - بوزن المنبر - الإجانة التى تغسل فيها الثياب ، ويجمع على مراكن

كلام المؤرخين الآتى متطابق على أنه لا سقف للحجرة بعد الحريق إلا سقف المسجد ، ثم تبين أن زمن ابن رشد كان قبل الحريق بمدة مديدة[١] ؛ لأن وفاته سنة عشرين وخمسمائة ، ثم أطلعنا فى العمارة التى أدركناها على وجود سقف جعل بعد الحريق وعلى آثار السقف الذى كان قبله كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

الفصـــل الحادى والعشرون

فيما روى من الاختلاف فى صفة القبور الشريفة ، بالحجرة المنيفة

وما جاء من أنه بقى بها موضع قبر ، وأن عيسى بن مريم عليه السلام يدفن بها ، وما جاء فى تنزل الملائكة حافين بالقبر الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به .

اعلم أن ابن عساكر ذكر فى تحفته الاختلافَ فى صفة القبور الشريفة ، فذكر فى ذلك سبعَ رواياتٍ ، وسبقه إلى ذلك شيخُه ابن النجار ، لكنه ذكر ستاً فقط .

رواية نافع فى وضع القبور

الأولى : ما رواه عن نافع بن أبى نعيم أن صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمر ، قبرُ النبى صلى الله عليه وسلم أمامها إلى القبلة مقدماً ، ثم قبر أبى بكر حِذاء مَنْكِبَىْ[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر عمر حذاء منكبى أبى بكر ، وهذه صفته :

النبى صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمـــر رضى الله عنه

---

(١) مدة مديدة : أى طويلة ممتدة

(٢) المنكب ـ بوزن المسجد ـ الموضع الذى يجتمع فيه رأس الكتف والعضد

قلت : وهذه الرواية هى التى عليها الأكثر ، ونقل الزين المراغى أن رزينا ويحيى جزَما بها ، وهو كذلك فى كلام رزين ، ورواها عن عبد الله بن محمد بن عقيل فقال عقب خبره المتقدم فى قصة سقوط جدار الحجرة : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ، وقبر أبى بكر خلفه ، وقبر عمر خلف قبر أبى بكر ، ورأس أبى بكر عند منكبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند منكبى أبى بكر ، وأما يحيى فلم أر فى كلامه الجزمَ بذلك ، بل رأيته حكى اختلاف الروايات كغيره ، ولفظه فى حكاية هذه الرواية : حدثنا هرون بن موسى قال : سمعت أبى يذكر عن نافع بن أبى نعيم وغيره من المشايخ ممن له سنّ وثقة أن صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما تقدم ، ورأيت فى نسخة من كتاب يحيى تصويرَ القبور الشريفة على هذه الصفة ، وقال : إنها صفة القبور الشريفة فيما وصَف بعضُ أهل الحديث عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، ثم ذكر ما سيأتى فى الصفة السادسة .

وروى ابن سعد فى طبقاته فى ذكر أبى بكر رضى الله عنه من طريق الواقدى عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى سَبْرة عن عمر بن عبد الله بن عروة أنه سمع عروة والقاسم بن محمد يقولان : أوصى أبو بكر عائشةَ أن يُدْفَنَ إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما توفى حُفِر له ، وجعل رأسه عند كَتِفَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصق اللحد بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبر هناك .

ثم روى من طريق الواقدى أيضاً عن ربيعة بن عثمان عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : رأس أبى بكر عند كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند حَقْوَىْ أبى بكر .

قلت : وفى هذه مخالفة يسيرة لما تقدم بالنسبة إلى عمر رضى الله عنه .

رواية القاسم بن محمد

الثانية : روى أبو داود والحاكم من طريق القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت لها : يا أُمَّهْ اكشفى لى عن قبر النبى

صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، فكشفت لى عن ثلاثة قبور لا مُشْرِفة ولا لاطية، مبطوحة ببطحاء العَرْصَة الحمراء . زاد الحاكم: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدماً ، وأبا بكر رأسُه بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم ، وعمر رأسُه عند رجلى النبى صلى الله عليه وسلم . قال ابن عساكر : وهذه صفته .

النبى صلى الله عليه وسلم	عمـــر رضى الله عنه

أبو بكر رضى الله عنه

قلت : وقد صحح الحاكم إسناد هذه الرواية ، والله أعلم .

رواية عثمان ابن نسطاس

الثالثة : ما رواه الزبير بن بَكار عن ابن زَبَالة قال : حدثنى إسحاق بن عيسى عن عثمان بن نسطاس قال : رأيت قبر النبى صلى الله عليه وسلم لما هدم عمر بن عبد العزيز عنه البيت مرتفعاً نحواً من أربع أصابع عليه حَصْباء إلى الحمرة ماهى ، ورأيت قبر أبى بكر وراء قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ورأيت قبر عمر أسْفَلَ منه ، وصَوَّره لنا كما صوره له عثمان .

قلت : ولم يكن فى النسخة التى وقفتُ عليها من ابن زبالة تصويرٌ ، وصَوَّر ذلك ابنُ عساكر هكذا :

النبى صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمـــر رضى الله عنه

قلت : وابن زبالة ضعيف ، وإسحاق بن عيسى هو ابن بنت داود بن أبى هند، صدوق يخطىء، وعثمان بن نسطاس هو عُثَيْم مصغر بن نسطاس بكسر النون المدنى أخو عبيد مولى آل كثير بن الصلت، مقبول حيث يتابع، وإلا فَلَيِّنُ الحديث. وقد ذكر الحافظ

ابن حجر أن أبا بكر الآجرى روى هـذا الخبر فى كتاب صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم من طريق إسحاق بن عيسى المذكور عن ابن نسطاس ، وليس فيه ذكر تصوير ، ولم يذكر الحافظ ابن حجر الواسطة بين الآجرى وإسحاق بن عيسى ، وهذه الرواية مع ما فيها من الضعف قابلة للتأويل بردها إلى الرواية التى قبلها ، وإن كان التصوير يأباه ؛ لجواز حمله على التقريب ، والله أعلم

رواية المنكدر بن محمد

الرابعة : روى ابن زبالة عن المنكدر بن محمد عن أبيه قال : قبر النبى صلى الله عليه وسلم هكذا ، وقبر أبى بكر خلفه ، وقبر عمر خلفه عند رجلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وصوره ابن عساكر هكذا :

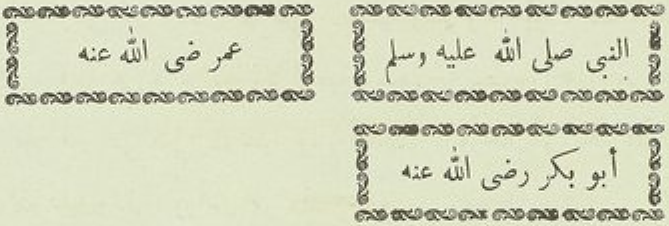

قلت : ويمكن رد هذه الرواية مع ضعفها إلى الثانية ؛ لأن قوله « وأبو بكر خلفه » صادق بأن يكون رأسه عند منكبى النبى صلى الله عليه وسلم

رواية عمرة عن عائشة

الخامسة : روى يحيى بإسناد فيه إسماعيل بن عبد الله بن أبى أويس عن أبيه ـ وإسماعيل صدوق، لكن أخطأ فى أحاديث من قبل حفظه ، وأبوه صدوق يَهِمُ ، وبقية رجاله ثقات ـ عن عَمْرة عن عائشة رضى الله عنها وصفت لنا قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمر ، وهذه القبور فى سَهْوَةٍ فى بيت عائشة ، رأسُ النبى صلى الله عليه وسلم مما يلى المغرب ، وقبر أبى بكر رأسه عند رجلى النبى صلى الله عليـه وسلم ، وقبر عمر خلف النبى صلى الله عليه وسلم ، وبقى موضع قبر ، وهذه صفة قبورهم على ما وصف ابن أبى أويس عن يحيى بن سعيد وعبد الله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة ، ولم يصور يحيى لذلك شيئا

وروى ابن زبالة نحو ذلك وقد ذكره من طريق ابن عساكر ، ثم قال : وهذه صفته

أبو بكر رضى الله عنه	النبي صلى الله عليه وسلم
	عمر رضى الله عنه

قلت : و يردها ما روى من أن رجلى عمر رضى الله عنه ضاق عنهما الحائط فحفر لهما فى الأساس

وفى الصحيح كما سبق قول عروة « ما هى إلا قدم عمر »

رواية أخرى عن القاسم بن محمد

السادسة : روى ابن زبالة عن القاسم بن محمد قال : دخلت على عائشة فقلت : يا أمه أريني قبرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فكشفت لى عن قبورهم ، فإذا هى لا مرتفعة ولا لاطية ، مبطوحة ببطحاء حمراء من بطحاء العرصة ، فإذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم أمامهما ، ورجلا أبى بكر عند رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند رجليه

قال ابن عساكر : وهذه صفتها :

	النبي صلى الله عليه وسلم
عمـــر رضى الله عنه	أبو بكر رضى الله عنه

قلت : وهذه الرواية مع ضعفها معارضة بما تقدم فى الرواية الثانية عن القاسم ابن محمد المذكور ، وتلك أصح ، وما سيأتى فى صفة الحجرة الشريفة يأبى ذلك أيضا ، وقد رأيتها فى نسخة من كتاب يحيى رواه ابنه طاهر عنه على هذه الصورة:

	النبي صلى الله عليه وسلم
عمـــر رضى الله عنه	أبو بكر رضى الله عنه

وقال : إنها عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها ، ثم قال ابن فراس أحدرواة النسخة المذكورة عن طاهر بن يحيى : سألتُ طاهر بن يحيى أن يصور لى بخطه صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فصور لى بيده هذه الصورة ، انتهى

رواية عبد الله ابن محمد ابن عقيل

السابعة : ما روى يحيى من طريق ابن زبالة فى الخبر المتقدم فى الفصل قَبْله فى قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة فى تلك الليلة المَطِيرة عن عبد الله بن محمد ابن عقيل ، قال عقب قوله فيما تقدم « فدخلت فسلمت على النبى صلى الله عليه وسلم ومكثت فيه مَلِيّا ، ورأيت القبور فإذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وقبر أبى بكر عند رجليه ، وقبر عمر عند رجلى أبى بكر ، وعليهما حَصًى من حصباء العرصة » قال ابن عساكر : وهذه صفته :

قلت : وهذه الرواية نقلها رزين عن عبدالله بن عقيل ، وساقها باللفظ السابق ، إلا أنه قال : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ، وذكر ما قدمنا عنه فى الرواية الأولى ، وهو مخالف لما فى هذه الرواية ، وهو أولى بالاعتماد ؛ لأن هذه الرواية ضعيفة مع بُعْدها مما سيأتى فى وصف الحجرة الشريفة ، سيما على ما سبق من قسم عائشة رضى الله عنها الحجرة باثنين ، ولها شاهد لكنه ضعيف أيضا ، وهو ما فى طبقات ابن سعد عن مالك بن إسماعيل ـ أظنه مولًى لآل الزبير ـ قال : دخلت مع مُصْعَب بن الزبير البيتَ الذى فيه يعنى قبر رسول

الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، فرأيت قبورهم مستطيلة . انتهى

وفى رواية للآجرى ما يوهم صفة ثامنة ؛ فإنه ذكر عقب الخبر المتقدم عن رجاء ابن حَيْوة فى إدخال الحجرة فى المسجد ما لفظه : قال رجاء : فكان قبر أبي بكر وسطه ، ولم يذكر فيه عمر رضى الله عنه ، فإن الضمير فى قوله « وسطه » إن كان للبيت فواضح ، وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم فهذه صفة أخرى ، لكن ينبغى تأويلها أيضا على التجوز فى لفظ الوسط ليوافق رواية غيره

وأما ما أخرجه أبو يَعْلىٰ عن عائشة : أبو بكر عن يمينه ، وعمر عن يساره ؛ فسَنَدُه ضعيف أيضا ، ويمكن تأويله كما قاله الحافظ ابن حجر

وحينئذ فلم يبق إلا الروايتان الأولَيَان فهما اللتان يتردد بينهما فى الترجيح ، والأولى هى المشهورة ، ومقتضى تصحيح الحاكم لإسناد الثانية ترجيحها ، وهى أصح الروايات ، وقد اشتملت على أن القبور لم تكن مُسَنَّمة[١] وقد قال يحيى : حدثنى هرون بن موسى ـ قلت : ولا بأس به ـ قال : حدثنى غير واحد من مشايخ أهل المدينة أن صفات القبور الشريفة مَسْطُوحة عليها بطحاء من بطحاء العرصة حمراء

وروى ابن زبالة من طريق عمرة عن عائشة قالت : ربّع قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل رأسه مما يلى المغرب

وأما ما فى صحيح البخارى عن سفيان التمار أنه رأى قبر النبى صلى الله عليه وسلم مُسَنَّما[١] ، زاد أبو نعيم فى المستخرج : وقبر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كذلك ، ورواه ابن سعد عنه بلفظ : رأيت قبرَ النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر مُسَنَّمة[١] ، فلا يعارض ما قدمناه ؛ لأن سفيان وُلد فى زمان معاوية فلم ير القبر الشريف إلا فى آخر الأمر ، فيحتمل ـ كما قال البيهقى ـ أن القبر لم يكن فى الأول

(١) سنم البناء : جعله على هيئة سنام البعير ، والتسنيم يقابل التسطيح

مسنما ، ثم سنم لما سقط عن الجدار ؛ فقد روى يحيى عن عبد الله بن الحسين قال : رأيت قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسنما فى زمن الوليد بن هشام . وفى رواية أخرى عنه أن القبر جثوة[1] مرتفعة مُسَنَّمة غير شديدة الارتفاع ، عليها قزع من حَصًى وتربة طيبها الله عز وجل . وروى ابن سعد من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان نبيث[2] قبر النبي صلى الله عليه وسلم شِبرا .

ويؤيد التسطيح مارواه مسلم من حديث فَضَالة بن عبيد أنه أمر بقبر فسوى ثم قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها .

بقى بعدها موضع قبر

وقد تقدم فى الرواية الرابعة أنه بقى بعد القبور الشريفة موضع قبر ، ويؤيده ما روى أن عائشة رضى الله عنها أرسلت إلى عبد الرحمن بن عَوْف حين نزل به الموت : أن هَلُمَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أخويك، فقال : ما كنت مضيقا عليك بيتك ، الخبرَ الآتى فى ذكر قبره ، وكذلك ما سيأتى فى إذنها للحَسَن أن يدفن عندها ، ومَنْع بنى أمية له . وكذلك ما فى صحيح البخارى عن هشام بن عروة أن عائشة أوْصَتْ عبدَ الله بن الزبير : لا تَدْفِنِّى معهم : أى النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، وادفنى مع صواحبى بالبقيع لا أزكى به أبدا . وقد أخرجه الإسماعيلى وزاد فيه : وكان فى بيتها موضع قبر ، ولكن فى الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أرسل إلى عائشة فسألها أن يدفن مع صاحبيه قالت : كنت أريده لنفسى فلأُوثِرَنَّه اليوم على نفسى .

قال الحافظ ابن حجر : فكأن اجتهادها فى ذلك تَغَيَّر ، أو لما قالت ذلك لعمر كان قبل أن يقع لها قصة الجمل ، فاسْتَحْيَتْ بعد ذلك وإن كانت زوجته صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة كما قاله عمار أحد من حارَبَهَا ، انتهى .

وقال ابن التين : كلامُهَا فى قصة عمر يدل على أنه لم يبق ما يسع إلا موضع قبر واحد ، فهو يغاير قولها « لا تدفنِّى عندهم » فإنه يشعر بموضع للدفن ، والجمع

(١) الجثوة — بتثليث الجيم — الحجارة المجموع بعضها إلى بعض

(٢) النبيثة : أراد أن ماحوله من التراب كان بهذا القدر

بينهما أنها كانت تظن أولا أنه لا يسع إلا قبرا واحدا ، فلما دفن [عمر] ظهر لها أن هناك وسعاً لقبر آخر ، أو أن الذى آثرته به المكان الذى دفن فيه من وراء قبر أبيها بقرب النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا ينفى وجود مكان آخر فى الحجرة .

وروى يحيى بسنده إلى عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله ابن سلام عن أبيه عن جده قال : يدفن عيسى بن مريم مع النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ويكون قبره الرابع .

وفى سنن الترمذى من طريق أبى مودود عن عثمان بن الضحاك عن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب فى التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه ، قال : فقال أبو مودود : وقد بقى فى البيت موضع قبر ، قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وفى بعض النسخ : حسن غريب ، هكذا قال عثمان بن الضحاك ، والمعروف الضحاك بن عثمان المدنى ، انتهى كلام الترمذى .

وفى رواية للطبرانى عن عبد الله بن سلام قال : يدفن عيسى بن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ؛ فيكون قبرا رابعاً ، وهو من رواية عثمان بن الضحاك ، وقد وثّقه ابن حِبّان وضعفه أبو داود .

وذكر الزين المراغى أن ابن الجوزى روى فى المنتظم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض ، فيتزوج ويولد له ، فيمكث خمسا وأربعين سنة ، ثم يموت فيدفن معى فى قبرى ، فأقوم أنا وعيسى بن مريم من قبر واحد بين أبى بكر وعمر .

وقال ابن النجار : قال أهل السير : وفى البيت موضع قبر فى السهوة الشرقية، قال سعيد بن المسيب : فيه يدفن عيسى بن مريم .

والسهوة : بيت صغير منحدر فى الأرض قليلا شبيه بالمخدع والخزانة ، وقيل :

هو كالصفة يكون بين يدى البيت ، وقيل : هو شبيه بالرف والطاق يوضع فيه الشىء ، ولعل المراد بذلك الموضع الذى ضربت عليه عائشة جدارا وسكنت به كما سبق .

وسنذكر فيما استقر عليه بناء الحجرة أنه عقد على نحو ثلثها الشرقى عقد ، فصار ذلك المحل مميزا عن بقية البيت ، وكان قبله فى البناء ما يشهد لجدار آخر من الشام إلى القبلة فى تلك الجهة ، فلعله الموضع المذكور .

الملائكة يحفون بالقبر

وروى يحيى وابن النجار عن كعب الأحبار قال : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفّوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ، ويصلون على النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أمْسَوْا عَرَجُوا ، وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة ، صلى الله عليه وسلم .

وفى صحيح الدارمى نحوه من رواية عائشة رضى الله عنها ، وقال فيه : سبعون ألفا بالليل وسبعون ألفاً بالنهار ، ذكره فى باب ما أكرم الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بعد موته ، رواه البيهقى فى شُعَبه .

لا ينبغى رفع الصوت فى المسجد

وقد تقدم قولُ عمر رضى الله عنه «إن مسجدنا هذا لا ترتفع فيه الأصوات» وقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ينبغى رفع الصوت على نبى حياً ولا ميتاً .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم عبد العزيز بن أبى حازم ونوفل بن عمارة قالوا : إنْ كانت عائشة تسمعُ صوت الوتد يُوتَد والمسمار يضرب فى بعض الدور المطيفة بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، فترسل إليهم لا يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وما عمل على مصراعى داره إلا بالمناصع ، توقيا لذلك .

وفى الوفاء لابن الجوزى من طريق أبى محمد الدارمى بسنده عن أبى الجوزاء

قال : قُحِطَ أهلُ المدينة قحطا شديدا ، فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها فقالت : فانظروا قبرَ النبى صلى الله عليه وسلم ، فاجعلوا منه كُوَّةً إلى السماء حتى لا يكون بينه و بين السماء سَقْف ، ففعلوا ، فمطِروا حتى نَبَتَ العُشْبُ وسمنت الإبلُ حتى تفتقت من الشحم ، فسمى عام الفتق .

سنة أهل المدينة فى أعوام الجدب

قال الزين المراغى : واعلم أن فتح الكُوَّة عند الجَدْب سُنَّةُ أهل المدينة حتى الآن ، يفتحون كوة فى سفل قبة الحجرة : أى القبة الزرقاء المقدسة من جهة القبلة ، و إن كان السقف حائلا بين القبر الشريف و بين السماء .

قلت : وسنتهم اليوم فتحُ البابِ المُوَاجِه للوجه الشريف من المقصورة المحيطة بالحجرة ، والاجتماعُ هناك ، والله أعلم .

الفصل الثانى والعشرون

فيما ذكروه من صفة الحجرة الشريفة ، والحائز المخمس الدائر عليها ، و بيان ما شاهدناه مما يخالف ذلك .

قال الأقشهرى ، فيما رواه من طريق ابن شَبَّة : قال أبو غسان — يعنى محمد ابن يحيى — : وأما الحِظار الظاهر والبيت الذى فيه فإنى اطلعتُ فيه من بين سقفى المسجد حتى عاينت ذلك الحِظار الذى على البيت وما فيه ، وصورته وما فيه ، وذرَعْتُه على مافيه من الذَّرْع ، وذلك حين انكسر خشب سقف المسجد فكشف السقف من تلك الناحية لعمارته ، وأبو البخترى بن وهب بن رشد يومئذ على المدينة ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقال أبو زيد — يعنى ابن شبة — فهذه صورته ، ثم صورها الأقشهرى فى كتابه المسمى « بمنسك القاصد الزائر » بهذه الصورة :

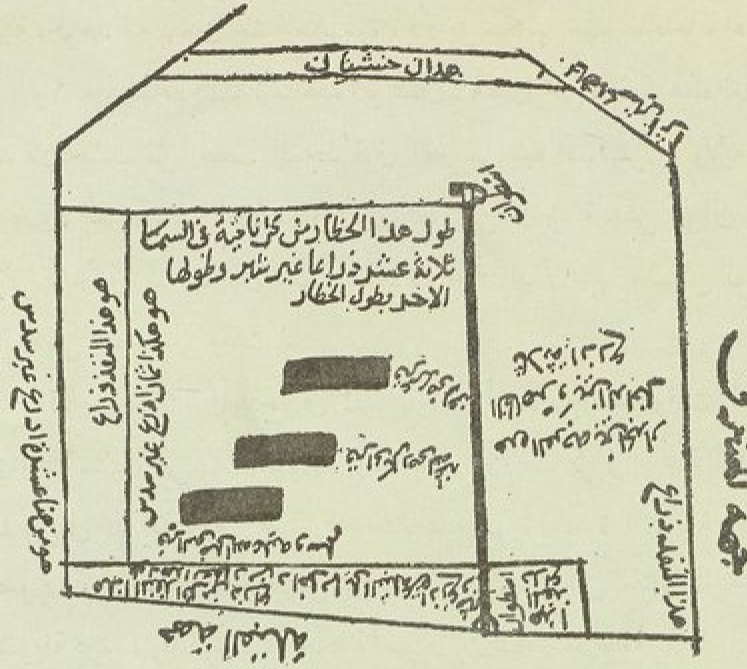

وفى هذا التصوير وما ذكر فيه من الذَّرْع مخالفة لمـا تقدم عن نقل ابن زبالة حيث قال : والبناء الذى حول البيت بينه و بين البناء الظاهر اليوم مما يلى المشرق ذراعان ، والتصوير المذكور قد اشتمل على أن الفرجة المذكورة ثلاثة أذرع ، ويستفاد من التصوير أيضاً أن الفرجة بينهما فى جهة القبلة مختلفة ، فبعضها دون الذراع وهو الشبر المشار إليه فى كلام ابن زبالة ، و بعضها ذراع

وسنذكر أنَّ ما شاهدناه فى صورة الحجرة الشريفة عند انكشافها أقرب إلى التصوير المذكور مما ذكره ابن زبالة ، وأن الحال شاهد بأنه وقع فى بنائها الداخل تغيير ؛ فلم يبق على الصورة المذكورة

وقد أدرك ابن زبالة عمارة أبى البحترى التى كشف فيها سَقفُ المسجد مما يلى الحجرة الشريفة ، وذكرها فى كتابه فقال : وكان أبو البحترى ـ إذ كان والياً على المدينة لهارون أمير المؤمنين ـ كشف سقف المسجد فى سنة ثلاث وتسعين

ومائة ، فوجد فيه سبعين خشبة مكسورة ، فأدخل مكانها خشبا صحاحا ، اه

وكأنه لم يشاهد ذلك كما شاهده أبو غسان ، وعبارة يحيي فى ذكر هذه العمارة : وقد كان خشب من خشب المسجد فوق القبر مما يليه انكسر فى ولاية أبى البحترى ، فأمر بكشف السقف ، وذكر ما تقدم عن ابن زبالة ، على أن ابن زبالة ويحيي أشارا فى كتابيهما إلى تصوير الحجرة والحائز الدائر عليها ، لكن الصورة ساقطة من النسخة التى وقعت لنا

وقد صور ذلك ابن النجار فى كتابه ، وأظنه أخذه من نسخة وقعت له من ابن زبالة مشتملة على تلك الصورة ، وتبعه عليها ابن عساكر فى « تحفة الزائر » والمراغى فى تاريخه ، وهى بعيدة مما وجدنا عليه صورة الحجرة الشريفة ؛ فلنبدأ بتصويره ، ثم تصوير الصورة التى شاهدناها ، ثم الصورة التى اسْتَقَرَّ بناء الحجرة الشريفة عليها ، وقد تبعتُ فى حكاية تصوير ابن النجار ما صنعه المراغى ؛ فإنى نقلته من خطه ، فقال : وجعل عمر بنيان الحجرة الشريفة على خمس زوايا لئلا يستقيم لأحد استقبالها بالصلاة ؛ لتحذيره صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وهذه صورتها وصورة الحائز حولها كما ضبطه ابن النجار ، والله أعلم .

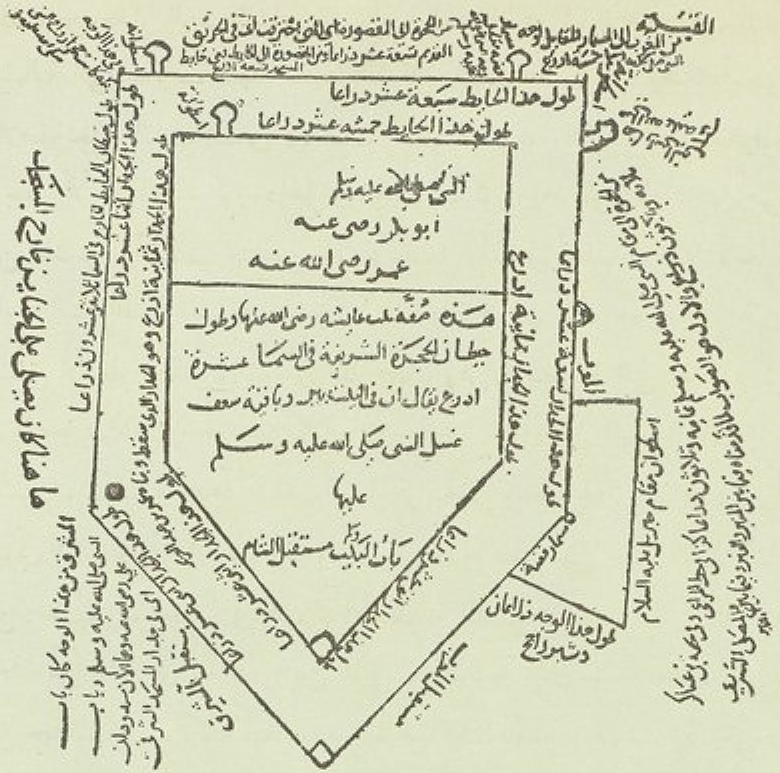

هاهنا بيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها

وهذا التصوير ينافى ما تقدم من رواية ابن زبالة وغيره أن البيت مربع مبنى بحجارة سود وقَصَّة

ثم بنى عليه عمر بن عبد العزيز هذا البناء الظاهر المخمس ؛ لأنه صَوَّرَ فيه البيت مخمسا أيضا كما ترى ، وهو خلاف الذى شاهدناه عند انكشافه فى العمارة التى أدركناها ، فرأيناه مربعا مبنيا بالأحجار السود المنحوتة لونُها يقرب من لون أحجار الكعبة الشريفة ، ولها من الهيبة والأنس مالا يدرك إلا بالذوق ، ولم نجد بين الجدار الخارج والداخل من جهة المغرب فضاء أصلا ، ولا مغرز إبرة ، ولم نجد للبيت الداخل بابا أصلا ، ولا موضع باب ،لا فى الجهة الشامية ولا فى غيرها ، ووجدنا الفضاء الذى خلف البيت الشريف من جهة الشام ، بينه وبين البناء الظاهر ، شكله مثلث ، ومساحته نحو ثمانية أذرع بذراع اليد المتقدم تحريره ،

وذلك من جدار البيت الشامى إلى زاوية البناء الظاهر المقابلة له ، وهى الزاوية الشمالية التى ينحرف عنها صفحتا الشكل المثلث المذكور ، وهناك أسطوانة ملاصقة لجدار البيت الشامى فى صف أسطوانة مربعة القبر وأسطوانة الوفود ، وبعض الأسطوانة المذكورة داخل فى الجدار المذكور ، وقد طوق على أعاليها بأطواق من الحديد ، وأدعمت بجذع من جذوع النخل رأسُه فى أعاليها ورأسُه الآخر فى زاوية البناء الظاهر الشمالية المتقدم ذكرها ، والظاهر أن ذلك جعل بعد الحريق لتشقّق الأسطوانة المذكورة وتأثير النار فيها ، وهى الأسطوانة التى تقدم ذكرها فى التصوير الأول المأخوذ من كلام ابن شبة عند نهاية جدار البيت الشامى مما يلى المشرق ، لكنا لم نجدها كذلك ، بل قريبة من وسط الجدار الشامى ، غير أن متولّى العمارة ومَنْ كان معه أخبرونى أنهم وجدوا عند نَقْضِ جدار البيت الشامى من داخله رأس جدار فى محاذاة الأسطوانة المذكورة يشهد الحالُ أنه كان آخذا من الشام إلى ما يحاذيه من القبلى ، فكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة المشرق ، وكأنه لما انهدم زِيدَ فيها ذلك القدر ، قالوا : ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامى مما يلى المشرق لم يُبْنَ مع الجانب الآخر منه ، بل هى مُلْصَقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم يدخل أحجار أحدهما فى الآخر ، ولا هى مرتبطة كما هو عادة البناء الواحد ، ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلى مما يلى المشرق ؛ فرأيت ما يشهد بإحداث بنائه بحيث إنه مبنى بالحجارة غير الوجوه كنسبة الجدار الشرقى ، بخلاف بقية جدارات الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة الوجوه المنحوتة ، وإنما لم أشاهد ما قدمته مما حكى لى فى أمر الجدار الشامى لأنى اجتنبت حضور الهَدْم احتياطا لنفسى ، وظهر بذلك أن البيت الشريف كان من جهة المشرق على ما صوره ابن شبة ، ثم حدث ذلك بعده ، ولم ينبه عليه أحد من المؤرخين ، ويحتمل أن ذلك الجدار هو الذى أحدثته عائشة رضى الله عنها بينها وبين القبور الشريفة ؛ فقد تقدم عن ابن سعد روايته عن مالك بن أنس قال : قسم بيت

عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كان تكون فيه عائشة و بينهما حائط .

قلت : فهذا الاحتمال هو الذى يترجح عندى ، والله أعلم .

ووجد بين جدار البيت الشرقى و بين الجدار الظاهر الشرقى فضاء مختلف كالزقاق الرقيق ، فعند ابتدائه من جهة الشام نحو ذراع اليد يمر فيه الرجل منحرفا ، فإذا قرب من جهة القبلة تضاعف بحيث لا يمر فيه إلا الصغير منحرفا ، وسَعَته هناك نحو ثلث الذراع .

وقد نقل ابن شبة أنه كان ثلاثة أذرع ؛ فهذا مؤيد لما قدمناه من حدوث التغيير فى الجدار الشرقى الداخل ، ورؤيته تقضى بذلك دون بقية الجدران .

ووجدنا بين جدار البيت القبلى والجدار الظاهر القبلى فضاء مختلفا أيضاً كالزقاق الرقيق ؛ فأوله من جهة الشرق نحو ذراع اليد ، فإذا قرب من الوجه الشريف تضايق بحيث يصير نحو شِبر ثم أقل من ذلك إلى ملتقى الحائطين فى جهة المغرب ، وهذا الفضاء لا يمكن المرور فيه ؛ لأن الأسطوانة التى فى البناء الظاهر عند مواجهة مواقف الزائر لسيدنا عمر رضى الله عنه بعضُها بارز فى الفضاء المذكور ، وفى محاذاتها بناء بنحو عرضها قد سُدَّ ما بين الجدارين من الفضاء ، وكأنه جعل لإدعام الجدار من أجل الانشقاق الآتى ذكره ، أو لمنع المرور هناك ، جزى الله فاعله خيرا !

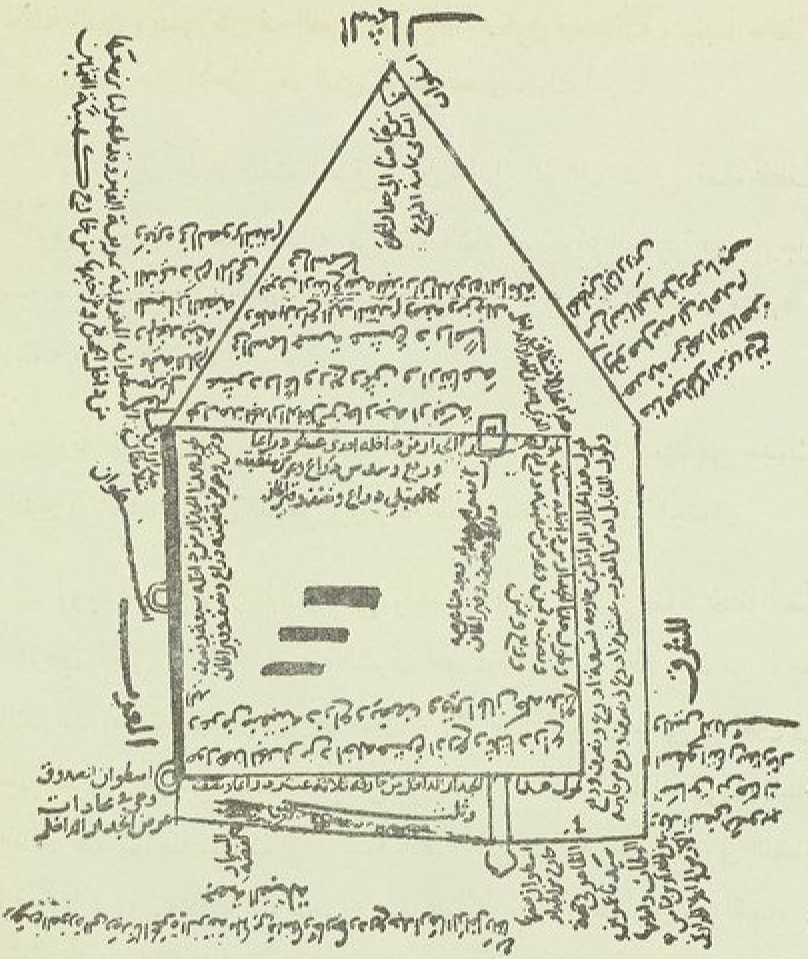

وأما طول جدران الحائز الظاهر من كل زاوية إلى الأخرى من خارجه فطول الجدار القبلى من زاويته التى تلى القبلة من المغرب إلى زاويته التى تلى المشرق سبعة عشر ذراعا ، بتقديم السين ، ينقص يسيرا ، وذلك موافق لما تقدم فى تصوير ابن النجار . وطول الجدار الغربى من القبلة إلى طرف مقام جبريل ستة عشر ذراعا ونحو نصف ذراع ، ومنعطف مقام جبريل هناك الشام ، وذَرْعُ منعطفه ذراعان ونصف ذراع ، وجملة ذلك تسعة عشر ذراعا ؛ فهو المراد مما تقدم فى تصوير ابن النجار ، لكنه يوهم أن وجه مقام جبريل غير داخل فى التسعة عشر ذراعا

التى ذكرها للجدار الغربى ، وليس كذلك . وطول الجدار المنعطف من مقام جبريل إلى الزاوية الشمالية اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار الشرقى من القبلة إلى الزاوية التى ينحرف منه إلى جهة الشمال اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار المنعطف من الجدار المذكور عند الزاوية المذكورة إلى الزاوية الشمالية نحو أربعة عشر ذراعا ، وفيما ذكرناه من الذَّرْع فى الثلاثة الجدر الأخيرة مخالفة لما تقدم فى تصوير ابن النجار ومن تبعه .

وأما طول الحائز الظاهر فى السماء فثلاثة عشر ذراعا وثلث ذراع ، ويرجح من بعض الجوانب يسيرا ، وعرض منقبته ذراع وربع ثمن .

ونقل الأقشهرى أن ابن شبة نقل عن أبى غسان أن طول الحِظَار الذى على البيت ـ يعنى الحائز المذكور ـ من جهة ارتفاعه ثلاثة عشر ذراعا غير سدس .

قلت : وقد رأيت بأعلاه سترة من آجُرّ قدر نصف ذراع يشهد الحالُ أنها محدَثة لإحداث السقف الآتى ذكره للحجرة الشريفة بعد حريق المسجد الأول ؛ فلا مخالفة بين ما وجدناه وبين ما ذكره أبو غسان .

وأما ارتفاع الجدار الداخل فى السماء فقِسْتُه من خارجه من جهة الشام فكان خمسة عشر ذراعا ، وارتفاع تلك الأرض التى فى شامىّ الحجرة بين الجدارين على أرض الحجرة ذراع ونحو ربع ذراع ، ومع ذلك فالحائز الخارج أرجَحُ من الداخل بيسير أو مُساوِله ، وسبب ذلك علو الأرض الخارجة عن هذا الحائز على الأرض الداخلة بين الحائزين بأرجح من ذراع ونصف ، مع أن الأرض الداخلة بين الحائزين من جهة الشام التى هى كهيئة المثلث وجدت مجدولة بالحجارة والقَصَّة بحيث لم يتأتَّ لهم حفر أساس فيها ، ولله الحمد على ذلك .

وأما ما تقدم فيما نقلناه من خط المراغى ـ وهو موجود فى كلام ابن النجار وابن عساكر ـ من أن طول حيطان الحائز الخارج فى السماء ثلاثة وعشرون ذراعا ، فهذا مخالف لما شاهدناه ولما قدمناه عن أبى غسان ، وكأنهم أرادوا بهذا ذَرْعَ

ما بين الأرض المحيطة بالحجرة و بين سقف المسجد ، وهذا البناء لم يبلغ به عمر ابن عبد العزيز سقف المسجد اتفاقا ، بل فوقه شباك من خشب متصل ذلك الشباك بسقف المسجد كما يظهر عند رفع الكسوة ، وكأن ابن النجار توهّم أن الحائط المذكور متصل بالسقف ؛ لأنه قال : و بنى عمر بن عبد العزيز على حجرة النبي صلى الله عليه وسلم حائزا من سقف المسجد إلى الأرض ، وصارت الحجرة فى وسطه وهو على دورانها .

و ينبغى حمل كلامه على أن المراد أنه بناه من سقف المسجد إلى الأرض بما جعل عليه من الشباك ، وكذلك يحمل ما ذكره فى ذَرْعه ؛ لأن الشباك المذكور له ذكر فى كلامه ، فإنه ذكر ما سيأتى من أن الجمال الأصفهانى جدّد تأزير الحجرة بالرخام ، ثم قال : وعمل لها مشبكا من خشب الصندل والآبنوس ، وأداره حولها مما يلى السقف : أى على رأس الجدار المذكور .

قلت : ولعله أول من أحدث هذا الشباك ؛ لأنه ذكر له[1] فى كلام متقدمى المؤرخين ، والله أعلم .

وقال ابن النجار : واعلم أن على حجرة النبى صلى الله عليه وسلم أى على سقفها ثوباً مشمعاً مثل الخيمة ، وفوقه سقف المسجد ، وفيه ـ أى فيما تحت المشمع المذكور ـ خَوْخَة عليها ممرق أى طابق مقفول ، وفوق الخوخة فى سقف السطح خوخة أخرى فوق تلك الخوخة ، وعليها ممرق مقفول أيضاً ، و بين سقف المسجد و بين سقف السطح أى السقف الثانى لسطح المسجد فراغ نحو الذراعين .

قلت : أما الممرق الذى ذكره فى سقف المسجد الذى يلى الحجرة الشريفة فقد أدركناه موجوداً عليه قُفْل من حديد ومشمع جدده متولى العمارة التى أدركناها إلى أن احترق المسجد فى زماننا ، وعملت القبة التى جعلت بدلا عن القبة الزرقاء .

---

(١) كذا ، ولعل أصل الكلام « لأن له ذكرا فى كلام ـ إلخ »

وأما الممرق الذى ذكره فى سقف الحجرة تحت المشمع الذى أشار إليه فهذا كان قبل حريق المسجد الأول ، ولم يوجد فى السقف الذى عمل بدله بعد الحريق ممرق ، نعم وجد عليه ستارة من المحابس اليمنية مُبَطّنة ، وسنذكر وَصْفه إن شاء الله تعالى عند ذكر العمارة المتجددة فى زماننا ، على أن الذى يقتضيه كلام المطرى ومَنْ بعده أنه ليس ثَمّ غير طابق واحد فى سقف المسجد ، فإنه قال : وعلى سقف الحجرة بين السقفين ـ أى سقفى المسجد ـ ألواح ، وقد سُمِّر بعضها على بعض ، وسمر عليها ثوب مشمع ، وفيها طابق مقفل إذا فتح كان النزول منه إلى ما بين حائط بيت النبى صلى الله عليه وسلم و بين الحائط الذى بناه عمر ابن عبد العزيز .

قلت : وليس ما ذكره فى وصف هـذا الطابق بصحيح ؛ لأن النزول منه يكون على وسط الحجرة سواء كما شاهدناه ، مع أن المطرى ومَنْ تبعه اتفق كلامُهم كما سيأتى على أن سقف الحجرة بعد الحريق إنما هو سقف المسجد ، وهو خلاف ما وجدنا الأمر عليه أيضاً ، والله أعلم .

الفصل الثالث والعشرون

فى عمارة اتفقت بالحجرة الشريفة على ما نقله الأقشهرى عن ابن عاث ، وما وقع من الدخول إليها عند الحاجة له وتأزيرها بالرخام .

قال الأقشهرى ، ومن خطة نقلت مالفظه : أخبرنا الشيخ الراوية أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الشاطبى قال : حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله القضاعى الحافظ قال : حدثنا صاحبنا الرحال أبو عمر أحمد بن أبى محمـد هارون بن عاث النفرى قال : حدثت بالمدينة الشريفة ، أو قال بمدينة السلام ، بأنهم سمعوا منذ سنين قريباً من الأربعين هَدّة فى الروضة الشريفة أى الحجرة فإنه يعبر عنهـا بذلك ، فـكتب فى ذلك إلى الخليفة ، فاستشار الفقهاء ، فأفتوا أن يدخلها رجل فاضل من القَوَمة على المسجد ، فاختاروا لذلك بدرا الضعيف ، وهو شيخ فاضل

يقوم بالليل ويصوم النهار ، وهو من فتيان بنى العباس ، فدلى حتى دخل الروضة أى الحجرة ، فوجد الحائط الغربى قد سقط ، وهو حائط دون الحائط الظاهر ، فصنع له لَبِن من تراب المسجد ، فبناه وأعاده على هيئته كما كان ، ووجد هناك قَعْباً من خشب قد أصابه وقوع الحائط فكسره ، فحمل إلى بغداد مع شىء من تراب الحائط ، وكان يوم وصول ذلك بغداد يوماً مشهوداً تجمَّع لاستقباله الناسُ ، وازدحموا على رؤيته ، وعطلت الصناعات والبيع ، وكانت رحلة ابن عاث سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وقد قال «قريباً من أربعين سنة» فيكون ذلك سنة سبعين وخمسمائة أو ما دون ذلك ، وهكذا ذكره فى رحلته ومنها نقلته ، ويكون ذلك فى دولة المستضىء بالله بن المستنجد بالله ، انتهى كلام الأقشهرى .

ولعل هذا الحائط المنهدم فى هذه العمارة إنما هو الشرقى من الجدار الداخل ، وأطلق عليه اسم الغربى بالنظر إلى الجدار الخارج الذى يليه ، فتكون هذه الواقعة هى التى اتفق فيها بناء الجدار المتقدم وصفه ، ووقع فيها تقديمه عن محله الأول ، وأبقوا رأسه كما تقدمت الإشارة إليه ، وهو إنما بنى بالحجر ، ولا يتأتى هناك بناء باللبن إلا فى السترة التى جعلت على رأس الجدار ، فلعله أراد باللبن المتخذ من تراب المسجد هذا ، لكن فى كلام ابن النجار ونقله مَنْ بعده وأقره ، ما يقتضى أنه لم يقع دخول إلى الحجرة الشريفة من سنة أربع وخمسين وخمسمائة إلى زمانه ، وقد توفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، فإنه قال فى كتابه « الدرة الثمينة » مالفظه: واعلم أن فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة سمعوا صوتَ هدَّة فى الحجرة ، وكان الأمير قاسم بن مهنى الحسينى ، فأخبروه بالحال ، فقال : ينبغى أن ينزل شخص إلى هناك ليبصر ما هذه الهدة ، فافتكروا فى شخص يصلح لذلك ، فلم يجدوا لذلك إلا عمر النسائى شيخ شيوخ الصوفية بالموصل ، وكان مجاوراً بالمدينة ، فذكروا ذلك له ، فذكر أن به فتقا والريح والبول يحوجه إلى دخول الغائط مراراً ، فألزموه ، فقال : أمهلونى حتى أروض نفسى ، وقيل : إنه امتنع من الأكل

والشرب وسأل النبى صلى الله عليه وسلم إمساك المرض عنه بقدر مايبصر ويخرج، ثم إنهم أنزلوه فى الحبال من الخَوْخَه إلى الحظير الذى بناه عمر، ودخل منه إلى الحجرة ومعه شمعة يستضىء بها فرأى شيئاً من طين السقف قد وقع على القبور، فأزاله وكَنَس التراب بلحيته، وقيل: إنه كان مليح الشيبة، وأمسك الله تعالى ذلك الداء قدر ماخرج من الموضع وعاد إليه، وهذا ما سمعته من أفواه جماعة، والله أعلم بحقيقة الحال فى ذلك.

وعبارة المراغى تبعاً للمطرى فى النقل عن ابن النجار: فأنزلوه بالحبال من بين السقفين من الطابق المذكور، ونزل بين حائط النبى صلى الله عليه وسلم وبين الحائز ومعه شمعة يستضىء بها، ومشى إلى باب البيت، ودخل من الباب إلى القبور المقدسة، فرأى شيئاً من الردم، إما من السقف أو من الحيطان إلى آخره.

قلت: وهذا لايطابق ما ذكره ابن النجار وعليه رتب المراغى إشكاله الآتى بيانه.

ثم قال ابن النجار: وفى شهر ربيع الآخر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة فى أيام قاسم أيضاً وجدوا من الحجرة رائحة منكرة، وكثر ذلك حتى ذكروه للأمير، فأمرهم بالنزول إلى هناك، فنزل بيان الأسود الخصىُّ أحد خدام الحجرة، ومعه الصفى الموصلى متولى عمارة المسجد، ونزل معهما هارون الشادى الصوفى بعد أن سأل الأمير فى ذلك، وبذل له جملة من المال، فلما نزلوا وجدوا هراً قد هَبَطَ ومات وجَيَّفَ، فأخرجوه، وكان فى الحائز بين الحجرة والمسجد.

وقال المراغى وغيره فى النقل عن ابن النجار: فوجدوا هرا قد سقط من الشباك الذى فى أعلى الحائز، ووقع بين الحائز وبيت النبى صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن النجار: وكان نزولهم يوم السبت الحادى عشر من ربيع الآخر، ومن ذلك التاريخ إلى يومنا هذا لم ينزل أحد إلى هناك، فاعلم ذلك، انتهى.

فهذا يخالف مانقله الأقشهرى عن ابن عاث ؛ لاقتضائه أن تلك الواقعة فى سنة سبعين وخمسمائة أو ما قاربها ، والظاهر أن القضية واحدة ، ولم نجد من دونها فنقل كل منهما بحسب ما بلغه .

وقال الزين المراغى عقب ذكره للواقعة الأولى التى حكاها ابن النجار المتضمنة للدخول إلى القبور الشريفة مالفظه : وينبغى تأمل هذا النقل ؛ لأن الوصول إلى القبور الشريفة متعذر، إن كان الجدار الذى أحدثته عائشة المتقـدم ذكره باقياً ، فإن جاء نَقْل بإزالته و بإمكان الاستطراق معه من باب أو نحوه فهو واضح ، و إلا ففيه نظر .

قلت : نظره إنما يتوجه على ماقدمه من أن النزول كان إلى ما بين الحائطين وأنه مشى إلى باب البيت ، وليس فى كلام ابن النجار تعرّض لشىء من ذلك ، بل مقتضى ما قدمناه عنه ـ من أن الحجرة الشريفة بها ممرق ، و بسقف المسجد مثله ـ أن النزول إنما هو من العلو إلى سقف الحجرة ، ثم منه إليها ؛ فلا نظر ، على أن الجدار الذى أشار إليه وأن عائشة بنته ولم نجد له أثراً إلا ما تقدمت الإشارة إليه من رأس جدار الحائط الشامى مقتضٍ لأنه كان هناك جدار من الشام إلى القبلة ، وكذلك الباب لم نجد له أثراً كما قدمناه .

وأما تأزير الحجرة بالرخام فليس له ذكر فى كلام ابن زبالة ، وله ذكر فى كلام يحيى ؛ فإنه روى ما حاصله أن بيت فاطمة الزهراء لما أخرجوا منه فاطمة بنت حسين وزوجها حسن بن حسن وهدموا البيت بعث حسن بن حسن ابنه جعفراً ، وكان أسنَّ ولده ، فقال له : اذهب ولا تبرحن حتى يبنوا فتنظر الحجر الذى من صفته كذا وكذا هل يدخلونه فى بنيانهم ، فلم يزل يرصُدُهم حتى رفعوا الأساس وأخرجوا الحجر ، فجاء جعفر إلى أبيه فأخبره ، فخر ساجداً وقال : ذلك حجر كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إليه إذا دَخَلَ إلى فاطمة ، أو كانت فاطمة تصلى إليه ، الشك من يحيى .

وقال على بن موسى الرضى : ولَدَتْ فاطمة عليها السلام الحسن والحسين على ذلك الحجر .

قال يحيى : ورأيت الحسين بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين ولم أر فينا رجلا أفضل منه إذا اشتكى شيئاً من جسده كشف الحصى عن الحجر فيمسح به ذلك الموضع ، ولم يزل ذلك الحجر نراه حتى عَمَّرَ الصانعُ المسجدَ ففقدناه عندما أزر القبر بالرخام ، وكان الحجر لاصقا بجدار القبر قريبا من المربعة .

قال بعضُ رواة كتاب يحيى : الصانع هذا هو إسحاق بن سلمة ، كان المتوكل وجه به على عمارة المدينة ومكة .

قلت : وكانت خلافة المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وتوفى فى شوال سنة سبع وأربعين ، وكان هذا مأخذ بن النجار فى قوله إن المتوكل فى خلافته أمر إسحاق بن سلمة وكأن على عمارة الحرمين من قِبَله أن يؤزّر الحجرة بالرخام ففعل .

ثم فى خلافة المقتفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة جدده جمال الدين وزير بنى زنكى ، وجعل الرخام حولها قامةً وبَسْطَة .

قلت : ولم يذكر أحد من المؤرخين تجديداً لهذا الرخام بعد ذلك ، وقد جدده فى زماننا متولى العمارة الآتى ذكرها الجناب الشمس المحسنى الخواجكى بن الزمن بأمر المقام الشريف السلطانى قايتباى عز نصره ، ووجد فى الصفحة القبلية عند ابتدائها من جهة المغرب فى اللوح السماقى اللون الثانى فى تلك الجهة من الألواح الملونة التى يحيط بها الرخام الأبيض البارز قطعةً أوسع من الدينار ملصقة فى ظاهر اللوح المذكور بالجص ، فأشيع أنها جوهرة نفيسة ذات لَمَعَان ، ثم إن متولى العمارة أرانيها فإذا هى حَجَر عسلى اللون يميل حمرته إلى الصفرة ، قال : وأظنه حجر اليرَقَان ، وقد خشى عليه متولى العمارة إن أعيد لصقاً كهيئته الأولى ، فأمر بنقر الرخامة المذكورة وتنزيله فيها ، ففعلوا ذلك ، وأعادوا تلك الرخامة إلى محلها .

ولم أر من نبه على ابتداء حدوث الرخام الذى حول الحجرة الشريفة بالأرض والظاهر أنه حدث عند حدوث تأزيرها بالرخام ؛ لما تقدم من كلام يحيى فى أمر

الحجر الذى كان يتبرك به من أن الحسين بن عبد الله كان يكشف عنه الحصى ، وأنه لم يدخل فى البناء ، وأنه فقده عند تأزير الحجرة بالرخام ، فدل ذلك على أنه رخم الأرض أيضاً ، وإلا لما استتر الحجر المذكور .

وأما ترخيم المصلَّى الشريف فلا أدرى متى زمنُ حدوثه ، وله ذكر فى رحلة ابن جبير .

وأما الرخام الذى بالمحراب العثمانى وما حوله فالقديم منه ـ أعنى بعد الحريق الأول ـ ترخيم المحراب وشىء يسير عن جنبتيه ، وفى دولة السلطان الملك الظاهر جَقْمَق فى أول عشر الستين وثمانمائة أمر بعمل الوزَرَة التى فى الجدار القبلى ، فاتصل ذلك بترخيم المحراب المذكور ، وقد جدد غالب ذلك فى العمارة التى أدركناها أيضا ، وأبدل الطراز الأول الذى كان بأعلى الوزَرَة وكان مموّهاً بماء الذهب بالطراز الموجود اليوم ، ثم زال ذلك كله فى حريق المسجد الثانى ، ثم أُعيد مع زيادة فيه مما يلى المنارة الرئيسية ، ومع ترخم ما حول الحجرة الشريفة وتأزيرها بالرخام ، ومع ما سبق من عمل محراب المصلى الشريف وترخيمه ، ورخموا أيضاً الدعائم المواجهة للوجه الشريف التى أحدثوها عند عمارة القبة الثانية من داخل المقصورة وخارجها ، وجميعُ ما يوجد من الرخام بالمسجد اليوم من عمل سلطان زماننا الأشرف قايتباى ، أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ! والله أعلم .

الفصل الرابع والعشرون

فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الشريف ، والمسمار الفضة المواجه للوجه الشريف ، ومقام جبريل من الحجرة الشريفة ، وكسوتها ،وتخليقها

أما الصندوق فلم أعلم ابتداء حدوثه ، وكذلك القائم المحلّى فوقه ، إلا أنه قد ظهر لنا فى هذه العمارة التى أدركناها أنه كان موجوداً قبل حريق المسجد الأول ؛ لأن متولى العمارة كان قد قلعه لاقتضاء رأيه قَلْعَ حلية الفضة التى كانت على القائم الخشب الذى فوق الصندوق ليُحْكِم صَوْغها ، وزاد ذلك فضة وتمويها

بالذهب، وأصلح حلية الصندوق أيضا ، وكان ذلك سببا لإصلاح أصل الأسطوانة التى كان بها ، فلما قلعوا الصندوق المذكور ظهر فيه قوائم صندوق عتيق ، وفى تلك القوائم أثر الحريق ، وكأنهم جدّدوا عليه صندوقا ، وجعلوا ذلك المحترق فى جوفه ، وقد أعيد كذلك

وقد ذكر المجد الشيرازى هذا الصندوق والقائم فقال : وفى الصفحة الغربية من الحجرة الشريفة صندوق آبنوس مختم بالصَّنْدَل مصفَّح بالفضة مكوكب بها ، هو قبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه أسطوان ، وفوق الصندوق قائم من خشب مجـــدد ، وأما الصندوق فطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وارتفاعه فى الهواء أربعة أشبار

قلت : وقد ظفرت بذلك كله فى كلام ابن جبير فى رحلته ، غير ما يتعلق بالقائم المذكور ، ومن ذلك أخذ المجد وصف القائم بكونه مجددا ، وكانت رحلة ابن جبير عام ثمانين وخمسمائة ، فاستفدنا بذلك وجود ذلك الصندوق قبل الحريق فى ذلك الزمان ، وما ذكره من أن الصندوق المذكور قبالة الرأس الشريف فيه تجوّز ؛ لأنه قد ظهر لنا فى هذه العمارة أنه فى محاذاة الجدار الداخل القبلى، وسيأتى أن الوجه الشريف إلى الجـــدار ؛ فالرأس الشريف متأخر عن الصندوق المذكور يسيرا

ومستند المجد وغيره فى هذا الإطلاق ما روى جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنه عن أبيه عن جده أنه كان إذا جاء يُسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وقف عند الأسطوانة التى تلى الروضة ، ثم يسلم ، ثم يقول : ها هنا رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد به ما قدمناه ، والله أعلم

وذرع الصندوق المذكور فى الارتفاع ذراع ونصف وربع بذراع اليد ، وأعلى القائم فوقه محاذٍ لرأس الوزَرَة الرخام ، وطول القائم المذكور ثلاثة أذرع ، وهو خمس صفحات ألصق بعضُها على بعض وجعلت محيطة بما ظهر من الأسطوانة التى

الصندوقُ بأصلها فوقه ؛ فإن بعض الأسطوانة فى البناء الملاصق لها من الحائز المذكور ولو أحاطت الصفحات بجميع الأسطوانة لـكانت أكثر من خمس ، ولـكانت شكلها مثمنا ، وهو مختم بالخشب الأسود الهندى ، معصّب بصفائح الفضة المموّهة طولا وعرضا بأحسن صناعة ، وصفائحُهُ الطولية من الفضة أربع ، والمقاطعة لها من جهة العرض خمس ، وفي رأسه من أعلاه حلية رقيقة كالزيق ، وزنة ما عليه من الفضة زيادة على ألفَيْ قفلة ، وأخذوا لأجل تمويهه من حاصل المسجد أربعين مثقالا من الذهب كما أخبرنى به متولى العمارة

وأما الصندوق فلم يغير ، وكله مُغَشًّى بالفضة ، وقد احترق فى حريق المسجد الثانى ، ووجدوا حليته من الفضة ، فجددوا صندوقا فى محله ، وجعلوا موضع القائم الذى كان فوقه رخاما مكتوبا فيه البسملة والصلاة والتسليم على النبى صلى الله عليه وسلم والترضّى عن أصحابه وغير ذلك

وأما المسمار المواجه للوجه الشريف فقد تقدم أن بينه و بين أول الصفحة الغربية من المغرب خمسة أذرع ، وقد اعتبرتُ ذلك فنقص يسيرا نحو سدس ذراع ، وكأنه لاختلاف الأذرعة ، ولم أعلم ابتداء حدوث التعليم بهذا المسمار أيضا ، والمذكور فى كلام المتقدمين إنمـا هو التعريفُ بأن يجعل القنديل على رأسه ، لـكن قال المطرى : إن ما ذكر من القيام تحت القنديل تجاه الحجرة الشريفة للسلام كان قبل احتراق المسجد الشريف ؛ فإنه لم يكن يقابل وجه النبى صلى الله عليه وسلم إلا قنديل واحد ؛ ولمـا جدد جُعل هناك عدة قناديل ، و إنمـا علامة الوقوف تجاه الوجه الـكريم اليوم مسمار فضة فى رخامة حمراء ، انتهى . وهو يوهم حدوث التعليم به بعد الحريق ، وليس كذلك ؛ لأن ابن النجار ذكر التعليم به كما سيأتى ، ولم يدرك الحريق ، ولأن ابن جُبَير ذكره فى رحلته وهو أقدم من ابن النجار فقال عند وصف الحجرة الشريفة : وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم مسمار فضة هو أمام الوجه الـكريم ، فتقف الناس أمامه للسلام ، انتهى . وأيضاً فقد روى ابن الجوزى فى « مثير الغرام الساكن » أن ابن أبى مُلَيكة كان يقول : مَنْ أحب أن يقوم وُجاه النبى صلى الله عليه وسلم

فليجعل القنديل الذى فى القبلة عند القبر على رأسه ، ثم قال ابن الجوزى : وثم ما هو أوضح علما من القنديل ، وهو مسمار من صُفْر فى حائط الحجرة ، إذا حاذاه القائم كان القنديل فوق رأسه ، انتهى .

وقال يحيى فى كتابه : كان ابن أبى مليكة يقول : إذا جعلت القنديل على رأسك والمرمرة المدخولة فى جدار القبر قبالة وجهك استقبلت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وكأن هذا المسمار فى موضع تلك المرمرة ، ولهذا قال ابن النجار : إن اليوم هناك علامة واضحة ، وهى مسمار من فضة فى حائط حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا قابله الإنسان كان القنديل على رأسه ، فيقابل وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

ولم أر لهذا المسمار ذكرا فى كلام مَنْ صنَّف فى المناسك قبل ابن جماعة ، والذى فى مناسك ابن الصلاح أخذا من الإحياء ذكر القنديل ، وجعله حذاء رأس الزائر ، ونقله عن ابن أبى مليكة ، واقتضى كلامه أن الواقف هناك يكون بينه و بين السارية التى عند رأس القبر عند زاويته الغربية وهى أسطوان الصندوق نحو أربعة أذرع ؛ فهو قريب مما تقدم فى التعليم بالمسمار المذكور ، وإن لم يصرح به ، لكن قال الأقشهرى ومن خطه نقلت : أخبرنا الإمام العالم رضى الدين أبو أحمد إبراهيم بن محمد بن أبى بكر إمام مقام إبراهيم الخليل بمكة توفى فى تاسع شهر ربيع الأول من عام اثنين وعشرين وسبعمائة والشيخُ الوزير أبو عبد الله محمد بن أبى بكر محمد بن عيسى المومنانى قالا : أخبرنا الإمام أبو عمرو عثمان ابن عبد الرحمن بن الصلاح السهروردى قال : ثم يأتى الزائر الضريحَ المقدس فيستدبر القبلة و يستقبل جداره نحو ثلاثة أذرع أو أربعة أذرع من الجدار وُجاه المسمار الذى فى الجدار القبلى من الحجرة المشرفة ، هذا ما نقلته من خط الأقشهرى بحروفه ، ولم أره فى كلام ابن الصلاح ، والذى نقله ابن عساكر فى تحفته عن

ابن الصلاح وهو من تلامذته إنما هو ما قدمناه ، وروايته عن إبراهيم الطبرى عن ابن الصلاح تخليط ؛ فإن وفاة ابن الصلاح فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، والذى أدركه إنما هو والد إبراهيم المذكور ، وهو المعروف بالرضى الطبرى ، فإن مولد الوالد المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، فإنما أدرك من زمن ابن الصلاح عشر سنين ، فكيف يكون ولده راويا عن ابن الصلاح بلا واسطة؟ .

وقال الأقشهرى عقب ما تقدم عنه : وقد سقط هـذا المسمار سنة عشرين وسبعمائة ، ولم يردّ إلى موضعه إلا فى رجب عام أربع وعشرين وسبعمائة .

قلت : وقد أخرج فى هذه العمارة من موضعه عند ترخيم جدار الحجرة الشريفة ، ثم أعيد فى محله الأول بعينه فى الرخامة الحمراء التى كان بها ، ثم سقط من محله فى الحريق الثانى ، وجدد مسمار آخر فى محله ، ولا يختلف أحد ممن أدركناه بالمدينة الشريفة فى أن ذلك الموضع تجاه الوجه الشريف ، وهو الذى يقتضيه الحالُ عند مشاهدة الحجرة الشريفة من داخلها ، غير أنى رأيت فى كلام يحيى ما يوهم خلاف ذلك ، فإنه ذكر أن الموضع الذى يواجه الوجه الشريف هو ما بين الأسطوانة المتوسطة فى قبلة جدار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، بين هذا الموضع وبين الأسطوان شبران وثلاث أصابع متفرجة من الحفيرة إلى الوسطى ، وإن كل مَنْ أدركه من أهل بيته كانوا إذا وقفوا للسلام على النبى صـلى الله عليه وسلم وقفوا قريبا من هـذا الموضع ، وكانت ثَمّ علامة قد تعلموا بها حُفيرة ولم تزل ثَمّ منذ عملت إلى أن عمر الصانعُ المسجدَ فى ولاية أمير المؤمنين المتوكل فإنه أزّرَ القبر بالرخام فذهبت العلامة منذ ذلك . وقال : إن موسى بن جعفر قال : مَنْ وقف فى هذا الموضع منحرفا واضعا شق وجهه الأيمن استقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن الحسين يقف ثَمّ ، انتهى .

قلت : الأسطوانة الوسطى التى يشير إليها هى البارزة فى الصفحة القبلية من جدار القبر ، يقف قربها المسلّم على عمر رضى الله عنه ، وبينها وبين المسمار المذكور

نحو ثلاث أذرع أو أزيد ، وقد قال : إن الموضع الذى ذكره بينه و بين الأسطوانة المذكورة شبران وثلاثة أصابع ، فيكون بعيداً من المسمار المذكور بنحو الذراعين وقد شاهدنا الأسطوانة المذكورة من داخل الحجرة فرأيناها قريبة من نهايتها ، بحيث إن من دفن هناك ووجهه فى محاذاة الموضع الذى ذكره يحيى كانت رجلاه فى جدار الحجرة الشرقى كما نقل ذلك فى دفن عمر رضى الله عنه ، فيبعد كل البعد كون الوجه الشريف فى محاذاة ذلك الموضع ، على أن ما نقله عن موسى ابن جعفر يقتضى أن استقبال الوجه الشريف للواقف فى الموضع الذى ذكره إنما يكون مع الانحراف ووضع شق الوجه الأيمن يعنى على جدار القبر ، وعلى هذا فيستقبل الزائر جهة المغرب حتى يحصل ذلك ، وذلك لأن الحائط القبلى منحرف كما أشرنا إليه فى التصوير المتقدم ، فلا يقتضى ذلك أن المستقبل للمحل الذى عيّنه من غير وضع وجهه يكون مقابلا للوجه الشريف ، و إنما يُسامِتُ الواقفُ الوجه الشريف إذا حاذى المسمار المتقدم وصفه ، وكأن يحيى يرى أن الزائر يلصق خده بجدار القبر على الهيئة السابقة ، فيصير محل المسمار المذكور أمامه ، ولذلك أورد عقب ما تقدم عنه قصة أبى أيوب الأنصارى الآتى ذكرها فى التزامه القبر .

واعلم أن تشبيك باب المقصورة التى حدثت إدارتها على ما حول الحجرة الشريفة قد يمنع من مشاهدة المسمار المذكور إلا لمن يتأمل ذلك من تشبيكه ، وذلك يشغل قلب الزائر ، وقد تحرر لنا أن ما يقابله من ذلك هو الصرعة الثانية من باب المقصورة القبلى الذى على يمين مستقبل القبر الشريف ، فمن حاذى هذه الصرعة كان محاذيا لذلك ، وهذا المسمار مموّه بالذهب رأسه مستدير ، وقد أحدث متولى العمارة مسماراً آخر رأسه فضة ، لكنه فى أول هذه الصفحة القبلية مما يلى المغرب قريباً من جهة الصندوق المتقدم وصفه ، ورأس هذا المسمار مُكَوْكَب كالقبة ، فلا يشتبه بالمسمار المتقدم ، وأحدث أيضاً مسمارين آخرين فى ابتداء الصفحة الغربية مما يلى القبلة قريباً من مسماره المتقدم ، وما علمت السببَ فى

إحداث ذلك ، وقد زالت هذه المسامير الثلاثة المحدثة بالحريق الثانى .

وأما الموضع المعروف بمقام جبريل عند مربعة القبر فقد تقدم أنه كان هناك مسمار فى منحرف المربعة إلى الزاوية الشمالية من الحجرة علامة عليه ، فلم نجده هناك ، وسألت عنه الخدام والمرخمين فقالوا : إنهم لم يجدوا هناك شيئاً ، وتسمية ذلك الموضع بمقام جبريل تقدم مستنده فى الكلام على أسطوان مربعة القبر ، ولم أدر لم سمى بذلك، إلا أن ابن جُبَير ذكر هذا المحل من الحجرة الشريفة ، وقال : وعليه سِتْر مُسْبَل يقال : إنه كان مهبط جبريل عليه السلام ، انتهى . لكن ترجم ابن شبة فى كتابه لمقام جبريل ثم قال : قال أبو غسان : علامة مقام جبريل عليه السلام التى يُعْرَف بها اليوم أنك تخرج من الباب الذى يقال له باب آل عثمان ، فترى على يمينك إذا خرجتَ من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حَجَراً أكبر من الحجارة التى بها جدار المسجد ، قال : فكان مالك بن أنس يقول ، وسقط ما بعد ذلك من كتاب ابن شبة فلم أدرِ ما هو ، لكن يستفاد من ذلك حكاية خلاف فى مقام جبريل : هل هو داخل المسجد عند المربعة المذكورة أو خارجه عند باب آل عثمان وهو المعروف اليوم بباب جبريل ؟ ولعل ذلك سبب تسمية الباب المذكور بذلك ، كما ستأتى الإشارة إليه .

وقال ابن زبالة : أخاف المسجدَ من شرقيه فى سلطان محمد بن عبد الله عبد الله بن سليمان الربعى مَن ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز، فأمر به فبنى ، وتعلم مقام جبريل عليه السلام بحجر ونقش فيه خاتم سليمان ومُشق لأن يعرف به مقام جبريل ، ومقام جبريل يمناه داخل فى المسجد ، فبلغ ذلك مالك بن أنس ، فتكلم فيه وأنكره وعابه ، فغير وجُعل مكانه حجر طويل مُصْمَت لاعَلَمَ فيه مخالف لحجارة المسجد ، انتهى ؛ فيحتمل أن يريد بقوله «ومقام جبريل يمناه داخل فى المسجد » الموضعَ المتقدم ذكره من

الحجرة الشريفة ، ويحتمل أن يريد أن الباب قد قدم عن محله الأول فى محاذاته، فصار مقام جبريل داخل المسجد فى محاذاة ذلك ، ويرجح هذا أن الظاهر أن الأصل فى مقام جبريل ماقدمناه فى غزوة بنى قُرَيْظَه من رواية صاحب الاكتفاء أن جبريل عليه السلام أتى فى ذلك اليوم على فَرَسٍ عليه اللأمة حتى وقَفَ بباب المسجد عند موضع الجنائز ، وإن على وجه جبريل لأثَرَ الغبار ،اهـ؛ فلذلك سمى الباب المذكور بباب جبريل ؛ إذ لم يكن حينئذ للمسجد باب فى ناحية الجنائز غيره .

وفى رواية البيهقى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم عندنا ، فسلم علينا رجل ونحن فى البيت، فقام رسول الله صلى الله عليه فَزِعًا، فقمتُ فى أثره ، فإذا بدِحْيَة الكلبى ، فقال : هذا جبريل عليه السلام يأمرنى أن أذهب إلى بنى قُرَيظة ، والله أعلم .

كسوة الحجرة النبوية

وأما كسوة الحجرة الشريفة فقد ذكر ابن النجار ماقدمناه فى تأزيرِ الحجرة الشريفة بالرخام وعمل الجواد الأصبهانى فى الشباك المتخذ من خشب الصندل المتقدم وصفه على جدارها ، ثم قال : ولم تزل الحجرة الشريفة على ذلك حتى عمل لها الحسين بن أبى الهيجاء صهرُ الصالحِ وزير الملوك المصريين ستارةً من الدبيق الأبيض ، وعليها الطروز والجامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر ، ونيطها وأدار عليها زنارا من الحرير الأحمر ، والزنار مكتوب عليه سورة (يس) بأسرها ، وقيل : إنه غرم على هذه الستارة مبلغاً عظيما من المال ، وأراد تعليقها على الحجرة ، فمنعه قاسم بن مهنى أمير المدينة وقال : حتى تستأذن الإمام المستضىء بأمر الله .

فبعث إلى العراق يستأذن فى تعليقها ، فجاءه الإذن فى ذلك ، فعلقها نحو العامين ، ثم جاءت من الخليفة ستارةٌ من الإبريسم البنفسجى عليها الطرز والجامات البيض المرقومة وعلى دَوَران جاماتها مكتوبٌ بالرقم : أبو بكر ، وعمر ،

وعثمان، وعلى، وعلى طرازها اسم الإمام المستضىء بأمر الله ، فشيلت تلك ونفذت إلى مشهد على بن أبى طالب بالكوفة ، وعلقت هذه عوضها ، فلما ولى الإمام الناصر لدين الله نفذ ستارة أخرى من الإبريسم الأسود ، وطرزها وجاماتها من الإبريسم الأبيض ، فعلقت فوق تلك ، فلما حجت الجهة أم الخليفة وعادت إلى العراق عَمِلت ستارة من الإبريسم الأسود أيضاً على شكل المذكورة ونفذتها فعلقت على هذه ، ففى يومنا هذا على الحجرة ثلاث ستائر بعضهن على بعض ، انتهى .

وهو يقتضى أن ابن أبى الهيجاء أول من كسا الحجرة فى خلافة المستضىء بأمر الله ، وكانت خلافته فى سنة ست وستين وخمسمائة ، ومات سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وفى كلام رزين مايقتضى مخالفته ؛فإنه قال فى ضمن كلام نقله عن محمد ابن إسماعيل مالفظه : فلما كانت ولاية هرون أمير المؤمنين وقدمت معه الخيزُرَان أمرت بتخليق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخليق القبر وكسته الزنانير وشبائك الحرير ، انتهى .

وقد رأيت فى العُتْبية ما يصلح أن يكون مستنداً فى أصل الكسوة ، فإنه قال فى أوائلها : قيل لمالك : قلتَ إنه ينبغى أن ينظر فى قبر النبى صلى الله عليه وسلم كيف يكسون سقفه ، فقيل : يجعل عليه خيش، فقال : وما يعجبنى الخيش ، وإنه ينبغى أن ينظر فيه ، انتهى .

قال ابن رشد فى بيانه : كرِهَ مالك كَشْفُ سقف قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى من صونه أن يكون مغطًّى ، ولم ير أن يكتفى من ذلك بالخيش ، وكأنه ذهب إلى أن يغطى بتغطية البيوت المسكونة . ولقد أخبرنى من أثق به أنه لاسقف له اليوم تحت سقف المسجد ، انتهى .

وقد يضم إلى ذلك أنه إنما جاز كسوة الكعبة لما فيه من التعظيم ، ونحن مأمورون بتعظيم النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعظيمُ قبره من تعظيمه ، وهذا أولى

بالجواز مما سيأتى عن السبكى فى مسألة القناديل من الذهب حيث سلك بها هذا المسلك ، وليس فى كلام ابن زَبَالة ويحيى تعرض لأمر كسوة الحجرة ، ولعله لأنها إنما حدثت بعدهما ، مع أن ابن زبالة ذكر ما قدمناه فى كسوة المنبر الشريف وجعل الستور على الأبواب ، ونقل أن كسوة الكعبة كان يؤتى بها المدينة قبل أن تصل إلى مكة ، فتنشر فى مؤخر المسجد ، ثم يخرج بها إلى مكة ، ولم يذكر للحجرة كسوة .

ثم ذكر تخليق الحجرة والمسجد فقال : وقدمت الخيزُران أم موسى أمير المؤمنين المدينة فى سنة سبعين ومائة ، فأمرت بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم فخَلّق ، وولى ذلك من تخليقه مؤنسة جاريتها ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل ابن عبيد الله بن سليمان مولى هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا مَنْ بعدكم وأن تفعلوا ما لم يفعل مَنْ كان قبلكم ؟ قالت له مؤنسة : وما ذلك ؟ قال : تُخَلِّقون القبر كله ، ففعلوا ، وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل، وأشار عليهم فزادوا فى خَلُوق أسطوان التوبة والأسطوان التى هى عَلَم عند مصلّى النبى صلى الله عليه وسلم فخلّقوهما حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا فى الخلوق فى أعلاهما ، انتهى ولو كان لكسوة الحجرة وجود فى زمانه لتعرض له .

واعلم أن فى عشر الستين وسبعمائة فى دولة السلطان الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاون اشترى قريةً من بيت مال المسلمين بمصر ، ووقفها على كسوة الكعبة المشرفة فى كل سنة ، وعلى كسوة الحجرة المقدسة والمنبر الشريف فى كل خمس سنين مرة ، هكذا ذكره التقىُّ الفاسى فى شفاء الغرام .

وذكره الزين المراغى إلا أنه قال فى الوقف على كسوة الحجرة : فى كل ست سنين مرة ، تعمل من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض ، ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها ، إلا كسوة المنبر فإنها بتقصيص أبيض .

قلت : وما ذكراه من المدة المذكورة بالنسبة إلى الحجرة كأنه كان معمولا به

فى زمانهما ، وأما فى زماننا فيمضى عشرُ سنين ونحوُها ولا تعمل ، نعم كلما ولى ملك بمصر فإنه يعتنى بإرسال كسوة .

وذكر الحافظ ابن حجر فى الكلام على كسوة الكعبة أن الصالح هذا اشترى حصة من بلد يقال لها سنديس ، اشترى الثلثين منها من وكيل بيت المال ، ووقفها على هذه الجهة ، ولم يتعرض لكسوة الحجرة ، فلعل الثلث الثالث الذى لم يذكره يتعلق بكسوة الحجرة لما قدمناه ، ويحتمل أن ما يرد من الكسوة من جهة الملوك ، لا من وقفٍ ، وعادتهم إذا وردت كسوة جديدة قَسَم شيخُ الخدام الكسوة العتيقة على الخدام ومن يراه من غيرهم ، ويحمل إلى السلطان بمصر منها جانبا ، وحكم بيع كسوة الحجرة كحكم بيع كسوة الكعبة ، وقد اختلف العلماء فى ذلك قديما ، وفى المسألة عندنا وجهان .

وقال الحافظ صلاح الدين خليل العلائى : إنه لا يتردد فى جواز ذلك الآن ؛ لأن وقف الإمام للضيعة المتقدمة على الكسوة كان بعد استقرار هذه العادة والعلم بها ، فينزل لفظ الواقف عليها ، انتهى، والله أعلم .

الفصل الخامس والعشرون

فى قناديل الذهب والفضة التى تعلق حول الحجرة الشريفة ، وغيرها من معاليقهـا .

القناديل

اعلم أنى لم أر فى كلام أحد ذكر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن النجار قال ما لفظه : وفى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزُّوّار إذا وقفوا مُعَلَّقٌ نيفٌ وأربعون قنديلا كبارا وصغارا من الفضة المنقوشة والساذجة ، وفيها اثنان بلور ، وواحد ذهب ، وفيها قمر من فضة مغموس فى الذهب ، وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال ، انتهى .

قلت : واستمر عمل الملوك وأرباب الحشمة إلى زماننا هذا على الإهداء إلى الحجرة الشريفة قناديل الذهب والفضة .

ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين العثمانى أشياء نقلها من خط قاضى طيبة الزين عبد الرحمن بن صالح يتضمن ما كان يَرِدُ فى كل سنة من ذلك ؛ فذكر فى سنةٍ خمسة عشر قنديلا ، وفى أخرى ثلاثة عشر ، وفى أخرى عشرة ، وفى أخرى إحدى وعشرين .

قلت : وفى زماننا هذا يَرِدُ فى غالب السنين ما يزيد على العشرين ، ولا ضابط لذلك ؛ فإنه يرد من نذور من ناسٍ مختلفين ، وكأن هذه القناديل كانت إذا كَثُرت رفَعُوا بعضها ووضعوه بالحاصل الذى فى وسط المسجد ، فاجتمع فيه شىء كثير ، فاتفق على ما ذكره الحافظ ابن حجر فى سنة إحدى عشرة وثمانمائة أن فوض السلطان الناصر فرج لحسن بن عجلان سلطنة الحجاز ، فاتفق موت ثابت ابن نعير ، وقرر حسن مكانه أخاه عجلان بن نعير المنصورى ، فثار عليهم جماز ابن هبة بن جماز الجمازى الذى كان أمير المدينة ، وأرسل إلى الخدَّام بالمدينة يستدعيهم ، فامتنعوا من الحضور إليه ، فدخل المسجد الشريف ، وأخذ ستارتى باب الحجرة ، وطلب من الخدام تسعة آلاف درهم على أن لا يتعرض لحاصل الحرم ، فامتنعوا ، فضرب شيخهم ، وكسر قفل الحاصل ، هكذا رأيته فى « أنباء الغمر » للحافظ ابن حجر .

والذى رأيته فى مَحْضرٍ عليه خطوطُ غالب أعيان المدينة الشريفة ما حاصله : أن جماز بن هبة المذكور كان أمير المدينة ، فبرزت المراسيم الشريفة بتولية ثابت ابن نعير إمرة المدينة وأن يكون النظر فى جميع الحجاز لحسن بن عجلان ، ولم يصل الخبر بذلك إلا بعد وفاة ثابت بن نعير ، فأظهر جماز بن هبة الخلاف والعصيان وجمع جموعا من المفسدين وأباح نَهْبَ بعض بيوت المدينة ، ثم حضر مع جماعة إلى المسجد الشريف ، وأهان مَنْ حضر معه من القضاة والمشايخ وشيخ الخدام باليد واللسان ، وشهَرَ سيفه عليهم ، وكسر باب القبة حاصل الحرم الشريف ، وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التى تُحْمَل على تعاقب السنين من سائر

الآفاق تقرباً إلى الله ورسوله وأشياء نفيسة وختمات شريفة وزيت المصابيح وشموعَ التراويح وأكفان ودراهم يوارى بها الطرحاء ، وقطع مكاتيب الأوقاف وغَسَلها ، وقصد الحجرة الشريفة ، وأحضر السلم لإنزال كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلقة حوله ، فلم يُقدَّرْ له ذلك ومنعه الله منه ، وأخذ ستر أبواب الحجرة الشريفة من خزانة الخدام ، وتعطل فى ذلك اليوم وليلته والذى يليها المسجدُ الشريفُ من الأذان والإقامة والجماعة ، وأخذ جماعته وأقاربه فى نهب بيوت الناس ومصادرتهم ، وأخذ جمال السوانى ، وارتحل هارباً عقب ذلك ، ولما اتصل بحسن ابن عجلان ما فوض إليه من أمر الحجاز استدعى بعجلان بن نعير وأقامه فى إمرة المدينة ، وعرفه ما برزت به المراسيم أولا فى ولاية أخيه ، انتهى .

وذكر الحافظ ابن حجر أنه أخذ من الحاصل المذكور إحدى عشر خوشخاناً وصندوقين كبيرين وصندوقاً صغيراً بما فى ذلك من المال وخمسة آلاف شقة من البطاين ، وصادر بعض الخدام ، ونزح عنها ؛ فدخل عجلان بن نعير ومعه آل منصور فنُودِيَ بالأمان ، ثم قدم عقبهُ أحمد بن حسن بن عجلان ومعه عسكر ، يعنى من مكة .

قلت : ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين المراغى قائمة ذكر أنه نقلها من خط قاضى طيبة الزين عبد الرحمن بن صالح صورتها : الذى كان فى القبة ، وأخذه جماز بن هبة ، هو من القناديل الفضة ثلاثة وعشرون قنطاراً وثلث قنطار ، غير الذى فى الرفوف ، والصندوقين الذهب ، ثم ذكر تفصيل ذلك فى ثمان عشرة وزنة ، ثم كتب ما صورته: خوشخانة مختومة لم تفتح ، والظاهر أنها ذهب ، وزنة القناديل التى فى الرفوف أربع قناطير إلا ثلث ، وتسع قناديل ذهب بالعدد فى صندوق ، وصندوق صغير مقفول ، انتهى .

وبلغنا أنه دفن غالب ذلك ، ثم أخذه الله أخْذاً وَبيلا فقتل هو ومن اطلع معه على دفن ذلك ، فلم يعلم مكانه إلى اليوم .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر قَتْلَه فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فقال : وفيها قتل جماز بن هبة بن جماز بن منصور الحسينى أمير المدينة ، وقد كان أخذ حاصل المدينة ونزح عنها ، فلم يُمْهَل وقتل فى حرب جرت بينه و بين أعدائه ، انتهى .

قلت : إنما بيتته بعض عرب مَطِير فاغتاله وهو نائم .

ورأيت فى القائمة المتقدم ذكرها التى نقلها شيخنا المتقدم ذكره ما صورته : وزن ما فى الحجرة من قناديل الذهب تسع قناطير ، وورد بعد ذلك من أم السلطان قنديل زنته ألف مثقال ، وورد من أخت السلطان قنديل زنته ألف وخمسمائة ، وأربع قناديل كبار فى الواحد منهم أربعة صغار ، وفى الثانى اثنان صغار ، وفى الثالث عدة قناديل معفوسة ، وفى الرابع قنديل ، زنة الجميع ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرون مثقالا ، وعلى يد الطواشى صندل قنديلين صغار ، ومعلق بعد ذلك عدة قناديل لم تكتب ، انتهى .

والظاهر أنه سقط بعد قوله « من قناديل الذهب » لفظُ « والفضة » وفى هذه القائمة أيضاً أن بالقبة ـ يعنى بعد قصة جماز المتقدمة ـ من قناديل الفضة مائة رطل وسبعة عشر رطلا وضعها يسق بيده ، انتهى .

ثم إن الأمير غُرير بن هيازع بن هبة الحسينى الجمازى أخذ جانباً من الحاصل المذكور فى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، زاعماً أنه على سبيل القرض ، وامتحن بعض قضاة المدينة لسبب ذلك ، ثم حُمل غرير المذكور إلى القاهرة محتفظاً به ، ومات بها مسجوناً .

ولم تزل هذه القناديل فى زيادة حتى عدا عليها فى ليلة السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ستين وثمانمائة برغوث بن بتير بن جُريس الحسينى ؛ فدخل الدارَ المعروفة بدار الشباك بجانب باب الرحمة ليلا ، ولم يكن بها ساكن ، وتَسَوَّر جدار المسجد ، ودخل بين سقفى المسجد الشريف من شباك هناك ، ومشى حتى بلغ ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة ، فأخذ من تلك القناديل شيئا كثيراً ، وكأنه تردَّدَ لذلك المرة بعد الأخرى ، ولم يشعر أهل المسجد ونظاره بشىء من ذلك ،

غير أن أمَةً لبعض جيران الدار المذكورة رأتْ من سطح دارهم شخصين فى أعلى دار الشباك يتعاطيَان شيئاً له حجم كبير وصوت صَلِيل ، فلما أصبحت أخبرت بوَّابَ المسجد فلم يعبأ بذلك لخلو تلك الدار ، و بُعْدِ ذلك الأمر عن الأفكار ، ولكن الله أراد هتك المذكور وحلول النقمة به ، فأنهى بعضُ الناس إلى أمير المدينة أن المذكور معه شىء كثير من المال غير معهود ، فأمسكه الأمير وضَيّقَ عليه بالسجن ، فانخلس ليلا ، ثم شاع بالمدينة بيع شبابيك من الفضة والذهب ، فكثر القال والقيل ، ثم فى شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين استفاض أن برغوثاً بالينبع ومعه قطع من ذهب القناديل ، فافتقد النظار الحجرة الشريفة ، فرأوا أكثر القناديل مأخوذاً ، فعلموا الحال ، لكن لم يعلموا الكيفية ، واتهمت ابنة السراج النفطى بممالأة برغوث على ذلك وأنه إنما تسور من بيت أبيها لكونه متصلا بالمسجد فى قبلته ، وأظهر الله براءتها بعد ذلك ، وكان بالمدينة إذ ذاك زين الدين استدار الصحبة ، فعقد مجلساً لذلك ، واجتمع أعيان أهل المدينة ، وكتبوا إلى أمير الينبع بالقبض على برغوث و إرساله ، فقبض عليه ، فاعترف أنه فعَلَ ذلك هو ودبوس بن سعد الحسينى الطفيلى ، وجعل أن دخوله من بيت المرأة المتقدم ذكرها ، وأن بعض الخدام واطأه على ذلك ، ثم أظهر الله الحق ، وأن دخوله إنما كان من دار الشباك ، وأن شريكه المُعِينَ له على ذلك دبوس المذكور ، ولم يَرَ أميرُ ينبع إرساله إلى المدينة ، بل تركه عنده منتظراً الأوامر السلطانية ، ثم إن أمير المدينة أمسك دبوساً و بعض أقارب به ، فأنكر هو ، وأقر عليه بعض جماعته وأحضروا جانباً من الذهب والفضة ، ثم هرب برغوث من الحبس بالينبع ، ثم ساقه الله إلى المدينة ، فلما وصل دُلَّ عليه أميرها ، فأمسكه وحبسه مع دبوس وذَوِيه ، فهربوا ، ثم أظفر الله بهم ، ولم يغب منهم إلا دبوس ، و برزت المراسيم بقتل مَنْ تجرأ على هذه العظيمة ، فقتل أمير المدينة برغوثا وآخر معه من أقاربه يسمى ركاباً ، وصلبهما ، ثم ظفر بدبوس وقتله أيضا .

وأخبرت عن برغوث أنه قال : كنت كلما توجّهت فى حالِ هرَبى لغير جهة المدينة كأنى أجد من يصدُّنى عن ذلك ، وإذا قصدت جهةَ المدينة تيسرت لى وكأن شخصاً يَقُودنى إليها حتى دخلتها .

وأما عدة القناديل الموجودة فى زماننا هذا بالحجرة الشريفة فقد ضبطت فى أول سنة إحدى وثمانين وثمانمائة بأمر السلطان الأشرف لشيخ الحرم الأمير انيال والقضاى الزكوى ؛ فكان عدة معاليق الذهب ثمانيةعشر قنديلاو بعض قنديل ، وأربع مشنات ، ومغرافان ، وسواران ، وزنة ذلك سبعة آلاف قفلة وستمائة وخمسة وثلاثون ، من ذلك قنديل كبير فى جهة الوجه الشريف زِنَتُه أربعة آلاف وستمائة قفلة ، أهداه سلطان الكلرجه شهاب الدين أحمد ، وعدة معاليق الفضة ثلاثمائة قنديل وأربعة وأربعون قنديلا ، وثُرَية كبيرة ، زنة ذلك ستة وأربعون ألف قفلة وأربعمائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وكانت ضبطت قبل ذلك فى سنة اثنتين وستين وثمانمائة على يد الأمير برد بك التاجى فتحرَّر من النظر بين المقدارين أن الزائد على ما ضبط فى التاريخ المتقدم من الذهب ألف قفلة ومائة وخمسة وخمسون ، ومن الفضة ثلاثة عشر ألف قفلة وسبعمائة وخمسة وثمانون قفلة ، فذلك القدر هو الوارد من عام ثلاث وستين إلى آخر عام تسع وسبعين ، وهناك من المعاليق أيضاً غير ما تقدم قنديل من بلور بتابوت من فضة ، وقناديل نحاس أربعة ، وفولاذ واحد مُكَفَّت بالذهب مشبك مكتوب عليه أن الناصر محمد ابن قلاوون علقه من يده إلى عام حجه ، ثم ورد فى سنة ثمانين فى مشيخة الشيخ انيال ولم يدخل فى الجملة المتقدمة قنديلان من الذهب زنتهما مائة وخمسة وعشرون قفلة ، ومن الفضة اثنان وثلاثون قنديلا زنتها ألف ومائتان وخمسة وسبعون قفلة ، وفى سنة إحدى وثمانين قنديل ذهب زنته مائة واثنان وأربعون قفلة ، وأربعة وعشرون قنديلا من الفضة زنتها تسعمائة وخمسون قفلة ، وفى سنة اثنين وثمانين من الفضة أحد وثلاثون قنديلا زنتها ألف وخمسمائة وخمسون قفلة ، ولم يرد شىء

من الذهب ، وفى سنة ثلاث وثمانين من الذهب قنديل واحد زنته عشرون قفلة ، ومن الفضة خمسة وعشرون قنديلا زنتها ألف ومائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وفى سنة أربع وثمانين من الفضة تسعة عشر قنديلا زنتها سبعمائة وخمسة وأربعون قفلة ، ولم يرد شىء من الذهب؛ فجملة ما ورد فى ولاية الأمير انيال فى المدة المذكورة من الذهب أربعة قناديل جملة زنتها مائتان وسبعة وثمانون قفلة ، ومن الفضة مائة قنديل وتسعة وعشرون قنديلا جملة زنتها خمسة آلاف وستمائة وخمسة وخمسون قفلة ، ولما شرعوا فى عمارة الحجرة الشريفة الآتى ذكرها فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة رفعوا جمع المعاليق التى كانت حولها ، ووضعت بالقبة التى بصحن المسجد بأمر متولى العمارة الجناب الشمسى ، ولم يزل بها إلى تاريخه ، ولم يكن اليوم حول الحجرة الشريفة من المعاليق إلا ما تجدد فى آخر سنة إحدى وثمانين إلى آخر سنة أربع وثمانين ، ثم حسّن متولى العمارة للسلطان صرف ذلك فى مصالح المسجد والمدينة الشريفة ، فحمل بعضُه من الحاصل المذكور إلى مصر قبيل الحريق الثانى ، ثم وجدوا ما سقط لسبب الحريق من القناديل التى كانت معلقة بحالها ، ثم صرف متولى العمارة بعضَ ذلك فى تذهيب السّقف المُعادَة بعد الحريق ، ثم وضع بهذه القبة ما تجمد من مصاريف حب السماط المجدد ، فاجتمع بها نحو ثلاثة عشر ألف دينار ، فاتفق أن أمير المدينة حسن بن زبيرى المنصورى حضر بجماعة مع الاستعداد بالأسلحة والسيوف المسلولة ؛ فدخل المسجد الشريف على تلك الحالة وقت الظهر من سادس ربيع الأول عام أحد وتسعمائة ، وأمر خازندار الحرم الشريف بإحضار مفاتيح الحاصل المذكور ، فامتنع من ذلك ، فضربه ضربا مُبرِّحا ، ثم عَمَدَ إلى باب الحاصل المذكور وأحضر فأساً وكسره وأخذ جميع ما فيه من النقد والقناديل والسبايك ، فحمل منه ثلاثة أحمال على فرسين وبغل وغراير تسع على ظهور الحمالين ، ثم ذهب إلى حِصْنه وأحضر الصُّياغ وسَبَكَ تلك القناديل ، وذكر أنه صنع ذلك رغبة عن إمرة المدينة ؛ لأن ولايته كانت بطريق النيابة عن السيد

الشريف محمد بن بركات لتفويض السلطان الأشرف إليه أمر الحجاز وأن المشار إليه صار يأخذ حصته مما يحمل له من الإقطاع ومن الصدقات ، وعطل عليه أهل مصر بعض إقطاعه ، فحمله ذلك على ما سبق .

حكم معاليق المسجد النبوى

وأما حكم هذه المعاليق ونحوها من تحلية الصندوق المتقدم ذكره والقائم الذى بأعلاه فحكم معاليق الكعبة الشريفة وتحليتها ، وقد تكلم السبكى فى حكم قناديل الكعبة وحليتها والقناديل التى حول الحجرة الشريفة ، وألَّفَ فى ذلك كتابا سماه « تنزل السكينة ، على قناديل المدينة » فأورد حديث البخارى وغيره فى كنز الكعبة وما تضمنه من إقرار النبى صلى الله عليه وسلم له بمحله ، ثم أبى بكر بعده ، ورجوع عمر رضى الله عنه لذلك لما ذكره به ابن شيبة ، وقال : هما المرآن يقتدى بهما ، قال : فهذا الحديث عمدة فى مال الكعبة ، وهو مايُهْدَى إليها أو ما يُنْذَر لها وما يوجد فيها من الأموال .

قال ابن بطال : أراد عمر إنفاقه فى منافع المسلمين ، ثم لما ذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتعرض له أمسك ، وإنما ترك ذلك والله أعلم لأن ما جعل فى الكعبة وسُبِّلَ لها يجرى مجرى الأوقاف ؛ فلا يجوز تغييره عن وجهه ، وفى ذلك تعظيم للاسلام وترهيب للعدو .

قلت : قد تعقَّبَ ذلك الحافظُ ابنُ حجر باحتمال أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم إنما تركه رعايةً لقلوب قريش ، كما ترك بناء الكعبة على قواعد إبراهيم ، ويؤيده ما وقع عند مسلم فى بعض طرق حديث عائشة رضى الله عنها ولفظه « لولا أن قومك حَدِيثُو عهدٍ بكفر لأنفقتُ كنز الكعبة فى سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض » الحديثَ ، فهذا التعليل هو المعتمد

قلت : لكن قد يقال : حيث تركه النبى صلى الله عليه وسلم لهذه العلة ثم تركه أبو بكر ثم عمر بعد الهمّ به ورجوعه عن ذلك ثم مَنْ بعده فهو إجماع على تركه ؛ فلا نتعرض له ؛ لما يترتب عليه من الشناعة والله أعلم

قال السبكى : ولا يغلط فى أن ذلك يصرف إلى فقراء الحرم ، فإنما يكون ذلك إذا كان الإهداء إلى الحرم أو إلى مكة ، أما إذا كان للكعبة نفسها فلا يصرف إلا إليها ، كأن تعرض لها عمارة فحينئذ ينظر : فإن كانت تلك الأموال قد أرصدت لذلك صرفت فيه ، وإلا فيختص بها الوجه ألذى أرْصد له ، فالمرصد للبخور مثلا لا يصرف للسترة

قال : وأما القناديل التى فيها والصفائح التى عليها فلا يُصْرَف منها شىء ، بل تبقى على حالها ، وقول عمر « لقد هممت أن لا أدَعَ فيها صُفْرا ولا بيضا » محتمل للنوعين ، ولم ينقل إلينا صفتها التى كانت ذلك الوقت ، ومن قال أول من ذهّب البيت فى الإسلام الوليدُ لا ينفى أن يكون البيت ذُهِّب فى الجاهلية وبقى إلى عهد عمر

قلت : قد نقل التقى الفاسى عن خط الحافظ رشيد الدين بن المنذرى فى اختصاره لتاريخ المسبحى ما لفظه : وفيها — أى سنة خمس وستين — استتم ابن الزبير بناء الكعبة ، ويقال : إنه بنَاها بالرصاص المذوب المخلوط بالورس ، وجعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب ومفاتحها ذهبا ، اه . فإن صح فهو أولى ما يحتج به

ثم نقل السبكى عن الرافعى أنه قال : لا يجوز تحلية الكعبة بالذهب والفضة وتعليق قناديلها . ثم نقل أن فى تحلية الكعبة والمساجد بالذهب والفضة وتعليق قناديلها وجهين مرويين فى الحاوى وغيره : أحدهما : الجواز ، تعظيما كما فى المصحف ، وكما يجوز ستر الكعبة بالديباج ، وأظهرهما المنع ؛ إذ لم ينقل ذلك عن فعل السلف، ثم استشكل كلام الرافعى فقال : وأما التسوية بين الكعبة والمساجد فلا ينبغى ؛ لأن للكعبة من التعظيم ما ليس للمساجد ، بدليل جواز سَتْرها بالحرير إجماعا ، وفى ستر المساجد به خلاف ، فحكاية الخلاف فيها مشكل ، وترجيح المنع أشكل ، وكيف وقد فعل ذلك فى صَدْر هذه الأمة ، وقد تولى عمر بن عبد العزيز

عمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوليد وذَهَّبَ سقفه بأمره من غير مراجعة ، بل لما ولى الخلافة بعد ذلك أراد أن يزيل ما فى جامع بنى أمية من الذهب فقيل له : إنه لا يتحصل منه شيء يقوم بأجرة حَكّه ، فتركه . والصفائح التى على الكعبة يتحصَّل منها شيء كثير ، فلو كان فعلها حراما لأزالها فى خلافته ، فلما تركها ومعه جميع من يحجّ كل عام وجب القطع بجوازها ، وهذا فى تحلية الكعبة بالصفائح ، ولا منع من جريان الخلاف فى التمويه لإزالة المالية ، ولا من إجراء الخلاف فى سائر المساجد تمويها وتحلية ، على أن القاضى حسين جَزَم بحلّ تحلية المسجد بالقناديل من الذهب ونحوها ، وأن حكمها حكم الحلى المباح ، وهذا أرجح مما قال الرافعى ؛ لأنه ليس على تحريمهما دليل ، والحرام من الذهب إنما هو استعمال المذكور له ، والأكل والشرب ونحوهما ، وليس فى تحلية المسجد بالقناديل ونحوها شيء من ذلك ، لكن لا أقول إنه ينتهى إلى حدّ القُرْبة فى سائر المساجد ، وتعليل الرافعى لما قاله بأن ذلك لم ينقل عن فعل السلف عجيب ؛ إذ لا يقتضى ذلك التحريم ، ومن حرم اتخاذ الآنية وهو الأصح فإنما حرمه لأن النفس تدعو إلى الاستعمال المحرم ، وذلك إذا كانت له ، وأما إذا جعلها للمسجد فلا تدعو النفس لذلك ، فكيف يحرم وهى لا تسمى أوانى ؟

قال : ورأيت الحنابلة قالوا بتحريمها للمسجد ، وجعلوها من الأوانى أو مَقيسة عليها ، وليس بصحيح ، ومن يقول بجواز التحلية والقناديل فى سائر المساجد فلا شك أنه يقول بها فى المساجد الثلاثة بطريق الأولى ، ومن منع فلم يصرح فى المساجد الثلاثة بشيء ، لكن عموم كلامهم يشملها ، وينبغى ترتيبُ الخلاف : ففى المساجد غير الثلاثة وجهان أصحهما الجواز ، ومسجد بيت المقدس أولى بالجواز ، والمسجدان مسجد مكة ومسجد المدينة أولى منه ، ثم المسجدان على الخلاف فى تفضيلهما ، وقد يقال إن مسجد المدينة أولى لمجاورة النبى صلى الله عليه وسلم وقصد تعظيمه بما فى مسجده من ذلك ، هذا كله بحث ، والمنقول ما تقدم .

وهذا فى الاتخاذ من غير وَقْف ، فإن وَقَفَ المتخذ من ذلك فقد قطع القاضى حسين والرافعى بأنه لا زكاة فيه ، وقد رجح الرافعى فيها التحريم ، فكيف يرجح ذلك ؟ إذ مقتضاه صحة وقفها ، فلعل مراد الرافعى إذا وقفت على قصد صحيح وإذا فرعنا على صحة وقفها . قال : وهـذا حكم المساجد فى ذلك ، وأما الحجرة الشريفة فتعليق القناديل فيها أمر معتاد من زمان ، ولا شك أنها أولىٰ بذلك من غيرها ، والذين ذكروا الخلاف فى المساجد لم يذكروها ، وكم من عالم وصالح قد أتى للزيارة ولم يحصل من أحد إنكار لذلك .

فهذا وحده كافٍ فى جواز ذلك مع ما تقدم ، واستقراء الأدلة فلم يوجد فيها ما يدل على المنع . قال : فنحن نقطع بالجواز ، والحجرة الشريفة هى بيت عائشة وما حوله ، وأشار إلى بيان أن ما حوله إما منـه أو من بقية الحجر المُدْخَلة فى المسجد .

قال : والمدفن الشريف بالحجرة له شرف على جميع المساجد وعلى الـكعبة ؛ فلا يلزم من المنع فى المساجد والـكعبة المنع هنا .

قال : ولم نر أحدا قال بالمنع هنا ، فما وقف من ذلك إكراما لذلك المـكان صح وقفه ، وإن اقتصر على إهدائه صح أيضاً كالمهدَى للـكعبة ، وكذلك المنذور له ، وقد يزاد هنا فيقال : إنه مستحق للنبى صلى الله عليه وسـلم والنبى صلى الله عليه وسلم حى ، وإنما يحكم بانقطاع ملـكه بموته عما كان فى ملـكه وجعله صدقة بعده .

وأما هذا النوع فلا يمتنع ملـكه له ، وهو الذى فى أذهان كثير من الناس حيث يقولون : هذا للنبى صلى الله عليه وسلم .

ثم أورد ما رواه يحيى بن الحسين بسنده من الخبر الآتى فى إجمار المسجد عن عبد الله بن محمد بن عمار عن أبيه عن جده قال : أتى عمر بن الخطاب بمِجْمَرَة من فضة فيها تماثيل ، فدفعها إلى سعدٍ أحدِ المؤذنين ، وقال : أجمر بها فى الجمعة وفى

شهر رمضان ، فكان سعد يجمر بها بين يدى عمر بن الخطاب ، الخبرَ الآتى .

ثم قال : عبد الله بن محمد بن عمار بن سعد القرظ ضعفه ابن معين ، وكذا الراوى عنه ، ومحمد بن عمار حسن له الترمذى ، فلو سلم ممن دونه كان جيداً ، ومقتضى اشتراط الفقهاء الاحتواء فى المجمرة عدم تحريم هذا الصنيع ، لكن العرف دالّ على عد ذلك استعمالا ، فإما أن يكون الحديث ضعيفا ، وإما أن يكون احتمل ذلك لأجل المسجد تعظيما له ، فتكون القناديل بطريق الأولى ؛ إذ لا استعمال فيها .

قال : ولا يجوز صرف شىء من قناديل الحجرة فى عمارتها ، ولا فى عمارة المسجد ؛ لأنها إنما أعدت للبقاء ، وليس قصد بها جهات إلا ذلك ، سواء وقفها أو اقتصر على إهدائها .

قال : وقد سئلت عن جواز بيعها لعمارة المسجد النبوى ، فأنكرته واستقبحته ، وكيف يبلغ ملوك الأرض أنا بعنا قناديل نبينا لعمارة حرمه ونحن نفديه بأنفسنا فضلا عن أموالنا ؟ وما برحت الملوكُ يفتخرون بعمارته .

قلت : وقد تعقبه جماعة ، والمحل قابل للمناقشة ، وليس ذلك من غرضنا ، غير أنا نقول : ستر الكعبة بالديباج قام عليه الإجماع ، وأما التحلية بما ذكر فلم يثبت عن من يحتج بفعله ، وترك عمر بن عبد العزيز يحتمل أعذارا ليس هذا محل بيانها .

وقد نقل الشيخ الموفق الإجماع على تحريم استعمال أوانى الذهب ، والقناديل من الأوانى بلا شك ، واستعمال كل شىء بحسبه ؛ فاستعمال ما ذكر بتعليقه للزينة ، وقد سلم تحريم اتخاذ الأبنية منها أيضاً .

وقد ذكر الجمال الكازرونى المدنى أشياء أيّدَ بها كلام السبكى : منها أن الله تعالى قال « فى بيوت أذِنَ الله أن ترفع » قال : وهى بيوت النبى صلى الله

عليه وسلم ، قاله مجاهد ، ومعنى ترفع تعظم و يرفع شأنها وتزين ، وتزيينها تعليق قناديل الذهب فيها ، وتطهر من الأنجاس والأقذار وتطيب .

قلت : قوله «ومن تعظيمها تعليق ذلك فيها» هو محل النزاع ؛ لأن من حرم ذلك لا يسلمه ، والله أعلم .

ومنها : أنه روى عن عثمان تعليق قناديل الذهب بالمسجد النبوى .

قلت : ولعله من اختلاف أعدائه عليه ، ولم أرَهُ مسطورا فى تأليف ، ولو كان له أصل لذكره مؤرخو المدينة

ومنها : أن عمر بن عبد العزيز فَعَله فى بنيانه للوليد ولم ينكر عليه .

قلت : ولم أره فى تأليف أيضاً .

ومنها : أنه روى أن سليمان بن داود عليه السلام بنى مسجد بيت المقدس ، و بالغ فى زينته وتعليق القناديل فيه ، وشَرْعُ من قبلنا شرع لنا مالم يرد ناسخ .

قلت : لم ينقل تعليق داود عليه السلام لقناديل الذهب به ، ولو صح ذلك فالناسخ فى شرعنا تحريمُ الآنية ، وهذا آنية ، وما تقدم عن السبكى فى كونه ليس بآنية ممنوع .

ومنها : ما رواه الثعلبى فى حديث إتيان المساجد يوم القيامة ، وفيه « وأئمتها يسوقونها ، وعمارها ومزينوها ومحلوها متعلقون بها » الحديث .

قلت : أخذ ذلك من رواية القرطبى عن الثعلبى ، كما رأيته فى بعض النسخ ، وقد راجعت القرطبى أيضاً فى ذلك فرأيته روى الحديث المذكور من طريق الثعلبى ، وليس فيه « ومزينوها ومحلوها » بل لفظه « وعمارها متعلقون بها » .

ومنها : ما رواه سعيد بن رَبّان ــ بالموحدة المشددة ــ قال : حدثنى أبى عن أبيه عن جده عن أبى هند قال : حَمَلَ تميمٌ يعنى الدارىَّ من الشام إلى المدينة قناديل وزيتا ومقطا وقنديلا أو قنديلين من الذهب ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة ، فأمر غلاما يقال له أبو البراد ، فقام فبسط المقط وعلق القناديل ،

وصب فيها الماء والزيت ، وجعل فيها الفُتُلَ ، فلما غربت الشمس أمر البراد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا هو بها تَزْهَرُ ، فقال : من فَعَلَ هذا ؟ قالوا : تميم الدارى يا رسول الله ، فقال : نورت الإسلام ، وحليت مسجده ، نور الله عليك فى الدنيا والآخرة ! ـ الحديث .

قلت : قد أخـذ ذلك من تفسير القرطبي ، كما رأيته فى بعض النسخ ، وفى بعضها إسقاط عزوة للقرطبي ، وقد راجعت تفسير القرطبي فرأيته أورد الحديث المذكور بحروفه ، وليس فيه قوله « وقنديلا أو قنديلين من الذهب » ولا قوله « وحليت مسجده » .

ومنها : ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما دخل الشام تَلَقَّاه معاوية بعساكر وجنود كثيرة وخيول مسومة وأسلحة مُخَوَّصة بالذهب والفضة ولبوس الحرير والديباج وزينة حسنة كزينة فارس والروم ، فقال عمر : ما هذا يا معاوية ؟ وما هذه الزينة والفخار ؟ لقد أتيت أمْرًا إمْرًا وارتقيت مُرْتَقًى صعبا ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا غَيْظ كفارنا ، ومقهرة لأعدائنا ، وإن فَرَائصهم لترتعد ، وإن قوائمهم لتَخُور من ذلك ، وإنا لنجد بذلك المظهر عليهم والذلة والصَّغَار فيهم ، وأشربوا فى قلوبهم الرُّعْبَ حين يرون مساجدنا مُحَلَّاة بالذهب وسقوفها مُنَقَّطه بقناديل الذهب ـ الخبرَ ، وفيه أن عمر سكت عنه .

قلت : الخبر ذكره المؤرخون ، ومثله لا تقوم الحجة به ، ولم أر فيه الزيادة المتعلقه بتحلية المساجد ، وقد رأيت فى بعض النسخ نسبة ذلك للذهبي فى تاريخ الإسلام ، وأسقط العَزْوَ فى نسخة أخرى ، فليراجع ذلك من تاريخ الإسلام ، فإن لم يكن فيه هذه الزيادة فالذى يظهر لى أن بعض المتعصبين ألحق هذه الأشياء فى الروايات المتقدمة ليتم بها الاستدلال ، فإن المسألة وقع فيها تعصبات ، وكأن الجمال الكازرونى إنما أراد إفادة أصل وضع القناديل ، وذكر ما يشعر بهذا الأمر ، فلما رأى ذلك المتعصب أن الاستدلال لا يتم إلا بذلك ألحقه ، ولم يشعر أنه

لو كان ذلك موجودا لم يكن فيه حجة لعدم اتصال السند الصحيح فى ذلك.

ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله لم يَخْفَ عليه أن كل ذلك لم يكن يعجبه فى حياته ، هذا الذى أعتقده ، والله أعلم .

الفصل السادس والعشرون

فى الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المحدثة بالحجرة الشريفة والمسجد وسقفهما ، وما أعيد من ذلك ، وما تجدد من توسعة المسقف القبلى بزيادة الرواقين فيه ، وغير ذلك .

سبب الحريق وتاريخه

قال المؤرخون : احترق المسجد النبوى لَيلَة الجمعة أولَ شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وستمائة فى أول الليل ، ونقل أبو شامة أن ابتداء حَرْقه كان من زاويته الغربية من الشمال ، وسبب ذلك — كما ذكره أكثرهم — أن أبا بكر ابن أوحد الفرّاش أحَدَ القُوّام بالمسجد الشريف دخل إلى حاصل المسجد هناك ومعه نار ، فغفل عنها إلى أن عَلِقَتَ فى بعض الآلات التى كانت فى الحاصل ، وأعجزه طفيها ، ثم احترق الفرّاش المذكور والحاصل وجميع ما فيه .

وقد صَنّفَ القُطْبُ القسْطلانى فى ذلك وفى النار المتقدم ذكرها فى الفصل الثالث من الباب الثانى وهى نار الحجاز التى ظهرت بالمدينة الشريفة فى ذلك العام كتابا سماه «عروة التوثيق ، فى النار والحريق» ذكر فيه بدائع من حكم الله تعالى فى حدوث ذلك ، وقد كان القطب بمكة حين وقع ذلك ، وقد نبه فيه على ما يوافق ما قدمناه عن المؤرخين .

فقال : كتب إلى الصادق فى الخبر ، وشافهنى مَنْ شَاهَدَ الأثر ، أن السبب فى حريق المسجد الشريف دخول أحد قَوَمَة المسجد فى المخزن الذى فى الجانب الغربى من آخر باب المسجد لاستخراج قناديل لمنائر المسجد ، فاستخرج منها ما احتاج إليه ، ثم ترك الضوء الذى كان فى يده على قَفَص من أقفاص القناديل

وفيه مشاق ، فاشتعل فيه ، وبادر لأن يطفئه فغلبه وعَلِق بحُصُر وبُسُط وأقفاص وقصب كان فى المخزن ، ثم تزايد الالتهاب وتضاعف إلى أن علا إلى سقف المسجد ، انتهى .

وفى العبر للذهبى أن حرقه كان من مسرجة القَوَّام .

قال المؤرخون : ثم دبت النار فى السقف بسرعة آخذة قبله ، وأعجلت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة فاجتمع معه غالب أهل المدينة فلم يقدروا على قطعها ، وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريقُ على جميع سقف المسجد الشريف واحترق جميعه حتى لم تَبْقَ خشبة واحدة .

قلت : لعل مرادهم لم تبق خشبة كاملة ؛ لما قدمناه من مشاهدة بقايا خشب كثير عند إخراج الهَدْم الذى كان بالحجرة .

قال القطب القسطلانى : وتَلِفَ جميعُ ما احتوى عليه المسجد الشريف من المنبر النبوى والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير والصناديق وما اشتملت عليه من كتب وكسوة الحجرة وكان عليها إحدى عشرة ستارة .

حكمة الله فى الحريق

ثم ذكر القطب حِكَماً لذلك وأسراراً ، لكون تلك الزخارف لم تُرْضِهِ صلى الله عليه وسلم ، ولكون القلوب لما لاحظت المساجد الثلاثة بعين التعظيم ولا يجوز فى ذلك أن تنزل فوق قدرها ، بل لابد أن يعتقد أن صفة قهره تعالى وعظمته مستولية على الجميع ؛ فهو الواحد القهار ، فوقع الحريق فى الكعبة وبيت المقدس قديماً ، ثم وقع بهذا المسجد فى هذا الزمان عقب ظهور المعجزة العظيمة فى ظهور نار الحجاز التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم وحماية جيرانه منها لما التجؤا إليه وانطفائها عند الوصول إلى حرمه كما سبق ، وربما خطر ببال العوام أن حبس النار عنهم ببركة الجوار مُوجِب لحبسها عنهم فى الآخرة ، فاقتضى الحال التبيين بذلك .

ونظم الأقشهرى أبياتاً مضمونها أن تسليط النار كان على تلك الزخارف

المنهى عنها ، وأن ما كان حقا فيبقى ، وما كان زوراً فبالنار يحرق ، قال : وأنشدنى الحافظ الصالح الشيخ إبراهيم بن محمد الكنانى رئيس المؤذنين هو وأبوه قال : وجد بعد الحريق فى بعض جدران المسجد بيتان وهما :

لم يحترقْ حَرَمُ النبيِّ لريبةٍ   يخشى عليه وما به من عارِ
لكنه أيدِى الروافضِ لامَسَتْ   تلك الرسوم فطُهِّرَتْ بالنارِ

قلت : وأوردهما المجد بلفظ :

لم يحترق حرم النبى لحادثٍ   يُخْشَى عَلَيْه ولا دَهَاه العارُ
لكنما أيدى الروافض لامَسَتْ   ذاك الجناب فطهرته النارُ

وأورد بعدهما بيتين آخرين هما :

قل للروافض بالمدينة ما بكم   لقيادكم للذم كل سفيه
ما أصبح الحرم الشريفُ محرّقا   إلا لسبكم الصحابَةَ فيه

قلت : وهذا لأن الاستيلاء على المسجد والمدينة كان فى ذلك الزمان للشيعة وكان القاضى والخطيب منهم ، حتى ذكر ابن فرحون أن أهل السنّة لم يكن أحد منهم يتظاهر بقراءة كتب أهل السنة

قال المؤرخون : ولم يسلم سوى القبة التى أحدثها الناصر لدين الله لحفظ ذخائر الحرم مثل المصحف الكريم العثمانى وعدة صناديق كبار متقدمة التاريخ صنعت — يعنى تلك الصناديق — بعد الثلاثمائة ، وهى باقية إلى اليوم ، يعنى فى زمانهم ، وذلك لكون القبة المذكورة بوسَط صحن المسجد و ببركة المصحف الشريف العثمانى

وكانت عمارة القبة المذكورة — على ما ذكره ابن فرحون — سنة ست وسبعين وخمسمائة

قالوا : و بقيت سوَارى المسجد قائمة كأنها جُذُوع النخل إذا هبت الرياح تمايل ، وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ، ووقع السقف الذى كان على أعلى الحجرة على سقف بيت النبى صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعا فى الحجرة

الشريفة وعلى القبور المقدسة . وعبارةُ الذهبي وتبعه التقى السبكى : فوقع بعضُ سقف الحجرة ، وكل ذلك قبل أن ينام الناس ، وأصبحوا يوم الجمعة فعزلوا موضعا للصلاة ، وكتب بذلك للخليفة المستعصم بالله أبى أحمد عبد الله بن المستنصر بالله فى شهر رمضان ، فوصلت الآلات صحبة الصناع مع رَكْب العراق فى الموسم ، وابتدئ بالعمارة أول سنة خمس وخمسين وستمائة .

الشروع فى العمارة بعد الحريق

قال المطرى : ولما شرعوا فى العمارة قصدوا إزالة ما وقع من السقوف على القبور الشريفة فلم يجسروا على ذلك ، واتفق رأى صاحب المدينة يومئذ ـ وهو الأمير منيف بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنى الحسينى ـ ورأى أكابر أهل الحرم الشريف من المجاورين والخُدَّام أن يطالع الإمام المستعصم بذلك ليفعل ما يصل به أمره ، فأرسلوا بذلك ، وانتظروا الجواب ، فلم يصل إليهم جواب لاشتغال الخليفة وأهل دولته بإزعاج التتار لهم ، واستيلائهم على أعمال بغداد فى تلك السنة ، فتركوا الرَّدْمَ على ما كان عليه ، ولم ينزل أحد هناك ، ولم يتعرضوا له ولا حركوه .

وعبارة المجد الشيرازى : فتركوا الردم على ما كان عليه ، ولم يجسر أحد على التعرض لهذه العظيمة التى دون مرامها تزلُّ الأقدام ، ولا يتأتى من كل أحد بادئ بدئه الدخول فيه والإقدام .

قلت : وقد كنت فى تعجُّب عظيم من أهل ذلك الزمان فى تركهم لذلك ، وألفت كتابا سميته « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » بينت فيه أن الواجب فى سلوك الأدب مع هذا النبى العظيم والقيام بما وجب على الأمة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقَمُّه من حجرته الشريفة ، حتى اتفقت العمارة الآتى بيانها ، ولم يكن تأليفى السابق سببا فى شىء من ذلك كما سيأتى بيانه ، حتى إنى لم أطلع عليه متولى العمارة إلا بعد هَدْمه لشىء من جدار الحجرة ، فلما نقبوا الجدار الظاهر شاهدتُ بين الجدارين فى الفضاء الذى خلف الحجرة

أمراً مَهُولاً من الهَدْم الذى خصّ ذلك الموضع ، فإنه كما سيأتى كان فيه نحو القامة ، فعلمت أن أهـل ذلك الزمان لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تتأتى إلا بانتهاك الحرمة ، فتوقفوا فى ذلك ، فجزاهم الله تعالى خيرا ، وما كنت أعتقد إلا أنه أمر خفيف يتأتى قَمُّهُ مع رعاية الأدب ، فوجدته أمرا مَهُولا معظَمُه رَدْم سقف المسجد الأعلى وما بين السقفين من البناء الذى على رؤوس السوارى وغير ذلك ، ولذلك استخرتُ الله تعالى فى عدم حضور ذلك عند إخراجه ، ووقفتُ بين يَدَى النبى صلى الله عليه وسـلم وسألت منه المَدَدَ فى أن يوفقنى الله تعالى لما يرضيه فى ذلك ، فحفظنى الله من حضور ذلك .

وقال المطرى عقب قوله ولم يتعرضوا له ولا حركوه : إنهم أعادوا سقفا فوقه على رؤوس السوارى التى حول الحجرة الشريفة ؛ فإن الحائط الذى بناه عمر ابن عبد العزيز حول بيت النبى صلى الله عليه وسلم بين هذه السوارى التى حول بيت النبى صلى الله عليه وسلم لم يبلغ به السقف .

قلت : تبع المطرىّ على ذلك مَنْ جاء بعده ، فتوافقوا على أنهم لم يجعلوا للحجرة بعد الحريق سقفا ؛ لأن السقف الذى على رؤوس السَّوَارى هو سقف المسجد ، فاقتضى ذلك أنهم جعلوا سقف المسجد سقف الحجرة ، وذكروا أنهم أداروا الشباك على رأس جدار عمر بن عبد العزيز حتى بلغوا به سَقْفَ المسجد ؛ وأول شىء ابتدأوا به من سقف المسجد ما حاذى الحجرة الشريفة منه ، وفيه مخالفة لما شاهدناه فى العمارة الآتى بيانها ، فإنهم وجدوا عليها سقفا مربعا على جدارها الداخل ، ويتصل بالخارج من المشرق والمغرب ، وهو دوين رأس الجدار الخارج بنحو شبر ، ثم تبين عند كَشْفه آثار السقف المنهدم وأن أخشابه كانت فى الجدار الداخل ، ولم يعيدوا هذا السقف المجدد موضع الأول ؛ لأنه لا يتأتى إلا بهدم سترته وإصلاح أماكن لرؤوس الخشب ، فتركوا ذلك تأدباً واحتراما ، ووضعوا ذلك السقف على أعلى سترة الجدار ، وبنوا فوقه سترة لطيفة ، وجعلوا

على ذلك السقف ستارة من المحابس اليمنية المبطنة بقماش أزرق مربوطة بمقط فى الشباك الذى بأعلى الحائز الظاهر ، وليس ذلك السقف مطينا ، وهو سقف محكم من ألواح ثخينة جداً من الساج الهندى ، وسمروا بعضها إلى بعض على قوائم من خشب ، وجعلوه أربع قطع كل قطعة كالباب العظيم ، وجعلوا عند ملتقى كل قطعتين من تلك القطع مقصاة من حديد ، وكلّبوا بعضها إلى بعض تكليبا محكما ، وجعلوا تحته ثلاث جزم من الساج الهندى تحمله ، وأوصلوا أطراف تلك الألواح بالجدار الظاهر كما تقدم ، ولم يجعلوا فى تلك الألواح دهانا ولا نقوشا ولا كتابة ، غير أن النجار الذى صنع السقف المذكور كتب اسمه على طرفه نقرا ، وكذلك سقف المسجد المحاذى للحجرة الشريفة مما يلى هذا السقف جميعُه من الساج النقى ليس عليه دهان ولا نقوش وفى وسطه طابق عليه قفل فوته أنطاع ومشمع ، ولم يزل موجودا إلى أن عملت القبة الثانية بعد الحريق الثانى ، وجعلوا على جدار الحجرة الداخل من جهة الشام ألواحا من رأس الجدار إلى سقف المسجد .

والعجب أنهم عند رفع هذا السقف وجدوا جزمتين من الأخشاب التى تحته قد تأكّلتا ولم يبق إلا جزمة واحدة ، ومع ذلك كانت كافية فى حمله ، فجزى الله تعالى أهلَ ذلك الزمان خيرا ، والظاهر أن ذلك فعل عند إعادة سقف المسجد الذى ذكره المطرى .

ولنرجع إلى ما ذكره عقب ما تقدم عنه ، قال : وسقفوا فى هذه السنة ـ وهى سنة خمس وخمسين ـ الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلى و إلى الحائط الشرقى إلى باب جبريل عليه السلام المعروف قديما بباب عثمان ، ومن جهة المغرب الروضة الشريفة جميعها إلى المنبر الشريف .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وستمائة فكان فى المحرم منها واقعة بغداد واستيلاء التتار عليها وقتْلهم الخليفةَ المذكورَ مع أهلها .

قلت : وهى من أعظم الوقائع ، وقد ذكرتها فى كتابى « الوفا » وأشرت

إليها فى الفصل الثالث من الباب الثانى عند ذكر نار الحجاز ، وذكرت ما أفاده الذهبى من استيلاء الحريق على بغداد أيضاً حتى تربة الخلفاء ، وكانوا فى العام قبله قد أشرفوا على الغرق ، فسبحان الملك العظيم .

قال المطرى عقب ما تقدم : فوصلت الآلات من مصر ، وكان المتولى عليها حينئذ الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى ، ووصل أيضاً آلات وأخشاب من صاحب اليمن يومئذ وهو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن منصور عمر بن على بن رسول ، فعملوا إلى باب السلام المعروف قديماً بباب مروان ، ثم عزل صاحب مصر المذكور - يعنى فى آخر سنة سبع وخمسين فى ذى القعدة منها - وتولى مكانه مملوك أبيه الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى ، واسمه الحقيقى محمود بن ممدود ، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وأبوه ابن عمه أسر عند غلبة التتار ، فبيع بدمشق ، ثم انتقل بالبيع إلى مصر ، وتملك فى سنة ثمان وخمسين .

قلت : إنما ولى فى يوم السبت ثامن عشر ذى القعدة من سنة سبع ، وفى شهر رمضان من سنة ثمان كانت وقعت عين جالوت التى أعز الله فيها الإسلام وأهلَه على يديه ، ولم يستكمل فى ملكه السنة بكمالها ، بل قتل بعد الوقعة بشهر وهو داخل إلى مصر ، فكان العمل بالمسجد الشريف تلك السنة من باب السلام إلى باب الرحمة المعروف قديماً بباب عاتكة ، ومن باب جبريل إلى باب النساء المعروف قديماً بباب رَيْطَة بنة أبى العباس السفاح ، وتولى مصر آخر تلك السنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، ويعرف بالبندقدارى ، فعمل فى أيامه باقى سقف المسجد الشريف من باب الرحمة إلى شمالى المسجد ، ثم إلى باب النساء ، وكمل سقف المسجد كما كان قبل الحريق سقفا فوق سقف .

قلت : وذكر المؤرخون أن الظاهر ركن الدين المذكور لما ولى حصل منه الاهتمام بذلك ؛ فجهز الأخشاب والحديد والرصاص ، ومن الصناع ثلاثة وخمسين

صانعا وما يمونهم ، وأنفق عليهم قبل سفرهم ، وأرسل معهم الأمير جمال الدين محسن الصالحى وغيره ، ثم صار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات ، ثم لم يزل المسجد على ذلك حتى جَدَّدوا السقف الشرقى والسقف الغربى ـ أى الذى عن يمين صحن المسجد وشماله ـ فى سنتى خمس وست وسبعمائة فى أوائل دولة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى ، فجعلا سقفا واحداً نسبة السقف الشمالى أى سقف الدكاك فإنه جعل فى عمارة الملك الظاهر كذلك .

ثم فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة أمر السلطان الملك الناصر محمد المذكور بزيادة رواقين فى السقف القبلى متصلين بمؤخره ، فاتسع مسقفه بهما وعم نفعهما .

قلت : ثم حصل فيهما خَلَل فجدَّدهما الملك الأشرف برسْبَاى فى ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة على يد مقبل القديدى من مال جوالى قبرص ، على ما أخبرنى به بعض مشايخ الحرم ، ورأيته مكتوباً كذلك باللوح التى كانت بظاهر العقود من السقف القبلى مما يلى رحبة المسجد ، وهو سقف واحد فى مُوَازاة سقف المسجد الأسفل ، ولذلك صار سقف مقدم المسجد القديم مرتفعا من أعلاه على هذين الرواقين وغيرهما من بقية المسجد ، وله باب يدخل إليه من بين السقفين شارع فى مبدأ الرواقين المذكورين مما يلى المشرق ، وجدد الأشرف المذكور أيضاً شيئاً من السقف الشامى مما يلى المنارة السنجارية ، ثم حصل خلل فى سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد فى دولة الظاهر جَقْمَق فجدد ذلك فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وما قبلها على يد الأمير بردبك الناصر المعمار وغيره .

ثم فى دولة مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى أدام الله تعالى تأبيده ونصره أنهى إليه احتياجُ سقوف المسجد الشريف للعمارة فبرَزَ أمرُه الشريف بذلك كما ستأتى الإشارة إليه للجناب الخواجكى الشمسى شمس الدين بن الزمن أعزه الله بعز طاعته ، فحضر لذلك فى أثناء سنة تسع وسبعين صُحْبَة أمير جدة ورتّب أمر العمارة وسافر صحبته أيضاً ، فهدموا عقود المسجد التى تلى رحبته من

جهة المشرق وسقف الرواق الذى كان عليها ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ونقضوا بعض أساطينه فوجد بعضها لارصاص فيه ، و بعضها فيه رصاص ، ثم أعادوا ذلك فى سَنَتهم ، وهدموا أيضاً جانبا من سور المسجد الشريف مما يلى المشرق من جهة المنارة الشرقية المعروفة بالسنجارية من باب سُلّمها ، وهو الباب الثانى جوف بابها الظاهر ، إلى ما يوازى حرف الدكاك من القبلة ، وذلك آخر المسقف الشامى ، ومقدار ذلك سبعة وعشرون ذراعا بذراع اليد المتقدم وصفه ، هدموا ذلك من أعلاه إلى أسفله ، و بلغوا به دك الأس القديم ، وظهر فى أصل جدار المنارة المذكورة انشقاق وكانت تضطرب عند الهدم بحيث خشى سقوطها ، فسكبوا فى ذلك الشق كثيراً من الجص المُذاب حتى امتلأ ، وكان ما هَدَموه من سور المسجد وعقوده مبنيا بالجص السكب ، فذكر مهندس العمارة أن الجدار إنما اختل لأن السباخ له تأثير فى إذابة الجص ، واقتضى رأيه أن يؤسسه بالطين والنورة المخلوطة بناعم الحصباء ، ففعلوا ذلك فى الجدار المذكور كله وفى العقود المذكورة أيضاً ، وكحلوا أطراف وجوه الأحجار بالجص من داخل المسجد وخارجه ، ورفعوا السقف الكائن أمام المنارة المذكورة إلى جنب ما هدموه من الجدار المذكور ، وأعادوا ذلك من سنتهم أيضاً . ثم اتفقت أمور اقتضت تأخير العمارة ، فتعطلت فى سنة ثمانين . ثم ورد الخواجا الشمسى ابن الزمن إلى المدينة الشريفة صحبة أمير جدة فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وأقام لمباشرة العمارة بنفسه ، فرفعوا سقف الروضة الأعلى وما اتصل به مما حول القبة الزرقاء الآتى ذكر عملها بأعلى الحجرة الشريفة فى سقف المسجد الأعلى ، ورفعوا أيضاً شيئاً مما يلى ذلك من جهة ما يوازى غربى المنبر الشريف لتكسر كثير من أخشابه ، وكان ذلك السقف مع بقية سقف مقدم المسجد على عبّارات من خشب موضوعة على أبنية فوق رؤوس السوارى بعرض تلك السوارى ، كما أن السقف الأسفل المشاهد مما يلى المسجد موضوع على عبارات كذلك فوق رؤوس السوارى ، فاقتضى رأى متولى العمارة

إبدال تلك الأخشاب بعقود من آجر كهيئة القناطر التى حول رحبة المسجد ، ورأى أن ذلك أبقى وأحكم من الأخشاب ، مع أن عبارات السقف الأسفل كما قدمناه على رؤوس السوارى بأصل تلك العقود ، ولـكنه رأى الإحكام فى ذلك ، ففعله فى القطعة التى رفعها من السقف المذكور فقط ، ووضع أخشاب ذلك السقف على تلك القناطر ، فارتفع بسببه ذلك المكان من السقف الأعلى على بقية ما حوله منـه ، وصار الماشى بين السقفين فى تلك الجهة يمشى منتصبا أو منحنيا قليلا ، وكان لا يتأتى قبل ذلك المشى هناك إلا مع انحناء كثير ، وتلك القناطر موضوعة على ما يحاذى صف الأساطين التى هى قبـلة الروضة والمصلى الشريف من أولها من جهة المشرق إلى الأسطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب وعلى ما يحاذى الصف الثانى وهو صف أسطوان عائشه رضى الله عنها فى موازاة الصف المتقدم ذكره من المشرق إلى المغرب ، وعلى ما يوازى الصف الثالث وهو صف أسطوان المحرس من المشرق إلى المغرب أيضاً ، وأما ما يوازى صف أسطوان الوفود فقد كان عليه بناء حائط حاجز لما بين السقف الأسفل والأعلى فيه باب يدخل منه إلى ما بين السقفين ، فهدموا ذلك الحائط ، وأحكموا بناءه ، وجعلوا أطراف الخشب عليه أيضاً ، فهذه الثلاثة الأروقة هى التى ارتفع سقفها الأعلى على ما حوله من الأساطين اللاصقة بالمقصورة إلى الأساطين التى تلى المنبر وصار سقف الرواقين اللذين بين الروضة والجدار القبلى مع سقف ما يحاذى الحجرة الشريفة إلى الجدار الشرقى وسقف ما كان غربى المنبر من مقدم المسجد كله منخفض عن ذلك .

ووجدوا أخشابا كثيرة متفرقة نحو الأربعين من السقف الأعلى أيضاً قد تكسرت ، فزرقوا بدلها ، ووضعوا إلى جانب بعضها أخشاباً مزرقة ، وسمروها من غير كشف للسقف ، وقلعوا السقف الأسفل الذى بالرواق الشرقى مما يلى الأرجل الشريفة ، وجانبا من سقف رواق باب جبريل إلى باب النساء ، وسقف

الرواق الأوسط الذى يلى الرواق الذى سبقت عمارتهم إياه فى العام الماضى ، وأعادوا ذلك ، وقلعوا السقف الأسفل المحاذى لموقف الزائرين تجاه الوجه الشريف وكان من أقدم السقف ، ومع ذلك تعبوا فى قلعه أكثر من غيره لإتقانه و إحكامه فإنه من عمل الأقدمين ، وأظنهم وجدوا اسم الظاهر بيبرس عليه ، ثم أعادوه وأصلحوا شيئاً فى المسقف الشامى وغيره ، وجددوا أيضاً دِهَانَ بعض السقف التى حول الحجرة داخل المقصورة التى تعرف اليوم بالحجرة من غير قلع لتلك السقف . ثم احترق ذلك كله فى جملة حريق المسجد الثانى الآتى ذكره فى الفصل التاسع والعشرين ، وجعلوا سقف المسجد عند إعادته سقفا واحدا جميعه كما سيأتى .

الفصل السابع والعشرون

فى اتخاذ القبة الزرقاء التى جعلت على ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة بأعلى سقف المسجد ، تمييزاً لها ، و إبدالها بالقبة الخضراء والمقصورة الدائرة بالحجر الشريفة .

القبة الزرقاء

أما القبة المذكورة فاعلم أنه لم يكن قبل حريق المسجد الشريف الأول وما بعده على الحجرة الشريفة قبة ، بل كان حول ما يوازى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى سطح المسجد حَظِير مقدار نصف قامة مبنيا بالآجر تمييزا للحجرة الشريفة عن بقية سطح المسجد ، كما ذكره ابن النجار وغيره ، واستمر ذلك إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة فى أيام الملك المنصور قلاوون الصالحى ، فعملت تلك القبـة ، وهى مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السوارى ، وسمر عليها ألواح من خشب ، ومن فوقها ألواح الرصاص ، وفيها طاقة إذا أبصر الشخص منها رأى سقف المسجد الأسفل الذى فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، وحول هـذه القبة على سقف المسجد ألواح رصاص مفروشة فيما قَرُب منها ، ويحيط به و بالقبة درابزين من الخشب جعل مكان الحظير

الآجر ، وتحته أيضاً بين السقفين شباك خشب يحكيه محيط بالسقف الذى فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، ولم أر فى كلام مؤرخى المدينة تعرض لمن تولى عمل هذه القبة .

ورأيت فى « الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » فى ترجمة الكمال أحمد بن البرهان عبد القوى الربعى ناظر قوص أنه بنى على الضريح النبوى هذه القبة المذكورة ، قال : وقصد خيرا وتحصيل ثواب ، وقال بعضهم : أساء الأدب بعلو النجارين ودق الحطب ، قال : وفى تلك السنة وقع بينه و بين بعض الولاة كلام ، فوصل مرسوم بضرب الكمال ، فضرب ، فكان من يقول إنه أساء الأدب [يقول :] إن هذا مجازاة له ، وصادره الأمير علم الدين الشجاعى ، وخرب داره ، وأخذ رخامها وخزائنها ، و يقال : إنهم بالمدرسة المنصورية اه .

ويؤيد ما نقله عن بعضهم ما رواه أبو داود فى سننه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خَرَجَ فرأى قبة مُشْرِفة ، فقال : ما هذه ؟ قال له أصحابه : هذه لفلانٍ ، رجلٍ من الأنصار ، قال : فسكت وحملها فى نفسه ، حتى إذا جاء صاحبُها رسول الله صلى الله عليه وسلم سلم عليه فى الناس فأعرض عنه ، صنع ذلك مرارا ، حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه ، فشكا ذلك إلى أصحابه ، فقال : والله إنى لأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : خرج فرأى قبتك ، قال : فرجع الرجل إلى قبته فهدَمها حتى سوّاها بالأرض ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يومٍ ، فلم يَرَها ، قال : ما فعلت القبة ؟ قالوا : شكا إلينا صاحبُها إعراضَك عنه فأخبرناه فهدمها ، فقال : أما إنَّ كلَّ بناء وَبَالٌ على صاحبه إلا مالا إلا مالا » أى إلا مالا بد منه

وقد جُدِّدَتْ هذه القبة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فاختلَّت الألواح الرصاص عن وضعها ، فخَشُوا من كثرة الأمطار ، فجددت

وأحكمت فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد فى سنة خمس وستين وسبعمائة ، قاله الزين المراغى

وقد ظهر فى بعض أخشابها خلل فى سـنة إحدى وثمانين وثمانمائة فعضّدها متولى العمارة الشمس بن الزمن بأخشاب سمرت معها ، وقلع ما حولها من ألواح الرصاص التى على أعلى السطح بينها و بين الدرابزين المتقدم ذكره ، فوجدوا تحت ذلك أخشابا قد تأكلت من طول الزمان وندَاوة مياه الأمطار فأصلحوا ذلك وأعادوه بعد أن أضافوا إليه كثيرا من الرصاص من حاصل المسجد ومما أحضر من مصر ، وجددوا الدرابزين المحيط بهـا أيضا ، وقد كانت مياه الأمطار تتسرَّبُ من بين تلك الألواح وتصل إلى سقف الحجرة الشريفة ، فإن آثار المياه قد وجدت هناك ، وأثَّرتْ فى الشباك الذى بأعلى حائز عمر بن عبد العزيز بحيث تأكلَ بعضُه ، فأصلحه متولى العمارة أيضا ، وأثَّرَت الأمطار أيضا فى الستارة التى على سقف الحجرة الشريفة بحيث تأكل بعضها ، ثم احترق ذلك كله فى حريق المسجد الثـانى ، فاقتضى رأيهم تأسيس القبة البيضاء الموجودة اليوم على دعائمَ بأرض المسجد وعقود من الآجر ، وجعلوا تلك الدعائم فى موازاة الأساطين التى كان بينها درابزين المقصورة الآتى وصفها ، وزادوا من جهة الشام دعائمَ بعضُها عند المثلث الذى بالحجرة الشريفة من بناء عمر بن عبـد العزيز ، وزادوا هناك أسطوانا ، وعند التأسيس لذلك وجدوا عند صفحة المثلث الشرقية قبرا بَدَا لحدُه و بعضُ عظامه ، و إن صح القول بدفن فاطمة رضى الله عنها فى بيتها كما ستأتى الإشارة إليه فهو قبرها ، وأبدلوا بعض الأساطين بدعائم ، وأضافوا إلى بعضها أسطوانة أخرى ، وقرنوا بينهما ليتأتى لهم العَقْد عليها ، وحصل فيما بين جدار المسجد الشرقى و بين تلك الدعائم ضيق لاتحاد بعض تلك الدعائم هناك ، فخرجوا بجدار المسجد الشرقى فى البلاط الذى يلى الجدار المذكور نحو ذراع ونصف ، فإنهم هَدَموا ذلك الجدار ، وأعادوه إلى باب جبريل عليه السلام ، ولم ينقلوا باب جبريل عن محله

ثم إن القبة المذكورة تشققت من أعاليها ولم ينفع الترميم فيها ، ففوّض السلطان للشجاعى شاهين الجمالى النَظَر فى أمرها وأمرِ المنارة الرئيسية أيضا عند توليته شيخ الحرم الشريف ، فاقتضى رأيه بعد مراجعة أهل الخبرة هـدْمَ أعالى المنارة المذكورة واختصار قليل منها ، فاتخذ أخشابا فى طاقاتها وجعل عليها سقفا يمنع ما يسقط عند الهدم للحجرة الشريفة ، ثم هدم أعاليها وأعاد بناءها أحكم من البناء الأول ، بحيث حمل لهـا الجبس الأبيض من مصر وجعله فى بنائها ، فجاءت محسنة محكمة ، وأزيل ذلك السقف عند تمامها ، وذلك فى عام اثنتين وتسعين وثمانمائة

المقصورة الدائرة على الحجرة

وأما المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة بين الأساطين حول جدار الحجرة الظاهر وحول بيت فاطمة رضى الله عنها فقد أحدثها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وذلك أنه لمـا حج سنة سبع وستين وستمائة أراد أن يجعل على الحجرة الشريفة درابزينا من خشب ــ وهو المقصورة المذكورة ــ فقاس ما حول الحجرة الشريفة بيده وقدره بحبال وحملها معه ، وعمل الدرابزين ، وأرسله فى سنة ثمان وستين ، وأداره عليها ، وعمل له ثلاثة أبواب قبليا وشرقيا وغربيا ، ونصَبه بين الأساطين التى تلى الحجرة إلا من ناحية الشام فإنه زاد فيه إلى مُتَهَجَّدِ النبى صلى الله عليه وسلم

ثم زيد لهذه المقصورة باب رابع أحدث عند زيادة الرواقين المتقدم ذكرهما فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وهو من جهة الشمال فى رحبة المسجد ، وكان عليه قبل الحريق الأول سقف مرتفع يحيط به رفرف ، ثم أحدث هذا الباب ، وأمامه من جهة رحبة المسجد سقف لطيف أيضا نحو ستة أذرع دُوَيْنَ السقف المتقدم وجعل له رفرف أيضا يمنع الشمس ، وبسط تحته الرخام الملون شبه الرخام الذى تقدم ذكره حول حائز عمر بن عبد العزيز بالأرض داخل هذه المقصورة ، وذلك فى دولة الظاهر جَقْمَق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة

قال الزين المراغى : وأعلم أن الذى عمله الملك الظاهر ـ أى ركن الدين ـ من الدرابزين نحو القامتين ، فلما كان فى سنة أربع وتسعين وستمائة زاد عليه الملك العادل زين الدين كتبغا شباكا دائرا عليه ، ورفعه حتى وصله سقف المسجد ، انتهى .

وقد جددمتولى العمارة المتقدم ذكره بعضَ هذه المقصورة أيضا مما يلى الروضة الشريفة فى العمارة الأولى ، ثم احترقت فى الحريق الثانى ، فجعلوا بدلها شبابيك من النحاس فى جهة القبلة ، وعلى أعلاها شَبَكة من شريط النحاس كالزرد ، بين أخشاب متصلة بالعقود المحيطة بالحجرة الشريفة ، وجعلوا لبقيتها من جهة الشام وما اتصل بها من المشرق والمغرب مشبكا من الحديد المشاجر ، وبأعلاه شريط النحاس أيضا ، وأحدثوا مشبكا من الحديد المشاجر أيضا لم يكن قبل ذلك ، جعلوه فاصلا بين الرحبة التى خلف مثلث الحجرة الشريفة وبينها ، وبها بعض المثلث المذكور ، وبه بابان أحدهما عن يمين المثلث ، والآخر عن يساره ، وصار هذا المشبك متوسطا بين مشبك الحجرة الشامى وما يقابله . وقد صارت هذه المقصورة تعرف بالحجرة الشريفة ، وأبوابها بأبواب الحجرة ، وما يعلق بسقفها بقناديل الحجرة كما تقدم فى عبارة السبكى .

وفى كلام البدر ابن فرحون ما يقتضى أنه كان ثَمَّ مقصورة متصلة بهذه المقصورة من جهة المغرب ، ثم أزيلت ، ولفظه : وقد تساهل مَنْ كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة عملت وقاية من الشمس إذا غربت ، وكانت بدْعَة وضلالة تصلى فيها الشيعة ؛ لأنها قطعت الصفوف ، وأُسْمِتُ بمن ذكر من الصنوف ، وندم على ذلك واضعها ، ولقد كنت أسمع بعضهم يقف على بابها ويؤذن بأعلى صوته « حى على خير العمل » وكانت مواطن تدريسهم ، وخلوة علمائهم حتى قَيَضَ الله لها مَنْ سعى فيها فأصبحت ليلة منخلعة أبوابها ، مقوسة أخشابها ، متصلة صفوفها، وأدخل بعضها فى الحجرة الشريفة ـ يعنى ما اشتمل عليه الدرابزين

المذكور – وجعل فيها الباب الشامى ، وكان ذلك مع زيادة الرواقين اللذين زادهما الملك الناصر ، انتهى .

وذكر لى بعضُ مشايخ المدينة نقلا عمن أدركه من المشايخ أن هذه المقصورة كانت فى شامى أسطوان الوفود إلى جهة باب الحجرة الشامى ، والشيعة اليوم يصلون فى ذلك الموضع ، ومقتضى ماقدمناه عن ابن النجار فى بيت فاطمة رضى الله عنها – حيث قال : و بيتها اليوم حوله مقصورة ، وفيه محراب ، وهو خلف حجرة النبى صلى الله عليه وسلم – وجود مقصورة هناك قبل حريق المسجد ، فلعل ذلك مستند الظاهر ركن الدين فى إحداث ذلك .

وقد ذكر المطرى ما صنعه الظاهر من هذه المقصورة ، ثم قال : وظن الملك الظاهر أن ما فعله تعظيما للحجرة الشريفة ، فحجر طائفة من الروضة المقدسة مما يلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنع الصلاة فيه ، مع ما ثبت من فضلها وفضل الصلاة فيها ، فلو عكس ما حجره وجعله خلف بيت النبى صلى الله عليه وسلم من الناحية الشرقية وألصق الدرابزين بالحجرة مما يلى الروضة لكان أخفّ ؛ إذ الناحية الشرقية ليست من الروضة ولا من المسجد المشار إليه ، بل مما زيد فى المسجد أيام الوليد ، قال : ولم يبلغنى أن أحداً من أهل العلم والصلاح ممن حضر ولا ممن رآه بعد تحجيره أنكر ذلك ، أو تفطن له وألقى له بالا ، وهذا من أهم ما ينظر فيه .

قال الزين المراغى عقبه : ينبغى أن يعلم أن للظاهر سلفاً فى ذلك ، وهو ما حجره عمر بن عبد العزيز على الحجرة الشريفة من جهة الروضة أيضاً ، لكنه قليل ، انتهى .

قلت : وهذا بناء على ما تقرر عنده من أن جدار الحجرة الذى داخل الحائز هو نهاية المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمنا فى حدود المسجد ما يرد

ذلك ، ولو سلم أن ذلك نهاية المسجد وأن عمر بن عبد العزيز اتخذ الجدار المذكور فيه فذلك لمصلحة حفظ القبر الشريف ، وجعل بنائه على هيئة لا يتأتى معها استقبال القبر الشريف كما قدمناه ، وهذه المقصورة بضد ذلك ، والله أعلم .

وقال البدر بن فَرْحُون فى ترجمة ولى الله سيدى الشيخ على الواسطى مالفظه : حكى لى جمال الدين ـ يعنى المطرى ـ أن الشيخ بعث إلى الملك الناصر يقول له: أنا أضمن لك على الله تعالى قضاء ثلاث حوائج إن قَضَيْتَ لى حاجة واحدة ، وهى إزالة هذا الشباك الذى على الحجرة الشريفة ، يعنى هذه المقصورة ، فبلغه ذلك ، فتوقف ولم يفعل .

قال البدر بن فرحون : وليته فعل ؛ فإن الشباك الذى يدور على الحجرة قطع جانباً من المسجد ، وحجر كثيراً من الروضة ، وفى كل زمان يجدد ويعمر بما يتقوى به ويتأيد ، وأدخل فيه قطعة كبيرة لما أزيلت المقصورة ، يعنى المتقدم ذكر إزالتها .

وقال المجد الشيرازى ، عَقِبَ ذكره لما تقدم عن المطرى : والذى ذكره مُوَجَّه ، غير أن أحد الأبواب مفتوح دائماً لمن قصد الدخول والزيارة ، فيمكن من أراد الصلاة الدخول والوقوف مع الصف الأول فى الروضة ، ولا يخفى أن فى تقريب الدرابزين من الحجرة إخراجاً للبناء عن وضعه اللائق ، وأيضاً فيه تضييق عظيم على الزائرين ، لاسيما عند زحام المواسم ؛ فإنه مع هذا الاتساع ينخنق المكان بالخلق ، فكيف لو ضيق بحيث يتصل الدرابزين بجدار الحجرة؟ لا يقال: إنه كان يتسع من جهة المشرق للزائرين ؛ لأن الناس إنما يقصدون هذه الجهة لكون الرأس الشريف هناك ، وليكون الابتداء بالتسليم على النبى صلى الله عليه وسلم دون أن يتخطوا الشيخين رضى الله عنهما ، فتأمل ذلك فإنه صحيح . قال: وهذه الكيفية لا مزيد عليها فى الحسن ، ولم يتعطل شىء من الروضة بسبب

ذلك ، بل بسبب كسل المصلين ، وقد رأيت جماعة من الخدام يصلون داخل الدرابزين أيام الجمعة ، انتهى .

قلت: وما ذكره صحيح بالنسبة إلى زمنه ؛ فإن الباب المذكور كان مفتوحاً فى سائر الأوقات . وقد نبه على ذلك ابن جماعة فى منسكه ، محاولا غلقه فى المواسم فقط ، فقال : إن هذا الدرابزين حجر طائفة من الروضة الشريفة مما يلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وصار ما بين الحجرة والدرابزين مأوى للنساء بأولادهن الصغار فى أيام المواسم ، وربما قذر الصغار فيه ، وقد تحدَّثتُ مع الملك الناصر رحمه الله لما حج وزار سنه اثنتين وثلاثين وسبعمائه فى غلق الدرابزين أيام الموسم ، فسكت لما ذكرته ، ولم يجبنى بشىء ، وهذا من أهم ما ينظر فيه ، انتهى . فحدث بعد ذلك غلق الأبواب كلها دائماً ، ولا يفتح منها شىء إلا فى وقت إسراج القناديل ونحوه ، ولا يدخل لذلك إلا بعض الخدام والفراشين أو بعض من له وجاهة بإذن شيخ الخدام ، فيدخل للزيارة ليلا ، وتحقق بسبب ذلك تعطيل تلك البقعة ، وحرم الناس التبرك بأسطوان السرير ؛ فإن محله فى شرق أسطوانه كما تقدم ، وكذلك الوقوف للزيارة فى موقف السلف بينها و بين الحجرة الشريفة أو على نحو أربع أذرع من جدار القبر على ما يأتى بيانه ، وكذلك التبرك بمُرَبَّعة القبر ومقام جبريل كما قدمناه ، و بيت فاطمة رضى الله عنها ، فإن ذلك كله فى جَوْف المقصورة ، بل كانت هذه المقصورة سبباً لما هو أعظم من ذلك وأطم ، وهو ابتناء دعائم القبة المتقدم ذكرها بأرضها ، فإنها صارت عند العوام بل وعند من لا إحاطة له بأحوال المسجد أنها ليست من المسجد ، بل من الحجرة ، فعاملوها معاملة غير المسجد ، ولما وقعت المفاوضةُ فى عملها صَرَّحْتُ بتحريم ذلك ، فأشار بعضهم بعمل القبة المذكورة على رؤوس الأساطين من غير بناء ، ثم رجعوا عن ذلك وأنا غائب بمصر .

وسبب غلق الأبواب المذكورة أن النجم بن حجى قاضى الشام لما حج فى

الموسم الشامى رأى ازدحام الناس بذلك المحل وما أشـار إليه ابن جماعة فيما تقدم عنه ، فأفتى بغَلْقها ، وخالفه الولى العراقى عند قدومه مع الحاج المصرى فأفتى بفتحها. وأخبرنى بعضُ مشايخ الحرم أن ذلك كان فى سنة اثنين وعشرين وثمانمائة وأن الحال استمر على ما أفتى به الولى العراقى ، فلما ولى النجم بن حجى ديوان الإنشاء تسبب فى بروز المراسيم السلطانية بالأمر بالغَلْق سنة ثمان وعشرين، واستمر ذلك إلى اليوم ، كذا أخبرنى به بعض مشايخ الحرم . ورأيت حاشيةً على كلام المجد بخط الحافظ جمال الدين بن الخياط اليمنى ، ولفظها : ومما أحدث فى دولة الملك الأشرف برسْبَاى صاحبِ مصر والشـام بعد الثلاثين وثمانمائة سُمِّرَت أبواب الدرابزين المذكور ، وصار الناس يزورون من وراء الدرابزين من غير دخـول أحدٍ إلى الحجرة الشريفة ، قصدوا بذلك زيادة الحرمة ، وتنزيه المشهد الشريف عن كثرة اللامسين بالأيدى وغيره ؛ فإن كثيراً من جُهَّال العرب وغيرهم يلصقون ظهورهم بصندوق القبر الشريف وجداره ، قاصدين بذلك التبرك ، والخيرُ كله فى استعمال الأدب ، انتهى .

قلت : والصوابُ المتعين وجوب فتح بعض تلك الأبواب ، خصوصاً فى غير أيام الموسم ، وليس الطريق فى إزالة المفسدة المذكورة غلق تلك الأبواب وتعطيل تلك البقعة ، بل وقوف الخدام عند ذلك المحل ، ومَنْع مَنْ يتعاطى فيه مالا يليق بالأدب ، على أن ذلك لم يَحْسم المادة ؛ لأن تلك الأمور ـ أعنى لمس الجهال ووضعهم الظهور ـ يفعل اليوم بهذا الدرابزين ، ولا شك أن الجدار الذى كان يفعل به ذلك ليس هو نفس القبر ، بل ولا جدار الحجرة كما قدمناه، بل جدار آخر دائر به، كما أن هذه المقصورة دائرة به ؛ فإن كان ذلك يقتضى تعطيل ذلك المحـل ، فليعطل من أجله المسجد بأجمعه ، وتعطيل المسجد أو شئ منه حرام فلا يرتكب لدفع مكروه مع إمكان دفعه بغيره ، وما يقال من أنه ربما وجد فى بعض المواسم هناك قذر ؛ فقد كان شيخنا شيخ الإسلام فقيه العصر شرف الدين المناوى يقول

فى جوابه : لاشك أن ذلك المحل من المسجد ، فإن كان وجود القذر فيه مقتضيا لتعطيله وصيانته بالغَلق فليغلق المسجد بأجمعه ، فإن حكم الكل واحد من حيث وجوب صَوْنه واختصاص ما تقرب من المحل الشريف بمزيد التعظيم حاصل بالجدار الكائن عليه ، وطريقُ التعظيم المنعُ من ذلك كما قدمناه ، على أن لَمْسَ جدار القبر وتقبيله ليس مما أجمع على كراهته كما سنوضحه إن شاء الله تعالى فى باب الزيارة .

ولما قدم مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى أعز الله أنصاره المدينة الشريفة للزيارة سنة أربع وثمانين وثمانمائة واجتمعتُ به بالروضة الشريفة أردت أن أتكلم معه فى فتح بعض تلك الأبواب فى غير أيام الموسم ، فرأيته قد تعاظَمَ دخولَ هذه المقصورة لما عرض عليه ذلك . وقال : لو أمكننى الوقوف للزيارة فى أبعد من هذا الموضع فعلت ، ورأى أن ذلك هو التعظيم ، فعلمت أنه لا يوافق على ما أريده ، والله أعلم .

الفصل الثامن والعشرون

فيما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة فى زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول من ذلك المحل الشريف، ومشاهدة وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة فى هذه العمارة .

اعلم أن بعض سُقف المسجد التى تقدم تجديدها كان قد ظهر تكسُّر بعض أخشابه فى هذه الدولة الأشرفية ـ أعز الله أنصارها ، وأعلى فى سلوك العدل منارها ـ فورد المدينة المقر الأشرف السيفى شاهين الجمالى مُنْصَرَفه من جدة المعمورة ، فأروه ذلك ، وأروه الحائز المخمس الدائر على الحجرة الشريفة لانشقاق فيه قديم يظهر إذا رفعت الكسوة عند منتهى الصفحة الشرقية وانعطافها إلى الزاوية الشمالية ، فرفعوا عنه الكسوة ، وأحضروا بعض أرباب الخبرة بسبب ذلك ، فاختلف

النقل عمن حضر ذلك فى كونه ضروريا أو غير ضرورى ، فاجتمعت بالمشار إليه بسبب ذلك ، فذكر لى أن الذى تحرر أنه ليس بضرورى ؛ لأنه شق فى طول الحائط لافى عرضه ، وهو قديم مملوء بالجص ، والحائط ليس عليه سقف يثقله فنخشى عليه ، فأعجبنى كلامه .

ثم أنهى فى سنة ثمان وسبعين لمولانا السلطان الأشرف احتياج المسجد الشريف للعمارة ، وسقوطُ منارة مسجد قباء ، وكان الجناب الخواجكى الشمسى ابن الزمن مغرما بمثل ذلك ، وسبق له بالمدينة الشريفة عمارة لمدرسته المعروفة بالزمنية على يد بعض جماعته ، ففوض إليه السلطان أمْرَ عمارة المسجد النبوى ، فكان ماتقدم من مجيئه إلى المدينة الشريفة فى أثناء سنة تسع وسبعين ، وتقريره أمر العمارة ، ثم توجه إلى مصر المحروسة ، فكان من أمر العمارة ما قدمناه .

ثم رغب فى أمر العمارة المقر الشرفى شرف الدين الأنصارى تغمده الله برحمته ففوض له ذلك ، وحضر صحبة الحاج إلى مكة المشرفة ، وأقام بها مدة حتى يتكامل حصول آلات العمارة ، فتوفى بها ليلة سابع عشر صفر عام أحد وثمانين وثمانمائة بعد شكوى خفيفة .

ثم وردت المراسيم الشريفة بتفويض أمر العمارة للجناب الشمسى بن الزمن وكان بجدة المعمورة فورد المدينة الشريفة صحبة شاد جدة فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين ، وأحضر معه جماعة من أرباب الصنائع ، وأقام لينظر فى أمر العمارة بنفسه ، فكان ماتقدم من إصلاح السقف الأعلى وعمارة غيره من السُّقُف المتقدم ذكرها ، وإحكام القبة الزرقاء المحاذية للحجرة الشريفة بسقف المسجد ، وإصلاح حِلْية الصندوق الكائن بأصل الأسطوان التى فى جهة الرأس الشريف والقائم المجدد فوقه .

ولما نزعوا القائم العتيق وما تحته من الصندوق وجدوا ماتحت ذلك من أحجار الأسطوانة المذكورة متشطبا ، وأحجارها قطع مجوفة كالخرز ، وكذا كل أساطين المسجد

العتيقة ، وفى جوفها الرصاص وعمد الحديد ، وأهل المدينة يسمون كل قطعة منه خرزة ، ويسمونها أيضا فلكة ، فاقتضى رأيهم تعميق ما على رأس الأسطوان المذكور من أخشاب السقف ، فجعلوا مرمة من الأخشاب حول الأسطوان المذكور ليكسروا الخرز المشقق من ذلك الأسطوان ، وهن ست ، ثم يعلقون ما صح من الأسطوان إلى أن يدخلوا مكان ذلك بدله ، ثم شرعوا فى كسر تلك الخرز ونزعها ، فتعسر ذلك عليهم ، وحصل بسببه دق عنيف ، حتى كانت جدران الحجرة تهتز له لاتصالها بالأسطوان المذكور ، فحصل بسبب ذلك كلام من الناس، ولكن بعد كسر بعض الخرز وإخراجه ، وكانوا يعالجون فى إخراج الرصاص أيضا علاجا أعظم من العلاج فى الحجر ، فعقدوا مجلسا ، وطلبنى متولى العمارة للحضور فيه ، فترددت لأنه بلغنى أن بعض الناس أوغر صدره منى وقرر عنده أنى حريص على أن لا تكون هذه العمارة على يده ، وكنت أرى منه محبة ومَيْلاً ثم تنكر بعض التنكر ، وعلمت أن الرجوع عن إصلاح الأسطوانة المذكورة غير ممكن لكسر بعضها وإخراجه ،فعلمت فوات وقت النظر ،فأجبت الرسول بذلك، ولم أحضر معهم مع علمى بأن بعض أهل المجلس كان مغرى بمخالفة ما أشير به ، وإن كان فى غاية الوضوح ، سامحه الله ، ثم افترقوا على إتمام ذلك ، فمكثوا أياما يعالجونه حتى تم،وأعادوا مكان تلك الخرزات الست مثلها من خرز أسطوان نَقَضُوه من أساطين مسجد قباء ، فكان ذلك بقدر تلك الخرز سواء ، وأحكموا إعادتها بالرصاص وعمد الحديد أحسن إحكام .

وقد كنت أستبعد قدرتهم على ذلك ، وأتعجب من قيام بقية الأسطوان من أعلاه ، مع رفع أسفله ، وكونه كالجبل من الحجر والرصاص ، ولكن ساعدهم المدد المحمدى فى ذلك مع حسن معرفة المعلم المباشر لسبك الرصاص .

ثم كان ما تقدم من إعادة الصندوق المذكور والقائم فوقه إلى محلهما،ونقض الرخام المؤزَّر به جدار الحجرة الظاهر وتجديده كما تقدم ، وعند قلع رخام الصفحة

الآخرة من الزاوية الشمالية إلى الصفحة الشرقية مع ما يليها من صفحة المشرق عند منعطفها ظهر الشق المتقدم ذكره وهو انشقاق قديم سدَّ الأقدمون خَلَله بِكِسَر الآجر وأفرغوا فيه الجص وبيضوه بالقَصَّة فانشقَّ البياض من رأس وَزَرة الرخام إلى رأس الجدار المذكور ، فأرادوا اختبار ماتحت البياض ليعلموا قدره ، فقشروا البياض عنه ، وأخرجوا مافى خلله من الجص والآجر ، فظهر من خلله بناء الحجرة المربع الذى هو جوف البناء المخمس المذكور فظهر منه ملتقى حائطه الشامى وحائطه الشرقى ، وظهر هناك شق أيضا فى جدار الحجرة الداخل عند ملتقى الجدارين المذكورين تدخل اليد فيه ، وهو قديم أيضا ، وقد سدَّه المتقدمون ، ثم اتَّسع قليلا على دوام الأيام .

فلما كان عشية السبت ثالث عشر شعبان عَقَدوا مجلسا فى جوف المقصورة عند الجدار المذكور ، حضَره القضاة والمشايخ والخدام وشيخهم الأمير إينال ، وطلبونى لذلك المجلس ، فترددت فى الحضور لما قدمته ، ثم توضأت وصليت صلاة الاستخارة وسألت الله أن يلهمنى السَّداد والصواب ، وحضرت فوجدت الأمر قد اتفق عليه ، وشاهدت ما قدمته من وصف ذلك ، ورأيت على ذلك البناء الداخل من الهيبة والأنس ما لا يوصف ولا يدرك إلا بالذوق ، وتحرَّر لى أن سبب انشقاق الجدار الظاهر انشقاق الجدار الداخل وميلانه نحو الجدار الظاهر وكأن الأقدمين لما رأوا انشقاق الجدار الداخل ـ ولعل رؤيتهم لذلك والله أعلم عقب الحريق عند ما أحدثوا السقف المتقدم وصفه على الحجرة الشريفة ـ أدعموا الجدار الداخل بأخشاب جعلوها بين الجدار الداخل والخارج عند رأسهما فى شرقى الحجرة ، فمال الجدار الظاهر من أعلاه بحيث صار أعلاه لا يوازى أسفله ، وخرج بسبب ذلك عن الاستقامة ، فحدث فيه الشق المذكور ، ورأيت الحاضرين بين ساكت ومشير ، فترجح عندى سلوك رأى ابن عباس رضى الله عنهما فى أمر الكعبة ، حيث أشار بترميمها فقط ، ورأيت أن ما يطلب هنا من الأدب أَوْجَبُ مما يطلب هناك ، فحاولت إدعام البناء الظاهر ببناء ، فلم أوافق عليه ، فسألت

مهندس العمارةُ ـ وكان أعرف الحاضرين بهذا الأمر ـ هل تحققت الآن إشراف هـذا الجدار على السقوط وأنه لا يتأتى تأخيره ، أم يحتمل التأخير مدة إذا رمّ بالجص والآجر كما كان أوّلا فيؤخر إلى أن يصير غير محتمل للتأخير ؛ فإنه لا يفعل هنا إلا ما تدعو إليه الضرورة فى الحال؟ فقال : الترميم شىء وقطع الفرط شىء آخر ، ثم سأل متولى العمارة عن كيفية ما يكتب ليطالع به المسامع الشريفة، فقال له القاضى الزكوى قاضى الشافعية وأحد الناظرين سامحه الله تعالى : سَرِّح العمالَ غداً للهدم وكتابة المحضر علينا ، وخافتَ متولى العمارة بالإنكار عليه فى إحضارى ، وحَثَّه على الإعراض عن كلامى .

ثم إن متولى العمارة ذكر لى أنه رأى رؤيا فهِمَ منها الهدم ، فصمَّم عليه ، ورأيت عنده من شجاعة الجَنَان وثبات الجأش فى هـذا الأمر ما لا يوصف ، وبلغنى أن بعض الناس ذكر له أن ما سبق من كلامى دليلٌ على ما كان قد ألقاه إليه من حرصى على أن لا تكون هذه العمارة على يده ، وأن لا يفوز بهذه المنقَبَة العظيمة التى لم يسبق إليها ، ومَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ ، ولـكنى أُشْهِدُ الله ورسوله على أنى لم أرد سوى محض الوفاء بما أوجبه الله علينا من الأدب مع حبيبه صلى الله عليه وسلم ومن بذل النصيحة .

ثم فى صبيحة الرابع عشر من شعبان المذكور شرَعُوا فى هدم المحل الشريف المتقدم ذكره من الجدار الظاهر ، فهدموا جانبا من الصفحة الشرقية وجانبها مما يليها من الصفحة المنحرفة منها إلى جهة الزاوية الشمالية ، وسَعَة ذلك خمسة أذرع بذراع اليد ، وذلك من بعد نحو أربعة أذرع من الأرض إلى رأس الجدار المذكور ، فظهر حينئذ هَدْم الحريق الذى فى الفضاء الكائن بين جدارى الحجرة الشريفة ، ورأينا فيه كثيراً من الأخشاب المحترقة قد سلم من بعضها قدر الذراع ونحوه .

ثم فى خامس عشر الشهر المذكور حضروا لتنظيف ذلك ، وتوجه متولى

العمارة لشيخنا العارف بالله تعالى سيدى شهاب الدين الأبشيطى قدس الله روحه ، وسأله فى الحضور للتبرك به ، فحضر من خارج الجدار ، وامتنع من الدخول وقرأ الفاتحة ، وقال : نظفوا على بركة الله ، ثم انصرف وقال لى بعد ذلك : ذكروا لنا أن هَدْم ذلك ضرورى ، فقلنا لهم : الضرورى يعمل ، فلما دخلوا لإزالة ذلك شاهدت أمرا مَهُولا من رَدْم الحريق بحيث لم يتأتَّ إزالته إلا بالعَتَل والمَسَاحى ، وتحققتُ بسبب ذلك عذرَ من أدرك زمن الحريق فى عدم إزالة مابالحجرة الشريفة منه كما قدمناه ، وكان ارتفاعه فى ذلك المحل نحو القامة ، وهو رَدْم من السقف الأعلى وجص وآجر من الجدار الذى كان بأعلى سقف المسجد لتمييز الحجرة الشريفة عن غيرها ، كما تقدم بيانه ، ومما كان على رؤوس الأساطين ومما احترق من أخشاب ذلك ، فاشتغلوا بتنظيفه وتزاحم الناس عليه فاستمروا فى ذلك حتى بلغوا فى تنظيفه الأرض القديمة ، بحيث ظهر تحصيبُ ذلك المحل بحصباء تشبه مافى المسجد ، غير أنها قد اسْوَدَّت من نَدَاوة الأرض ، واعتبرتُ التفاوتَ بين الأرض المرخمة خارج الجدار الظاهر والأرض المذكورة بداخله ، فكانت الأرض المذكورة — أعنى الداخلة بين الجدارين — أَخْفَضَ من الخارجة بذراع وثلث بذراع اليد ، وظهر من وصف البناء الداخل ماقدمناه فى الفصل الثانى والعشرين من كونه مربعا بأحجار منحوتة عليها أبهة عظيمة ، وأن الصفحة الغربية منه مُلاَصقة للصفحة الغربية من البناء الظاهر ، وليس بينهما ولا مغرز إبرة ، وأنه لا بابَ فيه ولا موضع باب ، وفى الصفحة الشمالية لاصق بها الأسطوان التى قدمنا وصفه ، وأن بعضه داخل فى الصفحة المذكورة ، وقد أثر فيه الحريق كما قدمناه حتى تشطب بعضه سيما فى أعاليه وهو فى صف مربعة القبر يليها من جهة المشرق .

وتبين حينئذٍ ما فى الجدار الداخل من الانشقاق المتقدم وصفه فى شماليه مما يلى المشرق ، فأدخلوا فيه شمعة ، فشاهدوا فيما يقابله من الجدار القبلى مما يلى

المشرق أيضاً انشقاقا مثله ، وتبين لى أن البناء المتقدم وصفه بين الجدارين القبليين فى موازاة الأسطوانة الظاهرة فى الجدار القبلى التى يقف عندها المسلّم على عمر رضى الله عنه إنما جعل إدعاما للجدار المذكور لما حدث به ذلك الانشقاق، وظهر ما أدعموا به من الأخشاب بين الجدار الداخل والخارج فى جهة المشرق على ما قدمناه ، فتردد متولى العمارة فى نقب الجدار الشامى لإحكام ذلك الشق وترميم الشق المقابل له .

ثم عزَم على هدم الجـدار المذكور ـ أعنى جدار الحجرة الداخل من جهة الشام ـ بأجمعه ، فبدأ برفع السقف الذى وجد على الحجرة نفسها كما قدمناه ، وحينئذٍ ظهر لهم ساحة الحجرة الشريفة ، وستر الله تعالى القبور الشريفة عن الأعين بالردم ، ثم علمت أن هذا الموطن يطلب فيه من التثبت والأدب التام مالا يطلب فى غيره ، فانصرفت عازما على أن لا أحضر معهم ما داموا فى تعاطى الهدم وأن أحضر معهم فى البناء . ثم أفاضوا فى عَقْد قبة سُفْلية على جـدار الحجرة الداخل رعاية الإتقان والإحكام فـكرهت ذلك لعلمى أنه يجر إلى هَدْم معظم الحجرة مع ما فيه من تغيير الهيئة الأولى

ثم فى حادى عشر شعبان المذكور أجمعوا أمرهم على ذلك ، فشرعوا فى هَدْم الجدار الشامى والشرقى من البناء الداخل، فوجدوا فى الجانب الذى يلى المغرب من الجدار الشامى ، وكذا فيما يقابله من القبلى ، وكذا فى الغربى عند ما هدَموا أسفل السترة المبنية على السقف المحترق بين فصوص الأحجار وأعلاها مع رأس الجدر المذكورة لَبِناً غير مَشْوى طولُ اللبنة منه أرجح من ذراع وعرضه نصف ذِراع ، وسمكه ربع ذراع، وطولُ بعضه وعرضه وسمكه واحد وهو نصف ذراع، ولم يجدوا مثل ذلك فى الجدار الشرقى ، ولا فيما يليه من الشامى والقبلى ، وقد عاب بعضُ الناس على الأقدمين فى وضعهم ذلك فى الجدار ، ونَسَبهم به إلى التقصير ، وربما قال: إن

البنائين زمن الوليدِ لما أمر ببناء المسجد على يد عمر بن عبد العزيز كانوا كفارا ، وإن ذلك من غشهم ، وهذا جهل من قائله .

وقد قدمنا من شَرْح حال بناء الحجرة ما فيه كفاية ، وتقدم أن عمر بن الخطاب أو ابن الزبير هو البانى للحجرة على ما رواه ابن سعد ، ولو سلم أن تلك البناية فى ولاية عمر بن عبد العزيز للعمارة المتقدمة فهو أتقى لله من أن يُهمِل قبر نبيه بيد الكفار حتى يغشّوا فى بنائه بمثل ذلك . وقد ظهر لى فى ذلك أن السلف لما بنوا الحجرة الشريفة بالأحجار لقصد الإحكام والبقاء ، وكان ما عدا الأساس منها مبنياً باللبِنِ فى عهده صلى الله عليه وسلم كما يؤخذ مما قدمناه ، فرأوا أن لا يخلو بناؤهم من بركة ذلك اللبن ، فوضعوا منه ما رأوا فيه الصلابة بين الأحجار المبنية بالقَصَّة ، ولولا إتقان ذلك البناء لما مكث هذه المدة المديدة ، والعجبُ أن الخلَلَ والانشقاق لم يحصل إلا فى الناحية الخالية منه ، وقد قدمنا أن الذى يظهر أن تلك الناحية سقطت وأعيدت ، واختلاف البناءَيْنِ شاهد بذلك ، حتى إن الجدار الشرقى لم يكن مبنياً بالحجارة الموجَّهة إلا من داخله دون خارجه ، وعرض منقبته أقل من عرض بقية الجدر . ولما بلغوا فى هدم الجدار الشامى أرض الحجرة الشريفة شَرَعُوا فى تنظيف الرَّدْم الساتر للقبور الشريفة ، وذلك فى صبيحة الثالث والعشرين من شعبان المذكور ، ومكثوا فى ذلك إلى غروب الشمس مع كثرتهم حتى بلغنى أن الحجرة الشريفة امتلأت بهم ، ولم يخصوا مكاناً دون مكان ، فظنوا أن القبر الشريف النبوى قريباً من وسط الحجرة ، وليس كذلك كما سنبينه ، ووضعوا ما أخرجوه من الردم عند طرف المسقف الغربى فى زاويته المتصلة بسقف الدكاك ، وبَنَى عليه متولى العمارة تلك الدكة البارزة هناك . ثم وفَّى القضاى الزكوى بما وعد به متولى العمارة من كتابة المحضر ، وكتب فيه أهل المدينة ، ولم أكتب فيه ، واعتذرتُ بأنه لم يسبق لى عادة بمثل ذلك ، و بعثوا به إلى مصر المحروسة ، فلما كان فى صبيحة الخامس والعشرين من الشهر المذكور بعث إلىَّ

متولى العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها ، وصار قائل يقول : ظهر القبر الشريف ، وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثراً ، فحثنى داعى الشوق وغلبة الوجد ، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله لعائشة رضى الله عنها أن تُرِيَه القبورَ الشريفة ، وغير ذلك مما سبق ومما سيأتى فى باب الزيارة ، ووصف السلف للقبور الشريفة ، وذكرهم ذرع الحجرة الشريفة وكيفيتها كما تقدم ، فعزمت على الإقدام ، وتمثلت بقول بعضهم :

ولو قيل للمجنون أرض أصابهَا غبارُ ثَرَى ليلى لجدَّ وأسرعا
لعــــلَّ يرى شيئاً له نِسْبة بها يُعَلِّلُ قلباً كاد أن يتصدعا

فتطهرت وتوجهت لذلك مستحضرا عظيم ما توجهت إليه ، وموقع المثول بيبت أوسع الخلق كرما وعفوا ، وذلك هو المعول عليه ، واستحضرت قول بعضهم:

عَصَيْتُ فقل لى كيف ألقى محمدا وَوَجْهى بأثواب المعاصى مبرقع

ثم أنشدت الذى يليه :

عَسَى الله مِنْ أجْلِ الحبيب وقُرْبه يُدَاركنى بالعفو فالعفو أوسع

وسألت الله أن يمنحنى حسنَ الأدب فى ذلك المحل العظيم ، ويلهمنى ما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، وأن يرزقنى منه القبول والرضى ، والتجاوز عما سلف ومضى ، فاستأذنت ودخلت من مؤخر الحجرة ، ولم أتجاوز ذلك المحل ، فشِمِمْتُ رائحة ما شممت فى عمرى رائحةً أطيب منها ، ثم سلمت بوجَل وحَيَاء ، على أشرف الأنبياء ، ثم على ضجيعيه خلاصة الأصفياء ، ودعوت بما تيسر من الدعوات ، وتشفعت بسيد أهل الأرض والسموات ، واستنزلت به فى بيته من الأزمات ، واغتنمت هذه الفرصة فى جميع الحالات ، ولله در القائل :

تمتَّعْ إن ظَفِرْتَ بنيل قرب وحَصِّلْ ما استطعت من ادّخار
فقد وسِعت أبوابَ التدانى وقد قَرُبَتْ للزوار دارى

وقد هبّتْ نُسيْماتٌ لنجد ... فَطِبْ واشْرَبْ بكاسات كبار
فما وَقْتٌ يمر بمستماد ... وما دار الأعزّة بالقــرار
فودِّعْ أرضَ نجدٍ قبــل بعد ... فما نجدٌ لمرتحِــل بدار
أقول لمن يمرُّ بأرض نجـــد ... ويظفر من رباها بالديار
تزود من شَميم عَـــرَارِ نَجْدٍ ... فما بعـــد العشية من عَرارِ
وقـــل أيضاً اغتنم صفاء ... على مَغْنًى يلوح لذى اعتبار
إذا العشرون من شَعْبان ولَّتْ ... فواصِلْ شُرْبَ ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار ... فإن الوقت ضاق على الصغار

فلما قضيتُ من ذلك الوطَر ، متعت عينى من تلك الساحة بالنظر ، لأتحف بوصفها المشتاقين ، وأنشُرَ من طِيب أخبارها فى المحبين ، فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هى أرض مستوية ، وتناولتُ من ترابها بيدى فإذا فيــه نَدَاوة وحصباء كالحصباء المتقدم وصفها بين الجدارين يظهر عند فحصه بالأصابع ، ولم أجد للقبور الشريفة أثراً ، غير أن بأوسط الحجرة موضعا فيه ارتفاع يسير جدا ، توهموا أنه القبر الشريف النبوى ، فأخذوا من ترابه للتبرك فيما زعموا ، ومنشأ ذلك الوهم جَهْلُ مَنْ كان هناك بأخبار الحجرة الشريفة ، وذلك المحل ليس هو القبر النبوى قطعا ، ولعله قبر عمر رضى الله عنه ؛ لأن الشافعى رضى الله عنه قد نص على أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما لحد له فى جدار القبلة .

قال الشافعى ، فيما نقله عنه الأقشهرى رداً على من قال إن النبى صلى الله عليه وسلم أدخل لقبره معترضا : هــذا من فحش الــكلام فى الأخبار ؛ لأن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريباً من الجدار ، وكان اللحد تحت الجدار ، فــكيف توضع الجنازة على عرض القبر حتى سُلَّ معترضا ؟ فدلَّ على أن هذا النقل غير صحيح ، انتهى .

وروى ابن عساكر عن جابر رضى الله عنه قال : رُشَّ قبر النبى صلى الله عليه وسلم

وكان الذى رش الماء على قبره بلال بن رباح بقربة بَدَأ من قبل رأسه حتى انتهى إلى رِجْليه ثم ضَرَّجه بالماء إلى الجدار ، لم يقدر على أن يدور من الجدار لأنهم جعلوا بين قبره وبين حائط القبلة نحوا من سَوْط .

وقال ابن سعد فى طبقاته : أخبرنا شُرَيح بن النعمان عن هشيم قال : أخبرنى رجل من قريش من أهل المدينة يقال له محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال : سقط حائط قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى زمن عمر بن عبد العزيز ـ وهو يومئذ على المدينة فى ولاية الوليد ـ فكنت فى أول مَنْ نهض ، فنظرت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا ليس بينه وبين حائط عائشة رضى الله عنها إلا نحو من شبر ، فعرفت أنهم لم يُدْخِلوه من قبل القبلة ، وعلى تقدير أن يكون ثَمَّ موضع بين القبر الشريف وبين جدار القبلة بحيث يتأتى إدخاله صلى الله عليه وسلم من ناحية القبلة فلا يكون ذلك الموضع محل القبر الشريف ؛ لبعده من جدار القبلة جدا . وفيما رواه ابن زَبَالة ويحيى من خبر عبد الله بن محمد بن عقيل فى قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة المتقدم ذكره أن عمر بن عبد العزيز قال لمزاحم لما دخل : يا مُزَاحم كيف ترى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : متطاطيا ، قال : فكيف ترى قبر الرجلين ؟ قال : مرتفعين ، قال : أشهد أنه رسول الله .

وقد قدمنا من وصف داخل الحجرة وذكر ذَرْعها ما فيه كفاية .

وقد تأملت التفاوت بين أرض الحجرة الشريفة وبين أرض الفضاء الخارج بين الجدار الشامى الداخل وزاوية الجدار الخارج فوجدتُ أرضَ الحجرة أنْزَل منه بنحو ذراع ونصف ، وتقدم أن أرض الفضاء المذكور أخفَضُ مما حول الحجرة من المسجد بذراع وثلث ، فيكون التفاوت بين داخل أرض الحجرة وأرض المسجد نحو ثلاثة أذرع .

وتأملت آثار رَدْم الحريق فى الجدران فرأيته فى بعضها نحو ثلاثة أذرع ، وفى بعضها نحو ذراعين ، وأخبرنى المباشرون لإخراجه بذلك أيضاً .

ثم هدموا من الجدار القبلى مما يلى المشرق جانبا نحو أربعة أذرع وشىء ، حتى بلغوا به أرض الحجرة .

وهدموا أيضاً جانبا من الجدار الغربى مما يلى الشام حتى بلغوا به الأرض أيضاً ، وذلك نحو خمسة أذرع منـه ، فعَلُوا ذلك ليتأتى لهم إحكام القبة التى أجمعوا أمرهم عليها ، ولم يبق من أركان الحجرة الشريفة سوى مجمع جدار القبلة وجدار المغرب .

ثم إنهم هدموا من علو مابقى من الجدارين المذكورين نحو خمسة أذرع ، ولم يبق من بناء الحجرة الأصلى إلا ما فضل منهما .

ووجدوا عند هدم مبدأ الجدار القبلى من أعلاه ميزابا قد احترق بعضه من جهة ما كان فى بناء الجدار ، و بقى منه نحو الذراع ، وهو من عَرْعَر له رائحة ذكية ، وسَعَة مجرى الماء فيه نحو أربعة أصابع أو خمسة ، كأنه كان ميزابا للحجرة الشريفة قديماً لحرص الأقدمون على ما بقى منه بعد الحريق ووضعوه بين السترة التى أحدثوها لأجل السقف و بين رأس الجدار ، فجزاهم الله خيرا .

ولما أعيد بنا الحجرة حرَصْتُ على أن يُعَاد فيها ، فوعدنى متولى العمارة بذلك ، فلما كان عند ختم البناء سألته عنه ، فذكر لى أنه جعله فى البناء الآتى ذكره فى أعلى الجدار الشامى بين ما بقى من لَبِنِ الحجرة ولبّس عليه بطين ذلك اللبن .

ثم عند الشروع فى إعادة بناء الحجرة اقتضى رأيهم إدخال الأسطوان المتقدم وصفه خلف جدار الحجرة الشامى لتشققه فزادوا فى عرض ذلك الجدار من الرحبة المثلثة الشكل المتقدم وصفها بين الجدارين ، وكان الشروع فى إعادة بناء الحجرة فى سابع عشر شعبان المذكور ، فابتدؤا بالجدار المذكور ، وأوصلوه بالجدار الغربى ، وأعادوا ذلك بأحجار الحجرة التى نقضوها منها ، ثم رأوا أن إحكام القبة التى عزموا عليها يقتضى تربيع محلها ، بحيث لا يزيد طوله على عرضه . وقد قدمنا فى

ذرع الحجرة ما يقتضى عدم ذلك ، فعقدوا قَبْواً على نحو ثلث الحجرة الذى يلى المشرق والأرجل الشريفة ، وجعلوا الجدار الخارج من جهة المشرق متصلا بجدار الحجرة الداخل، فأدخلوا ما كان بينهما فى جدار القَبْو المذكور إلى نهاية ارتفاعه ، وكذا فعلوا فيما كان بين الجدار القبلى الداخل والخارج ، سَدُّوه أيضاً بالبناء حتى لم يبق حول البناء الداخل فضاء إلا ما بقى من الرحبة المثلثة الشكل فى جهة الشام وصار علو القبة المذكور فضاء أيضاً بين القبة و بين الجدار الظاهر فى جهة المشرق وعَقَدوا القبة المذكورة على ما بقى من الحجرة ، وهو ما يلى المغرب منها فى جهة الرؤس الشريفة ، وحاول بعض الناس أن يكون عقد القبة بالآجر ، فكرهت ذلك لما لا يخفى ، فاجتنبه متولى العمارة جزاه الله تعالى خيراً ، وعقدَها بالأحجار المنحوتة من الحجر الأسود ، وكملها بالأبيض ، وأخبرونى أن ارتفاع القبة المذكورة من داخل أرض الحجرة الشريفة إلى محدَّب القبة المذكورة ــ وهو أعلاها المغروز فيه هلالها ــ اثنا عشر ذراعا بذراع العمل ؛ فيكون بالذراع المتقدم وصفه ثمانية عشر ذراعا وربع ذراع .

ومن أرض الحجرة أيضاً إلى نهاية القَبْو الذى بُنى عليه أحد حوائط القبة المذكورة ثمانية أذرع وشىء بذراع العمل ، وذلك نحو أحد عشر ذراعا بالذراع المتقدم وصفُه ، وارتفاع حائط القبة الشرقى ــ وهو الذى يلى القبو المتقدم وصفه ــ عن طرف القبو الذى بنى عليه الحائط المذكور ذراع وثلثان بذراع العمل ، وذلك ذراعان ونصف راجح بالذراع المتقدم وصفه ، وصار ما بين حائط القبة المذكور و بين حائط الحجرة الظاهر فى جهة المشرق ــ أعنى سطح القبو المذكور وما اتصل به ــ كما كان بين الجدارين ، وأدخل فى عرض الجدار رحبة واحدة تحيط بها من المغرب حائط القبة المتقدم وصفه ، ومن المشرق حائط الحجرة الظاهر ، ومن القبلة حائط الحجرة الظاهر أيضاً ، ومن الشام سترة بنيت له فيما بين جدار القبة الذى يليه وجدار الحجرة الظاهر فى المشرق .

وذَرْع هذه الرحبة المذكورة بسطح القبو المذكور طولا من القبلة إلى الشام سبعة أذرع ونصف سدس ذراع بذراع العمل ، وذلك أحد عشر ذراعا بالذراع المتقدم وصفه .

وذَرْعُها عرضا مختلف : فما يلى القبلة ذراعان ونصف بذراع العمل ، ومما يلى الشام نحو الثلاثة .

وأما جدار القبة الشامى فقد تقدم أنهم زادوا فى عرضه من الرحبة خلفه وجعلوه أيضاً متفاوت العرض ؛ فجعلوا ما يلى المشرق منه ـ وهو الموضع المحاذى للأسطوانة التى وقعت الزيادة فى العرض لأجل إدخالها وإدعامها بذلك ـ أزيد من الجهة التى تلى المغرب منه بنحو نصف ذراع ؛ فإنهم جعلوا عرض الجدار فى هـذه الجهة من أسفل عقد القبة نحو ثلاثة أذرع بذراع اليد ، وعرضه فى الجهة الأخرى دون ذلك بنحو نصف ذراع ، بحيث صارت جهة الأسطوان المذكور بارزة عن بقية ذلك الجدار فى الرحبة المذكورة كما سيأتى تصويره .

وقد جعلوا على رأس هذا الجدار بناء يسيرا مما بقى من اللبن الذى أخرج من بعض جدار الحجرة كما تقدم وصفه ، بعد أن تفرق اللبن المذكور ، وأخذ الـكثير منه .

وتركوا فى نحو وسط هـذا الجدار خَوْخَة ، فلما لم يبق إلا هى أدخلوا منها شيئاً كثيراً من الحصباء جاءوا بها من عَرْصَة العقيق من جنس حصباء المسجد بعد غَسْلها بالماء ليَضَعُوها على القبور الشريفة ، وكنت قد ذكرت لبعضهم أن موضع القبر الشريف النبوى مما يلى الجدار القبلى ، وأنه يستنبط مما قدمناه فى مسمار الفضة المحاذى للوجه الشريف أن أول القبر الشريف من جهة المغرب على نحو ذراعين بذراع اليد من الحائط الغربى ؛ لأنا إذا أسقطنا عرض الجدارين الغربيين ـ وهما الجدار الداخل والخارج ، وهو نحو ثلاثة أذرع مما بين المسمار وأول الجدار الظاهر الغربى وهو نحو خمسة أذرع كما تقدم ـ كان الباقى نحو

الذراعين إلى الرأس الشريف ، فاستحسن ذلك ، فحضر معهم لما دخلوا من الخَوْخَة المذكورة لوضع الحَصْباء على القبور الشريفة ، فوضعوا ذلك على المحل الشريف المذكور كما وصفت ، وأخذوا بالهيئة المشهورة فى كيفية القبور الشريفة مِنْ أن رأس أبى بكر رضى الله عنه خلفَ مَنْكِب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضى الله عنه خلف منكب أبى بكر ، فوضعوا الحَصْباء عليهما كذلك وكان بعض المباشرين لذلك حَنَفيا ـ وهو صهر متولى العمارة ـ فجعلها مُسَنَّمة ، وذلك بعد أن أكثروا فى الموضع المذكور من البَخُور بالعُود والعَنْبر وغيرهما من أنواع الروائح ، وعَرْفُ المحل الشريف على ذلك كله راجح فائح، ولله در القائل :

بطيب رسول الله طابَ نسيمُها فما المِسْكُ ما الكافور ما المَنْدَلُ الرَّطْبُ

وألقى جماعة من الناس من تلك الخَوْخَة أوراقا كتبوا فيها التشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم ومآرِبِ يسألونها بالحجرة الشريفة، ثم سدوا الخوخة المذكورة،وأحكموا بناءها كبقية الجدار ، و بيضوا القبة المذكورة وجميعَ جدرانهامن خارجها بالجص، وجاءت حسنة فَاضَ عليها أنسُ المحل الشريف ، ونَصَبُوا بأعلاها هلالا من نحاس يظنه الرائى ذهبا ، وهو قريب من سقف المسجد الأول ؛ فإن القبة المذكورة تحته ، ثم سدوا مابقى من نقب الجدار الظاهر ، وحضرتُ معهم فى ذلك الوقت، وحضرت أيضا بعض بناء الحجرة الشريفة ، وتبركت بالعمل فيه ، ولم أحضر غير ذلك طلبا للسلامة ، وأنشدت فى ذلك المحل الشريف قصيدتى التى تطفلت بها على واسع كرم الجناب الرفيع الحبيب الشفيع الحالِّ بذلك الحِمَى المنيع ، التى أولها :

قف بالديار لحى فى ذرى الحرم وحَىِّ هذا المُحَيَّا من ذوى إضَمِ

وكان الفراغ من ذلك وخَتْمُ بناء الجدار الظاهر فى يوم الخميس المبارك سابع شوال من السنة المذكورة ، وأصرفوا فى ذلك وفى غيره من عمارات المسجد وإعادة مَنَارة مسجد قباء وتجديد بعض سقفه و إحكام مصرف المياه التى كانت تجتمع

حول المسجد عند كثرة الأمطار ما لا جزيلا ، ومن أعظم ذلك نفعاً ما جعل لمصرف المياه المذكورة كما سيأتى وصفه فقد عم نفعه ، وذلك كله فى الصحائف الشريفة السلطانية الأشرفية ، أعز الله أنصارها ، وأعلى فى سلوك العدل منارها ، على يد متولى العمارة الجناب الشمسى المتقدم ذكره ضاعف الله تعالى حسناته .

وهذا تصوير ما استقر عليه الأمر من هذه العمارة فى صورة الحجرة المشرفة والقبور الشريفة بها :

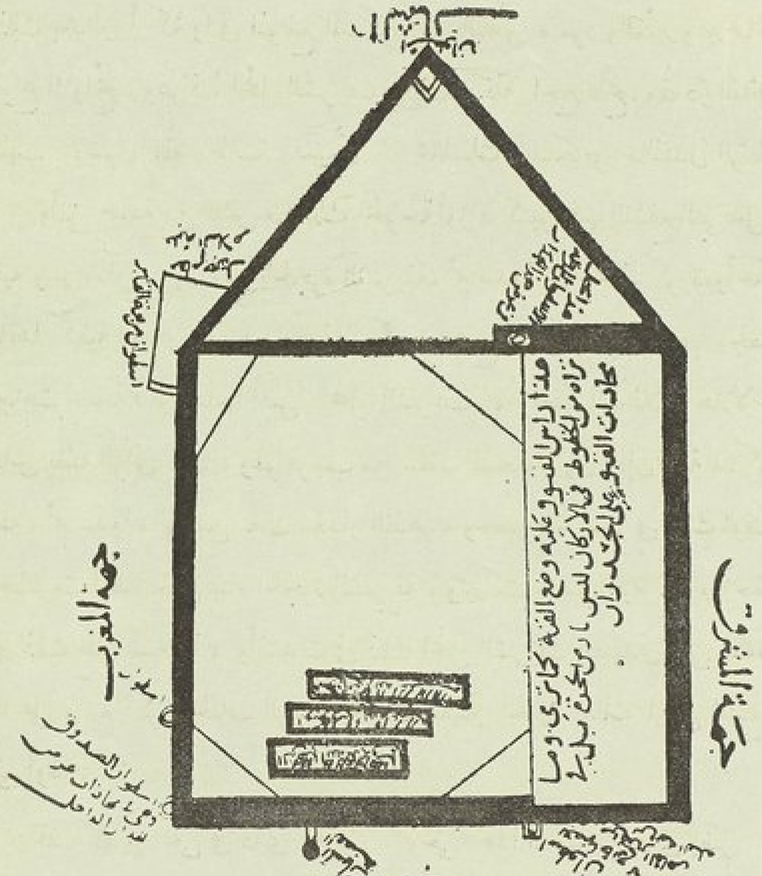

ثم حدث بعد الحريق الثانى عنـد إنشاء القبة الثانية التى جعلوها بدلا عن القبة الزرقاء المتقدم ذكرها تأسيسُ دعامة وعقدٍ فى جهة المغرب عند مقام جبريل

عليه السلام متصل بجدار الحجرة الظاهر من أعلاه وأسطوان وعقد فى مقابلة ذلك فى المشرق متصل بالجدار الظاهر أيضاً فى جهة المغرب .

الفصل التاسع والعشرون

فى الحريق الحادث فى زماننا بعد العمارة السابقة وما ترتب عليه .

ألحقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليـه فى الفصول السابقة ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مسودة كتابنا هذا لأنى توجّهتُ إلى مكة المشرفة للاعتمار أول شهر رمضان عام ست وثمانين وثمانمائة ، فورَدَ على بها عدةُ كتبٍ من الصادقين فى الخبر ، وشافهنى من شاهد الأمر والأثر ، بما حصل من الخطب العظيم ، والرزء الجسيم ، باحتراق المسجد النبوى أول الثلث الأخير من ليلة الثالث عشر من شهر رمضان ، وذلك أن رئيس المؤذنين وصدْر المدرسين الشمسى شمس الدين محمد ابن الخطيب قام يُهَلِّلُ حينئذٍ بالمنارة الشرقيـة اليمانية المعروفة بالرئيسية ، وصَعِدَ المؤذنون بقية المنائر ، وقد تراكم الغيمُ فحصل رعد قاصف أيقظ النائمين ، فسقطت صاعقة أصاب بعضُها هلالَ المنارة المذكورة ، فسقطت فى المسجد وله لهب كالنار ، وانشق رأسُ المنارة ، وتوفى الرئس المذكور لحينِهِ صَعِقاً ففَقَد مَنْ كان على بقية المنائر صوته ، فنادوه فلم يجب ، فصعد إليه بعضهم فوجده ميتا ، وأصاب مانزل من الصاعقة سقفَ المسجد الأعلى بين المنارة الرئيسية وقبة الحجرة النبوية فثقبه ثقبا كالترس ، وعلقت النار فيه وفى السقف الأسفل ، ففتح الخدام أبواب المسجد قبل الوقت المعتاد وقبل إسراجه ، ونودى بالحريق فى المسجد ، فاجتمع أمير المدينة وأهلُها بالمسجد الشريف ، وصَعَدَ أهلُ النجدة منهم بالمياه لإطفاء النار ، وقد التهبت سريعاً فى السقفين ، وأخذت لجهة الشمال والمغرب ، فعجزوا عن إطفائها ، وكلما حاولوه لم تزدد إلا التهابا واشتعالا ، فحاولوا قطعها بهدْم بعض ما أمامها من السُّقف ، فسبقتهم لسرعتها ، وتطبق المسجد بدخان عظيم ، فخرج غالبُ مَنْ كان به ، ولم يستطيعوا المكث ؛ فكان ذلك سببَ سلامتهم ، وهرب مَنْ كان

بسطح المسجد إلى شماليه ، ونزلوا بما كان معهم من حبال الدِّلاء التى اسْتَقَوْا بها الماء بخارج المسجد على الميضأة والبيوت التى هناك وما حول ذلك ، وسقط بعضهم فهلك ، ونزل طائفة منهم إلى المسجد من الدَّرَج فاحترق بعضهم ولجأ بقيتهم إلى صحن المسجد مع مَنْ حالت النار بينه و بين أبواب المسجد ممن كان أسفل ، ومنهم صاحبنا الشيخ العالم صدر المدرسين الشمسى شمس الدين محمد بن المسكين المعروف بالعوفى ، فمات بعد أيام لضيق نفسه بسبب الدخان مع توعُّك سابق ، رحمه الله تعالى ! واحترق من الخدام الزينى شند نائب خازن دار الحرم ، تغمده الله برحمته ! ومات جماعة تحت هَدْم الحريق من الفقراء وسُودَان المدينة ، وجملة من مات بسبب ذلك بضع عشرة نفسا ، وكانت سلامة من بقى بالمسجد على خلاف القياس ؛ لأن النار عظمت جدا حتى صارت كبحر لجى من نار ، ولها زفير وشهيق وألسُنٌ تصعد فى الجو ، وصار لفحها يؤثر من البعد حتى أثرت فى النخلات التى بصحن المسجد ، وعلق منها شىء بالمنارة الرئيسية فاحترقت ، ووصلت النار لثياب الريّس شمس الدين محمد رحمه الله تعالى فاحترقت بعد موته ، وصارت النار ترمى بشَرَرٍ كالقَصْر فتسقط بالبيوت المجاورة للمسجد ، ومع ذلك فلا تؤثر فيها ، حتى سقط بعض الشرر على سَعَف فلم يحترق ، وحمل بعض خزائن الكتب من تحت سقف المسجد إلى صحنه فأصابها الشرر فأحرقها .

ونقل عن جَمْع كثير أنهم شاهدوا حينئذٍ أشكال طيور بيض كالإوَزّ يَحُومُون حول النار كالذى يكفها عن بيوت الجيران .

وأخبر أمير المدينة الشريفة السيد الشريف زين الدين فيصل الجمازى أن شخصا من العرب صادق الكلام رأى فى المنام ليلة ثانى عشر من شهر رمضان أن السماء فيها جَرَاد منتشر ، ثم عقبته نار عظيمة ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم النار وقال : أمْسِكُها عن أمتى ، فجزاه الله عن أمته — خصوصا عن جيرانه — أفضلَ ما جزى نبياً عن أمته

وحكى أيضا عن بواب رباط السبيل أنه ذكر مثل تلك الرؤيا عن غيره ، كتب لى بذلك صاحبنا العلامة شيخ المحدثين بالحرم النبوى الشيخُ شمسُ الدين بنُ شيخنا العلامة ناصر الدين العثمانى أمتع الله به

هذا مع ما حصل لأهل المدينة الشريفة من الدّهْشة العظيمة والحيرة لما شاهدوا من هول هذه النار ومنظرها الفظيع ، حتى أيقن بعضهم بالهلاك ، وانتقل بعض أهل الدور منها لما وصل إليهم الشَّرَر ، وخرج بعضهم من باب المدينة الذى يلى البَقيع ، و بعضهم من بابها الذى يلى المصلى ، وظنوا أن النار محيطة بهم . قال الشمس العثمانى : وصار لجميع المدينة من جميع جهاتها بالبكاء ضَجيج ، و بالدعاء دَجيج ، قال : وأمر هذه النار عجيب ، وليس الخبر كالمعاينة ، وصار المسجد كالتَّنُّور ، ولم يمض إلا أقل من عشر دَرَج وقد استولى الحريق على جميع سقف المسجد وحواصله وأبوابه وما فيه من خزائن الكتب والربعات والمصاحف ، غير ما وقعت المبادرة لإخراجه أولا وهو يسير ، وغير القبة التى بصحن المسجد ، وسبق ذكر سلامتها فى الحريق الأول ، وكنت تركت كتبى بالخَلْوة التى كنت أقيم بها فى مؤخر المسجد ، فكتب إلىّ باحتراقها ، ومنها أصْلُ هذا التأليف وغيره من التآليف والكتب النفيسة نحو ثلاث مائة مجلد ، فمنّ الله تعالى علىّ ببرد الرضى والتسليم ، وفراغ القلب عن ذلك ، حتى ترجحت هذه النعمة عندى على نعمة تلك الكتب لما كنت أجِدُه قبل من التعلق بها ؛ فلله الحمد والشكر على ذلك . هذا ، مع ما منّ الله به على من غيبتى عن هذا الأمر المَهُول ؛ فإن وقوعه كان فى ليلة الوصول إلى الحرم المكى ، ولم يتفق لى منذ سكنت المدينة الخروجُ منها فى رمضان ، بل كنت ألازم المسجد النبوى فيه من أوله إلى آخره ليلا ونهارا ، فكان ذلك سبَب النجاة من هذا الأمر

ولما اشتعلت النار فى السقف المحاذى للحجرة الشريفة ذاب الرصاص من القبة التى بسقف المسجد الأعلى ، واحترقت أخشابها وما يحاذيها من السقف الأسفل

والشباك الدائر على حائز عمر بن عبد العزيز الذى تعلق الكسوة بأعلاه ، وسقط ما سقط من ذلك على القبة السفلى التى تقدم تجديدها ، فلما أصبحوا بدأوا بطفى ما سقط على القبة المذكورة ، واستمروا فى ذلك إلى آخر النهار ، فسلمت القبة المذكورة مع أن بعضها من الحجر الأبيض الذى يُسْرع تأثره بالنار ، وذلك من المعجزات النبوية ؛ لأن كثيرا من أساطين المسجد الشريف سقطت لما ذاب بعضُ رصاصها وتهشمت وهى من الحجر الأسود ، ومع ذلك تفتت كأنه أحجار النورة ، وعدة ما سقط منها مائة و بضع وعشرون أسطوانا ، ومابقى منها فقد أثرت فيه النار أثرا بينا ، وسلمت الأساطين اللاصقة بجدار الحجرة أيضا ؛ فالحمد لله على حماية الحجرة المنيفة ، الحاوية للقبور الشريفة ، واحترقت المقصورة التى كانت حول الحجرة الشريفة والمنبر الشريف وما كان أمام المصلى المنيف بالروضة الشريفة من الصندوق وما عليه من المحراب المتقدم وصفه ، وسقطت أكثر عقود المسجد ، وما بقى منها فهو آيل إلى السقوط ، وسقط علو المنارة الرئيسية ، ثم خَشُوا من سقوط بعض ما بقى منها فهدموا نحو ثلثها ، وكتبوا إلى سلطان مصر مولانا الأشرف سلطان الحرمين الشريفين قايتباى أيد الله أنصاره بذلك سادس عشر رمضان ، واقتضى رأى نائب الناظر سد أبواب حواصل المسجد حتى القبة التى بوسطه المرصد فيها زيت مصابيحه ، وترك الردم على حاله حتى ترد الأوامر الشريفة فتضرر النـاس بذلك ، فاتفقت الآراء على تنظيف مقدم المسجد ماعدا ما جاور الحجرة الشريفة خوفا على ما سقط من حلية قناديلها ، مع أنها يسيرة كما يؤخذ مما سبق ، فجعلوا على ذلك حاجزا من الآجُرّ ، ونقلوا هدم مقدم المسجد إلى مايلى باب الرحمة من مؤخره ، وعمل فى ذلك أميرُ البلد والقضاةُ والأشراف وعامة الناس حتى الكثير من النساء والأطفال تقربا إلى الله تعالى بغير أجرة ، ولم يتأخر عن ذلك إلا المخدّرات من النساء .

و بَنَوْا فى محل المنبر منبراً من آجر ، وصَلَّوْا بالمصلى النبوى من حينئذ ، وعملوا

لأبواب المسجد غير باب جبرائيل خوخاً يدخل منها ، وسدوا ما زاد على ذلك ، ونصب الخدام خياماً بالمسجد إذ لم يبق به ظل ، وصار بعض أهل الخير يُسْرِج قناديلَ متعددة من عنده فى المسجد مع توفر الزيت بحاصله ، لكن تعذر ذلك بسبب سَدِّه ، واستمرت النار فيما لم ينقل هدمه من المسجد حتى فيما حول الحجرة الشريفة وموقف الزائرين تجاه الوجه الشريف ، وأخبر بعضهم بمشاهدة الدخان يتصاعد من ذلك المحل الشريف بعد مدة ، وفى أثناء شوال أخبر قاضى المالكية شمسُ الدين السخاوى حفظه الله تعالى أنه رأى فى النوم من يقول له : أَطْفِئُوا النار من الُحجْرَة الشريفة ، يعنى الموضع الذى تركوا تنظيفه حولها ، فتفقدوا ذلك فوجدوا النار فى ثمانية مواضع ، فأطفؤوا ذلك ، ثم رأوا أن مادة هذه النار لا تنقطع إلا بتنظيف الرَّدْم ، فاجتمعت الآراء على ذلك بعد توقُّفٍ تام من نائب الناظر ، وعيَّنُوا لتعاطيه من يثقون به من الخدام والفقهاء والفقراء ، وكان الصوابُ المبادرَةَ لذلك أولا ، ولكن على كل خير مانع ، ولا يدرى أحد أسرار ما الله فى عباده صانع ، ولما نظفوا ذلك وجدوا حلية الصندوق المَجْعُول فى جهة الرأس الشريف وجانباً من الكُسْوَة و بعض البُسُط سالماً لسقوط الردم عليه ، ووجدوا القناديل التى كان التخوُّفُ فى تنظيف ذلك المحل لأجلها ، وأداروا على الحجرة الشريفة جداراً من الآجر فى موضع المقصورة المحترقة ، وجعلوا فيها شبابيك وطاقاتٍ وأبواباً ، وقام بمصروف ذلك بعضُ النساء المباركات وغيرها ، وسامح البناؤون بنصف أجرهم مع توفُّر المصروف بحاصل المسجد الشريف ، وأحضرت تلك المرأة أيضاً وغيرها كسوة للحجرة الشريفة من القماش الأبيض فجعلت عليها .

وفى ذلك كله عبرة تامة وموعظة عامة لأولى الأبصار ، وهو منذر بأمر عظيم ، ولهذا اختص به هذا المحل المَنْسُوبُ إلى النذير صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت أن أعمال الأمة تعْرَضُ عليه صلى الله عليه وسلم ، فلما ساءت منا الأعمال

المعروضة ناسبَ ذلك الإنذار بإظهار عُنْوَان النار المجازَى بها فى موضع عَرْضها ، ولم أزَلْ فى وَجَل مما يعقب ذلك حيث لم يحصل الاتعاظ والانزجارُ ، وقد قال تعالى : « وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إلا تَخْوِيفا » ، وقال تعالى «ذلك الذى يُخَوِّف الله به عباده يا عِبَادِى فاتقون » وكأن لسان القدرة ينادى : ألا تتعظون بما تَرَوْنَ وتسمعون ؟ ألا تنتهون وتنزجرون ؟ ألا ترون إلى هذا المحل الشريف مع عظيم نسبته وعلو رتبته ومكانته لما تَلَوَّثَ بآثاركم معشرَ المذنبين،وتدنَّسَ بأقذاركم كافة الغافلين،أرسلت عليه بحراً من النار السماوية تطهرهُ من تلك الآثار ، وتزجركم عن التمادى على الإصرار ، وموالاة أتباع الأوزار ، وتشهد بصائركم عموم القدرة ، فترسلون من الأبصار سَوَابق العَبْرة ، تأسفا على ما اجترحتموه قبل هذه العِبْرة ، فمن لم يَنْتَه بهذا الزاجر الفعلى عن إصراره ، ولم يَقْتبس من هذه النار العظيمة قَبَسا يهتدى بأنواره ، فليَنظُرْ فيما حدَث عقيب حريق المسجد القديم ، ويتفكر فى ضعفه عن احتمال العذاب الأليم ، حَمَانا الله من ذلك ، وسلك بنا أجمعين أحسن المسالك .

ومن العجائب أنه لم يتأتَّ إخراج رَدْم هذا الحريق بعد نَقْله لمؤخر المسجد حتى حضر الحجَّاج من سائر الآفاق للزيارة، وشاهدوا هذه العِبْرَة العظيمة ، ورأوا ما اجتمع من الردم كالآكام والتلول الجسيمة ، ثم قُبَيْلَ دخول الحاج مكة بالقَعْدة الحرام من العام الثانى أرسل الله سَيْلا عظيما بمكة المشرفة ملأ ما بين الجبلين وعَلاَ جدار أبواب المعلى ، ودخل جوف الكعبة الشريفة ، وارتفع فيها أزيَدَ من قامة وهَدَم دوراً كثيرة يقال إنها تزيد على ألفى دار ، وذهب بسبب ذلك من الأموال والأنفس مالا يُحْصيه إلا الله تعالى ، حتى أنهم ضَبَطوا من وجد تحت الردم بالمسجد الحرام فقط عند تنظيفه فكانت عدتهم نحو الثمانين ، وقيل أزيد من مائة ، ولم أقف فيما نقل من سيول الجاهلية والإسلام على مثل ذلك ، ولما نظفوا ذلك الردم ـ وهو أتربة ونقض هدم حملها السيل ـ لم يتأتَّ إخراجه قبل وصول

الحجاج وصار ذلك كالآرام والتلول العظيمة فى المسجد الحرام ، فحضر الحجاج كلهم وشاهدوا ذلك ، فسبحان مَنْ بيده الخلق والأمر لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

ولما وصـــل خبر الحريق لرودس من بلاد النصارى أظهروا بذلك فرَحاً واستبشاراً ، وتظاهروا بالزينة وضرب النواقيس ، فلم يمض ذلك اليومُ إلا وقد أرسـل الله عليهم زَلازَل عظيمة هَدَمَتْ عليهم جانباً من سور البلد والـكنيسة وكثيراً من دورهم ، وهلك منهـم بذلك خلائق لا يُحْصَوْن ، ودامت الزلازل عليهم ، أياما ،شاهدتُ ذلك فى كتب وردت من ثغر إسكندرية بخط مَنْ يعتمد عليه ، وذكروا أن المخبر لهم بذلك أهلُ المراكب الواردة من رودس المذكورة ، وأنهم سافروا والزلازلُ مستمرة بها ، وهم يخرجون الموتى من تحت الهدم بعد انتقال مَنْ بقى إلى خارج البلد ، فتأمل هـذه المعجزات النبوية ، والآيات الربانية .

ولما وصل القاصد إلى مصر المحروسة ، واتصل علم الحريق المذكور بسلطانها، عَظُمَ ذلك عليه ، و برزت أوامره الشريفة بالمبادرة إلى تنظيف المسجد الشريف، ورأى أن فى تأهيل الله تعالى له لعمارة ذلك مزيد التشريف ، وكمال التعريف ، وأنه كَرَامة من الله تعالى أكرمه بها ، وذخيرة يرجو الفوز بسببها ، فاستقبل أمر العمارة بهمة تعلو الهمم العلية ، ورَسَم بإبطال عمائره المـكية ،و بتوجه شادها السيفى الأمير سنقُرُ الجمالى صُحْبة الحاج الأول بزيادة على مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين والنحاتين والحدادين والمرخِّمين وغيرهم ، وكثير من الحمير والجمال ، وصحبته وصحبة أخيه المقر الأشرفى الشجاعى شاهين والأمير قاسم الفقيه شيخ الحرم الشريف مبلغ عشرين ألف دينار ، وشرع السلطان فى تجهيز الآلات والمُؤَن حتى كثرت فى الطُّور واليَنْبُع والمدينة الشريفة .

ثم جهَّز متولى العمارة الأولى بالمدينة الشريفة ــ وهو الجناب العالى الخواجكى الشمسى شمس الدين بن الزمن ــ فى أثناء ربيع الأول وصحبته أكثر من مائتى

جمل ومن مائة حمار وأزيد من ثلثمائة من الصناع أهل الصنائع الأولى وغيرهم من الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين، وأصرفوا لهم شيئاً من الأجرة قبل سفرهم، وقد صارت أحمال المؤن متواصلة قلّ أن تنقطع براً وبحراً، واستقبلوا أمر العمارة بجدّ واجتهاد، فهدموا المنارة الرئيسية التى أصابها الحريق إلى أساسها، وهَدَموا من سور المسجد من ركن المنارة التى بباب السلام إلى آخر جدار القبلة وما يليه من المشرق إلى باب جبريل، وما يلى المنارة من المغرب أيضاً إلى باب الرحمة، وأعادوا المنارة الرئيسية وسور المسجد المذكور، وزادوا فى عرضه يسيراً، ووسعوا المحراب العثمانى، وسقفوا مقدم المسجد سقفاً واحدا، بعد أن قصروا أساطينه وجعلوا عليها عقوداً من الآجر فوقها أخشاب السقف، وكانت الأساطين المذكورة قبل ذلك واصلة إلى سقف المسجد كهيئة ما بقى من أساطينه فى بقية المشرق والمغرب والشام، وجعلوا على المحراب العثمانى قبة على رؤوس الأساطين، بعد أن قرنوا إلى كل أسطوانة ثانيةً، وجمعوا فى بعضها بين خمس أساطين؛ ليتأتى لهم عقد القبة المذكورة، وأزالوا الأسطوانة التى كانت فى مُحاذاة الأسطوانة التى إليها المصلَّى النبوى بينها و بين المحراب العثمانى، وجعلوا على مايُحاذى الحجرة الشريفة وما حوله قبة عظيمة على دعائمَ بأرض المسجد وعقودا من الآجر بدلا عن القبة الزرقاء التى كانت قبل الحريق، وكانت تلك على رؤوس السوارى كما سبق فى الفصل السابع والعشرين، وقدمنا هناك ماحصل من ضيق المسجد من جهة المشرق بسبب ابتناء بعض تلك الدعائم هناك، فخرجوا بجدار المسجد الشرقى ـ أعنى ما حاذى ذلك منه ـ بنحو عرض الجدار فى البلاط الشرقى، وأبقوا الباب المعروف بباب جبريل فى محله.

ثم أحدثوا أسطواناً فى جانب مثلث الحجرة ليشتدَّ به العقدُ الذى عليه القبة فى تلك الناحية، وحفروا لذلك أساساً عظيما ظهر بسببه القبر المنسوبُ فى أحد الأقوال لفاطمة الزهراء رضى الله عنها، وزادوا دعامتين وعقدا إلى جانب الأسطوانتين

اللتين فى جهة الوجه الشريف ، ولم يبالوا بما حدث بسبب ذلك من الضيق فى الموضع المواجِهِ للوجه الشريف داخل المقصورة وغيره لخشيتهم من سقوط القبة المذكورة ، وكانوا قد وجدوا فى جدار المنارة الرئيسية عند هَدْمها خزانةً وضع الأقدمون بها أوراقَ المصاحف المحترقة فى الحريق الأول وسَدُّوا عليها ، فأخرجوا تلك الأوراق ووضَعوها فى أعلى القبة المذكورة عند ختمها ، فبدأ فى القبة تَشَقُّق ، فقيل لهم : إن ذلك بسبب وضع الأوراق المذكورة بها ؛ لأن الله تعالى يقول « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً مُتَصَدِّعاً من خشية الله » فأخرجوا تلك الأوراق منها ، فقضيتُ العجب من ذلك .

ومن الغريب أنى كنت قد عزمت على التوجه إلى أرض مصر لزيارة والدتى وأهلى قبل الشروع فى العمارة المذكورة ، فلم أحضر شيئاً من ذلك ، ومَنّ الله تعالى بالوصول إلى الوالدة والأهل ، فتوفيت الوالدة بعد قدومى بعشر ليالٍ ، وكانت مدة غيبتى عن أهلى ستة عشر سنة ، ثم مَنّ الله تعالى بالعَوْد إلى المدينة الشريفة بعد تعويض ما تدعو الحاجة إليه من الكتب المحترقة ، فوجدتهم قد عمروا القبة المذكورة ومقدم المسجد وعَقَدوا العقود المتصلة بهذه القبة من المشرق والشام ، وجعلوها قَبْواً بدل السقف ، واتخذوا فيما بين الحجرة الشريفة والجدار القبلى قبة لطيفة ، وحولها ثلاثة أخر تسمى مجاريد ، وجعلوا بين عقود هذه القباب و بين المنارة الرئيسية التى أعادوها بادهنجا للضوء والهواء ، وكان باب المنارة المذكورة من جهة المغرب ، فنقلوه إلى جهة الشام ، وأحدثوا أمامه أربع دَرَجات بأرض المسجد ، و إلى جانبها خِزانة ، وجعلوا موضع بابها الأول خَلْوة للخطيب يجلس بها إلى أن يخرج للخطبة يوم الجمعة ، وكان جلوسه فى الأعصار الخالية هناك مع وجود باب المنارة به ، واتخذوا أيضاً قبتين أمام باب السلام من داخله ، و بنوا الباب المذكور بالرخام الأبيض والأسود وَزَخْرفوه زخرفةً عظيمة ، وكذلك القباب المذكورة ، وخفضوا أرض مقدم المسجد حتى ساوت أرض المصلى

الشريف ، واتخذوا له محرابا فى محل الصندوق الذى كان هناك وزخرفوه بالرخام وكذا المحراب العثمانى زخرفةً عظيمة ، وأعادوا ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها وترخيمَ الجدار القبلى ، وأزالوا البناء الذى عمله أهـل المدينة فى موضع المقصورة المستديرة بالحجرة الشريفة ، وأبدلوا ما يلى القبلة من ذلك بشبابيك من النحاس ، وبأعلاها شبكة من شريط النحاس كهيئة الزَّرَد ، وجعلوا لبقيتها مما يلى الشام مشبكا مشاجرا من الحديد وفاصلا عن يمين مثلث الحجرة ويساره فيـه بابان كما سبق بسط كل ذلك فى محله ، وعملوا المنبر ودكة المؤذنين من رُخام ، وجعلوا فيما يلى باب الرحمة وباب النساء إلى مؤخر المسجد دكتين إحداهما بالمسقف الغربى والأخرى بالمسقف الشرقى ، وجعلوهما أَخْفَضَ من الدكاك الشامية يسيرا ، وردموهما من أتربة المسجد ، واتخذوا فيما أعادوه من الجدار الشرقى خزائنَ للـكتب وطاقات كبارا كالأبواب المقنطرة فى أعالى الجـدار وطاقات متسعة مستديرة أيضاً تكثيراً للضوء ، ولم يكن بأعالى الجدار المذكور أولا غـير شباك واحد ، وجعلوا نظير تلك الطاقات فى الجدار القبلى أيضاً ، وبنو الجدار من ابتداء تلك الطاقات بالآجُرّ ، وسبب الاحتياج إلى ذلك أن أساطين مقـدم المسجد الشريف كانت واصلة إلى سقفه كما سبق ، ولم يكن بذلك قناطر من العقود سوى ما يلى الرحبة من الرواقين اللذين جَدَّدهما الناصر كما سبق ، وكان الساقط من الأساطين بمقدم المسجد هو الأكثر لسقوط العقود التى كانت بين السقفين عليهـا وقت الحريق واشتعال النار المذيبة للرصاص الذى بين خرز الأساطين ، فاقتضى رأيهم إعادة تلك الأساطين قصيرة وتكميلها إلى السقف بعُقود القناطر ، فأخذت القناطرحصة من الضوء ، فعوّضوا ذلك بتلك الطاقات ، وأكد عندهم فتحها أخذ متولى العمارة للدور التى فى قبـلة المسجد المعروفة بدور العشرة ليجعلها مَدْرَسة للسلطان ، وعرض الجدار القبلى يسيرا منها ، وجعل فيها فتحات لشبابيك متعددة أيضاً ، ثم صرف الله تعالى عزمه عن ذلك وسد فتحات الشبابيك

المذكورة كلها بفصوص الأحجار كنسبة بناء الجدار ، وسَدَّ أيضاً الطاقاتِ التى بالجدار القبلى إلا ما يحاذى القبة التى على المحراب العثمانى ، فجعل لها ولما بقى من الطاقات قمريات من الزجاج وشبكات من شريط النحاس .

ثم استبدل متولى العمارة الرباط المعروف بالحصن العتيق وما فى شاميه من المدرسة الجوبانية والدار التى كانت تعرف بدار الشباك – وذلك كله فيما بين باب الرحمة و باب السلام – عند هدم هذا الجانب من الجدار الغربى ليتخذ فى ذلك مدرسة ورباطا لسلطان زماننا الأشرف أدام الله تعالى تأييده وتسديده ، واتخذ فى الجدار المذكور فتحاتٍ لشبابيك كثيرة فى ثلاث طبقات عدتها ثلاثون فتحة ، لأن الفتحة الثالثة من على يسار الداخل من باب السلام فى موضع باب خَوْخَة أبى بكر الصديق الآتى ذكرها فى أبواب المسجد ، جعلوه بابا ينفذ إلى المسجد ، وكذا الفتحتان اللتان بينها و بين باب السلام جعلوا لهما بابين إلى المسجد فقط ، وصارت هـذه الأبواب الثلاثة فى المسجد دون المدرسة من أصل حاصل المسجد الذى كان هناك ، والفتحة الخامسة – وهى الثالثة من خوخة أبى بكر – جعلوها بابا ينفذ من المسجد إلى أسفل المدرسة ، وجعلوا على الفتحات التى فى الطبقة العليا شبكة من شريط النحاس شبه الزرد ؛ لأنها جعلت لمجرد الضوء ، وقد تكلم الناس مع متولى العمارة فى أمر الشبابيك واتخاذها بجدار المسجد الشريف القبلى قبل انتقاله إلى هذه الجهة ، وكثر الكلام فى ذلك ، فكاتب السلطان فاستفتى علماء مصر فى ذلك فأفتاه جماعة منهم بذلك ، فقلدهم فيه ، وعوض ما فات من المصاحف والربعات ، و بعث بعض ذلك على يدى بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما فات ، وكذلك الكتب بعث بجانب منها ووعَدَ بإرسال ما يحتاج إليه ، وكان من التوفيق بعثه للأمير الكبير الفَخْرى قاسم الفقيه ناظرا على المسجد الشريف وشيخا لخدامه ، وهو محب للعلم وأهله ، مُغْرَم بتلاوة القرآن الشريف ، لم يُرَ على طريقته مثلُه فى هـذا الباب ؛ فصار يباشر أمر الرَّبعات والمصاحف بنفسه

ومماليكه ، واتخذ لها كراسىّ صغارا يوضَع عليها بالروضة الشريفة فى أوقات الصلوات النهارية ، فيقرأ هو والناس فيها ؛ فعم نفعها.

ولما قارب المسجد التمام أخذوا فى عمارة الرِّباط والمدرسة المذكورين ، وأسسوا لهما منارة فى ناحيتهما التى تلى باب الرحمة ، وشرعوا أيضاً فى عمارة رِباط آخر بدلَ رباط الحصن العتيق ، وفى حمام قبالة الرباط المذكور استأجروا أرضَ الحمام من الناظر على المِيضَأة التى بباب السلام فإنها منها ، وشرعوا أيضاً فى عمارة سبيل وفرن وطاحون ومطبخ للدشيشة ووكالة ذات حواصل فى الدور التى اشتروها قبل ذلك للسلطان من دور العباسا وما يلى ذلك فى جهة القبلة ، وذلك أن السلطان أعز الله تعالى أنصاره بعد رجوعه من الحج شرع فى شراء أماكن وجعلها وقفاً ليحمل رَيْعها إلى المدينة الشريفة ليفرَّقَ منه على أهلها ويعمل منه سماط كسماط الخليل عليه السلام ، وأبرز لذلك ستين ألف دينار كما ذكرناه فى الفصل الثالث والثلاثين ، فاتخذوا هذه الأماكن لذلك ، وهو أمر لم يُسْبَق إليه ، فسح الله تعالى فى أجله ، وبلغه من الخير غاية سؤاله وأمله ، ولم يكن بالمدينة الشريفة حمام قبل ذلك من مدة مديدة ، وكذا الطاحون ، وإنما يستعملون الأرْحاء التى تُدَار بالأيدى .

ثم كتب إلى بعض الثقات بتكامل تحصيل تلك الأماكن ، وأن متحصلها سبعة آلاف إردب وخمسمائة إردب من الحبِّ فى كل سنة ، وأن السلطان أدام الله نصره أنجز وقفها وشَرَع فى عمارة أماكن بمصر تقوية للوقف ، ورسم بإبطال المُكُوس بالمدينة وتَعْويض أميرها .

وقد كملت سُقُفُ المسجد النبوى كلها فى أواخر شهر رمضان عام ثمان وثمانين وثمانمائة ، وتمت عمارة المسجد الشريف عقب ذلك ، ولم يبق سوى اليسير من العمائر السابق ذكرها وإكمال ترخيم المدرسة الأشرفية .

وفى عام تسع وثمانين حضر جماعة من الدَّهانين بعث بهم السلطان الأشرف

أعز الله أنصاره من مصر لمحو ما بلغه أنه جُعل فى بعض سقف المسجد الشريف من الدهان بالنيلة و إبداله باللازوَرْد ، وجَهَّز معهم أساقيل لذلك، فعملوه على أحسن وجه ، ثم جهز المقر الأشرف عين الأعيان ونخبة الزمان البهائى بهاءالدين أبا البقاء ابن الجيعان عظم الله شأنه وأسبغ عليه نعمه و إحسانه فى رَكْب مع جماعة من خَوَاصه ، فوصل إلى المدينة الشريفة سابع ذى القعدة الحرام من العام المذكور ، ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية موقوفة بالمدرسة الأشرفية ، وأحمال كثيرة من الْحَبِّ والدقيق والقدور النحاس التى جعلت برسم السِّماط المتقدم ذكره ، و بقايا الات العمارة مما جهز فى المراكب الشريفة إلى الينبع ، فقرر أمر السماط ، فصرف لكل شخص من المقيمين من الحب ما يكفيه على حسب عدة عياله ، لكل نفرٍ سُبُعُ إردب مصرى بتقديم السين على الموحدة ، وسَوَّى فى ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد ، وجعل للآفاقيين ما يكفيهم من الخبز وطعام الجشيشة فى كل يوم، وقرر أمر المدرسة ، وصرف للمرخمين وغيرهم من أرباب الصنائع مصروف بقية عملهم ، وأحسن النظر فى ذلك حتى زاد جماعةً منهم من ماله وتلطف بهم وأحْسَنَ ، فانطلقت الألْسُن بالدعاء له ، أحسن الله له الجزاء ، وجعل نصيبه من خيرى الدارين من أوفر الأجزاء .

وقد قارن هذه العمارة من السعد وتسهيل الأمور ما لا يوصف ، و يسر الله تعالى لهم من آلات العمارة ما لم نكن نظن حصـــوله بنواحى المدينة الشريفة ، خصوصا أخشاب الدَّوْم ، فقطعوا من الموضع المعروف بالشقرة ومن الصويدرة ومن الفرع وغير ذلك مالا يحصيه إلا الله تعالى ، وكذلك أخشاب السَّمُر .

وقد أخبرنى بعض المباشرين لهذه العمارة الميمونة أن المصروف فيها وفيما شرعوا فيه من عمارة المدرسة وتوابعها نقدا وأثمان آلات و بهائم وغير ذلك مائة وعشرون ألف دينار ، ومع ذلك فلم يتم بعد .

ثم بعد أن منَّ الله تعالى بإتمامها بلغ السلطانَ الأشرفَ أن متولى العمارة تسمح

فى استعمال مؤن غـير صالحة ، وأن القبة التى سبق اتخاذُها على أعلى ما يحاذى الحجرة الشريفة قـد تشققت ثم رمّت ثم تشققت ، ولم يفد الترميم فيها ، وأن المنارة الرئيسية قد مالت ، مع أمور أخرى ، فتغير خاطره على متولى العمارة ، ثم انتخب لذلك المقر الشجاعى شاهين الجمالى لما اشتمل عليه من الفضل والنبل و إصابة الرأى، وفوض إليه أيضاً مشيخة الحرم ونظره ونظر السماط ، فورد المدينةَ الشريفةَ فى موسم عام أحـد وتسعين وثمانمائة ، وجمع الناس للنظر فى ذلك ، وراجَعَ فيـه أهل الخبرة ، فاقتضى الحالُ هَدْمَ المنارة الرئيسية وهدم أعالى القبة المذكورة ، ولمـا هدم المنارة المذكورة ظهر أن الخَلَلَ من عدم المبالغة فى حفر أساسها ، فحفر أساسَها حتى بلغ به الماء ، واتخذ لهـا أحجاراً من الحجر الأسود مُتْقَنة ، وأحكم بناءها مع الحسن الفائق ، بحيث لم يُرَ قبلَها بالمدينة الشريفة مثلها ، وجعل بابها من المغرب فى محله الأول ، وأبطل تلك الدرج المحدثة بأرض المسجد على ماسبق ، وأما القبة فاتخذ فى الطاقات المحيطة بجوانبها سَقفا يمنع من سقوط مايهدم منها إلى أرض الحجرة الشريفة ، ثم شرع فى هدمها و إعادتها ، بحيث لم يرفع كسوة الحجرة الشريفة ولم يتخذ المسجد طريقاً للعمال فى ذلك ، بل اتخذ أساقيل يمشى عليها إلى سطح المسجد فى ناحيته الشرقية ، واتخذ حاجزاً لمحل المنارة يحول بينها و بين المسجد بحيث يظن الظان أن المسجد لا عمارة به ، وصانه أيضاً من الامتهان بعمل أرباب الصنائع ، فجزاه الله تعالى خير الجزاء ، وجعل ثوابه على ذلك من أوفر الأجزاء .

وقد جاءت القبة حسنة مع الإتقان ، حتى إنه استصحب فى هذه العمارة الجِبْسَ من مصر المحروسـة ، واستعمله فى البناء ، وحَرَص على إتقان الآجر ، وزاد العمال فيـه على عادتهم ، ولم يوفق متولى العمارة قبله لشىء من ذلك ، سامحه الله ، وكل مُيَسَّرٌ لما خلق له .

وقد ذكر ابن النجار ما كان عليه الخلفاء من الاهتمام بعمارة المسجد النبوى

فقال : ولم يزل الخلفاء من بنى العباس ينفذون الأمراء على المدينة الشريفة ، ويمدُّونهم بالأموال لتجديد ما يهدم من المسجد النبوى ، فلم يزل ذلك متصلا إلى أيام الناصر لدين الله ، أى الخليفة فى زمنه ، قال : فإنه ينفذ فى كل سنة من الذهب العين الإمامى ألفَ دينار لعمارة المسجد ، و ينفذ عدة من النجارين والبنائين والنقاشين وأرباب الحرف ، وتكون مادتهم مما يأخذونه من الديوان ببغداد من غير هذه الألف ، و ينفذ من الحديد والصناع والرصاص والحِبال والآلات شيئاً كثيراً ، ولا تزال العمارة مُتَّصلة فى المسجد حتى إنه ليس به موضع أصبع إلا وهو عامر ، انتهى .

قلت : وعقب وفاة ابن النجار بيسير انتقل أمرُ المدينة الشريفة إلى ملوك مصر ، ولم يزل ملوكها يهتمون بعمارة هذا المسجد الشريف ، ومن أعظمهم همةً فى ذلك ، وأحبّهم فى سلوك هذه المسالك ، سلطانُ زماننا الملك المالك لصفوة الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى ، أعزَّ الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ فلذلك أجرى الله على يديه هذه العمارة ، وآثره بهذه الأثارة ، ومن تأمل ما قدمناه فى الفصل السادس والعشرين فى الحريق الأول عن المؤرخين من عمل سقف المسجد على يَدِ مَنْ سبق وطول مدته وصفته ، وأحاط علما بما أسلفناه عن سلطان زماننا فى عمارته ، حكَم يقيناً بعلو همته ، وفخار مَنْقَبته ومرتبته ، واختصاصه بما لم يَفُزْ به مَنْ سبقه ؛ فكان هو سابقا ، وإن عد فى الزمان لاحقا ، وقد ذكرنا ماله بالحجاز الشريف من الآثار الجيلة ، وبعض مناقبه الجليلة ، فى الفصل الثالث والثلاثين فى خَوْخَة آل عمر رضى الله عنه لما خصه الله به من حَسْم مادة المفاسد المترتبة عليها فى زماننا ، وأمره بسَدِّ طابقها ، شكر الله صنيعه ، وحَصَّنه من العُدَاة بحُصُونه المنيعة

خاتمة

فيما نقل من عمــل نور الدين الشَّهيد لخندق حَوْلَ الحجرة الشريفة مملوء بالرصاص ، وذكر السبب فى ذلك ، وما ناسبه

أعلم أنى قَدْ وقَفْتُ على رسالة قد صنَّفها العلامةُ جمال الدين الأسنوى فى المنع من استعمال الوُلاَة للنصارى ، وسماها بعضهم « بالانتصارات الإسلامية » ورأيت عليها بخط تلميذه شيخ مشايخنا زين الدين المراغى ما صـورته « نصيحة أولى الألباب ، فى منع استخدام النصارى كتاب » لشيخنا العلامة جمال الدين الأسنوى ، ولم يسمه ، فسميته بحضرته ، فأقرنى عليه ، انتهى . فرأيته ذَكَر فيها ما لفظه : وقد دعتهم أنفسهم — يعنى النصارى — فى سَلْطنة الملك العادل نور الدين الشهيد إلى أمر عظيم ظنو أنه يتم لهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون، ، وذلك أن السلطان المذكور كان له تهجُّد يأتى به بالليل ، وأوراد يأتى بها ، فنام عقبَ تهجده ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى نومه وهو يشير إلى رجلين أشْقَرَيْنِ ويقول : أَنجِدْنِى أَنقِذْنِى من هذين ، فاستيقظ فَزِعاً ، ثم توضّأ وصلَّى ونام فرأى المنامَ بعينه ، فاستيقظ وصلى ونام فرآه أيضا مرة ثالثة ، فاستيقظ وقال : لم يبق نَوْم ، وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين الموصلى ، فأرسل خَلْفَه ليلا ، وحكى له جميعَ ما اتفق له ، فقال له : وما قُعُودك ؟ اخْرُجِ الآنَ إلى المدينة النبوية ، واكتم ما رأيت ، فتجهَّز فى بقية ليلته ، وخرج على رَوَاحلَ خفيفة فى عشرين نَفَرًا ، وصحبته الوزيرُ المذكور ، ومال كثير ، فقدم المدينة فى ستة عشر يوما ، فاغتسل خارجَها ودخل فَصَلَّى بالروضة ، وزار ، ثم جلس لا يدرى ماذا يصنع ، فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة فى المسجد : إن السلطان قَصَدَ زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأحضر معه أموالا للصَّدَقة ، فاكتبوا مَنْ عندكم ، فـكتبوا أهل المدينة كلهم ، وأمر السلطان بحضورهم ،

وكل مَنْ حضر ليأخذ يتأمله ليجد فيه الصفة التى أراها النبى صلى الله عليه وسلم له فلا يجد تلك الصفة ، فيعطيه و يأمره بالانصراف ، إلى أن انقضت الناس ، فقال السلطان : هل بقى أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة ؟ قالوا : لا ، فقال : تفكروا وتأملوا ، فقالوا : لم يبق أحد إلا رجلين مَغْربيين لايتناولان من أحد شيئاً ، وهما صالحان غَنيَّان يكثران الصدقة على المحاويج ، فانشرح صدرُه وقال : علىَّ بهما ، فأتى بهما فرآهما الرجلين اللذَيْن أشار النبى صلى الله عليه وسلم إليهما بقوله : أنجدنى، أنقذنى من هذين ، فقال لهما : مِنْ أين أنتما ؟ فقالا : من بلاد المغرب ، جئنا حاجَّيْنِ فاخترنا المجاورة فى هذا العام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أصْدُقانى ، فصمَّما على ذلك ، فقال : أين منزلهما ؟ فأخبر بأنهما فى رباط بقرب الحجرة الشريفة ، فأمسكهما وحضر إلى منزلهما ، فرأى فيه مالا كثيرا وخَتْمَتَين وكتباً فى الرقائق ، ولم يرَ فيه شيئاً غير ذلك ، فأثنى عليهما أهلُ المدينة بخير كثير وقالوا : إنهما صائمان الدهر ملازمان الصلوات فى الروضة الشريفة وزيارة النبى صلى الله عليه وسلم وزيارة البقيع كل يوم بكرة وزيارة قباء كل سبت ، ولا يَرُدَّانِ سائلا قط بحيث سَدَّا خَلَّةَ أهل المدينة فى هذا العام المجدب ، فقال السلطان : سبحان الله ! ولم يظهر شيئاً مما رآه ، وبقى السلطان يطوف فى البيت بنفسه ، فرفع حَصِيرا فى البيت ، فرأى سردابا محفورا ينتهى إلى صَوْب الحجرة الشريفة ، فارتاعت الناس لذلك ، وقال السلطان عند ذلك : اصْدُقانى حالكما وضَرَبَهُما ضربا شديدا ، فاعترفا بأنهما نصرانيان بَعَثَهُما النصارى فى زىِّ حجاج المغاربة ، وأمالوهما بأموال عظيمة ، وأمروهما بالتحيل فى شىء عظيم خَيَّلته لهم أنفسهم ، وتوهموا أن يمكنهم الله منه ، وهو الوصول إلى الجناب الشريف ويفعلوا به ما زَيَّنه لهم إبليسُ فى النقل وما يترتب عليه ، فنزلا فى أقرب رباط إلى الحجرة الشريفة ، وفَعلَا ما تقدم ، وصارا يَحْفِران ليلا ، ولكل منهما محفظة جلد على زى المغاربة ، والذى يجتمع من التراب يجعله كل منهما فى محفظته ، ويخرجان لإظهار زيارة البقيع ،

فيلغيانه بين القبور ، وأقاما على ذلك مدة ، فلما قربا من الحجرة الشريفة أرْعَدَتِ السماء وأبرقت ، وحصل رَجِيف عظيم بحيث خيل انقلاع تلك الجبال ، فقدم السلطان صبيحةَ تلك الليلة . واتفق إمساكهما واعترافهما ، فلما اعترفا وظهر حالهما على يديه ، ورأى تأهيلَ الله له لذلك دون غيره بكى بكاء شديداً ، وأمر بضرب رقابهما ، فقتلا تحت الشباك الذى يلى الحجرة الشريفة ، وهو مما يلى البقيع ، ثم أمر بإحضار رَصاص عظيم ، وحَفَر خندقا عظيما إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلها ، وأذِيبَ ذلك الرصاص ، وملأ به الخندق ، فصار حول الحجرة الشريفة سوراً رصاصاً إلى الماء ، ثم عاد إلى مُلْكه ، وأمر بإضعاف النصارى ، وأمر أن لايستعمل كافر فى عمل من الأعمال ، وأمر مع ذلك بقطع المكوس جميعها ، انتهى

وقد أشار إلى ذلك الجمالُ المطرى باختصار ، ولم يذكر عمل الخندق حول الحجرة وسَبْك الرصاص به ، لكن بَيَّنَ السنة التى وقع فيها ذلك مع مخالفة لبعض ماتقدم ، فقال فى الكلام على سور المدينة المحيط بها اليوم : وصل السلطان نور الدين محمود بن زَنكى بن اقسنقد فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة إلى المدينة الشريفة بسبب رؤيا رآها ذكَرَها بعضُ الناس وسمِعْتُهاَ من الفقيه علم الدين يعقوب ابن أبى بكر المحترق أبوه ليلة حريق المسجد عمن حدثه من أكابر مَنْ أدرك أن السلطان محموداً المذكور رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول فى كل واحدة : يامحمود أنقذنى من هذين الشخصين الأشقرين تجاهه ، فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر له ذلك ، فقال له : هذا أمر حَدَثَ فى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ليس له غيرك ، فتجهز وخرج على عجل بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك ، حتى دخل المدينة على غَفْلة من أهلها والوزيرُ معه ، وزار وجلس فى المسجد لايدرى ما يصنع ، فقال له الوزير : أتعرف الشخصين إذا رأيتهما ؟ قال : نعم ، فطلب الناسَ عامة للصدقة ، وفرق عليهم ذهباً كثيراً وفضة ، وقال : لايبقيَنَّ أحدٌ بالمدينة إلا جاء ، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من

أهل الأندلس نازلان فى الناحية التى قبلة حُجرة النبى صلى الله عليه وسلم من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التى تعرف اليوم بدار العشرة ، فطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا : نحن على كفاية ما نَقْبَل شيئاً ، فجدّ فى طلبهما ، فجىء بهما ، فلما رآهما قال للوزير : هما هٰذَان ، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما ، فقالا : لمجاورة النبى صلى الله عليه وسلم، فقال : اصْدُقانى ، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى مُعَاقبتهما فأقرَّا أنهما من النصارى ، وأنهما وَصَلا لـكى ينقلا مَنْ فى هذه الحجرة الشريفة باتفاق من مُلوكهم ، ووجدهما قد حَفَرا نَقْباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلى ، وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة ، ويجعلان الترابَ فى بئر عندهما فى البيت الذى هما فيه ، هكذا حدثنى عمن حدثه ، فضرب أعناقَهما عند الشباك الذى فى شرقى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم خارج المسجد ، ثم أحْرِقا بالنار آخر النهار وركب متوجها إلى الشام ، انتهى .

وقد ساق المجدُ هـذه الواقعة على الوجه الذى ذكره المطرى فقال : ومن الحوادث فى المسجد الشريف مانقله جماعة من مشايخ المدينة وعلمائها ، وذكر ما تقدم ، وكذلك الزين المراغى ذكر ما تقدم عن المطرى نقلا عنه ، وزاد أن وزير السلطان نور الدين الذى استحضره وذكر له القصة هو الموفق خالد بن محمد ابن نصر الْقَيْسَرَانى الشاعر ، قال : وكان موفقاً ، انتهى .

ومأخذه فى ذلك ــ كما رأيته فى حاشية بخطه على كتابه ــ أن الذهبى قال فى ترجمة الموفق هذا : موفق الدين ، أبو البقاء ، صاحب الخط المنسوب ، وكان صَدْراً ، نبيلا، وافر الحشمة ، وزَرَ للسلطان نور الدين، توفى بحلب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، انتهى .

وقد خالف الزين فى ذلك ما قدمناه عن شيخه الأسنوى من تسمية الوزير المذكور بجمال الدين الموصلى ، ولا يلزم من كون الموفق وزَر للسلطان نور الدين أن يكون هو الوزير عند وقوع الرؤيا المذكورة ؛ لاحتمال أنه وزَرَ له بعد ذلك

أو قبله ، وجمال الدين الموصلى هذا هو الجواد الأصفهانى ،وقد تقدم ذكره فى ترخيم الحجرة ، ووصفه بأنه وزير بنى زَنْـكِي ؛ لأنه كان وزيرَ والد نور الدين الشهيد الذى هو زنكى ثم وزر لولده غازى ، وأدرك دولة نور الدين الشهيد وزمان هذه الواقعة ؛ فالظاهر أنه وزَرَ له، وأنه المراد فى هذه الواقعة .

والعجب أنى لم أقف على هذه القصة فى كلام مَنْ ترجم نورَ الدين الشهيد مع عظمها ، وهى شاهدة لما ذكره الإمام اليافعى فى ترجمته من أن بعض العارفين من الشيوخ ذكر أنه كان فى الأولياء معدوداً من الأربعين وصلاح الدين نائبه من الثلاثمائة ، انتهى .

وقال ابن الأثير : طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز ملكا أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، انتهى .

وقد اتفق بعد الأربعمائة من الهجرة ما يقرب من قصة رؤيا نور الدين الشهيد المتقدمة على ما نقله الزين المراغى عن تاريخ بغـداد لابن النجار ، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن المبارك المقرى ، عن أبى المعالى صالح بن شافع الجيلى ، أنبأنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن محمد المعلم ، ثنا أبو القاسم عبد الحليم بن محمد المغربى أن بعض الزنادقة أشار على الحاكم العُبَيْدى صاحب مصر بنقل النبى صلى الله عليـه وسلم وصاحبيه من المدينة إلى مصر ، وزيَّنَ له ذلك ، وقال : متى تم لك ذلك شَدَّ الناس رحالَهم من أقطار الأرض إلى مصر ، وكانت مَنْقَبَة لسكانها ، فاجتهد الحاكم فى مدة وَبَنَى بمصر حائرا ، وأنفق عليه مالا جزيلا . قال : وبعث أبا الفتوح لنَبْشِ الموضع الشريف ، فلما وصل إلى المدينة الشريفة وجلس بها حضر جماعة المدنيين وقد عَلِمُوا ماجاء فيه ، وحضر معهم قارىء يعرف بالزلبانى، فقرأ فى المجلس « وإن نَـكَثُوا أيمَانَهُمْ من بعد عَهْدِهِم » إلى قوله « إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فماج الناس، وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومَنْ معه من الجند ، وما منعهم من السرعة إلى ذلك إلا أن البلاد كانت لهم .

ولما رأى أبو الفتوح ذلك قال لهم : الله أحقُّ أن يُخْشَى ، والله لو كان على من الحاكم فوَاتَ الروح ما تعرضتُ للموضع ، وحصل له من ضيق الصدر ما أزعجه كيف نهض فى مثل هذه المخزية ، فما انصرف النهارُ ذلك اليوم حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرضُ تَزَلْزَلُ من قوتها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيلَ بسروجها كما تدحرج الكُرَة على وجه الأرض ، وهلك أكثرها وخلق من الناس ، فانشرح صدر أبى الفتوح وذهب رَوْعُه من الحاكم لقيام عُذْرِه من امتناع ما جاء فيه .

قلت : ونقل ابن عذرة فى كتاب «تأسى أهل الإيمان ، فيما جرى على مدينة القيروان » لابن سعدون القيروانى ما لفظه : ثم أرسل الحاكم بأمر الله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من ينبش قبر النبى ، فدخل الذى أراد نبشه داراً بقرب المسجد وحفر تحت الأرض ليصل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أنواراً ، وسمع صائح: إن نبيكم ينبش ، ففتش الناس فوجدوهم وقتلوهم، انتهى.

ومما يناسب ذلك ما ذكره المحب الطبرى فى الرياض النضرة فى فضائل العشرة ، قال : أخبرنى هرون بن الشيخ عمر بن الزعب ـ وهو ثقة صدوق مشهور بالخير والصلاح والعبادة ـ عن أبيه ، وكان من الرجال الكبار ـ قال : كنت مجاوراً بالمدينة وشيخُ خدام النبى صلى الله عليه وسلم إذ ذاك شمسُ الدين صواب اللمطى ، وكان رجلا صالحاً كثير البر بالفقراء والشفقة عليهم ، وكان بينى و بينه أنس ، فقال لى يوماً : أخبرك بعجيبة ، كان لى صاحبٌ يجلس عند الأمير ويأتينى من خبره بما تمسُّ حاجتى إليه، فبينما أنا ذات يوم إذ جاءنى فقال: أمر عظيم حدَث اليوم ، قلت : وما هو ؟ قال : جاء قوم من أهل حَلَب وبذَلوا للأمير بذلاً كثيرا ، وسألوه أن يمكنهم من فَتْح الحجرة وإخراج أبى بكر وعمر رضى الله عنهما منها ، فأجابهم إلى ذلك ، قال صواب : فاهتممت لذلك هما عظيما ، فلم أنشب أن جاء رسولُ الأمير يدعونى إليه ، فأجبته ، فقال لى : يا صواب يَدُقُّ عليك الليلة أقوام المسجد ، فافتح لهم ، ومكنهم مما أرادوا ولا تعارضهم ، ولا تعترض

عليهم ، قال : فقلت له : سَمْعاً وطاعَةً ، قال : وخرجت ولم أزل يومى أجْمَع خلفَ الحجرة أبكى لا ترقأ لى دمعة ولا يشعر أحد ما بى ، حتى إذا كان الليل وصلّينا العشاء الآخرةَ وخرج الناس من المسجد وغلقنا الأبواب فلم نَنْشَبْ أن دُقَّ الباب الذى حذاء باب الأمير ، أى باب السلام ، فإن الأمير كان سكنه حينئذ بالحصن العتيق .

قال : ففتحت الباب ، فدخل أربعون رجلا أعدُّهم واحداً بعد واحد ، ومعهم المَسَاحِى والمَكَاتل والشموع وآلات الهدم والحفر . قال : وقصدوا الحجرة الشريفة ، فوالله ما وصلوا المنبر حتى ابتلعتهم الأرض جميعَهم بجميع ما كان معهم من الآلات ، ولم يبق لهم أثر . قال : فاستبطأ الأميرُ خبرَهم ، فدعانى ، وقال : ياصواب ألم يأتِكَ القوم ؟ قلت : بلى ، ولكن اتفق لهم ما هو كيت وكيت ، قال : انظر ماتقول ، قلت : هو ذلك ، وقم فانظر هل ترى منهم باقية أو لهُمْ أثرا ، فقال : هذا موضع هذا الحديث ، وإن ظهر منك كان يقطع رأسك ، ثم خرجت عنه ، قال المحبُّ الطبرى : فلما وعيت هذه الحكاية عن هرون حكيتها لجماعة من الأصحاب فيهم مَنْ أثق بحديثه فقال : وأنا كنت حاضراً فى بعض الأيام عند الشيخ أبى عبد الله القرطبى بالمدينة والشيخ شمس الدين صواب يحكى له هذه الحكاية سمعتها بأذنى من فيه ، انتهى ما ذكره الطبرى .

قلت : وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله بن أبى محمد المرجانى هذه الواقعة باختصار فى تاريخ المدينة له ، وقال : سمعتها من والدى ، يعنى الإمام الجليل أبا عبد الله المرجانى ، قال : وقال لى : سمعتها من والدى أبى محمد المرجانى سمعها من خادم الحجرة ، قال أبو عبد الله المرجانى : ثم سمعتها أنا من خادم الحجرة الشريفة ، وذكر نحو ما تقدم ، إلا أنه قال : فدخل خمسة عشر ـ أو قال عشرون ـ رجلاً بالمَسَاحِى والمِعْاَف ، فما مَشَوْا غير خُطْوة أو خطوتين وابتلعتهم الأرض ولم يُسَم الخادم ، والله أعلم .

الفصـــل الثلاثون

فى تحصيب المسجد الشريف

وذكر البُزَاق فيه ،وتخليقه، وإجماره ، وذكر شىء من أحكامه

أول تحصيب المسجد النبوى

روى أبو داود فى سُنَنه عن أبى الوليد قال: سألت ابن عمر عن الحَصْبَاء الذى فى المسجد ، فقال : مُطِرْنَا ذاتَ ليلة ، فأصبحت الأرضُ مُبْتَلة ، فجعل الرجلُ يأتى بالحَصْبَاء فى ثوبه ويَبْسُطه تحته ، فلما قَضَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصلاةَ قال : ما أحْسَنَ هذا ؟ وهو صريح فى جعل الحَصْبَاء فى المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم .

ويؤيده ما رواه أصحابُ السنن من حديث أبى ذر : إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه ، فلا يمسح الحصباء ، وكذا ما رواه أحمد من حديث حذيفة قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل شىء حتى عن مَسْح الحصى، فقال : واحدة أودَعْ ، وكذا ماروا ه أبو داود بإسناد جيدعن أبى هريرة ، قال أبو بدر : أراه رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : إن الحصاة تُنَاشِدُ الذى يخرجها من المسجد ، لكن قد سئل الدارقطنى عن هذا الحديث فذكر أنه رُوِى موقوفاً على أبى هريرة، وقال : رَفْعه وَهَم من أبى بدر.

وروى يحيى عن بعض السلف أنه كان إذا خرج بالحصاة من المسجد فى ثوبه أو نعله أمر بردِّها إلى المسجد .

وروى ابن شبة عن سليمان بن يسار قال : الحصاة إذا أُخْرِجَتْ من المسجد تصيحُ حتى ترد إلى موضعها .

وذكر البرهان ابن فَرْحُون أن مالكاً سئل عن الرجل يخرج من المسجد فيجد شيئاً من حصى المسجد قد تعلَّق بوجهه ، أيلزمه ردُّه إلى المسجد ؟ فقال : لا يلزمه ذلك ، وأرْخَصَ له فى طَرْحه ، فقال السائل : يا أبا عبد الله إنهم يقولون

إذا أُخْرِجَتِ الحصاة من المسجد تصيح حتى ترد إلى المسجد ، فقال له مالكٌ : دعها تصيح حتى ينشق حلقها ، فقال : أوَلها حَلْق ؟ قال : فمن أين تصيح ؟

وروى ابن شبة عن ابن عباس أنه قال لنفيع فى الحصاة : رُدَّها و إلا خاصَمَتْك يوم القيامة .

وحكى الأقشهرى عن شيخ الخدام ظهير الدين بن عبد الله الأشرفى قال : أتانى عامَ خمسةَ عَشَر وسبعمائة رجُلٌ من الشام فى موسم الحاج وقال : كنت حَجَجْتُ عامَ أولَ وحملت شيئاً من تراب المسجد وحَصْبائه ، فلم أزل أراه فى المنام يقـول لى : رُدَّنِى إلى موضعى ، عَذَّبْتَنِى عذبك الله ، فها أنا أتيت به ، قال : فأخرج صُرَّةً فيها ما ذكره ، فصببناها فى المسجد ، انتهى .

والذى يقتضيه كلام المؤرخين أن تَحْصِيب المسجد إنما حدَث فى زمان عمر ابن الخطاب ؛ فقد روى يحيى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن الأزهرى قال : قال عمر بن الخطاب حين بنى مسجد رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : ما نَدْرِى ما نفرش فى مسجدنا ، فقيل له : افرش الخصف والحصر ، قال : هذا الوادى المبارك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «العَقِيقُ وادٍ مبارك» قال: فحصبه عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وروى ابن زبالة عن عبيد الله بن عمر قال : قدِم سفيان بن عبد الله الثقفى على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومسجدُ النبى صلى الله عليه وسلم غير محصوب، فقال: أما لـكم وادٍ ؟ فقال عمر : بلى ، قال : فاحْصِبُوه منه ، فقال عمر : احصبوه من هذا الوادى المبارك ، يعنى العقيق .

قال المطرى : رمل المسجد الشريف ـ أى الذى يحصب به ـ يحمل من وادى العقيق ، من العرصة التى تسيل من الجماء الشمالية إلى الوادى، وليس بالوادى رمل أحمر غير ما يسيل من الجماء ، وهو رمل أحمر يُغَرْبَلُ ثم يفرش فى المسجد ، انتهى .

وروى ابن زبالة من طريق الضحاك عن بشر بن سعيد أو سليمان بن يسار ـ شَكَّ الضحاك ـ أنه حَدَّث أن المسجد كان يرش فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وزمان أبى بكر وعامة زمان عمر ، وكان الناس يتنخَّمون فيه ويَبْصُقون حتى عاد زَلَقاً ، حتى قدم ابن مسعود الثقفى ، فقال لعمر : أليس قربكم وادٍ ؟ قال : بلى ، قال : فمر بحصباء تطرح فيه فهو أكَفُّ للمخاط والنخامة ، فأمر عمر بها ، وهذه الرواية مع ضعفها قد اشتملت على أنهم كانوا يبصقون فى المسجد .

حكم البزاق فى المسجد

وفى الصحيحين عن أنس مرفوعا « البُزَاقُ فى المسجد خطيئة ، وكفارتها دفنها » . وقد رواه ابن زبالة ، وروى أيضاً عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم رَأى نُخَامة فى المسجد فقال : « مَنْ فعل هذا جاء يوم القيامة وهى فى وجهه » .

وعن عبد الله بن قسيط مرفوعا « لا يبصق فى مسجدى هذا » .

وحديث ابن عمر رواه البزار وابن خزيمة فى صحيحه ، وروى أحمد عن أبى أمامة أنه صلى الله عليه وسلم قال «البُصَاق فى المسجد سيئة ، ودفنه حسنة» . ورواه ابن شبة بمعناه .

وروى أيضاً عن أبى هريرة قال «إن المسجد لينزوى من النخامة كما ينزوى الجلد من النار » ولهذا جزم النووى فى التحقيق وشرح المهذب بتحريمه . ووقع فى عبارة بعض أصحابنا التعبيرُ بالكراهة ، وحَمَلها بعضهم على كراهة التحريم ، وقال بعض العلماء : إنما يكون البُزَاق فى المسجد خطيئة لمن لم يدفنه لأنه يقذر المسجد ويتأذى به .

قال القرطبى : ويدل على صحة هذا التأويل حديث أبى ذر الذى رواه مسلم وغيره « ووجدت فى مساوى أعمالها ـ أى الأمة ـ النخامة تكون فى المسجد لا تدفن » فلم يثبت لها حكم السيئة بمجرد إيقاعها فى المسجد ، بل بذلك وببقائها غير مدفونة .

قلت : الرواية الأولى بينت أن الفعل خطيئة ، وأن الدفن يكفرها كما يكفر

الجَلْدَ بمعصية الزنى ، فلتحمل الرواية الأخرى عليها ؛ لأن الإخبار فيها عما استقر عليه الأمر ، لـكن روى ابن شبة من طريق الفرج بن فضالة عن أبى سعيد قال : رأيت واثلة بن الأسقع دخل مسجدَ دمشق فصلى فيه ، فبزَقَ تحت رجله اليسرى ثم عرَكها ، فلما انصرفت قلت له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبزُقُ فى المسجد؟ فقال: هكذا رأيت النبى صلى الله عليه وسلم صَنَع.

ورواه أبو داود من الطريق المذكورة بنحوه ، وفرج بن فضالة ضَعَّفه الدارقطنى وغيره ، وقواه أحمد ، واقتصر الحافظ ابن حجر فى التقريب على تضعيفه .

وروى ابن شبة أيضاً بإسناد فيه ضعف عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ دخل مسجدى هـذا فبزَقَ أو تنخّم فليَحْفِرْ فليبعد وليدفنه ، فإن لم يفعل فليبزق فى ثوبه حتى يخرج به » وهذا لو صح كان حجة لهذا المذهب .

فإن قيل : يعضده حديث البخارى عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم « رأى نُخَامة فى القبلة ، فشق ذلك عليه حتى رؤى فى وجهه ، فقام فحـكَّه بيده ، فقال : إن أحدكم إذا قام فى صلاته فإنه يُنَاجى ربه ، أو إن ربه بينه و بين القبلة ، فلا يبزقن أحدكم قِبَلَ قبلته ، ولـكن عن يساره أو تحت قدمه ، ثم أخذ طرف ردائه فبَصَق فيه ثم رد بعضه على بعض ، فقال : أو يفعل هكذا » وكذا ما رواه ابن شبة بإسناد جيد عن أبى نضرة أن النبى صلى الله عليه وسلم « رأى نخامة فى قبلة المسجد ، فغضب غضبا شديدا حتى كاد يدعو على صاحبها ، ثم قال : لا يَبزُقْ أحدُكم فى قبلته ؛ فإن ربه مستقبله ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملـكا ، ولـكن عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ، فإن كان على يساره أحد فليبزق فى ثوبه » وفى رواية « فإن كان عن يساره أحد يكره أن يبزق نحوه فليبزق فى ثوبه ، و بزق النبى صلى الله عليه وسلم فى ثوبه وحَكَّ بعضَه ببعض » فاقتضى ذلك جواز البصاق فى المسجد فيما عدا القبلة واليمينِ حالة الصلاة ، وهو مقيد بالدفن لما سبق .

قلنا : مَسَاق الحديث لبيان أدب المصلى فى كيفية البصق ، من غير تعرض لكونه فى مسجد ، والبصاق فى المسجد قد بينه منطوق الحديث السابق ؛ فلا يُترَكُ بهذا ، وأفاد القفال فى فتاويه ـ وقد ذكر حديث النخامة فى المسجد ـ فائدةً حسنة فقال : هذا الخبر محمول على ما إذا نزلت النخامة من الرأس ، أما إذا كانت من الصدر فهى نجسة ؛ فلا يجوز دفنها فى المسجد » .

وروى أبو داود من حديث ابن عمر قال : بينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوما إذ رأى نخامة فى قبلة المسجد ، فتغيظ على الناس ، ثم حكَّها ، وأحسبه قال : فدعا بزعفران فلطَّخه به ، وقال : إن الله قِبَلَ وجه أحدكم فلا يبزقن بين يديه .

وروى ابن شبة عن شيخه خلاد بن يزيد بن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم صلّى صلاةً ذاتَ يوم ، فرأى فى قبلة المسجد نخامة ، فلما قضى صلاته أخذ عوداً فحكها ، ثم دعا بخلوق فَخَلَّقَ مكانها ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إذا صلى أحدكم فلا يَتْفُلْ أمامه ولا عن يمينه ؛ فإنه يستقبل الرب عز وجل بوجهه .

مبدأ تخليق المسجد

وروى ابن شبة أيضاً بسند جيد إلى أبى الوليد قال : قلت لابن عمر : ما بَدْء الزعفران ـ يعنى فى المسجد ـ فقال : رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نخامة فى المسجد ، فقال : ما أقبح هذا ! مَنْ فعل هـذا ؟ فجاء صاحبُها فحكها وطلاها بزعفران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أحسن من ذلك .

ورواه يحيى بلفظ : قلت لابن عمر : يا أبا عبد الرحمن ألاتخبرنى ما كان بَدْء هذه الصفرة التى فى قبلة المسجد ؟ قال : نعم ، صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا انصرف رأى نخَامة فى القبلة ، وذكره ، وقال : فسارَعَ الناسُ إليه ، فـكان هذا بدأه .

وروى النسائى وابن ماجه عن أنس قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم

نخامة فى قبلة المسجد ، فغضب حتى احمرّ وجهه ، فقامت امرأة من الأنصار فحكّتها ، فجعلت مكانها خَلوقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحْسَنَ هذا !.

وروى ابن شبة أيضاً بسندٍ جيد عن أبى نضرة أن ذلك الذى بَزَقَ فى قبلته جاء بشىء من زَعْفَران فطَلَى ذلك المكان ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أيضاً بسند لا بأس به قال : أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حائط المسجد بُزَاقا ، فحكّه على خرقة ، وأخرجه من المسجد ، فجعل مكانه شيئاً من طيب أو زعفران أو وَرْسٍ .

وعن إبراهيم بن قُدَامة عن أبيه أن عثمان بن مَظْعون تَفَل فى القبلة ، فأصبح مكتئبا ، فقالت له امرأته : مالى أراك مكتئبا ؟ قال : لا شىء إلا أنى تفَلْت فى القبلة وأنا أصلى ، فعمدت إلى القبلة فغسلتها ثم عملت خَلوقا فخَلّقتها ، فكانت أول من خَلّق القبلة .

وروى أيضاً برجال ثقات عن جابر عن عبد قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجدنا هذا وفى يده عُرْجُون ابن طاب ، فرأى فى قبلة مسجدنا نخَامة فحكّها بالعُرْجون ، ثم أقبل علينا فقال : أيكم يحب أن يُعْرِض الله عنه ؟ قلنا : لا أينا يا رسول الله ، قال : فإن أحدكم إذا قام يصلى فإن الله قِبَلَ وجهه فلا يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه ، وليبصق قبل يساره تحت رجله اليسرى ، فإن عجلت به بادرة فليقل هكذا بثو به ، ثم طوَى بعضَه على بعض ، أرونى عَبيراً ، فقام فَتًى من الحى يشتدّ إلى أهله فجاء بخَلوق فى راحته ، فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم على رأس العرجون ثم لطخ به على أثر النخامة ، قال جابر رضى الله عنه : فمن هنالك جعلتم الخلوق فى مساجدكم .

وقد رواه أبو داود بنحوه . وجابر هو من بنى حَرَام بطنٍ من بنى سَلِمَة ،

ومسجدهم كان بمنازلهم التي في غربي بُطحان ومساجد الفتح ، وليس هو مسجد القبلتين كما وقع للمطرى وجماعة حتى جعلوا أمر الخلوق له لما سنبينه .

وسيأتي ما رواه ابن زبالة من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد بني حَرَام بالقاع ، وأنه رأى في قبلته نخامه ، وكان لا يفارقه عرجون ابن طاب يتخصّر به ، وذكر الحديث الآتي ، وفيه « فكان أول مسجد خُلِّق » .

وروى أبو داود وابن حِبَّان في صحيحه عن أبي سهلة السائب بن خلاد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا أمَّ قوما فبَصَق في القبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ : لا يُصَلى لكم ، فأراد بعد ذلك أن يصلي لهم فمنعوه وأخبروه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : نعم ، وحسبت أنه قال : إنك آذَيْتَ الله ورسوله .

وفي رواية أوردها المجد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى النخامة في المحراب قال : مَنْ إمام هذا المسجد ؟ قالوا : فلان ، قال : قد عزَلْته ، فقالت امرأته : لِمَ عزلكَ النبي صلى الله عليه وسلم من الإمامة ؟ فقال : رأى نخامة في المحراب ، فعمدَتْ إلى خَلوق طيب فخلقت به المحراب ، فاجتاز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مَنْ فعل هذا ؟ فقالوا : امرأة الإمام ، قال : وهَبْتُ ذنبه لامرأته ورددته إلى إمامته .

قلت : واختلاف هذه الروايات صريح في أنها وقائع متعددة ؛ فلا تعارض فيها ، نعم هي متضمنة للرد على ما رواه ابن شبة عن جابر بن عبد الله قال : كان أول مَنْ خلّق المسجد ورَزَقَ المؤذنين عثمان رضي الله عنه ، وتقدم في الفصل الرابع من رواية يحيى عن جابر بنحوه ، إلا أن يحمل على أن المراد أنه اتخذ له الخَلوق من بيت المال .

ونقل ابن زبالة عن ابن عَجْلان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله

على المدينة أن لايخلق إلا القبلة ، وأن يغسل الأساطين ، قال : فلم تكن الأساطين تخلّق فى سلطانه .

وقدمت الخيزُرانُ أم موسى فى سنة سبعين ومائة ، فأمرت بالمسجد فخلّق ووَلِىَ ذلك مِن تخليقه مؤنسة جاريتها ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل بن عبد الله مولى هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا مَنْ بعدكم وأن تفعلوا مالم يفعل من كان قبلكم ؟ قالت له مؤنسة : وما ذلك ؟ قال : تخلقون القبر كله ، ففعلوا ، وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل ، وأشار عليهم فزادوا فى خَلُوق أسطوان التوبة والأسطوان التى هى علم عند مصلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فخلقوهما حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا فى الخُلُوق فى أعلاهما . تخليق القبر

وروى بعضهم عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى) الآية ، قال : طهرا بيتى نظفاه و بخراه وخلقاه .

تجمير المساجد

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن على بن حسن بن حسن بن حسن — وكان من خيار الناس — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإجمار المسجد ، قال : ولا أعلمه إلا قال : يوم الجمعة .

وروى ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : جَنِّبُوا مساجدَكم صبيانَكم ومجانينكم وشراءكم و بيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسلّ سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجَمِّروها فى الجمع .

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن خُزَيمة فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد فى الدور ، وأن تنظف وتطيب .

وروى يحيى من طريق محمد بن يحيى عن محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه قدم

على عمر بن الخطاب بسَفَط من عُودٍ ، فلم يسع الناس ، فقال عمر : أجمروا به المسجد لينتفع به المسلمون ، فبقيت سُــنّة فى الخلفاء إلى اليوم ، يؤتى كل عام بسَفَط من عود يجمر به المسجد ليلة الجمعة و يوم الجمعة عند المنبر من خلفه إذا كان الإمام يخطب .

وعن سـعد القَرَظ قال : قدم على عمر بعود ، فقسمه بين المهاجرين ، ثم قسم للمسجد حظا ، فكان يجمره فى الجمع ، فجرى ذلك إلى اليوم ، وولاه سعد القرظ ؛ فكان الذى يجمر .

وقد تقدم من رواية يحيى أيضاً فى الكلام على حكم قناديل الحجرة أن عمر أتى بمِجْمَرَة من فضة ، وأنه دفعها إلى سعد جد المؤذنين وقال : أجمر بهـا فى الجمعة وشهر رمضان ، وكان سعد يجمر بها فى الجمعة ، وكانت توضع بين يدى عمر ابن الخطاب .

وروى ابن زبالة عن نعيم المجمر عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له : تُحْسِن تطوف على الناس بالمجمرة تجمرهم ؟ فقال : نعم ، فكان عمر يجمرهم يوم الجمعة .

وفى مسند أبى يَعْلىٰ الموصلى عن ابن عمر أن عمر كان يجمِّرُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة .

قال أصحابنا : و يستحب فرش المسجد ، وقد ترجم البخارى للصـلاة على الخمرة ، وروى عن مَيْمُونة أنها كانت تصلى عليها ، وقال ابن زيد : الخمرة هى السجادة ، وقال الطبرى : هى مُصَلًّى صغير ينسج من سعف النخل و يرسل بالخيوط ، وقال البخارى فى صحيحه : وصلى أنس على فراشه ، وقال : كنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فيسجد أحدنا على ثو به ، وقال يحيى : حدثنا أبو مُصْعَب قال : حدثنا مالك عن عمه أبى إسماعيل بن مالك عن أبيه أن طِنْفِسَة لعقيل بن أبى طالب كانت تُطْرَح يوم الجمعة إلى جـدار المسجد الغربى ، فإذا غشى الطنفسة

فرش المسجد

كلما ظل الجدار خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : ثم يرجع بعد صلاة الجمعة فقيِّلَ قائلة الضحى ، ورواه ابن زبالة أيضاً ، وروى يحيى عن عطاء بن أبى رَبَاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تفقَّدُوا نعالكم عند أبواب مساجدكم . وعن موسى بن يعقوب أن النبى صلى الله عليه وسلم اتبع غبار المسجد بجريدة . ورواه ابن أبى شيبة عن يعقوب بن زيد ، ولفظه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتبع غبار المسجد بجريدة .

وقد ذكرنا فى آخر الكلام على فضل المسجد شيئاً مما جاء فى النهى عن قِرْبَان المسجد لمن أكل الثوم أو البصل ، وذكرنا فى زيادة عمر رضى الله عنه فى الكلام على البُطَيْحاء ماجاء فى النهى عن رفع الصوت فيه ، وما يتعلق بإنشاد الشعر فيه ، وذكرنا فى زيادة الوليد ما يتعلق بالصلاة على الجنائز فيه ، وروى ابن شبة عن شيبة بن قصاح مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأى أحدكم القملة فى ثوبه وهو فى المسجد فليحفر لها فليدفنها ، وليبصق عليها ، فإن ذلك كفارتها . ورواه ابن زَبالة ثم روى عن محمد بن المنكدر قال : أخبرنى مَنْ رأى أبا هريرة يَدْفِن قملة فى المسجد ، وروى يحيى عن يوسف بن ماهك قال : [أ]رأيت عبيد بن عمير أخذ من ثوب ابن عمر قملة فدفنها فى المسجد ، وعن أبى بكر بن المنكدر قال : رأيت عمى محمد بن المنكدر يأخذ القملة وهو فى المسجد فيقتلها فى المسجد فيبزق عليها ، وعن جعفر بن محمد قال : لابأس بأن يدفن القملة فى المسجد .

قلت : وهذه الأشياء لاتقوم الحجة بها . وقد روى أحمد فى مسنده عن أيوب قال : وجد رجل فى ثوبه قملة فأخذها ليطرحها فى المسجد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تَفْعَلْ رُدَّهَا فى ثوبك حتى تخرج من المسجد » وروى ابن شبة بسند جيد عن يحيى بن أبى كثير اليمانى عن الحضرمى أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال : إذا أبصر أحدُكم القملة وهو يصلى فى المسجد فليصرها فى ثوبه ولا يقتلها فى المسجد . وروى يحيى عن ابن عمر قال : إذا وجَدَ أحدُكم القملة فى ثوبه وهو فى المسجد فليجعلها فى ثوبه حتى يخرج بها . قال النووى : فإن قتَلها لم يجز إلقاؤها فى المسجد ؛ لأنها ميتة ، وكره مالك قتلها فى المسجد ، ونقل ابن العماد عن كتب المالكية أنه يحرم طرح القمل حيا ، بخلاف البرغوث ؛ لأن البرغوث يعيش بأكل التراب، بخلاف القمل ففى طرحه تعذيبه بالجوع ، انتهى .

وقد جاءت أحاديث فى النهى عن البيع والشراء وإنشاد الضالة فى المسجد ، وروى ابن أبى عدى الحافظ من حديث على بن أبى طالب قال : صليت العصر مع عثمان أمير المؤمنين ، فرأى خياطاً فى ناحية المسجد ، فأمر بإخراجه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه يكنس المسجد ، ويغلق الأبواب ، ويرش أحياناً ، فقال عثمان : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جنبوا صناعكم من مساجدكم .

قلت : ومن المنكرات فى زماننا ما يتساهل فيه المتكلمون فى أمر العمارة من استعمال النشارين والنجارين والحجارين بالمسجد النبوى للعمل فى آلاته واكتساب أولئك العمال بذلك ، مع ما يتولد من ذلك من الدق العنيف وتشعيث المسجد بما ينشر من النشارة والنجارة وغير ذلك ، مع إمكان عمل ذلك خارج المسجد الشريف والإتيان به مُهيأ . وقد قدمنا أن عائشة رضى الله عنها كانت تسمع الوتد أو المسمار يُضْرَب فى بعض الدور المطيفة بالمسجد فترسل إليهم : لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن عليا ما صنع مصراعى داره إلا بالمناصع توَقّيا لذلك ، وفى خبر رواه المقدسى فى « مثير الغرام » عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام قال للعفريت الذى أحضره لقطع الرخام لعمارة بيت المقدس : هل عندك من حيلة أقطع بها الصخر ؟ فإنى أكره صوت الحديد فى مسجدنا هذا ، والذى أمرنا الله به من ذلك هو الوقار والسكينة ، فقال : ابتغ لى وَكْرَ عقاب فإنى

لا أعلم فى السماء طيراً أشد منــه ولا أ كثر حيلة ، فوجدوا وكر عقاب ، فغطى عليه ترساً غليظاً من حديد ، فجاءه العقاب فلم يقدر عليه ، فحلق فى السماء متطلعا فلبث يومَه وليلتَه ثم أقبل ومعه قطعة من السامور ، فتفرقت له الشياطين حتى أخذوه منه ، فأتوا به سليمان عليه السلام ، فكان يقطع به الصخر ، انتهى.

وكذلك إدخالهم البغال والحمير الحاملة لتلك الآلات مع إمكان حَمْل الرجال لها من باب المسجد ، والله الموفق

وإذا سمع شخص مَنْ ينشد ضالة فى المسجد فليقل له : أيها الناشد غيرك الواجد ، وما أشبهه مما ورد ، إلا أن يسأل الإنسانُ جلساءه فليس بذلك بأس ، ولا يبلغ بذلك الصوت كما نقله ابن زبالة عن مالك ، ومن باع فيه قيل له : لا أربَحَ الله تجارته ، كما ورد مرفوعا . قال الزين المراغى : والقياسُ أن يقال للسائل فيه : لا فتَحَ الله عليه ، كما قاله بعض شيوخنا . وفى العُتْبية أن مالكا كره المَرَاوح فى المسجد ، ويجوز النوم فيه من غير كراهة عندنا ، وكرهه بعضهم لغير الغريب الذى لا مَوْضِع له غيره ، وروى فى ذلك أحاديث .

وأسند أحمد بن يحيى البلاذرى عن أبى سعيد مولى أبى أسيد قال : كان عمر بن الخطاب يَعُسُّ فى المسجد بعد العشاء ، فلا يرى أحداً إلا أخرجه إلا رجلا قائما يصلى ، فمر بنفر من أصحاب النبى صلى الله عليــه وسلم فيهم أبىّ بن كعب فقال : مَنْ هؤلاء ؟ فقال أبى : نفر من أهلك يا أمير المؤمنين ، قال : ما خَلَّفَــكم بعد الصلاة؟ قالوا : جَلَسْنَانذ كر الله ، فجلس معهم، ثم قال لأدناهم : خذ فى الدعاء فدعا ، فاستقرأهم رجلا رجلا حتى انتهى إلىّ وأنا بجنبه ، فقال : هاتِ ، فحُصِرْتُ وأخذنى الخجل ، فقال : قل ولو أنْ تقول : اللهم اغفرلنا ، اللهم ارحمنا، ثم أخذ عمر فى الدعاء ، فما كان أحد أ كثر دمعة ولا أشد بكاء منه ، ثم قال : تفرقوا الآن ، انتهى .

الحدث فى المسجد

ولا يحرم إخراج الريح من الدبر فى المسجد ، لكن الأولى اجتنابه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنوآدم » قال الزركشى : وقال بعض المتكلمين على الحديث من القدماء : الحدَثُ فى المسجد خطيئة يُحْرَمُ بها المحدث استغفار الملائكة ودعاءهم المرجو بركته .

وروى ابن عدى فى الكامل من طريق حمزة بن أبى حمزة الضبى عن أبى الزبير عن جابر قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم نهى أن يمر باللحم فى المسجد ، قال ابن عدى : وهذا منكر بهذا الإسناد ، لا يرويه عن أبى الزبير غير حمزة ، وحمزة يضع الحديث .

قلت : وقد روى ابن شبة نحوه ، غير أنه منقطع الإسناد ، ويغنى عنه ما ورد من النهى عن اتخاذ المسجد طريقاً ، والله أعلم .

القراءة فى المصحف بالمسجد

وقال مالك : لم تكن القراءة فى المصحف بالمسجد من أمر الناس القديم ، وأول مَنْ أحدثه الحجاجُ بن يوسف . وقال أيضاً : أكره أن يقرأ فى المصحف فى المسجد ، وأرى أن يقاموا من المساجد إذا اجتمعوا للقراءة .

قلت : الذى عليه السلف والخلف استحباب ذلك ، وفى الصحيح « إنما بنيت — يعنى المساجد — لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن » وهو عام فى المصاحف وغيرها ، وقد روى ابن شبة عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : إن أول من جمع القرآن فى مصحف وكتبه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم وضعه فى المسجد ، فأمر به يقرأ كل غداة . وعن محرز بن ثابت مولى سلمة بن عبد الملك عن أبيه قال : كنت فى حَرَس الحجاج بن يوسف ، فكتب الحجاج المصاحف ، ثم بعث بها إلى الأمصار ، وبَعَثَ بمصحف إلى المدينة ، فكره ذلك آلُ عثمان ، فقيل لهم : أخرجوا مصحف عثمان يقرأ ، فقالوا : أصيب المصحف يوم مقتل عثمان . قال محرز : وبلغنى أن مصحف عثمان صار إلى خالد بن عمرو بن عثمان ، قال : فلما استخلف المهدىُّ بعَثَ بمصحف إلى المدينة ؛ فهو الذى يقرأ فيه اليوم ،

وعزل مصحف الحجاج فهو فى الصندوق الذى دون المنبر ، انتهى .

بعث المصاحف إلى المساجد

وقال ابن زبالة : حدثنى مالك بن أنس قال : أرسل الحجاج بن يوسف إلى أمهات القرى بمصاحفَ ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها كبير ، وهو أول مَنْ أرسل بالمصاحف إلى القرى ، وكان هذا المصحف فى صندوق عن يمين الأسطوانة التى عملت علماً لمقام النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يفتح فى يوم الجمعة والخميس ، ويقرأ فيه إذا صليت الصبح، فبعث المهدى بمصاحف لها أثمان فجعلت فى صندوق ونحى عنها مصحف الحجاج ، فوضعت عن يسار السارية ، ووضعت منابر لها كانت تقرأ عليها ، وحمل مصحف الحجاج فى صندوقه فجعل عند الأسطوانة التى عن يمين المنبر ، انتهى .

قلت ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبة التى بوسط المسجد المنسوب لعثمان رضى الله تعالى عنه فى كلام أحد من متقدمى المؤرخين ، بل فيما قدمناه ما يقتضى أنه لم يكن بالمسجد حينئذٍ ، بل ولا ذكر له فى كلام ابن النجار ، وهو أول من أرَّخَ من المتأخرين ، وقد ترجم لذكر المصاحف التى كانت فى المسجد ، ثم ذكر ما قدمناه عن ابن زَبَالة ثم قال : وأكثر ذلك دَثَرَ على طول الزمان ، وتفرقت أوراقه ، قال : وهو مجموع فى يومنا هذا فى جِلَالٍ فى المقصورة أى المحترقة إلى جانب باب مروان . ثم ذكر أن بالمسجد عدة مصاحف بخطوط مِلَاحٍ موقوفة مخزونة فى خزائن ساج بين يدى المقصورة خلف مقام النبى صلى الله عليه وسلم . قال : وهناك كرسى كبير فيه مصحف مُقْفَل عليه نفذ به من مصر ، وهو عند الأسطوانة التى فى صف مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى جانبه مصحفان على كرسيين يقرأ الناس فيهما ، وليس فى المسجد ظاهر سواهما ، انتهى . ولم أر نسبة المصحف الموجود اليوم لعثمان رضى الله عنه إلا فى كلام المطرى ومَنْ بعده عند ذكر سلامة القبة التى بوسط المسجد من الحريق كما قدمناه . نعم ذكر ابن جُبَير فى رحلته ما حاصله أن أمام مقام النبى صلى الله عليه وسلم ــ وقد عبر عنه بالروضة

الصغيرة ـ صندوقاً ، وأن بين المقام و بين الحجرة ـ أى بجانب المقام من جهة المشرق ـ محمل كبير عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه هو أحد المصاحف الأربعة التى وَجَّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد ، انتهى .

وهذا المصحف الذى أشار إليه ينطبق فى الوصف على المصحف الذى ذكر ابن النجار أنه نفذ به من مصر ، ولم يصفه بما ذكره ابن جبير من نسبته لعثمان ، مع أن ابن جُبَير مُصَرِّح بأنه من المصاحف التى بعث بها عثمان إلى الآفاق ، لا أنه الذى قتل وهو فى حجره ، وقد قال ابن قتيبة : كان مصحف عثمان الذى قتل وهو فى حجره عند ابنه خالد ، ثم صار مع أولاده وقد دَرَجُوا . قال : وقال لى بعض مشايخ أهل الشام : إنه بأرض طُوسَ ، انتهى .

وقال الشاطبى ما حاصله : إن مالكا رحمه الله قال : إنما يكتب المصحف على الكتابة الأولى ، لا على ما استَحْدَثه الناس . قال : وقال : إن مصحف عثمان رضى الله عنه تغيَّبَ فلم نجد له خبراً بين الأشياخ . وقال أبو عبيد القاسمُ ابن سلام فى كتابه فى القراآت : رأيتُ المصحفَ الذى يقال له الإمام مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، استُخْرِج لى من بعض خزائن الأمراء ، وهو المصحف الذى كان فى حجره حين أصيب ، ورأيت آثار دمه فى مواضع منه . ورده أبو جعفر النحاس بما تقدم من كلام مالك. قال الشاطبى : وأباه المُنصِفُون لأنه ليس فى قول مالك « تَغَيَّب » ما يدل على عدم المصحف بالكلية بحيث لا يوجد ؛ لأن ما تغيب يرجى ظهوره .

قلت : فيحتمل أنه بعد ظهوره نقل إلى المدينة ، وجعل بالمسجد النبوى . لكن يُوهِن هذا الاحتمال أن بالقاهرة مصحفاً عليه أثر الدم عند قوله تعالى : (فسيكفيكهم الله ـ الآية) كما هو بالمصحف الشريف الموجود اليوم بالمدينة ، ويذكرون أنه المصحفُ العثمانى ، وكذلك بمكة ، والمصحف الإمام الذى قتل عثمان رضى الله عنه وهو بين يديه لم يكن إلا واحد ، والذى يظهر أن بعضهم

وضع خَلُوقاً على تلك الآية تشبيهاً بالمصحف الإمام ، ولعل هذه المصاحف التى قدمنا ذكرها مما بعث به عثمان رضى الله عنه إلى الآفاق ، كما هو مقتضى كلام ابن جبير فى المصحف الموجود بالمدينة ، وفى الصحيح من حديث أنس فى قصة كتابة عثمان رضى الله عنه للقرآن من الصحف التى كانت عند حَفْصة « وأنه أمر بذلك زيدَ ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وأنه أرسل إلى كل أفقٍ بمصحف كما نسخوا » .

مصاحف عثمان التى أرسلها إلى الآفاق

واختلف فى عدة المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق ؛ فالمشهور كما قال الحافظ ابن حجر أنها خمسة . وأخرج ابن أبى داود فى كتاب المصاحف من طريق حمزة الزيات قال : أرسل عثمان أربعة مصاحف ، وبعث منها إلى الكوفة بمصحف ، فوقع عند رجل من مراد فبقى حتى كتبت مصحفى عليه . قال ابن أبى داود : وسمعت أبا حاتم السجستانى يقول : كَتَبَ سبعة مصاحف ، [وأرسلها] إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ، انتهى.

وليس معنا فى أمر المصحف الموجود اليوم سوى مجرد احتمال ، والله أعلم .

تعليق المصابيح فى المسجد

ويستحب تعليق المصابيح فى المسجد ، وقد قدمنا ما يقتضى أن تميما الدارى أول من فعل ذلك فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أول من فعله عمر بن الخطاب ، لما جمع الناس فى التراويح على إمام واحد . وروى ابن زَبالة عن يوسف ابن مسلم قال : كان زيت قناديل المسجد يحمل من الشام ، حتى انقطع ذلك فى ولاية جعفر بن سليمان الأخيرة على المدينة ، فجعله على سوق المدينة . قال : ثم لما طرح ما يؤخذ من العنب عن الناس فى ولاية داود بن عيسى على المدينة سنة ثمان وتسعين ومائة أخرج من بيت المال .

قال : ولم يزل رِزْقُ صاحب زيت المسجد ثلاثة دنانير تجرى عليه فى كل شهر من بيت المال ، وعليه فيها ما تكسر من القناديل ، انتهى .

وقال ابن النجار . وفى يومنا هذا يصل الزيت من مصر من وقوف هناك ، ومقداره سبعة وعشرون قنطاراً بالمصرى ، ويصل معه مائة وستون شمعة بين كبار وصغار ، وعلبة فيها مائة مثقال ندّ لتجمير المسجد ، انتهى .

قلت : وفى زماننا يُحْمَل له من الزيت من مصر والشام زيادة على مائةقنطار بعضُها من أوقاف تحت نظر قاضى الشافعية بمصر وبعضها تحت نظر الإمام بمصر، والله أعلم .

الفصل الحادى والثلاثون

فيما احْتَوَى عليه المسجدُ من الأروقة والأساطين

والبالوعات والسقايات والدروع ، وغير ذلك مما يتعلق به من الرسوم

وصف عام

قال ابن جبير : إن المسجد النبوى مستطيلٌ يحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه كله صحن ، فجهة القبله منها — يعنى المسقف القبلى — خمس بلاطات ، يعنى أروقة ، وقد قدمنا أنه زيد فيه رواقان آخران فصار سبعة أروقة آخذةً من المشرق إلى المغرب ، قال : والجهة الشامية خمسة أروقة أيضاً .

قلت : وهذا مُوَافق لما قدمناه فى زيادة المهدى عن ابن زبالة من أنه جعل خمس أساطين فى السقائف الشامية ، وقدمنا أن الموجود به اليوم أربع فقط ، وذلك أربعة أروقة ، فكأنه لما زيد بعد الحريق الأول الرواقان فى مسقف القبلة اختصروا رواقاً من المسقف الشامى فأدخلوه فى صحن المسجد ، ولم أر مَنْ نبه على ذلك من المؤرخين ، وهذا المسقف هو المسمى اليوم بالدكاك ؛ لارتفاعه على بقية أرض المسجد ، ولم أعلم وقت حدوث ذلك ، ولم يتعرض ابن جُبَير لذكر ارتفاعه مع ذكره لما دون ذلك ، وقد كانت رحلته قبل حريق المسجد الأول فلعل ذلك مما حدث بعده ، كما حدثت الدكتان اللتان بجنبتى المسجد فى الحريق الثانى كما سبق .

وحدث فى زماننا قبيل ذلك عند طرف الدكاك القبلى مما يلى المغرب دكة بارزة هناك ، وهى الدكة التى وضع بها ما أخرج من جوف الحجرة الشريفة من الهَدْم فى العمارة التى أدركناها .

وفى كلام ابن زبالة ما يؤخذ منه تسمية المسقف الشامى بسقائف النساء .

قال ابن جبير : والجهة الشرقية ثلاثة أروقة آخذة من القبلة إلى الشام ، والجهة الغربية أربعة كذلك ، هـذا ما ذكره ابن جبير إلا أنه عبر فى الجميع بالبلاطات بدل الأروقة ، وكذا صنع ابن عبد ربه فى العقد ، وهو مطابق لما عليه المسجد اليوم ، إلا ما أشرنا إليه فى المسقف القبلى والشامى .

جدران المسجد

قال ابن جبير : ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع إزارا على إزار ، أى وزرة فوق أخرى ، مختلف الصنعة واللون ، مُجزع أبدع تجزيع ، والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص من الذهب المعروف بالفُسَيْفِساء قد أنتج الصناع فيـه نتائج من الصنعة غريبة تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات مائلة الأغصان بثمرها ، والمسجد كله على تلك الصنعة ، لـكن الصنعة فى جدار القبلة أَحْفَلُ ، والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك ، ومن جهة الشام أيضاً ، والغربى والشرقى الناظران إلى الصحن مُجَدَّدان أيضاً ومُقَرْنَصان قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الأصبغة ، إلى ما يطول وصفه ، انتهى .

ووصف ابن عبد ربه فى « العقد » ما فى جدار القبلة من وَزَرَات الرخام وطرر الذهب والفسيفساء ، ثم قال: وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء أولها وآخرها .

وذكر أيضاً أن رؤوس الأساطين مذهبة عليها أكُفٌ منقشة مذهبة ، وكذلك أعتاب الأبواب مذهبة أيضاً .

قلت : وقدزال ذلك كله بسبب الحريق الأول ، وبقى من آثاره شىء يسير فى مؤخر المسقف الغربى بجدار المسجد مما يلى الدكاك ، وشىء يسير بالمأذنةالغربية

الشمالية مما يلى بابها فيه شيء من الفسيفساء . وأما جدار القبلة فليس به اليوم إلا لوح يتضمن صور أشجار عن يمين مستقبل المحراب الشريف ، وهو من الآثار القديمة ، وكان يقابله فى جهة يسار المستقبل لوح مثله سقط قريباً ، ثم زال ذلك كله فى الحريق الثانى . وبالجدار المذكور اليوم وَزَرة رخام أولُ مَنْ أحدثها بعد الحريق الأول الظاهر جَقْمَق كما قدمناه مع بيان أن المحراب العثمانى وما حوله كان مرخما قبل ذلك ، وبقية المسجد مبيض أحسن بياض .

وفى جدار القبلة عصابتان من طراز تقدم ذكرهما أيضاً ، وكان قد انقشر من العليا منهما شيء يسير ، فقلع متولى العمارة التى أدركناها ذلك وما حَوْله ، وجعله طرازا باسم سلطاننا الأشرف قايتباى أعزالله أنصاره ، ووصله ببقية العصابة المذكورة . وتقدم أيضاً ذكر الطراز الآخر من جهة السقف إلى قرب العصابة المذكورة ، وبيان أن الذى ترجَّحَ عندى أنه جعل لتمييز المسجد النبوى عما زيد فيه ، وقد زال ذلك كله بعد الحريق الثانى ، وأعادوا منه ترخيم جدار القبلة كما سبق .

عدد أساطين المسجد

وأما عدد الأساطين فذكر ابن زبالة أنها مائتان وستة وتسعون أسطوانا ، منها فى جدار القبر الشريف ستة . وذكر ابن النجار أيضاً ما يؤخذ منه ذلك .

وقال ابن جبير : عدتها مائتان وتسعون أسطوانا ، ولا مخالفة بينهما ؛ لأن ابن جبير لم يعتبر الأساطين الست التى فى جدار القبر الشريف ، وليس فيه خلل إلا بأسطوان واحد ؛ لأن الذى اقتضاه تحريرنا أن جملة الأساطين التى كانت فى ذلك الزمان بما فى جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطوانا ؛ لأن المسقف الغربى أربعة صفوف ، فإذا اعتبرتها من الجدار القبلى إلى الجدار الشامى كان كل صف ثمانية وعشرين أسطوانا ، فجملة هذا المسقف مائة أسطوان واثنا عشر أسطوانا ، والمسقف الشرقى ثلاثة صفوف كل صف منها ثمانية وعشرون أيضاً إلا الصف الأوسط فإنه ينقص أسطوانا كما ظهر لنا عند انكشاف الحجرة ؛ لأن

الأسطوانة الملصقة إلى جدار الحجرة الشامى الذى فى جوف الجدار الظاهر التى تقدم أن متولى العمارة أدخلها فى عرض ذلك الجدار فى الصف المذكور إنما يقابلها فيه الأسطوان الداخل بعضها فى الجدار الظاهر من جهة القبلة ، وكان مقتضى وضع الأساطين فى مقابلة بعضها بعضاً من كل جانب أن تكون بينها أسطوانة أخرى فى موازاة الأسطوانة التى بين مربعة القبر وأسطوان الصندوق الداخلة فى الجدار الظاهر ، لكن لم يتأتّ ذلك ؛ لكونها تكون حينئذ فى جَوْف الحجرة الشريفة ، فسقط بسبب ذلك فى هذا الصف أسطوان ، وخفى ذلك على مَنْ لم يشاهد الحجرة الشريفة . وحينئذ فجملة أساطين المسقف الشرقى من جدار القبلة إلى الجدار الشامى ثلاثة وثمانون أسطوانا ، والباقى بعد ذلك فى المسقف القبلى ما يوازى صحن المسجد فقط ، وهو خمسة صفوف كل صف عشرة أساطين فجملة ذلك خمسون أسطوانا ، والباقى أيضاً فى المسقف الشامى خمسة صفوف تقابل ذلك وجملتها خمسون أسطوانا ، فجملة أساطين المسجد بما دَخَلَ فى جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطوانا ـ بتقديم التاء ـ وفى مؤخر المسقف الغربى أسطوانتان ملتصقتان إلى الجدار الغربى لم تدخلا فى هذه العدة .

وأما عدد أساطين المسجد اليوم فقد تقدم أنه زيد فى المسقف القبلى من ناحية صحن المسجد رواقان ونقص من المسقف الشامى من ناحية الصحن رواق ، فيزيد على ما تقدم عشرة أساطين ، وذلك خارج عن الأساطين التى أحْدِثَتْ لأجل السقف البارز فى رحبة المسجد أمام الباب الشامى من المقصورة المستديرة على الحجرة الشريفة .

وحدث فى العمارة المتجددة بعد الحريق إسقاط أسطوان كانت بين الأسطوان التى إليها المُصَلَّى النبوى و بين المحراب العثمانى ، وضم بعض أساطين أخرى إلى الأساطين التى هناك ، وفيما حول الحجرة الشريفة ، و إبدال بعضها بدعائم على ماسبقت الإشارة إليه فى الفصل التاسع والعشرين مع ماحدث من التغيير فى أساطين

المسقف القبلى، وكانت أساطين المسجد كلها ـ كما قال ابن جبير فى وصفها ـ أعمدة متصلة بالسمك دون قسى ينعطف عليها، فكأنها دعائم قوائم، وهى من حجر منحوت قطعاململمة مثقبة، يوضع أنثى فى ذكر، أى بأعمدة الحديد، ويفرغ بينها الرصاص إلى أن يتصل عمودا قائما، ويكسى بغلالة جيار، ويبالغ فى صقلها ودلكها، فتظهر كأنها رخام أبيض.

قلت: وأراد بالقسى ما نسميه اليوم بالقناطر المعقودة حول صحن المسجد، وأما الأساطين الداخلة فى الأروقة فإنها متصلة بالسقف، سوى الرواقين اللذين يَلِيَانِ رحبة المسجد من المسقف القبلى، ثم جعل المسقف القبلى كنسبتهما بعد العمارة المتجددة بعد الحريق الثانى كما سبق.

وقد عبر ابن النجار ـ تبعا لمن قبله ـ عن تلك العقود بالطاقات، فقال: وأما طاقاته أى المحيطة بالصحن فى القبلة إحدى عشرة طاقة، وفى الشامى مثلها، وفى المشرق والمغرب ـ أى كل جانب منهما ـ تسع عشر طاقة، وبين كل طاق وطاق أسطوان، ورأس الطاقات مسدود بشبابيك من خشب.

قلت: وهو موافق لكلام ابن زبالة فيما يلى المشرق والمغرب، مخالف له فيما يلى القبلة والشام؛ فإنه قال: وعدد طاقاته مما يلى القبلة اثنتا عشرة طاقة، ومما يلى الشام اثنتا عشرة، ومما يلى المشرق تسع عشرة، ومما يلى المغرب تسع عشرة، فذلك اثنتان وستون طاقة، انتهى.

وهذا لايتم إلا على تقدير أن يكون المسقف الغربى ثلاثة أروقة فقط كالمسقف الشرقى، فتكون العقود التى تلى القبلة والشام اثنى عشر، وما تقدم فى عدد الأساطين ينافيه؛ فالصواب ماذكره ابن النجار.

وعدد قناطره المحيطة برحبته اليوم من جهة القبلة والشام موافق لما ذكره ابن النجار؛ فإنها من كل جانب إحدى عشرة، غير أن باب المقصورة الشامى وما أحدث له من السقف أمامه سد واحدة من تلك القناطر القبلية.

وأما عدد قناطره من المشرق والمغرب فقد نقصت واحدة من كل جهة ؛ لما تقدم من زيادة الرواقين بالمسقف القبلى، ونقص رواق من المسقف الشامى ، فصار عدد القناطر فى كل جانب منهما ثمانى عشرة قنطرة .

والمسدود اليوم بالشبابيك من رؤوس القناطر إنما هو رؤوس القناطر القبلية و بعض ما يليها من القناطر الشرقية ، ثم زال ذلك فى الحريق الثانى ، وقد ذكر ابن زبالة عن محمد بن إسماعيل قال : أدركت المسجدَ كان يضيق عن الناس يوم الجمعة حتى يصلى بعضهم فى دار القضاء ، وهى يومئذ مبنية ، وفى دار ابن مكمل ، وفى دار النحامين ، وفى دار عاتكة ، قال : فلما قدم أبو جعفر المنصور المدينةَ سنة أربعين ومائة أمر بستور فستر بها صحن المسجد على عمد لها رؤوس كقريات الفساطيط ، وجعلت فى الطِّيقانِ — أى القناطر المتقدم ذكرها — فكانت الريح تدخل فيها ، فلا يزال العمود يسقط على الإنسان ، فغيَّرَهَا وأمر بستورٍ هى أكثف من تلك الستور و بحبال ، فأتى بها من جدة من حبال السفن القنبار ، وجعلت على سبيك حبالها اليوم ، فكانت تجعل على الناس كل جمعة ، فلم يزل كذلك حتى خرج محمد بن عبد الله بن حسن يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة ، فأمر بها فقطعت دراعَ لمن كان يقاتل معه ، فتركت حتى كان زمان هرون أمير المؤمنين فأحدث هذه الأستار ، ولم يكن يعنى صحن المسجد يستر زمان بنى أمية .

قلت : وهذا شيء قد انقطع قديما لعدم الاحتياج إليه لما قلَّ الناسُ بالمدينة ، حتى إن كثيراً من الأروقة لا يمتلىء بالناس .

وبالمسجد اليوم ستارة بالقرب من باب الحجرة الشامى تُرْخَى على ما يليه من القناطر الشرقية لتقِيَ من يجلس هناك من خدام المسجد حر الشمس .

وقال ابن زبالة ويحيى : وكان ماء المطر إذا كثر فى صحن المسجد يغشى السقائف التى فى القبلة ، وكانت حصباء تلك الناحية تسيل إلى صحن المسجد ،

فجعل بين القبلة والصحن لاصقاً بالسوارى حجاب من حجارة من المربعة التى فى غربى المسجد إلى المربعة التى فى شرقيه على القبر ، فمنع الماء من الصحن أن يغشى القبلة ومن حصباء القبلة أن يصير إلى الصحن . وعبارة يحيى : فأمر أبو البحترى بحجارة فجعلت رداً لذلك المـاء الذى كان يدخل والحصباء التى كانت تسيل فيما بين المربعة التى كانت عند القبر والمربعة التى فى غربى المسجد ، وجعل ذلك لاصقاً بالسوارى .

قلت : والمراد أنه جعل أحجار الحجاب المذكور فيما بين السوارى التى تلى رحبة المسجد من المشرق إلى المغرب ، وقد كانت مربعة القبر أول السـوارى المذكورة من جهة المشرق ؛ لأنهـا فى صف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وذلك الصف كان آخر المسقف القبلى ، وكانت المربعة الغربية فى آخر الســوارى المذكورة مما يلى المغرب ، وهى الأسطوان المثمنة اليوم التى بينها وبين ركن صحن المسجد الغربى اليوم أسطوانتان بسبب زيادة الرواقين المتقدم ذكرهما فى مؤخر المسقف المذكورة ، وهذا الحجاب المذكور قد اندفن اليوم فلا يظهر منه شىء ، والظاهر أنه كان بين السوارى المُطيفة بصحن المسجد من المشرق والمغرب حجاب مثل ذلك ، وكانت بقاياه ظاهرة فيما يلى الدكاك من المسقفين المذكورين قبل حدوث ما سبق من الدكاك بهما ، والمسقف القبلى اليوم أرضه عالية على ما يليه من الصحن يسيراً ؛ فلا يغشاه مياه الأمطار ، لـكن وطأه متولى العمارة بعد الحريق الثانى حتى ساوى به أرض المصلى الشريف كما سبق ، فاحتاج إلى عمل حجاب من الأحجار بين السوارى التى تلى رَحَبَةَ المسجد من جهة القبلة وما حولها .

عدد بالوعات المسجد

وأما عدد البالوعات بصحن المسجد فقد ذكر ابن زبالة ويحيى أن به أربعاً وستين بالوعة لماء المطر عليها أرحاء لها صماً ثم من حجارة يدخل الماء من خلالها .

قلت : ولا يظهر به اليوم غير بالوعة واحدة لها فُوّهتان ، وهى عند الحجرين

المتقدم ذكرها فى تجديد المسجد ، وإحْدَى الفوهتين إلى جانب الحجرين من القبلة ، والثانية إلى جانبهما من جهة الشام ، ويجتمعان فى بئر واحدة هناك ، وعليهما حجران كالأرحاء ، وفى أسفل ما على فوهتيهما من ذلك مشبك يدخل الماء من خلله ليمنع نزول الحصباء هناك ، ومع ذلك فقد بحروها فى العمارة المتقدم ذكرها أولا ، فخرج منها شىء كثير من الحصباء .

سقايات المسجد

وأما السقايات التى كانت به فذكر ابن زبالة أنه كان فى صحن المسجد فى زمنه تسع عشرة سقاية ، وذلك فى صفر سنة تسع وتسعين ومائة ، منها ثلاث عشرة أحدثتها خالصة ، وهى أول من أحدث ذلك ، ومنها ثلاث سقايات لزيد البربرى مولى أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لأبى البحترى وهب بن وهب ، ومنها سقاية لشجن أم ولد هارون أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لسلسبيل أم ولد جعفر بن أبى جعفر . وقد أورد ذلك ابن النجار مترجماً عليه بذكر السقايات التى كانت فى المسجد ، ثم قال : وأما الآن فليس فى المسجد سقاية إلا فى وسطه . قال : وفيه بركة كبيرة مبنيــة بالآجر والجص والخشب ينزل إليها بدرج أربع فى جوانبها ، والماء ينبع من فوارة فى وسطها تأتى من العين ، ولا يكون الماء فيها إلا فى أيام المواسم إذا جاء الحاج ، و بقية السنة تكون فارغة . عملها بعض الأمراء بالشام ، واسمه شامة . قال : وعملت الجهة أم الخليفة الناصر لدين الله فى مؤخر المسجد سِـقَايَةً كبيرة فيها عدة من البيوت ، وحفرت لها بئراً ، وفتحت لها باباً إلى المسجد فى الحائط الذى يلى الشام ، انتهى .

قلت : الذى يظهر من كلام ابن زبالة أنه أراد بالسقايات ما يجعل لأجـل الشرب ، وظاهر ما ذكره ابن النجار أن المراد بذلك ما يجعل للوضوء . وذكْرُهُ لمـا عملته أم الخليفة الناصر لدين الله صريح فى ذلك ، فإنه يعنى بذلك الميضأة التى بابُهَا فى حائط المسجد الشامى ، وكان لها باب آخر من خارج سُدَّ قديماً ، وهو ظاهر فيما يلى المسجد من المغرب .

وقوله « فيها عدة بيوت » أى عدد الأخلية التى بها.

وقوله أولا « فأما الآن فليس فى المسجد سقاية إلا فى وسطه » الظاهرُ أنه يريد السقاية التى كانت للشرب بوسط المسجد .

وقد ذكرها البدر ابن فرحون فقال : ولقد كان فى وسط المسجد سقاية يحمل إليها الماء من العين بناها شيخ الخدام فى ذلك الوقت ، ووقف عليها أوقافاً من ماله وكانت متقدمة على النخل تقديرها خمسة عشر ذراعا فى مثلها ، وجعل فى وسطها مصرفاً للماء مرخما ، ونصب فيها مواجير الماء وأزياراً ودوارق وأكوازاً ، وحَجَّرها بالخشب والجريد ، وجعل لها غَلَقا من حديد ، واستمرت السنين العديدة ، فكثر الشر فيها ، والتزاحم عندها ، وصار يدخلها من يتوضأ فيها فربما يزيل فيها الأذى ، من استقرب المدى ، ثم تعدى الحال وزاد شرها . وذكر فتنة اتفقت للخدام مع بعض الأشراف بسببها ، قال : فلما غلبت مفسدتها على مصلحتها أزيلت عن اجتماع من القاضى شرف الدين الأميوطى والشيخ ظهير الدين ، انتهى .

وأما البركة التى ذكرها ابن النجار فإنها مذكورة فى كلام المطرى ، واقتضى كلامه نسبتها لابن أبى الهيجاء ، فإنه ذكر ما سيأتى عنه فى الكلام على العين الزرقاء من أن ابن أبى الهيجاء فى حدود الستين وخمسمائة أمدَّ منها شعبة وأوْصَلها إلى الرحبة التى عند المسجد من جهة باب السلام ، يعنى سوق المدينة اليوم . ثم قال : وكان قد جعل منها شعبة صغيرة تدخل إلى صحن المسجد ، وجعل لها مَنهلا بدَرَج عليه عَقْد يخرج الماء إليه من فوّارة يتوضأ منها مَنْ يحتاج إليه ، فحصل بذلك انتهاك حرمة المسجد الشريف من كشف العورات والاستنجاء فى المسجد ، فسُدَّت لذلك ، انتهى .

قلت : وقد رأيت آثار درجها فى غربى النخيل التى بصحن المسجد قريبا منها ، وليس بالمسجد اليوم شىء من السقايات إلا ما يحمل إليه من الدوارق المسبَّلة فيشربها الناس فى أوقات مخصوصة ، إلا أن خزانة الخدام الآتى ذكرها

لا يزال بها ماء لأجل شربهم . ثم لما عمر سلطان زماننا الأشرف مدرسته التى بين باب الرحمة و باب السلام جعل فيها سبيلا مما يلى باب الرحمة له شباك إلى المسجد .

حواصل المسجد

وأما الحواصل والخزائن التى بالمسجد الشريف ففيه القبة التى بصحنه ، وقد مر ذكرها ، وغالب ما يوضع فيها اليوم زيت وَقُود المسجد ، وتقدم أن المصحف المنسوب إلى عثمان رضى الله تعالى عنه موضوع بها .

و بالمسجد أيضا أمام كل من المنارات الأربع خزانة ، إلا أن ما أمام المنارتين القبليتين من ذلك أصلى ، بخلاف المنارتين الشاميتين فإنه محدث ، ولذلك قال البدر ابن فرحون : وما أحق بالإزالة ما أحدث بالمنارتين الشاميتين ؛ إذ قدم بابهما على بابيهما الأصليين ، وجعل ما بين البابين فى كل منارة خلوة اقتطع بها جانب من المسجد كبير لا شك فى تحريمه ، انتهى .

وفى جهة المغرب أيضا إلى جانب باب المنارة الشمالية الغربية المعروفة بالخشبية ـ سميت بذلك لأن حد الخشبتين كان يؤذن بها ـ خزانة صغيرة يضع بعض الخدام فرشهم فيها ، وربما أقام بها من يريد الاعتكاف بالمسجد و يليها فى جهة المغرب أيضا حاصلان كبيران يوضع فيهما القناديل الزجاج و بعض آلات المسجد ، وفى الأول منهما مما يلى الخزانة المذكورة وضعت كتبى ، وكنت أجلس به للمطالعة والاعتكاف فإنه من المسجد ، واتفق لى فى سبب الإقامة به أمر ليس هذا محل ذكره .

و يقابل ذلك فى جهة المشرق مما يلى المنارة المعروفة بالسنجارية خلوة كبيرة فيها فرش الخدام أيضا ، و إلى جانبها خزانتان إحداهما بيد من تكون له النوبة من الفراشين يضع فيها فوانيس المسجد ونحوها ، والثانية بيد الخدام أيضا ، وفى جهة المشرق قريبا من باب جبريل بينه و بين باب النساء خزانة يضع فيها الخدام الماء لشربهم و بعض فرشهم وأمتعتهم ، وهى المذكورة فى كلام ابن جبير حيث

قال : وفى الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع مبيت بعض السَّدَنة الحارسين للمسجد المبارك ، قال : وسدنته فتيان أحابيش وصقالبة ظِرَافُ الهيئة نظاف الملابس والشارات ، انتهى ، وإلى جانب الخزانة المذكورة صندوق يوضع فيه ما يستخرج من القبة من الزيت للوقود فى كل ليلة .

وفى غربى المسجد بين باب الرحمة وباب السلام حاصل يوضع فيه النورة ، يعرف بابه بخَوْخَة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فإنها كانت فى مُحاذاته كما تقدم ، فلما زيد فى المسجد جعلوا هناك خوخة فى المسجد تحاذى الخوخة الأولى وقد جعل لذلك ثلاثة أبواب عند عمارة المدرسة الأشرفية ، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام

قناديل المسجد

وأما عدد قناديله فذكر ابن زبالة أنها مائتان وتسعون قنديلا فى زمانه ، وجملتها فى زماننا مائتا قنديل وستة وخمسون قنديلا ، هذه الدائمة ، ونحو المائة قنديل يسرجونها فى بعض الأوقات ، ويجعلون فى كل قنطرة من القناطر التى تلى صحن المسجد من مقدمه وجنبتيه ثلاثة قناديل ، ويقتصرون فى بعض الأوقات على واحد فى كل قنطرة كما فى القناطر التى فى مؤخر المسجد ، سيما إذا قلّ عندهم الزيت ، وحدث بعد الحريق الثانى زيادة سلاسل كثيرة معدة لتعليق القناديل بها ، وبصحن المسجد أربعة مشاعيل اثنان فى جهة القبلة واثنان فى جهة الشام ، وكل واحد كالأسطوانة ، وبأعلاه مسرجة عظيمة تشعل فى ليالى الزيارات المشهورة ، ولا أدرى ابتداء حدوث ذلك ، ويزيدون تنانير وبزاقات فى مقدم الروضة وما حولها ، ويحتفلون بذلك سيما فى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، ويسرجون فى كل ليلة منه نحو أربعين شمعة ، ويضعونها على شمعدانات كبار فى قبلة الروضة والحجرة ، وفى غربى المنبر ، وبعضها فى محراب الحنفية الآتى ذكره .

وللمسجد فوانيس عدتها ستة ، يطوف بها الخدام بعد صلاة العشاء الآخرة

لإخراج الناس من المسجد عند غلق أبوابه ، ولا يَدْعُون به إلا الخدام ومَنْ له نو بة من أر باب وظائفه .

وذ كر البدر ابن فرحون فى ترجمته شبل الدولة كافوراً المظفرى شيخ الخدام المعروف بالحريرى أن من آثاره الحسنة تبطيل الطوف بالشعل من جريد النخل وتبديلها بالفوانيس التى يطوفون بها اليوم كل ليلة ، وذلك أنهم كانوا قبل الحريرى وصَدْرا من ولايته يأخذ عبيد الخدام و بعض الفراشين شعلا من سعف النخل فيطوفون بها عوض الفوانيس اليوم يَجْرُون بها كأشد مايكون من الجرى، فإذا وصلوا باب النساء خرجوا بها وخبطوا ما بقى معهم منها ، وكانت تسود المسجد وتسود بابه أيضاً ، وفيها من البَشَاعة مالا يخفى ، فأمر بالفوانيس عوضها رحمه الله تعالى .

فى صحن المسجد نخيل مغروسة

و بصحن المسجد نخيل مغروسة ، ولم أدر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن جبير قال فى رحلته عند ذ كر القبة التى بصحن المسجد مالفظه : و بإزائها فى الصحن خمس عشرة نخلة ، انتهى .

وقال البدر ابن فرحون : إن أول مَنْ أدرك من مشايخ الخدام الشيخ عزيز الدولة ، قال : وفى أيامه غرس كثير من هذا النخل الذى بالمسجد اليوم ، وكان منه شىء قبل العزيزى ، ومات أ كثره ، انتهى .

وذ كر المجدُ عزيزَ الدولة وقال : إن غرس أ كثر هذا النخل كان فى زمانه، ثم قال : وكأنه لم يتعرض أحد لإنكار هذه البدعة إجلالا لشأنه ، أو خوفاً من لسانه ، أو تمكيناً له من الاقتداء بمَنْ غرسه قبله وخنق فى عنقه من هذا المنكر حبله ، وقد انجعفت تلك النخيل لهبوب عاصفة هبت فى أواخر مشيخة ياقوت الرسولى ، ثم أعيد الغراس ، ووقع الإنكار من بعض الناس ، لكن لم يصادف كلامه محلا من الإشارة والإفادة ، ولعله سوغ حملا على احتمال أنه لم يغرس

أولا إلا بنوع من الاستحقاق ، لكن لا يخفى ما فى اعتماد الاحتمال البعيد من قلة التقى .

قلت : وقد أراد طوغان شيخ أن يزيد فيه سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، فأنكرتُ ذلك ، وقام بعض أهل الخير فى المنع منه ، فبطل ذلك ولله الحمد .

أئمة المسجد

ولم يزل المسجد النبوى بإمام واحد يصلى بالناس فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، ويتقدم أيام الموسم إلى المحراب العثمانى ، حتى سعى طوغان شيخ المذكور فى إحداث محراب للحنفية فى دولة الأشرف إينال ، فقام أهل المدينة فى منعه ، وساعدهم على ذلك من أرباب الدولة المصرية صاحب الشيم المرضية جمال الدين يوسف ناظر الخواص الشريفة ، تغمده الله برحمته ، فلم يتم لطوغان المذكور ذلك ، فلما توفى المشار إليه أعاد طوغان السعى فى الدولة المذكورة ، فبرزت المراسيم به بعد الستين وثمانمائة[1] ، واستمر إلى زماننا فيصلى إمامه الصلوات الخمس عقب انصراف إمام المحراب النبوى ، وهو إمام الشافعية ، إلا فى التراويح فيصليان معاً ، وهذا الأمر دبَّ إلى المدينة الشريفة من مكة المشرفة .

وقد قال الزركشى : إن السبب فى حدوث ذلك بها أن الإمام كان فى ذلك الوقت مبتدعا ، فعندما امتنع الناس من إقامة الجماعة مع إمامهم الذى أقاموه سمحوا للناس فى اتخاذ أئمة لأنفسهم ، واستمر الأمر عليه ، وكذا جرى مثله فى بيت المقدس وجامع مصر قديما ، انتهى .

وقد بينا حكم ذلك فى كتابنا الموسوم « بدفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار » .

عرض جدر المسجد

وقال ابن زبالة ويحيى : وعرض منقبة جدار المسجد مما يلى المغرب ذراعان ينقصان شيئاً ، وعرض منقبته مما يلى المشرق ذراعان وأربعة أصابع ، وإنما زيد فيه لأنها من ناحية السيل .

قلت : وهذا لأن السيل كان يغشى المسجد من تلك الجهة ، ولهذا سقط

---

(١) هذا التاريخ لا يناسب ماقبله ، فلعله « بعد التسعين وثمانمائة »

جدار الحجرة الشرقى كما قدمناه ، وسقط أيضاً جدار المسجد من الناحية المذكورة كما قدمناه من قول ابن زبالة « أخاف المسجد من شرقيه فى سلطان محمد ابن عبد الله الربعى من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز فأمر به فبنى » انتهى .

وقد قدمنا فى زيادة الوليد ما رواه يحيى من طريق ابن زبالة فى ذرع عرض المسجد ، وبينا فساده ، والصواب ما ذكره ابن زبالة فى أواخر الكلام على المسجد؛ فإنه ذكر ذَرْعَ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم الأول عرضا وطولا ، ثم قال : وذَرْعُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ذَرْعُ عرضِه من مقدمه فى القبلة بين المشرق والمغرب مائة وخمسة وستون ذراعا ، وذرعُ عرضه من مؤخره إلى الشام بين المشرق والمغرب مائة وثلاثون ذراعا ، ينقص مؤخره عن مقدمه خمسة وثلاثين ذراعا ، وطولهُ من اليمن إلى الشام مائتان وأربعون ذراعا .

قلت : وقد حررت ذَرْعَه فكان عرضه من مقدمه فى القبلة مائة ذراع وسبعة وستين ذراعا ونصفا ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ذراعين ونصفا ، وذلك لاختلاف الأذْرِعَة أو لرخاوة الحبل الذى وقع القياس به ، ونحو ذلك .

وكان عرضه من مؤخره فى الشام مائة وخمسة وثلاثين ذراعا فيزيد على ما ذكره خمسة أذرع .

وكان طوله من القبلة إلى الشام مائتى ذراع وثلاثة وخمسون ذراعا ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ثلاثة عشر ذراعا .

وقد ذكر ابن النجار ما يوافق ذرعنا هـذا مع مخالفة يسيرة فقال : طولُ المسجدِ اليوم من قبلته إلى الشام مائتا ذراع وأربعة وخمسون ذراعا وأربعة أصابع ، ومن شرقيه إلى غربيه — يعنى فى مقدمه — مائة ذراع وسبعون ذراعا صافية ، انتهى .

قال ابن زبالة : وطول رحبة المسجد — يعنى صحنه — من اليمن إلى الشام مائة

وخمسة وستون ذراعا ، وعرضها بين المشرق والمغرب ثمان وتسعون ذراعا ، انتهى .

وذكر ابن النجار أن طولها مائة وتسعة وخمسون ذراعا وثلاثة أصابع ، وعرضها سبع وتسعون ذراعا راجحة .

قلت : وطول رحبة المسجد اليوم من القبلة إلى الشام مائة ذراع واثنان وخمسون ذراعا ونصف ذراع ، فإذا أضفتَ لذلك عرض الرواق الذى زيد فى الرحبة على ما قدمناه من أنه زيد فيها رواقان من ناحية ونقص رواق من ناحية والرواق نحو تسعة أذرع فيكون جملة ذلك مائة وأحداً وستين ذراعا ونصفا ، وذلك نحو ما ذكره ابن النجار .

وأما عرض الرحبة اليوم من مقدم المسجد فخمسة وتسعون ذراعا بتقديم التاء على السين ، والله تعالى أعلم .

وذكر ابن النجار أن طول المسجد فى السماء خمسة وعشرون ذراعا ، ومراده ارتفاعه من أرضه إلى أعلى شُرُفاته ؛ لأنه ذكر فى موضع آخر ما يقتضى أن ارتفاعه من أرض المسجد إلى سقفه أحد وعشرون ذراعا ، فيكون سمك السقف والحائط الذى عليه الشَّراريف حول صحن المسجد أربعة أذرع ، والذى بين أرض مقدم المسجد وسقفه بعد خفض أرضه عقب الحريق الثانى اثنان وعشرون ذراعا ، وتقدم فى زيادة عمر رضى الله عنه ما يقتضى أنه كان بينهما فى زمانه أحد عشر ذراعا ، ولم أقف على ذكر ما جعله عثمان رضى الله تعالى عنه بينهما ، وذرع ما بين الأرض المحيطة بالمسجد من خارجه وأعلى سترة جداره من جهة المغرب ثمانية وعشرون ذراعا ؛ فهذا سمك المسجد من خارجه ، والله أعلم .

وقد تقدم ذكر منابر المسجد وذرعها فى زيادة الوليد

الفصل الثانى والثلاثون

في أبواب المسجد وماسد منها ، وما بقى ، وما يحاذيها من الدور قديما وحديثا

أبواب المسجد

تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للمسجد الشريف ثلاثة أبواب : بابا فى مؤخره ، والباب الذى يُدْعَى باب عاتكة و يقال له باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم وهو باب آل عثمان

وقد اقتضى كلام المؤرخين أن هذين البابين لم يحولا عن مكانهما ، بل لما زيد فى المسجد من جهتهما جعلا فى محاذاة محلهما الأول

وقد قدمنا فى زيادة عمر رضى الله عنه أنه جعل الأبواب ستة : بابين عن يمين القبلة ، و بابين عن يسارها ، و بابين خلف القبلة ، وأنه لم يغير باب عاتكة ولا باب عثمان ، بل زاد فى جهة باب عاتكة البابَ الذى عند دار مروان وهو باب السلام ، وزاد بعد باب عثمان البابَ المعروف بباب النساء ، فهذان البابان هما المَزِيدَان فى المغرب والمشرق .

وسبق أيضاً أن عثمان رضى الله تعالى عنه أقر هذه الأبواب على حالها ، ولم يزد فيها شيئاً .

ولم يذكر ابن زبالة ولا يحيى ولا رزين ما زاده الوليد من الأبواب ، ولا ما زاده المهدى حين زاد فى المسجد ، إلا أن ابن النجار قال : وأما أبواب المسجد فكانت بعد زيادة المهدى فيه ، وذكر تسعة عشر بابا غيرَ باب خَوْخَة أبى بكر رضى الله عنه ، كما سيأتى ، و بين أماكنها كما سنشير إليه .

وقال المطرى وتبعه المراغى والمجدُ : لما بنى الوليد بن عبد الملك المسجد ووسَّعه جعل له عشرين بابا ، وذكر الأبواب المذكورة بعينها مع الخَوْخَة المذكورة ، وهذا وهم ؛ لأن المنقول فى هذه الأبواب أنها إنما كانت فى زيادة المهدى ، وهى التى استقر عليها الحال فى أمر المسجد ، وأيضا فما سيأتى فى وصف الأبواب التى

فى جهة الشام وما يليها من جهة المشرق والمغرب لا يتصور أن يكون فى زمن الوليد ؛ لما تقدم من أن المهدى هو الذى زاد ذلك ، والمطرى موافق عليه ، فكيف يذكر وصف تلك الأبواب فيما نسبه للوليد ، وسيأتى أيضاً أن أحد هذه الأبواب ــ وهو باب زياد ــ إنما فتحه زياد فى ولاية أبى العباس المنصور .

والحاصل من كلام مَنْ كان قبل المطرى من المؤرخين أن الذى استقر عليه أمر المسجد بعد انتهاء زياداته فى أمر الأبواب عشرون بابا ، مع عَدِّ الخَوْخَة المذكورة ؛ فإنها كما سيأتى كانت شارعَةً فى رحبة دار القضاء ، ولا ينافى ذلك قول ابن زبالة : وفى المسجد ــ يعنى فى زمنه ــ أربعة وعشرون بابا ؛ لأنه قال فى تفصيلها : منها ثمانية من ناحية المشرق ، ومما يلى القبلة : باب يدخل منه الأمراء من ناحية باب مروان إلى المقصورة ، وعن يسار القبلة الباب الذى تدخل منه المقصورة من موضع الجنائز ، وعن يمين القبلة باب بحذائه سواء فى الطرف الآخر أى فى مقابلته يدعى باب بيت زيت القناديل ، ذكروا أن مروان عمله ، وخوخة آل عمر تحت المقصورة ، ومما يلى المغرب ثمانية أبواب منها الخوخة التى تقابل يمين خوخة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ومما يلى الشام أربعة ، انتهى كلام ابن زبالة ؛ فغيره لم يعد الباب الذى كان فى القبلة شارعاً فى دار مروان ؛ لأنه باب دار ، وكذا خوخة آل عمر ؛ لأنها للدار لا للمسجد ، وكذا باب زيت القناديل ؛ لأنه باب خزانة للمسجد لا يدخل منه عامة الناس ، وكان موضعه عند زاوية الجدار الغربية مما يلى القبلة وجدوه عند عمارة المنارة التى بباب السلام وسد بجدارها

وأما الباب الذى ذكره عن يسار القبلة فيؤخذ من كلامه أنه كان فى المشرق مقابلا لباب زيت القناديل وأنه خاص بالمقصورة ، ولو كان بابا عاما لعده فى الأبواب التى فى جهة المشرق ، وقد ظهر هذا الباب عند هَدْم المنارة الشرقية بعد الحريق الذى أدركناه ، وهو باب صغير وجد مسدودا عند زاوية

جدار المسجد الشرقية ، وكأن الدخول كان منه إلى الخزانة التى تحت المنارة الشرقية اليمانية ثم منها إلى المقصورة ، ولهذا لما بسط ابن زبالة الكلام على أبواب المسجد فى موضع آخر لم يذكر هذه الأبواب الأربعة ، بل اقتصر على العشرين

فلنذكر ما ذكره وغيره فيها وما زاده المطرى فى بيانها مما يعرف بمحلها ثم نفرد خوخة آل عمر بالكلام عليها ، فنقول :

باب النبى صلى الله عليه وسلم

الأول : وهو مبتدأ أبواب جهة المشرق مما يلى القبلة ، بابُ النبى صلى الله عليه وسلم ، سمى بذلك لكونه فى مقابلة حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها التى بها قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، لا لكونه دَخَل منه ؛ إذ لا وجود له فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد سد عند تجديد الحائط الشرقى ، وجعل مكانه شباك يقف الإنسان عنده من خارج ، فيرى الحجرة الشريفة ، كذا قاله المطرى ومَنْ بعده ، وسيأتى ما يخالفه

باب على

الثانى : باب على رضى الله عنه ، كان يقابل بيتَه الذى خلف بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد سد أيضاً عند تجديد الحائط ، وما ذكرنا من أن باب النبى صلى الله عليه وسلم مقدم على هذا الباب للقبلة صرح به المطرى ومَنْ تبعه ، وهو الذى تقتضيه المناسبة التى ذكروها للتسمية بذلك ، لكن صرح ابن النجار بخلافه ، فقال فى عَدِّ أبواب جهة المشرق : باب على ، ثم باب النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم باب عثمان ، ثم باب مستقبل دار رَيْطَة ، إلى آخر الترتيب الآتى ، ومأخذه فى ذلك أن ابن زبالة ويحيى ذكرا ما كان مكتوبا على جدارات المسجد فقالا : وفى الزيادة الشرقية فى جَوْف المسجد بين باب على و باب النبى صلى الله عليه وسلم مكتوب ، وذكرا ما كان مكتوبا

ثم قالا : و بين باب النبى صلى الله عليه وسلم و باب عثمان مكتوب ، وذكرا ما كان مكتوبا

ثم ذكرا أيضاً فى الكتابة من خارج الجدار على الأبواب نحو هذا ، وقالا

أيضاً : إن فى القبلة من خارج المسجد فى موضع الجنائز حيث يصلى على الموتى عند باب على بن أبى طالب مكتوب بعد البسملة (إن فى خلق السموات والأرض ـ الآية) فاقتضى ذلك أن باب على هو أول أبواب هذه الجهة ، وأن باب النبى صلى الله عليه وسلم هو الثانى منها ، والذى حمل المطرى ومن تبعه على مخالفة ذلك ما قدمناه عنه من رعاية تلك المناسبة ، ويحتمل أن بيت على رضى الله عنه كان ممتدًا فى شرقى حجرة عائشة رضى الله عنها إلى موضع الباب الأول فسمى باب على بذلك ، ويدل له ما تقدم عن ابن شبة فى الكلام على بيت فاطمة رضى الله عنها من أنه كان فيما بين دار عثمان التى فى شرقى المسجد و بين الباب المواجه لدار أسماء، ويكون تسمية الباب الثانى بباب النبى صلى الله عليه وسلم لقربه من بابه ، والله أعلم.

باب عثمان (باب جبريل)

الثالث : باب عثمان ، وهو الباب الذى وضع قبالة الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا عن ابن زبالة ويحيى أن الباب الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم هو باب آل عثمان ، ولهذا أطلق عليه فى رواية ليحيى فى زيادة عثمان أنه باب النبى صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر درج عند باب مقصورة الحجرة الشامى فى مقابلة الباب المذكور بسبب الحفر للدعامة التى هناك ، والظاهر أنه درج الباب المذكور قبل تحويله ؛ لكونه فى موازاة جدار المسجد لأول كما يؤخذ مما سبق من حدوده، وسمى بذلك لمقابلته لدار عثمان بن عفان، وسيأتى نها كانت من الطريق التى تسلك إلى البقيع التى عن يسار الخارج من هذا الباب إلى الطريق التى فى شامى المدرسة الشهابية، والذى يقابل هذا الباب اليوم من دار عثمان رباط أنشأه جمال الدين محمد بن أبى المنصور الأصفهانى المعروف بالجواد وزير بنى زَنكى.

قال المطرى : وقفه على فقراء العجم ، وجعل له فيه تربة لها شباك فى جهة الشباك المتقدم ذكره فى مقابلة القبر الشريف . ولما مرض وهو فى السجن قال للشيخ أبى القاسم الصوفى : كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر ، يعنى أنه فرح بأن يأتيه الموت وهو على تلك الحالة ، وقال له : إن بينى و بين أسد

الدين شركوه ـ يعنى عم صلاح الدين بن أيوب ـ عهداً أن مَنْ مات قبل صاحبه حمله صاحبه الحى إلى المدينة الشريفة فدفنه فيها فى التربة التى عملها ، فإن أنا مت فامْضِ إليه فذكره ، فلما توفى سار الشيخ إلى أسَد الدين فى هـذا المعنى ، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة الشريفتين ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن يقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون فى الطريق ، وينادى بالصلاة عليـه فى البلاد ، فلما كان فى الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضع عالٍ ونادى بأعلى صوته :

سرى نَعْشُه فوق الرقاب ، وطالما   سرى جودُه فوق الركاب ونائلُه
يَمُرُّ على الوادى فَتُثْنِى رماله   عليـه ، وبالنادى فتثنى أراملُه

فلم يُرَ باكٍ أكثر من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الـكعبة ، وصلوا عليه بالحرم، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه ودفنوه بتربته المذكورة .

وكانت وفاته فى سنة تسـع وخمسين وخمسمائة ، وكان له آثار حسنة سيما بالحرمين الشريفين ، وعمل للمدينة الشريفة السور الآتى ذكره ، وسنذكر هناك شيئاً من ترجمته .

وفى قبلة رباطه من دار عثمان أيضاً تُرْبَة اشترى أرضَها أسَدُ الدين شيركوه ابن شاذى عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ، وحمل إليهـا هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بعـد موتهما ودفنا فيها سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وتوهم الذهبى أنهما دفنا بالبقيع فجزم به فى العبر .

وبقية دار عثمان من القبلة دار إلى جانب هـذه التربة موقوفة على خدام الحرم الشريف يسكنها مشايخهم ، وهذه دار عثمان الـكبرى المقابلة لهذا الباب ، وسيأتى ذكر داره الصغرى التى فى موضعها رباط المغاربة . ويعرف هـذا الباب أيضاً بباب جبريل عليه السلام .

قلت : ولم يبينوا سببَ تسميته بذلك ، ولعل سببها ما سبق فى الفصل الرابع والعشرين من قول أبى غسان : إن علامة مقام جبريل التى يعرف بها اليوم أنك

تخرج من الباب الذى يقال له باب آل عثمان فترى على يمينك إذا خرجت من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حجراً أكبر من الحجارة التى بها جدار المسجد ، مع ما قدمناه أيضاً من أن الأصل فى ذلك أن جبريل عليه السلام فى غَزْوَة بنى قُرَيْظَة أتى على فرس عليه اللأمة حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، ولم يكن ثم حينئذ غير الباب المذكور وروى ابن زبالة عن المطلب بن عبد الله أن حارثة بن النعمان مرّ والنبىُّ صلى الله عليه وسلم مع جبريل فى موضع الجنائز ، فمر ولم يسلم ، فقال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم : أهو ممن شهد بدرا ؟ قال : نعم، قال :فكيف هو فى أمتك؟ أيرون لهم به ؟ قال : نعم ، قال :مازالت الملائكة الذين شهدوا بدرا معك يرى لهم، قال: فجاء حارثة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل رأيت الرجل الذى كان معى ؟ قال : نعم وشبهته بدحية الكلبى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : فإنه جبريل ، وقد قال لو سلم لرددنا عليه ، فقال : ما منعنى من السلام إلا أنى رأيتك تَحَدَّثُ معه فكرهت أن أقطعه عنك، وروى البيهقى فى الدلائل عن حارثة بن النعمان قال : مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالس فى المقاعد ، فسلمت عليه ومررت ، فلما رَجَعْنا وانصرف النبى صلى الله عليه وسلم قال لى : هل رأيت الذى كان معى ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه جبريل عليه السلام ، وقد ردَّ عليك السلام .

وكان مكتوباً على هذا الباب من خارجه بعد البسملة (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ـ الآيتين) .

باب ريطة (باب النساء)

الرابع : باب رَيْطَة بفتح الراء ابنة أبى العباس السفاح ، كان يقابل دارها ، ويعرف بباب النساء ، وسبب تسميته بذلك مارواه أبو داود من طريق عبدالوارث عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركنا هذا الباب للنساء ، قال : نعم ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات . ثم قال أبوداود عقبه : وقال غير عبدالوارث : قال قال عمر ، وهوأصح، ثم رواه من طريق إسماعيل

عن أيوب عن نافع عن ابن عمر « قال قال عمر » بمعناه ، قال : وهو أصح . ثم رواه أيضاً من طريق بكير عن نافع قال : إن عمر بن الخطاب كان ينهى أن يدخل من باب النساء ، وهذا هو المعتمد ؛ لما تقدم من أنه لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم فى شرقى المسجد غير باب آل عثمان . وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن ابن عمر قال : سمعت عمر حين بنى المسجد يقول : هذا باب النساء ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى لقى الله، وكان لايمر بين أيدى النساء وهن يصلين .

ودار ربطة التى كانت مقابلة لهذا الباب قال المطرى : كانت دار أبى بكر الصديق، ونقل أنه توفى فيها ، وهى الآن مدرسة للحنفية بناها يازكوج أحد أمراء الشام ، وعمل له فيها مشهداً نقل إليه من الشام ، والطريقُ إلى البقيع بينها وبين دار عثمان ، نقل ذلك ابن زبالة .

قلت : وما ذكره من نسبة الدار المذكورة لأبى بكر الصديق سيأتى مستنده مع بيان مافيه .

وفى أعلى هذا الباب من خارجه لوح من الفسيفساء مكتوب فيه آية الكرسى من بناء المسجد القديم ، وقد زال عند الحريق الثانى .

باب خامس

الخامس : باب كان يقابل دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم، كانت من جملة دار جبلة بن عمرو الساعدى، ثم صارت لسعد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، ثم صارت لأسماء المذكورة ، وهى اليوم رباط للنساء ، وقد سُدَّ هذا الباب أيضاً عند تجديد الحائط الشرقى من المنارة الشرقية الشمالية إلى هذا الباب المذكور فى أيام الناصر لدين الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، كذا قاله المطرى ومَنْ تبعه ، وظاهر كلام ابن جُبَير أن سَدَّ هذا الباب وغيره من الأبواب كان قبل الثمانين وخمسمائة ؛ لأن رحلة ابن جبير كانت قبل الثمانين كما قدمناه ، وقد قال فيها : وللمسجد المبارك تسعة عشر بابا أى غير خوخة أبى بكر لم يبق منها مفتوحاً غير أربعة ، فى المغرب منها اثنان ، وفى المشرق

اثنان، انتهى. لكنه قال بعد ذلك: وفى القبلة باب واحد صغير مغلق ، يعنى باب دار الإمارة . ثم قال: وفى المغرب خمسة مغلقة أيضاً ، وفى المشرق خمسة أيضاً مغلقة ، وفى الشام أربعة مغلقة أيضاً ، انتهى . فتبين أنها كانت فى زمنه غير مسدودة لكنها مغلقة ، فيكون سَدُّها حدَث فى التاريخ الذى ذكره المطرى ، والله أعلم .

باب سادس

السادس : باب كان يقابل دار خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه ، وقد دخل فى بناء الحائط المذكور، والدار المذكورة اليوم رباط الرجال ،ومعها فى جهة الشمال دار عمرو بن العاص كما سيأتى بيانه ، ويعرف الرباط المذكور اليوم برباط السبيل ، وكذا رباط النساء المتقدم ذكره يعرف بذلك أيضاً ، والرباطان المذكوران بناهما القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى رحمه الله تعالى . وذكر ابن زبالة ويحيى أنه كتب على نجاف هذا الباب من داخل « مما أمر به المهدى محمد أمير المؤمنين مما عمل البصريون سنة اثنتين وستين ومائة ومبتدأ زيادة المهدى فى المسجد .

قلت : وكتابة ذلك عليه تقتضى أنه الذى أحدثه وما بعده ، وأنه أول زيادته كما تقدم .

باب سابع

السابع : باب كان يقابل زقاق المناصع ، دخل أيضاً فى الحائط بعد تجديده ، وزقاق المناصع كان بين دار عمرو بن العاص وأبيات الصوافى ، وعبر عنها المطرى بدار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى لأمر توهمه من كلام ابن زبالة كما سنوضحه إن شاء الله تعالى ، والزقاق اليوم ينفذ إلى دار الحسن بن على العسكرى ، وتعرف اليوم بحوش الحسن ، وكان الزقاق المذكور ينفذ إلى المناصع خارج المدينة ، وهو كان متبرزاً للنساء بالليل على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبيات الصوافى هذه التى عبر عنها المطرى بدار موسى ابن إبراهيم سيأتى أن بعضها اليوم رباط للرجال أنشأه القاضى الفاضل محيى الدين

أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمى البَيْسانى ، ودخل هذا الباب أيضاً فى الحائط عند تجديده .

باب ثامن

الثامن: باب كان يقابل أبيات الصوافى دخل فى الحائط أيضاً عند تجديده ، وأبيات الصوافى تقدم أن بعضها الذى يلى دار عمرو بن العاص هو رباط الفاضل ، وبعضها الآخر وهو الذى كان يقابل هذا الباب هو المعروف اليوم بدار الرسام التى وقفها الشيخ صفى الدين السلامى على أقاربه ثم على الفقراء ، وفى شاميها الباب الذى يدخل منه إلى رباطى النخلة ، وهما رباطا السلامى ، وقد عبر المطرى عن ذلك بقوله « وهى - يعنى أبيات الصوافى - فى دور كانت بين موسى بن إبراهيم المخزومى و بين عبيدالله بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم » قال : وموضع هذه الدور اليوم دار اشتراها الشيخ صفى الدين أبو بكر بن أحمد السلامى رحمه الله ووقفها على قرابته السلاميين ، انتهى .

وسيأتى أن أبيات الصوافى هى الدور التى كان فيها قهطم ، وأنها كانت بين دار عمرو بن العاص ودار موسى بن إبراهيم المخزومى المشتركة بينه و بين عبيد الله بن الحسين ، وأن هذه الدار المشتركة كانت أول الدور فى جهة المشرق مما يلى الشام ، فأبيات الصوافى هى دار قهطم ، وفى موضعها ما قدمناه من رباط الفاضل ودار السلامى . وأما الدار المشتركة ففى موضعها اليوم الميضأة المعطلة و بيت الرئيس إبراهيم الذى بين الميضأة والزقاق الذى يلى دار المضيف كما سيأتى بيانه ، ودار المضيف هى آخر الدور التى فى جهة الشام ، والدار المشتركة كانت ملاصقة لها ، وسيأتى بيانُ منشأ ما وقع للمطرى ، وهذا الباب آخر الأبواب التى كانت فى جهة المشرق .

أبواب المسجد الشامية

وقد طوى المطرى الكلام على الأبواب الشامية ، فقال : وفى شمالى المسجد

أربعة أبواب سدت أيضاً عند تجديد الحائط الشمالى ، وليس فى شمالى المسجد اليوم باب إلا باب سقاية عمرتها أم الإمام الناصر .

وسبب عدم كلام المطرى على الأبواب الشامية أن ابن زبالة لم يذكر ما يقابلها من الدور ، لكن ظهر لى أنه يؤخذ من كلامه وكلام ابن شبة فى الدور المطيفة بالمسجد ، فلنذكر ما استفدنا منهما فى ذلك ، فنقول :

باب تاسع

التاسع : باب كان فى دبر المسجد ، وهو أول أبواب الشام مما يلى المشرق ، وكان يقابل دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، وهى دار جده عبد الرحمن التى كان يُنْزِلُ بها ضيفانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، وبقية دار ابن مسعود ، وفى موضعهما الدار المعروفة بدار المضيف وما فى غربيها من رباط الظاهرية

باب عاشر

العاشر : باب كان يقابل دار أبى الغيث بن المغيرة ، وفى موضعها اليوم الرباط المعروف برباط الظاهرية والشرشورة

الباب الحادى عشر

الحادى عشر : باب كان يقابل مايلى دار أبى الغيث من أبيات خالصة مولاة أمير المؤمنين ، وموضع ذلك المارستان الذى أنشأه أبو جعفر المنتصر بالله سنة سبع وعشرين وستمائة

الباب الثانى عشر

الثانى عشر : باب كان فى مقابلة بقية أبيات خالصة ، وفى موضع ذلك اليوم بيت وزقاق يتوصل منه إلى الرباط الذى أنشأه الشيخ شمس الدين الششترى ، وهذا الباب آخر الأبواب التى كانت فى جهة الشام ، وكلها اليوم مسدودة كما تقدم ، وما يوجد اليوم من الدور والأبنية الملاصقة لجدار المسجد المذكور كلها حادثة كما يؤخذ من كلام متقدمى المؤرخين ، ولم أقف على ابتداء حدوث ذلك

الباب الثالث عشر

الثالث عشر : وهو أول أبواب المغرب مما يلى الشام باب كان يقابل دار منيرة ، وكانت من دور عبد الرحمن بن عوف ، ثم صارت لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ثم صارت لمنيرة مولاة أم موسى ، وفى موضعها اليوم الدار التى

صارت لشيخنا العارف بالله سيدى عبد المعطى المغربى نزيل مكة المشرفة ، ثم انتقلت للسيد الشريف العلامة محيي الدين قاضى الحنابلة بالحرمين الشريفين ، وما فى قبلتها إلى الباب الذى يدخل منه إلى دور القياشين التى للخواجا قاوان ، وهذا الباب مسدود كما هو مشاهد من خارج المسجد .

الباب الرابع عشر

الرابع عشر : باب كان يقابل دار منيرة أيضاً كما صرح به ابن زبالة ويحيى ، ووهم المجدُ فجعله الذى بعده ، وموضع ما يقابله اليوم من دار منيرة الدار الموقوفة على الخدام التى فى قبلة الزقاق الذى يدخل منه إلى دور القياشين ، وهذا الباب مسدود اليوم كما يظهر من خارج المسجد أيضاً ، وبذلك يعلم أن محلهما من ذلك الجدار لم يجدد .

الباب الخامس عشر

الخامس عشر : باب كان يقابل دار نصير صاحب المصلى وهو مولى المهدى ، وكانت هذه الدار منزلا لسكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، وفى موضعها اليوم الدار التى عن يسار الداخل من زقاق دور القياشين والدار التى تعرف اليوم بدار تميم الدارى ، وقد آلت إلىّ ثم وقفتها ، وهى الآن منزلى ، ولم أقف على أصل فى تسميتها بذلك ، وهذا الباب فى مقابلة الدار المعروفة بدار تميم من دار نصير ، وهو مسدود اليوم ، وبقيت منه قطعة تظهر من خارج المسجد ، ودخل باقيه عند تجديد الحائط من باب عاتكة إليه .

الباب السادس عشر

السادس عشر : باب كان يقابل دار جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ، وقد دخل فى داره هذه فارعٌ أطمُ حسان بن ثابت كما قاله ابن زبالة ، وفى موضعها اليوم المدرسة الكلبرجية التى أنشأها السلطان شهاب الدين أحمد سلطان كلبرجة من بلاد الهند فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، وهذا الباب دخل فى الحائط عند تجديده ، وأسقطه المطرى مع أنه مذكور فى كلام ابن زبالة ويحيى ، ولما أسقطه زاد بدله بابا لا وجود له فى كلام من قبله ، على ما سيأتى التنبيه عليه .

باب عاتكة
(باب السوق)
(وباب الرحمة)

السابع عشر : باب عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ، كان يقابل دار عاتكة المذكورة ، ثم صارت هذه الدار ليحيى بن خالد البرمكى والد جعفر ، ودخلت فى دار جعفر المتقدم ذكرها ، وتوهم الزين المراغى من نسبتها لجعفر بن يحيى ومن كون أطم حسان دخل فى دار جعفر بن يحيى أنها محل أطمه ، وليس كذلك لما قدمناه ، وفى موضعها اليوم دار من أوقاف الخدام فى قبلة المدرسة الكلبرجية تواجه يمينَ الخارج من باب المسجد المذكور ، وقد استبدلها الشيخ الزينى بن مزهر بإزالة ديوان الانشاآت وما غربيها من الدور، واتخذ ذلك مدرسة ورباطا وأروقة على يد صاحبنا العلامة الشيخ نور الدين المحلى نفع الله به ، ويعرف هذا الباب قديماً أيضا بباب السوق ، كما يؤخذ مما سيأتى فى باب زياد ، لأن سوق المدينة كانت فى المغرب فى جهته . ويعرف قديماً أيضا بباب الرحمة ؛ فإن يحيى ذكر فى بناء النبى صلى الله عليه وسلم لمسجده أنه صلى الله عليه وسلم جعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال باب الرحمة ، هذا لفظه . وأطْبَقَ على وصفه بذلك مَنْ بعده من المؤرخين ، حتى صار فى زماننا هو الأغلب عليه ، ومع ذلك فلم أر فى كلام أحد بيان السبب فى تسميته بذلك، وسألت عنه مَنْ لقيته من المشايخ فلم أجد عند أحد منهم علما من ذلك ، ثم ظهر لى معناه بحمد الله تعالى ، وذلك أن البخارى روى فى صحيحه عن أنس ابن مالك أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة من بابٍ كان نحو دار القضاء ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما ، ثم قال : يارسول الله ، هلكَتِ الأموالُ، وانقطعت السبل ،فادع الله يغثنا ،فرفَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم أغثنا ،اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، قال أنس : ولا والله ما نرى فى السماء من سَحَاب ولا قَزَعة ، وما بيننا و بين سَلْع من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، ولما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمسَ سبعا ، ثم دخل رجل من

ذلك الباب فى الجمعة ـ يعنى الثانية ـ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ـ الحديث ـ بطوله ، وسنبين فى باب زياد ـ وهو الذى يلى هذا ـ أن دار القضاء كان محلها بين باب الرحمة وباب السلام ، وقد تقرر أنه لم يكن للمسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم فى هذه الجهة إلا الباب المعروف بباب الرحمة ؛ فظهر أن هذا الرجل الطالب لإرسال المَطر وهو رَحْمة إنما دخل منه ، وقد أنتج سؤالُه حصولَ الرحمة ، وأنشأ الله السحاب الذى كان سببا فيها من قِبَلهِ أيضا ؛ لأن سَلْعا فى غربى المسجد ، فسمى والله أعلم بباب الرحمة لذلك ، لكن فى رواية البخارى عن أنس أيضا أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وُجَاه المنبر ، ومقتضاها أنه دخل من الباب الذى كان فى شامى المسجد ؛ لقرب إطلاق مواجهته للمنبر عليه ، لكن ذلك الباب ليس نحو دار القضاء ، فليجمع بين الروايتين بأن الواقعة متعددة كما اقتضاه كلام بعضهم ، أو بأنه وقع التجوز فى إطلاق كون ذلك الباب وُجَاه المنبر ، أو بأن باب الرحمة كان كما قدمناه فى آخر جهة المغرب مما يلى الشام ، فجاء ذلك الداخل من جهته ودخل منه ، ثم رأى أن قيامه بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر لا يتم له إلا بتخطى الصفوف ، فمرج إلى الباب الآخر المواجه للمنبر ، فغلب إطلاق باب الرحمة على الباب الذى فى جهة مجيئه ؛ لاعتضاده بما تقدم من مجىء السحاب من قبله ، والله أعلم

باب زياد (باب القضاء)

الثامن عشر : باب كان يعرف بباب زياد ، وقد سد أيضا عند تجديد الحائط الذى هو فيه ، وكان بين خَوْخَة أبى بكر الآتى ذكرها و بين الباب الذى قبله ، وسمى بذلك لما رواه ابن شبة عن محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عن عمه قال : كانت رَحْبة القضاء لعمر رضى الله عنه ـ يعنى دارا له ـ وأمر حفصة وعبد الله ابنيه رضى الله عنهما أن يبيعاها عند وفاته فى دَيْن كان عليه ، فإن بلغ ثمنها دينه وإلا فاسألوا فيه بنى عدى بن كعب حتى تَقْضُوه ، فباعوها من معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما ، وكانت تسمى دار القضاء ، قال ابن أبى فديك : فسمعت

عمى يقول : إن كانت لتسمى دار قضاء الدين . قال : وكان معاوية اشتراها عند ولايته ، فلم تزل حتى قدم زياد بن عبد الله المدينة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، فهدَمها وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح فيها الباب الذى إلى جنب الخَوْخَة الصغيرة ، وجعل هدمها على أهل السوق ، قال محمد بن إسماعيل بن أبى فديك : فأخذ منى فى هَدْمها أربعة دوانق ، قال ابن أبى فديك : وأخبرنى أيضا كما أخبرنى عمى عبيد الله بن عمر بن عبد الله بن عبد الله بن عمر قال : وأشار لى عبيد الله إلى صندوق فى بيته وقال : فى هذا الصندوق إبراآت من ذلك الدين . وروى أيضا عن عبد العزيز بن مروان أن دار القضاء كانت لعبد الرحمن بن عوف ، قال : وهى اليوم رحبة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غربيه مما يلى دار مروان . وروى عن سَهْلَة بنت عاصم أنها إنما سميت دار القضاء لأن عبد الرحمن اعتزل فيها ليالى الشورى حتى قضى الأمر فباعها بنو عبد الرحمن من معاوية ، فصارت بعد فى الصوافى ، وكانت الدواوين فيها وبيت المال ، فهدمها أبو العباس أمير المؤمنين وصَيَّرها رحبة للمسجد ، فهى اليوم كذلك

وروى ابن زبالة خبر ابن أبى فديك الأول مقتصراً عليه من طريق محمد ابن إسماعيل — يعنى ابن أبى فديك — عن ابن عمر أن عمر توفى وترك عليه ثمانية وعشرين ألفا ، فدعا عبد الله وحَفْصة فقال : إنى قد أصَبْتُ من مال الله شيئاً ، وأنا أُحِبُّ أن ألقى الله وليس فى عنقى منه شىء ، فبيعا فيه حتى تَقْضياه ، فإن عجز عنه مالى فسَلاَ فيه بنى عَدِى ، فإن بلغ وإلا فلا تَعْدُوَا قريشا ، فخرج عبد الله بن عمر إلى معاوية فباع منه دار عمر التى يقال لها دار القضاء ، وباع ماله بالغابة ، فقضى دينه ؛ فكان يقال « دار قضاء دين عمر » وهى رحبة القضاء .

قال محمد بن إسماعيل : فهدم زياد بن عبيد الله إذ كان واليا لأبى العباس على المدينة فى سنة ثمان وثلاثين ومائة دارَ القضاء ، وكانت تُكْرَى من تجار أهل

المدينة ، فهدمها زياد وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح الباب الذى إلى جنب الخوخة ـ الخبرَ المتقدم .

قلت : وما تضمنه هذا الخبر من تاريخ هدم الدار وعمل الباب المذكور فيها ربما يخالف ما ذكره ابن زبالة ويحيى فيما كتبا على أبواب المسجد ، فإنهما قالا : وعلى باب زياد فى لوح من ساج مضروب بمسامير مكتوب من خارج ، ثم ذكرا من جملة المكتوب : أمَرَ عبدُ الله عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بعمل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة هذه الرحبة توسعةً لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن حضره من المسلمين فى سنة إحدى وخمسين ومائة ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، إلى آخر ما ذكراه .

قلت : وزياد هذا هو زياد بن عبيد الله بن عبد المَدَان الحارثى خالُ السفاح ، وكانت ولايته على المدينة ومكة من قبل أبى العباس المنصور فى سنة ثمان وثلاثين ومائة ؛ فقولُ ابن أبى فديك فى رواية ابن شبة «فلم يزل حتى قدم زياد بن عبيد الله سنة ثمان وثلاثين» مُبَيِّنٌ لتاريخ قدومه فقط ، وقوله « فهدمها » يعنى فى مدة ولايته ؛ فليس فيه تعرض لأن الهدم كان فى ذلك التاريخ ؛ فلا يخالف ما كتب على الباب المذكور ، وليحمل أيضاً قوله فى رواية ابن زبالة « فهدم زياد بن عبيد الله إذ كان والياً فى سنة ثمان وثلاثين ومائة » على أن المرادَ بيانُ ابتداء ولايته ، لا تاريخ الهدم ، جَمْعا بين الكلامين ، والرواية الأولى أقرب إلى التأويل من هذه .

وقد ذكر ابن زبالة فى روايته المتقدمة عن محمد بن إسماعيل أنه قال : إن زياد بن عبيد الله جعل السُّتُورَ على الأبواب الأربعة : باب دار مروان أى المعروف بباب السلام ، والخَوْخَة أى المجعولة فى محاذاة خوخة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وباب زياد أى المذكور ، وباب السوق أى وهو باب الرحمة كما يؤخذ من كلام يحيى .

وقال المجد فى ترجمة دار القضاء : هى دار مروان بن الحكم ، وكانت لعمر ابن الخطاب فبيعت فى قضاء دَيْنه ، وقد زعم بعضهم أنها دار الإمارة ، وهو محتمل لأنها صارت لأمير المدينة .

قلت : دار مروان هى الآتية فى قبلة المسجد ، وليست هذه بلا شك ، ولعل المراد أن مروان ملك دار القضاء فنسبت إليه ، وهو غير معروف ، إلا أن الحافظ ابن حجر نقل عن ابن شبة أنها صارت لمروان وهو أمير المدينة ، قال : فلعل ذلك شبهة من قال « إنها دار الإمارة » فلا يكون غلطا ، وقال فى المشارق : وقد غلط فيها بعضهم فقال يعنى دار الإمارة .

قلت : والذى رأيته فى ابن شبة إنما هو صيرورتها لمعاوية كما قدمناه ، مع أن المشهور قديما بدار الإمارة إنما هى دار مروان التى فى قبلة المسجد ، وتقدم أن الأمراء كانوا يدخلون من باب منها إلى المقصورة ، وتوهم البرهان ابن فرحون أنها رحبة دار القضاء ، فقال : قال ابن حبيب : وما كان مَنْ مضى — يعنى من القضاة — يجلسون فى رحاب المسجد ، بل إما عند موضع الجنائز ، يريد خارج باب جبريل ، وإما رحبة دار مروان وهى التى تسمى رحبة القضاء ، وقد جعل ذلك فى هـذا الوقت ميضأة ، انتهى . وهو وَهَم ؛ لأن الذى جعل ميضأة هو نفس دار مروان كما سيأتى ، وبالجملة فلا خلاف فى كون دار القضاء هى الرحبة التى كانت فى غربى المسجد إلى باب مروان .

ويؤخذ مما تقدم أن هذه الرحبة كانت فى محاذاة باب زياد وما بعده إلى باب السلام .

ويؤخذ مما سيأتى فى الدور المُطِيفة بالمسجد أنها كانت ممتدة إلى باب الرحبة أيضاً ، وهو مقتضى ما أخبر به بعضُ مشايخ المدينة أنه لم يزل يسمع أنه لم يكن بين باب الرحمة وباب السلام دار تلاصق المسجد .

قلت : فموضع هذه الرحبة اليوم دار الشباك الملاصقة لباب الرحمة ، وما يليها من المدرسة الجوبانية والحصن العتيق .

ودار الشباك أنشأها شيخ الخدام كافور المظفرى ، المعروف بالحريرى ، بعد السبعمائة ، وجعل لها شباكاً إلى المسجد ، وليس حول المسجد دار لها شباك فى جدار المسجد إلا هى ، والذى يظهر أن باب زياد كان فى موضع شباكها أو إلى جانبه القبلى

وأما المدرسة الجوبانية فابتناها جوبان أتابك العساكر المُغلية فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة ، وجعل له فيها تربة ملاصقة لجدار المسجد بين دار الشباك والحصن العتيق ، وهى ـ أعنى التربة ـ من جملة رحبة القضاء ، واتخذ فيها شباكاً فى جدار المسجد ، وهو مسدود اليوم ، ولم يدفن فيها بعد أن حمل إليها فى تابوت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة من بغداد بأمر السلطان أبى سعيد فدخلوا به مكة وطافوا به حول البيت كما فُعل بالجواد الأصفهانى ، وذلك صحبة الحاج العراقى ، فلما وصلوا به المدينة مَنَعهم أميرُها من ذلك حتى يشاور السلطان الناصر ، كذا قاله بعضهم ، وقال الصلاح الصفدى : لما بلغ الملك الناصر أمر تجهيزه ليدفن فى المدينة جهز الهجن إلى المدينة ، وأمرهم أن لا يمكن من الدفن فى تربته ، فدفن فى البقيع .

وذكر لى بعضُ الناس أن علة المنع من دفنه بتربته أنه إذا وضع فيها للقبلة كانت رِجلاه إلى الجهة الشريفة ؛ لأن تربته فى غربى المسجد ، بخلاف الجواد وغيره ممن دفن فى شرقى المسجد ، فإن رؤسهم إلى جهة الأرجل الشريفة ، والله أعلم .

وأما الحصن العتيق فإنه كان منزلا لأمراء المدينة ، ثم انتقل إلى السلطان غياث الدين سلطان بنجالة أبى المظفر أعظم ابن السلطان اسكندر، وابتناه مدرسة

فى سنة أربعة عشرة وثمانمائة ، وتوفى فى تلك السنة ، ويقال : إن غيره سبقه إلى جَعْله رِباطاً قبل ذلك .

ثم اقتضى رأىُ متولى العمارة بعد الحريق الحادث فى زماننا استبدال دار الشباك المذكورة وما يليها من الجوبانية وجميع الحصن العتيق عند هدم ما يلى ذلك من جدار المسجد الغربى ، وعمل ذلك مدرسة ورباطاً للسلطان الأشرف فيما بين باب السلام وباب الرحمة كما سبق فى الفصل التاسع والعشرين .

واعلم أن المطرى زاد هنا بابا بدل الباب الذى أسقطه قبل باب عاتكة فقال : إنه كان بين باب عاتكة وخَوخَة أبى بكر الآتية بابان سُدَّا عند تجديد الحائط ، وتبعه على ذلك مَنْ بعده ، والذى اقتضاه كلام ابن زبالة ويحيى وابن النجار أنه ليس بين باب عاتكة وبين الخوخة سوى باب زياد ، ولهذا لما أسقط ابن النجار ذكر الخوخة من الأبواب وجعل أبواب هذه الجهة سبعة قال : الخامس باب عاتكة ، السادس باب زياد ، السابع باب مروان ، انتهى . وبه يُعلم أن الصواب ماقدمناه ، والله أعلم .

خوخة تجاه خوخة أبى بكر

التاسع عشر : الخَوخَة المجعولة تُجاه خَوْخة أبى بكر رضى الله عنه لما زيد فى المسجد ، وهو معنى ما تقدم عن ابن زبالة حيث قال فى عدد الأبواب : ومما يلى المغرب ثمانية أبواب ، ومنها الخوخة التى تقابل يعنى خوخة أبى بكر .

قلت : وكانت شارعة فى رَحْبة دار القضاء كما قدمناه من كلام ابن زبالة وقدمنا أيضا فى زيادة عمر رضى الله عنه عن أبى غسان قال : أخبرنى محمد بن إسماعيل بن أبى فديك أن عمه أخبره أن الخوخة الشارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد خوخة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أى المجعولة فى محاذاة خوخته .

قال ابن زبالة فى ذكر الكتابة على أبواب المسجد: وليس على الخوخة لا من داخل المسجد ولا من خارجه كتابة ، وقد قدمنا أن لهذه الخوخة اليوم بابا مما يلى المسجد ، وأنه باب حاصل يعرف بحاصل النورة ، وهى معروفة بخوخة أبى بكر ،

و يؤخذ مما تقدم أن ذلك الحاصل من دار القضاء ، و بابه اليوم هى الفتحة الثالثة من الفتحات التى على يسار الداخل من باب السلام ، جُعل بابا فى موضع الخَوْخَة يدخل منه للمسجد ، وبعده شباك ، ثم باب يدخل منه المدرسة الأشرفية .

باب مروان

العشرون : باب مروان ، سمى بذلك لملاصقته لداره التى كانت فى قبلة المسجد مما يلى الباب المذكور ، و بعضها ينعطف على المسجد من جهة المغرب ، وفى موضعها اليوم الميضأة التى أنشأها المنصور قلاوون الصالحى عام ست وثمانين وستمائة ، و يعرف الباب المذكور أيضا بباب السلام ، وباب الخشوع ، قاله المطرى . وفى رحلة ابن جبير أنه يعرف بباب الخشية ، اه . والزوار غالبا إنمـا يدخلون منه ؛ لكونه أقصد إلى طريقهم من باب المدينة ، فلا يخفى مناسـبة تسميته بذلك كله

قال المطرى : ولم يكن فى القبلة حتى إلى اليوم باب إلا خَوْخَة آل عمر ، أو خوخة لمروان عند داره فى ركن المسجد الغربى ، شاهدناها عند بناء المنـارة الـكبيرة المستجدّة ، كان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت بحائط المنارة الغربى

قال الزين المراغى : وينبغى الاعتراض على من أطلق أن مروان كان يدخل منها للمسجد ؛ لأن مروان قتلته زوجته أم خالد بن يزيد آمنة بنت علقمة ، ويقال :فاختة بنت هاشم ، وقيل : مات مطعونا ، وقيل : مسموما ، فى نصف رمضان سنة خمس وستين

وكانت مدة خلافته تسعة أشهر ، وذلك قبل أن يزيد ولد ولده الوليد بن عبد الملك بن مروان فى المسجد بنحو من ثلاثين سنة ، ولا شك أنها خَوْخَة آل مروان ؛ فالصواب أنه كان يدخل من مثلها ، لا منها ، وكأن هذا الباب هو المراد بقول ابن زبالة : وباب فى قبلة المسجد يخرج منه السلطان إلى المقصورة

قلت : أما ما ذكره المطرى من أنه لم يكن فى قبلة المسجد باب — يعنى فيا مضى إلى زمنه — إلا خوخة آل عمر؛فردود بما قدمناه عن ابن زبالة ؛ فإنه فصل الأبواب الزائدة على العشرين فجعل منها الباب الذى كان فى القبلة يدخل منه الأمراء من ناحية دار مروان ، ثم ذكر البابين اللذين عن يمين القبلة وعن يسارها يدخل منهما إلى المقصورة ، والباب الذى عن يمين القبلة هو هذا الذى أدركه المطرى ؛ فلا يصح ما ذكره الزين المراغى من حمل كلام ابن زبالة فى الباب الذى ذكره فى القبلة عليه ؛ لأنه قد غاير بينهما ، وأما استدراك المراغى على القول بأن مروان كان يدخل من الباب الذى ذكره المطرى فصحيح ، وقد تقدم عن ابن زبالة أنه يسمى باب بيت زيت القناديل . والذى يظهر كما قال المراغى أنه جعل فى مقابلة باب اتخذه مروان هناك أيضا ؛ لأن ابن زبالة روى أن مروان لما بنى داره جعل لها خَوْخَةً فى القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، أى لكونها فى القبلة ، فجعل لها بابا على يمينك حين تدخل : أى وهو الباب المتقدم وصفه ، ثم قال : أخشى أن أمنع المسجد ،فجعل الباب الثالث الذى يلى باب المسجد، يعنى الملاصق لباب السلام من خارجه ، وفى موضعه اليوم السقاية المقابلة لباب مدرسة الحصن العتيق ، وهذا سبب المناسبة فى تسمية رحبة القضاء برحبة دار مروان ؛ لمقابلتها لبابه هذا .

وروى ابن زبالة عن إسحاق بن مسلم أن عمر بن عبد العزيز لما بنى المسجد أراد أن يجعل فى الأبواب حلقا ، ويجعلها فى الدروب ؛ لئلا يدخلها الدواب ، فعمل الحلقة التى فى باب المسجد مما يلى دار مروان ، ثم بدا له فتركها .

قلت : المراد بذلك السلسلة الحديد المجعولة بجنبتى عقد باب السلام تمنع الدواب من الدخول . وفى باب الرحمة اليوم آثار سلسلة كانت هناك ، وسلسلة باب السلام ترفع فى أيام الموسم ؛ لأنه اتفق فى سنة أربع وخمسين وثمانمائة ازدحام الناس عندها فهلك جماعة ، وكان أمام باب السلام من داخله درابزين شبيه

بالدرابزين الذى كان من داخل باب جبريل ، وكان الناس لا ينزعون نعالهم إلا عنده ، وكذلك كان مثله أمام باب الرحمة من داخله أيضا ؛ فجعل الأمير بردبك المعمار أيام عمارته للظاهر جَقْمق هذه الأحجار المصفوفة إفريزا عند طرف عقد باب السلام مما يلى باب الحصن العتيق ، وجعل ما أمام الباب مما يحاذى العقد المذكور رحبة بالمسجد،وصار الناس ينزعون النعال عندها، وعمل عند عقد باب الرحمة مثل ذلك ، ورفع ذلك الدرابزين ، وكان ما بين الدرابزين و باب الرحمة منخفضا عن أرض المسجد فسواه بأرض المسجد كما هو اليوم ، فاحتاج إلى رفع عتبته ، فزاد العتبة المتخذة فوق العتبة الأصلية ، وقصر شيئا من أسفل الباب ، وذلك ظاهر فيه اليوم ، وحصل بذلك صيانة للمسجد ، واتخذ أيضا الرحبة التى أمام باب النساء ، ورفع الدرابزين الذى كان من داخله ، واتخذ لباب جبريل الرحبة التى أمامه ، ولم يرفع الدرابزين ؛ لأن الناس لم يكونوا يَمْشُون بنعالهم إليه ، ثم أزيل درابزينه أيضا عند عمارته بعد الحريق الثانى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثالث والثلاثون

في خَوْخَة آل عمر رضى الله تعالى عنه المتقدم ذكرها ، وما يتعين من سَدِّها فى زماننا .

تحديد موضع خوخة آل عمر

اُعـلم أنها اليوم هى التى يُتَوَصَّل إليها من الطابق الذى بالرواق الثانى من أروقة القبلة ، وهو الرواق الذى يقف الناس اليوم فيه للزيارة أمام الوجه الشريف بالقرب من الطابق المذكور . والذى يتخلَّص مما قدمناه فى زيادة عثمان رضى الله عنه والوليدِ والمهدىِّ أن الأصـل فى ذلك أنه لما احتيج لدار حَفْصَة ـ يعنى حجرتها ـ قالت : كيف بطريقى إلى المسجد،فقيل لها : نعطيك أوسَعَ من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطيت دار عبيد الله بن عمر ، أى التى صارت إليه بعد حَفْصَة ، وكانت مِرْبَدًا ، هذا ما رواه ابن زبالة .

وقد قدمنا فى زيادة الوليد من رواية ابن زبالة أن عمر بن عبد العزيز بعث إلى رجال من آل عمر ، وأخبرهم أن أمير المؤمنين كتب إليه أن يبتاع بيت حَفْصَة ، وكان عن يمين الخَوْخَة أى من داخل المسجد ، فقالوا : ما نبيعه بشئ ، قال : إذاً أدخله فى المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإنا لا نقطعها ، فهدم البيت ، وأعطاهم الطريق ووَسَّعها لهم

وقدمنا أيضا ما رواه يحيى عن مالك بن أنس من أن الحَجَّاج الثَّقَفِى هو الذى ساوم عبيد الله بن عبد الله بن عمر فى هذا البيت وهدمه . وفى رواية ليحيى أن عمر بن عبد العزيز لمـا وصل فى العمارة إلى دار حفصة قال له عبيد الله : لست أبيع هذا هو حق حفصة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يسكنها ، فقال عمر : ما أنا بتاركـكم أو أدخلها المسجد ، فلما كثر الـكلام بينهما قال لهم عمر : أجعل لـكم فى المسجد بابا تدخلون منه ، وأعطيكم دار الرقيق ، وما بقى من الدار فهو لـكم ، ففعلوا

وقال المطرى : إن الوليد لمـا حج وطاف فى المسجد رأى هذا الباب فى القبلة فقال لعمر : ما هذا الباب ؟ فذكر له ما جرى بينه و بين آل عمر فى بيت حفصة ، وكان جرى بينه وبينهم فيه كلام كثير ، وجرى الصلح على ذلك ، فقال له الوليد : أراك قد صانعْتَ أخوالَكَ .

وقد قدمنا من رواية ابن زبالة الإشارة إلى هذا ، وقدمنا من روايته أيضا عن عبد العزيز بن محمد أنه كان يسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أماتنى الله حتى أرانى سدها .

وتقدم أن تلك الخَوْخَة لم تزل طريق آل عمر إلى دارهم حتى عمل المهدى المقصورة على الرواق القبلى .

قال المطرى : فمنعوهم الدخول من بابهم ، فجرى فى ذلك أيضا كلام كثير تقدمت الإشارة إليه ، اصطلحوا على سدِّ الخَوْخَة من أعلاها فى جدار المسجد ،

وأن يخفضوها فى الأرض ويجعلوا على أعلاها فى موضع الباب الأول شباك حديد فى القبلة ، وحفروها كالسرب ، فتخرج خارج المقصورة فى الرواق الثانى من أروقة القبلة ، ولها ثلاث دَرَجَات عند بابها فى جَوْف السرب بالمسجد ، وهو الطابق الموجود اليوم ، وعليه قفل من حديد ، ولا يفتح إلا أيام قدوم الحاج للزيارة ، قال المطرى : وهى طريق آل عمر إلى دارهم التى تسمى اليوم دار العَشَرة ، وإنما هى دار آل عبد الله بن عمر ، انتهى .

قلت : وعلى هذا السرب من خارج المسجد باب فى جدار المسجد أيضا ، وأمامه دهليز يتوصل منه إلى شارع فيه دور كثيرة سنشير إلى بعضها فى ذكر الدور المُطِيفة بالمسجد .

اتخاذ بعض الناس بابا وسيلة للتدجيل

وقد اختلقوا لتلك الدور أسماء ، حتى قالوا فى بعضها : هو بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعضها نسبوه إلى فاطمة ابنته رضى الله تعالى عنها . ويتخذ بعض أهل تلك الدور على ما بلغنى كُحْلاً فى نقرة من الجدار ويقولون للحجاج : هذه مكحلة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها ، ويشيرون أيضا إلى رَحاً عندهم فيقولون : هذه رحا فاطمة الزهراء ، أخبرنى بذلك من لَبَّسُوا عليه الأمر وأخبروه بهذه الأكاذيب حتى أعطاهم شيئاً . ويجلس عند ذلك الطابق بالمسجد شخص ليس هو اليوم من ذرية آل عمر ؛ لأن مَنْ كان بيدهم مفتاح هذا الطابق من آل عمر قد انقرضوا ، وبقيت منهم زوجة هذا الشخص الذى يجلس عند هذا الطابق ، ثم توفيت وتركت أولادا منه ، فاستمر المفتاح بيده ، فيستنيب مَنْ يجلس عند هذا الطابق ويفتحه أيام الموسم ، ويقف عنده جماعة يُزَوِّرون الحجاج ويأخذون من الداخلين منه شيئا شبيها بالمَكْس ؛ فإن الجالس عنده لا يمكن أحدا من الدخول منه إلا ببذل شىء يرضيه ، وما حال الحاج الغريب إذا رأى مثل هذا الباب بدرج تحت الأرض فى المسجد وقيل له : إنه يصل إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم وبيت ابنته ؟ .

وقد اشتهر ذلك عند أهل المدينة حتى إن أحداً منهم لاينكره ، فيود الغريب المسكينُ لو بذل روحه فى الوصول لذلك ، وربما لم يكن معه شىء ، فيتجشم المشقة فى الوصول لذلك ، فقد أخبرنى صاحبُنا الشيخُ المبارك أبو الجود بركات الجيمانى أنه قدم المدينة قديماً قبل أن يجاور بها ، قال : فلم أملك نفسى أن دخلت فى هذا الطابق فطبقه الجالس عنده على ظهرى حتى كاد يقصمه لأنه لم يُعْطِه شيئاً . وأخبرنى هو وغيره ممن أثق به أنه يقع فى أسفله من الازدحام واختلاط النساء بالرجال مالا يوصف مع ضيقه ، حتى إن الماشى فيه يحتاج إلى الانحناء .

وأخبرنى بعضهم أنه رأى فيه منكراً شنيعاً ، وهو أن بعض الأحداث يمشى خلف النساء مع الازدحام ، وكون المشى على تلك الهيئة ؛ فيقع ما لايرضى الله ولا رسوله بين يديه صلى الله عليه وسلم . وكيف يتمادى الناس على إقرار ذلك الآن ؟ وهو ليس إلا لمجرد ما ذكرناه ، فإنه كان بابا لدار ، ولأن مَنْ هو بيده لا يملك شيئاً من تلك الدور ، ولو كان مالكها فليس وضعه لسوى دخول أهل تلك الدور منه ، فإنه لم يجعل إلا ليدخل منه آل عمر إلى المسجد ، لا لأن يأخذوا فلوساً على من يخرج من المسجد ماراً منه ، فقد كانوا منزهين عن ذلك . ثم لوسلمنا أن تلك الدور مستحقة للزيارة فزيارتها متيسرة من خارج المسجد ، وكيف يتخذ المسجد طريقاً ، ويخص منه ما يكون بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة المنكرة لأجل شىء خسيس من الدنيا ؟ ونحن نفديه صلى الله عليه وسلم بأنفسنا فضلا عن أموالنا ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب التى كانت شارعة فى المسجد إلا خَوْخَة أبى بكر وإلا باب علىّ كما قدمناه ، مع أن أهل تلك الأبواب إنما كان قصدهم بها التوصل إلى المسجد ، فكيف يبقى باب بين يديه صلى الله عليه وسلم لانفع له إلا أخذ شىء من الحطام على المرور منه ؟ هذا مالا يرضاه مؤمن يرَى تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

ثم إن هذا الطابق له قفل ، وما حوله من الخشب فيه نوع نتوء ، فقد رأيت مَنْ لا أحصيه من الخلق يتعثرون به ، وربما سقط بعضهم لوجهه ، ثم إنه إذا كثر الدوس عليه فى ليالى الزيارات كليلة النصف من شعبان ونحوها يرتجّ تحت الأرجل حتى تزلزل الأرض زلزالها ، وذلك يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا أن عائشة رضى الله عنها كانت تسمع الوتد يوتد والمسمار يضرب فى بعض الدور المطيفة بالمسجد فترسل إليهم لاتُؤذُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : وما عمل علىٌّ مِصْرَاعَيْ داره إلا بالمناصع ـ وهو متبرَّزُ النساء ليلا خارج سور المدينة ـ توقّيا لذلك .

وروى يحيى فى كتابه عن محمد بن يحيى بن زيد النوفلى عن أبيه عن الثقة عنده أن عائشة رضى الله عنها ذكرت أن بعض نساء النبى صلى الله عليه وسلم دَعَتْ نجاراً فعلّق ضَبَّة لها ، وأن النجار ضرب المسمار فى الضبة ضربا شديداً ، وأن عائشة رضى الله عنها صاحت بالنجار وكلمته كلاما شديداً وقالت : ألم تعلم أن حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حياً ؟ فقالت الأخرى : وماذا سمع من هذا ؟ قالت : إنه ليؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت هذا الضرب اليومَ مايؤذيه لو كان حياً .

حج السلطان قايتباى

ولم أزل منذ قدمت المدينة أنكر هذا الأمر بالقلب واللسان وكتابة البنان ، ولكن لم أجد على ذلك مُعينا ؛ لرسوخ الطباع العامية فى التمسك بالعوائد الماضية من غير روية ، وقد نبهت على إنكار ذلك فى كتابى « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » صلى الله عليه وسلم ، ثم شافهت فى أمره مولانا الهمام ، سلطان ممالك الإسلام ، ذا الشجاعة التى شاعت عجائبها ، والشهامة التى ذاعت غرائبها ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ووجهة القاصدين والآملين ، السلطان الملك الأشرف قايتباى ، جعل الله الممالك منظومة فى سلك ملكه ، وأقطار الأرض جارية فى حَوْزه ومِلْكه ؛ فإنه لما حج سنة أربع وثمانين وثمانمائة بدأ بالمدينة النبوية لزيارة

التربة المصطفوية على الحال بها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ، فقدمها طلوعَ الفجر من يوم الجمعة الميمون الثانى والعشرين من ذى القعـدة الحرام ، فلبِسَ لدخولها حلل التواضع والخشوع ، وتحلى بما يجب لتلك الحضرة النبوية من الهيبة والخضوع ، فترجَّلَ عن جواده عند باب سورها ، ومشى على أقدامه بين رباعها ودورها ، حتى وقف بين يدى الجناب الرفيع ، الحبيب الشفيع ، صلى الله عليه وسلم ، وناجاه بالتسليم ، وفاز من ذلك بالحظ الجسيم ، ثم ثنى بضَجِيعَيْه رضى الله تعالى عنهما بعـد أن صلى بالروضة الشريفة التحية ، وعَفَّر وجهه فى ساحتها السنية ، وعرض عليه الدخولُ إلى المقصورة المستديرة حول جدار القبور الشريفة ، المعروفة اليوم بالحجرة المنيفة ، فتعاظم ذلك ، وقال : لو أمكننى أن أقف فى أبعد من هذا الموقف وقفت ، فالجناب عظيم ، ومَنْ ذا الذى يقوم بما يجب له من التعظيم ؟ ثم صلى صبح الجمعة فى الصف الأول بين فقراء الروضة عند أسطوان المهاجرين بالقرب من مصلاى ، كان بينى وبينه إمامه شيخ الشيوخ الإمام العلامة نادرة الزمان وعين الأعيان برهان الدين الكركى ، فسح الله فى أجله ، وأدام النفع به ، ولم يكن بينى وبينه سابق معرفة ، حتى إنى لم أبدأه بسـلام ولا كلام ، وكذلك السلطان أعزه الله أنصاره وضاعف اقتداره ، لم أتعرف إليه ، ولم يكن ذلك فى خَلَدى ولا عزمت عليه ، ثم توجه السلطان بجماعته لزيارة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب ومَنْ يليه من شهداء أحد رضوان الله عليهـم ، فمشى مترجِّلا كعادته ، حتى خرج من باب المدينة ، ولم يزل ذلك دأبه ، فلم يركب بالمدينة جوَادا حتى خرج منها ، فلما كان وقت صلاة الجمعة حضر فى ذلك المصلى فكان بينى وبينه إمامه المشار إليه أيضا ، ثم قرأ شخص على شيخ المحدثين العلامة شمس الدين ابن شيخنا أبى الفرج العثمانى مجلس خَـتْم البخارى ، وكأن الإمام المشار إليـه تَفَرَّسَ فىَّ الاتصاف بطلب العلم ، ففاتحنى الكلام فى بعض المسائل العلمية المتعلقة بذلك ، فجاريته فيهـا ، فرأيت كمالَه واضح البرهان ،

وفضله ظاهر العنوان ، مع كمال الإنصاف فى البحث ، فانتسجت المودة حينئذ ، ثم قام الإمام المشار إليه، واستمر السلطان جالساً، ثم بدأنا بالملاطفة، وشرفنا بالمحادثة ، وخاض فى شىء من العلم ، فرأيت من تواضعه وحلمه وثقوب فهمه مافاق الوصف ، فأنشدته قول بعضهم :

كانت مُسَاءلة الركبان تخبرنى   عن أحمد بن سعيد أطيبَ الخبر
ثم التقينا ، فلا والله ما سمعت   أذْنى بأحْسَنَ مما قد رأى بصرى

وأنهيت إليه أمر الطابق المذكور ، وقلت فى نفسى : لعل الله تعالى أرسل هذا السلطان المسعود وجمعنى به من غير قصد ليفوز بتنزيه الحضرة الشريفة من ذلك ، ويكون ذلك فى صحائفه ، وقد قدمنا ما حاوله الملوكُ المَاضُونَ من سدّه مع أن المفاسد التى قدمناها لم تكن موجودة فى زمنهم ، وإنما تركوه كما قدمناه لمانع ، ولا مانع من سده اليوم بحمد الله تعالى ، فوعد بذلك . ثم وقع الاجتماع بالإمام المشار إليه فكلمته فى ذلك ، وقلت له : بلغنى أن مَنْ بيده مفتاح الطابق المذكور يجتمع له فى كل سنة نحو عشرة دنانير من هذا الطابق ، ولى معلوم فى جهةٍ هذا قدرُه فى كل سنة ، فأنا أنزل عنه لمن بيده ذلك المفتاح تطييباً لخاطره ، فذكر ذلك للسلطان ، فقال : نحن نرضيه من عندنا ، ثم إنه نصره الله تعالى حضر لصلاة المغرب ، فتفضل بالبداءة بالكلام ، ولم يكن إمامه حاضراً ، ولكنه سبق منه التربية التامة عنده ، فسألنى عن الآية المنقوشة فى المصلى الشريف ، وهى قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك فى السماء ـ الآية) هل نزلت قبل المعراج وفرض الصلاة أم بعد ذلك ؟ وكيف كان الاستقبال قبل نزولها ؟ فشرعتُ فى الجواب ، فأقيمت الصلاة فى أثناء ذلك، فلما قضى صلاته تنفل بست ركعات ، ثم أقبل علىّ طالبا للجواب ، فذكرت له تاريخ نزولها بالمدينة ، وما فيه من الخلاف ، وأن فرض الصلاة ليلة فى المعراج كان بمكة ، وما ذكروه فى أمر

استقبال بيت المقدس ، وما حكى من الخلاف فى تعدد نَسخ القبلة ، وصلاته صلى الله عليه وسلم بمكة بين الركنين اليمانيين جاعلاً الكعبة بينه و بين بيت المقدس ، إلى غير ذلك من الفوائد التى قدمناها فى محلها من كتابنا هذا ، واستمريت معه كذلك حتى صلينا العشاء الآخرة ، فحصل منه فى ذلك المجلس من الإكرام ما أرجو له به كمال المجازاة من صاحب الحضرة الحبيب الشفيع صلوات الله وسلامه عليه .

وفرق بالمدينة الشريفة مالا جزيلاً ستة آلاف دينار أو أكثر ، ودفع إلىّ على يد إمامه المشار إليه من ذلك جزأ وافرا ، وتكلمت معه فى رَفْع مُكوس المدينة وتعويض أميرها عن ذلك شيئاً ، فأفهم الوعد به ، وسألنى عن أمر دار العباسا التى اشتريت له ، وكانت سبباً فى قتل القضائى الزكوى تغمده الله تعالى برحمته لعدم السياسة فى أخذها ، فأخبرته بحقيقة الحال ، فقال : لم لم تكتب إلىّ بهذا ؟ فاعتذرت له بعذر قَبِله ، وتبرأ من جميع ما فعلوا فيها ، ووعد بما يكون فيه صلاح أمرها، ثم وفى بذلك بعدعوده ، فزادهم مبلغاً كثيراً رَضُوا به، وتفضل بالتشريف بطلب الكتابة إليه بما يكون فيه صلاح أحوال المدينة والتنبيه على من يَرِدُها من المحتاجين .

ثم توجه فى الرابع والعشرين من الشهر المذكور مصحوباً بالسلامة إلى مكة المشرفة ماشياً على أقدامه بين فقراء المدينة وفقهائها حتى خرج من باب المدينة ، فوقف هناك ، وقرأنا له الفاتحة ، ثم ركب جواده ، أدام الله تأييده وحرسه من الردى ، وأنار له طرق الحق والهدى .

ثم قدمتُ مكة صحبة الحاج الشامى فوجدته قد سلك بها مسلك التواضع أيضاً ، وتصدق فيها بمال جزيل أكثر مما تصدق بالمدينة الشريفة .

ولما اجتمعت بإمامه المشار إليه بمكة المشرفة تذاكرْنا الصدقة الشريفة

بالمدينة الشريفة وعمومها ، وما حصل بها من النفع ، فذكرتُ له أن أربعة من فقراء المغاربة لم يأخذوا شيئاً لملازمتهم لرباطهم ، وعدم إتيانهم لمن كان يفرق ، وأن شخصاً آخر مستحقاً كنت أود لو حصل له أكثر مما دفع له ، فبلغ ذلك السلطان ، فلما كان فى أوسط أيام منًى توجهت لوَدَاع الإمام المشار إليه ، فأشار بمُوادعة السلطان ، فقلت له : أخشى أن يتوهم أن المجىء لقصد آخر ، فقال : لابد من موادعته ، فتوجهنا إليه فحصل منه من الإكرام ما أطلب له الجزاء عليه من أكرم الأكرمين ، ثم قال : أنتم ذكرتم للامام كيت وكيت ، فلم ينس ماتقدم ذكره من أمر جماعة الفقراء ، فقلت له : نعم ، فأمر لهم بمائة دينار أقسمها عليهم لكل واحد عشرون ديناراً ، ثم قال : هل بقى أحد ؟ فقلت له : ما أستحضر أحداً ، ورأيت له اهتماماً تاماً بتعميم جيران الحضرة الشريفة ، ووادعنى قائماً وسأل عن أمر الطابق المذكور لما قدمنا مكة ، وأمر بأن لا يفتح ، وأن يسد بعد ذلك ، فلما بلغ ذلك شيخ الخدام بالمدينة الشريفة منع من فتحه عند قدوم الحاج المصرى فى هذا العام ، ولكن بقى سده ، فإن الطريق فى قطع الشر قلع أصوله ، وقد وعد بسده .

وقف السلطان قايتباى لأهل المدينة المنورة

ثم إن السلطان أيده الله تعالى رجع إلى مصر مصحوباً بتأييد الله ونصره ، فبلغنا أنه أبرز بعد وصوله ستين ألف دينار ليشترى بها أماكن تكون أوقافاً يُحْمَل ريعها إلى الحضرة الشريفة ، ويعمل بها سماط كسماط الخليل عليه السلام ، وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد من ملوك الإسلام ، والمسئول من الله تعالى أن ييسر له ذلك .

وقد ألحقنا فى الفصل التاسع والعشرين ما برزت به المراسيم الشريفة من إبطال المكوس ، وتعويض أمير المدينة الشريفة عنها ، وأنه وقف أماكن كثيرة يتحصل منها نحو سبعة آلاف وخمسمائة إردب من الحب كل سنة لعمل السماط

المذكور ، وليصرف من ذلك كفاية أرباب البيوت بالمدينة الشريفة ، ثم وصول البهائى أبى البقاء بن الجيعان عظم الله شأنه بجملة من ذلك والصرف والتقرير وعمل السماط على الوجه السابق ، والمرجو من الله تعالى دوام ذلك له ؛ فإن الله تعالى قد أجْرَى على يديه من الخيرات ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله : فمن ذلك ما تقدم من العمارة بالمسجد النبوى والحجرة الشريفة ، وإبطال هذا الطابق المتقدم وصفه ، ومن العجب أن مَنْ كان بيده هذا الطابق توجه إليه بمصر وسأل أن يمكّنَ من فتحه ، فلم يجبه لذلك ، وقرر له فى الذخيرة بضعة عشر ديناراً كل سنة عوضاً عما كان يحصل له منه ، ثم وردت المراسيم الشريفة بالإخبار بذلك ، والأمر بسده ، ولكن شَقَّ على بعض أهل الحظوظ النفسية تمام هذا الأمر والمتسبب فيه الفقير الحقير ، فتسبب فى تأخيره ، فمات شيخ الخدام إينال الإسحاقى ولم يسده ، فلما قدمتُ مصر عام سبع وثمانين وثمانمائة أنهيت للسلطان أن الطابق لم يسد ، وخشيتُ أن يغضب بسبب ذلك على بعض الناس ، فاعتذرت بأن موجب التأخير وفاة شيخ الحرم ، فبرزت مراسيمه الشريفة لشيخ الحرم ومتولى العمارة الشمس بن الزمن بسده بالبناء ، بحيث لا يفتح أبداً ، وكان المعاكس فى هذا الغرض قد أمال متولى العمارة إليه مع ما سبق فى الفصل الثامن والعشرين من إيغار صدره منى ، وكان هذا الطابق قد احترق وارتدم بعد أمر السلطان بسده فى حريق سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وأثرت النار فى قبوه تأثيراً عظيما ، فأعاده متولى العمارة وأحكمه ، وجعل له باباً ، فلما وردت عليه المراسيم الشريفة بما سبق على يدىَّ أجاب بأنه يراجع السلطان فى ذلك لأن تلك الدور صارت له .

ثم إن شيخ الحرم أنهى إلى السلطان ذلك ، فبرزت المراسيم الشريفة بسده واللوم على تأخيره مع تكرر الأمر بذلك ، فأمره متولى العمارة بتأخير ذلك ليراجع السلطان فيه ، وقال : إنه يجعل تلك الدور مَزَارات ليتم له ما أراده من بقاء ذلك

الطابق ، وتعجب الناس من إقدامه عليه ، ثم بلغ السلطان ذلك مع أمور يطول شرحها؛ فغضب غضباً شديداً و برز مرسومه بسده والوعيد التام على تأخيره ، فسده شيخ الحرم بالبناء المحكم من خارج المسجد ، ونزع باب طابقه ، وردمه بالأتربة حتى ساوى أرض المسجد ، ولم يبق له أثر ، وذلك فى رابع ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وسُرّ أهل الخير بذلك ، وتضاعفت أدعيتهم للسلطان نصره الله تعالى . وهذا من أعظم محاسنه .

من آثار قايتباى بالحرمين الشريفين

ومن ذلك إجراء عين خليص بعد انقطاعها مرة بعد أخرى ، وهى من أحسن مَنَاهل الحج وأعذبها ، وكذلك بركة الروحاء .

ومن ذلك عمارة مسجد الخيف بعد أن تهدّم بأجمعه ، وإنشاء المنارة والسبيل اللذين عند بابه ، وإجراء المعلوم لمن يؤذّن بتلك المنارة ولمن يؤم بالمسجد المذكور .

ومن ذلك إحداث الظل بمقدم مسجد نَمِرَة المنسوب لإبراهيم الخليل ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد كان الحجاج يقاسُونَ به شدة من حر الشمس فى ذلك اليوم ، فالله تعالى يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

ومن ذلك إجراء عين عَرَفة من بطن نَعْمان ، بعد أن دَثَرت وانمحت معالمها واندرست ، وعمارة بركها ومجاريها، حتى فاضت الأنهار بأقاصيها وأدانيها ، وأوصلها إلى مسجد نمرة ، وأنشأ به صهريجا يجتمع فيه الماء ، فأذهب بذلك عن الحج الأعظم الظمأ ، وقد كنت أرى الفقراء فى كل سنة فى ذلك اليوم لا يسألون غالبا إلا الماء ، وكان من أعز الأشياء هناك ، فلم يبق له طالب ، ولله الحمد ، سقاه الله بذلك من حوض الكوثر .

ومن ذلك المدرسة والرباط اللذان عمرهما بمكة المشرفة ، ولا نظير لهما فيها .

ومن ذلك حجه فى هذا العام ، فإن ذلك لم يقع لأحد من ملوك مصر من

نحو مائة وخمسين سنة ، وكان آخر من حج منهم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حج ثلاث حجات : أولاها سنة عشر وسبعمائة ، وثانيتها سنة عشرين ، وثالثتها سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة ، ولم يحج أحد بعد ذلك من سلاطين مصر ، وأرجو أن يفسح الله فى أجل سلطاننا هذا حتى يدرك ذلك ، ويتم له ما نواه من الخير بالحضرة النبوية .

وقد أنشأ بثغر إسكندرية برجا عظيما لم يسبق إليه ، وشحَنه بالأسلحة والجند .

ولما توجهت إلى زيادة بيت المقدس رأيت له فيه وفيما بين مصر وبينه من الآثار العظيمة ما لم أره من غيره من الملوك من المدارس والمساجد والقناطر ، وهذا المحل لا يحتمل بسط ذلك ، وإنما ذكرنا من آثاره الجيلة ما يتعلق بالحجاز لأنه محل الغرض .

وهو ملك مطاع ، محظوظ ، صبور ، غير عجل ، كثير الحياء والوقار والمهابة ، إذا حاول أمرا لا يسرع فيه ، بل يتأنى كثيرا ، ويعظم أهل العلم ويجلهم .

وإنما أمتعنا بذكر ذلك هنا ليكون سببا فى حث الواقف على ذلك على الدعاء لهذا الملك السعيد بإنجاح المطالب ، ونيل المآرب ، ولتنبعث همة مَنْ جاء بعده من الملوك على أن يقتدى به فى الخير فيصنع مثل ما صنعه ، ونسأل الله تعالى أن يُفْسِح فى أجله ، فقلّ أن يأتى بعده مثله .

الفصل الرابع والثلاثون

فيما كان مُطِيفاً بالمسجد الشريف من الدور ، وما كان من خبرها ، وجُلّ ذلك من منازل المهاجرين رضى الله تعالى عنهم .

روى ابن سعد فى طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطّ الدور بالمدينة ، فخط لبنى زُهْرَة فى ناحية مؤخر المسجد ، فكان لعبد الرحمن بن عوف الحش ، والحش : نخل صغار لا يسقى. رسول الله يخط دور المدينة

وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الدور ؛ فخط لبنى زهرة فى ناحية مؤخر المسجد ؛ فجعل لعبد الله وعتبة ابنى مسعود هذه الخطة عند المسجد .

وقال ياقوت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة أَقْطَعَ النَّاسَ الدور والرِّبَاعَ ؛ فخط لبنى زهرة فى ناحية من مؤخر المسجد ، وكان لعبد الرحمن بن عوف الحش المعروف به ، وجعل لعبد الله وعتبة ابنى مسعود الهُذَلِيَّيْنِ الخطة المشهورة بهم عند المسجد ، وأقطع الزبير بن العوام بَقيعاً واسعا ، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره ، ولأبى بكر الصديق موضع داره عند المسجد ، وأقطع كل واحد من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمِقداد وغيرهم مواضع درهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقْطِع أصحابه هـذه القطائع ، فما كان فى عفاء الأرض فإنه أقطعهم إياه ، وما كان من الخطط المسكونة العامرة فإن الأنصار وهَبوه له فكان يقطع من ذلك ما شاء ، وكان أول من وهب له خططه ومنازله حارثه بن النعمان وَهَب له ذلك وأقطعه صلى الله عليه وسلم ، انتهى.

دار آل عمر بن الخطاب

فأولُ الدور الشوارِعِ حول المسجد من القبلة دارُ عبد الله بن عمر بن الخطاب التى فيها الخَوْخَة المتقدم وصفها ، وليست الدار المذكورة اليوم بيد أحد من آل عمر كما قدمناه ، وقدمنا أن موضع هذه الدار كان مِرْبَدًا أعطيته حَفْصَة رضى الله تعالى عنها بدل حجرتها لما احتيج إلى إدخاها فى المسجد ، وفى رواية أن آل عمر أعطوا بدلها دار الرقيق وما بقى منها .

وقال ابن غسان ، فيما نقله ابن شبة : وأخبرنى مخبر أن تلك الدار ـ يعنى دار آل عمر ـ كانت مربدا يتوضأ فيه أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما توفى استخلصته حفصة رضى الله عنها بثلاثين ألف درهم ، فورثها عنها عبد الله بن عمر ؛ فهى التى قال فيها عبد الله فى كتاب صدقته : وتصدق عبد الله بداره التى عند المسجد التى ورث من حفصة .

بيت لأبى بكر الصديق صار لآل عمر

قال : وأخبرنى مخبر قال : كان بيت أبى بكر الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « سدوا عنى هذه الأبواب ـ الحديثَ » بيد عبد الله بن عمر ، وهو البيت الذى على يمينك إذا دخلتَ دار عبـد الله من الخوخة التى فى المسجد ، فتلقاك هناك خوخة فى جوف الخوخة التى هى الطريق مُبَوَّبة ، فتلك الخوخة خوخة أبى بكر .

قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبى بكر مع الدار التى فوق هذه ، أى التى فى قبلتها كما سنبينه ، قال : وتصدقت بتلك الدار على ولد عمر .

قلت : هذه الرواية الأخيرة ضعيفة كما قدمناه ؛ ولذلك لم يبين قائلها ، ولأنه فى دور بنى تَيْمٍ لما ذكر دار أبى بكر التى ورد فيها الحديث المذكور لم يذكر هذه الرواية ، بل اقتصر على الرواية المشهورة فى أنها فى غربى المسجد ؛ فإن الخوخة الواردة فيها الحديث هى الشارعة فى رحبة دار القضاء ، ولذلك لما زادوا فى المسجد أرادوا محاكاتها ، فجعلوها خوخة شارعة هناك ، ولم يجعلوها كبقية أبواب المسجد ، ولأنه جزَم فى دور أزواج النبى صلى الله عليـه وسـلم بأن عائشة رضى الله عنها اتخذت الدار التى يقال لها دار عائشة بين دار الرقيق و بين دار أسماء بنت أبى بكر فتصدقت بها .

قلت : فإن كانت دار الرقيق هى بيت حفصة فبيت عائشة إلى جنبه ، والمعروف عنـد الناس أن البيت الذى على يمين الخارج من خَوْخَة آل عمر المذكورة هو بيت عائشة رضى الله عنها ، فلعل الاشتباه فى نسبته إلى أبى بكر رضى الله عنه نشأ من ذلك ، مع أن الذى اقتضاه كلام المؤرخين أن البيت المذكور عن يمين الخَوْخَة هو بيت آل عمر ، وأن دار عائشة ليست فى هـذا المحل ، وهذه الدار المذكورة ـ أعنى التى على يمين الداخل من الخوخة ـ وقف ناظره شيخ الخدام ، و بلغنى أن واقفها اشترط أن لا يسكنها متزوج ، و بابها اليوم

شارع فى القبلة ، ولها شباك عن يمين الخوخة لعله كان فى موضع بابها الأول لما كانت الخوخة شارعة فى الدار المذكورة ، وأما البيت الذى عن يسار الخَوْخَة فوقفه أيضاً ناظره شيخ الخدام ، و بابه ليس شارعا عند الخوخة ، بل بعيد منها فى المغرب ، وهو آخر الدور الآتى ذكرها ، ومقتضى ما سيأتى عن ابن شبة وابن زبالة أن الدار المعروفة اليوم بدار عائشة والدارين اللتين إلى جانبها الغربى فى قبلة المسجد من جملة دار آل عمر ؛ لأنهما قالا : فى الدور الشوارع من القبلة دار عبد الله بن عمر ، ثم دار مروان الآتى ذكرها ، وأما الدار الثانية التى تقدمت الإشارة إليها فى كلام أبى غسان من دور حفصة فوق هذه فقد ذكرها بقوله : وكانت لحفصة الدار التى بين زُقَاق عبد العزيز بن مروان الذى أدخل فى دار مروان دار الإمارة و بين زقاق عاصم بن عمر بابها شارع قبالة دير أطم بنى النجار الذى يدعى فويرعا ، فتصدقت بها على ولد عمر ؛ فهى بأيديهم صدقة منها .

قلت : وهذا الوصف منطبق اليوم على دار قاضى الشافعية أبى الفتح بن صالح وما لاصقها من جهة الشام ؛ لأن زقاق عاصم هو الزقاق الشارع بابُ هذه الدار فيه الآخذ منها إلى جهة القبلة والميضأة ، ولأن فويرعا كان فيما بينها و بين المدرسة الشهابية كما سيأتى بيانه ، وعلى هذا فزقاق عاصم هو الذى فى شاميها ، دخَلَ بعضُه فيما حاذى دار مروان ، وبقى منه ما يفرق بين دار آل عمر هذه والدار التى لها الخوخة ، والله أعلم .

دار مروان ابن الحكم

ثم يلى دار عبد الله بن عمر ذات الخوخة فى قبلة المسجد من غربيها دار مروان بن الحكم ، قال ابن زبالة : وكان بعضها للنحام ـ يعنى نعيم بن عبد الله من بنى عدى ـ و بعضها من دار العباس بن عبد المطلب ، فابتاعها مروان فبناها وجعل فيها دارا لابنه عبد العزيز بن مروان ، ثم ذكر خبر أبوابها المتقدم ذكره فى أبواب المسجد .

وروى ابن زبالة فى ذيل زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المسجد ، عن غير واحد منهم محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه كانت فيها نَخَـلات ، فابتاع مروان من آل النحام كل نخلة وموضعها بألف درهم ، وكن ثمانيا أو اثنتى عشرة ، فرأى الناس أن مروان قد أغلى ، فلما وجب له البيع عَقَرَهن و بناها دارا فغبطه الناس .

ونقل ابن شبة عن بعضهم أن دار مروان بن الحـكم التى ينزلهـا الوُلاة إلى جنب المسجد ـ يعنى الدار المذكورة ـ كانت مربدا لدار العباس التى دخلت فى المسجد ، فابتاعها مروان،فسمعت من يقول : كانت القبة التى كانت فى دار مروان وحُجَرتها التى تلى المسجد عن يسار مَنْ دخل الدار للنحام أخى بنى عدى بن كعب ، وكانت فيها نخلات ، فابتاعها مروان من النحام بثلاثمائة ألف درهم ، وأدخلها فى داره ، فذلك الموضع ليس من المربد الذى ابتاع من العباس

وذكر ابن شبة فى موضع آخر أن دار مروان صارت فى الصَّوَافى ، أى لبيت المال .

قلت : وفى موضعها اليوم كما قدمناه الميضأة التى فى قـبلة المسجد عند باب السلام ، وما فى شرقيها إلى دور آل عمر ، قال ابن زبالة وابن شبة : وإلى جنبها ـ يعنى دار مروان ـ فى المغرب دارُ يزيد بن عبد الملك التى صارت لزبيدة ، وكان فى موضعها دار لآل أبى سفيان بن حرب ، كانت أشرف دار بالمدينة بناء وأذهبه فى السماء . ودار كانت لآل أبى أمية بن المغيرة ، فابتاعها يزيد ، وأدخلها فى داره ، وهدمها ، وكان بعض أهـل المدينة وفَدَ على يزيد بن عبد الملك وقد فرغوا من بناء داره ، فسأله عنها ، فقال : ما أعرف لك أصلحك الله بالمدينة دارا ، فلما رأى ما فى وجهه قال : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست بدار ، ولـكنها مدينة ، فأعجب ذلك يزيد .

قلت : وفى موضع هذه الدار اليوم ما يقابل الميضأة فى المغرب من دار الأشراف العباسا والدار الملاصقة لها فى المغرب المشتراتَيْنِ للسلطان ، وقد أضافوا إليهما ما فى قبلتهما من الدور .

دار رباح ودار المقداد

وقد ذكر ابن شبة أن رباحا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ دارا على زاوية دار يزيد بن عبد الملك الغربية اليمانية ، وأن المِقْداد بن الأسود حليفَ بنى زهرة اتخذ دارا بين بيت رباح مولى رسول الله صل الله عليه وسلم و بين زقاق عاصم ، فتكون هذه الدار على زاوية دار يزيد الشرقية اليمانية ، فهما من جملة ما اشترى للسلطان اليوم . و بين الميضأة و بين هذه الدور زقاق لعله متصل بزقاق عاصم بن عمر ، إلا أن ابن زبالة وابن شبة لم يذكراه ، قالا : ثم وُجاه دار يزيد دار أويس بن سعد بن أبى سرح العامرى . قال ابن شبة فى هذه الدار : أخبرت أنها كانت لمطيع بن الأسود فناقَلَ بها العباس إلى الدار التى بالبلاط يقال لها دار مطيع ، وزاده عشرة آلاف درهم ، ثم باعها العباس من عبد الله بن سعد بن أبى سرح بثلاثين ألف درهم ، فسكنها بنو أخيه : فهى الدار التى يقال لها دار أويس عند دار يزيد بن عبد الملك بالبلاط ، وقد سمعنا مَنْ يذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم أقطع مطيما داره تلك ، فالله أعلم أى ذلك كان .

قلت : وموضع دار أويس اليومَ المدرسةُ الباسطية التى أنشأها القاضى عبد الباسط سنة بضع وأربعين وثمانمائة ، وما فى شرقيها من مؤخر المدرسة المعروفة اليوم بالحصن العتيق المتقدم ذكرها ، فذلك كله يواجه دار يزيد المذكورة ، ويفصل بينهما بلاط باب السلام .

دار مطيع ابن الأسود

قالا : ثم إلى جنب دار أويس ـ أى فى المغرب ـ دار مطيع بن الأسود العَدَوى ، أى المتقدم ذكر قصتها وأنها كانت للعباس رضى الله تعالى عنه ، قال ابن شبة : ويقال لها دار أبى مطيع ، وعندها أصحاب الفاكهة ، وزاد فى قصتها أنه بلغه أيضا أن حكيم بن حزام ابتاعها هى وداره التى من ورائها بمائة ألف

درهم ، فشركه ابن مطيع ، فقاومه حكيم ، فأخذ ابن مطيع داره بالثمن كله و بقيت دار حكيم في يده ربحا ، فقيل لحكيم : خدعك ، فقال : دار بدار ومائة ألف درهم ، وكان يقال لدار أبي مطيع العنقاء ، قال لها الشاعر :

* إلى العَنْقاء دارِ أبي مُطِيع *

و بين يدى دار أبي مطيع أبيات ليزيد بن عبد الملك فيها الغسالون ، يقال : إن يزيد كان ساوَمَ آلَ مطيع بدارهم ، فأبوا أن يبيعوها ، فأحدَثَ عليهم تلك البيوت ، فسدَّ وجه دارهم ، فهي تدعى أبيات الضِّرار ، وهي مما صار للخيزران .

قلت : وموضع دار أبي مُطِيع اليوم الدار التي في غربي المدرسة الباسطية التي اشتراها وكيل الخواجا ابن الزمن ، وفي غربيها سوق المدينة اليوم ، وهو من البلاط ، وموضعه عندها هو المراد بقول ابن شبة : وعندها أصحاب الفاكهة ، فكأن الفاكهة كانت تباع فيه حينئذ .

دار حكيم ابن حزام

وأما دار حكيم التي ذكر أنها من ورائها فمحلها اليوم الدارُ التي في شامي هذه الدور التي عندها درج العين بالسوق المذكور ، قال ابن شبة في دور بني أسد : واتخذ حكيمُ بن حزام داره الشارعة على البلاط إلى جنب دار مطيع ابن الأسود ، بينها و بين دار معاوية بن أبي سفيان ، يحجز بينها و بين دار معاوية الطريق ، ومراده بالبلاط الموضع الذي به سوق المدينة اليوم أمام المدرسة الزمنية الممتد منها إلى الشام .

وقوله « يحجز بينها ـ أي دار حكيم ودار مطيع ـ و بين دار معاوية الطريق » أي البلاط المذكور ؛ فالظاهر أن دار معاوية هذه هي المقابلة لها بين الدارين في المغرب ، وهناك في مقابلتها اليوم رباط جدده أنشأه الفخر ناظر الجيوش بعصر سنة تسع عشرة وسبعمائة بابهُ شارع في سوق المدينة اليوم ودار خربة .

وقال ابن شبة أيضا في دور بني عدى بن كعب : اتخذ النعمان بن عدى داره

التى صارت لمحمد بن خالد بن برمك و بناها ، وفى الشارعة عند الخياطين بالبلاط عند أصحاب الفاكهة ابتاعها من آل النحام وآل أبى جَهْم ، وكانت صارت لهم مواريث ، انتهى .

ومحل هذه الدار إما الدار الخربة التى إلى جانب الرباط الشارع فى السوق ، أو المدرسة الزمنية ، والله أعلم .

ولنرجع إلى ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

دار عبد الله ابن مكمل

قال ابن شبة : وفى غربى المسجد دار عبد الله بن مكمل الشارعة فى رحبة القضاء ، وهى مما يتشاءمُ به ، وذلك مما نشأ عن بنائها .

وقال فى دور بنى زهرة : كان عبد الرحمن بن عوف وهبها لابن مكمل ، فباعها آله من المهدى ؛ فهى بأيدى ولده اليوم خراب إلى جنب المسجد ، أى قبل أن تبنى رحبة القضاء .

قال : وهى التى يقولون : إن أهلها قالوا : يارسول الله ، اشتريناها ونحن جميع فتفرقنا ، وأغنياء فافتقرنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أتركوها فهى ذميمة .

وقال ابن زبالة : هى التى يجلس إلى رُكْحِها[1] صاحبُ الشرط ، وإليها أصحاب الفاكهة ، وهم يهابون بناءها و يتشاءمون بها ؛ فهى على حال ما اشتريت عليه .

وقد تُرْجِم فى الموطأ لما يتقى من الشؤم ، وروى فيه عن يحيى بن سعيد أن امرأة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، دار سكناها والعدد كثير والمال وافر فقلّ العدد وذهب المال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دَعُوهَا ذميمة » ورواه البزار بنحوه عن ابن عمر ، إلا أنه قال فيه : إن قوما جاؤا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وزاد فيه : فقالوا: يا رسول الله كيف نَدَعُها ؟ قال « بيعوها أو هَبُوها » .

(١) ركحها أى جانبها .

وقال البزار : أخطأ فيه صالح بن أبى الأخضر ، والصواب أنه من مُرْسَلات عبد الله بن شداد ، وروى الطبرانى نحوه عن سهل بن حارثة الأنصارى ، وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة .

قلت : وفى موضع دار ابن مكمل اليوم المدرسةُ المعروفة بالجوبانية من بابها إلى آخر رباطها الذى فى غربيها ، بل يؤخذ مما سبق عن ابن زبالة من جلوس أصحاب الفاكهة إليها أنها كانت تمتد إلى سوق الصواغين اليوم ؛ لما تقدم من بيان أصحاب الفاكهة ، ولما سيأتى فى الدار التى بعدها .

دار النحام

وفى المَغرِب أيضاً دار النحام العدوى . وعبارة ابن زبالة وابن شبة : وفى غربى المسجد دار ابن مكمل ودار النحام ، الطريقُ بينهما قدر ستة أذرع .

وقال ابن شبة فى دور بنى عدى : واتخذ النَّحَّام نعيمُ بن عبد الله دارَهُ التى بابُها وجاه زاوية رحبة دار القضاء ، وشرقيها الدار التى قبضت عن جعفر بن يحيى ابن خالد بن برمك التى كانت بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية فهى بيد ولده على حَوْز الصدقة .

قال : وأخبرنى مخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم حازَهَا له قطيعة منه .

قلت : ودار جعفر المذكورة هى المواجهة لباب الرحمة ؛ فعلم بذلك أن دار النحام هذه كانت فى مقابلة باب المدرسة الجوبانية المتقدم ذكرها فى بيان رحبة القضاء عند ذكر باب زياد ، وأن الطريق التى بين دار النحام ودار ابن مكمل هى البلاط الآخذ من باب الرحمة إلى السوق ، وعلم بذلك أن رحبة القضاء كانت تمتد من جهة باب الرحمة إلى باب الجوبانية .

دار جعفر ابن يحى

ثم إلى جنب دار النحام دار جعفر بن يحيى التى دخل فيها بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وأطم حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه المسمى بفارع .

قلت : وقد تقدم بيان محلها فى باب الرحمة ، وأنه اليوم هو البيت المواجه

لباب الرحمة ، وهوكان موضع بيت عاتكة ، وما فى شاميه من المدرسة الـكلبرجية وهو موضع الأطم .

دار نصير

ثم إلى دار جعفر بن يحيى دار نصير صاحب المصلى ، كانت بيتا لسكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، ثم إلى جنبها الطريقُ إلى دار طلحة بن عبيد الله ستة أذرع .

قلت : وقد تقدم فى أبواب جهة المغرب أن فى محل دار نصير اليوم الدار المعروفة بتميم الدارى ، والتى فى شاميها إلى الطريق التى تدخل منها إلى دور القياشين التى صارت للخواجا قاوان ، وهذه الطريق هى المرادة هنا ، وتلك الدور هى دور طلحة بن عبيد الله ، وفى شرقيها دار منيرة الآتى ذكرها .

قال ابن شبة فى دور بنى تيم : واتخذ طلحة بن عبيد الله داره بين دار عبد الله بن جعفر التى صارت لمنيرة و بين دار عمر بن الزبير بن العوام ، ففرقها ولده من بعده ثلاثة أدور ، فصارت الدار الشرقية اللاصقة بدار منيرة ليحيى ابن طلحة ، وصارت التى تليها لعيسى بن طلحة ، وصارت الأخرى لإبراهيم ابن محمد بن طلحة .

قلت : ودار عمر بن الزبير التى فى غربى دار طلحة ملاصقة لدار عروة ابن الزبير ، قال ابن شبة : اتخذهما الزبير وتصدق بهما عليهما وعلى أعقابهما ، وهما متلازقتان عند خوخة القوارير ، انتهى .

وفى نهاية الطريق إلى دور القياشين خَوْخَة كانت شارعةً فى المغرب عند سوق العطارين ، الظاهرُ أنها المراد بخوخة القوارير .

دار منيرة مولاة أم موسى

ثم إلى جنب الطريق إلى دور طلحة دار منيرة مولاة أم موسى ، كانت لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

قلت : وقد بينا محلها فى أول أبواب المسجد من جهة المغرب ، و يستفاد منه أنها كانت من طريق دور القياشين إلى ما يحاذى نهاية المسجد .

ثم إلى جنبها خوخة آل يحيى بن طلحة .

قلت : وهناك اليوم زقاق لطيف خلف الفرن المحاذى لقرب مؤخر المسجد من المغرب ، يعرف بزقاق عانقينى ، هو المراد بذلك ؛ لأن بعض الدور التى فيه يسلك منها إلى دور القياشين التى هى دور طلحة .

حش طلحة

ثم إلى جنب خوخة آل يحيى بن طلحة حش طلحة بن أبى طلحة الأنصارى وهو اليوم خراب صوافى عن آل ابن برمك .

قلت : والظاهر أن فى محله اليوم الفرن المتقدم ذكره وما حوله .

وقد قدمنا فى زيادة المهدى ما ذكره ابن شبة فى إدخاله صدر دار آل شرحبيل ابن حسنة التى كانت لأم حبيبة رضى الله تعالى عنها فى مؤخر المسجد .

قال ابن شبة عقب ذلك : ثم باعوا بقيتها من يحيى بن خالد بن برمك فهدمها حين هدم حش طلحة ، ثم صارت بَرَاحا فى الصوافى ، ثم بنى فى موضعها الناس بأكثر من أصحاب الصوافى ؛ فعلم بذلك أن حش طلحة كان ينعطف على المسجد من جهة الشام ، وسيأتى فى ذكر البلاط ما يصرح بذلك ، والظاهر أن بقية دار شرحبيل من الحش المذكور هو ما حاذى الميضأة التى فى شامى المسجد من المغرب ، بدليل ما سيأتى ، والله أعلم .

ثم إلى جنب حش طلحة الطريق خمسة أذرع .

قلت : وهذه الطريق هى التى فى شامى الميضأة المتقدم ذكرها ، يتوصل منها إلى رباط الشيخ شمس الدين الششترى .

أبيات خالصة

ثم إلى جنب الطريق أبيات خالصة مولاة أمير المؤمنين ، وهى دار حباب مولى عتبة بن غزوان .

قلت : وفى موضعها اليوم دار أحد رئيسى مؤذنى المسجد ، وما يليها من المارستان الذى أنشأه المنتصر بالله ، وما يليه من رباط الظاهرية ، كما تقدم فى ذكر أبواب المسجد .

دار حميد بن عبدالرحمن بن عوف

ثم إلى جنب أبيات خالصة دارُ أبى الغيث بن المغيرة بن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف ، وهى صدقة .

وذكر ابن شبة فى دور بنى زهرة أن من دور عبد الرحمن بن عوف التى اتخذها الدر التى يقال لها الدار الكبرى دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف بحش طلحة .

قال : وإنما سميت الدار الكبرى لأنها أول دار بناها أحدٌ من المهاجرين بالمدينة ، وكان عبد الرحمن يُنْزِلُ فيها ضِيفانَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أيضاً تسمى دار الضيفان ، فسرق فيها بعض الضيفان ، فشكا ذلك عبد الرحمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بنى فيها النبى صلى الله عليه وسلم بيده فيما زعم الأعرج ، وهى بيد بعض ولد عبد الرحمن بن عوف .

قلت : وهى غير دار عبد الرحمن بن عوف المعروفة بدار مليكة التى تقدم أنها دخلت فى المسجد .

وفى شامى المسجد اليومَ مما يلى الشرق دار تعرف بدار المضيف ، فلعل تسميتها بذلك لكونها فى موضع دار الضيفان المذكورة ، لكن ذكر الدار الآتية بعدها قبل جهة المشرق يبعد ذلك ، فكأن الجانب الغربى من دار المضيف وما حوله فى المغرب من الساباط وبعض رباط الظاهرية فى موضع الدار المذكورة .

ثم إلى جنب دار أبى الغيث بقيةُ دار عبد الله بن مسعود ، كانت لجعفر ابن يحيى ، وقد قبضت صافية عنه .

قلت : قد قدمنا أنها كانت تدعى دار القُرَّاء ، وأن بعضها دخل فى زيادة الوليد ، وبقيتها فى زيادة المهدى ، فكأن المراد بعض بقيتها ، بدليل ما هنا ، ومع ذلك فأنا أستبعد أن يبقى منها بقية فى جهة الشام ، سيما إذا كان المهدى قد زاد مائة ذراع .

ثم يضاف لذلك مازاده الوليد منها ، وعرض الرحبة التى فى شامى المسجد ،

وأي دار يكون طولها هذا المقدار فضلا عن أن يبقى بعد ذلك منها بقية ؟ وموضع ما وصفوه اليوم هو ما يلي المشرق من الدار المعروفة بدار المضيف المتقدم ذكرها، والله أعلم .

دار موسى المخزومي

قال ابن زبالة وابن شبة : ثم من المشرق دار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي ، كان ابتاعها هو وعبيدُ الله ابن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، فتقاوماها ، فظن عبيدُ الله أن موسى لا يريد إلا الربح ، فأسلمها عبيد الله فصارت لموسى .

قلت : وظاهر ذلك أن الدار المذكورة أول جهة المشرق مما يلي الشام ، وفي موضعها اليوم — كما قدمناه في ذكر أبواب المسجدِ — بيتُ بعض رئيسي المؤذنين الذي يلي دار المضيف ، وما يليه من الميضأة المعطلة اليوم ، وبين ذلك وبين دار المضيف زقاق يعرف بخرق الجمل يتصل إلى الدور الملاصقة لسور المدينة ، ولعله المعروف قديما بزقاق جمل ؛ فإن ابن شبة ذكر أن فاطمة بنت قيس اتخذت دارا بين دار أنس بن مالك وبين زقاق جمل ، ودارُ أنسِ بن مالك ذكر أنها في بني جديلة ، وهي في شامي سور المدينة .

ثم إلى جنب دار موسى أبياتُ قهطم دار موسى ودار عمرو بن العاص ، وهي — يعني دار عمرو — صدقة من عمرو ، وهي اليوم صوافي : أي أبيات قهطم ، هذه عبارة ابن شبة .

وعبارة ابن زبالة « وإلى جنبها أبيات فيها قهطم ، وهو صوافي » .

والطريق بين دار موسى بن إبراهيم وبين دار عمرو بن العاص السهمي ، وهي اليوم لهم صدقة .

أبيات الصوافي

قلت : وأبيات قهطم هي التي سماها ابن زبالة في ذكر الكتابة على أبواب المسجد أبيات الصوافي ، وسمى الطريق التي ذكرها هنا بزقاق المناصع ، لكن

كلام ابن شبة يقتضى كون أبيات قهطم المذكورة بين دار موسى و بين دار عمرو بن العاص ؛ فتكون الطريق المذكورة بين أبيات قهطم و بين دار عمرو ابن العاص ، فلنحمل كلام ابن زبالة على ذلك ، ويكون قوله « والطريق بين دار موسى » يعنى وما يليها من أبيات قهطم و بين دار عمرو بن العاص .

وقد قدمنا أن فى محل أبيات الصوافى رباط الفاضل والدار المعروفة بدار الرسام وقف السلامىّ والباب الذى يدخل منه إلى رباط السلامى ، وموضع دار عمرو بن العاص اليوم مؤخر رباط السبيل الذى يسكنه الرجال ، وهو مما يلى الشام منه ، والطريق التى بينه و بين رباط الفاضل هى زقاق المناصع ، وليست اليوم نافذة كما تقدم ؛ و يؤخذ مما قدمناه فى زيادة المهدى أنه كان عندها رحبة تسمى برحبة المشارب ، والله أعلم .

دار خالد ابن الوليد

ثم إلى جنب دار عمرو دارُ خالد بن الوليد . قال ابن شبة وابن زبالة : وهى بيد بنى أيوب بن سلمة ــ يعنى ابن عبد الله بن الوليد بن المغيرة ــ زاد ابن زبالة : أن أيوب بن سلمة اختصم فيها هو و إسماعيل بن الوليد بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة ، يقول أيوب : هى ميراث وأنا أرثها دونكم بالقعد ، أى لأنه أقرب عصوبة ، ويقول إسماعيل : هى صدقة ، أى فيدخل فيها القريب و إن بَعُد ، فأُعطِيها أيوبُ ميراثاً بالقعد ، انتهى .

وهذا لأن أيوب المذكور كما ذكر ابن حزم وارث آخر مَنْ بقى من ولد خالد بن الوليد ، قال : لانقراض ولد عمه خالد بن الوليد كلهم . قال : وكان قد كثر ولد خالد بن الوليد حتى بلغوا نحو أربعين رجلا ، وكانوا كلهم بالشام ، ثم انقرضوا كلهم فى طاعون وقَع فلم يبق لأحد منهم عقب ، انتهى . وروى ابن زبالة عن يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : شكا خالدُ بن الوليد ضيقَ منزله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له « ارْفَع البناء فى السماء وسَلِ الله السَّعَة » ورواه ابن شبة ، إلا أنه قال : فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « اتسع

فى السماء » وذكر من رواية الواقدى أن خالد بن الوليد حَبَسَ داره بالمدينة لا تُباع ولا تُوهب :

قلت : وفى موضعها اليوم مقدم رباط السبيل المتقدم ذكره ، وذلك يدل على صغرها ، بخلاف غيرها من الدور ، ولذلك شكا ضيقَها ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

دار أسماء بنت حسين

ثم إلى جنبها دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكانت من دار جبلة بن عمر الساعدى .

قلت : وقد قدمنا ذكر حالها ، و بيان محلها ، فى خامس أبواب المسجد .

دار ريطة

ثم إلى جنبها دار رَيْطَة بنت أبى العباس ، وكانت من دار جبلة ودار أبى بكر الصديق ، قاله ابن زبالة .

قلت : مُرَاده أنه أدخل فى دار رَيْطَة من شرقيها ما يليها من دار أبى بكر الصديق[لا] أن دار أبى بكر كانت على سَمْتها فى محاذاة المسجد ، كما توهمه المطرى فجعل دار رَيْطَة هى دار أبى بكر ، وأنها المدرسة المقابلة لباب النساء كما قدمناه عنه ، والصواب أن دار أبى بكر كانت خَلْفَ المدرسة المذكورة فى جهة المشرق ؛ لأن ابن شبة قال فى دور بنى تَيْم : اتخذ أبو بكر رضى الله تعالى عنه دارا فى زقاق البقيع قبالة دار عثمان رضى الله عنه الصغرى ، وذكر أن دار عثمان الصغرى هى التى بنحو زقاق البقيع إلى جنب دار آل حَزْم الأنصاريين . وذكر فى خبر مقتل عثمان رضى الله عنه ما يقتضى أن هذه الدار الصغرى كانت متصلة بداره الكبرى الآتى ذكرها ، وأن قَتَلَته تَسَوَّروا ودخلوا عليه منها . وفى موضعها اليوم الرباط المعروف برباط المغاربة ، ويعرف برباط سيدنا عثمان ؛ فعلم بذلك أن دار أبى بكر كانت فى مقابلة ذلك من جهة الشام ؛ فتكون فى محل الدور التى فى شرقى المدرسة المذكورة إلى ما يحاذى الرباط المذكور ، ولا يبعد أن يكون بعضها دخل فى المدرسة المذكورة ، ودار أبى بكر هذه هى المرادة بما رواه ابن سعد فى طبقاته عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر رضى الله عنه مَرِضَ مَرَضَه الذى

الذى مات فيه وهو نازل يومئذٍ فى داره التى قَطَع له النبىُّ صلى الله عليه وسلم وجاه دار عثمان بن عفان ، أى الصغرى . والله أعلم .

ثم الطريق بين دار رَيْطَة و بين دار عثمان ـ يعنى العظمى ـ خمسة أذرع ، قاله ابن زبالة وابن شبة . ونقل المطرى عن ابن زبالة أن الطريق بينهما سبعة أذرع ، والذى ذكره ابن زبالة ماقدمناه ، وهى اليوم نحـو ذلك ، ويعرف بطريق البقيع .

دار عثمان ابن عفان

ثم دار عثمان رضى الله عنه . وروى ابن سعد فى طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : لما أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدورَ بالمدينة خَطَّ لعثمان بن عفان داره اليوم ، ويقال : إن الخَوْخَة التي فى دار عثمان اليوم وجاه باب النبى صلى الله عليه وسلم التى كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يخرج منها إذا دخل بيت عثمان ، هذا لفظ ابن سعد .

قلت : وهذه الدار هى التى عبر عنها ابن شبة بقوله « واتخذ عثمان رضى الله عنه داره العظمى التى عند موضع الجنائز فتصدق بها على ولده فهى بأيديهـم صدقة » وقد قدمنا أن فى محلها اليوم رباط الأصفهانى وتربة أسد الدين شِيرِكُوه عم السلطان صلاح الدين بن أيوب ومعه فيها والد صلاح الدين أيضاً ، والدار التى يسكنها مشايخ الخدام .

دار أبى أيوب الأنصارى

ثم بعد دار عثمان فى القبلة الطريق خمسة أذرع ، أو نحو ذلك ،ثم منزل أبى أيوب الأنصارى الذى نزله النبى صلى الله عليه وسلم ، وابتاعه المغيرة بن عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام ، وجعل فيه ماءه الذى يسقى فى المسجد .

قلت : قد قدمنا فى الفصل الرابع عشر من الباب الثالث شرح حال هـذه الدار ، وأن الملك المظفر شهاب الدين غازى اشترى عَرْصتهـا و بناها مدرسة ووقفها على المذاهب الأربعة .

دار جعفر الصادق

ثم إلى جنب منزل أبى أيوب دار جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم التى يُسْقَى فيها الماء ، التى تصدق بها جعفر ، وكانت لحارثة بن النعمان الأنصارى .

قلت : فى موضعها اليوم العرصة الكبيرة التى فى قبلة المدرسة الشهابية ، وفيها محراب قبلة مسجد جعفر الصادق وأثر محاريب ، وهى الآن ملك الأشراف المنايفة ، ثم انتقلت منهم للشجاعى شاهين الجمالى شيخ الحرم . ابتناها مسكنا له .

دار حسن ابن زيد

وقبالتها ــ أى فى المغرب ــ دارُ حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم ، وهو أطم كان حسن ابتاعه فخاصمه فيه أبو عَوْف النَّجَّارى ، فهدمه حسن ، فجعله دارا .

قلت : وهو الأطم الذى يدعى بفويرع ، وفى موضع هذه الدار اليوم بيت الأشراف المنايفة الذى عليه ساباط متصل بالمدرسة الشهابية ، والبيت الذى فى قبلته وما فى غربيها إلى دار القُضاة بنى صالح .

دار فرج الخصى

والطريق خمسة أذرع بينها ــ أى بين دار حسن المذكورة ــ وبين دار فرج الخصى أبى مسلم مولى أمير المؤمنين ، وكانت دار فرج من دور إبراهيم بن هشام ، وهى قبلة الجنائز ، كان فيها سرب تحت الأرض يسلكه إبراهيم إلى داره دار التماثيل التى كان ينزل بها يحيى بن حسين بن زيد بن على .

قلت : أما الطريق المذكورة فهى الآخذة من باب المدرسة الشهابية إلى بيت بنى صالح ، ودار فرج المذكورة هى الرباط المعروف برباط مَرَاغة ، والطريق المذكورة بينه وبين دار المنايفة ، وأما دار التماثيل التى كان يتوصل إليها ابنُ هشام بالسرب المذكور فلم يبينها ابن زبالة ولا ابن شبة ، غير أنه كان شخص شرع فى عمارة الميضأة التى بباب السلام المتقدم ذكرها فى دار مروان فوجَدَ سربا تحت الأرض مَقْبُوًّا عند ركنها القبلى مما يلى المغرب ، وعنده باب الخربة المعروفة

بدار الخرازين ، وشرعوا فى عمارتها ـ أى دار الخرازين ـ بدلا من رباط الحصن العتيق . وقد دخلتها قبل هدمها ، فرأيت فيها صناعات غريبة فى البناء من صناعات الأقدمين ، فترجَّحَ عندى بقرينة وجود السرب عندها ووجود ذلك بها أنها المرادة بدار التماثيل ، والله أعلم .

دار عامر ابن ابن الزبير ابن العوام

ثم إلى جنب دار فرج الخصى دار عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، وكان ابن هشام ـ حين بنى داره ـ أخذ بعضَ حق عامر ، فقال له عامر : فأين طريقى ؟ قال : فى النار ، قال عامر : تلك طريق الظالمين .

قلت : وموضعها اليوم البيت الموقوف الذى بيد الخدام ، وهو عن يسار الخارج من خَوْخَة آل عمر ، ويسمونه اليوم بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم ترجع إلى دار عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه من حيث ابتدأت .

قلت : وذكر ابن شبة فى دور بنى هاشم أن حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه اتخذ الدار التى صارت لآل فُرَافصة الحنفيين ولآل وردان دبر زقاق عاصم بن عمر ، اهـ .

وقد تقدم فى ذكر سدّ الأبواب إلا ما استثنى ما يقتضى أن حمزة رضى الله تعالى عنه كان له طريق إلى المسجد ، وتقدم بيان زقاق عاصم ؛ فتحصل من ذلك أن دار حمزة رضى الله تعالى عنه كانت فى قبلة المسجد ، وهى غير معلومة المحل ، والله أعلم .

الفصل الخامس والثلاثون

فى البلاط ، وبيان ما ظهر لنا مما كان حوله من منازل المهاجرين

تحديد مكان البلاط

وقد بَوَّبَ البخارى فى صحيحه لمن عَقَلَ بعيره على البلاط أو باب المسجد ، وأورد فيه حديث جابر قال : دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجدَ ، فدخلت إليه ، وعَقَلْتُ الجمل فى ناحية البلاط ، وبوب أيضا للرجم بالبلاط ، وأورد فيه

حديث اليهوديين اللذين زَنَيَا ، قال ابن عمر : فرجما عند البلاط . وفى رواية لابن عمر : فَرُجِمَا قريبا من موضع الجنائز .

وعند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم اليهوديين عند باب المسجد .

وفى الحديث أن عثمان رضى الله تعالى عنه أتى بماء فتوضأ بالبلاط .

وهذا كله مقتضٍ لأن البلاط كان قديما قبل ولاية معاوية رضى الله عنه .

وفيما قدمناه ما يبين أنه كان فى شرق المسجد فى ناحية موضع الجنائز ، وظاهر كلام ابن زبالة وابن شبة أن أول حدوثه فى زمن معاوية رضى الله عنه ؛ فإنهما رَوَيَا عن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله قال : بَلَّطَ مروانُ بن الحكم البلاطَ بأمر معاوية رضى الله عنه ، وكان مروان بلط ممرَّ أبيه الحكم إلى المسجد ، وكان قد أسن وأصابته ريح ، فكان يجر رجليه فتمتلئان ترابا ، فبلطه مروان بذلك السبب ، فأمره معاوية بتبليط ما سوى ذلك مما قارب المسجد ففعل ، وأراد أن يبلط بقيع الزبير فحال ابنُ الزبير بينه و بين ذلك ، وقال : تريد أن تنسخ اسم الزبير ، ويقال : بلاط معاوية ؟ قال : فأمضى مروان البلاط ، فلما حاذى دار عثمان بن عبيد الله ترك الرحبة التى بين يدى داره فقال له عبد الرحمن بن عثمان : لئن لم تُبَلِّطْهَا لأدخلنها فى دارى ، فبلطها مروان .

واقتصر عياض فى بيان البلاط على ما فى غربى المسجد منه ، فقال : البلاط موضع مبلط بالحجارة بين المسجد والسوق بالمدينة ، انتهى .

وقد تبع فى ذلك أبا عبيد البكرى ، وفيه نظر ؛ لأن مقتضى الأحاديث المتقدمة إرادة ما فى شرقى المسجد منه ، ومع ذلك فهو فى شرقى المسجد وغربيه والشام .

وقال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا مَنْ يوثق به من أهل العلم أن الذى بلط حوالى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة معاوية بن أبى

سفيان رضى الله عنهما ، أمر بذلك مروان بن الحكم ، وولى عمله عبد الملك بن مروان ، و بلط ما حول دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز .

حدود البلاط

وحَدُّ ذلك البلاط الغربى : ما بين المسجد إلى خاتم الزوراء عند دار العباس ابن عبد المطلب بالسوق . وحده الشرقى إلى دار المُغِيرَة بن شُعْبة رضى الله عنه التى فى طريق البَقيع من المسجد . وحده اليمانى إلى حد زاوية دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز . وحده الشامى وَجْه حش طلحة خلف المسجد ، وهو فى المغرب أيضا إلى حددار إبراهيم بن هشام الشارعة على المصلى .

وللبلاط أسراب ثلاثة تصب فيها مياه المطر ؛ فواحدٌ بالمصلَّى عند دار إبراهيم ابن هشام ، وآخر على باب الزوراء عند دار العباس بن عبد المطلب بالسوق ، ثم يخرج ذلك الماء إلى ربيع فى الجبانة عند الحطابين ، وآخر عند دار أنسِ بن مالك فى بنى جَديلة عند دار بنت الحارث ، اه

و يؤخذ من ذلك أن البلاط كان من المغرب فيما بين المسجد و بين الدور المطيفة به .

و يمتد البلاط الآخر من باب الرحمة إلى أن يصلَ إلى الصواغ وسوق العطارين اليوم ، و يستمر كذلك إلى حد سوق المدينة الأول عند أحجار الزيت ومشهد مالك بن سنان ؛ فهناك خاتم الزوراء عند دار العباس ، وهو خاتم البلاط ، وذلك ما بين مشهد مالك بن سنان والدور المواجهة له كما سنبينه فى ذكر سوق المدينة ، وهو موجود اليوم فى تلك الجهة .

و يمتد أيضا البلاط الآخذ من باب السلام إلى أن يصل إلى المدرسة الزمنية ، و ينعطف لجهة الشام حتى يتصل بالبلاط الممتد من باب الرحمة لجهة سوق الصواغ والعطارين ، وهذا الجانب منه هو الذى تقدمت الإشارة إليه بأن عنده أصحاب الفاكهة .

وفى طبقات ابن سعد عن محمد بن عمرو فى دار حكيم بن حزام المتقدم ذكرها فيه أنها عند بلاط الفاكهة عند زقاق الصواغين ، انتهى .

ثم يمتد البلاط الآخذ من باب السلام فى الاستقامة من المدرسة الزمنية فيمر بالموضع المعروف اليوم بسويقة ، فيجاوز باب المدينة المعروف بباب سويقة حتى يصل إلى المصلى ، وهذا معنى قوله « وهو فى المغرب أيضاً إلى حد دار إبراهيم ابن هشام الشارعة على المصلى » .

وهذه الناحية من البلاط الغربى هى المسماة بخط البلاط الأعظم ، وما كان عن يمين الماشى فى هذا البلاط قاصدا بابَ السلام فهو الذى يعبر عنه بميمنة البلاط الأعظم ، وما كان عن يساره فهو الذى يعبر عنه بميسرة البلاط الأعظم .

وأما البلاط الشرقى فحده من القبلة ظاهر عند زاوية الدار التى يسكنها مشايخ الخدام من دار عثمان وزاوية رباط مراغة .

ومن المشرق يمتد فى زقاق البقيع إلى خارج باب رباط المغاربة عند ما يعطف من آخر الدور التى قدمنا أنها فى محل دار أبى بكر رضى الله عنه المقابلة لرباط المغاربة ، ولعل دار المغيرة بن شعبة هى التى تواجهك حين تعطف هناك ، ثم تكون على يسارك وأنت ذاهب إلى البقيع فى مقابلة الرباط المعروف برباط الصادر والوارد ، ولعل البلاط كان متصلا بها .

وقد قال ابن شبة فى دور بنى عبد شمس : إن عثمان رضى الله تعالى عنه اتخذ أيضاً دار المغيرة بن شعبة التى بالبقيع فعارض المغيرة إلى دار عثمان بن عفان التى يقال لها دار عمرو بن عثمان التى بين دار المغيرة بن شعبة اليوم وبين دار زيد ابن ثابت من الأنصار ، انتهى .

فدار المغيرة التى ناقل بها عثمان ليست المرادة ؛ لأنه قال فيها « إنها بالبقيع » وذكر فى هذه التى حدد بها البلاط أنها بزقاق البقيع .

وأيضاً قد قدمنا قول محمد بن عقيل فى خبره فى سقوط جدار الحجرة « حتى

إذا كنتُ عند دار المغيرة بن شعبة لقيتنى رائحة لا والله ما وجدت مثلها قط » فإنه يدل على قرب دار المغيرة من المسجد .

وأيضاً فمن الشائع بين الناس اليوم نسبتهم إلى عثمان رضى الله تعالى عنه الدارَ التى فى شرقى الدار التى قلنا لعلها دار المغيرة بينها و بينها ساباط ، ولعلها التى كانت لعثمان وناقل بها المغيرة إلى داره التى بالبقيع ، وقد قال فى وصفها « إنها بين دار المغيرة اليوم ودار زيد بن ثابت » فتكون دار زيد بن ثابت هى التى تلى ذلك فى المشرق أيضاً على يسار الذاهب إلى البقيع ، وما عن يمينه مما يلى ر باط المغار بة دور آل حزم من الأنصار .

وقد قال ابن شبة : إن عتبة بن غَزْوَان حليفَ بنى نوفل بن عبد مناف اتخذ داره التى بالبقيع إلى شرقى دور آل حزم الأنصار ؛ فتكون على يمين الذاهب إلى البقيع بعد دور آل حزم .

فأما البلاط الشامى فمحله ظاهر بين المسجد والدور التى قدمناها فى شاميه ، لـكن حدث فيه دور لاصقة بالمسجد بعـد سد الأبواب التى فى تلك الجهة كما قدمناه .

وأما ما ذكره ابن شبة من أن الماء الذى يصبُّ فى السرب الذى بالمُصَلَّى والسرب الذى عند دار العباس يخرج إلى ر بيع فى الجبانة عند الحطابين فالمراد أنه يخرج إلى الر بيع المذكور فى شامى سوق المدينة عندسوق الحطابين قرب ثَنِيَّةِ الوَدَاع ، لما سيأتى فى ترجمة الجبانة .

وقوله « إن السرب الآخر عند دار أنس بن مالك فى بنى جديلة عند دار بنت الحارث » فأما دار أنس فلم يتحرر لى معرفتها ، غـير أنه سيأتى فى بئره — وكانت فى داره — ما ترجح عندنا فى محلها ؛ فيؤخذ منه أن داره كانت عند البئر المعروفة اليوم بالر باطين خلف الحديقة المعروفة بالرومية فى شامى سور المدينة .

وأما دار بنت الحارث فلم أعلم محلها ، وعلى ما ذكرناه فى دار أنس تكون

فى محل الحديقة المعروفة بالرومية أو ما حولها . ودار بنت الحارث هـذه لها ذكر فى أماكن كثيرة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يُنْزِلُ بها الوفودَ ، وجعل بها أسْرَى بنى قريظة حتى خندق لهم الخنادق بالسوق وقتلوا .

وروى ابن زبالة عن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى نفرٍ من أصحابه من قريش والأنصار وهم فى دار بنت الحارث ، فلما رأوه أوْسَعُوا له ـ الحديث .

وبنت الحارث : اسمها رَمْلَة . وهـذه الأسراب الثلاثة لا يعرف منها شىء اليوم .

وقد علا الـكَبْسُ على كثير من البلاط ، ولم يبق ظاهرا منه إلا ما حول المسجد النبوى وشىء من جهة بيوت الأشراف ولاة المدينة . وله بلاليع يجتمع الماء فيها ، فإذا كثرت الأمطار تجتمع حول المسجد لامتلاء تلك البلاليع ، فيصير أمام أبواب المسجد كالغُدْران الـكبار ، خصوصا فى شرقى المسجد ، فحفر الشمسُ ابن الزمن متولى العمارة الشريفة البَلاَّعة التى فى شرقى المسجد وتتبّع ما حولها ، فوجد سربا تحت الأرض آخذا من شرقى المسجد إلى جهة زقاق المناصع ، وتَتَبَّعه حتى وصل إلى الحوش المعروف اليوم بحوش الحسن ، فوجد الناس قد بنوا هناك ، ولم يتمكنوا من تتبعه إلا بهدم الأبنية فتركوه ، وهذا هو السرب الذى تقدم أنه كان يخرج عند دار أنس بن مالك فى بنى جديلة .

ثم إن متولى العمارة حفر سربا لتلك البلاليع التى عنـد أبواب المسجد ، وأوصلها بالسرب الذى يسير فيه وسخ العين ؛ فحصل بذلك غاية النفع ، وصار الماء لا يقف بعـد ذلك بأبواب المسجد ، ووجد البلاط الأول على أكثر من نصف قامة من الأرض فيما يلى الصاغة وسوق العطارين ، وكذا فى شامى المسجد .

وأما الدور المُطِيفة بالبلاط الأعظم ـ وهو الآخذ من باب السلام إلى المُصَلَّى ـ ففى قبلة منازل بنى زريق ، وسيأتى من كلام ابن شبة نقلا عن أبى غسان أن

ذَرْعَ ما بين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذى عنده دار مروان و بين المسجد الذى يصلى فيه العيدُ بالمصلى ألف ذراع ، وقد ذَرَعْناه فكان كذلك ، لكن الذى يظهر أن البلاط لم يكن متصلا بمسجد المصلى ؛ لأنه ذكر أن نهايته دار ابن هشام ، ولم تكن الدور متصلة بنفس المسجد .

بيان الدور المطيفة بالبلاط

فأول الدور المطيفة بهذا البلاط مما يلى المُصَلّى فى ميسرته دار إبراهيم ابن هشام المخزومى .

وفى ميمنته فى قبلتها جانحا إلى المغرب دارُ سعد بن أبى وَقَّاص ، والطريق بينهما . ودار سعد هذه قال ابن شبة : إنما هى التى فى دبر دار جبى ، ولها فيها طريق مسلمة .

قال : وسمعت من يقول : كانتا دارا واحدة لسعد ، وإن عمر بن الخطاب كان قاسَمَه إياها ، وكانت دار جبى قسيمة هذه الدار حين قاسمه ماله مَقْدَمَ سعد من العراق ، فاشترى دار جبى عثمان بن عفان ، ثم صارت لعمرو بن عثمان ، وكانت جبى أرضعت عمرا فوهبها لها ، فكانت بيدها ، حتى سمعت نقيضا فى سقف بيتها فقالت لجاريتها : ما هذا ؟ قالت : السقف يسبح ، قالت : ماسبح شىء قط إلا سجد ! فخرجت ، فاضطربت خباء بالمصلى ، ثم باعت الدار من بعض ولد عمر بن الخطاب . قال : وسمعت من يقول : إن عثمان نفسه أقطعها إياها .

ثم يليها فى ميمنة البلاط المذكور دار لسعد بن أبى وقاص أيضاً ، وكانت لأبى رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فناقله أبو رافع إلى داريه بالبقال ، وكانتا دارا لسعد .

وفى ميسرة البلاط فى مقابلة هذه الدار دار لسعد أيضاً ، والطريقُ بينهما عشرة أذرع ، ودور سعد صدقة .

وقد ذكر ابن شبة كتابَ وَقْفها . و بقى من دوره دار أخرى قال ابن شبة :

واتخذ سعد أيضاً دارا بالمصلى ، بين دار عبد الحميد بن عبيد الكنانى وبين الزقاق الذى يسلك فى بنى كعب عند الحمارين ، وفتح فى طائفة من أدنى داره بابا فى الزقاق ، حتى صارت كأنها داران .

قلت : وسيأتى ذكر منازل بنى كعب ، وذكر الحمارين ، ويعلم من مجموع ذلك أن زقاق الحمارين كان فى قبلة البيوت التى بالمصلى والبيوت التى فى قبلة البلاط ببنى زريق .

ثم يلى دار سعد التى كانت لأبى رافع فى ميمنة البلاط المذكور دار آل خراش من بنى عامر بن لؤىّ ، وتعرف بدار نوفل بن مُسَاحق بن عمرو العامرى وفى دبرها من جهة القبلة كُتَّاب عروة رجلٍ من اليمن ، كان يعلم . وفى كتاب عروة مسجد بنى زريق ، وعنده دار رفاعة بن رافع . ودار آل خراش هذه هى التى عناها ابن شبة بقوله : وقال — يعنى أبا غسان — : وحدثنى عبد العزيز أن رافع بن مالك الزرقى قتل بأحُد فدُفن فى بنى زريق ، قال : وقيل : إن موضع قبره اليوم فى دار آل نوفل بن مساحق التى فى بنى زريق فى كتاب عروة ، وصارت للعباس بن محمد . ثم يلى دار آل خراش فى الميمنة أيضا دار الربيع التى يقال لها دار حفصة ، وهى مولاة لمعاوية بن أبى سفيان ، كانت تسكنها فنسبت إليها قبل ، وكانت هذه الدار قَطيعةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص الثقفى ، فابتاعها من ولده معاويةُ بن أبى سفيان وكانت معها لعثمان أيضا دار آل خراش المتقدمة إلى جنبها ، ويقال : إنه ابتناها فى قطيعة النبى صلى الله عليه وسلم إياه أيضا . وفى الميسرة فى شامى الدارين المذكورين مقابلا لها دارُ نافع بن عتبة بن أبى وقاص التى ابتاعها الربيع مولى أمير المؤمنين من ولد نافع ، وتعرف أيضا بدار الربيع . وفى دبر الدار المتقدمة التى يقال لها دار حفصة من القبلة دار عَبْد بن زَمْعَة ، قال ابن شبة : واتخذ عَبْدُ بن زَمْعة دارَهُ التى فى كتاب عروة إلى حدها الشامى ، فتكون دار حفصة بينها وبين البلاط بابها لازق فى كتاب

عروة ، أى فى غربيها . وفى قبلة دار عَبْد بن زَمْعة دار ابن مشنو ، قال ابن شبة أيضا : واتخذ عبد الرحمن بن مشنو دارَهُ التى فى كتاب عروة حدُّها من الشام دار عبد بن زمعة ، وحدُّها من المشرق كتاب إسحاق الأعرج بابُهَا لاصق فى كتاب عروة أى فى غربيها أيضا ، وهى صدقة منه . وفى قبلة دار ابن مشنو دارُ عمار بن ياسر فإنها حد دار ابن مشنو من القبلة ، قال ابن شبة : واتخذ عمار بن ياسر داره التى فى بنى زريق ، وكانت من دور أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، وبابُهَا وُجَاهَ دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أى الذى فى شرقيها ، وكانت أم سلمة أعطته إياها ، ولها خَوْخَة شارعة فى كتاب عروة أى فى المغرب وهى خوخة عمار نفسه ، انتهى ؛ فهذه الدور الثلاثة مصطفة فى القبلة خلف دار حفصة المذكورة ، وخلف الدار الآتية بعدها ، وبينهن من المغرب كتاب عروة ومسجد بنى زريق ، ومن المشرق زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث الآتى ذكره .

وذكر ابن شبة ما حاصله أن دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى فى بنى زريق ، فيما بين دار ابن أم كلاب الشارعة على المصلى إلى دار رفاعة بن رافع الأنصارى قبالة مسجد بنى زُرَيْق .

ثم يلى دار الربيع التى يقال لها دار حفصة فى ميمنة البلاط دارُ أبى هريرة رضى الله تعالى عنه . ثم يليها فى الميمنة أيضا زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ودارُه هى التى تقدم أنها تقابل دار عمار بن ياسر فى الشرق ، وبينها وبين البلاط الداران الآتى ذكرهما ، وهذا الزقاق سيأتى له ذكر فى رجوعه صلى الله عليه وسلم من صلاة العيد .

وكذا دار أبى هريرة هذه ، قال ابن شبة : اتخذ أبو هريرة الدَّوْسِىُّ دارا بالبلاط بين الزقاق الذى فيه دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وبين خط البلاط الأعظم ، فباعها ولده من عمر بن بزيع .

والذى ظهر لى بعد التأمل فيما ذكره ابن شبة فى هـذه الدور — بقرينة

ما سنذكره إن شاء الله تعالى — أن زقاق عبد الرحمن بن الحارث هو أول زقاق يلقاك عن يمينك إذا دخلت من باب المدينة اليوم تريد المسجد ، وظهر لى أيضا أن دار هشام والدار الثانية التى تليها فى المَيْسَرة و بعض الثالثة كُنّ من خارج سور المدينة ، وكذلك ما يقابل ذلك فى الميمنة من دارى سعد و بعض دار آل خراش .

ثم يلى زقاق عبد الرحمن بن الحارث فى ميمنة البلاط دارُ عبدالله بن عوف . ثم يليها فى الميمنة زقاق أبى أمية بن المغيرة ، قال ابن شبة فى دور بنى زهرة : واتخذ عبدُ الله بن عَوْف بن عبد عوف دارا بالبلاط بين زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام و بين زقاق دار أبى أمية بن المغيرة ، و يقال لها : دار طلحة بن عبد الله بن عوف ؛ فهى صَدَقة بأيدى ولده إلا شيئاً خرج منها صار لبكار بن عبد الله بن مصعب الزبيرى . و يلى دار أبى أمية التى نسب إليها الزقاق المذكور فى قبلتها دار الحُوَيْطب بن عبد العزى بينها و بين دار سعيد بن عمرو بن نفيل ، وهما شارعتان فى خط الحمارين الشارع إلى دار ابن عُتْبة ببنى زريق شرقى دار أبى أمية ، وفى شرقيها أيضا دار صُهَيْب بن سِنان ، وكانت لأم سلمة رضى الله تعالى عنها، وكل هذه الدور فى بنى زريق .

ولنرجع إلى جهة الميسرة فنقول : وفى الميسرة فى مقابلة دار أبى هريرة وبعض التى قبلها دار حُوَيْطب بن عبد العُزى ، وهى غير داره السابقة ، وتلك ليست فى البلاط كما قدمناه ، قال ابن شبة فى دور بنى عامر بن لؤى : واتخذ حُوَيطب بن عبد العزى داره التى بين دار عامر بن أبى وقاص وعتبة بن أبى وقاص ، بالبلاط منها البيت الشارع على خاتمة البلاط بين الزقاق الذى إلى دار آمنة بنت سعد وبين دار الربيع مولى أمير المؤمنين ، وهى صدقة منه على ولده ، انتهى . ولم يذكر لعتبة ابن أبى وقاص دارا بالمدينة . والذى انتقل إلى المدينة واتخذ بها الدار إنما هو ابنُه نافع ، وداره هى المتقدم ذكرها التى صارت للربيع ؛ فهى المرادة .

وقال فى بيان دار عامر بن أبى وقاص الزهرى : واتخذ عامر بن أبى وَقّاص دارَه التى فى زُقاق حلوة بين دار حُوَيْطب بن عبدالعزَّى و بين خط الزقاق الذى فيه دار آمنة بنت سعد بن أبى سَرْح، انتهى .

فيتلخص من ذلك أن دار حُوَيْطب المذكورة فى شرقىّ دار الربيع المتقدمة فى المَيْسَرة و إلى جانبها خاتمة البلاط ، وهو اليوم الزقاق الذى بين سور المدينة و بين البيوت المقابلة له ولمشهد سيدنا مالك بن سِنان على يسارك عندما تدخل من باب المدينة ، وأن من دار حُوَيْطب بيتا خلفها من جهة جانبها الغربى شارعا على خاتمة البلاط المذكورة ، وخلفه من جهة الشام الزقاق الذى فيه دار آمنة ، وتكون دار عامر بن أبى وقّاص خلف دار حُوَيْطب من جهة جانبها الشرقى ، و يكون زقاق حلوة فى شرقيهما ، ولعله المعروف اليوم بزقاق الطول ؛ لانطباق الوَصْف المذكور عليه ، وسيأتى لزقاق حلوة ذكر فى الآبار

ثم فى الميسرة أيضا دارُ عبد الله بن مَخْرَمة قال ابن شبة فىدور بنى عامر بن لؤى : اتخذ عبد الله بن مَخرَمة داره التى فى البلاط الشارع بابها قبالة دار عبد الله بن عَوْف التى فيها بنو نَوْفَل بن مُساحق بن عبد الله بن مَخرَمة،وخرج عنهم بعضها فهو فى يد ورثة عمر بن بزيع مولى أمير المؤمنين .

ولنرجع إلى جهة المَيْمَنة فنقول:ثم إلى زقاق دار أبى أمية فى الميمنة من شرقيه دار خالد بن سعيد الأكبر بن العاص التى يقال لها دار سعيد بن العاص الأصغر أبن سعيد بن العاص ، و يقال لها دار ابن عتبة، و إنما ورثها عبد الله بن عتبة عن عمه خالد بن سعيد . و يقابلها فى المَيْسَرة دار أم خالد التى لآل خالد بن الزبير بن العَوّام ، ورثوها عن أمهم أم خالد بن سعيد بن العاص ، وقيل : إنهما قَطيعة من النبى صلى الله عليه وسلم . ثم يلى دار خالد بن سعيد فى الميمنة دارُ أبى الجَهْم ، ثم دار نوفل بن عدى ، ثم دار آل المُنْكَدِر التّيْمى . قال ابن شبة فى دور بنى عدى : واتخذ أبو الجَهْم داره التى بين دار سعيد بن العاص التى يقال لها دار أبن عتبة و بين دار نوفل ابن عدى بابها شارع فى البلاط .

قلت : وهذه الدار هي المرادة بما رواه مالك في الموطأ عن عمه أبي سَهْل بن مالك بن أبي عامر عن أبيه : كنا نسمع قراءة عمر بن الخطاب ونحن عند دار أبي جَهْم بالبلاط ، وكذا بما رواه البيهقي عن موسى بن عقبة أن رجال بني قُرَيْظة قُتلوا عند دار أبي جَهْم التي بالبلاط ، ولم يكن يومئذٍ بلاط ، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التي كانت بالسوق .

وقال ابن شبة في دور بني أسـد : واتخذ نَوْفَل بن عَدِي بن أبي حُبَيش دارين : إحداهما التي بالبلاط عنـد أصحاب الرباع بين دار المنكدر التيمي وبين دار آل أبي جَهْم العدويين ، والدار الأخرى في بني زُرَيق وُجاه الـكتاب الذي يقال له كتاب آل زيان بين منزل أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الذي صار لبني عبيد بن عبد الله بن الزبير وبين حد الزقاق الذي عند الحمارين ، دبرهما دار هانىء التي بأيدي آل جبر ، انتهى.

وهذه الأمور التي ذكرها في الدار الثانية حول ماخلف دار سعيد بن العاص المسماة دار ابن عتبة من جهة القبلة ، والزقاق الذي ذكره هناك عند الحمارين يمتدّ في المغرب إلى المصلّى في قبلة دور سعد بن أبي وقاص .

وقد ذكر ابن شبة أيضاً أن دار رُوَيْشِد الثقفي التي يقال لها القمقم في كتاب ابن زيان هي التي حَرّقها عليه عمر بن الخطاب في الشراب ، وكان رويشد حمارا، وفي غربي هـذه الدار أدنى دار علي بن عبد الله بن أبي فَرْوَة ، وشرقيها الطريق بينها وبين بيوت آل مصبح ، ويمانيهـا دار الأويسيين التي لسكن خالد بن عبد الله الأويسي ، وشاميها قبلة بيوت آل مصبح التي بينها وبين دار موسى بن عيسى ، وبيوت آل مصبح ذكرها في دور بني عامر بن لؤي فقال : واتخذ ابن أم مكتوم دارا هي البيوت التي للمصبحين بين دار آل زَمْعة بن الأسـود وبين شرقي القمقم،انتهى . وهذه الأمور أيضاً حول الدور المتقدمة في بني رزيق .

وقوله في دار نوفل الأولى وهي المقصودة لأنها التي في ميمنة البلاط وأنهـا

عند أصحاب الرباع ، لم أعلم المراد به، غير أن فى طبقات ابن سعد أن دار حُوَيْطب ابن عبد العزى المتقدم ذكرها فى الميسرة عند أصحاب المصاحف ، فإنه قال فى ترجمته : وله دار بالبلاط عند أصحاب المصاحف ، فلعل المراد بالرباع المصاحف ؛ لأن المصحف يسمى ربعة ؛ فيستفاد منه أن هذه الناحية من البلاط ميمنة وميسرة تسمى بذلك ، لكن قال ابن شبة فى دور العباس بن عبد المطلب ما لفظه : وقد سمعتُ مَنْ يذكر أن دار فضالة بن الحكم بن أبى العاص التى بالبلاط الخربة التى عند أصحاب الرباع على يمين مَنْ سلك إلى بنى جديلة كانت مِرْبَدًا للعباس رضى الله عنه ، ويقال : إنها كانت مربداً لنعم الصدقة ، انتهى .

وهو يقتضى أن أصحاب الرباع ليسوا فى البلاط الأعظم ، لأنه ليس فيه مَسْلك إلى بنى جديلة ، وإنما يتوصل منه إلى بنى جديلة بعد إتيان البلاط الآخر الذى هو موضع سوق المدينة اليوم عند درج العين ، وقد تقدم أن ذلك يسمى بموضع الفاكهة ، والله أعلم .

هذا ما علمته من الدور التى بهذا البلاط ، وفى الاقتصار عليها كفاية ؛ لأن المقصود المهمّ لنا من ذلك ما يتعلق ببيان مسجد بنى زُرَيق ، وبطريق النبى صلى الله عليه وسلم فى ذهابه إلى المصلى ورجوعه منها كما سيظهر لك .

وأما البلاط الممتد فى المغرب إلى سوق المدينة القديم فكان عند خاتمة دار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه كما تقدم .

وقال ابن شبة فى دور العباس : ومنها الدار التى بالزَّوْرَاء سوق المدينة عند أحجار الزيت ، أقطعها له عمر بن الخطاب ، قال : وقد بلغنى أن دار طلحة بن عمر بالبلاط كانت مِرْبَدًا لدار العباس هذه ، فابتاعها عمر من بعض بنيه . ويقوى ذلك أن المنصور أبا جعفر ابتاع تلك الدار من ولد طَلْحة بن عمر بأربعين ألف دينار .

ثم ذكر للعباس دارا أخرى ليست فى البلاط ، لكنها فى شامى هذه الدار ،

فقال : ومنها الدار التى إلى جَنْب دار آل قارط حُلَفاء بنى زُهْرة ، بينها و بين خطة بنى ضَمْرة ، وهى التى كان عبد الله بن عباس يسكن وجعلت المحررة هناك لطعام كان ابن عباس يطعمه .

قلت : و إنما ذكرنا هاتين الدارين لما سيأتى من ذكرهما فى الدار التى أخذ بها هشام بن عبد الملك سوق المدينة .

و يستفاد مما سيأتى فى ترجمة أحجار الزيت أن دار العباس التى عند خاتمة البلاط المذكور كانت بقرب مشهد سيدنا مالك بن سنان فى شرقيه ، وسيأتى أنه دفن عند مسجد أصحاب العَبَاء ، أى الذين يبيعون العبى ، وهنالك كانت أحجار الزيت .

الفصل السادس والثلاثون

فيما جاء فى سوق المدينة الذى تصدق به النبى صلى الله عليه وسلم على المسلمين، وذكر دار هشام بن عبد الملك التى أخذ بها السوق .

الرسول ينشىء السوق

روى عمر بن شبة عن عطاء بن يَسَار قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل المدينة سوقا أتى سوق بنى قَيْنُقَاع ، ثم جاء سوق المدينة فضرب به برجله وقال : هذا سوقكم ؛ فلا يضيق ، ولا يؤخذ فيه خَرَاج .

وروى ابن زَبَالة عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط أن السوق كانت فى بنى قَيْنُقَاع حتى حول السوق بعد ذلك .

أسواق المدينة فى الجاهلية

وقال ابن شبة : قال أبو غسان : وكان بالمدينة فى الجاهلية سوق بزَبَالة من الناحية التى تدعى يثرب ، وسوق بالجسر فى بنى قَيْنُقَاع ، و بالصفاصف بالعصبة سوق ، وسوق يقوم فى موضع زقاق ابن حبين كانت تقوم فى الجاهلية وأول الإسلام ، وكان يقال لذلك الموضع : مزاحم .

وروى ابن شبة أيضاً عن صالح بن كَيْسَان قال : ضرب رسولُ الله صلى الله

عليه وسلم قبة فى موضع بَقيع الزبير فقال : هذا سوقكم. فأقبل كعب بن الأشرف فدَخَلها وقَطَع أطنابها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا جَرَمَ لأنقلنَّها إلى موضع هو أغْيَظُ له من هذا ، فنقلها إلى موضع سوق المدينة ، ثم قال : هـذا سوقـكم ، لا تتحجَّروا ، ولا يُضرَب عليه الخراج .

وعن أبى أسيد أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى قد رأيت موضعا للسوق ، أفلا تنظر إليـه ؟ قال : فجاء به إلى موضع سوق المدينة اليوم ـ أى فى زمنهم ـ قال : فضرب النبيُّ صلى الله عليه وسلم برجْله وقال: هذا سوقكم ؛ فلا ينقص منه ، ولا يضربَنَّ عليه خراج .

وروى ابن زبالة عن عباس بن سهل عن أبيه أن النبى صلى الله عليـه وسلم أتى بنى سـاعدة فقال : إنى قد جئتكم فى حاجة تُعْطُونى مكانَ مقابركم فأجعلها سوقاً ، وكانت مقابرهم ماحازت دار ابن أبى ذئب إلى دار زيد بن ثابت ، فأعطاه بعضُ القوم ، ومنعه بعضهم ، وقالوا : مقابرنا ومخرج نسائنا ، ثم تَلاوَمُوا فلحقوه وأعطَوه إياه ، فجعله سوقا .

قلت : وسيأتى ما يبين أن دار ابن أبى ذئب ودار زيد بن ثابت كانتا فى شرقى السوق ، الأولى عند أثنائه مما يلى الشام ، والثانية عند أثنائه مما يلى القبلة ؛ فليست المقابر المذكورة سوق المدينة كله ، بل بعضه . وقد قدمنا فى منازل بنى ساعدة أن ابن زبالة نقل أن عرض سوق المدينة ما بين المصَلَّى إلى جرار سعد ، وهى جرار كان يَسْقِى الناسَ فيها الماء بعد موت أمه ، وقدمنا أن الذى يترجح أن المصلى حده من جهة القبلة ، وأن جرار سعد حده من جهة الشام ؛ فتكون جرار سعد قرب ثَنِيَّة الوَدَاع ، وقد قوى الآن ذلك عندى جدا ، لما سيأتى فى ذكر دار هشام .

وروى ابن شبة أيضاً وابن زبالة عن محمد بن عبد الله بن حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدَّق على المسلمين بأسواقهم .

وروى ابن زبالة عن خالد بن الياس العدوى قال : قرئ علينا كتابُ عمر ابن عبد العزيز بالمدينة : إنما السوق صَدَقة فلا يضربَنَّ على أحد فيه كِراء .

وعن ابن أبي ذئب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على خيمة عند موضع دار المنبعث فقال : ما هذه الخيمة ؟ فقالوا : خيمة لرجل من بنى حارثة كان يبيع فيها التمر ، فقال : حرقوها ، فحرقت . قال ابن أبي ذئب : وبلغنى أن الرجل محمد بن مسلمة .

وروى ابن شبة عن أبى مردود عبد العزيز بن سليمان أن عمر بن الخطاب رأى كِيرَ حَدَّاد فى السوق ، فضرب به برجله حتى هَدَمه ، وقال : أتنتقصُ سوق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وروى ابن زبالة عن حاتم ابن إسماعيل عن حبيب قال : مر عمر بن الخطاب على باب معمر بالسوق ، وقد وضع على بابه جرة ، فأمر بها أن تُقلع ، فخرج إليه معمر فقال : إنما هذه جرة يَسْقِى فيها الغلامُ الناسَ ، قال : فنهاه عمر أن يحجر عليها أو يحوزها . قال : فلم يَلبث أن مرَّ عليها وقد ظلل عليها ، فأمر عمر بالجرة والظل فنزعهما .

وعن عبد الله بن محمد قال : كان الراكبُ ينزل بسوق المدينة فيضع رَحْله ، ثم يطوف بالسوق ورَحْله بعينه يُبْصره ، لا يغيبه عنه شىء .

وروى أيضاً قصة أخذ معاوية رضى الله تعالى عنه لدار النقصان من صحن سوق المدينة .

وروى أيضاً عن محمد بن طلحة وغيره قال : أحدث إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة فى سلطان هشام بن عبد الملك ، وهو يومئذ والٍ له على المدينة ، دارا أخذ بها سوق المدينة ، وسدَّ بها وجوه الدور الشوارع فى السوق ، وكتب إلى هشام يذكر له عليها وعظم قدرها ، فكتب إليه هشام يأمره بإمضائها وإمضاء عين السوق ، وكان أخذتها فى سكك أهل

المدينة ، ودخلت فى بعض منازلهم ، فكتب إليه أن أمضها وإن كانت فى بطونهم .

قلت : ونقل ابن شبة عن أبى غسان أنه قال : كان الذى هاج هشام بن عبد الملك على بناء داره التى كانت بالسوق أن إبراهيم بن هشام بن إسماعيل كان خال هشام بن عبد الملك ، وكان ولاه المدينة ، فكتب إليه إبراهيم ، فذكر أن معاوية بن أبى سفيان بنى دارين بسوق المدينة يقال لإحداهما دار القطران والأخرى دار النقصان ، وضرب عليهما الخراج ، وأشار عليه أن يبنى دارا يدخل فيها سوق المدينة ، فقبل ذلك هشام ، وبناها ، وأخذ بها السوق كله ، انتهى .

وقال ابن زبالة عقب ما تقدم : فابتدأ الدار من خاتمة البلاط أى الذى عند دار العباس بالزوراء بقرب مشهد مالك بن سنان رضى الله عنه ، فيكون هذا الجدار فى شرقى السوق ، وهذا أول الجدار المذكور مما يلى القبلة ، وما سيأتى فيه دال على أنه استمر يمده إلى جهة الشام ، وليس ابتداء هذا الجدار من القبلة أول السوق لما سيأتى ، بل بقى منه بقية فى جهة القبلة إلى المصلى سيأتى ذكرها .

قال ابن زبالة عقب ذكره لابتداء الدار من خاتمة البلاط : فمضى بها حتى سد بها وجه دار العباس بن عبد المطلب ، أى التى عند خاتمة البلاط ودار نخلة ، وكانت لآل شيبة بن ربيعة ، وإنما سميت دار نخلة لنخلة كانت فيها . ثم دار معمر العدوى التى كان يجلس صاحبُ السوق بفنائها . ثم دار خالد بن عقبة التى بفنائها أصحابُ الرقيق .

وجعل لبنى ساعدة طريقا مبوبة ، ثم أخذ وجه دار ابن جحش . ثم وجه دار ابن أبى فروة التى كانت لعمر بن طلحة بن عبيد الله ، ثم وجه دار ابن مسعود ، ثم وجه دار زيد بن ثابت ، وجعل للطريق منفذا مبوبا . ثم وجه دار جبير ابن مطعم التى فيها أصحاب العَبَاء . ثم وجه دار القارظيين . ثم وجه دار العباس ابن عبد المطلب ، أى الثانية التى كان عبدُ الله بن عباس يسكنها ، وجعل لبنى

ضَمْرة طريقا مبوبا . ثم وجه دار ابن أبى ذئب . ثم دار آل شويفع . ثم صدقة الزبير ، وجعل لبنى الديل طريقا مبوبا .

قلت : وهذا الطريق عند نهاية هذا الجدار الشرقى مما يلى الشام قرب ثنية الوداع ، والطرق المذكورة قَبْله كلها فى الجدار المذكور خططها فى المشرق .

ثم بين ابن زبالة ما يقابل هـذا الجدار فى المغرب مبتدئا بما يقابله من جهة القبلة ، ثم إلى الشام فقال عقب ما تقدم :

ثم أخذ بها من الشق الآخر ، فأخذ وجـه الزوراء ووجه دار ابن نصلة الـكنانى . ثم على الطاقات حتى ورد بها خيام بنى غفار ، وجعل لمخرج بنى سلمة من زقاق ابن جبير بابا مبوبا عظيما يغلق . ثم مضى بها على دار النقصان ودار نويرة ، وجعل لسكة أسلم بابا مبوبا . ثم مضى بها على دار ابن أزهر ودار ابن شهاب ودار نوفل بن الحارث حتى جاوز بها دار حجارة ، وكانت لعبيد الله بن عباس ابن عبد المطلب ، حتى إذا جاوز بها دار حجارة جعل لها بابا عظيما يقابل الثنية .

قلت : يعنى ثنية الوَدَاع ، وهذا الباب فى جهة الشام كما صرح به ابن شبة فقال ، عقب ما تقدم : وجعل لها بابا شاميا خلف شامى زاوية دار عمر بن عبد العزيز بالثنية . ثم جعل بينها و بين دار عمر بن عبد العزيز عرضا ثلاثة أذرع ، ثم وضع جدارا آخر وُجَاه هذا الجدار . ثم قاد الأساس بينه و بين الدور كلها ثلاثة أذرع حتى الزقاق الذى يقال له زقاق ابن جبير ، جعل عليه بابا ، وجعل على الزقاق الذى يقال له زقاق بنى ضمرة عند دار آل أبى ذئب بابا . ثم جعل على الزوراء خاتم البلاط أى بابا ؛ فيستفاد منه جعل باب هناك ، وليس فى كلام ابن زبالة تعرض له .

ثم إن ابن زبالة ذكر ما بقى من شقى الدار الغربى والشرقى مما يلى القبلة إلى المصلى ، فقال عقب كلامه السابق : ثم ساقها من الشقين جميعا الغربى والشرقى فسدَّ بها وجوه الدور ، وأخذ بها السوق فسد بها من الشق الشرقى وجه دار

قطران ، وكانت من دور معاوية . ثم وجه دار ابن جودان وتلك الدور .

ومن الشق الغربى دار حجارة لكثير بن الصَّلت ، وكانت قَبله لربيعة ابن دراج الجمحى . ثم وجه الربعة التى فيها دار آل أبى عثمان حُلَفاء أزهر ابن عبد عوف . ثم جعل للسكة منفذا . ثم وجه دار التمارين ، وكانت لمعاوية ابن أبى سفيان ، وقَبله لسعيد بن عبد الرحمن بن يربوع .

فلما بلغ ابن هشام بالدار التمارين وقف ، وجعل لها هنالك بابا عظيما يقابل المصلى .

وقال ابن شبة عقب قوله فيما تقدم « وجعل على الزوراء خاتم البلاط » ما لفظه : ثم مدَّ الجدار حتى جاء به على طيقان دار القطران الأخرى الغربى ، حتى جاء بها إلى دار ابن سباع بالمصلى التى هى اليوم لخالصة ، فوضع ثم بابا أى بالمصلى .

قال : ثم بنى ذلك بيوتا ؛ فجعل فيه الأسواق كلها ، فكان الذى ولى ابن هشام أى على بنائها سعد بن عبد الرحمن الزرقى من الأنصار ، فتم بناؤها إلا شيئاً من بابها الذى بالمصلى .

ونقلت أبوابها إليها معمولة من الشام ، وأكثرها من البلقاء ، انتهى .

وقال ابن زبالة ، عقب كلامه السابق : وفعل ذلك فى بقيع الزبير ، وضرب عليه طاقات ، وأكراها ، وسد بها وجوه دورهم ، وجعل للسكك منفذا يغلق .

قلت : ومراده أنه جعل فى فضاء بقيع الزبير دارا كدار السوق ، ولا يتوهم من ذلك أن بقيع الزبير من جملة السوق ؛ لما سيأتى فى ترجمته .

قال ابن زبالة : وجعل لدار السوق حوانيت فى أسفلها ، وعلالىَّ تكرى للسكن ، وحملت أبوابها من البلقاء ، فمنها بقية بالمدينة مكتوب فيها البلقاء .

قال : فبينا الناسُ لا يدرون بموت هشام إلى أن جاء ابن المكرم الثقفى من الشام بريدا بموته رسولا للوليد بن يزيد ، ويبشرهم بالعطاء ، فصاح حين دخل

هدم الدار التى وضعت مكان السوق

الثانية : ألا إنْ هشاماً الأحول قد مات ، فوثب الناسُ على الدار فهدموها ، وعلى عين السوق فقطعوها .

وعبارة ابن شبة : فلم تزل – أى تلك الدار – على ذلك حياةَ هشام بن عبد الملك ، وفيها التجار ، فيؤخذ منهم الـكِرَاء ، حتى توفى هشام ، فقدم بوفاته ابن مكرم الثقفى ، فلما أشرف على رأس ثنية الوداع صاح : مات الأحول ، واستخلف أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، فلما دخل دار هشام تلك صاح به الناس: ما تقول فى الدار ؟ قال : اهدِمُوها ، فوقع الناس فهدموها ، وانتهبت أبوابها وخشبها وجريدها ، فلم يمض ثالثة حتى وضعت إلى الأرض .

فقال أبو معروف أحدُ بنى عمرو بن تميم :

ما كان فى هَدْم دار السوق إذ هدمت سوقُ المدينة مِنْ ظُلْمٍ ولا حَيف
قام الرجال عليها يضربون معاً ضَرْباً يفرق بين السور والتحف
ينحطُّ منها ويَهْوِى من منا كبها صَخْرٌ تقلب فى الأسواق كالخلف

وذكر ابن زبالة هذه الأبيات عن أبى معروف ، إلا أنه زاد قبلها ثلاثة أخرى فقال : وقال أبو معروف :

قل للوليد أبى العبّاس قد جَمَعَتْ أيمانُ قومك بالتسليم فى الصحف
مازلتَ ترمى ويرمى الناسُ عن هَدَفٍ حتى وضعت نصالَ النبل فى الهدف
أعطاكَ رَبُّكَ طوعاً من قلوبهم نُصْحاً تبين قبل الظن والحلف
ما كان فى هدم دار السوق إذ هدمت الأبياتَ المتقدمة

بيت أم كلاب

وروى ابن زبالة من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم براوية الخمر التى أهْدَى له الدوسى فأهريقت بالسوق عند بيت أم كلاب حيثُ يُهْرَاق الشراب اليوم ، وسيأتى فى ترجمة أحجار الزيت قول ابن أبى فديك : أدركت أحجار الزيت ثلاثة مواجهة بيت ابن أم كلاب ، وهو اليوم يعرف ببيت

بنى أسد ، انتهى ، وكأنه غيرُ بيت ابن أم كلاب الذى له ذكر فى بنى زريق ، فهذا السوق هو المراد بما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم خرج بأسْرَى بنى قُرَيظة إلى سوق المدينة فَخَنْدَقَ بها خنادق ، ثم ضرب أعناقهم فى تلك الخنادق ،ويظهر مما قدمناه ومما سيأتى فى ترجمة الزوراء أن مقدم سوق المدينة مما يلى خاتمة البلاط وما حول ذلك كان يسمى بالزوراء .

وروى ابن شبة عن بعضهم أنه قال : أدركت سوقاً بالزوراء يقال له سوق الحرص ، كان الناس ينزلون إليها بدرج.

البطحاء

قلت : ورأيت فى الأم للشافعى رضى الله تعالى عنه ما يقتضى تسمية سوق المدينة بالبَطْحَاء ؛ فإنه روى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطُب يوم الجمعة ، وكان لهم سوق يقال لها البطحاء ، كانت بنو سليم يجلبون إليها الخيلَ والإبل والغنم والسمن ، فقدموا فخرج إليهم الناسُ — الحديثَ .

بقيع الخيل

وروى ابن شبة من طريق عُرْوة عن عائشة رضى الله عنها قالت فى حديث ساقه : كان يقال لسوق المدينة بقيع الخيل ، وهذا الحديث تقدم من رواية ابن زبالة فى ذكر دُعَائه صلى الله عليه وسلم للمدينة وسؤاله نَقْلَ وبائها ، وفيه: ثم عمد إلى بقيع الخيل — وهو سوق المدينة — فقام فيه ووجْهُه إلى القبلة ، فرفع يديه إلى الله فقال : أللهم حَبِّبْ إلينا المدينة — الحديث .

والبقيع هنا بالموحدة التحتية ؛ فهو المراد بقول ابن عمر فى حديثه الذى رواه الأربعة والحاكم : إنى أبيع الإبلَ بالبقيع بالدنانير ، وآخذ مكانها الدراهم — الحديث ولما خفى هذا على كثير من الناس قال بعضهم : إن الظاهر أن المراد النَّقيع بالنون أى حمى النقيع ، قال : لأنه أشبه بالبيع من البقيع الذى هو مدفن ، وقال النووى: ليس كما قال، بل هو بقيع الغرقد — بالباء — ولم يكن ذلك الوقت كثرت فيه القبور، انتهى، ولم يذكر أحد من مؤرخى المدينة أنه كان ببقيع الغرقد سوق ، مع اعتنائهم

بذكر أسواق المدينة فى الجاهلية والإسلام ؛ فالمعتمد ما قدمناه ، والمسمى بالبقيع هنا ما يلى المصَلّى من سوق المدينة ، ويسمى بقيع المصَلّى أيضاً كما سيأتى ، ولهذا روى أحمد والطبرانى عن أبى بُرْدة بن نيار قال : انطلقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع المصَلّى فأدخل يده فى طعام ثم أخرجها فإذا هو مغشوش ، أو مختلف ، فقال : لَيْسَ منا مَنْ غَشّنا ، ورواه الطبرانى أيضاً عن أبى موسى قال : انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق البقيع ، فأدخل يَدَه فى غرارة ، فأخرج طعاماً — الحديثَ ، فعبر عن بقيع المصلى بسوق البقيع .

وروى ابن زبالة أيضاً فى ذكر سوق المدينة عن محمد بن طلحة قال : رأيت عثمان بن عبد الرحمن و إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد ومحمد بن المنكدر ، وزيد بن حصفة يقومون بفناء بركة السوق اليوم قبل أن تكون ، يقومون مستقبلين فسألت عثمان بن عبد الرحمن عن ذلك ، فقال : قد اختلف علينا فى ذلك ؛ فقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو هنالك ، وقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم هنالك فينظر إلى الناس إذا انصرفوا من العيد ، قال : وكان عامر بن عبد الله بن الزبير يقف عند التبانين فيدعو ، وسيأتى فى ذكر المصلى ما رواه الشافعى فى الأم من طريق عبد الرحمن التيمى عن أبيه عن جده أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم رَجَع من المصلى يوم عيدٍ فسلك على التمارين من أسفل السوق ، حتى إذا كان عند مسجد المصلى الذى هو عند موضع الدار التى بالسوق قام فاستقبل فَجّ أسلم فدعا ثم انصرف .

بركة السوق

قلت : وهذا بين أن بركة السوق فى شامىّ فَجّ أسلم ، وسيأتى فى منازل أسلم ما يبين أن منازلهم فى شامى الثنية التى عليها حصن أمير المدينة اليوم ، وتقدم فى ذكر دار السوق حيث قال فيها فى جهة المغرب : وجعل لسكة أسلم باباً ما يبين ذلك ، وحينئذ فبركة السوق هى المَنْهَل الذى ينزل إليه بالدرج عند مشهد النفس

الزكية من عين المدينة على يسار المار إلى ثنية الوَدَاع ، وفى كلام ابن زبالة مايومىء إلى أن الذى أحدث العينَ هناك إنَّما هو إبراهيم بن هشام ، وسيأتى فى ترجمة أحجار الزيت أن النبى صلى الله عليه وسلم استسقى عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء ، والله أعلم .

وروى ابن شبة عن أبى هريرة أنه كان يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى يخسف برجل بصَحْن هذا السوق ، قال ابن أبى فديك : وكنت أَسْمَعُ من المشايخ أنه قال والله أعلم : إن ذلك يكون على باب بيت البرّادين ، ويقال : هو بفناء دار ابن مسعود .

وعن عبد الرحمن بن الحارث بن عبيد عن جده قال : خرجت مع أبى هريرة حتى إذا كنا عند دار ابن مسعود قال : يا أبا الحارث ، إن حِبِّى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم أخبرنى أنه رُبَّ يمين بهذه البقعة لا يصعد إلى الله ، قال : قلت له : أنَّى ذلك يا أبا هريرة ؟ قال : أما أنى أشهد ما كذبت ، قلت : وأنا أشهد .

وروى ابن زبالة عن عبد الرحمن بن يعقوب أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء السوق فرأى حنطة مُصَبَّرة فأدخل يَدَه فيها ، فناله بلل فى جوفها ، فقال :ماهذا؟ لصاحب الطعام ، قال : أصابنى مطر فهو هذا البَلَلُ الذى ترى ، قال : ألا جعلته على رأس الطعام حتى يراه الناس ؟ مَنْ غَشَّ فليس منى ، من غَشَّ فليس منى ، وأصل الحديث رواه أبو داود وغيره ، ولفظه : أن النبى صلى الله عليه وسلم مَرَّ برجل يبيعُ طعاماً ، فسأله كيف تبيع ؟ فأخبره، فأوحى إليه أن أَدْخِلْ يَدَكَ فيه، فأدخل يدهُ فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من غش .

وعن ابن المغيرة قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاما فى السوق بسعر هو أرفع من سعر السوق ، فقال : تبيعُ فى سوقنا بسعر هو أرفع من سعرنا؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : صبراً واحتساباً ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال :

أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله ، وإن المحتكر فى سوقنا كالمُلْحِد فى كتاب الله .

قلت : وقوله «بسعر هو أرفع» أى بزيادة فى المسعَّر وهو المبيع ، ويدل لذلك ما رواه ابن شبة عن ابن عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بَلْتَعَةَ قال : كان أبى وعثمان بن عفان شريكين يجلبان التمر من العالية إلى السوق ، فمر بهم عمر بن الخطاب ، فضرب الغرارة برجله وقال : يابن أبى بَلْتَعة زد فى السعر وإلا فاخْرُجْ من سوقنا .

وروى ابن زَبَالة عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب مَرَّ بحاطب بن أبى بَلْتَعة وهو بسوق المصَلّى وبين يديه غرارتان فيهما زَبيب ، فسأله عن سعره ، فسعَّر له مُدَّين بدرهم ، فقال عمر : قد حُدِّثْتُ بعيرٍ مُقْبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم إذا وضَعُوا إلى جَنْبك غداً اعتبروا بسعرك ، فإما أن ترفع فى السعر ، وإما أن تدخل زبيبك فى البيت فتبيعه كيف شئت ، فلما رجع عمر حاسَبَ نَفْسه فى الظهر ، ثم خرج فأتى حاطباً فى منزله فقال : إن الذى قلت لك ليس بعزيمة منى ولا قضاء ، وإنما هو شىء أردتُ به الخيرَ فحيث شئت فَبِعْ .

الفصل السابع والثلاثون

فى منازل القبائل من المهاجرين ، ثم اتخاذ السُّور على المدينة .

قال عمر بن شبة : نزل بنو غفار بن مليل بن ضَمْرة بن بكر بن عبد مناف ابن كنانة القطيعةَ التى قطع لهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى ما بين دار كثير بن الصَّلْت التى تعرف بدار الحجارة السوق إلى زُقَاق ابن حبين إلى دار أبى سَبْرة إلى منازل آل الماجَشُون بن أبى سلمة ، وبهذه الخطة مسجد بنى غفار صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم وهو خارج من منزل أبى رُهْم بن الحصين الغفارى . منازل بنى غفار

قلت : ودار كثير بن الصلت هذه تقدم بيانها فى غربى السوق مما يلى القبلة شامى المصلى ، وأما زقاق ابن حبين ، ففى غربى السوق أيضا مما يلى الشام بالقرب من حِصْن أمير المدينة ، وابن حبين كان مولى للعباس بن عبد المطلب . وأما دار أبى سَبْرة فلم أعْرِفها ؛ فالظاهر أنها كانت فى جهة غربى سوق التمارين . وأما منازل آل الماجشُون ، فذكر هو فى موضع آخر أنها فى زُقَاق الجلادين ، وسيأتى فى منازل بنى كعب أنه شارع على المُصَلَّى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واتخذ سباع بن عُرْفُطة الغفارى خطة بالمُصَلَّى وهى الدار التى يقال لها دار عبد الملك بن مروان بالمصلى وجهها شارع قبالة الحجامين .

قلت : وذلك فى شامى المصلى مما يلى السوق والمغرب لأن ابن شبة قال : إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اتَّخَذ دارا بالمصلًّى فى موضع الحجامين ، ثم ابتاعها معاوية ، فزادها فى مُصَلَّى النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أدخلها بعد هشام بن عبد الملك فى داره التى أخذ بها السوق ثم هدمت .

ونزل سائر بنى غفار محلتهم وهى السائلة من جبل جُهَينة إلى بطحان وما بين خط دار كثير بن الصَّلت ببُطْحان إلى بنى غفار ؛ فنزلت بنو غفار منزلهم من خط دار كثير بن الصَّلْت إلى أن يُفْضى إلى جهينة .

قلت : وجبل جهينة لم أعرفه ، فإما أن يكون أراد به ما يلى جبيل سَلْع فى مقابلة المُصَلَّى ونسبه إلى جهينة لنزولهم عنده ، وهناك سائلة تسيل من سَلْع إذا حَصَل المطر ، و إما أن يكون أراد به أحد الجبلين اللذين فى غربى مساجد الفتح لما سيأتى فى منازل جهينة . وأما دار كثير بن الصَّلْت ببُطْحَان فقد ذكر فى موضع آخر ما يبين أنها كانت على شَفير وادى بُطحان بالعُدْوة الغربية ، وأن عقبة بن أبى مُعَيط لما جَلَده عثمان بن عفان فى الشراب حلَف لا يُساكنه إلا و بينهما بطن وادٍ ، فناقَلَ كثير بن الصَّلْت بداره هذه إلى دار الوليد بن عقبة التى فى قبلة مصلى العيد الذى يصلى به الإمام اليوم ، والله أعلم .

ونزل بنو أبى عمرو بن نعيم بن مهان من بنى عبد الله بن غفار شامىّ وغربى بنى مبشر بن غفار ، ومعهم بنو خفاجة بن غفار .

منازل بنى ليث ابن بكر

ونزل بنو ليث بن بكر ما بين خط بنى مبشر بن غفار إلى خط بنى كعب بن عمرو بن خزاعة الذى يسلكك إلى دور الغطفانيين .

قلت : يؤخذ مما سيأتى فى منازل بنى كعب أن منازل بنى لَيث كانت فى قبلة خط بنى مبشر ، وشامى بنى كعب ؛ فتكون جهة منازل بنى ليث فى شامى التمارين وغربيهم ، ولعل قول ابن زبالة فى دار السوق فى جهة المغرب قبل ذكر دار التمارين ثم جعل للسكة منفذا يريد به طريق بنى ليث ومن يشركهم فى ذلك. وقد قال ابن شبة فى دور بنى مخزوم : واتخذ أبو شريح الخزاعى حليف بنى مخزوم دارا غربيها شارع على بطحان ، وشاميها شارع إلى الزقاق الذى يدعى زقاق بنى ليث ، والله أعلم .

ونزل بنو أحمر بن يعمر بن ليث ما بين مسجدهم إلى سوق التمارين ، واتخذوا المسجد الذى فى محلتهم يدعى مسجد بنى أحمر .

ونزل بنو عمر بن معمر بن ليث ما بين مسجدهم الذى يدعى مسجد بنى كدل إلى بطحان إلى منزل بنى مبشر بن غفار إلى زقاق الجلادين الذى فيه دار الماجشون إلى دار أبى سَبْرة بن خلف إلى التمارين

ونزل آلُ قسيط بن يعمر بن ليث ما بين شامى بنى كعب من منازل آل نضلة بن عبيد الله بن خراش إلى خط كتاب النصر إلى الشارع إلى المصلى إلى بطحان .

ونزل بنو رجيل بن نعيم بطرف المُصَلَّى بين غربى دار كثير بن الصلت أى التى هى قبلة المصلى إلى دار آل قايع الأسديين الشارعة على بطحان .

ونزل بنو عتوارة بن ليث — وهم بنو عضيدة — ما بين طرف دار

الوليد بن عقبة اليمانى بِبُطحان إلى الحَرَّة إلى زقاق القاسم بن غنام من دار الوليد أبن عقبة .

منازل بنى ضمرة بن بكر

ونزل بنو ضَمْرة بن بكر إلا بنى غفار محلتهم التى يقال لها بنو ضمرة ، وهى شرقى ما بين دار عبد الرحمن بن طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر بالثنية إلى محلة بنى الدِّيل بن بكر إلى سوق الغنم الشارع إلى دار ابن أبى ذئب العامرى ، واتخذوا فى محلتهم مسجدا .

منازل بنى الديل

ونزل بنو الديل بن بكر فى محلتهم — وهى ما بين ضمرة إلى الدار التى يقال لها دار الخرق — حدُّها زقاق الحضارمة ، ويدعى الخط العظيم لهـا بنى ضمرة ، إلى جبل فى مربد أبى عمار بن عبيس من بنى الديل يقال له المستندر إلى دار الصَّلْت أبن نوفل النوفلى التى بالجبانة .

قلت : الجبل الذى ذكر أنه يسمى بالمستندر هو الجبل الصغير الذى فى شرقى مشهد النفس الزكية بمنزلة الحاج الشامى ؛ لانطباق الوصف المذكور عليه ، والله أعلم .

ونزل أبو نمر بن عُوَيف من بنى الحارث بن عبد مناف بن كنانة على بنى ليث بن بكر فاتخذوا الدارَ التى يقال لها دار أبى نمر ، وهى فى خط بنى أحمر بن ليث المتقدم ذكره .

منازل ابنى أفصى

منالز أسلم ومالك ابنى أفصى — نزل بنو أسلم ومالك ابنى أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر منزلين ؛ فنزلت بنو مالك بن أفصى وأمية وسهم ابنى أسلم ما بين خط زقاق ابن حبين مولى العباس بن عبد المطلب الشامى من زاوية يقصان التى بالسوق إلى خط جهينة إلى شامى ثنية عثعث .

قلت : قد علم ممـا سبق فى دار السوق أن زقاق ابن حبين فى غربى سوق المدينة ، وسيأتى فى ترجمة ثنية عثعث أنها منسوبة إلى جبل يقال له سليع عليه بيوت

أسلم بن أفصى؛فهى الثنية التى عند الجبيل الذى عليه حصن أمير المدينة اليوم ، والمراد من بيوت أسلم منزل هؤلاء ، والله أعلم .

ونزلت سائر أسلم ، وهم آل بريدة بن الحصيب وآل سفيان ـ ما بين زقاق الحضارمة إلى زقاق القنبلة .

قلت : وذلك فى شرقى مؤخر سوق المدينة مما يلى الشام ، وفى جهة زقاق الحضارمة اليوم حديقة تعرف بالحضرمية شامىّ سور المدينة ، وفى شاميها جهة زقاق القنبلة .

ونزلت هذيل بن مدركة ما بين شامى سائلة أشجع وزاوية دور يحيى بن أبن عبد الله بن أبى مريم إلى دار حرام بن مزيلة بن أسد بن عبد العزى بالثنية زاويتُها اليمانية ، وذلك مجتمعها ومجتمع أسلم .

منازل مزينة ومن حل معها

منازل مزينة ومَنْ حَلَّ معها من قيس عَيْلان بن مضر ـ ونزل بنو هدبة أبن لاطم بن عثمان بن عمرو ، إلا بنى عامر بن نور بن لاطم بن عثمان ، وعثمان نفسه الذى يقال له مزينة ، وهى أمه ـ ما بين زاوية بيت القروى المطِلّ على بطحان الغربية إلى زاوية بيت ابن هبار الأسدى الذى صار لبنى سمعان الشرقية إلى خط بنى زريق إلى دار الطائفى التى بشق بطحان الشرقى .

ونزل معها فى هذه المحلة بنو شيطان بن يربوع من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس و بنو سليم بن منصور وعدوان بن عمرو بن قيس .

وعن شرقى خطة مُزَينة هذه سليم بن منصور إلى دار خلدة بن مخلد الزرقى ، وأدنى دار أم عمرو بنت عثمان بن عفان إلى بيوت نفيس بن محمد مولى بنى المعلى فى بنى زريق من الأنصار ، إلى أن تلقى بنى مازن بن عدى بن النجار ؛ فهؤلاء الذين نزلوا مع مُزَينة ، ودخل بعضهم فى بعض ، و إنما نزلوا جميعا لأن دارهم فى البادية واحدة .

قلت : فمنازل مُزَينة ومَنْ حلّ معها فى غربى مصلى العيد اليوم إلى عُـدْوَة بطحان الشرقية ثم فى قبلة الدور التى بالمُصَلّي ثم فى قبلة بنى رزيق إلى بنى مازن ابن النجار .

وقد نزلت بنو ذكوان من بنى سليم مع أهـل راتج من اليهود ، مابين دار قدامة إلى دار حسن بن زيد بالجَبَّانة .

قلت : ودار قدامة هى المرادة بقول ابن شبةفى دور بنى جُمَح « واتخذ قدامة ابن مظعون الدار التى فيها المجزرة على فوهة سكة بنىضمرة ودبر دار آل أبى ذئب على يمينك وأنت ذاهب إلى بنى ضمرة » والله أعلم .

ونزل بنو أوس بن عثمان بن مزينة بطَرَف السورين ، مابين دار أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق إلى مُفْضَى السورين إلى الحمارين ، الزقاق الذى فيه قصر بنى يوسف مولى آل عثمان إلى البقال .

قلت : وهذه الأمور بقرب البقيع ، كما سيأتى فى تراجمها .

ونزل بنو عامر بن ثور بن ثعلبة بن هُذْبة بن لاطم مابين بيت أم كلابْ الذى فى خط بنى رزيق الشارع على المصلى إلى دار مدراقيس الطبيب إلى دار عمرو بن عبدالرحمن بن عوف ودار عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ودار هشام ابن العاص المخزومى .

قلت : ودار مدراقيس الطبيب لها ذكر فى دور بنى محارب بن فهر .

قال ابن شبة : واتخذ مَعْمَر بن عبد الله بن عامر داراً فى بنى زُرَيق بين الدار التى يقال لهـا دار مدراقيس الطبيب ودار أم حسان التى صارت لعمر بن ابن عبد العزيز العمرى ، وهذه الأماكن فى قبلة ماتقدم ممـا يلى الدور التى فى قبلة البلاط فى الميمنة وما حولها ، ولعـل دار أم حسان المذكورة هى الموضع المعروف اليوم بدار حسان فى قبلة الدور التى بالبلاط المُوَالية لدرب سـويقة ، والله أعلم .

منازل جهينة وبلى

منازل جهينة و بلى — ونزل جهينة بن زيد بن السود بن الحارث بن قضاعة و بلى بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة مابين خط أسلم الذى بين أسلم وجهينة ، إلى دار حرام بن عثمان السلمى الأنصارى التى فى بنى سلمة إلى الجبل الذى يقال له جبل جهينة إلى يمانى ثنية عثعث التى عليها دار ابن أبى حكيم الطيب .

قلت : ذكرُ دار حرام بن عثمان فى بنى سلمة يرجح أن المراد بجبل جهينة أحَدُ الجبلين اللذين فى غربى مساجد الفتح ، وهناك منازل بنى حرام من بنى سلمة ، وقد تقدم بيان ثنية عثعث ، وأنها منسوبة إلى الجبل الذى عليه حصن أمير المدينة اليوم ، والله أعلم .

منازل قيس ابن عيلان

منازل قيس بن عَيْلان — نزلت أشْجَع بن رَيْث بن غَطَفان بن سعد بن قيس الشعبَ الذى يقال له شعب أشجع ، وهو مابين سائلة أشجع إلى ثنية الوداع إلى جوف شعب سَلْع ، وخرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر فنثره لهم ، واتخذت أشجع فى محلتها مسجدا .

قلت : وما ذكره منطبق إما على شعب سلع الذى فى شرقيه ، فتكون منازلهم بين خط أسلم الذى فى شامى ثنية عثعث و بين جبل سلع وهكذا إلى ثنية الوداع ، و إما على شعب سلع الذى فى شاميه ، وقال عروة بن الزبير : قدمت أشْجَع فى سبعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة فنزلوا شعبهم ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر ، فقال : يامعشر أشجع ، ماجاء بكم ؟ قالوا : يارسول الله جئناك اقرب ديارنا منك ، وكرهنا حَرْبك ، وكرهنا حرب قومنا لقلتنا فيهم ؛ فأنزل الله تعالى (أوْجَاؤكم حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم — إلى قوله تعالى : سبيلا) .

ونقل ابن شبة فى تأديب عمر بن الخطاب الرعية فى أمر دينهم أن رجلا من أشجع يقال له بقيلة كان غازيا ، فبلغه أن جَعْدَة بن عبد الله السلمى يحدث

النساء ، وأن جوارى يَخرُجْنَ إلى سَلْع فيحدثهن ، ثم يعقل الجارية ويقول : قومِى فى العقال فإنه لا يصبر على العقال إلا حَصَان ، فتقوم ساعة ثم تسقط ، فربما تكشفت ، فكتب الأشجعى إلى عمر :

ألا أبلغ أبا حَفْصٍ رسولا ... فِدًى لكَ مِنْ أخى ثقة إزارى
فما قُلُصٌ تَقُمْنَ مُعَقَّلاتٍ ... قَفَا سَلْعٍ لمختلف النِّجَار
قلائصُ من بنى سَعْد بن بَكْرٍ ... أوَ اسْلَمَ أو جُهَيْنَةَ أو غفارِ
يُعَقِّلُهُنَّ جَعْدَةُ من سُلَيم ... معيدا يبتغى سَقَط العَذَارِى
قلائصنا هَداكَ الله إنا ... شُغِلْنَا عنهمُ زَمَنَ الحصَارِ
يُعقِّلهن أبيَضُ شَيْظَمِىٌّ ... فبئس مُعَقِّلُ الذود الطَّوَارِى

فدعا عمر بجَعْدَة فقال : أنت لعمرى كما وصف أبيض شيظمى ، وسأله فأقرّ فضربه مائة مَعْقولا ، وغرّبه إلى الشام ، فكُلِّم فيه ، فأذن له على أن لا يدخل المدينة ، ثم أذن له أن يجمع ، ثم أذن له أن يدخل فى الجمعة مرتين .

وقال ابن إسحاق : الذى كتب بالشعر رجل من هَوَازن يدعى خَيْثَمة .

منازل بنى جشم

ونزلت بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس محلّتها التى يقال لها بنو جُشَم ، وهى ما بين الزقاق الذى يقال له زقاق سفين إلى الأساس الذى يقال له أساس إسماعيل بن الوليد إلى خَوْخَة الأعراب إلى دور ذكوان مولى مروان بن الحكم .

قلت : ولم أعرف شيئاً مما ذكره ، غير أنه ذكر فى دور بنى جُمَح أن محمد بن حاطب اتخذ الدار التى تُدْعى دار قُدَامة فى بنى زريق شرقيها الدار التى يقال لها دار الأعراب ، فلعل خوخة الأعراب وما ذكر معها فى تلك الجهة ، والله أعلم .

ونزلت بنو مالك بن حماد وبنو زنيم وبنو سكين من فَزَارة بن ذبيان بن

بَغيض بن ذئب بن غطفان المحلّةَ التى يقال لها بنو فزارة ، وهى إلى حمام الصعبة إلى سوق الحطابين الذى بالجَبَّانة ، ولم ينزلها أحد من بنى عدى بن فزارة .

قلت : والذى علمنا جهته من ذلك سوق الحطابين بالجبانة قرب مسجد الراية وثنية الوَدَاع كما سيأتى فى ترجمة الجبانة ، والله أعلم .

منازل بنى كعب ابن عمرو وإخوتهم

منازل بنى كعب بن عمرو ، وإخوتهم من بنى المُصْطَلَق .

نزل بنو كعب بن عمرو بن عدى بن عامر ما بين يمانى بنى ليث بن بكر إلى دار شريح العَدَوى إلى موضع التمارين بالسوق إلى زقاق الجلادين الشارع على المصلى يمنةً ويسرةً إلى بطحان إلى زقاق كدام ، وكدام : سقاط كان هناك ، إلى دار ابن أبى سليم الشارعة على شامى المصلى .

ونزلت بنو المصطلق بن سعد بن عمرو وأخوه كعب بن عمرو رَهْط جُوَيْرِية بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ظاهرةَ حَرَّة بنى عضدة إلى أدنى دار عمر بن عبد العزيز إلى الدار التى يقال لها دار الخرازين .

قلت : وذلك بالحرة الغربية .

سعة المدينة فى عهد النبى

ومن تأمل ما ذكر فى دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم — مع ما سبق فى منازل الأنصار — رأى أمراً عظيما فيما كان من عمارة المدينة وسَعَتها ، واتصال بعضها ببعض ، وآثار ما كان من العمارة شاهد بذلك اليوم ، واسمُ المدينة صادق على ذلك كله ، وسيأتى فى ترجمة قباء أنها كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة الشريفة ، أى بما بينها من النخيل ، ولهذا لم تكن الجمعة تقام بغير المسجد النبوى ، ولو كانت قباء وغيرها من القرى المنفصلة اليوم منفصلة فى زمنه صلى الله عليه وسلم وبها تلك القبائل من الناس لوجَبَ إقامة الجمعة فى كل قرية بها أربعون كما تقرر فى موضعه ، فقد كانت كلها فى حكم البلد الواحد ، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

اتخاذ سور المدينة

ولما طرَق المدينة الشريفة الخرابُ فى أطرافها جعلوا لها سوراً ، قال المجد الفيروزبادى : سور المدينة الشريفة بَنَاه أولا عضدُ الدولة بن بُوَيْه بعد الستين وثلاثمائة فى خلافة الطائع لله بن المطيع لله ، ثم تهدم على طول الزمان وتخرب لخراب المدينة ، ولم يبق إلا آثاره ورَسْمُه .

وقال المطرى فى الكلام على مسجد جهينة : إن ناحية جُهَينة معروفة غربى حصن صاحب المدينة والسور القديم ، بينها وبين جبل سَلْع ، وعندها أثرُ باب للمدينة معروف بدرب جهينة إلى تاريخ كتابه ، وهو سنة ست وستين وسبعمائة .

قلت : قد قدَّمْنا ما يخالف ما ذكره فى ناحية جهينة ؛ لأنا وإن لم نَرَ البابَ الذى أشار إليه ، لكن رأينا آثار السور القديم قبلى جبل سَلْع ، وقرب الحصن المذكور . ويظهر من حاله أن غالب منازل جُهَينة وغيرها من المنازل المتقدمة كانت فى جوفه ، وأنه كان فى جهة المغرب على شَفير بطحان بالعُدْوة الشرقية ؛ لأن الأقشهرى نقل فى روضته عن صاحب سور الأقاليم أنه قال : المدينةُ أقلُّ من نصف مكة ، وهى فى حَرَّة سَبِخة الأرض ، وبها نخلٌ كثير ، ومياه نخيلهم وزرعهم من الآبار يسقى منها العبيد ، وعليها سور ، والمسجد فى نحو من وسطها . ثم ذكر صفة المسجد والقبر الشريف ، ثم قال : ومُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يصلى فيه الأعياد من غربى المدينة داخل الباب ، انتهى . فكون المُصَلى داخل الباب شاهدٌ لما ذكرنا ، وقد صرح بنحوه الإمام أبو عبد الله الأسدى فإنه ذكرَ المساجد الخارجة عن المدينة ، ثم ذكر المساجد التى بالمدينة فقال : وداخل المدينة مُصَلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وقال المطرى بعد ذكره لما تقدم من باب هذا السور القديم : ونقل ابنُ خلكان أن سور هذا الباب القديم بناه عَضُد الدولة بن بُوَيه بعد الستين وثلاثمائة من الهجرة فى أيام الطائع لله ابن المطيع ، ثم تهدم على طول الزمان وخرب لخراب

سورآل زنكى

المدينة ، ولم يبق إلا آثاره حتى جدَّد لها جمالُ الدين محمد بن أبى منصور ـ يعنى الجواد الأصبهانى وزير بنى زنكى ـ سوراً محكما حول المسجد الشريف على رأس الأربعين وخمسمائة من الهجرة ، ثم كثر الناس من خارج السور ، ووصل السلطان الملكُ العادل نور الدين محمود بن زَنكى فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة إلى المدينة الشريفة بسبب رؤيا رآها ، وذكر ما قدمناه عنه فى خاتمة الفصل التاسع والعشرين .

ثم قال : إنه لما ركب متوجِّهاً إلى الشام صاح به مَنْ كان نازلا حول السور واستغاثوا وطلبوا أن يبنى عليهم سورا يحفظ أبناءهم وماشيتهم ، فأمر ببناء هذا السور الموجود اليوم ، فَبَنَى فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكتب اسمه على باب البقيع ؛ فهو باقٍ إلى تاريخ هذا الكتاب .

قلت : وهو باقٍ على باب البقيع إلى أن كتبنا كتابنا هـذا ، وصورته فى صفحات الحديد المصفح بها الباب : هذا ما أمَرَ بعمله العبدُ الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكى بن أقسنقر ، غفر الله له ، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وهذا لايدل على أنه أنشأ السور .

وعبارة البدر بن فرحون عند ذكره لمحاسن نور الدين الشهيد رحمه الله ما لفظه : و بنى أيضاً سورَ بعلبكَّ ، وكمل بناء سور المدينة ، وهو سورُها الموجود اليوم ، واسمُه مكتوب على باب البقيع ، وأما السور الذى داخل المدينة فإنما أحدثه الوزير جمالُ الدين محمد بن أبى منصور ، وكان وزيراً لوالِدِ الملكِ العادل يعنى زنكى ثم استوزره بعد زنكى ولدُه غازى بن زنكى يعنى أخا الملك العادل ؛ فهذا يقتضى أن الملك العادل إنما كمل بناء السور الموجود اليوم فقط ، و يبعده ما ذكره من بناء الجَوَاد لسوره ؛ فإنه لو كان السورُ المذكور موجوداً لكان هو أكمله ولم ينشىء سورا غيره ، ومدة بناء السورين المذكورين متقاربة كما يعلم مما قدمناه .

من مآثر الجواد الأصفهانى

وقال المجد : إن الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن أبى شامة قال فى كتابه ما صورته : ومن أعظم الأعمال التى عملها نفعا – يعنى وزير الموصل جمال الدين الجواد – أنه بنى سوراً على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب ، وكان أهلها فى ضَنْك وضرّ معهم .

قال ابن الأثير : رأيت بالمدينة إنسانا يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحّم على جمال الدين ودَعَا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل مسلم بالمدينة أن يدعُوَ له ؛ لأننا كنا فى ضر وضيق ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جَوْعته ، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا ، فكيف لا ندعو له ؟ قال عقبه : قلت : وهذا السور الذى بناه جمال الدين هو السور الثانى ، والسور الذى بناه الملك العادل نور الدين هو السور الثالث ، أى بحسب الزمان ، وعلى كل منهما اسمُ بانيه على الأبواب ، وأما السور الأول الذى بَنَاه عضد الدولة فلم يبق منه أثر يعرف به مكانه ، انتهى . هكذا نقلته من تاريخ المجد . وبقوله انتهى ظهر أن قوله قلت إلى آخره من كلام ابن أبى شامة ، ويحتمل أن يكون من كلام ابن الأثير .

وقال المجد عقبه : قال : وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته « اللهم صُنْ حريمَ مَنْ صان حَرَم نبيك بالسور محمد بن على بن أبى منصور » فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخرا ، فكيف وقد أصابت صدقَتُه تخومَ الأرض شرقاً وغربا وبرا وبحرا ؟ .

وأما شدّةُ عنايته بأهل المدينة فكانت عظيمة ، قال ابن الأثير : حكى لى بعضُ الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النشاى شيخ شيوخ الموصل قال : أحضرنى الشيخُ فقال لى : انْطَلِقْ إلى مسجد الوزير بظاهر الموصل واقْعُدْ هناك ، فإذا أتاك شىء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، فإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافى والخام ، وإذا نائب جمال الدين قد جاء

مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال ، فقال لى : تأخذ هذه وتسير إلى الرحبة وتوصل هـذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا حضر لك فلان العربى فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربى توصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فتوصل إلى وكيلى فلان هذه الأحمال ، وهـذه الكسوات والمال الذى عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقى الذى عليه اسم مكة فتسير إليها فيتصدق به وكيلى بموجب الجريدة الأخرى ، فسِرْنا بذلك إلى وادى القرى ، فرأينا هناك جمالا كثيرة تحمل الطعام إلى المدينة ، وقد منعهم خوفُ الطريق ، فلما رأونا سارُوا معنا إليها فوصَلْناها والحِنْطة بها كل صاعين بدينار مصرى ، والصاع — أى فى ذلك الزمان — خمسة عشر رطلا بالبغدادى ، فلما رأوا المالَ والطعام اشتروا كل سبعة آصع بدينار ، فانقلبت المدينة بالدعاء له .

قلت : وقد قدمنا كيفية نقله إلى المدينة الشريفة بعد موته ودفنه بتربته التى برباطه المجاور للمسجد الشريف عند ذكر باب عثمان وهو باب جبريل لمقابلته له ، وتقدم ذكره أيضاً فى ترخيم الحجرة الشريفة .

ومن أعماله الحسنة تجديد مسجد الخيف ، وإجراء عين عرفة ، وبناء جدار الحجرة وترخيمه ، وتجديد باب الكعبة ، وكان النعش الذى حُمل فيه هو باب الكعبة القديم ، وفيه يقول أبو المجد بن قسيم :

أغَرُّ تُبصِرُ منه الناسَ فى رَجُلٍ ... وَاللَّيْثَ فى بَشَرٍ ، والبَدْرَ فى غُصُنِ
سَمَــا بهمته فى المكرمات إلى ... عَلْياء تَقْصُر عنها هِمَّةُ الزَّمَنِ

إلى أن قال فيه :

صان المدينةَ تَسْوِيرا وصَوَّرَها ... فى الْحُسْنِ غادةَ مُلْكِ الشام وَالْيَمَنِ

وصان بالمال أهْلِيهَا فمـــا بَقِيَتْ　　　هزلاء إلاّ تَشَـكّتْ كثرة السِّمَنِ

ولسور المدينة اليوم أربعة أبواب غير باب حصن أمير المدينة المعروف بباب السر، وهو باب عظيم كله من الحديد.

أبواب السور

وأما الأبواب الأربعة :

فأحدها : الباب الذى غربى المدينة فى جهة المصلى عند منزلة الحاج المصرى، ويعرف بدرب المصلى، ودرب سويقة، وذَرْعُ ما بينه و بين عتبة باب السلام ستمائة ذراع وخمسة وأربعون ذراعا، وكان عليه باب مُتْقَن أحْرَقَه بعضُ صبيان الأمير ضغيم سنة عزله، فأخذ أمير المدينة باب الحوش الذى عمره الأمير ضغيم وجعله عليــه، ثم عُمِلَ له باب مُتْقن كالأول فى عمارة المسجد المتجددة بعد الحريق الثانى.

ثانيها : الباب الذى فى جهة المغرب أيضاً عند رحبة حصن أمير المدينة يعرف بالدرب الصغير.

ثالثها : الباب المعروف بالدرب الـكبير، و بالدرب الشامى.

رابعها : الباب المعروف بدرب البقيع فى شرقى المدينة، و يعرف بدرب الجمعة، وعليه باب متقن مغشًّى بصفائح الحديد، والظاهر أنه باقٍ من زمن نور الدين الشهيد لما قدمناه من الـكتابة عليه.

وذَرْع ما بينه و بين عتبة باب المسجد المعروف بباب جبريل أربعمائة ذراع وثلاثة وثلاثون ذراعا.

وفى قبلة سور المدينة موضعُ بابٍ مسدود اليوم، وكان يعرف بدرب السوارقية ولم يزل الملوك يهتمون بعمارة سور المدينة، و يصلحون ما وَهَى منه.

وقد ذكر الزين المراغى أنه جُدِّد فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة فى أيام الملك الصالح صالح أحد أولاد الناصر محمد بن قلاوون.

وذكر البدر ابن فرحون أن الأمير سعد بن ثابت بن حماد ابتدأ فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة عملَ الخَنْدَقِ الذى حَوْلَ السور المذكور ، ومات ولم يكمله ، وأكمله الأمير فَضْل بن قاسم بن حماد فى ولايته بعده ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

تم ـ بحمد الله تعالى وحوله ـ الجزء الثانى من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » صلى الله عليه وسلم . ويليه ـ إن شاء الله ـ الجزء الثالث ، وأوله « الباب الخامس ، فى مُصَلّى النبى صلى الله عليه وسلم فى الأعياد » نسأله ـ جلَّت قدرته ـ أن يُعين على إكماله ، بمنه وفضله وتيسيره ، إنه لا ييسر إلى الخير سواه .

فهرس الموضوعات الوارة فى الجزء الثانى

من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى »

لنور الدين على بن أحمد السمهودى ، المصرى ، المدنى

ص	الموضوع
٣٨٧	فاتحة الجزء الثانى
٣٨٨	الجزء الفصل الرابع فى خبر الجذع الذى كان النبى يخطب إليه
—	الروايات الواردة فى حنين الجذع
٣٩١	صانع المنبر
٣٩٣	موضع الجذع
٣٩٤	شهرة حديث حنين الجذع
—	الموضع الذى دفن فيه الجذع
٣٩٥	بدعة أحدثها الناس بسبب الجذع
—	عود إلى الاختلاف فى صانع المنبر
٣٩٨	أراد معاوية نقل منبر النبى إلى الشام
٣٩٩	رفع المنبر ست درجات
٤٠٠	عدد درجات المنبر
٤٠١	مساحة المنبر ، ووصفه ، ومآله
٤١٢	كسوة المنبر
٤١٣	الفصل الخامس ، فى فضائل المسجد النبوى
—	المسجد الذى أسس على التقوى
٤١٥	فضل مسجد رسول الله
٤١٦	فضل الصلاة فى المسجد النبوى
٤٢١	هل فضل الصلاة فى المساجد الثلاثة خاص بالفرض ؟

ص	الموضوع
٤٢٢	مرجع مضاعفة فضل الصلاة
٤٢٣	هل يختص تضعيف الأجر بالصلاة ؟
٤٢٦	الفصل السادس ، فى فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة
—	ما ورد من الأحاديث فى ذلك
٤٢٩	معنى كون المنبر على الحوض
—	معنى كون الروضة من رياض الجنة
٤٣٤	خلاصة الأقوال فى تحديد الروضة
٤٣٩	الفصل السابع ، فى أساطين المسجد
—	الأسطوان المخلق الذى هو علم على مصلى الرسول (ص)
٤٤٠	أسطوان القرعة
٤٤٢	أسطوان التوبة
٤٤٧	أسطوان السرير
٤٤٨	أسطوان المحرس
٤٤٩	أسطوان الوفود
٤٥٠	أسطوان مربعة القبر
—	أسطوان التهجد

ص	الموضوع
٤٥٣	الفصل الثامن ، فى الصفة وأهلها ، وتعليق الأقناء لهم
—	معنى الصفة ، وتحديد موضعها
٤٥٤	أهل الصفة
٤٥٧	مبدأ تعليق الأقناء
٤٥٨	الفصل التاسع ، فى الحجرة الشريفة ، وبيان إحاطتها بالمسجد إلا من جهة الغرب
٤٦٣	المشربة التى اعتزل الرسول فيها لما آلى من نسائه شهرا
٤٦٦	الفصل العاشر ، فى حجرة فاطمة
٤٧١	الفصل الحادى عشر ، فى الأمر بسد الأبواب الشارعة فى المسجد
٤٨١	الفصل الثانى عشر ، فى زيادة عمر بن الخطاب فى المسجد النبوى
٤٨٢	بين عمر بن الخطاب والعباس بن عبد المطلب وقد طلب عمر دار العباس ليدخلها فى المسجد
٤٩٣	الفصل الثالث عشر ، فى البطيحاء التى بناها عمر بناحية المسجد ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه
٥٠٠	الفصل الرابع عشر ، فى زيادة عثمان ابن عفان فى المسجد النبوى
٥١٠	الفصل الخامس عشر ، فى ذكر المقصورة التى اتخذها عثمان فى المسجد ، وما آل أمرها إليه
٥١٣	الفصل السادس عشر ، فى زيادة الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز
٥٢٥	الفصل السابع عشر ، فيما اتخذه عمر ابن عبد العزيز من المحراب والشرفات والمنائر ، واتخاذ الحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه
—	أول من أحدث المحراب والشرفات
٥٢٦	شرفات المسجد ، ووصفها
—	المنارات التى عملها عمر بن عبد العزيز
٥٣٠	عثمان أول من خلق المسجد ورزق المؤذنين
٥٣١	اتخاذ حرس للمسجد
٥٣٢	الصلاة على الجنائز فى المساجد
٥٣٥	الفصل الثامن عشر ، فى زيادة المهدى العباسى التى زادها فى المسجد النبوى
٥٤٠	الفصل التاسع عشر ، فيما كانت عليه الحجرة الشريفة الحاوية للقبور المنيفة أول الأمر
٥٤١	أول من بنى جدارا على بيت عائشة
٥٤٣	الفصل العشرون فيما حدث من عمارة الحجرة والحائز الذى أدير عليها
٥٥٠	الفصل الحادى والعشرون ، فيما روى من الاختلاف فى صفة القبور الشريفة بالحجرة ، وموضع كل منها ، ورسم كل صفة منها
٥٥٧	بقى فى الحجرة موضع قبر رابع
٥٥٩	الملائكة يحفون بالقبر
—	لا ينبغى رفع الصوت فى المسجد
٥٦٠	سنة أهل المدينة فى أعوام الجدب
—	الفصل الثانى والعشرون ، فيما ذكروه من صفة الحجرة الشريفة والحائز المخمس الدار عليها ، وبيان ما شاهده المؤلف

ص	الموضوع
٥٦٩	الفصل الثالث والعشرون ، فى عمارة اتفقت بالحجرة وما وقع من الدخول إليها عند الحاجة وتأزيرها بالرخام
٥٧٤	الفصل الرابع والعشرون ، فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الشريف ومسمار الفضة الذى يواجه الوجه الشريف ، ومقام جبريل من الحجرة الشريفة ، وكسوتها ، وتخليقها
٥٨١	كسوة الحجرة النبوية ، ومبدأ أمرها ووصفها
٥٨٤	الفصل الخامس والعشرون ، فى قناديل الفضة التى تعلق حول الحجرة وغيرها من معاليقها
٥٩١	حكم معاليق المسجد النبوى
٥٩٨	الفصل السادس والعشرون ، فى الحريق الأول المستولى على تلك الزخارف المحدثة بالحجرة الشريفة والمسجد وسقفهما ، وما أعيد منها
٥٩٨	سبب الحريق وتاريخه
٥٩٩	حكمة الله فى ذلك الحريق
٦٠١	الشروع فى العمارة بعد الحريق
٦٠٨	الفصل السابع والعشرون فى اتخاذ القبة الزرقاء على ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة بأعلى المسجد
—	ابتداء اتخاذ القبة الزرقاء
٦١١	المقصورة الدائرة حول الحجرة
٦١٧	الفصل الثامن والعشرون ، فيما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة فى زمان المؤلف ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول ومشاهدة وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة فى هذه العمارة
٦٤٨	خاتمة فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد لخندق حول الحجرة الشريفة مملوء بالرصاص ، وسبب ذلك ، وما ناسبه
٦٥٥	الفصل الثلاثون ، فى تحصيب المسجد الشريف ، وذكر البزاق فيه ، وتخليقه ، وإجماره ، وذكر شىء من أحكامه
٦٥٩	مبدأ تخليق المسجد
٦٦٢	تخليق القبر
—	الأمر بتجمير المساجد
٦٦٣	فرش المسجد
٦٦٧	الحدث فى المسجد
—	القراءة فى المصحف بالمسجد
٦٦٨	بعث المصاحف إلى المساجد
٦٧٠	مصاحف عثمان التى أرسلها إلى الآفاق
—	تعليق المصابيح فى المسجد
٦٧١	الفصل الحادى والثلاثون ، فيما احتوى عليه المسجد من الأروقة والأساطين والبالوعات والسقايات
—	وصف عام
٦٧٢	وصف جدران المسجد
٦٧٣	عدد أساطين المسجد
٦٧٧	عدد بالوعات المسجد
٦٧٨	سقايات المسجد
٦٨٠	حواصل المسجد
٦٨١	عدد قناديل المسجد

ص	الموضوع
٦٨٢	كان فى صحن المسجد نخيل مغروسة
٦٨٣	أئمة المسجد وأرزاقهم
—	عرض جدر المسجد
٦٨٦	الفصل الثانى والثلاثون ، فى أبواب المسجد وما سد منها وما بقى وما يحاذيها من الدور قديما وحديثا
—	عدد أبواب المسجد وذكرها بابا بابا
٧٠٦	الفصل الثالث والعشرون ، فى خوخة آل عمر رضى الله عنه
—	تحديد موضع هذه الخوخة
٧٠٨	اتخاذ بعض الناس بابا وسيلة للتدجيل وما آل إليه أمر هذا الباب
٧١٠	حج السلطان قايتباى وزيارته
٧١٤	وقف السلطان قايتباى لأهل المدينة
٧١٦	بعض آثار قايتباى بالحرمين الشريفين
٧١٧	الفصل الرابع والثلاثون ، فيما كان مطيفا بالمسجد الشريف من الدور ، وما كان من خبرها ، وجل ذلك من منازل المهاجرين
—	تخطيط الرسول لدور المدينة
٧١٨	دار آل عمر بن الخطاب
٧١٩	بيت لأبى بكر الصديق صار لآل عمر
٧٢٠	دار مروان بن الحكم
٧٢٢	دار رباح ودار المقداد ودار مطيع
٧٢٣	دار حكيم بن حزام
٧٢٤	دار عبد الله بن مكمل
٧٢٥	دار النحام العدوى ، ودار جعفر ابن يحيى
٧٢٦	دار نصير ، ودار منيرة مولاة أم موسى
٧٢٧	حش طلحة ، وأبيات خالصة
٧٢٨	دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف
٧٢٩	دار موسى المخزومى ، وأبيات الصوافى
٧٣٠	دار خالد بن الوليد
٧٣١	دار أسماء بنت حسين ، ودار ريطة
٧٣٢	دار عثمان بن عفان ، ودار أبى أيوب
٧٣٣	دار جعفر الصادق ، ودار حسن بن زيد ، ودار فرج الخصى
٧٣٤	دار عامر بن عبيد الله بن الزبير بن العوام
—	الفصل الخامس والثلاثون ، فى البلاط ، وبيان ما كان حوله من منازل المهاجرين
—	تحديد مكان البلاط
٧٣٦	حدود البلاط
٧٤٠	بيان الدور المحيطة بالبلاط
٧٤٧	الفصل السادس والثلاثون ، فيما جاء فى سوق المدينة الذى تصدق به النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر

ص	الموضوع
	دار هشام بن عبد الملك التى أخذ بها السوق
—	النبى صلى الله عليه وسلم ينشىء السوق
—	أسواق المدينة فى الجاهلية
٧٥٣	هدم الدار التى وضعت مكان السوق
—	بيت أم كلاب
٧٥٤	البطحاء ، وبقيع الخيل
٧٥٥	بركة السوق
٨٥٧	الفصل السابع والثلاثون ، فى منازل القبائل من المهاجرين ، ثم اتخاذ السور على المدينة
٧٦٨	من مآثر الجواد الأصفهانى اتخاذ سور المدينة

وقد تمت فهرست الجزء الثانى من كتاب « وفاء الوفا » والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد خير خلق الله وأكرمهم عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين ؟

VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI SVB NVMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY